مختصر الميزان

في تفسير القرآن

الياس كلانتري

المجلد السادس

ايران

مختصر الميزان

في تفسير القرآن

مختصر الميزان

في تفسير القرآن

المجلد السادس

إلياس كلانتري

دار الأسوة للطباعة والنشر
ايران

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

طباطبایی، محمد حسین، ۱۲۴۱-۱۳۶۰.
[المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده]
مختصر المیزان فی تفسیر القرآن / [محمدحسین الطباطبایی]؛ تألیف الیاس کلانتری. ـ تهران: سازمان اوقاف و امور خیریه، انتشارات أسوه، ۱۳۷۹.
۶ ج.
ISBN 964-6066-02-x (دوره)
ISBN 964-6066-03-8 (ج. ۱) ISBN 964-6066-04-6 (ج. ۲)
ISBN 964-6066-05-4 (ج. ۳) ISBN 964-6066-06-2 (ج. ۴)
ISBN 964-6066-07-0 (ج. ۵) ISBN 964-6066-08-9 (ج. ۶)
فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
عربی.
تفاسیر شیعه ـ قرن ۱۴. الف. کلانتری، الیاس، ۱۳۳۰ ـ، خلاصه کننده. ب. سازمان اوقاف و امور خیریه. انتشارات أسوه. ج. عنوان. د. عنوان: المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده.
BP۹۸/ط۲۵م۹۰۱۶ ۲۹۷/۱۷۲۶
کتابخانه ملی ایران ۵۸۷۹-۷۹م

کتابخانه
تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی
ثبت: ۲۶۸۲۵
ثبت :

دار الأسوة للطباعة والنشر
ایران

مختصر الميزان في تفسير القرآن

إعداد: الياس كلانتري

الناشر: دار الأسوة للطباعة والنشر (التابعة لمنظمة الأوقاف والشؤون الخيرية)

الطبعة: الأولى

سنة النشر: ١٤٢١ هـ.ق.

عدد المطبوع: ٥٠٠٠ دورة

ثمن الدورة: ١٥٠,٠٠٠ ريال

شابک ج۶: 9-08-6066-964 ISBN | شابک دوره: 964-6066-02-x ISBN

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طهران: ص.ب. ٦٨٤/١٣١٤٥، هاتف ٦٤١٨٢٩٩ و٦٤١٨٠٩٩، فكس ٦٤١٨٠٢٢
ص.ب. ٣٩٩٩/٣٧١٨٥، هاتف ٥٥٠٨٠ و٥٢٢١٢، فكس ٦١٧٧٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجرات مدنية وهي ثمان عشرة آية

بِسْمِ اللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ● يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَٱتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

٢ ● يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَرْفَعُوا أَصْوٰاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاٰ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمٰالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ.

٣ ● إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوٰاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّٰهِ أُولٰئِكَ الَّذِينَ ٱمْتَحَنَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ.

٤ ● إِنَّ الَّذِينَ يُنٰادُونَكَ مِنْ وَرٰاءِ ٱلْحُجُرٰاتِ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ.

٥ ● وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتّٰى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٦ ● يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جٰاءَكُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا

قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ.

٧ ❁ وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّٰهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُولٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ.

٨ ❁ فَضْلاً مِنَ اللّٰهِ وَنِعْمَةً وَاللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

٩ ❁ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَيٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللّٰهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُو إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ.

١٠ ❁ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

بيان:

تتضمن السورة مسائل من شرائع الدين بها تتم الحياة السعيدة للفرد ويستقرّ النظام الصالح الطيب في المجتمع منها ما هو أدب جميل للعبد مع الله سبحانه ومع رسوله كما في الآيات الخمس في مفتتح السورة. ومنها ما يتعلق بالإنسان مع أمثاله من حيث وقوعهم في المجتمع الحيوي. ومنها ما يتعلق بتفاضل الأفراد وهو من أهم ما ينتظم به الاجتماع المدني ويهدي الإنسان الى الحياة السعيدة والعيش الطيب الهنيىء ويتميز به دين الحق من غيره من السنن الاجتماعية القانونية وغيرها وتختتم السورة بالإشارة الى حقيقة الايمان والإسلام وامتنانه

تعالى بما يفيضه من نور الايمان.

والسورة مدنية بشهادة مضامين آياتها سوى ما قيل في قوله تعالى: « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » الآية ؛ وسيجيء.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بين يدي الشيء أمامه وهو استعمال شائع مجازي أو استعاري وإضافته الى الله ورسوله معاً لا الى الرسول دليل على أنه أمر مشترك بينه تعالى وبين رسوله وهو مقام الحكم الذي يختص بالله سبحانه وبرسوله بإذنه كما قال تعالى: ﴿إن الحكم إلا لله﴾ (يوسف / ٤٠)، وقال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ (النساء / ٦٤).

ومن الشاهد على ذلك تصدير النهي بقوله: « يا أيها الذين آمنوا » وتذييله بقوله: « واتقوا الله إن الله سميع عليم » الظاهر في أن المراد بما بين يدي الله ورسوله هو المقام الذي يربط المؤمنين المتقين بالله ورسوله وهو مقام الحكم الذي يأخذون منه أحكامهم الاعتقادية والعملية.

والظاهر أن تفسير « لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » بالنهي عن التقديم بين يدي رسول الله ﷺ فقط في هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة مبني على حملهم ذكر الله تعالى مع رسوله في الآية على نوع من التشريف كقوله: أعجبني زيد وكرمه فيكون ذكره تعالى للإشارة الى أن السبقة على النبي ﷺ على أي حال في معنى السبقة على الله سبحانه.

ولعل التأمل فيما قدَّمناه من الوجه يكفيك في المنع عن المصير الى شيء من هذه الوجوه.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أمر بالتقوى في موقف الاتباع والعبودية ولا ظرف للانسان إلا ظرف العبودية ولذلك أطلق التقوى.

وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل للنهي والتقوى فيه أي اتقوه بالانتهاء عن هذا النهي فلا تقدموا قولاً بلسانكم ولا في سركم لأن الله سميع يسمع أقوالكم عليم يعلم

ظاهركم وباطنكم وعلانتيكم وسركم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الخ؛ وذلك بأن تكون أصواتهم عند مخاطبته وتكليمه ﷺ أرفع من صوته وأجهر لأن في ذلك كما قيل أحد شيئين: إما نوع استخفاف به وهو الكفر، وإما إساءة الأدب بالنسبة الى مقامه وهو خلاف التعظيم والتوقير المأمور به.

وقوله: ﴿وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ فإن من التعظيم عند التخاطب أن يكون صوت المتكلم أخفض من صوت مخاطبه فطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنى التعظيم فخطاب العظماء بالجهر فيه كخطاب عامة الناس لا يخلو من إساءة الأدب والوقاحة.

وقوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ أي لئلا تحبط أو كراهة أن تحبط أعمالكم، وهو متعلق بالنهيين جميعاً أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض لئلا تبطل أعمالكم بذلك من حيث لا تشعرون فإن فيهما الحبط، وقد تقدم القول في الحبط في الجزء الثاني من الكتاب.

وجوّز بعضهم كون «أن تحبط» الخ؛ تعليلاً للمنهي عنه وهو الرفع والجهر، والمعنى: فعلكم ذلك لأجل الحبوط منهي عنه، والفرق بين تعليله للنهي وتعليله للمنهي عنه أن الفعل المنهي عنه معلّل على الأول والفعل المعلّل منهي عنه على الثاني، وفيه تكلف ظاهر.

وظاهر الآية أن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول معصيتان موجبتان للحبط فيكون من المعاصي غير الكفر ما يوجب الحبط[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّٰهِ أُولٰئِكَ الَّذِينَ

---

١. الحجرات ١ ـ ١٠: بحث في حبط الاعمال.

ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ الخ: غض الصوت خلاف رفعه، ومعنى الامتحان الإبتلاء والاختبار وإنما يكون لتحصيل العلم بحال الشيء المجهول قبل ذلك، وإذ يستحيل ذلك في حقه تعالى فالمراد به هنا التمرين والتعويد ـ كما قيل ـ أو حمل المحنة والمشقة على القلب ليعتاد بالتقوى.

والآية مسوقة للوعد الجميل على غض الصوت عند رسول الله ﷺ بعد توصيفهم بأن قلوبهم ممتحنة للتقوى والذي امتحنهم لذلك هو الله سبحانه، وفيه تأكيد وتقوية لمضمون الآية السابقة وتشويق للانتهاء بما فيها من النهي.

وفي التعبير عنه ﷺ في هذه الآية برسول الله بعد التعبير عنه في الآية السابقة بالنبي إشارة الى ملاك الحكم فإن الرسول بما هو رسول ليس له من الأمر شيء فما له فلمرسله، وتعظيمه وتوقيره تعظيم لمرسله وتوقير له فغض الصوت عند رسول الله تعظيم وتكبير لله سبحانه، والمداومة والاستمرار على ذلك ـ كما يستفاد من قوله: «يغضون» المفيد للاستمرار ـ كاشف عن تخلقهم بالتقوى وامتحانه تعالى قلوبهم للتقوى.

وقوله: ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وعد جميل لهم بإزاء ما في قلوبهم من تقوى الله، والعاقبة للتقوى.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ سياق الآية يؤدي أنه واقع وأنهم كانوا قوماً من الجفاة ينادونه ﷺ من وراء حجرات بيته من غير رعاية لمقتضى الأدب وواجب التعظيم والتوقير فذمهم الله سبحانه حيث وصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون كالبهائم من الحيوان.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي ولو أنهم صبروا عن ندائك فلم ينادوك حتى تخرج اليهم لكان خيراً لما فيه من حسن الأدب ورعاية التعظيم والتوقير لمقام الرسالة، وكان ذلك مقرباً لهم الى مغفرة

الله ورحمته لأنه غفور رحيم.

فقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كالناظر الى ما ذكر من الصبر ويمكن أن يكون ناظراً الى كون أكثرهم لا يعقلون والمعنى: أن ما صدر عنهم من الجهالة وسوء الأدب معفو عنه لأنه لم يكن عن تعقل وفهم منهم بل عن قصور في ذلك والله غفور رحيم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ الخ: الفاسق ـ كما قيل ـ الخارج عن الطاعة الى المعصية. والنبأ الخبر العظيم الشأن. والتبين والاستبانة والإبانة ـ على ما في الصحاح ـ بمعنى واحد وهي تتعدى ولا تتعدى فإذا تعدت كانت بمعنى الإيضاح والإظهار يقال: تبينت الأمر واستبنته وأبنته أي أوضحته وأظهرته. وإذا لزمت كانت بمعنى الاتضاح والظهور يقال: أبان الأمر واستبان وتبين أي اتضح وظهر.

ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بخبر ذي شأن فتبينوا خبره بالبحث والفحص للوقوف على حقيقته حذر أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصيروا نادمين على ما فعلتم بهم.

وقد أمضى الله سبحانه في هذه الآية أصل العمل بالخبر وهو من الاصول العقلائية التي يبتني عليه أساس الحياة الاجتماعية الإنسانية. وأمر بالتبين في خبر الفاسق وهو في معنى النهي عن العمل بخبره، وحقيقته الكشف عن عدم اعتبار حجيته وهذا أيضاً كالإمضاء لما بني عليه العقلاء من عدم حجية الخبر الذي لا يوثق بمن يخبر به وعدم ترتيب الأثر على خبره.

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ الخ: العنت الإثم والهلاك. والطوع والطاعة الانقياد لكن أكثر ما يقال الطاعة في الائتمار لما أُمر والارتسام لما رسم على ما ذكره الراغب لكن ربما يعكس الأمر فيسمى جري المتبوع على ما يريده التابع ويهواه طاعة من المتبوع للتابع ومنه قوله تعالى في الآية: «لو يطيعكم» حيث سمى عمل الرسول على ما يراه ويهواه المؤمنون طاعة منه لهم.

والآية على ما يفيده السياق من تتمة الكلام في الآية السابقة تعمم ما فيها من الحكم وتؤكد ما فيها من التعليل فمضمون الآية السابقة الحكم بوجوب التبين في خبر الفاسق وتعليله بوجوب التحرز عن بناء العمل على الجهالة، ومضمون هذه الآية تنبيه المؤمنين على أن الله سبحانه أوردهم شرع الرشد ولذلك حبّب اليهم الايمان وزيّنه في قلوبهم وكرّه اليهم الكفر والفسوق والعصيان فعليهم أن لا يغفلوا عن أن فيهم رسول الله وهو مؤيد من عند الله وعلى بيّنة من ربه لا يسلك إلا سبيل الرشد دون الغيّ فعليهم أن يطيعوا الرسول ﷺ فيما يأمرهم به ويريدوا ما أراده ويختاروا ما اختاره، ولا يصرُّوا على أن يطيعهم في آرائهم وأهوائهم فإنه لو يطيعهم في كثير من الأمر جهدوا وهلكوا.

فقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ عطف على قوله في الآية السابقة: «فتبيّنوا» وتقديم الخبر للدلالة على الحصر، والإشارة الى ما هو لازمه فإن اختصاصهم بكون رسول الله ﷺ فيهم لازمه أن يتعلقوا بالرشد ويتجنبوا الغيّ ويرجعوا الامور اليه ويطيعوه ويتبعوا أثره ولا يتعلقوا بما تستدعيه منهم أهواؤهم.

فالمعنى: ولا تنسوا أن فيكم رسول الله، وهو كناية عن أنه يجب عليهم أن يرجعوا الامور ويسيروا فيما يواجهونه من الحوادث على ما يراه ويأمر به من غير أن يتبعوا أهواء أنفسهم.

وقوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي جهدتم وهلكتم. والجملة كالجواب لسؤال مقدَّر كأن سائلاً يسأل فيقول: لماذا نرجع اليه ولا يرجع الينا ولا يوافقنا؟ فأجيب بأنه «لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم».

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ استدراك عما يدلّ عليه الجملة السابقة «لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم» من أنهم مشرفون بالطبع على الهلاك والغيّ فاستدرك أن الله سبحانه أصلح ذلك بما أنعم عليهم من تحبيب الإيمان وتكريه الكفر والفسوق والعصيان.

والمراد بتحبيب الايمان اليهم جعله محبوباً عندهم وبتزيينه في قلوبهم تحليته بجمال يجذب قلوبهم الى نفسه فيتعلقون به ويعرضون عما يلهيهم عنه.

وقوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ عطف على «حبّب» وتكريه الكفر وما يتبعه اليهم جعلها مكروهة عندهم تتنفر عنها نفوسهم، والفرق بين الفسوق والعصيان ـ على ما قيل ـ أن الفسوق هو الخروج عن الطاعة الى المعصية، والعصيان نفس المعصية وإن شئت فقل: جميع المعاصي، وقيل: المراد بالفسوق الكذب بقرينة الآية السابقة والعصيان سائر المعاصي.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ بيان أن حب الإيمان والانجذاب اليه وكراهة الكفر والفسوق والعصيان هو سبب الرشد الذي يطلبه الانسان بفطرته ويتنفر عن الغي الذي يقابله فعلى المؤمنين أن يلزموا الايمان ويتجنبوا الكفر والفسوق والعصيان حتى يرشدوا ويتبعوا الرسول ولا يتبعوا أهواءهم.

ولما كان حب الايمان والإنجذاب اليه وكراهة الكفر ونحوه صفة بعض من كان الرسول فيهم دون الجميع كما يصرّح به الآية السابقة. وقد وصف بذلك جماعتهم تحفظاً على وحدتهم وتشويقاً لمن لم يتصف بذلك منهم غير السياق والتفت عن خطابهم الى خطاب النبي ﷺ فقال: «أُولئك هم الراشدون» والإشارة الى من اتّصف بحب الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان، ليكون مدحاً للمتصفين بذلك وتشويقاً لغيرهم.

واعلم أن في قوله: «واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم» إشعاراً بأن قوماً من المؤمنين كانوا مصرين على قبول نبإ الفاسق الذي تشير اليه الآية السابقة، وهو الوليد بن عقبة أرسله النبي ﷺ الى بني المصطلق لأخذ زكواتهم فجاء اليهم فلما رآهم هابهم ورجع الى المدينة وأخبر النبي ﷺ أنهم ارتدوا فعزم النبي ﷺ على قتالهم فنزلت الآية فانصرف وفي القوم بعض من يصرّ على أن يغزوهم. وسيجيء القصة في

البحث الروائي التالي.

قوله تعالى: ﴿فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تعليل لما تقدم من فعله تعالى بالمؤمنين من تحبيب الايمان وتزيينه وتكريه الكفر والفسوق والعصيان أي إن ذلك منه تعالى مجرد عطية ونعمة لا الى بدل يصل اليه منهم لكن ليس فعلاً جزافياً فإنه تعالى عليهم بمورد عطيته ونعمته حكيم لا يفعل ما يفعل جزافاً كما قال: ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليم﴾ (الفتح / ٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ الى آخر الآية الاقتتال والتقاتل بمعنى واحد كالاستباق والتسابق. ورجوع ضمير الجمع في «اقتتلوا» الى الطائفتين باعتبار المعنى فإن كلاً من الطائفتين جماعة ومجموعهما جماعة كما أن رجوع ضمير التثنية اليهما باعتبار المعنى.

ونقل عن بعضهم في وجه التفرقة بين الضميرين: أنهم أولاً في حال القتال مختلطون فلذا جمع أولاً ضميرهم، وفي حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثنى الضمير.

وقوله: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ البغي الظلم والتعدي بغير حق، والفيء الرجوع. والمراد بأمر الله ما أمر به الله. والمعنى: فإن تعدت إحدى الطائفتين على الاخرى بغير حق فقاتلوا الطائفة المتعدية حتى ترجع الى ما أمر به الله وتنقاد لحكمه.

وقوله: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ أي فإن رجعت الطائفة المتعدية الى أمر الله فأصلحوا بينهما لكن لا إصلاحاً بوضع السلاح وترك القتال فحسب بل إصلاحاً متلبساً بالعدل بإجراء أحكام الله فيما تعدت به المتعدية من دم أو عرض أو مال أو أي حق آخر ضيعته.

وقوله: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الإقساط إعطاء كل ما يستحقه من

القسط والسهم وهو العدل فعطف قوله: «وأقسطوا» على قوله: «وأصلحوا بينهما بالعدل» من عطف المطلق على المقيّد للتأكيد. وقوله: «إن الله يحب المقسطين» تعليل يفيد تأكيداً على تأكيد كأنه قيل: أصلحوا بينهما بالعدل واعدلوا دائماً وفي جميع الامور لأن الله يحب العادلين لعدالتهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ استئناف مؤكد لما تقدم من الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين، وقصر النسبة بين المؤمنين في نسبة الاخوة مقدمة ممهدة لتعليل ما في قوله: «فأصلحوا بين أخويكم من حكم الصلح فيفيد أن الطائفتين المتقاتلتين لوجود الاخوة بينهما يجب أن يستقر بينهما الصلح، والمصلحون لكونهم إخوة للمتقاتلتين يجب أن يسعوا في إصلاح ما بينهما.

وقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ولم يقل: فأصلحوا بين الأخوين من أوجز الكلام وألطفه حيث يفيد أن المتقاتلتين بينهما اخوّة فمن الواجب أن يستقر بينهما الصلح وسائر المؤمنين إخوان للمتقاتلتين فيجب عليهم أن يسعوا في الإصلاح بينهما.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ موعظة للمتقاتلتين والمصلحين جميعاً[١].

١١ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاٰ نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاٰ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاٰ تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ ٱلاِسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ.

---

١. الحجرات ١ ـ ١٠: كلام في معنى الاخوة.

١٢ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ
إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ
يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ
رَحِيمٌ.

١٣ ● يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً
وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَيكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ.

١٤ ● قَالَتِ ٱلأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا
يَدْخُلِ ٱلْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ
يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

١٥ ● إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا
وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولٰئِكَ هُمُ
الصّادِقُونَ.

١٦ ● قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّمٰواتِ وَما فِي
ٱلْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

١٧ ● يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ
يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰيكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

١٨ ● إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰواتِ وَٱلْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما
تَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾ الخ: السخرية الاستهزاء وهو ذكر ما يستحقر ويستهان به الإنسان بقول أو إشارة أو فعل تقليداً بحيث يضحك منه بالطبع، والقوم الجماعة وهو في الأصل الرجال دون النساء لقيامهم بالامور المهمة دونهن، وهذا المعنى هو المراد بالقوم في الآية بما قوبل بالنساء.

وقوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾ و«عسى أن يكنَّ خيراً منهن» حكمة النهي.

والمستفاد من السياق أن الملاك رجاء كون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر سواء كان الساخر رجلاً أو امرأة وكذا المسخور منه فتخصيص النهي في اللفظ بسخرية القوم من القوم وسخرية النساء من النساء لمكان الغلبة عادة.

وقوله: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ اللمز ـ على ما قيل ـ التنبيه على المعايب، وتعليق اللمز بقوله: «أنفسكم» للاشارة الى أنهم مجتمع واحد بعضهم من بعض فلمز الواحد منهم غيره في الحقيقة لمز نفسه فليجتنب من أن يلمز غيره كما يكره أن يلمزه غيره، ففي قوله: «أنفسكم» إشارة الى حكمة النهي.

وقوله: ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ النبز بالتحريك هو اللقب، ويختص ـ على ما قيل ـ بما يدلُّ على ذمّ فالتنابز بالألقاب ذكر بعضهم بعضاً بلقب السوء مما يكرهه كالفاسق والسفيه ونحو ذلك.

والمراد بالاسم في «بئس الاسم الفسوق» الذكر كما يقال: شاع اسم فلان بالسخاء والجود، وعلى هذا فالمعنى: بئس الذكر ذكر الناس ـ بعد إيمانهم ـ بالفسوق فإن الحري

بالمؤمن بما هو مؤمن أن يذكر بالخير ولا يطعن فيه بما يسوؤه نحو يا من أبوه كان كذا ويا من أُمه كانت كذا.

ويمكن أن يكون المراد بالاسم السمة والعلامة والمعنى: بئست السمة أن يوسم الإنسان بعد الإيمان بالفسوق بأن يذكر بسمة السوء كأن يقال لمن اقترف معصية ثم تاب: يا صاحب المعصية الفلانية. أو المعنى: بئس الاسم أن يسم الإنسان نفسه بالفسوق بذكر الناس بما يسوؤهم من الألقاب. وعلى أي معنى كان ففي الجملة إشارة الى حكمة النهي.

وقوله: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي ومن لم يتب عن هذه المعاصي التي يقترفها بعد ورود النهي فلم يندم عليها ولم يرجع الى الله سبحانه بتركها فاولئك ظالمون حقاً فإنهم لا يرون بها بأساً وقد عدها الله معاصي ونهى عنها.

وفي الجملة أعني قوله: «ومن لم يتب» الخ: إشعار بأن هناك من كان يقترف هذه المعاصي من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ الى آخر الآية المراد بالظن المأمور بالاجتناب عنه ظن السوء فإن ظن الخير مندوب اليه كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً﴾ (النور / ١٢).

والمراد بالاجتناب عن الظن الاجتناب عن ترتيب الأثر عليه كأن يظن بأخيه المؤمن سوء فيرميه به ويذكره لغيره ويرتب عليه سائر آثاره. وأما نفس الظن بما هو نوع من الإدراك النفساني فهو أمر يفاجىء النفس لا عن اختيار فلا يتعلق به النهي اللهم إلا إذا كان بعض مقدماته اختيارياً.

وعلى هذا فكون بعض الظن إثماً من حيث كون ما يترتب عليه من الأثر إثماً كإهانة المظنون به وقذفه وغير ذلك من الآثار السيئة المحرمة. والمراد بكثير من الظن ـ وقد جيىء به نكرة

ليدل على كثرته في نفسه لا بالقياس الى سائر أفراد الظن ـ هو بعض الظن الذي هو إثم فهو كثير في نفسه وبعض من مطلق الظن . ولو أُريد بكثير من الظن أعم من ذلك كأن يراد ما يعلم أن فيه إثماً وما لا يعلم منه ذلك كان الأمر بالاجتناب عنه أمراً احتياطياً توقياً من الوقوع في الاثم.

وقوله : ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُوا ﴾ التجسس بالجيم تتبع ما استتر من أُمور الناس للاطلاع عليها . ومثله التحسس بالحاء المهملة إلا أن التجسس بالجيم يستعمل في الشر والتحسس بالحاء يستعمل في الخير ، ولذا قيل : معنى الآية لا تتبعوا عيوب المسلمين لتهتكوا الامور التي سترها أهلها .

وقوله : ﴿ وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ الغيبة على ما في مجمع البيان ذكر العيب بظهر الغيب على وجه يمنع الحكمة منه ، وقد فسرت بتفاسير مختلفة حسب الاختلاف في مصاديقها سعة وضيقاً في الفقه ، ويؤل الى أن يذكر من الإنسان في ظهر الغيب ما يسوؤه لو ذكر به ولذا لم يعدوا من الغيبة ذكر المتجاهر بالفسق بما تجاهر به .

والغيبة تفسد أجزاء المجتمع واحداً بعد واحد فتسقطها عن صلاحية التأثير الصالح المرجو من الاجتماع وهو أن يخالط كل صاحبه ويمازجه في أمن وسلامة بأن يعرفه إنساناً عدلاً سوياً يأنس به ولا يكرهه ولا يستقذره . وأما إذا عرفه بما يكرهه ويعيبه به انقطع عنه بمقدار ذلك وضعفت رابطة الاجتماع فهي كالآكلة التي تأكل جثمان من ابتلي بها عضواً بعد عضو حتى تنتهي الى بطلان الحياة .

والإنسان إنما يعقد المجتمع ليعيش فيه بهوية اجتماعية أعني بمنزلة اجتماعية صالحة لأن يخالطه ويمازج فيفيد ويستفاد منه . وغيبته بذكر عيبه لغيره تسقطه عن هذه المنزلة وتبطل منه هذه الهوية . وفيه تنقيص واحد من عدد المجتمع الصالح ولا يزال ينتقص بشيوع الغيبة

حتى يأتي على آخره فيتبدل الصلاح فساداً ويذهب الانس والأمن والاعتماد وينقلب الدواء داء.

فهي في الحقيقة إبطال هوية اجتماعية على حين غفلة من صاحبها ومن حيث لا يشعر به، ولو علم بذلك على ما فيه من المخاطرة لتحرّز منه وتوقّى انهتاك ستره وهو الستر ألقاه الله سبحانه على عيوب الانسان ونواقصه ليتمّ به ما أراده من طريق الفطرة من تآلف أفراد الإنسان وتجمُّعهم وتعاونهم وتعاضدهم. وأين الإنسان والنزاهة من كل عيب.

والى هذه الحقيقة أشار تعالى فيما ذكره من التمثيل بقوله: «أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه» وقد أتى بالاستفهام الإنكاري ونسب الحب المنفي الى أحدهم ولم يقل: بعضكم ونحو ذلك ليكون النفي أوضح استيعاباً وشمولاً ولذا أكّده بقوله بعد: «فكرهتموه» فنسب الكراهة الى الجميع ولم يقل: فكرهه.

وبالجملة محصّله أن اغتياب المؤمن بمنزلة أن يأكل الإنسان لحم أخيه حال كونه ميتاً، وإنما كان لحم أخيه لأنه من أفراد المجتمع الإسلامي المؤلف من المؤمنين وإنما المؤمنون إخوة، وإنما كان ميتاً لأنه لغيبته غافل لا يشعر بما يقال فيه.

وفي قوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ولم يقل: فتكرهونه إشعار بأن الكراهة أمر ثابت محقق منكم في أن تأكلوا إنساناً هو أخوكم وهو ميت فكما أن هذا مكروه لكم فليكن مكروهاً لكم اغتياب أخيكم المؤمن بظهر الغيب فإنه في معنى أكل أحدكم أخاه ميتاً.

واعلم أن ما في قوله: «أيحب أحدكم أن يأكل» الخ؛ من التعليل جارٍ في التجسس أيضاً كالغيبة. وإنما الفرق أن الغيبة هو إظهار عيب الغير للغير أو التوصّل الى الظهور عليه من طريق نقل الغير. والتجسس هو التوصل الى العلم بعيب الغير من طريق تتبُّع آثاره ولذلك لم يبعد أن يكون الجملة أعني قوله: «أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً» الخ؛ تعليلاً لكل من الجملتين أعني «ولا تجسَّسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً».

واعلم أن في الكلام إشعاراً أو دلالة على اقتصار الحرمة في غيبة المسلمين، ومن القرينة عليه قوله في التعليل: «لحم أخيه» فالاخوّة إنما هي بين المؤمنين.

وقوله: ﴿ وَٱتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ ظاهره أنه عطف على قوله: «اجتنبوا كثيراً من الظنّ» إن كان المراد بالتقوى هو التجنب عن هذه الذنوب التي كانوا يقترفونها بالتوبة الى الله سبحانه فالمراد بقوله: «إن الله توّاب رحيم» أن الله كثير القبول للتوبة رحيم بعباده التائبين اليه اللائذين به.

وإن كان هو التجنب عنها والتورُّع فيها وإن لم يكونوا يقترفونها فالمراد بقوله: «إن الله توّاب رحيم» أن الله كثير الرجوع الى عباده المتقين بالهداية والتوفيق والحفظ عن الوقوع في مهالك الشقوة رحيم بهم».

وذلك أن التوبة من الله توبتان: توبة قبل توبة العبد بالرجوع اليه بالتوفيق للتوبة كما قال تعالى: ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ (التوبة /١١٨)، وتوبة بعد توبة العبد بالرجوع اليه بالمغفرة وقبول التوبة كما في قوله: ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ﴾ (المائدة / ٣٩).

قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَيٰكُمْ ﴾ الخ؛ الشعوب جمع شعب بالكسر فالسكون وهو على ما في المجمع الحيّ العظيم من الناس كربيعة ومضر. والقبائل جمع قبيلة وهي دون الشعب كتميم من مضر.

وقوله ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ استئناف مبين لما فيه الكرامة عند الله سبحانه، وذلك أنه نبههم في صدر الآية على أن الناس بما هم ناس يساوي بعضهم بعضاً لا اختلاف بينهم ولا فضل لأحدهم على غيره، وأن الاختلاف المترائي في الخلقة من حيث الشعوب والقبائل إنما هو للتوصل به الى تعارفهم ليقوم به الاجتماع المنعقد بينهم إذ لا يتمّ

ائتلاف ولا تعاون وتعاضد من غير تعرف فهذا هو غرض الخلقة من الاختلاف المجعول لا أن تتفاخروا بالأنساب وتتفاضلوا بأمثال البياض والسواد فيستعبد بذلك بعضهم بعضاً ويستخدم إنسان إنساناً ويستعلي قوم على قوم فينجرّ الى ظهور الفساد في البر والبحر وهلاك الحرث والنسل فينقلب الدواء داء.

ثم نبّه سبحانه في ذيل الآية بهذه الجملة أعني قوله: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» على ما فيه الكرامة عنده، وهي حقيقة الكرامة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ فيه تأكيد لمضمون الآية وتلويح الى أن الذي اختاره الله كرامة للناس كرامة حقيقية اختارها الله بعلمه وخبرته بخلاف ما اختاره الناس كرامة وشرفاً لأنفسهم فإنها وهمية باطلة فإنها جميعاً من زينة الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ (العنكبوت / ٦٤).

وفي الآية دلالة على أن من الواجب على الناس أن يتَّبعوا في غايات الحياة أمر ربهم ويختاروا ما يختاره ويهدي اليه وقد اختار لهم التقوى كما أن من الواجب عليهم أن يختاروا من سنن الحياة ما يختاره لهم من الدين.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الخ؛ الآية وما يليها الى آخر السورة متعرضة لحال الأعراب في دعواهم الايمان ومنّهم على النبي ﷺ بإيمانهم. وسياق نقل قولهم وأمر النبي ﷺ أن يجيبهم بقوله: «لم تؤمنوا» يدلّ على أن المراد بالأعراب بعض الأعراب البادين دون جميعهم. ويؤيّده قوله: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ (التوبة / ٩٩).

وقوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ أي قالوا لك آمنا وادَّعوا الايمان

قل لم تؤمنوا وكذّبهم في دعواهم، وقوله: «ولكن قولوا أسلمنا» استدراك مما يدلُّ عليه سابق الكلام، والتقدير: فلا تقولوا آمنّا ولكن قولوا: أسلمنا.

وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ لنفي دخول الايمان في قلوبهم مع انتظار دخوله، ولذلك لم يكن تكراراً لنفي الايمان المدلول عليه بقوله: «لم تؤمنوا».

وقد نفى في الآية الايمان عنهم وأوضحه بأنه لم يدخل في قلوبهم بعد وأثبت لهم الإسلام، ويظهر به الفرق بين الايمان والإسلام بأن الايمان معنى قائم بالقلب من قبيل الاعتقاد، والإسلام أمر قائم باللسان والجوارح فإنه الاستسلام والخضوع لساناً بالشهادة على التوحيد والنبوّة وعملاً بالمتابعة العملية ظاهراً سواء قارن الاعتقاد بحقيّة ما شهد عليه وعمل به أو لم يقارن، وبظاهر الشهادتين تحقن الدماء وعليه تجري المناكح والمواريث.

وقوله: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاٰ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمٰالِكُمْ شَيْئاً﴾ الليت النقص يقال: لاته يليته ليتاً إذا نقصه، والمراد بالإطاعة الإخلاص فيها بموافقة الباطن للظاهر من غير نفاق، وطاعة الله استجابة ما دعا اليه من اعتقاد وعمل، وطاعة رسوله تصديقه واتباعه فيما يأمر به فيما له الولاية عليه من امور الامة، والمراد بالأعمال جزاؤها المراد بنقص الأعمال نقص جزائها.

والمعنى: وإن تطيعوا الله فيما يأمركم به من اتّباع دينه اعتقاداً، وتطيعوا الرسول فيما يأمركم به لا ينقص من اجور أعمالكم شيئاً، وقوله: «إن الله غفور رحيم» تعليل لعدم نقصه تعالى أعمالهم إن أطاعوه ورسوله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتٰابُوا وَجٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصّٰادِقُونَ﴾ تعريف تفصيلي للمؤمنين بعدما عرَّفوا إجمالاً بأنهم الذين دخل الايمان في قلوبهم كما هو لازم قوله: «لم تؤمنوا ولما يدخل الايمان في قلوبكم».

فقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فيه قصر المؤمنين في الذين آمنوا بالله ورسوله، الخ؛ فتفيد تعريفهم بما ذكر من الأوصاف تعريفاً جامعاً مانعاً فمن اتّصف بها مؤمن حقاً كما أن من فقد شيئاً منها ليس بمؤمن حقاً.

والإيمان بالله ورسوله عقد القلب على توحيده تعالى وحقّية ما أرسل به رسوله وعلى صحة الرسالة واتّباع الرسول فيما يأمر به.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي لم يشكّوا في حقية ما آمنوا به وكان إيمانهم ثابتاً مستقراً لا يزلزله شك، والتعبير بثمّ دون الواو ـ كما قيل ـ للدلالة على انتفاء عروض الريب حيناً بعد حين كأنه طريّ جديد دائماً فيفيد ثبوت الإيمان على استحكامه الأوّلي ولو قيل: ولم يرتابوا كان من الجائز أن يصدق مع الإيمان أولاً مقارناً لعدم الارتياب مع السكوت عما بعد.

وقوله: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المجاهدة بذل الجهد والطاقة وسبيل الله دينه، والمراد بالمجاهدة بالأموال والأنفس العمل بما تسعه الاستطاعة وتبلغه الطاقة في التكاليف المالية كالزكاة وغير ذلك من الإنفاقات الواجبة، والتكاليف البدنية كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك.

والمعنى: ويجدّون بإتيان التكاليف المالية والبدنية حال كونهم أو حال كون عملهم في دين الله وسبيله.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ تصديق في إيمانهم إذا كانوا على الصفات المذكورة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ توبيخ للأعراب حيث قالوا: آمنّا ولازمه دعوى الصدق في قولهم والإصرار على ذلك، وقيل: لما نزلت الآية السابقة حلفت الأعراب أنهم مؤمنون صادقون في قولهم: آمنّا، فنزل «قل أتعلمون الله بدينكم» الآية، ومعنى الآية

ظاهر.

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أي يمنون عليك بأن أسلموا وقد أخطأوا في منهم هذا من وجهين أحدهما أن حقيقة النعمة التي فيها المن هو الايمان الذي هو مفتاح سعادة الدنيا والآخرة دون الإسلام الذي له فوائد صورية من حقن الدماء وجواز المناكح والمواريث، وثانيهما أن ليس للنبي ﷺ من أمر الدين إلا أنه رسول مأمور بالتبليغ فلا من عليه لأحد ممن أسلم.

فلو كان هناك منّ لكان لهم على الله سبحانه لأن الدين دينه لكن لا منّ لأحد على الله لأن المنتفع بالدين في الدنيا والآخرة هم المؤمنون دون الله الغني على الإطلاق فالمن لله عليهم أن هداهم له.

وقد بدّل ثانياً الإسلام من الايمان للاشارة الى أن المن إنما هو بالايمان دون الإسلام الذي إنما ينفعهم في الظاهر فقط.

فقد تضمن قوله: «قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمن» الخ؛ الإشارة الى خطاهم من الجهتين جميعاً:

إحداهما: خطأهم من جهة توجيه المن الى النبي ﷺ وهو رسول ليس له من الأمر شيء، واليه الإشارة بقوله: «لا تمنوا عليّ إسلامكم».

وثانيهما: أن المن ـ لو كان هناك من ـ إنما هو بالايمان دون الاسلام، واليه الإشارة بتبديل الإسلام من الايمان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ ختم للسورة وتأكيد يعلل ويؤكد به جميع ما تقدم في السورة من النواهي والأوامر وما بين فيها من الحقائق وما أخبر فيها عن إيمان قوم وعدم إيمان آخرين فالآية تعلل

بمضمونها جميع ذلك.

والمراد بغيب السماوات والأرض ما فيها من الغيب أو الأعم مما فيها ومن الخارج منهما[١].

---

١. الحجرات ١١ ـ ١٨: بحث روائي في: النهي عن الغيبة، والتنبز بالالقاب: التقوى؛ الايمان والاسلام.

سورة ق مكية وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● قٓ وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ.

٢ ● بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ ٱلْكافِرُونَ هٰذا شَيْءٌ
عَجِيبٌ.

٣ ● أَإِذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيد.

٤ ● قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ.

٥ ● بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ.

٦ ● أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنّاها وَما لَها
مِنْ فُرُوجٍ.

٧ ● وَٱلْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ
زَوْجٍ بَهِيجٍ.

٨ ● تَبْصِرَةً وَذِكْرىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ.

٩ ● وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنّاتٍ وَحَبَّ
الْحَصِيدِ.
١٠ ● وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ.
١١ ● رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ.
١٢ ● كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ.
١٣ ● وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ.
١٤ ● وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ.

بيان:

السورة تذكر الدعوة وتشير الى ما فيها من الإنذار بالمعاد وجحد المشركين به واستعجابهم ذلك بأن الموت يستعقب بطلان الشخصية الإنسانية بصيرورته تراباً لا يبقى معه أثر مما كان عليه فكيف يرجع ثانياً الى ما كان عليه قبل الموت فتدفع ما أظهروه من الاستعجاب والاستبعاد بأن العلم الإلهي محيط بهم وعنده الكتاب الحفيظ الذي لا يعزب عنه شيء مما دق وجل من أحوال خلقه ثم توعدهم بإصابة مثل ما أصاب الامم الماضية الهالكة.

وتنبه ثانياً على علمه وقدرته تعالى بالإشارة الى ما جرى من تدبيره تعالى في خلق السماوات وما زينها به من الكواكب والنجوم وغير ذلك، وفي خلق الأرض من حيث مدّها وإلقاء الرواسي عليها وإنبات الأزواج النباتية فيها ثم بإنزال الماء وتهيئة أرزاق العباد وإحياء الأرض به.

ثم بيان حال الإنسان من أول ما خلق وأنه تحت المراقبة الشديدة الدقيقة حتى ما يلفظ به من لفظ وحتى ما يخطر بباله وتوسوس به نفسه ما دام حياً ثم إذا أدركه الموت ثم إذا بعث لفصل

القضاء ثم إذا فرغ من حسابه فادخل النار إن كان من المكذبين أو الجنة المزيفة إن كان من المتقين.

وبالجملة مصب الكلام في السورة هو المعاد، ومن غرر الآيات فيها قوله: ﴿**لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد**﴾، وقوله: ﴿**يوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد**﴾ وقوله: ﴿**لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد**﴾.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها إلا ما قيل في قوله: ﴿**ولقد خلقنا السماوات والأرض**﴾ الآية أو الآيتين، ولا شاهد عليه من اللفظ.

وما أوردناه من الآيات فيه إجمال الإشارة الى المعاد واستبعادهم له، وإجمال الجواب والتهديد أولاً ثم الاشارة الى تفصيل الجواب والتهديد ثانياً.

قوله تعالى: ﴿**قٓ وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ**﴾، قال في المجمع: المجد في كلامهم الشرف الواسع يقال: مجَد الرجل ومجُد ـ بضم العين وفتحها ـ مجداً إذا عظم وكرم، وأصله من قولهم: مجدت الأبل مُجوداً إذا عظمت بطونها من كثرة أكلها من كلاء الربيع. انتهى.

وقوله: ﴿**وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ**﴾ قسم وجوابه محذوف يدل عليه الجمل التالية والتقدير والقرآن المجيد إن البعث حق أو إنك لمن المنذرين أو الانذار حق، وقيل: جواب القسم مذكور وهو قوله: «بل عجبوا» الخ؛ وقيل: هو قوله: «قد علمنا ما تنقص» الخ؛ وقيل: قوله: ﴿**ما يلفظ من قول**﴾ الخ؛ وقيل: قوله: ﴿**إن في ذلك لذكرى**﴾ الخ؛ وقيل: قوله: ﴿**ما يبدل القول لدي**﴾ الخ؛ وهذه أقوال سخيفة لا يصار اليها.

قوله تعالى: ﴿**بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ ٱلْكافِرُونَ هٰذا شَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾ إضراب عن مضمون جواب القسم المحذوف فكأنه قيل: إنا أرسلناك نذيراً فلم يؤمنوا بك بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم، أو قيل إن البعث الذي أنذرتهم به حق ولم يؤمنوا به بل عجبوا منه واستبعدوه.

وضمير «منهم» في قوله: «بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم» راجع اليهم بما هم بشر أي من جنسهم وذلك أن الوثنيين ينكرون نبوة البشر كما تقدمت الاشارة اليه مراراً أو راجع اليهم بما هم عرب والمعنى: بل عجبوا أن جاءهم منذر من قومهم وبلسانهم يبين لهم الحق أو في بيان فيكون أبلغ في تقريعهم.

وقوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ وصفهم بالكفر ولم يقل: وقال المشركون ونحو ذلك للدلالة على سترهم للحق لما جاءهم. والاشارة في قولهم: «هذا شيء عجيب»، الى البعث والرجوع الى الله كما يفسره قوله بعد: «ءإذا متنا وكنا تراباً» الخ.

قوله تعالى: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيد﴾ الرجع والرجوع بمعنى والمراد بالبعد البعد عن العقل.

وجواب إذا في قولهم: «ءإذا متنا وكنا تراباً» محذوف يدل عليه قولهم: «ذلك رجع بعيد» والتقدير ءإذا متنا وكنا تراباً نبعث ونرجع؟ والاستفهام للتعجيب، وإنما حذف للاشارة الى أنه عجيب بحيث لا ينبغي أن يذكر، إذ لا يقبله عقل ذي عقل والآية في مساق قوله: ﴿وقالوا ءإذا ضللنا في الأرض ءإنا لفي خلق جديد﴾ (الم السجدة / ١٠).

والمعنى: إنهم يتعجبون ويقولون: ءإذا متنا وكنا تراباً ـ وبطلت ذواتنا بطلاناً لا أثر معه منها ـ نبعث ونرجع؟ ثم كأنه قائلاً يقول لهم: مم تعجبون؟ فقالوا: ذلك رجع بعيد يستبعده العقل ولا يسلمه.

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ رد منه تعالى لاستبعادهم البعث والرجوع مستندين في ذلك الى أنهم ستتلاشى أبدانهم بالموت فتصير تراباً متشابه الأجزاء لا تمايز لجزء منها من جزء والجواب أنّا نعلم بما تأكله الأرض من أبدانهم وتنقصه منها فلا يفوت علمنا جزء من أجزائهم حتى يتعسر علينا إرجاعه أو يتعذر بالجهل.

أو أنا نعلم من يموت منهم فيدفن في الأرض فتنقصه الأرض من جمعهم، و«من» على أول الوجهين تبعيضية وعلى الثاني تبيينية.

وقوله: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي حافظ لكل شيء ولآثاره وأحواله، أو كتاب ضابط للحوادث محفوظ عن التغيير والتحريف، وهو اللوح المحفوظ الذي فيه كل ما كان وما يكون وما هو كائن الى يوم القيامة.

ومحصل جواب الآية أنهم زعموا أن موتهم وصيرورتهم تراباً متلاشي الذرّات غير متمايز الأجزاء يصيرهم مجهولي الأجزاء عندنا فيمتنع علينا جمعها وإرجاعها لكنه زعم باطل فإنا نعلم بمن مات منهم وما يتبدل الى الأرض من أجزاء أبدانهم وكيف يتبدل والى أين يصير؟ وعندنا كتاب حفيظ فيه كل شيء وهو اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ المرج الاختلاط والالتباس، وفي الآية إضراب عما تلوح اليه الآية السابقة فإن اللائح منها أنهم إنما تعجبوا من أمر البعث والرجوع واستبعدوه لجهلهم بأن الله سبحانه عليم لا يعزب عنه شيء من أحوال خلقه وآثارهم وأن جميع ذلك مستطر في اللوح المحفوظ عند الله بحث لا يشذّ عنه شاذ.

فاضرب في هذه الآية أن ذلك ليس من جهلهم وإن تجاهلوا بل كذّبوا بالحق لما جاءهم فاستبان لهم أنه حق فهم جاحدون للحق معاندون له وليسوا بجاهلين به قاصرين عن إدراكه فهم في أمر مريج مختلط غير منتظم يدركون الحق ويكذبون به مع أن لازم العلم بشيء تصديقه والإيمان به.

وقيل: المراد بكونهم في أمر مريج أنهم متحيرون بعد إنكار الحق لا يدرون ما يقولون فتارة يقولون: افتراء على الله، وتارة: سحر، وتارة: شعر، وتارة: كهانة وتارة: زجر.

ولذلك عقّب الكلام بذكر آيات علمه وقدرته توبيخاً لهم ثم بالإشارة الى تكذيب الامم

الماضية الهالكة الذي ساقهم الى عذاب الاستئصال، تهديداً لهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ الفروج جمع فرجة: الشقوق والفتوق، وتقييد السماء بكونها فوقهم للدلالة على أنها بمرأى منهم لا تغيب عن أنظارهم، والمراد بتزيينها خلق النجوم اللامعة فيها بما لها من الجمال البديع، فبناء هذا الخلق البديع بما لها من الجمال الرائع من غير شقوق وفتوق أصدق شاهد على قدرته القاهرة وعلمه المحيط بما خلق.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ مد الأرض بسطها لتلائم عيشة الإنسان، والرواسي جمع الراسية بمعنى الثابتة صفة محذوفة فالموصوف وهو الجبال، والمراد جعل الجبال الثابتة على ظهرها، والبهيج من البهجة، قال في المجمع: البهجة الحسن الذي له روعة عند الرؤية كالزهرة والأشجار النضرة والرياض الخضرة. انتهى. وقيل: المراد بالبهيج الذي من رآه بهج وسرّ به فهو بمعنى المبهوج به.

والمراد بإنبات كل زوج بهيج إنبات كل صنف حسن المنظر من النبات.

فخلق الأرض وما جرى فيها من التدبير الإلهي العجيب أحسن دليل يدلّ العقل على كمال القدرة والعلم.

قوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ مفعول له أي فعلنا ما فعلنا من بناء السماء ومد الأرض وعجائب التدبير التي أجريناها فيها ليكون تبصرة يتبصّر بها وذكرى يتذكر بها كل عبد راجع الى الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ السماء جهة العلو والماء المبارك المطر، وصف بالمباركة لكثرة خيراته العائدة الى الأرض وأهلها، وحب الحصيد المحصود من الحب وهو من إضافة الموصوف الى الصفة،

والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ الباسقات جمع باسقة وهي الطويلة العالية. والطلع أول ما يطلع من ثمر النخيل، والنضيد بمعنى المنضود بعضه على بعض، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ الرزق ما يمدّ به البقاء، و«رزقاً للعباد» مفعول له أي أنبتنا هذه الجنات وحب الحصيد والنخل باسقات بما لها من الطلع النضيد ليكون رزقاً للعباد فمن خلق هذه النباتات ليرزق به العباد بما في ذلك من التدبير الوسيع الذي يدهش اللبّ ويحيّر العقل هو ذو علم لا يتناهى وقدرة لا تعيى لا يشق عليه إحياء الإنسان بعد موته وإن تلاشت ذرّات جسمه وضلّت في الأرض أجزاء بدنه.

وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ برهان آخر على البعث غير ما تقدم استنتج من طيّ الكلام فإن البيان السابق في رد استبعادهم للبعث مستندين الى صيرورتهم تراباً غير متمايز الأجزاء كان برهاناً من مسلك إثبات علمه بكل شيء وقدرته على كل شيء وهذا البرهان الذي يتضمنه قوله: «وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج» من مسلك إثبات إمكان الشيء بوقوع مثله فليس الخروج من القبور بالإحياء بعد الموت إلا مثل خروج النبات الميت من الأرض بعد موتها ووقوف قواه عن النماء والنشوء.

وقد قررنا هذا البرهان في ذيل الآيات المستدلة بإحياء الأرض بعد موتها على البعث غير مرة فيما تقدم من أجزاء الكتاب.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ - الى قوله - كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، تهديد وإنذار لهم بما كذّبوا بالحق لما جاءهم وتبين لهم عناداً كما أشرنا اليه قبل.

وقد تقدم ذكر أصحاب الرس في تفسير سورة الفرقان، وذكر أصحاب الأيكة وهو قوم شعيب في سور الحجر والشعراء وص، وذكر قوم تبع في سورة الدخان.

وفي قوله: «كل كذب الرسل فحق وعيد» إشارة الى أن هناك وعيداً بالهلاك ينجز عند تكذيب الرسل قال تعالى: ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (النحل / ٣٦).

١٥ ● أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ.

١٦ ● وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ.

١٧ ● إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ.

١٨ ● مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ.

١٩ ● وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ.

٢٠ ● وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ.

٢١ ● وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ.

٢٢ ● لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ.

٢٣ ● وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ.

٢٤ ● أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ.

٢٥ ● مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ.

٢٦ ● ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ الشَّدِيدِ.

٢٧ ● قَالَ قَرِينُه رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ.

٢٨ ● قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ.

٢٩ ● مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

٣٠ ● يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ.

٣١ ● وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ.

٣٢ ● هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ.

٣٣ ● مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْب وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ.

٣٤ ● أُدْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ.

٣٥ ● لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيد.

٣٦ ● وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي ٱلْبِلاَدِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ.

٣٧ ● إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

٣٨ ● وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ العيّ عجز يلحق من تولى الأمر والكلام كذا، قال الراغب: يقال: أعياني كذا وعييت بكذا أي عجزت عنه والخلق الأول خلق هذه النشأة الطبيعية بنظامها الجاري ومنها الإنسان في حياته الدنيا فلا وجه لقصر الخلق الأول في خلق السماء والأرض فقط كما مال اليه الرازي في

التفسير الكبير ولا لقصره في خلق الإنسان كما مال اليه بعضهم وذلك لأن الخلق الجديد يشمل السماء والأرض والإنسان جميعاً كما قال تعالى: ﴿يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾ (إبراهيم / ٤٨). والخلق الجديد خلق النشأة الثانية وهي النشأة الآخرة. والاستفهام للإنكار.

والمعنى: أعجزنا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الخلق الجديد؟ أي لم نعجز عن الخلق الأول وهو إبداؤه فلا نعجز عن الخلق الجديد وهو إعادته.

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ اللبس هو الالتباس. والمراد بالخلق الجديد تبديل نشأتهم الدنيا من نشأة اخرى ذات نظام آخر وراء النظام الطبيعي الحاكم في الدنيا فإن في النشأة الاخرى وهي الخلق الجديد بقاء من غير فناء وحياة من غير موت ثم إن كان الإنسان من أهل السعادة فله نعمة من غير نقمة وإن كان من أهل الشقاء ففي نقمة لا نعمة معها. والنشأة الاولى وهي الخلق الأول والنظام الحاكم فيها على خلاف ذلك.

والمعنى: إذا كنا خلقنا العالم بسمائه وأرضه وما فيها ودبّرناه أحسن تدبير لأول مرة بقدرتنا وعلمنا ولم نعجز عن ذلك علماً وقدرة فنحن غير عاجزين عن تجديد خلقه وهو تبديله خلقاً جديداً فلا ريب في قدرتنا ولا التباس بل هم في التباس لا سبيل لهم مع ذلك الى الإيمان بخلق جديد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ قال الراغب: الوسوسة الخطرة الرديئة وأصله من الوسواس وهو صوت الحلي والهمس الخفي. انتهى.

والمراد بخلق الإنسان وجوده المتدرج المتحول خلقاً بعد خلق لا أول تكوينه إنساناً وإن عبَّر عنه بالماضي إذ قال: «ولقد خلقنا الإنسان» إذ الإنسان ـ وكذا كل مخلوق له حظ من البقاء ـ كما يحتاج الى عطية ربه في أول وجوده كذلك يحتاج اليه في بقائه.

ولما ذكر من النكتة عطف قوله: «ونعلم ما توسوس به نفسه» وهو فعل مضارع مسوق للدلالة على الاستمرار على قوله: «ولقد خلقنا الإنسان» وهو فعل ماض لكنه مستمر المعنى. وكذا قوله: «ونحن أقرب اليه من حبل الوريد» مفيد للثبوت والدوام والاستمرار باستمرار وجود الإنسان.

وللآية اتصال بما تقدم من الاحتجاج على علمه وقدرته تعالى في الخلق الأول بقوله: «أفلم ينظروا الى السماء» واتصال أيضاً بقوله تعالى في الآية السابقة: «بل هم في لبس من خلق جديد» فهي في سياق يذكر قدرته على الإنسان بخلقه، وعلمه به بلا واسطة وبواسطة الملائكة الحفظة الكتبة.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ﴾ - واللام للقسم - دالّ على القدرة عليه بإثبات الخلق.

وقوله: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ في ذكر أخفى أصناف العلم وهو العلم بالخطور النفساني الخفي إشارة الى استيعاب العلم له كأنه قيل: ونعلم ظاهره وباطنه حتى ما توسوس به نفسه وما توسوس به الشبهة في أمر المعاد: كيف يُبعث الإنسان وقد صار بعد الموت تراباً متلاشي الأجزاء غير متميز بعضها من بعض.

وقد بان أن «ما» في «ما توسوس به» موصولة وضمير «به» عائد اليه والباء للآلة أو للسببية، ونسب الوسوسة الى النفس دون الشيطان وإن كانت منسوبة اليه أيضاً لأن الكلام في إحاطة العلم بالإنسان حتى بما في زوايا نفسه من هاجس ووسوسة.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ الوريد عرق متفرق في البدن فيه مجاري الدم، وقيل: هو العرق الذي في الحلق، وكيف كان فتسميته حبلاً لتشبيهه به، وإضافة حبل الوريد بيانية.

والمعنى: نحن أقرب الى الإنسان من حبل وريده المخالط لأعضائه المستقر في داخل بدنه

فكيف لا نعلم به وبما في نفسه ؟

وهذا تقريب للمقصود بجملة ساذجة يسهل تلقيها لعامة الأفهام وإلا فأمر قربه تعالى اليه أعظم من ذلك وأعظم فهو سبحانه الذي جعلها نفساً ورتب عليها آثارها فهو الواسطة بينها وبين نفسها وبينها وبين آثارها وأفعالها فهو أقرب الى الإنسان من كل أمر مفروض حتى في نفسه، ولكون هذا المعنى دقيقاً يشق تصوره على أكثر الأفهام عدل سبحانه الى بيانه بنحو قوله: «ونحن أقرب اليه من حبل الوريد» وقريب منه بوجه قوله: «إن الله يحول بين المرء وقلبه».

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ التلقي الأخذ والتلقن، والمراد بالمتلقيان على ما يفيده السياق الملكان الموكلان على الإنسان اللذان يتلقيان عمله فيحفظانه بالكتابة.

وقوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ تقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، والمراد باليمين والشمال يمين الإنسان وشماله، والقعيد القاعد.

والظرف في قوله: «إذ يتلقى المتلقيان» الظاهر أنه متعلق بمحذوف والتقدير اذكر إذ يتلقى المتلقيان، والمراد به الإشارة الى علمه تعالى بأعمال الإنسان من طريق كتاب الأعمال من الملائكة وراء علمه تعالى بذاته من غير توسط الوسائط.

وقوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ تمثيل لموقعهما من الإنسان، واليمين والشمال جانبا الخير والشر ينتسب اليهما الحسنة والسيئة.

قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ اللفظ الرمي سمي به التكلم بنوع من التشبيه، والرقيب المحافظ، والعتيد المعد المهيا للزوم الأمر.

والآية تذكر مراقبة الكتبة للإنسان فيما يتكلم به من كلام، وهي بعد قوله: «إذ يتلقى المتلقيان» الخ: من ذكر الخاص بعد العام لمزيد العناية به.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ الحيد العدول والميل على سبيل الهرب، والمراد بسكرة الموت ما يعرض الإنسان حال النزع إذ يشتغل بنفسه وينقطع عن الناس كالسكران الذي لا يدري ما يقول ولا ما يقال له.

وفي تقييد مجيء سكرة الموت بالحق إشارة الى أن الموت داخل في القضاء الالهي مراد في نفسه في نظام الكون كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون﴾ (الأنبياء / ٣٥)، وقد مر تفسيره فالموت ـ وهو الانتقال من هذه الدار الى دار بعدها ـ حق كما أن البعث حق والجنة حق والنار حق. وفي معنى كون الموت بالحق أقوال أُخر لا جدوى في نقلها والتعرض لها.

وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ إشارة الى أن الانسان يكره الموت بالطبع وذلك أن الله سبحانه زيَّن الحياة الدنيا والتعلق بزخارفها للانسان ابتلاء وامتحاناً. قال تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوكم أيّكم أحسن عملاً وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ (الكهف / ٨).

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ هذه نقلة ثانية الى عالم الخلود بنفخ الصور بعد النقلة الاولى، والمراد بنفخ الصور النفخة الثانية المقيمة للساعة أو مجموع النفختين بإرادة مطلق النفخ.

والمراد بيوم الوعيد يوم القيامة الذي ينجز الله تعالى فيه وعيده على المجرمين من عباده.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ السياقة حث الماشية على المسير من خلفها بعكس القيادة فهي جلبها من أمامها.

فقوله: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي جاءت الى الله وحضرت عنده لفصل القضاء. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إلى ربك يومئذٍ المساق﴾ (القيامة / ٣٠).

والمعنى: وحضرت عنده تعالى كل نفس معها سائق يسوقها وشاهد يشهد بأعمالها ولم

يصرّح تعالى بكونهما من الملائكة أو بكونهما هما الكاتبين أو من غير الملائكة. غير أن السابق الى الذهن من سياق الآيات أنهما من الملائكة، وسيجيء الروايات في ذلك.

وكذا لا تصريح بكون الشهادة منحصرة في هذا الشاهد المذكور في الآية بل الآيات الواردة في شهداء يوم القيامة تقضي بعدم الانحصار، وكذا الآيات التالية الذاكرة لاختصام الإنسان وقرينه دالة على أن مع الإنسان يومئذ غير السائق والشهيد.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ وقوع الآية في سياق آيات القيامة واحتفافها بها يقضي بكونها من خطابات يوم القيامة، والمخاطب بها هو الله سبحانه، والذي خوطب بها هو الإنسان المذكور في قوله: «وجاءت كل نفس». وعليه فالخطاب عام متوجه الى كل إنسان إلا أن التوبيخ والتقريع اللائح من سياق الآية ربما استدعى اختصاص الخطاب بمنكري المعاد، أضف الى ذلك، كون الآيات مسوقة لرد منكري المعاد في قولهم: «ءإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد».

والإشارة بقوله: «هذا» الى ما يشاهده يومئذ ويعاينه من تقطّع الأسباب وبوار الأشياء ورجوع الكل الى الله الواحد القهار. وقد كان تعلق الإنسان في الدنيا بالأسباب الظاهرية وركونه اليها أغفله عن ذلك حتى إذا كشف الله عنه حجاب الغفلة فبدت له حقيقة الأمر فشاهد ذلك مشاهدة عيان لا علماً ولا فكرياً.

ولذا خوطب بقوله: «لقد كنت» في الدنيا «في غفلة» أحاطت بك «من هذا» الذي تشاهده وتعاينه وإن كان في الدنيا نصب عينيك لا يغيب لكن تعلقك بذيل الأسباب أذهلك وأغفلك عنه «فكشفنا عنك غطاءك» اليوم «فبصرك» وهو البصيرة وعين القلب «اليوم» وهو يوم القيامة «حديد» أي نافذ يبصر ما لم يكن يبصره في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ لا يخلو السياق من ظهور في أن المراد بهذا القرين الملك الموكل به فإن كان هو السائق كان معنى قوله: «هذا ما لدي عتيد» هذا

الانسان الذي هو عندي حاضر ، وان كان هو الشهيد كان المعنى هذا ـ وهو يشير الى أعماله التي حمل الشهادة عليها ـ ما عندي من أعماله حاضر مهيأ .

وقيل : المراد بالقرين الشيطان الذي يصاحبه ويغويه ، ومعنى كلامه على هذا الإنسان هو الذي توليت أمره وملكته حاضر مهيأ لدخول جهنم .

قوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴾ الكفار اسم مبالغة من الكفر ، والعنيد المعاند للحق المستمر على عناده ، والمعتدي المتجاوز عن الحد المتخطىء للحق ، والمريب الشاك أو المشكك في أمر البعث .

وبين هذه الصفات المعدودة شبه الاستلزام فإن كثرة الكفر بردّ الإنسان كل حق يواجهه تنتج العناد مع الحق والإصرار عليه ، والإصرار على العناد يوجب المنع عن أكثر الخيرات إذ لا خير إلا في الحق ومن ناحيته ، وهو يستلزم الخروج عن حد الحق الى الباطل وتجاوز الإنسان عن حد العبودية الى الاستكبار والطغيان ويستلزم تشكيك الناس في ما يرومونه من دين الحق .

والخطاب في الآية منه تعالى ، وظاهر سياق الآيات أن المخاطب به هما الملكان الموكلان السائق والشهيد ، واحتمل بعضهم أن يكون الخطاب الى ملكين من ملائكة النار وخزنتها .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ العدول في ذكر صفة الشرك عن الإيجاز الى الإطناب حيث لم يقل : مشرك وقال : « الذي جعل » الخ ؛ للاشارة الى أن هذه الصفة أعظم المعاصي وأم الجرائم التي أتى بها والصفات الرذيلة التي عدّت له من الكفر والعناد ومنع الخير والاعتداء والإرابة .

وقوله : ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بقوله : « ألقيا » الخ ؛ ويلوّح الى تشديد الأمر من جهة الشرك ، ولذا عقّبه بقوله : « في العذاب الشديد » .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ المراد

بهذا القرين قرينه من الشياطين بلا شك. وقد تكرر في كلامه تعالى ذكر القرين من الشيطان وهو الذي يلازم الإنسان ويوحي إليه ما يوحي من الغواية والضلال، قال تعالى: ﴿ ومن يعشُ عن ذكر الرحمان نقيّض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدُّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين ﴾ (الزخرف / ٣٨).

فقوله: «قال قرينه» أي شيطانه الذي يصاحبه ويغويه «ربنا» اضاف الرب الى نفسه والإنسان الذي هو قرينه لأنهما في مقام الاختصام «ما أطغيته» أي ما أجبرته على الطغيان «ولكن كان في ضلال بعيد» أي متهيئاً مستعداً لقبول ما ألقيته اليه تلقّاه باختياره فما أنا بمسؤول عن ذنبه في طغيانه.

وقد تقدم في سورة الصافات تفصيل اختصام الظالمين وأزواجهم في قوله: ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ (الصافات / ٢٢)، الى آخر الآيات.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ القائل هو الله سبحانه يخاطبهم وكأنه خطاب واحد لعامة المشركين الطاغين وقرنائهم ينحلّ الى خطابات جزئية لكل إنسان وقرينه بمثل قولنا: لا تختصما لديَّ، الخ.

وقوله: ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ حال من فاعل «ولا تختصموا» و«بالوعيد» مفعول «قدّمت» والباء للوصلة.

والمعنى: لا تختصموا لديَّ فلا نفع لكم فيه بعد ما أبلغتكم وعيدي لمن أشرك وظلم، والوعيد الذي قدّمه اليهم مثل قوله تعالى لإبليس: ﴿ إذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ﴾ (الإسراء / ٦٣)، وقوله: ﴿ فالحق والحق أقول لأملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ (ص / ٨٥). أو قوله: ﴿ لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (السجدة / ١٣).

قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ الذي يعطيه السياق أن تكون الآية استئنافاً بمنزلة الجواب عن سؤال مقدر كأن قائلاً يقول: هب إنك قد قدَّمت فهلاً غيّرته وعفوت؟ فاجيب بقوله: «ما يبدَّل القول لديّ» والمراد بالقول مطلق القضاء المحتوم الذي قضى به الله، وقد قضى لمن مات على الكفر بدخول جهنم وينطبق بحسب المورد على الوعيد الذي أوعده الله لابليس ومن تبعه.

فقد بان أن الجملة مستأنفة، والمراد بتبديل القول تغيير القضاء المحتوم، و«لدي» متعلق بالتبديل، هذا ما يعطيه السياق، وقد ذكر بعضهم في هذه الجملة وإعراب مفرداتها ومعنى تبديل القول وجوهاً واحتمالات كثيرة بعيدة عن الفهم لا تزيد في الكلام إلا تعقيداً فأغمضنا عن إيرادها.

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ متمم لمعنى الجملة السابقة أي لا يبدل قولي فأنتم معذبون لا محالة ولست أظلم عبيدي في عذابهم على طبق ما قدمت اليهم بالوعيد لأنهم مستحقون لذلك بعد إتمام الحجة.

ومن وجه آخر: لا ظلم في مجازاتهم بالعذاب فإنهم إنما يجزون بأعمالهم التي قدموها في أعمالهم ردت اليهم كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون بما كنتم تعملون﴾ (التحريم / ٧).

وما في قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ﴾ من نفي الظلم الكثير لا يستوجيب جواز الظلم اليسير فإنه تعالى لو ظلم في شيء من الجزاء كان ظلماً كثيراً لكثرة أمثاله فإن الخطاب لكل إنسان مشرك ظالم مع قرينه، وهم كثيرون فهو سبحانه لو ظلم في شيء من الجزاء لكان ظلاماً.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ خطاب منه تعالى لجهنم وجواب منها، وقد اختلف في حقيقة هذا التكليم والتكلم فقيل: الخطاب والجواب بلسان الحال ويرده أنه لو كان بلسان الحال لم يختص به تعالى بل كان لكل من

يشاهدها على تلك الحال أن يسألها عن امتلائها فتجيبه بقولها: هل من مزيد؟ فليس لتخصيص الخطاب به تعالى نكتة ظاهرة.

وقوله: ﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ استفهام تقريري. وكذا قوله حكاية عنها: «هل من مزيد» ولعل إيراد هذا السؤال والجواب للإشارة الى أن قهره وعذابه لا يقصر عن الإحاطة بالمجرمين وإيفاء ما يستحقونه من الجزاء قال تعالى: ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ (التوبة / ٤٩).

واستشكل بأنه مناف لصريح قوله تعالى: «لأملأن جهنم» الآية وأُجيب بأن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو شيء من طبقاتها من السكنة كما يقال: البلد ممتلىء بأهله. على أنه يمكن أن يكون هذا القول منها قبل دخول جميع أهل النار فيها.

وقيل: الاستفهام في قوله: «هل من مزيد» للإنكار والمعنى: لا مزيد أي لا مكان فيّ يزيد على من أُلقي فيّ من المجرمين فقد امتلأت فيكون إشارة الى ما قضى به في قوله: ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (السجدة / ١٣). وقوله: «هل امتلأت» في معنى أن يقال: «هل حق القول مني لأملأن جهنم»، وقوله: «هل من مزيد» تقرير وتصديق له.

وربما أيد هذا الوجه قوله تعالى قبل: «ما يبدل القول لدي» على تقدير أن يراد بالقول قوله تعالى: «لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين».

قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ شروع في وصف حال المتقين يوم القيامة. والإزلاف التقريب. و«غير بعيد» على ما قيل صفة لظرف محذوف والتقدير في مكان غير بعيد.

والمعنى: وقربت الجنة يومئذ للمتقين حال كونها في مكان غير بعيد أي هي بين أيديهم لا تكلف لهم في دخولها.

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ الإشارة الى ما تقدم من

الثواب الموعود. والأواب من الأوب بمعنى الرجوع. والمراد كثرة الرجوع الى الله بالتوبة والطاعة. والحفيظ هو الذي يدوم على حفظ ما عهد الله اليه من أن يترك فيضيع، وقوله: «لكل أوّاب حفيظ» خبر بعد خبر لهذا أو حال.

قوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ بيان لكل أوّاب والخشية بالغيب الخوف من عذاب الله حال كونه غائباً غير مرئي له. والإنابة هو الرجوع، والمجيء الى ربه بقلب منيب أن يتم عمره بالإنابة فيأتي ربه بقلب متلبس بالإنابة.

قوله تعالى: ﴿أُدْخُلُوها بِسَلامٍ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ خطاب للمتقين أي يقال لهم: ادخلوا بسلام أي بسلامة وأمن من كل مكروه وسوء، أو بسلام من الله وملائكته عليكم، وقوله: «ذلك يوم الخلود» بشرى يبشرون بها.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ ما يَشاءُونَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيد﴾ يمكن أن يكون «فيها» متعلقاً بيشاؤن أو بمحذوف هو حال من الموصول، والتقدير: حال كون ما يشاؤن فيها أو من الضمير المحذوف الراجع الى الموصول. والتقدير: ما يشاؤنه حال كونه فيها. والأول أوفق لسعة كرامتهم عند الله سبحانه.

والمحصل: أن أهل الجنة وهم في الجنة يملكون كل ما تعلقت به مشيّتهم وإرادتهم كائناً ما كان من غير تقييد واستثناء فلهم كل ما أمكن أن يتعلق به الإرادة والمشيّة لو تعلقت.

وقوله: ﴿وَلَدَيْنا مَزِيد﴾ أي ولهم عندنا ما يزيد على ذلك - على ما يفيده السياق - وإذ كان لهم كل ما أمكن أن تتعلق به مشيتهم مما يتعلق به علمهم من المطالب والمقاصد فالمزيد على ذلك أمر أعظم مما تتعلق به مشيتهم لكونه فوق ما يتعلق به علمهم من الكمال.

وقيل: المراد بالمزيد الزيادة على ما يشاؤن من جنس ما يشتهون فاذا شاؤا رزقاً أُعطوا منه أكثر مما شاؤا وأفضل وأعجب كما ورد عن بعضهم أنه تمرّ بهم السحابة فتقول: ماذا تريدون فامطره عليكم فلا يريدون شيئاً إلا أمطرته عليهم.

وفيه أنه تقييد لإطلاق الكلام من غير مقيد فإن ظاهر قوله: «لهم ما يشاؤن فيها» أنهم يملكون كل ما يمكنهم أن يشاؤا لا تملكهم ما شاؤه بالفعل فالمزيد وراء ما يمكن أن تتعلق به مشيتهم.

وقيل: المراد أنه يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها وفيه ما في سابقه.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ التنقيب السير، المحيص المحيد والمنجا.

وفي الآية تذييل الاحتجاج بخلق الإنسان والعلم به وبيان سيره الى الله بالتخويف والإنذار نظير ما جرى عليه الكلام في صدر السورة من الاحتجاج على المعاد وتذييله بالتخويف والإنذار في قوله: «كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسّ وثمود» الخ.

والمعنى: وكثيراً ما أهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قرن هم أي أهل ذلك القرن أشد بطشاً منهم أي من هؤلاء المشركين فساروا ببطشهم في البلاد ففتحوها وتحكّموا عليها هل من محيد ومنجا من إهلاك الله وعذابه؟

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ القلب ما يعقل به الإنسان فيميز الحق من الباطل والخير من الشر والنافع من الضار، فإذا لم يعقل ولم يميز فوجوده بمنزلة عدمه إذ ما لا أثر له فوجوده وعدمه سواء، وإلقاء السمع هو الاستماع كأن السمع شيء يلقى الى المسموع فيناله ويدركه والشهيد الحاضر المشاهد.

والمعنى: إن فيما أخبرنا به من الحقائق وأشرنا اليه من قصص الامم الهالكة لذكرى يتذكر بها من كان يتعقل فيدرك الحق ويختار ما فيه خيره ونفعه أو استمع الى حق القول ولم يشتغل عنه بغيره والحال أنه شاهد حاضر يعي ما يسمعه.

والترديد بين من كان له قلب ومن استمع شهيداً لمكان أن المؤمن بالحق أحد رجلين إما

رجل ذو عقل يمكنه أن يتناول الحق فيتفكر فيه ويرى ما هو الحق فيذعن به، وإما رجل لا يقوى على التفكر حتى يميز الحق والخير والنافع فعليه أن يستمع القول فيتبعه، وأما من لا قلب له يعقل به ولا يسمع شهيداً على ما يقال له ويلقى اليه من الرسالة والإنذار فجاهل متعنت لا قلب له ولا سمع، قال تعالى: ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ (الملك / ١٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُّغُوبٍ﴾ اللغوب التعب والنصب، والمعنى ظاهر[1].

٣٩ ❁ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ.

٤٠ ❁ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ.

٤١ ❁ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ.

٤٢ ❁ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ.

٤٣ ❁ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ.

٤٤ ❁ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ.

٤٥ ❁ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ.

---

١. ق ١٥ ـ ٣٨: بحث روائي حول خلق العالم وآدم: اصحاب اليمين واصحاب الشمال، اهل الجنة واهل النار؛ الملائكة الموكلون للانسان؛ جهنم: نعم الجنة.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ تفريع على جميع ما تقدم من إنكار المشركين للبعث، ومن تفصيل القول في البعث والحجة عليه، ومن وعيد المنكرين له المكذبين للنبي ﷺ وتهديدهم بمثل ما جرى على المكذبين من الامم الماضية.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الخ؛ أمر بتنزيهه تعالى عما يقولون مصاحباً للحمد ومحصله إثبات جميل الفعل له ونفي كل نقص وشين عنه تعالى. والتسبيح قبل طلوع الشمس يقبل الانطباق على صلاة الصبح، والتسبيح قبل الغروب يقبل الانطباق على صلاة العصر أو عليها وعلى صلاة الظهر.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ أي ومن الليل فسبحه فيه، ويقبل الانطباق على صلاتي المغرب والعشاء.

وقوله: «وأدبار السجود» الأدبار جمع دبر وهو ما ينتهي اليه الشيء وبعده، وكأن المراد بأدبار السجود بعد الصلوات فإن السجود آخر الركعة من الصلاة فينطبق على التعقيب بعد الصلوات، وقيل: المراد به النوافل بعد الفرائض، وقيل: المراد به الركعتان أو الركعات بعد المغرب وقيل: ركعة الوتر في آخر الليل.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ فسّروا الاستماع بمعان مختلفة والأقرب أن يكون مضمناً معنى الانتظار و«يوم يناد المناد» مفعوله والمعنى: وانتظر يوماً ينادي فيه المنادي ملقياً سمعك لاستماع ندائه، والمراد بنداء المنادي نفخ صاحب الصور في الصور على ما تفيده الآية التالية.

وكون النداء من مكان قريب لإحاطته بهم فيقع في سمعهم على نسبة سواء لا تختلف

بالقرب والبعد فإنما هو نداء البعث وكلمة الحياة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ بيان ليوم ينادي المنادي، وكون الصيحة بالحق لأنها مقضية قضاء محتوماً كما مر في قوله: «وجاءت سكرة الموت بالحق» الآية.

وقوله: ﴿ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي يوم الخروج من القبور كما قال تعالى: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً﴾ (المعارج / ٤٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ المراد بالإحياء إفاضة الحياة على الأجساد الميتة في الدنيا، وبالإماتة الإماتة في الدنيا وهي النقل الى عالم القبر، وبقوله: «والينا المصير» الإحياء بالبعث في الآخرة على ما يفيده السياق.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أصل «تشقق» تتشقق اي تتصدع عنهم فيخرجون منها مسارعين الى الداعي.

وقوله: ﴿ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي ما ذكرنا من خروجهم من القبور المنشقة عنهم سراعاً جمع لهم علينا يسير.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ في مقام التعليل لقوله: «فاصبر على ما يقولون» الآية، والجبار المتسلط الذي يجبر الناس على ما يريد.

والمعنى: فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربك وانتظر البعث فنحن أعلم بما يقولون سنجزيهم بما عملوا ولست أنت بمتسلط جبار عليهم حتى تجبرهم على ما تدعوهم اليه من الإيمان بالله واليوم الآخر وإذا كانت حالهم هذه الحال فذكّر بالقرآن من يخاف وعيدي.

سورة الذاريات مكية وهي ستون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ۞ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً.

٢ ۞ فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً.

٣ ۞ فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً.

٤ ۞ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً.

٥ ۞ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ.

٦ ۞ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ.

٧ ۞ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ.

٨ ۞ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ.

٩ ۞ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ.

١٠ ۞ قُتِلَ ٱلْخَرَّاصُونَ.

١١ ۞ أَلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ.

١٢ ● يَسْئَلُون أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ.

١٣ ● يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ.

١٤ ● ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ.

١٥ ● إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ.

١٦ ● آخِذِينَ مَا آتيهُمْ رَبُّهُم إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ.

١٧ ● كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ.

١٨ ● وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ.

١٩ ● وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ.

بيان:

كانت الدعوة النبوية تدعو الوثنية الى توحيد الربوبية وأن الله تعالى هو ربهم ورب كل شيء، وكانت الدعوة من طريق الإنذار والتبشير وخاصة بالإنذار وكان الإنذار بعذاب الله في الدنيا للمكذبين عذاب الاستئصال. وفي الآخرة بالعذاب الخالد يوم القيامة وهو العمدة في نجاح الدعوة إذ لولا الحساب والجزاء يوم القيامة كان الإيمان بالوحدانية والنبوة لغىً لا أثر له.

والمشركون باتخاذهم آلهة دون الله سبحانه شديدوا الإنكار لاصول التوحيد والنبوة والمعاد. وكانوا يتعنتون بإنكار المعاد والإصرار على نفيه والاستهزاء به من أي طريق ممكن لما يرون أن في بطلانه بطلان الأصلين الآخرين.

والسورة تذكر المعاد وإنكارهم له فتبدء به وتختم عليه لكن لا من حيث نفسه كما جرى عليه الكلام في مواضع من كلامه بل من حيث إنه يوم الجزاء وأن الله الذي وعدهم به هو ربهم

وهو الذي وعدهم به ووعده صدق لا ريب فيه.

ولذلك لما انساق الكلام الى الاحتجاج عليه احتجت بأدلة التوحيد من آيات الأرض والسماء والأنفس وما عاقب الله به الامم الماضين إثر دعوتهم الى التوحيد وتكذيبهم لرسله، وليس إلا ليثبت بها التوحيد فيثبت به يوم الجزاء الذي وعده الله والله لا يخلف الميعاد وأخبرت به الدعوة النبوية فيندفع بذلك إنكارهم للجزاء وقد توسلوا بذلك الى إبطال دين التوحيد ورسالة الرسول لصيرورة الايمان به لغواً لا أثر له كما تقدمت الإشارة اليه.

والسورة مكية لشهادة سياق آياتها عليه ولم يختلف في ذلك أحد، ومن غرر آياتها قوله تعالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون».

والفصل الذي أوردناه من الآيات مفتتح الكلام يذكر فيه أن الجزاء الذي وعدوه صدق وإنكارهم له وتعنتهم بذلك تخرص ثم يصف يوم الجزاء وحال المتقين والمنكرين فيه.

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ الذاريات جمع الذارية من قولهم: ذرت الريح التراب تذروه ذرواً إذا أطارته والوقر بالكسر فالسكون ثقل الحمل في الظهر أو في البطن.

وفي الآيات إقسام بعد إقسام يفيد التأكيد بعد التأكيد للمقسم عليه وهو الجزاء على الأعمال فقوله: «والذاريات ذرواً» إقسام بالرياح المثيرة للتراب، وقوله: «فالحاملات وقراً» بالفاء المفيدة للتأخير والترتيب معطوف على الذاريات وإقسام بالسحب الحاملة لثقل الماء، وقوله: «فالجاريات يسراً» عطف عليه وإقسام بالسفن الجارية في البحار بيسر وسهولة.

وقوله: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ عطف على ما سبقه وإقسام بالملائكة الذين يعملون بأمره فيقسمونه باختلاف مقاماتهم فإن أمر ذي العرش بالخلق والتدبير واحد فإذا حمله طائفة من الملائكة على اختلاف أعمالهم انشعب الأمر وتقسم بتقسمهم ثم إذا حمله طائفة هي

دون الطائفة الاولى تقسم ثانياً بتقسمهم وهكذا حتى ينتهي الى الملائكة المباشرين للحوادث الكونية الجزئية فينقسم بانقسامها ويتكثر بتكثرها.

والآيات الأربع ـ كما ترى ـ تشير الى عامة التدبير حيث ذكرت انموذجاً مما يدبر به الأمر في البر وهو الذاريات ذرواً، وانموذجاً مما يدبر به الأمر في البحر وهو الجاريات يسراً وانموذجاً مما يدبر به الأمر في الجو وهو الحاملات وقراً، وتم الجميع بالملائكة الذين هم وسائط التدبير وهم المقسمات أمراً.

فالآيات في معنى أن يقال: أقسم بعامة الأسباب التي يتمم بها أمر التدبير في العالم إن كذا كذا، وقد ورد من طرق الخاصة والعامة عن علي عليه أفضل السلام تفسير الآيات الأربع بما تقدم.

وعن الفخر الرازي في التفسير الكبير أن الأقرب حمل الآيات الأربع جميعاً على الرياح فإنها كما تذرو التراب ذرواً تحمل السحب الثقال وتجري في الجو بيسر وتقسم السحب على الأقطار من الأرض.

والحق أن ما استقر به بعيد، وما تقدم من المعنى أبلغ مما ذكره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ «ما» موصولة، والضمير العائد اليها محذوف أي الذين توعدونه، أو مصدرية، و«توعدون» من الوعد كما يؤيده قوله: «وإن الدين لواقع» الشامل لمطلق الجزاء، وقيل: من الايعاد كما يؤيده قوله: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ (ق / ٤٥).

وعد الوعد صادقاً من المجاز في النسبة كما في قوله: ﴿في عيشة راضية﴾ (الحاقة / ٢١) أو الصادق بمعنى ذو صدق كما قيل بمثله في قوله: ﴿في عيشة راضية﴾ والدين الجزاء.

وكيف كان فقوله: «إن ما توعدون لصادق» جواب القسم، وقوله: «وإن الدين لواقع» معطوف عليه بمنزلة التفسير، والمعنى أقسم بكذا وكذا أن الذي توعدونه ـ وهو الذي يعدهم

القرآن أو النبي ﷺ بما أنزل اليه ـ من يوم البعث وأن الله سيجزيهم فيه بأعمالهم إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً لصادق، وإن الجزاء لواقع.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ الحبك بمعنى الحسن والزينة، وبمعنى الخلق المستوي، ويأتي جمعاً لحبيكة أو حباك بمعنى الطريقة كالطرائق التي تظهر على الماء إذا تثنى وتكسر من مرور الرياح عليه.

والمعنى على الأول: أقسم بالسماء ذات الحسن والزينة نظير قوله تعالى: ﴿إنّا زينّا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ (الصافات / ٦)، وعلى الثاني: اقسم بالسماء ذات الخلق المستوي نظير قوله: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ (الآية ٤٧ من السورة) وعلى الثالث اقسم بالسماء ذات الطرائق نظير قوله: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾ (المؤمنون / ١٧).

ولعل المعنى الثالث أظهر لمناسبته لجواب القسم الذي هو اختلاف الناس وتشتت طرائقهم كما أن الاقسام السابقة «والذاريات ذرواً» الخ؛ كانت مشتركة في معنى الجري والسير مناسبة لجوابها «إنما توعدون» الخ؛ المتضمن لمعنى الرجوع الى الله والسير اليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ القول المختلف ما يتناقض ويدفع بعضه بعضاً وحيث إن الكلام في إثبات صدق القرآن أو الدعوة أو النبي ﷺ فيما وعدهم من أمر البعث والجزاء فالمراد بالقول المختلف ـ على الأقرب ـ قولهم المختلف في أمر القرآن لغرض إنكار ما يثبته فتارة يقولون: إنه سحر والجائي به ساحر، وتارة يقولون: زجر والجائي به مجنون، وتارة يقولون: القاء شياطين الجن والجائي به كاهن، وتارة يقولون: شعر والجائي به شاعر، وتارة إنه افتراء، وتارة يقولون إنما يعلمه بشر، وتارة يقولون: أساطير الأولين اكتتبها.

وقوله: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ الافك الصرف، وضمير «عنه» الى الكتاب من حيث اشتماله على وعد البعث والجزاء، والمعنى: يصرف عن القرآن من صرف، وقيل:

الضمير للنبي ﷺ والمعنى: يصرف عن الإيمان به من صرف، وقد عرفت أن المعنى السابق أوفق للسياق وإن كان مآل المعنيين واحداً.

وحكي عن بعضهم أن ضمير «عنه» لما توعدون أو للدين أقسم تعالى أولاً بالذاريات وغيرها على أن البعث والجزاء حق ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه فمنهم شاك ومنهم جاحد ثم قال تعالى: يؤفك عن الإقرار بأمر البعث والجزاء من هو مأفوك. وهذا الوجه قريب من الوجه السابق.

وعن بعضهم: أن الضمير لقوله مختلف و«عن» للتعليل كما في قوله تعالى: ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ (هود / ٥٣)، فيكون الجملة صفة لقول والمعنى: إنكم لفي قول مختلف يؤفك بسببه من أُفك، وهو وجه حسن.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّاصُونَ أَلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ يَسْئَلُون أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ أصل الخرص القول بالظن والتخمين من غير علم، ولكون القول بغير علم في خطر من الكذب يسمى الكذاب خرّاصاً، والأشبه أن يكون المراد بالخراصين في الآية القوالين من غير علم ودليل وهم الخائضون في أمر البعث والجزاء المنكرون له بغير علم.

وفي قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّاصُونَ﴾ دعاء عليهم بالقتل وهو كناية عن نوع من الطرد والحرمان من الفلاح واليه يؤل قول من فسره باللعن.

وقوله: ﴿أَلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ الغمرة ـ كما ذكر الراغب ـ معظم الماء الساتر لمقرها، وجعل مثلاً للجهالة التي تغمر صاحبها، والمراد بالسهو ـ كما قيل ـ مطلق الغفلة.

ومعنى الآية وهي تصف الخراصين: الذين هم في جهالة أحاطت بهم غافلون عن حقيقة ما أُخبروا به.

وقوله: ﴿يَسْئَلُون أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ ضمير الجمع للخراصين قول قالوه على طريق

الاستعجال استهزاء كقولهم : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ (يس / ٤٨) .

والسؤال بأيان ـ الموضوعة للسؤال عن زمان مدخولها ـ عن يوم الدين وهو ظاهر في الزمان إنما هو بعناية أن يوم الدين لكونه موعوداً ملحق بالزمانيات فيسأل عنه كما يسأل عن الزمانيات بأيان ومتى كما يقال : متى يوم العيد لكونه ذا شأن ملحقاً لذلك بالزمانيات كذا قيل .

ويمكن أن يكون من التوسع في معنى الظرفية بأن يعدّ أوصاف الظرف الخاصة به ظرفاً توسعاً فيكون السؤال عن زمان الزمان سؤالاً عن أنه بعد أي زمان أو قبل أي زمان ؟ كما يقال : متى يوم العيد ؟ فيجاب بأنه بعد عشرة أيام مثلاً أو قبل يوم كذا ، وهو توسع جار في العرف غير مختصّ بكلام العرب ، وفي القرآن منه شيء كثير .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ ضمير الجمع الخراصين ، والفتن في الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم استعمل في مطلق الاحراق والتعذيب ، والظرف متعلق بفعل محذوف أو مبتدأ ، والآية جواب من سؤالهم عدل فيه عن بيان وقت يوم الدين الى بيان صفته والإشارة الى حالهم فيه لما أن وقته من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله قال تعالى : ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ .

وتقدير الآية ومعناها : يقع يوم الدين أو هو واقع يوم هم أي الخراصون في النار يعذبون أو يحرقون .

قوله تعالى : ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ حكاية خطاب منه تعالى أو من الملائكة بأمره للخراصين وهم يفتنون على النار يومئذ .

والمعنى : يقال لهم ذوقوا العذاب الذي يخصكم . هذا العذاب هو الذي كنتم تستعجلون به إذ تقولون استعجالاً واستهزاء : أيان يوم الدين .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ بيان لحال المتقين يوم الدين بعد

وصف حال أُولئك الخراصين.

وتنكير جنات وعيون للإشارة الى عظم قدرها كأنها بحيث لا يقدر الواصفون على وصفها، وقد أُلحقت العيون بالجنات في ظرفيتها توسعاً.

قوله تعالى: ﴿آخِذِينَ مَا آتَيهُمْ رَبُّهُم إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي قابلين ما أعطاهم ربهم الرؤف بهم راضين عنه وبما أعطاهم كما يفيده خصوص التعبير بالأخذ والإيتاء ونسبة الإيتاء الى ربهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ تعليل لما تقدمه أي إن حالهم تلك الحال لأنهم كانوا قبل ذلك أي في الدنيا ذوي إحسان في أعمالهم أي ذوي أعمال حسنة.

قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ الآيات تفسير لإحسانهم، والهجوع النوم في الليل وقيل: النوم القليل.

ويمكن أن تكون: ما زائدة و«يهجعون» خبر كانوا، و«قليلاً» ظرفاً متعلقاً به أي في زمان قليل أو صفة لمفعول مطلق محذوف أي هجوعاً قليلاً «ومن الليل» متعلقاً بقليلاً والمعنى: كانوا ينامون في زمان قليل من الليل أو ينامون الليل نوماً قليلاً.

وأن تكون موصولة والضمير العائد اليها محذوفاً و«قليلاً» خبر كانوا والموصول فاعله والمعنى: كانوا قليلاً من الليل الذي يهجعون فيه.

وأن تكون مصدرية والمصدر المسبوك منها ومن مدخولها فاعلا لقوله: «قليلاً» وهو خبر «كانوا».

وعلى أي حال فالقليل من الليل إما مأخوذ بالقياس الى مجموع زمان كل ليلة فيفيد أنهم يهجعون كل ليلة زماناً قليلاً منها ويصلون أكثرها، وإما مأخوذ بالقياس الى مجموع الليالي فيفيد أنهم يهجعون في قليل من الليالي ويقومون للصلاة في أكثرها أي لا يفوتهم صلاة الليل إلا في قليل من الليالي.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي يسألون الله المغفرة لذنوبهم، وقيل: المراد بالاستغفار الصلاة وهو كما ترى.

قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ الآيتان السابقتان تبينان خاصة سيرتهم في جنب الله سبحانه وهي قيام الليل والاستغفار بالأسحار وهذه الآية تبين خاصة سيرتهم في جنب الناس وهي إيتاء السائل والمحروم.

وتخصيص حق السائل والمحروم بأنه في أموالهم ـ مع أنه لو ثبت فإنما يثبت في كل مال ـ دليل على أن المراد أنهم يرون بصفاء فطرتهم أن في أموالهم حقاً لهم فيعملون بما يعملون نشراً للرحمة وإيثاراً للحسنة.

والسائل هو الذي يسأل العطية بإظهار الفاقة والمحروم هو الذي حرم الرزق فلم ينجح سعيه في طلبه ولا يسأل تعففاً.

٢٠ ● وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ.

٢١ ● وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ.

٢٢ ● وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ.

٢٣ ● فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ.

٢٤ ● هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ.

٢٥ ● إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ.

٢٦ ● فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ.

٢٧ ● فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ.

٢٨ ● فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ.

٢٩ ۞ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ.

٣٠ ۞ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ.

٣١ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ.

٣٢ ۞ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِين.

٣٣ ۞ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ.

٣٤ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ.

٣٥ ۞ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ.

٣٦ ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ.

٣٧ ۞ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ.

٣٨ ۞ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ.

٣٩ ۞ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِه وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ.

٤٠ ۞ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ.

٤١ ۞ وَفِي عَادٍ إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ.

٤٢ ۞ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ.

٤٣ ۞ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ.

٤٤ ۞ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ.

٤٥ ۞ فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ.

٤٦ ۞ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ.

٤٧ ۞ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ .

٤٨ ۞ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ .

٤٩ ۞ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

٥٠ ۞ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ .

٥١ ۞ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِين .

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ الاستنتاج الآتي في آخر هذه الآيات في قوله: « ففرُّوا الى الله ـ الى أن قال ـ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر » الآية، يشهد على أن سوق هذه الآيات والدلائل لإثبات وحدانيته تعالى في الربوبية لا لإثبات أصل وجوده أو انتهاء الخلق اليه ونحو ذلك.

وفي الآية إشارة الى ما تتضمنه الأرض من عجائب الآيات الدالة على وحدة التدبير القائمة بوحدانية مدبره من بر وبحر وجبال وتلال وعيون وأنهار ومعادن ومنافعها المتصلة بعضها ببعض الملائمة بعضها لبعض ينتفع بها ما عليها من النبات والحيوان في نظام واحد مستمر من غير اتفاق وصدفة، لائح عليها آثار القدرة والعلم والحكمة دالّ على أن خلقها وتدبير أمرها ينتهي الى خالق مدبر قادر عليم حكيم.

فأي جانب قصد من جوانبها وأية وجهة وليت من جهات التدبير العالم الجاري فيها كانت آية بيّنة وبرهاناً ساطعاً على وحدانية ربها لا شريك له ينجلي فيه الحق لأهل اليقين ففيها آيات للموقنين.

قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ معطوف على قوله: « في الأرض » أي

وفي أنفسكم آيات ظاهرة لمن أبصر اليها وركز النظر فيها أفلا تبصرون.

والآيات التي في النفوس منها ما هي في تركّب الأبدان من أعضائها وأعضاء أعضائها حتى ينتهي الى البسائط وما لها من عجائب الأفعال والآثار المتحدة في عين تكثرها المدبرة جميعاً لمدبر واحد، وما يعرضها من مختلف الأحوال كالجنينية والطفولية والرهاق والشباب والشيب.

ومنها ما هي من حيث تعلق النفوس أعني الأرواح بها كالحواس من البصر والسمع والذوق والشمّ واللمس التي هي الطرق الأولية لاطّلاع النفوس على الخارج لتميز بذلك الخير من الشر والنافع من الضار لتسعى الى ما فيه كمالها وتهرب مما لا يلائمها، وفي كل منها نظام وسيع جار فيه منفصل بذاته عن غيره كالبصر لا خبر عنده عما يعمله السمع بنظامه الجاري فيه وهكذا، والجميع مع هذا الانفصال والتقطع مؤتلفة تعمل تحت تدبير مدبر واحد هو النفس المدبرة والله من ورائهم محيط.

ومن هذا القبيل سائر القوى المنبعثة عن النفوس في الأبدان كالقوة الغضبية والقوة الشهوية وما لها من اللواحق والفروع فإنها على ما للواحد منها بالنسبة الى غيره من البينونة وانفصال النظام الجاري فيه عن غيره واقعة تحت تدبير مدبر واحد تتعاضد جميع شعبها وتأتلف لخدمته.

ونظام التدبير الذي لكل من هذه المدبرات إنما وجد له حينما وجد وأول ما ظهر من غير فصل فليس مما عملت فيه خيرته وأوجده هو لنفسه عن فكر وروية أو بغيره فنظام تدبيره كنفسه من صانع صنعه وألزمه نظامه بتدبيره.

ومنها الآيات الروحانية الواقعة في عالم النفوس الظاهرة لمن رجع اليها وراقب الله سبحانه فيها من آيات الله التي لا يسعها وصف الواصفين وينفتح بها باب اليقين وتدرج المتطلع عليها في زمرة الموقنين فيرى ملكوت السماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿وكذلك نُري إبراهيم

ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ (الأنعام / ٧٥).

قوله تعالى: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُم وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قيل: المراد بالسماء جهة العلو فإن كل ما علاك وأظلّك فهو سماء لغة. والمراد بالرزق المطر الذي ينزله الله على الأرض فيخرج به أنواع ما يقتاتونه ويلبسونه وينتفعون به وقد قال تعالى: ﴿ وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ (الجاثية / ٥). فسمّى المطر رزقاً فالمراد بالرزق سببه أو بتقدير مضاف أي سبب رزقكم.

ويمكن أن يكون المراد به عالم الغيب فإن الأشياء ومنها الأرزاق تنزل من عند الله سبحانه وقد صرّح بذلك في أشياء كقوله تعالى: ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ (الزمر / ٦)، وقوله: ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ (الحديد / ٢٥)، وقوله على نحو العموم: ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ (الحجر / ٢١)، والمراد بالرزق كل ما ينتفع به الإنسان في بقائه من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومنكح وولد وعلم وقوة وغير ذلك.

وقوله: ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ عطف على «رزقكم» الظاهر أن المراد به الجنة لقوله تعالى: ﴿ عندها جنة المأوى ﴾ (النجم / ١٥)، وقوله بعضهم: إن المراد به الجنة والنار أو الثواب والعقاب لا يلائمه قوله تعالى: ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط ﴾ (الأعراف / ٤٠).

نعم تكرر في القرآن نسبة نزول العذاب الدنيوي الى السماء كقوله: ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء ﴾ (البقرة / ٥٩)، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ النطق التكلم وضمير «إنه» راجع الى ما ذكر من كون الرزق وما توعدون في السماء والحق هو الثابت المحتوم في القضاء الإلهي دون أن يكون أمراً تبعياً أو اتفاقياً.

والمعنى: أُقسم برب السماء والأرض إن ما ذكرناه من كون رزقكم وما توعدونه من الجنة ـ وهو أيضاً من الرزق فقد تكرر في القرآن تسمية الجنة رزقاً كقوله: ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ (الأنفال / ٧٤)، وغير ذلك ـ في السماء لثابت مقضي مثل نطقكم وتكلمكم الذي هو حق لا ترتابون فيه[1].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ إشارة الى قصة دخول الملائكة المكرمين على إبراهيم عليه السلام وتبشيرهم له ولزوجه ثم إهلاكهم قوم لوط، وفيها آية على وحدانية الربوبية كما تقدمت الإشارة اليه.

وفي قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ﴾ تفخيم لأمر القصة و«المكرمين» ـ وهم الملائكة الداخلون على إبراهيم ـ صفة «ضيف» وإفراده لكونه في الأصل مصدراً لا يثنى ولا يجمع.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة: «حديث» و«سلاماً» مقول القول والعامل فيه محذوف أي قالوا: نسلّم عليك سلاماً.

وقوله: ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ قول ومقول و«سلام» مبتدأ محذوف الخبر والتقدير سلام عليكم، وفي إتيانه بالجواب جملة اسمية دالة على الثبوت تحية منه عليه السلام بما هو أحسن من تحيتهم بقولهم: سلاماً فإنه جملة فعلية دالة على الحدوث.

وقوله: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ الظاهر أنه حكاية قول إبراهيم في نفسه، ومعناه أنه لما رآهم استنكرهم وحدَّث نفسه أن هؤلاء قوم منكرون، ولا ينافي ذلك ما وقع في قوله تعالى: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾ (هود / ٧٠) حيث ذكر نكره بعد تقريب العجل الحنيذ اليهم فإن ما في هذه السورة حديث نفسه به وما في سورة هود ظهوره في وجهه بحيث يشاهد

---

١. الذاريات ٢٠ ـ ٥١: كلام في تكافؤ الرزق والمرزوق.

منه ذلك.

وهذا المعنى أوجه من قول جمع من المفسرين: إنه حكاية قوله ﷺ لهم والتقدير أنتم قوم منكرون.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ الرواغ الذهاب على سبيل الاحتيال على ما قاله الراغب وقال غيره: هو الذهاب الى الشيء في خفية، والمعنى الأول يرجع الى الثاني.

والمراد بالعجل السمين المشوي منه بدليل قوله: «فقرّبه اليهم» أو الفاء فصيحة والتقدير فجاء بعجل سمين فذبحه وشوّاه وقرّبه اليهم.

قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ عرض الأكل على الملائكة وهو يحسبهم بشراً.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ الخ: الفاء فصيحة والتقدير فلم يمدوا اليه أيديهم فلما رأى ذلك نكرهم وأوجس منهم خيفة، والايجاس الإحساس في الضمير والخيفة بناء نوع من الخوف أي أضمر منهم في نفسه نوعاً من الخوف.

وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ جيء بالفصل لا بالعطف لأنه في معنى جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: فماذا كان بعد ايجاس الخيفة فقيل: قالوا: لا تخف وبشّروه بغلام عليم فبدلوا خوفه أمنة وسروراً والمراد بغلام عليم إسماعيل أو إسحاق وقد تقدم الخلاف فيه.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ في المجمع الصرّة شدّة الصياح وهو من صرير الباب ويقال للجماعة صرّة أيضاً. قال: والصك الضرب باعتماد شديد انتهى.

والمعنى فأقبلت إمرأة إبراهيم ﷺ ـ لما سمعت البشارة ـ في ضجة وصياح فلطمت وجهها وقالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟ أو المعنى هل عجوز عقيم تلد غلاماً؟.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الإشارة بكذلك، الى ما بشّروها به بما لها ولزوجها من حاضر الوضع هي عجوز عقيم وبعلها شيخ مسه الكبر. فربها حكيم لا يريد إلا بحكمه، عليم لا يخفى عليه وجه الأمر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ـ الى قوله ـ لِلْمُسْرِفِينَ﴾، الخطب الأمر الخطير الهام، والحجارة من الطين الطين المتحجر، والتسويم تعليم الشيء بمعنى جعله ذا علامة من السومة بمعنى العلامة.

والمعنى: «قال» إبراهيم ﷺ «فما خطبكم» والشأن الخطير الذي لكم «أيها المرسلون»، من الملائكة «قالوا» أي الملائكة لإبراهيم «إنَّا أرسلنا الى قوم مجرمين» وهم قوم لوط. «لنرسل عليهم حجارة من طين» طيناً متحجراً سماه الله سجيلاً «مسومة» معلمة «عند ربك، للمسرفين» تختص بهم لإهلاكهم. والظاهر أن اللام في المسرفين للعهد.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ـ الى قوله ـ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الفاء فصيحة وقد أوجز بحذف ما في القصة من ذهاب الملائكة الى لوط وورودهم عليه وهمِّ القوم بهم حتى إذا أخرجوا آل لوط من القرية، وقد فصلت القصة في غير موضع من كلامه تعالى.

فقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ الخ؛ بيان إهلاكهم بمقدمته، وضمير «فيها» للقرية المفهومة من السياق، و«بيت من المسلمين» بيت لوط، وقوله: «وتركنا فيها آية» إشارة الى إهلاكهم وجعل أرضهم عاليها سافلها، والمراد بالترك الإبقاء كناية وقد بيّنت هذه الخصوصيات في سائر كلامه تعالى.

والمعنى: فلما ذهبوا الى لوط وكان من أمرهم ما كان «أخرجنا من كان فيها» في القرية «من المؤمنين فما وجدنا غير بيت» واحد «من المسلمين» وهم آل لوط «وتركنا فيها» في ارضهم بقلبها وإهلاكهم «آية» دالة على ربوبيتنا وبطلان الشركاء «للذين يخافون العذاب.

الأليم » من الناس .

قوله تعالى: ﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ عطف على قوله : « وتركنا فيها آية » والتقدير وفي موسى آية . والمراد بسلطان مبين الحجج الباهرة التي كانت معه من الآيات المعجزة .

قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ التولي الإعراض والباء في قوله : « بركنه » للمصاحبة ، والمراد بركنه جنوده كما تؤيده الآية التالية ، والمعنى : أعرض مع جنوده ، وقيل : الباء للتعدية ، والمعنى : جعل ركنه متولين معرضين .

وقوله : « وقال ساحر أو مجنون » أي قال تارة هو مجنون كقوله : ﴿ إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون ﴾ (الشعراء / ٢٧) ، وقال اخرى : هو ساحر كقوله : ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ (الشعراء / ٣٤) .

قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ النبذ طرح الشيء من غير أن يعتدّ به ، واليمّ البحر ، والمليم الآتي بما يلام عليه من ألامَ بمعنى أتى بما يلام عليه كأغرب إذا أتى بأمر غريب .

والمعنى : فأخذناه وجنوده وهم ركنه وطرحناهم في البحر والحال أنه أتى من الكفر والجحود والطغيان بما يلام عليه ، وإنما خصّ فرعون بالملامة مع أن الجميع يشاركونه فيها لأنه إمامهم الذي قادهم الى الهلاك ، قال تعالى : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ (هود / ٩٨) .

وفي الكلام من الإيماء الى عظمة القدرة وهول الأخذ وهوان أمر فرعون وجنوده ما لا يخفى .

قوله تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ عطف على ما تقدمه أي وفي عاد أيضاً آية إذ أرسلنا عليهم أي أطلقنا عليهم الريح العقيم .

والريح العقيم هي الريح التي عقمت وامتنعت من أن يأتي بفائدة مطلوبة من فوائد الرياح كتنشئة سحاب أو تلقيح شجر أو تذرية طعام أو نفع حيوان أو تصفية هواء كما قيل وإنما أثرها الإهلاك كما تشير اليه الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ «ما تذر» أي ما تترك. والرميم الشيء الهالك البالي كالعظم البالي السحيق، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ - الى قوله - مُنْتَصِرِينَ﴾ عطف على ما تقدمه أي وفي ثمود أيضاً آية إذ قيل لهم: تمتعوا حتى حين، والقائل نبيهم صالح عليه السلام إذ قال لهم: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ (هود / ٦٥) قال لهم ذلك لما عقروا الناقة فأمهلهم ثلاثة أيام ليرجعوا فيها عن كفرهم وعتوّهم لكن لم ينفعهم ذلك وحق عليهم كلمة العذاب.

وقوله: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ العتوّ - على ما ذكره الراغب - النبوّ عن الطاعة فينطبق على التمرد. والمراد بهذا العتوّ العتوّ عن الأمر والرجوع الى الله أيام المهلة فلا يستشكل بأن عتوّهم عن أمر الله كان مقدماً على تمتعهم - كما يظهر من تفصيل القصة - والآية تدل على العكس.

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ هذا لا ينافي ما في موضع آخر من ذكر الصيحة بدل الصاعقة كقوله: ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ (هود / ٦٧) لجواز تحققهما معاً في عذابهم.

وقوله: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ لا يبعد أن يكون «استطاعوا» مضمناً معنى تمكنوا، و«من قيام» مفعوله أي ما تمكنوا من قيام من مجلسهم ليفروا من عذاب الله وهو كناية عن أنهم لم يمهلوا حتى بمقدار أن يقوموا من مجلسهم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ عطف على «ما استطاعوا» أي ما كانوا منتصرين

بنصرة غيرهم ليدفعوا بها العذاب عن أنفسهم. ومحصل الجملتين أنهم لم يقدروا على دفع العذاب عن أنفسهم لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ عطف على القصص السابقة، و«قوم نوح» منصوب بفعل محذوف والتقدير وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود إنهم كانوا فاسقين عن أمر الله.

فهناك أمر ونهي كلف الناس بهما من قبل الله سبحانه وهو ربهم ورب كل شيء دعاهم الى الدين الحق بلسان رسله فما جاء به الأنبياء عليهم السلام حق من عند الله ومما جاؤا به الوعد بالبعث والجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ رجوع الى السياق السابق في قوله: «وفي الأرض آيات للموقنين» الخ؛ والأيد القدرة والنعمة، وعلى كل من المعنيين يتعين لقوله: «وإنا لموسعون» ما يناسبه من المعنى.

فالمعنى على الأول: والسماء بنيناها بقدرة لا يوصف قدرها وإنا لذو واسعة في القدرة لا يعجزها شيء، وعلى الثاني: والسماء بنيناها مقارناً بناؤها لنعمة لا تقدّر بقدر وإنا لذو واسعة وغنى لا تنفد خزائننا بالإعطاء والرزق نرزق من السماء من نشاء فنوسع الرزق كيف نشاء.

ومن المحتمل أن يكون «موسعون» من أوسع في النفقة أي كثرها فيكون المراد توسعة خلق السماء كما تميل اليه الأبحاث الرياضية اليوم.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ الفرش البسط وكذا المهد أي والأرض بسطناها وسطحناها لتستقروا عليها وتسكنوها فنعم الباسطون نحن، وهذا الفرش والبسط لا ينافي كروية الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الزوجان المتقابلان، يتم أحدهما بالآخر: فاعل ومنفعل كالذكر والانثى، وقيل: المراد مطلق المتقابلات

كالذكر والانثى والسماء والأرض والليل والنهار والبر والبحر والإنس والجن وقيل: الذكر والانثى.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون أن خالقها منزه عن الزوج والشريك واحد موحَّد.

وقوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِين﴾ في الآيتين تفريع على ما تقدم من الحجج على وحدانيته في الربوبية والالوهية، وفيها قصص عدة من الامم الماضين كفروا بالله ورسله فانتهى بهم ذلك الى عذاب الاستئصال.

فالمراد بالفرار الى الله الانقطاع اليه من الكفر والعقاب الذي يستتبعه، بالإيمان به تعالى وحده واتخاذه إلهاً معبوداً لا شريك له.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ﴾ كالتفسير لقوله: «ففروا الى الله» أي المراد بالإيمان به الإيمان به وحده لا شريك له في الالوهية والمعبودية.

وقد كرر قوله: «إني لكم منه نذير مبين» لتأكيد الإنذار، والآيتان محكيتان عن لسان النبي ﷺ.

٥٢ ● كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ.

٥٣ ● أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ.

٥٤ ● فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ.

٥٥ ● وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ.

٥٦ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.

٥٧ ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ.

٥٨ ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ.

٥٩ ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ.

٦٠ ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي الأمر كذلك. فقوله: «كذلك» كالتلخيص لما تقدم من إنكارهم واختلافهم في القول.

وقوله: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الخ: بيان للمشبه.

قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ التواصي إيصاء القوم بعضهم بعضاً بأمر، وضمير «به» للقول، والاستفهام للتعجيب، والمعنى: هل وصّى بعض هذه الامم بعضاً ـ هل السابق وصّى اللاحق؟ ـ على هذا القول؟ لا بل هم قوم طاغون يدعوهم الى هذا القول طغيانهم.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ تفريع على طغيانهم واستكبارهم وإصرارهم على العناد واللجاج، فالمعنى: فإذا كان كذلك ولم يجيبوك إلا بمثل قولهم ساحر أو مجنون ولم يزدهم دعوتك إلا عناداً فأعرض عنهم ولا تجادلهم على الحق فما أنت بملوم فقد أريت الحجة وأتممت الحجة.

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تفريع على الأمر بالتولي عنهم فهو أمر بالتذكير بعد النهي عن الجدال معهم. والمعنى: واستمرّ على التذكير والعظة فذكّر كما كنت تذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين بخلاف الاحتجاج والجدال مع اولئك الطاغين فإنه لا ينفعهم شيئاً ولا يزيدهم إلا طغياناً وكفراً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فيه التفات من سياق التكلم بالغير الى التكلم وحده لأن الأفعال المذكورة سابقاً المنسوبة اليه تعالى كالخلق وإرسال الرسل وإنزال العذاب كل ذلك مما يقبل توسيط الوسائط كالملائكة وسائر الأسباب بخلاف الغرض من الخلق والإيجاد فإنه أمر يختص بالله سبحانه لا يشاركه فيه أحد.

وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ استثناء من النفي لا ريب في ظهوره في أن للخلقة غرضاً وأن الغرض العبادة بمعنى كونهم عابدين لله لا كونه معبوداً فقد قال: ليعبدون ولم يقل: لا عبَد أو لأكون معبوداً لهم.

على أن الغرض كيفما كان أمر يستكمل به صاحب الغرض ويرتفع به حاجته والله سبحانه لا نقص فيه ولا حاجة له حتى يستكمل به ويرتفع به حاجته، ومن جهة اخرى الفعل الذي لا ينتهي الى غرض لفاعله لغو سفهي ويستنتج منه أن له سبحانه في فعله غرضاً هو ذاته لا غرض خارج منه. وأن لفعله غرضاً يعود الى نفس الفعل[1] وهو كمال للفعل لا لفاعله، فالعبادة غرض لخلقة الإنسان وكمال عائد اليه هي وما يتبعها من الآثار كالرحمة والمغفرة وغير ذلك. ولو كان للعبادة غرض كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله كان هو الغرض الأقصى والعبادة غرضاً متوسطاً.

---

١. فالله تعالى خلق الانسان ليثيبه والثواب عائد الى الانسان وهو المنتفع به والله غني عنه. وأما غرضه تعالى فهو ذاته المتعالية وإنما خلقه لأنه الله عز اسمه. منه.

فالحق أن اللام في «الجن والإنس» للجنس دون الاستغراق، والمراد بالعبادة ذلك غرضاً نفسها دون الصلوح والاستعداد، ولو كان المراد هو الصلوح والاستعداد للعبادة لكان أدنى ذلك غرضاً أدنى مطلوباً لأجل غرض أعلى هو العبادة كما أن نفس العبادة بمعنى ما يأتي بـه العبد من الأعمال بالجوارح من قيام وركوع وسجود ونحوها غرض مطلوب لأجل غرض آخر هو المثول بين يدي رب العالمين بذلة العبودية وفقر المملوكية المحضة قبال العزة المطلقة والغنى المحض كما ربما استفيد من قوله تعالى: ﴿قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾ (الفرقان / ٧٧)، حيث بدل العبادة دعاء.

فحقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذلة والعبودية وتوجيه وجهه الى مقام ربه، وهذا هو مراد من فسّر العبادة بالمعرفة يعني المعرفة الحاصلة بالعبادة.

فحقيقة العبادة هي الغرض الأقصى من الخلقة وهي أن ينقطع العبد عن نفسه وعن كل شيء ويذكر ربه.

هذا ما يعطيه التدبر في قوله تعالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» ولعل تقديم الجن على الإنس لسبق خلقهم على خلق الإنس قال تعالى: ﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ (الحجر / ٢٧)، والعبادة هي غرض الفعل أي كمال عائد اليه لا الى الفاعل على ما تقدم.

ويظهر من القصر في الآية بالنفي والاستثناء أن لا عناية لله بمن لا يعبده كما يفيده أيضاً قوله: «قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم».

قوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ الإطعام إعطاء الطعام ليطعم ويؤكل قال تعالى: ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾ (الشعراء / ٧٩)، وقال: ﴿الذي أطعمهم من جوع﴾ (قريش / ٤)، فيكون ذكر الإطعام بعد الرزق من قبيل ذكر الخاص بعد العام لتعلق عناية خاصة به وهي أن التغذيَ أوسع حوائج الإنسان وغيره

وأخسها لكونه مسبوقاً بالجوع وملحوقاً بالدفع.

وقيل: المراد بالرزق رزق العباد والمعنى: ما أُريد منهم أن يرزقوا عبادي الذين أرزقهم وما أُريد أن يعموني نفسي.

وقيل: المراد بالإطعام تقديم الطعام اليه كما يقدم العبد الطعام الى سيده والخادم الى مخدومه فيكون المراد بالرزق تحصيل أصل الرزق وبالإطعام تقديم ما حصلوه والمعنى: ما أُريد منهم رزقاً يحصلونه لي فأرتزق به وما أُريد منهم أن يقدموا إليَّ ما أرتزق وأطعمه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ تعليل لقوله: «ما أُريد منهم من رزق» الخ؛ والالتفات في الآية من التكلم وحده الى الغيبة لإنهاء التعليل الى اسم الجلالة الذي منه يبتدىء كل شيء واليه يرجع كأنه قال: ما أُريد منهم رزقاً لأني أنا الرزاق لأني أنا الله تبارك اسمه.

والتعبير بالرزاق ـ اسم مبالغة ـ وكان الظاهر أن يقال: إن الله هو الرازق للاشارة الى أنه تعالى إذا كان رازقاً وحده كان رزاقاً لكثرة من يرزقه فالآية نظير قوله: «وما أنا بظلام للعبيد».

وذو القوة من أسمائه تعالى بمعنى القوي لكنه أبلغ من القوي، والمتين أيضاً من أسمائه تعالى بمعنى القوي.

والتعبير بالأسماء الثلاثة للدلالة على انحصار الرزق فيه تعالى وأنه لا يأخذه ضعف في إيصال الرزق الى المرتزقين على كثرتهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ الذنوب النصيب، والاستعجال طلب العجلة والحث عليها. والآية متفرعة على قوله: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» بلازم معناه.

والمعنى: فإذا كان هؤلاء الظالمون لا يعبدون الله ولا عناية له بهم ولا سعادة من قبله

تشملهم فإن لهم نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم من الامم الماضية الهالكة فلا يطلبوا مني أن أُعجل لهم العذاب ولا يقولوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وأيّان يوم الدين .

وفي الآية التفات من الغيبة الى التكلم وحده وهو في الحقيقة رجوع من سياق الغيبة الذي في قوله : « إن الله هو الرزاق » الخ ؛ الى التكلم وحده الذي في قوله : « وما خلقت » الخ ؛ لتفرع الكلام عليه .

قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ تفريع على قوله : « فإن للذين ظلموا ذنوباً » الخ ؛ وتنبيه على أن هذا الذنوب محقق لهم يوم القيامة وإن أمكن أن يجعل لهم بعضه ، وهو يوم ليس لهم فيه إلا الويل والهلاك وهو يومهم الموعود .

وفي تبديل قوله في الآية السابقة للذين ظلموا من قوله في هذه الآية : « للذين كفروا » تنبيه على أن المراد بالظلم ظلم الكفر [1]

---

١ . الذاريات ٥٢ ـ ٦٠ : بحث روائي في العبادة وما يترتب عليها .

سورة الطور مكية وهي تسع وأربعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ وَالطُّورِ.

٢ ❁ وَكِتٰابٍ مَسْطُورٍ.

٣ ❁ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ.

٤ ❁ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُور.

٥ ❁ وَالسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ.

٦ ❁ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ.

٧ ❁ إِنَّ عَذٰابَ رَبِّكَ لَوٰاقِعٌ.

٨ ❁ مٰا لَهُ مِنْ دٰافِعٍ.

٩ ❁ يَوْمَ تَمُورُ السَّمٰاءُ مَوْراً.

١٠ ❁ وَتَسِيرُ ٱلْجِبٰالُ سَيْراً.

بيان:

غرض السورة إنذار أهل التكذيب والعناد من الكفار بالعذاب الذي أُعدَّ لهم يوم القيامة فتبدأ بالإنباء عن وقوع العذاب الذي أُنذروا به وتحققه يوم القيامة بأقسام مؤكدة وأيمان مغلظة، وأنه غير تاركهم يومئذ حتى يقع بهم ولا مناص.

ثم تذكر نبذة من صفة هذا العذاب والويل الذي يعمهم ولا يفارقهم ثم تقابل ذلك بشمة من نعيم أهل النعيم يومئذ وهم المتقون الذين كانوا في الدنيا مشفقين في أهلهم يدعون الله مؤمنين به موحدين له.

ثم تأخذ في توبيخ المكذبين على ما كانوا يرمون النبي ﷺ وما أُنزل عليه من القرآن وما أتى به من الدين الحق.

وتختم الكلام بتكرار التهديد والوعيد وأمر النبي ﷺ بتسبيح ربه. والسورة مكية كما يشهد بذلك سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ قيل: الطور مطلق الجبل وقد غلب استعماله في الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، والأنسب أن يكون المراد في الآية جبل موسى عليه السلام أقسم الله تعالى به لما قدسه وبارك فيه كما أقسم به في قوله: **﴿وطور سنين﴾** (التين / ٢)، وقال: **﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن﴾** (مريم / ٥٢). وقال في خطابه لموسى عليه السلام: **﴿فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾** (طه / ١٢)، وقال: **﴿نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة﴾** (القصص / ٣٠).

وقيل: المراد مطلق الجبل أقسم الله تعالى به لما أودع فيه من أنواع نعمه قال تعالى: **﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها﴾** (حم السجدة / ١٠).

قوله تعالى: **﴿وكتاب مسطور في رقّ منشور﴾** قيل: الرق مطلق ما يكتب فيه وقيل: هو

الورق، وقيل: الورق المأخوذ من الجلد، والنشر هو البسط، والتفريق.

والمراد بهذا الكتاب قيل: هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه ما كان وما يكون وما هو كائن تقرؤه ملائكة السماء، وقيل: المراد به صحائف الأعمال تقرؤه حفظة الأعمال من الملائكة، وقيل: هو القرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ، وقيل: هو التوراة وكانت تكتب في الرق وتنشر للقراءة.

والأنسب بالنظر الى الآية السابقة هو القول الأخير.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾ قيل: المراد به الكعبة المشرفة فإنها أول بيت وضع للناس ولم يزل معموراً منذ وضع الى يومنا هذا قال تعالى: ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ (آل عمران / ٩٦).

وفي الروايات المأثورة أن البيت المعمور بيت في السماء بحذاء الكعبة تزوره الملائكة.

وتنكير «كتاب» للإيماء الى استغنائه عن التعريف فهو تنكير يفيد التعريف ويستلزمه.

قوله تعالى: ﴿ وَالسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾ هو السماء.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ قال الراغب: السجر تهييج النار، وفي المجمع: المسجور المملوء يقال: سجرت التنور أي ملأتها ناراً، وقد فسرت الآية بكل من المعنيين ويؤيد المعنى الأول قوله: ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ (التكوير / ٦)، أي سعرت وقد ورد في الحديث أن البحار تسعّر ناراً يوم القيامة، وقيل: المراد أنها تغيض مياهها بتسجير النار فيها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذٰابَ رَبِّكَ لَوٰاقِعٌ مٰا لَهُ مِنْ دٰافِعٌ ﴾ جواب القسم السابق والمراد بالعذاب المخبر بوقوعه عذاب يوم القيامة الذي أوعد الله به الكفار المكذبين كما تشير اليه الآية التالية، وفي قوله: «ما له من دافع» دلالة على أنه من القضاء المحتوم الذي لا محيص عن وقوعه قال تعالى: ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ (الحج / ٧).

وفي قوله: ﴿عَذَابَ رَبِّكَ﴾ بنسبة العذاب الى الرب المضاف الى ضمير الخطاب دون أن يقال: عذاب الله تأييد للنبي ﷺ على مكذبي دعوته وتطييب لنفسه أن ربه لا يخزيه يومئذ كما قال: ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ (التحريم / ٨).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً﴾ ظرف لقوله: «إن عذاب ربك لواقع».

والمور ـ على ما في المجمع ـ تردد الشيء بالذهاب والمجيء كما يتردد الدخان ثم يضمحل، ويقرب منه قول الراغب: إنه الجريان السريع.

وعلى أي حال فيه إشارة الى انطواء العالم السماوي كما يذكره تعالى في مواضع من كلامه كقوله: ﴿إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت﴾ (الإنفطار / ٢)، وقوله: ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ (الأنبياء / ١٠٤)، وقوله: ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾ (الزمر / ٦٧).

كما أن قوله: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً﴾ إشارة الى زلزلة الساعة في الأرض التي يذكرها تعالى في مواضع من كلامه كقوله: ﴿إذا رجّت الأرض رجاً وبسّت الجبال بسّاً فكانت هباء منبثاً﴾ (الواقعة / ٦)، وقوله: ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾ (النبأ / ٢٠).

١١ ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.

١٢ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ.

١٣ ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً.

١٤ ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ.

١٥ ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ.

١٦ ◉ إِصْلَوْهٰا فَاصْبِرُوا أَوْ لاٰ تَصْبِرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

١٧ ◉ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَنَعِيمٍ.

١٨ ◉ فٰاكِهِينَ بِمٰا آتٰيهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقٰيهُمْ رَبُّهُمْ عَذٰابَ الْجَحِيمِ.

١٩ ◉ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

٢٠ ◉ مُتَّكِئِينَ عَلىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ.

٢١ ◉ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمٰانٍ أَلْحَقْنٰا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمٰا أَلَتْنٰاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِىءٍ بِمٰا كَسَبَ رَهِينٌ.

٢٢ ◉ وَأَمْدَدْنٰاهُمْ بِفٰاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمّٰا يَشْتَهُونَ.

٢٣ ◉ يَتَنٰازَعُونَ فِيهٰا كَأْساً لاٰ لَغْوٌ فِيهٰا وَلاٰ تَأْثِيمٌ.

٢٤ ◉ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمٰانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ.

٢٥ ◉ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَسٰاءَلُونَ.

٢٦ ◉ قٰالُوا إِنّٰا كُنّٰا قَبْلُ فِي أَهْلِنٰا مُشْفِقِينَ.

٢٧ ◉ فَمَنَّ اللّٰهُ عَلَيْنٰا وَوَقٰينٰا عَذٰابَ السَّمُومِ.

٢٨ ◉ إِنّٰا كُنّٰا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ تفريع على ما دلت عليه الآيات السابقة من

تحقق وقوع العذاب يوم القيامة أي إذا كان الأمر كما ذكر ولم يكن محيص عن وقوع العذاب فويل لمن يقع عليه وهم المكذبون لا محالة فالجملة تدل على كون المعذبين هم المكذبين بالاستلزام وعلى تعلق الويل بهم بالمطابقة.

أو التقدير إذا كان العذاب واقعاً لا محالة ولا محالة لا يقع إلّا على المكذبين لأنهم الكافرون بالله المكذبون ليوم القيامة فويل يومئذ لهم. فالدال على تعلق العذاب بالمكذبين هو قوله: «عذاب ربك» لأن عذاب الله إنما يقع على من دعاه فلم يجبه وكذب دعوته.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ الخوض هو الدخول في باطل القول قال الراغب: الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه، ويستعار في الامور وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه انتهى، وتنوين التنكير في «حوض» يدل على صفة محذوفة أي في خوض عجيب.

ولما كان الاشتغال بباطل القول لا يفيد نتيجة حقة إلّا نتيجة خيالية يزينها الوهم للخائض سماه لعباً ـ واللعب من الأفعال ما ليس له إلّا الأثر الخيالي ـ.

والمعنى: الذين هم مستمرون في خوض عجيب يلعبون بالمجادلة في آيات الله وإنكارها والاسهزاء بها.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ الدعُّ هو الدفع الشديد، والظاهر أن «يوم» بيان لقوله: «يومئذ».

قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم: هذه النار التي كنتم بها تكذبون، والمراد بالتكذيب بالنار التكذيب بما أخبر به الأنبياء عليهم السلام بوحي من الله من وجود هذه النار وأنه سيعذب بها المجرمون ومحصل المعنى: هذه مصداق ما أخبر به الأنبياء فكذبتهم به.

قوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ تفريع على قوله: «هذه النار التي

كنتم بها تكذبون» والاستفهام للإنكار تفريعاً لهم أي إذا كانت هذه هي تلك النار التي كنتم تكذبون بها فليس هذا سحراً كما كنتم ترمون إخبار الأنبياء بها أنه سحر وليس هذا أمراً موهوماً خرافياً كما كنتم تتفوهون به بل أمر مبصر معاين لكم فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس بهذا الحق﴾ (الأحقاف / ٣٤).

وبما مر من المعنى يظهر أن «أم» في قوله: «أم أنتم لا تبصرون» متصلة وقيل: منقطعة ولا يخلو من بعد.

قوله تعالى: ﴿إِصْلَوْهٰا فَاصْبِرُوا أَوْ لاٰ تَصْبِرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. الصلي بالفتح فالسكون مقاساة حرارة النار فمعنى اصلوها قاسوا حرارة نار جهنم.

وقوله: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لاٰ تَصْبِرُوا﴾ تفريع على الأمر بالمقاساة، والترديد بين الأمر والنهي كناية عن مساواة الفعل والترك ولذا أتبعه بقوله: «سواء عليكم» أي هذه المقاساة لازمة لكم لا تفارقكم سواء صبرتم أو لم تصبروا فلا الصبر يرفع عنكم العذاب أو يخففه ولا الجزع وترك الصبر ينفع لكم شيئاً.

وقوله: ﴿سَوٰاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هما سواء وإفراد «سواء» لكونه مصدراً في الأصل.

وقوله: ﴿إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في مقام التعليل لما ذكر من ملازمة العذاب ومساواة الصبر والجزع.

والمعنى: إنما يلازمكم هذا الجزاء السيء ولا يفارقكم لأنكم تجزون بأعمالكم التي كنتم تعملونها ولا تسلب نسبة العمل عن عامله فالعذاب يلازمكم أو إنما تجزون بتبعات ما كنتم تعملون وجزائه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ الجنة البستان تجنبه الأشجار

وتستره، والنعيم النعمة الكثيرة أي إن المتصفين بتقوى الله يومئذٍ في جنات يسكنون فيها ونعمة كثيرة تحيط بهم.

قوله تعالى: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ الفاكهة مطلق الثمرة، وقيل: هي الثمرة غير العنب والرمان، ويقال: تفكّه وفكه إذا تعاطى الفكاهة، وتفكّه وفكه إذا تناول الفاكهة. وقد فسّرت الآية بكل من المعنيين فقيل: المعنى: يتحدثون بما آتاهم ربهم من النعيم، وقيل: المعنى: يتناولون الفواكه والثمار التي آتاهم ربهم، وقيل: المعنى: يتلذذون بإحسان ربهم ومرجعه الى المعنى الأول، وقيل: معناه فاكهين معجبين بما آتاهم ربهم، ولعل مرجعه الى المعنى الثاني.

وتكرار «ربهم» في قوله: «ووقاهم ربهم عذاب الجحيم» لإفادة مزيد العناية بهم.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم: كلوا واشربوا أكلاً وشرباً هنيئاً أو طعاماً وشراباً هنيئاً، فهنيئاً وصف قائم مقام مفعول مطلق أو مفعول به.

وقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ متعلق بقوله: «كلوا واشربوا» أو بقوله: «هنيئاً».

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ الاتكاء الاعتماد على الوسادة ونحوها، والسرر جمع سرير، ومصفوفة من الصف أي مصطفة موصولة بعضها ببعض، والمعنى: متكئين على الوسائد والنمارق قاعدين على سرر مصطفة.

وقوله: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ المراد بالتزويج القرن أي قرنّاهم بهنّ دون النكاح بالعقد، والدليل عليه تعدّيه بالباء فإن التزويج بمعنى النكاح بالعقد متعدّ بنفسها، قال تعالى: ﴿زوّجناكها﴾ (الأحزاب / ٣٧)، كذا قيل.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الخ: قيل: الفرق بين الاتباع واللحوق مع اعتبار التقدم

والتأخر فيها جميعاً أنه يعتبر في الاتباع اشتراك بين التابع والمتبوع في مورد الاتباع بخلاف اللحوق فاللاحق لا يشارك الملحوق في ما لحق به فيه.

ولات وألات بمعنى نقص فمعنى ما ألتناهم ما نقصناهم شيئاً من عملهم بالإلحاق.

وظاهر الآية أنها في مقام الامتنان فهو سبحانه يمتنّ على الذين آمنوا أنه سيلحق بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان فتقرّ بذلك أعينهم. وهذا هو القرينة على أن التنوين في «إيمان» للتنكير دون التعظيم.

والمعنى: اتبعوهم بنوع من الايمان وإن قصر عن درجة إيمان آبائهم إذ لا امتنان لو كان إيمانهم أكمل من إيمان آبائهم أو مساوياً له.

وإطلاق الاتباع في الإيمان منصرف الى اتباع من يصح منه في نفسه الايمان ببلوغه حداً يكلف به فالمراد بالذرية الأولاد الكبار المكلفون بالايمان فالآية لا تشمل الأولاد الصغار الذين ماتوا قبل البلوغ. ولا ينافي ذلك كون صغار أولاد المؤمنين محكومين بالايمان شرعاً.

اللهم إلّا أن يستفاد العموم من تنكير الايمان ويكون المعنى: واتبعتهم ذريتهم بإيمانٍ مّا سواء كان إيماناً في نفسه أو إيماناً بحسب حكم الشرع.

وكذا الامتنان قرينة على أن الضمير في قوله: «وما ألتناهم من عملهم من شيء» للذين آمنوا كالضميرين في قوله: «واتبعتهم ذريتهم» إذ قوله: «وما ألتناهم من عملهم من شيء» مسوق حينئذ لدفع توهم ورود النقص في الثواب على تقرير الإلحاق وهو ينافي الامتنان ومن المعلوم أن الذي ينافي الامتنان هو النقص في ثواب الآباء الملحق بهم دون الذرية.

فتحصّل أن قوله: «والذين آمنوا» الخ: استئناف يمتنّ تعالى فيه على الذين آمنوا بأنه سيلحق بهم أولادهم الذين اتبعوهم بنوع من الايمان وإن كان قاصراً على درجة إيمانهم لتقرّ به أعينهم، ولا ينقص مع ذلك من ثواب عمل الآباء بالإلحاق شيء بل يؤتيهم مثل ما آتاهم أو بنحو لا تزاحم فيه على ما هو أعلم به.

وفي معنى الآية أقوال أُخر لا تخلو من سخافة كقول بعضهم إن قوله: «والذين آمنوا» معطوف على «حور عين» والمعنى: وزوجناهم بحور عين وبالذين آمنوا يتمتعون من الحور العين بالنكاح وبالذين آمنوا بالرفاقة والصحبة. وقول بعضهم: إن المراد بالذرية صغار الأولاد فقط. وقول بعضهم: إن الضميرين في «وما ألتناهم من عملهم من شيء» للذرية والمعنى: وما نقصنا الذرية من عملهم شيئاً بسبب إلحاقهم بآبائهم بل نوفيهم أعمالهم من خير أو شر ثم نلحقهم بآبائهم.

وقوله: ﴿كُلُّ ٱمْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ تعليل لقوله: «وما ألتناهم من عملهم من شيء» على ما يفيده السياق. والرهن والرهين والمرهون ما يوضع وثيقة للدين على ما ذكره الراغب قال: ولما كان الرهن يتصوَّر منه حبسه استعير ذلك لحبس أي شيء كان. انتهى.

ولعل هذا المعنى الاستعاري هو المراد في الآية والمرء رهن مقبوض ومحفوظ عند الله سبحانه بما كسبه من خير أو شر حتى يوفيه جزاء ما عمله من ثواب أو عقاب فلو نقص شيئاً من عمله ولم يوفه ذلك لم يكن رهين ما كسب بل رهين بعض ما عمل وامتلك بعضه الآخر غيره كذريته الملحقين به.

وأما قوله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلّا أصحاب اليمين﴾ (المدثر / ٣٩)، فالمراد كونها رهينة العذاب يوم القيامة كما يشهد به سياق ما بعده من قوله: ﴿في جنات يتساءلون عن المجرمين﴾ (المدثر / ٤١).

قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ بيان لبعض تمتاتهم وتمتعاتهم في الجنة المذكورة إجمالاً في قوله السابق: «كلوا واشربوا هنيئاً» الخ.

والإمداد الإتيان بالشيء وقتاً بعد وقت ويستعمل في الخير كما أن المد يستعمل في الشر قال تعالى: ﴿ونمد له من العذاب مداً﴾ (مريم / ٧٩).

والمعنى: انا نرزقهم بالفاكهة وما يشتهونه من اللحم رزقاً بعد رزق ووقتاً بعد وقت من

غير انقطاع.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾ التنازع في الكأس تعاطيها والاجتماع على تناولها. والكأس القدح ولا يطلق الكأس إلّا فيما كان فيها الشراب.

والمراد باللغو لغو القول الذي يصدر من شاربي الخمر في الدنيا، والتأثيم جعل الشخص ذا إثم وهو أيضاً من آثار الخمر في الدنيا، ونفي اللغو والتأثيم هو القرينة على أن المراد بالكأس التي يتنازعون فيها كأس الخمر.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُـؤْلُؤٌ مَكْـنُونٌ﴾ المراد به طوافهم عليهم للخدمة قال بعضهم: قيل «غلمان لهم» بالتنكير ولم يقل: غلمانهم لئلا يتوهم أن المراد بهم غلمانهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا فهم كالحور من مخلوقات الجنة كأنهم لؤلؤ مكنون مخزون في الحسن والصباحة والصفا.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي يسأل كل منهم غيره عن حاله في الدنيا وما الذي ساقه الى الجنة والنعيم؟

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ قال الراغب: والإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه قال تعالى: «وهم من الساعة مشفقون» فإذا عدي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بفي فمعنى العناية فيه أظهر قال تعالى: «إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين»، انتهى.

فالمعنى: إنا كنا في الدنيا ذوي إشفاق في أهلنا نعتني بسعادتهم ونجاتهم من مهلكة الضلال فنعاشرهم بجميل المعاشرة ونسير فيهم ببث النصيحة والدعوة الى الحق.

قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ المن على ما ذكره الراغب الإنعام بالنعمة الثقيلة ويكون بالفعل وهو حسن، وبالقول وهو قبيح من غيره تعالى، قال تعالى: ﴿يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان

إن كنتم صادقين ﴾ (الحجرات / ١٧).

ومنّه تعالى على أهل الجنة إسعاده إياهم لدخولها بالرحمة وتمامه بوقايتهم عذاب السموم. والسموم ـ على ما ذكره الطبرسي ـ الحر الذي يدخل في مسامّ البدن يتألم به ومنه ريح السموم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تعليل لقوله : « فمنّ الله علينا » الخ ؛ كما أن قوله : « إنّه هو البرُّ الرحيم » تعليل له.

وتفيد هذه الآية مع الآتين قبلها أن هؤلاء كانوا في الدنيا يدعون الله بتوحيده للعبادة والتسليم لأمره وكانوا مشفقين في أهلهم يقرّبونهم من الحق ويجنّبونهم الباطل فكان ذلك سبباً لمنّ الله عليهم بالجنة ووقايتهم من عذاب السموم، وإنما كان ذلك سبباً لذلك لأنه تعالى برّ رحيم فيحسن لمن دعاه ويرحمه.

فالآيات الثلاث في معنى قوله : ﴿ إن الإنسان لفي خسر إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (العصر / ٣).

والبر من أسماء الله تعالى الحسنى، وهو من البر بمعنى الإحسان، وفسّره بعضهم باللطيف[١].

٢٩ ● فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ.

٣٠ ● أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ.

٣١ ● قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ.

٣٢ ● أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ.

٣٣ ● أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ.

---

١. الطور ١١ ـ ٢٨ : بحث روائي حول الحاق ذرية المؤمن وآبائه به يوم القيامة.

٣٤ ● فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ.

٣٥ ● أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ.

٣٦ ● أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ.

٣٧ ● أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ.

٣٨ ● أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ.

٣٩ ● أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ.

٤٠ ● أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ.

٤١ ● أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ.

٤٢ ● أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ.

٤٣ ● أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ سُبْحَانَ اللّٰهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

٤٤ ● وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ تفريع على ما مرّ من الأخبار المؤكد بوقوع العذاب الألهي يوم القيامة. وأنه سيغشى المكذبين والمتقون في وقاية منه متلذذون بنعيم الجنة.

فالآية في معنى أن يقال: إذا كان هذا حقاً فذكر فإنما تذكر وتنذر بالحق وليست كما يرمونك كاهناً أو مجنوناً.

وتقييد النفي بقوله: «بنعمة ربك» يفيد معنى الامتنان على النبي ﷺ خاصة وليس هذا الامتنان الخاص من جهة مجرد انتفاء الكهانة والجنون فأكثر الناس على هذه الصفة بل من

وجهة تلبسه ﷺ بالنعمة الخاصة به المانع من عروض هذه الصفات عليه من كهانة أو جنون وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أم منقطعة، والتربص الانتظار، وفي مجمع البيان: التربص الانتظار بالشيء من انقلاب حال له الى خلافها والمنون المنية والموت، والريب القلق والاضطراب. فريب المنون قلق الموت.

ومحصل المعنى: بل يقولون هو أي النبي ﷺ شاعر ننتظر به الموت حتى يموت ويخمد ذكره وينسى رسمه فنستريح منه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أمر النبي ﷺ أن يأمرهم بالتربص كما رضوا لأنفسهم ذلك، وهو أمر تهديدي أن تربصوا كما ترون لأنفسكم ذلك فإن هناك أمراً من حقه أن ينتظر وقوعه، وأنا أنتظره مثلكم لكنه عليكم لا لكم وهو هلاككم ووقوع العذاب عليكم.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا﴾ الأحلام جمع حلم وهو العقل، وأم منقطعة والكلام بتقدير الاستفهام والإشارة بهذا الى ما يقولونه للنبي ﷺ ويتربصون به.

والمعنى: بل أتأمرهم عقولهم أن يقولوا هذا الذي يقولونه ويتربصوا به الموت؟ فأي عقل يدفع الحق بمثل هذه الأباطيل؟

قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي أن عقولهم لم تأمرهم بهذا بل هم طاغون حملهم على هذا طغيانهم.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال في المجمع: التقول تكلف القول ولا يقال ذلك إلّا في الكذب، والمعنى بل يقولون: افتعل القرآن ونسبه الى الله كذباً وافتراء. لا بل لا يؤمنون فيرمونه بهذه الفرية.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ جواب عن قولهم:

« تقوله » بأنه لو كان كلاماً للنبي ﷺ كان كلاماً بشرياً مماثلاً لسائر الكلام ويماثله سائر الكلام فكان يمكنهم أن يأتوا بحديث مثله فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين في دعواهم التقول بل هو كلام إلهي لائحة عليه دلائل الإعجاز يعجز البشر عن إتيان مثله. وقد تقدم الكلام في وجوه إعجاز القرآن في تفسير سورة البقرة الآية ٢٣ تفصيلاً.

ويمكن أن تؤخذ الآية رداً لجميع ما تقدم من قولهم المحكي أنه كاهن أو مجنون أو شاعر أو متقول لأن عجز البشر عن الإتيان بمثله يأبى إلّا أن يكون كلام الله سبحانه لكن الأظهر ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ إتيان « شيء » منكراً بتقدير صفة تناسب المقام والتقدير من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر.

والمعنى: بل أخلق هؤلاء المكذبون من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر فصلح لإرسال الرسول والدعوة الى الحق والتلبّس بعبوديته تعالى فهؤلاء لا يتعلق بهم تكليف ولا يتوجه اليهم أمر ولا نهي ولا تستتبع أعمالهم ثواباً ولا عقاباً لكونهم مخلوقين من غير ما خلق منه غيرهم.

وقوله: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي لأنفسهم فليسوا مخلوقين لله سبحانه حتى يربهم ويدبر أمرهم بالأمر والنهي.

قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي أم أخلقوا العالم حتى يكونوا أرباباً آلهة ويجلوا من أن يستعبدوا ويكلفوا بتكليف العبودية بل هم قوم لا يوقنون.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي بل أعندهم خزائن ربك حتى يرزقوا النبوة من شاؤا ويمسكوها عمن شاؤا فيمنعوك النبوة والرسالة.

وقوله: ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ السيطرة ـ وربما يقلب سينها صاداً ـ الغلبة والقهر

والمعنى: بل أهم الغالبون القاهرون على الله سبحانه حتى يسلبوا عنك ما رزقك الله من النبوة والرسالة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ السلم المرقاة ذات الدرج التي يتوسل بالصعود فيه الى الأمكنة العالية، والاستماع مضمن معنى الصعود، والسلطان الحجة والبرهان.

والمعنى: بل أعندهم سلم يصعدون فيه الى السماء فيستمعون بالصعود فيه الوحي فيأخذون ما يوحى اليهم ويردّون غيره؟ فليأت مستمعهم أي المدعي للاستماع منهم بحجة ظاهرة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ قيل: فيه تسفيه لعقولهم حيث نسبوا اليه تعالى ما أنفوا منه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ قال الراغب: الغرم -بالضم فالسكون- ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر لغير جناية منه أو خيانة انتهى والإثقال تحميل الثقل وهو كناية عن المشقة.

والمعنى: بل أتسألهم أجراً على تبليغ رسالتك فهم يتحرجون عن تحمل الغرم الذي ينوبهم بتأدية الأجر؟

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ذكر بعضهم أن المراد بالغيب اللوح المحفوظ المكتوب فيه الغيوب والمعنى: بل أعندهم اللوح المحفوظ يكتبون منه ويخبرون به الناس فما أخبروا به عنك من الغيب الذي لا ريب فيه.

وقيل: المراد بالغيب علم الغيب، وبالكتابة الإثبات والمعنى: بل أعندهم علم الغيب فهم يثبتون ما علموه شرعاً للناس عليهم أن يطيعوهم فيما أثبتوا، وقيل: يكتبون بمعنى يحكمون.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ الكيد ضرب من الاحتيال على ما ذكره الراغب، وفي المجمع: الكيد هو المكر، وقيل: هو فعل ما يوجب الغيظ في خفية. انتهى.

ظاهر السياق أن المراد بكيدهم هو مكرهم بالنبي ﷺ بما رموه به من الكهانة والجنون والشعر والتقول ليعرض عنه الناس ويبتعدوا عنه فتبطل بذلك دعوته وينطفىء نوره. وهذا كيد منهم ومكر بأنفسهم حيث يحرمون لها السعادة الخالدة والركوب على صراط الحق بذلك بل كيد من الله بقطع التوفيق عنهم والطبع على قلوبهم.

وقلى: المراد بالكيد الذي يريدونه هو ما كان منهم في حقه ﷺ في دار الندوة والمراد بالذين كفروا المذكورون من المكذبين وهم أصحاب دار الندوة، وقد قلب الله كيدهم الى أنفسهم فقتلهم يوم بدر. والكلام على هذا من الإخبار بالغيب لنزول السورة قبل ذلك بكثير، وهو بعيد من السياق.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإنهم إذا كان لهم إله غير الله كان هو الخالق لهم والمدبر لأمرهم فاستغنوا بذلك عن الله سبحانه واستجابة دعوة رسوله ونصرهم إلههم ودفع عنهم عذاب الله الذي أوعد به المكذبين وأنذرهم به رسوله.

وقوله: «سبحان الله عما يشركون» تنزيه له تعالى أن يكون له شريك كما يدّعون، وما في قوله: «عما يشركون» مصدرية أي سبحانه عن شركهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ الكسف بالكسر فالسكون القطعة، والمركوم المتراكم الواقع بعضه على بعض.

والمعنى: أن كفرهم وإصرارهم على تكذيب الدعوة الحقة بلغ الى حيث لو رأوا قطعة من السماء ساقطاً عليهم لقالوا سحاب متراكم ليست من آية العذاب في شيء فهو كقوله:

﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا﴾ (الحجر / ١٥).

٤٥ ● فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ.

٤٦ ● يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ.

٤٧ ● وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

٤٨ ● وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ.

٤٩ ● وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ «ذرهم» أمر بمعنى اتركهم وهو فعل لم يستعمل من تصريفاته إلّا المستقبل والأمر، و«يصعقون» من الإصعاق بمعنى الإماتة وقيل: من الصعق بمعنى الإماتة.

لما أنذر سبحانه المكذبين لدعوته بعذاب واقع لا ريب فيه ثم رد جميع ما تعلل به أو يفرض أن يتعلل به أولئك المكذبون، وذكر أنهم في الإصرار على الباطل بحيث لو عاينوا أوضح آية للحق أوّلوه وردّوه، أمر نبيه ﷺ أن يتركهم وشأنهم، وهو تهديد كنائي بشمول العذاب لهم وحالهم هذه الحال.

والمراد باليوم الذي فيه يصعقون يوم نفخ الصور الذي يصعق فيه من في السماوات

والأرض وهو من أشراط الساعة قال تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض﴾ (الزمر / ٦٨).

ويؤيد هذا المعنى قوله في الآية التالية: «يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون» فإن انتفاء إغناء الكيد والنصر من خواص يوم القيامة الذي يسقط فيه عامة الأسباب والأمر يومئذ لله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يبعد أن يكون المراد به عذاب القبر، وقوله: «ولكن أكثرهم لا يعلمون» مشعر بأن فيهم من يعلم ذلك لكنه يصرّ على كفره وتكذيبه عناداً وقيل: المراد به يوم بدر لكن ذيل الآية لا يلائمه تلك الملاءمة.

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ عطف على قوله: «فذرهم» وظاهر السياق أن المراد بالحكم حكمه تعالى في المكذبين بالإمهال والإملاء والطبع على قلوبهم، وفي النبي ﷺ أن يدعو الى الحق بما فيه من الأذى في جنب الله فالمراد بقوله: «فإنك بأعيننا» أنك بمرئى منا نراك بحيث لا يخفى علينا شيء من حالك ولا نغفل عنك ففي تعليل الصبر بهذه الجملة تأكيد للأمر بالصبر وتشديد للخطاب.

وقيل: المراد بقوله: «فإنك بأعيننا» أنك في حفظنا وحراستنا فالعين مجاز عن الحفظ، ولعل المعنى المتقدم أنسب للسياق.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ الباء في «بحمد» للمصاحبة أي سبح ربك ونزهه حال كونه مقارناً لحمده.

والمراد بقوله: «حين تقوم» قيل هو القيام من النوم، وقيل: هو القيام من القائلة، فهو صلاة الظهر، وقيل: هو القيام من المجلس، وقيل: هو كل قيام، وقيل: هو القيام الى الفريضة وقيل: هو القيام الى كل صلاة، وقيل: هو الركعتان قبل فريضة الصبح سبعة أقوال كما ذكره

الطبرسي.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي من الليل فسبح ربك فيه، والمراد به صلاة الليل، وقيل: المراد صلاتا المغرب والعشاء الآخرة.

وقوله: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ قيل: المراد به وقت إدبار النجوم وهو اختفاؤها بضوء الصبح، وهو الركعتان قبل فريضة الصبح، وقيل: المراد فريضة الصبح، وقيل: المراد تسبيحه تعالى صباحاً ومساء من غير غفلة عن ذكره.

سورة النجم مكية وهي اثنان وستون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● وَالنَّجْمِ إِذٰا هَوىٰ.

٢ ● مٰا ضَلَّ صٰاحِبُكُمْ وَمٰا غَوىٰ.

٣ ● وَمٰا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوىٰ.

٤ ● إِنْ هُوَ إِلّاٰ وَحْيٌ يُوحىٰ.

٥ ● عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوىٰ.

٦ ● ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوىٰ.

٧ ● وَهُوَ بِالْأُفُقِ ٱلْأَعْلىٰ.

٨ ● ثُمَّ دَنٰا فَتَدَلّىٰ.

٩ ● فَكٰانَ قٰابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنىٰ.

١٠ ● فَأَوْحىٰ إِلىٰ عَبْدِهِ مٰا أَوْحىٰ.

١١ ● مٰا كَذَبَ ٱلْفُؤٰادُ مٰا رَأىٰ.

١٢ ۞ أَفَتُمٰارُونَهُ عَلىٰ مٰا يَرىٰ.

١٣ ۞ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرىٰ.

١٤ ۞ عِنْدَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهىٰ.

١٥ ۞ عِنْدَها جَنَّةُ ٱلْمَأْوىٰ.

١٦ ۞ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مٰا يَغْشىٰ.

١٧ ۞ مٰا زاغَ ٱلْبَصَرُ وَمٰا طَغىٰ.

١٨ ۞ لَقَدْ رَأىٰ مِنْ آياتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرىٰ.

بيان:

غرض السورة تذكير الاصول الثلاثة: وحدانيته تعالى في ربوبيته والمعاد والنبوة فتبدأ بالنبوة فتصدق الوحي الى النبي ﷺ وتصفه ثم تتعرض للوحدانية فتنفي الأوثان والشركاء أبلغ النفي ثم تصف انتهاء الخلق والتدبير اليه تعالى من إحياء وإماتة وإضحاك وإبكاء وإغناء وإقناء وإهلاك وتعذيب ودعوة وإنذار، وتختم الكلام بالإشارة الى المعاد والأمر بالسجدة والعبادة.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها ولا يصغى الى قول بعضهم بكون بعض آياتها أو كلها مدنية. وقد قيل: إنها أول سورة أعلن النبي ﷺ بقراءتها فقرأها على المؤمنين والمشركين جميعاً، ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى: ﴿وأنّ إلى ربك المنتهى﴾ وقوله: ﴿وأن ليس للانسان إلّا ما سعى﴾.

وما أوردناه من الآيات هي الفصل الأول من فصول السور الثلاثة وهي الآيات اللاتي تصدق الوحي الى النبي ﷺ وتصفه. لكن هناك روايات مستفيضة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام

ناصّة على أن المراد بالآيات ليس بيان صفة كل وحي بل بيان وحي المشافهة الذي أوحاه الله سبحانه الى نبيه ﷺ ليلة المعراج فالآيات متضمنة لقصة المعراج وظاهر الآيات لا يخلو من تأييد لهذه الروايات وهو المستفاد أيضاً من أقوال بعض الصحابة كابن عباس وأنس وأبي سعيد الخدري وغيرهم على ما روي عنهم وعلى ذلك جرى كلام المفسرين وإن اشتد الخلاف بينهم في تفسير مفرداتها وجملها.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ظاهر الآية أن المراد بالنجم هو مطلق الجرم السماوي المضيء وقد أقسم الله في كتابه بكثير من خلقه ومنها عدة من الأجرام السماوية كالشمس والقمر وسائر السيارات، وعلى هذا فالمراد بهويّ النجم سقوطه للغروب.

قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ الضلال الخروج والانحراف عن الصراط المستقيم، والغي خلاف الرشد الذي هو إصابة الواقع، قال الراغب: الغي جهل من اعتقاد فاسد، وذلك أن الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا فاسداً، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد، وهذا النحو الثاني يقال له غيّ، قال تعالى: «ما ضلَّ صاحبكم وما غوى». انتهى. والمراد بالصاحب هو النبي ﷺ.

والمعنى: ما خرج صاحبكم عن الطريق الموصل الى الغاية المطلوبة ولا أخطأ في اعتقاده ورأيه فيها، ويرجع المعنى الى أنه لم يخطىء لا في الغاية المطلوبة التي هي السعادة الإنسانية وهو عبوديته تعالى، ولا في طريقها التي تنتهي اليها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ المراد بالهوى هوى النفس ورأيها، والنطق وإن كان مطلقاً ورد عليه النفي وكان مقتضاه نفي الهوى عن مطلق نطقه ﷺ لكنه لما كان خطاباً للمشركين وهم يرمونه في دعوته وما يتلو عليهم من القرآن بأنه كاذب متقول مفتر على الله سبحانه كان المراد بقرينة المقام أنه ﷺ ما ينطق فيما يدعوكم الى الله أو فيما يتلوه عليكم من القرآن عن هوى نفسه ورأيه بل ليس ذلك إلّا وحياً يوحى اليه

من الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ ضمير «علمه» للنبي ﷺ أو للقرآن بما هو وحي أو لمطلق الوحي والمفعول الآخر لعلّمه محذوف على أي حال والتقدير علم النبي الوحي أو علم القرآن أو الوحي إياه.

والمراد بشديد القوى ـ على ما قالوا ـ جبريل وقد وصفه الله بالقوة في قوله: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾ (التكوير / ٢٠)، وقيل: المراد به هو الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ المرة بكسر الميم الشدة، وحصافة العقل والرأي، وبناء نوع من المرور وقد فسرت المرة في الآية بكل من المعاني الثلاثة مع القول بأن المراد بذي مرة جبريل، والمعنى: هو أي جبريل ذو شدة في جنب الله أو هو ذو حصافة في عقله ورأيه، أو هو ذو نوع من المرور بالنبي ﷺ وهو في الهواء.

وقيل: المراد بذو مرة النبي ﷺ فهو ذو شدة في جنب الله أو ذو حصافة في عقله ورأيه أو ذو نوع من المرور عرج فيه الى السماوات.

وقوله: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ بمعنى استقام أو استولى وضمير الفاعل راجع الى جبريل والمعنى: فاستقام جبريل على صورته الأصلية التي خلق عليها على ما روي أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ في صور مختلفة، وإنما ظهر له في صورته الأصلية مرتين أو المعنى: فاستولى جبريل بقوته على ما جعل له من الأمر.

وإن كان الضمير للنبي ﷺ فالمعنى فاستقام واستقر.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ الافق الناحية قيل: المراد بالافق الأعلى ناحية الشرق من السماء لأن أُفق المشرق فوق المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء وهو كما ترى والظاهر أن المراد به أُفق أعلى من السماء من غير اعتبار كونه أُفقاً شرقياً.

وضمير هو في الآية راجع الى جبريل أو الى النبي ﷺ، والجملة حال من ضمير

«استوى».

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ الدنوّ القرب، والتدلي التعلق بالشيء ويكنى به عن شدة القرب، وقيل: الإمتداد الى جهة السفل مأخوذ من الدلو.

والمعنى: على تقدير رجوع الضميرين لجبريل: ثم قرب جبريل فتعلق بالنبي ﷺ ليعرج به الى السماوات، وقيل: ثم تدلى جبريل من الافق الأعلى فدنى من النبي ﷺ ليعرج به.

والمعنى: على تقدير رجوع الضميرين الى النبي ﷺ: ثم قرب النبي من الله سبحانه وزاد في القرب.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قال في المجمع: القاب والقيب والقاد والقيد عبارة عن مقدار الشيء انتهى. والقوس معروفة وهي آلة رمي، ويقال قوس على الذراع في لغة أهل الحجاز على ما قيل.

والمعنى: فكان البعد قدر قوسين أو قدر ذراعين أو أقرب من ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ضمير أوحى في الموضعين لجبريل على تقدير رجوع الضمائر السابقة الى جبريل، والمعنى: فأوحى جبريل الى عبدالله وهو النبي ﷺ ما أوحى، قيل: ولا ضير في رجوع الضمير اليه تعالى من عدم سبق الذكر لكونه في غاية الوضوح. أو الضمائر الثلاث لله والمعنى: فأوحى الله بتوسط جبريل الى عبده ما أوحى أو الضمير الأول لجبريل والثاني والثالث لله والمعنى فأوحى جبريل ما أوحى الله اليه الى عبد الله.

والضمائر الثلاث كلها لله على تقدير رجوع الضمائر السابقة الى النبي ﷺ والمعنى: فأوحى الله الى عبده ما أوحى، وهذا المعنى أقرب الى الذهن من المعنى السابق الذي لا يرتضيه الذوق السليم وإن كان صحيحاً.

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ الكذب خلاف الصدق يقال: كذب فلان في حديثه، ويقال: كذبه الحديث بالتعدي الى مفعولين أي حدثه كذباً، والكذب كما يطلق عى القول والحديث الذي يلفظه اللسان كذلك يطلق على خطاء القوة المدركة يقال: كذبته عينه أي أخطأته في رؤيتها.

ونفي الكذب عن الفؤاد إنما هو بهذا المعنى سواء أُخذ الكذب لازماً والتقدير ما كذر الفؤاد فيما رأى أو متعدياً الى مفعولين، والتقدير ما كذب الفؤاد ـ فؤاد النبي ـ النبي ما رآه أي إن رؤية فؤاده فيما رآه رؤية صادقة.

وعلى هذا فالمراد بالفؤاد فؤاد النبي ﷺ، وضمير الفاعل في «ما رأى» راجع الى الفؤاد والرؤية رؤيته.

ولا بدع في نسبة الرؤية وهي مشاهدة العيان الى الفؤاد فإن للإنسان نوعاً من الإدراك الشهودي وراء الإدراك بإحدى الحواس الظاهرة والتخيل والتفكر بالقوى الباطنة كما أننا نشاهد من أنفسنا أننا نرى وليست هذه المشاهدة العيانية إبصاراً بالبصر ولا معلوماً بفكر، وكذا نرى من أنفسنا أننا نسمع ونشم ونذوق ونلمس ونشاهد أننا نتخيل ونتفكر وليست هذه الرؤية ببصر أو بشيء من الحواس الظاهرة أو الباطنة فإنا كما نشاهد مدركات كل واحدة من هذه القوى بنفس تلك القوة كذلك نشاهد إدراك كل منا لمدركها وليس هذه المشاهدة بنفس تلك القوة بل بأنفسنا المعبر عنها بالفؤاد.

وليس في الآية ما يدل على أن متعلق الرؤية هو الله سبحانه وأنه لمرئي له ﷺ بل المرئي هو الافق الأعلى والدنو والتدلي وأنه أُوحي اليه فهذه هي المذكورة في الآيات السابقة وهي آيات له تعالى، ويؤيد ذلك ما ذكره تعالى في النزلة الاخرى من قوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾.

على أنها لو دلّت على تعلق الرؤية به تعالى لم يكن به بأس فإنها رؤية القلب ورؤيه القلب

غير رؤية البصر الحسية التي تتعلق بالأجسام ويستحيل تعلقها به تعالى وقد قدمنا كلاماً في رؤية القلب في تفسير سورة الأعراف الآية ١٤٣.

قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ الاستفهام للتوبيخ والخطاب للمشركين والضمير للنبي ﷺ، والمماراة الإصرار على المجادلة، والمعنى: أفتصرُّون في جدالكم على النبي ﷺ أن يذعن بخلاف ما يدَّعيه ويخبركم به وهو يشاهد ذلك عياناً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ النزلة بناء مرة من النزول فمعناه نزول واحد، وتدل الآية على أن هذه قصة رؤية في نزول آخر والآيات السابقة تقصُّ نزولاً آخر غيره.

وقد قالوا: إن ضمير الفاعل المستكن في قوله: «رآه» للنبي ﷺ، وضمير المفعول لجبريل، وعلى هذا فالنزلة نزول جبريل عليه ﷺ ليعرج به الى السماوات. وقوله: «عند سدرة المنتهى» ظرف للرؤية لا للنزلة، والمراد برؤيته رؤيته وهو في صورته الأصلية.

والمعنى: أنه نزل عليه ﷺ نزلة اخرى وعرج به الى السماوات وتراءى له ﷺ عند سدرة المنتهى وهو في صورته الأصلية.

وقد ظهر مما تقدم صحة إرجاع ضمير المفعول اليه تعالى والمراد بالرؤية رؤية القلب والمراد بنزلة اخرى نزلة النبي ﷺ عند سدرة المنتهى في عروجه الى السماوات فالمفاد أنه ﷺ نزل نزلة اخرى أثناء معراجه عند سدرة المنتهى فرآه بقلبه كما رآه في النزلة الاولى.

قوله تعالى: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ السدر شجر معروف والتاء للوحدة، والمنتهى ـ كأنه ـ اسم مكان ولعل المراد به منتهى السماوات بدليل كون الجنة عندها والجنة في السماء، قال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ (الذاريات / ٢٢).

ولا يوجد في كلامه تعالى ما يفسر هذه الشجرة، وكأن البناء على الإبهام كما يؤيده قوله

بعد: «إذ يغشى السدرة ما يغشى» وقد فسّر في الروايات أيضاً بأنها شجرة فوق السماء السابعة اليها تنتهي أعمال بني آدم وستمر ببعض هذه الروايات.

وقوله: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي الجنة التي يأوي اليه المؤمنون وهي جنة الآخرة فإن جنة البرزخ جنة معجلة محدودة بالبعث، قال تعالى: ﴿فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون﴾ (السجدة / ١٩)، وقوله: ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى - الى أن قال - فإن الجنة هي المأوى﴾ (النازعات / ٤١) وهي في السماء على ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ (الذاريات / ٢٢)، وقيل: المراد بها جنة البرزخ.

وقوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ غشيان الشيء الإحاطة به. و«ما» موصولة، والمعنى: إذ يحيط بالسدرة ما يحيط بها، وقد أبهم تعالى هذا الذي يغشى السدرة ولم يبين ما هو كما تقدمت الإشارة اليه.

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ الزيغ الميل عن الاستقامة، والطغيان تجاوز الحد في العمل. وزيغ البصر إدراكه المبصر على غير ما هو عليه، وطغيانه إدراكه ما لا حقيقة له، والمراد بالبصر بصر النبي ﷺ.

والمعنى: أنه ﷺ لم يبصر ما أبصره على غير صفته الحقيقية ولا أبصر ما لا حقيقة له بل أبصر غير خاطىء في إبصاره.

والمراد بالإبصار رؤيته ﷺ بقلبه لا بجارحة العين فإن المراد بهذا الإبصار ما يعنيه بقوله: «ولقد رآه نزلة اخرى» المشير الى مماثلة هذه الرؤية لرؤية النزلة الاولى التي يشير اليها بقوله: «ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى» فافهم ولا تغفل.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ «من» للتبعيض. والمعنى: أُقسم لقد شاهد بعض الآيات الكبرى لربه، وبذلك تمّ مشاهدة ربه بقلبه فإن مشاهدته تعالى بالقلب إنما هي بمشاهدة آياته بما هي آياته فإن الآية بما هي آية لا تحكي إلّا ذا الآية ولا تحكي

عن نفسه شيئاً وإلّا لم تكن من تلك الجهة آية.

وأما مشاهدة ذاته المتعالية من غير توسّط آية وتخلل حجاب فمن المستحيل ذلك قال تعالى: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ (طه / ١١٠).

بحث روائي:

في تفسير القمي في قوله تعالى: «والنجم إذا هوى» قال: النجم رسول الله ﷺ «إذا هوى» لما أُسري به إلى السماء وهو في الهويّ.

أقول: وروى تسميته ﷺ بالنجم بإسناده عن أبيه عن الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام، وهو من البطن.

وفي الكافي عن القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله عزوجل: «والليل إذا يغشى» «والنجم إذا هوى» وما أشبه ذلك؟ قال: إن لله عز وجل أن يقسم من خلقه بما شاء، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به.

أقول: وفي الفقيه عن علي بن مهزيار عن أبي جعفر الثاني مثله.

وفي المجمع وروت العامة عن جعفر الصادق أنه قال: إن محمداً ﷺ نزل من السماء السابعة ليلة المعراج ولما نزلت السورة أُخبر بذلك عتبة بن أبي لهب فجاء إلى النبي ﷺ وطلّق ابنته وتفل في وجهه وقال: كفرت بالنجم ورب النجم، فدعا ﷺ عليه وقال: اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك.

فخرج عتبة إلى الشام فنزل في بعض الطريق وألقى الله عليه الرعب فقال لأصحابه أنيموني بينكم ليلاً ففعلوا فجاء أسد فافترسه من بين الناس.

أقول: ثم أورد الطبرسي شعر حسان في ذلك، وروى في الدر المنثور القصة بطرق مختلفة.

وفي الكافي بإسناده إلى هشام وحماد وغيره قالوا: سمعنا أبا عبدالله عليه السلام يقول: حديثي

حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ وحديث رسول الله ﷺ قول الله عز وجل.

وفي تفسير القمي بإسناده إلى ابن سنان في حديث: قال أبو عبدالله ﷺ: وذلك أنه يعني النبي ﷺ أقرب الخلق إلى الله تعالى وكان بالمكان الذي قال له جبرئيل لما أُسري به إلى السماء: تقدم يا محمد فقد وطأت موطئاً لم يطأه ملك مقرّب ولا نبي مرسل. ولولا أن روحه ونفسه كان من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه، وكان من الله عز وجل كما قال الله عز وجل: «قاب قوسين أو أدنى» أي بل أدنى.

وفي الاحتجاج عن علي بن الحسين ﷺ في حديث طويل: أنا ابن من علا فاستعلى فجاز سدرة المنتهى فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى.

أقول: وقد ورد هذا المعنى في كثير من روايات أئمة أهل البيت ﷺ.

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: لما أُسري بالنبي ﷺ اقترب من ربه فكان قاب قوسين أو أدنى. قال: ألم ترَ إلى القوس ما أقربها من الوتر؟

وفيه أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: «ثم دنا فتدلى» قال: هو محمد ﷺ دنا فتدلى إلى ربه عز وجل.

وفي المجمع وروي مرفوعاً عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: «فكان قاب قوسين أو أدنى» قال: قدر ذراعين أو أدنى من ذراعين.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: «فأوحى إلى عبده ما أوحى» قال: وحي مشافهة.

وفي التوحيد بإسناده إلى محمد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن ﷺ هل رأى رسول الله ﷺ ربه عز وجل؟ فقال: نعم بقلبه رآه، أما سمعت الله عز وجل يقول: «ما كذب الفؤاد

ما رأى» ؟ لم يرَه بالبصر ولكن رآه بالفؤاد.

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: قالوا: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: لم أرَه بعيني ورأيته بفؤادي مرتين ثم تلا «ثم دنا فتدلى».

أقول: وروى هذا المعنى النسائي عن أبي ذر ـ على ما في الدر المنثور ـ ولفظه رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه ولم يرَه ببصره.

وعن صحيح مسلم والترمذي وابن مردويه عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: نوراني أراه.

أقول: «نوراني» منسوب إلى النور على خلاف القياس كجسماني في النسبة إلى جسم، وقرئ «نور إني أراه» بتنوين الراء وكسر الهمزة وتشديد النون ثم ياء المتكلم، والظاهر أنه تصحيف وإن أُيِّد برواية اخرى عن مسلم في صحيحه وابن مردويه عن أبي ذر أنه سأل رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: رأيت نوراً.

وكيف كان فالمراد بالرؤية رؤية القلب فلا الرؤية رؤية حسية ولا النور نور حسي.

وفي الكافي بإسناده عن صفوان بن يحيى قال: سألني أبو قرّة المحدث أن ادخله إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك فأذن لي فدخل عليه فسأل عن الحلال والحرام والأحكام. إلى قوله: قال أبو قرّة: فإنه يقول: «ولقد رآه نزلة اخرى» فقال أبو الحسن عليه السلام: إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى حيث قال: «ما كذب الفؤاد ما رأى» يقول: ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه ثم أخبر بما رأى فقال: «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» وآيات الله غير الله.

أقول: الظاهر أن كلامه عليه السلام مسوق لإلزام أبي قرة حيث كان يريد إثبات رؤيته تعالى بالعين الحسية فألزمه بأن الرؤية إنما تعلقت بالآيات وآيات الله غير الله ولا ينافي ذلك كون

رؤية الآيات بما هي آياته رؤيته وإن كانت آياته غيره، وهذه الرؤية إنما كانت بالقلب كما مرّت عدة من الروايات في هذا المعنى.

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: انتهيت إلى سدرة المنتهى وإذا الورقة منها تظلّ امة من الامم فكنت من ربي كقاب قوسين أو أدنى.

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وابن جرير عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: انتهيت إلى السدرة فإذا نبقها مثل الجراد، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تحوّلت ياقوتاً وزمرداً ونحو ذلك.

وفي تفسير القمي بإسناده إلى اسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل: فلما انتهى به إلى سدرة المنتهى تخلّف عنه جبرئيل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: في هذا الموضع تخذلني؟ فقال: تقدَّم أمامك فوالله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه أحد من خلق الله قبلك فرأيت من نور ربي وحال بيني وبينه السبحة.

قلت: وما السبحة جعلت فداك؟ فأومى بوجهه إلى الأرض وأومأ بيده إلى السماء وهو يقول: جلال ربي جلال ربي ثلاث مرات.

أقول: السبحة الجلال كما فسّر في الرواية، والسبحة ما يدل على تنزهه تعالى من خلقه ومرجعه إلى المعنى الأول، ومحصل ذيل الرواية أنه صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربه برؤية آياته.

وفيه في قوله تعالى: «ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى» قال: في السماء السابعة.

وفيه في قوله تعالى: «إذ يغشى السدرة ما يغشى» قال: لما رفع الحجاب بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غشي نور السدرة.

أقول: وفي المعاني السابقة روايات اخرى وقد تقدم في أول تفسير سورة الإسراء روايات جامعة لقصة معراجه صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد نقلنا هناك في ذيل الروايات الاختلاف في كيفية معراجه ﷺ أنه كان في المنام أو في اليقظة وعلى الثاني بجسمه وروحه معاً أو بروحه فحسب، ونقلنا عن صاحب المناقب أن الإمامية ترى أن إسراءه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بالروح والجسم معاً على ما تدل عليه آية الإسراء، وأما من المسجد الأقصى إلى السماوات فقد قال قوم بكونه بالروح والجسم معاً أيضاً ووافقهم كثير من الشيعة ومال بعضهم إلى كونه بالروح ومال اليه بعض المتأخرين.

ولا ضير في القول به لو أيّدته القرائن الحافة بالآيات والروايات غير أن من الواجب حينئذ أن يحمل قوله تعالى: «عندها جنة المأوى» على جنة البرزخ ليحمل كونها عندها على نحو من التعلق كما ورد أن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، أو توجه الآية بما لا ينافي كون العروج في السماوات روحياً.

وأما كون الإسراء في المنام فقد تقدم في تفسير آية الإسراء أنه مما لا ينبغي أن يلتفت اليه.

وأما تطبيق الإسراء إلى السماوات على تسييره ﷺ ليلاً في الكواكب الاخرى غير الأرض من منظومتنا الشمسية أو في منظومات اخرى غير منظومتنا أو في مجرّات اخرى غير مجرّتنا فما لا يلائمه الأخبار الواردة في تفصيل القصة البتة بل ولا محصل مضامين الآيات المتقدمة.

١٩ ● أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ.

٢٠ ● وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ.

٢١ ● أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ.

٢٢ ● تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزىٰ.

٢٣ ● إِنْ هِيَ إِلّاٰ أَسْماٰءٌ سَمَّيْتُمُوهاٰ أَنْتُمْ وَآباٰؤُكُمْ ماٰ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ بِهاٰ
مِنْ سُلْطاٰنٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَماٰ تَهْوَى ٱلْأَنْفُسُ وَلَقَدْ
جاٰءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ ٱلْهُدىٰ.

٢٤ ● أَمْ لِلْإِنْساٰنِ ماٰ تَمَنّىٰ.

٢٥ ● فَلِلّٰهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولىٰ.

٢٦ ● وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰواٰتِ لاٰ تُغْنِي شَفاٰعَتُهُمْ شَيْئاً إِلّاٰ مِنْ
بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ ٱللّٰهُ لِمَنْ يَشاٰءُ وَيَرْضىٰ.

٢٧ ● إِنَّ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلاٰئِكَةَ تَسْمِيَةَ
ٱلْأُنْثىٰ.

٢٨ ● وَماٰ لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاٰ يُغْنِي
مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً.

٢٩ ● فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّىٰ عَنْ ذِكْرِناٰ وَلَمْ يُرِدْ إِلّاٰ ٱلْحَيٰوةَ الدُّنْياٰ.

٣٠ ● ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدىٰ.

٣١ ● وَلِلّٰهِ ماٰ فِي السَّمٰواٰتِ وَماٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساٰءُوا
بِماٰ عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنىٰ.

٣٢ ● الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَباٰئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَواٰحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ
واٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ

أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ لما سجل في الآيات السابقة صدق النبي ﷺ وأنه وحي يوحى اليه وترتب عليه حقية النبوة المبنية على التوحيد ونفي الشركاء، فرّع عليه الكلام في الأوثان: اللات والعزى ومناة وهي عند المشركين تماثيل الملائكة بدعوى أنهم إناث أو بعضها للملائكة وبعضها للانسان كما قاله بعضهم ونفي ربوبيتها وأُلوهيتها واستقلال الملائكة الذين هم أرباب الأصنام في الشفاعة وأُنوثيتهم وأشار الى حقائق اخرى تنتج المعاد وجزاء الأعمال.

واللات والعزى ومناة أصنام ثلاث كانت معبودة لعرب الجاهلية، وقد اختلفوا في وصف صورها، وفي موضعها الذي كانت منصوبة عليه، وفي من يعبدها من العرب، وفي الأسباب التي أوجبت عبادتهم لها، وهي أقوال متدافعة لا سبيل الى الاعتماد على شيء منها، والمتيقن منها ما أوردناه.

والمعنى: إذا كان الأمر على ما ذكرناه من حقية الدعوة وصدق النبي ﷺ في دعوى الوحي والرسالة من عند الله سبحانه فأخبروني عن اللات والعزى ومناة التي هي ثالثة الصنمين وغيرهما ـ وهي التي تدّعون أنها أصنام الملائكة الذين هم بنات الله على زعمكم ـ.

قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ استفهام إنكاري مشوب بالاستهزاء، وقسمة ضيزى أي جائرة غير عادلة.

والمعنى: إذا كان كذلك وكانت أرباب هذه الأصنام من الملائكة بنات الله، وأنتم لا ترضون

لأنفسكم إلّا الذكر من الأولاد فهل لكم الذكر ولله سبحانه الانثى من الأولاد؟ تلك القسمة إذاً قسمة جائرة غير عادلة ـ استهزاء ـ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ الخ: ضمير «هي» للات والعزى ومناة أولها بما هي أصنام، وضمير «سميتموها» للأسماء وتسمية الأسماء جعلها أسماء، والمراد بالسلطان البرهان.

والمعنى: ليست هذه الأصنام الآلهة إلّا أسماء جعلتموها أسماء لها أنتم وآباؤكم ليست لهذه الأسماء وراءها مصاديق ومسميات ما أنزل الله معها برهاناً يستدل به على ربوبيتها وألوهيتها.

ومحصل الآية الرد على المشركين بعدم الدليل على ألوهية آلهتهم.

وقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ «ما» موصولة والضمير العائد اليها محذوف أي الذي تهواه النفس، وقيل: مصدرية والتقدير هو النفس والهوى الميل الشهواني للنفس والجملة مسوقة لذمّهم في اتباع الباطل وتأكيد لما تقدم من أنه لا برهان لهم على ذلك.

ويؤكده قوله: «ولقد جاءهم من ربهم الهدى» والجملة حالية.

والمعنى: إن يتبع هؤلاء المشركون في أمر آلهتهم إلّا الظن وما يميل اليه أنفسهم شهوة يتبعون ذلك والحال أنه قد جاءهم من الله وهو ربهم الهدى وهي الدعوة الحقة أو القرآن الذي يهديهم الى الحق.

والالتفات في الآية من الخطاب الى الغيبة للإشعار بأنهم أحط فهماً من أن يخاطبوا بهذا الكلام على أنهم غير مستعدين لأن يخاطبوا بكلام برهاني وهم أتباع الظن والهوى.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ «أم» منقطعة والاستفهام إنكاري، والكلام مسوق لنفي أن يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد أنه يتمناه أي ليس يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد

أنه يتمناه حتى يملك المشركون ما يتمنونه بهوى أنفسهم من شفاعة الملائكة الذين هم أرباب أصنامهم وبنات لله بزعمهم أو يملكوا الوهية آلهتهم بمجرد التمني.

وفي الكلام تلويح الى أنهم ليس لهم للدلالة على صحة الوهية آلهتهم أو شفاعتهم إلّا التمني، ولا يملك شيء بالتمني.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ تفريعه على سابقه من تفريع العلة للمعلول للدلالة على التعلق والارتباط ففيه تعليل للجملة السابقة. والمعنى: ليس يملك الإنسان ما تمناه بمجرد التمني لأن الآخرة والاولى لله سبحانه ولا شريك له في ملكه.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰوٰاتِ لاٰ تُغْنِي شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَيَرْضىٰ﴾ الفرق بين الإذن والرضا أن الإذن إعلام ارتفاع المانع من قبل الآذن، والرضا ملاءمة نفس الراضي للشيء وعدم امتناعها فربما تحقق الإذن بشيء مع عدم الرضا ولا يتحقق رضاً إلّا مع الإذن بالفعل أو بالقوة.

والآية مسوقة لنفي أن يملك الملائكة من أنفسهم الشفاعة مستغنين في ذلك عن الله سبحانه كما يروم اليه عبدة الأصنام فإن الأمر مطلقاً الى الله تعالى فإنما يشفع من يشفع منهم بعد إذنه تعالى له في الشفاعة ورضاه بها.

وعلى هذا فالمراد بقوله: «لمن يشاء» الملائكة. ومعنى الآية: وكثير من الملائكة في السماوات لا تؤثر شفاعتهم أثراً إلّا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء منهم أي من الملائكة ويرضى بشفاعته.

وقيل: المراد بمن يشاء ويرضى الإنسان، والمعنى: إلّا من بعد أن يأذن الله في شفاعة من يشاء أن يشفع له من الإنسان ويرضى، وكيف يأذن ويرضى بشفاعة من كفر به وعبَدَ غيره.

والآية تثبيت الشفاعة للملائكة في الجملة، وتقيد شفاعتهم بالاذن والرضا من الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ رد لقولهم بانوثية الملائكة بعد رد قولهم بشفاعتهم.

والمراد بتسميتهم الملائكة تسمية الانثى قولهم: إن الملائكة بنات الله فالمراد بالانثى الجنس أعم من الواحد والكثير.

وقيل: إن الملائكة في معنى استغراق المفرد فيكون التقدير ليسمُّون كل واحد من الملائكة تسمية الانثى أي يسمونه بنتاً فالكلام على وزان «كسانا الأمير حلّة» أي كسا كل واحد منا حلة.

قال بعضهم: في تعليق التسمية بعدم الايمان بالآخرة إشعار بأنها في الشناعة والفظاعة واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترىء عليها إلّا من لا يؤمن بها رأساً. انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً﴾ العلم هو التصديق المانع من النقيض، والظن هو التصديق الراجح ويسمى المرجوح وهماً، وقولهم بانوثية الملائكة كما لم يكن معلوماً لهم كذلك لم يكن مظنوناً إذ لا سبيل الى ترجيح القول به على خلافه لكنه لما كان عن هوى أنفسهم أثبته الهوى في أنفسهم وزيّنه لهم فلم يلتفتوا الى خلافه، وكلما لاح لهم لائح خلافه أعرضوا عنه وتعلقوا بما يهمونه. وبهذه العناية سمي ظناً وهو في الحقيقة تصوُّر فقط.

وبهذا يظهر استقامة قول من قال: إن الظن في هذه الآية وفي قوله السابق: «إن يتبعون إلّا الظن وما تهوى الأنفس» بمعنى التوهم دون الاعتقاد الراجح وأُيِّد بما يظهر من كلام الراغب: إن الظن وبما يطلق على التوهم.

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً﴾ الحق ما هو عليه الشيء وظاهر أنه لا يدرك إلّا بالعلم الذي هو الاعتقاد المانع من النقيض لا غير وأما غير العلم مما فيه احتمال الخلاف فلا يتعين فيه المدرك على ما هو عليه في الواقع فلا يجوز لأن يعتمد عليه في الحقائق

قال تعالى: ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم﴾ (الإسراء / ٣٦).

وأما العمل بالظن في الأحكام العملية فإنما هو لقيام دليل عليه يقيد به إطلاق الآية، وتبقى الامور الاعتقادية تحت إطلاق الآية.

قال بعضهم: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: «إن الظن لا يغني» ليجري الكلام مجرى المثل.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾ تفريع على اتباعهم الظن وهوى الأنفس. فقوله: «فأعرض عمن» الخ: أمر بالإعراض عنهم وإنما لم يقل: فأعرض عنهم. ووضع قوله: «من تولى عن ذكرنا» الخ: موضع الضمير للدلالة على علة الأمر بالإعراض كأنه قيل: إن هؤلاء يتركون العلم ويتبعون الظن وما تهوى الانفس وإنما فعلوا ذلك لأنهم تولوا عن الذكر وأرادوا الحياة الدنيا فلا همّ لهم إلّا الدنيا فهي مبلغهم من العلم، وإذا كان كذلك فأعرض عنهم لأنهم في ضلال.

والمراد بالذكر إما القرآن الذي يهدي متبعيه الى الحق الصريح ويرشدهم الى سعادة الدار الآخرة التي وراء الدنيا بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة التي لا تبقى معها وصمة شك.

وإما ذكر الله بالمعنى المقابل للغفلة فإن ذكره تعالى بما يليق بذاته المتعالية من الأسماء والصفات يهدي الى سائر الحقائق العلمية في المبدء والمعاد هداية علمية لا ريب معها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ الإشارة بذلك الى أمر الدنيا وهو معلوم من الآية السابقة وكونه مبلغ علمهم من قبيل الاستعارة كأن العلم يسير الى المعلوم وينتهي اليه وعلمهم انتهى في مسيره الى الدنيا وبلغها ووقف عندها ولم يتجاوزها. ولازم ذلك أن تكون الدنيا متعلق إرادتهم وطلبهم، وموطن همّهم. وغاية آمالهم لا يطمئنون الى غيرها ولا يقبلون إلّا عليها.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ الخ: تأكيد لمضمون الجملة السابقة وشهادة منه تعالى عليه.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ يمكن أن يكون صدر الآية حالاً من فاعل «أعلم» في الآية السابقة والواو للحال، والمعنى: إن ربك هو أعلم بالفريقين الضالين والمهتدين والحال أنه يملك ما في السماوات وما في الأرض فكيف يمكن أن لا يعلم بهم وهو مالكهم؟

وعلى هذا فالظاهر تعلق قوله: «ليجزي» الخ: بقوله السابق: «فأعرض عمن تولى» الخ؛ والمعنى: أعرض عنهم وكِلْ أمرهم الى الله ليجزيهم كذا وكذا ويجزيك ويجزي المحسنين كذا وكذا.

ويمكن أن يكون قوله: «ولله ما في السماوات» الخ؛ كلاماً مستأنفاً للدلالة على أن الأمر بالإعراض عنهم لا لإهمالهم وتركهم سدى بل الله سبحانه يجزي كلاً بعمله إن سيئاً وإن حسناً، ووضع اسم الجلالة وهو ظاهر موضع الضمير للدلالة على كمال العظمة.

وقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة الى ملكه تعالى للكل ومعناه قيام الأشياء به تعالى لكونه خالقهم الموجد لهم فالملك ناشىء من الخلق وهو مع ذلك منشأ للتدبير فالجملة دالة على الخلق والتدبير كأنه قيل: ولله الخلق والتدبير.

وبهذا المعنى يتعلق قوله: «ليجزي» الخ: واللام للغاية، والمعنى: له الخلق والتدبير وغاية ذلك والغرض منه أن يجزي الذين أساؤوا، الخ؛ والمراد بالجزاء ما يخبر عنه الكتاب من شؤن يوم القيامة، والمراد بالإساءة والإحسان المعصية والطاعة، والمراد بما عملوا جزاء ما عملوا أو نفس ما عملوا، وبالحسنى المثوبة الحسنى.

والمعنى: ليجزي الله الذين عصوا بمعصيتهم أو بجزاء معصيتهم ويجزي الذين أطاعوا

بالمثوبة الحسنى، وقد أوردوا في الآية احتمالات اخرى وما قدمناه هو أظهرها.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ الخ: الإثم هو الذنب وأصله ـ كما ذكره الراغب ـ الفعل المبطىء عن الثواب والخير، وكبائر الإثم المعاصي الكبيرة وهو على ما في الرواية[١] ما أوعد الله عليه النار. وقد تقدم البحث عنها في تفسير قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ الآية (النساء / ٣١).

والفواحش الذنوب الشنيعة الفظيعة، وقد عدّ تعالى في كلامه الزنا واللواط من الفواحش ولا يبعد أن يستظهر من الآية اتحادها مع الكبائر.

وأما اللمم فقد اختلفوا في معناه فقيل: هو الصغيرة من المعاصي، وعليه فالاستثناء منقطع، وقيل: هو أن يلمّ بالمعصية ويقصدها ولا يفعل والاستثناء أيضاً منقطع، وقيل: هو المعصية حيناً بعد حين من غير عادة أي المعصية على سبيل الاتفاق فيكون أعم من الصغيرة والكبيرة وينطبق مضمون الآية على معنى قوله تعالى في وصف المتقين المحسنين: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلّا الله ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ (آل عمران / ١٣٥).

وقد فسر في روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام بثالث المعاني[٢].

والآية تفسر ما في الآية السابقة من قوله: «الذين أحسنوا» فهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ومن الجائز أن يقع منهم لمم.

---

١. رواها في ثواب الاعمال عن عباد بن كثير النوا عن أبي جعفر عليه السلام.

٢. ففي اصول الكافي عن ابن عمار عن الصادق عليه السلام: اللمم الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه، وفيه بإسناده عن محمّد بن مسلم عن الصادق عليه السلام قال: هو الذنب يلم به الرجل فيمكث ما شاء الله ثم يلم به بعد، وفيه بإسناده عن ابن عمار عن الصادق عليه السلام قال: اللمام العبد الذي يلم بالذنب بعد الذنب ليس من سليقته أي من طبعه.

وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ تطميعهم في التوبة رجاء المغفرة.

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال الراغب: النشء والنشأة إحداث الشيء وتربيته. انتهى. فإنشاؤهم من الأرض ما جرى عليهم في بدء خلقهم طوراً بعد طور من أخذهم من المواد العنصرية الى أن يتكونوا في صورة المني ويردوا الأرحام.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ الأجنة جمع جنين، والكلام معطوف على «إذ» السابق أي وهو أعلم بكم إذ كنتم أجنة في أرحام أمهاتكم يعلم ما حقيقتكم وما أنتم عليه من الحال وما في سرّكم والى ما يول أمركم.

وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ تفريع على العلم أي إذا كان الله أعلم من أول أمر فلا تزكّوا أنفسكم بنسبتها الى الطهارة هو أعلم بمن اتقى.

٣٣ ۞ أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ.

٣٤ ۞ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ.

٣٥ ۞ أَعِندَهُ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ.

٣٦ ۞ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ.

٣٧ ۞ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰ.

٣٨ ۞ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ.

٣٩ ۞ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ.

٤٠ ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ.

٤١ ۞ ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَاءَ ٱلْأَوْفَىٰ.

٤٢ ۞ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ.

٤٣ ● وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ.

٤٤ ● وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا.

٤٥ ● وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ.

٤٦ ● مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ.

٤٧ ● وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ.

٤٨ ● وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ.

٤٩ ● وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ.

٥٠ ● وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ.

٥١ ● وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ.

٥٢ ● وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ.

٥٣ ● وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ.

٥٤ ● فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ.

٥٥ ● فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ.

٥٦ ● هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ.

٥٧ ● أَزِفَتِ الْآزِفَةُ.

٥٨ ● لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ.

٥٩ ● أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ.

٦٠ ● وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ.

٦١ ● وَأَنتُمْ سَامِدُونَ.

٦٢ ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ﴾ التولي هو الإعراض والمراد به بقرينة الآية التالية الإعراض عن الإنفاق في سبيل الله. والإعطاء الإنفاق والإكداء قطع العطاء. والتفريع الذي في قوله: «أفرأيت» مبني على ما قدمناه من تفرع مضمون هذه الآية على ما قبلها.

والمعنى: فأخبرني عمن أعرض عن الإنفاق وأعطى قليلاً من المال وأمسك بعد ذلك أشدّ الإمساك.

قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ الضمائر لمن تولى والاستفهام للإنكار والمعنى: أيعلم الغيب فيترتب عليه أن يعلم أن صاحبه يتحمل عنه ذنوبه ويعذب مكانه يوم القيامة لو استحق العذاب كذا فسروا.

والظاهر أن المراد نفي علمه بما غاب عنه من مستقبل حاله في الدنيا والمعنى: أيعلم الغيب فهو يعلم أنه لو أنفق ودام على الإنفاق نفد ماله وابتلي بالفقر وأما تحمل الذنوب والعذاب فالمتعرض له قوله الآتي: ﴿أن لا تزر وازرة وزر أُخرى﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ صحف موسى التوراة. وصحف إبراهيم ما نزل عليه من الكتاب والجمع للإشارة الى كثرته بكثرة أجزائه.

والتوفية تأدية الحق بتمامه وكماله، وتوفيته عليه السلام تأديته ما عليه من الحق في العبودية أتم التأدية وأبلغها قال تعالى: ﴿وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ (البقرة / ١٢٤).

وما نقله الله سبحانه في الآيات التالية من صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام وإن لم يذكر في

القرآن بعنوان أنه من صحفهما قبل هذه الآيات لكنه مذكور بعنوان الحكم والمواعظ والقصص والعبر فمعنى الآيتين: أم لم ينبأ بهذه الامور وهي في صحف إبراهيم وموسى.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الوزر الثقل وكثر استعماله في الاثم، والوازرة النفس التي من شأنها أن تحمل الاثم. والآية بيان ما في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، وكذا سائر الآيات المصدرة بأن وأنّ الى تمام سبع عشرة آية.

والمعنى: ما في صحفهما هو أنه لا تحمل نفس إثم نفس أُخرى أي لا تتأثم نفس بما لنفس أُخرى من الاثم فلا تؤاخذ نفس بإثم نفس أُخرى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ قال الراغب: السعي المشي السريع وهو دون العدو، ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شراً قال تعالى: «وسعى في خرابها». انتهى واستعماله في الجد في الفعل استعمال استعاري.

ومعنى الام في قوله: «للانسان» الملك الحقيقي الذي يقوم بصاحبه قياماً باقياً ببقائه يلازمه ولا يفارقه بالطبع وهو الذي يكتسبه الانسان بصالح العمل أو طالحه من خير أو شر، وأما ما يراه الإنسان مملوكاً لنفسه وهو في ظرف الاجتماع من مال وبنين وجاه وغير ذلك من زخارف الحياة الدنيا وزينتها فكل ذلك من الملك الاعتباري الوهمي الذي صاحب الإنسان ما دام في دار الغرور ويودعه عندما أراد الانتقال الى دار الخلود وعالم الآخرة.

فالمعنى: وأنه لا يملك الإنسان ملكاً يعود اليه أثره من خير أو شر أو نفع أو ضر حقيقة إلّا ما جدَّ فيه من عمل فله ما قام بفعله بنفسه وأما ما قام به غيره من عمل فلا يلحق بالانسان أثره خيراً أو شراً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ المراد بالسعي ما سعى فيه من العمل وبالرؤية المشاهدة، وظرف المشاهدة يوم القيامة بدليل تعقيبه بالجزاء فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء﴾

(آل عمران / ٣٠). وقوله: ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (الزلزال / ٨).

وإتيان قوله: «سوف يرى» مبنياً للمفعول لا يخلو من إشعار بأن هناك من يشاهد العمل غير عامله.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُجْزَيٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ الوفاء بمعنى التمام لأن الشيء التام يفي بجميع ما يطلب من صفاته. والجزاء الأوفى الجزاء الأتم.

وضمير «يجزاه» للسعي الذي هو العمل والمعنى: ثم يجزي الانسان عمله أي بعمله أتمّ الجزاء.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ المنتهى مصدر ميمي بمعنى الانتهاء وقد أُطلق إطلاقاً فيفيد مطلق الانتهاء. فما في الوجود من شيء موجود إلّا وينتهي في وجوده وآثار وجوده الى الله سبحانه بلا واسطة أو مع الواسطة. ولا فيه أمر من التدبير والنظام الجاري جزئياً أو كلياً إلّا وينتهي اليه سبحانه إذ ليس التدبير الجاري بين الأشياء إلّا الروابط الجارية بينها القائمة بها وموجد الأشياء هو الموجد لروابطها المجري لها بينها فالمنتهى المطلق لكل شيء هو الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل له مقاليد السماوات والأرض ﴾ (الزمر / ٦٣). وقال: ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ (الأعراف / ٥٤).

والآية تثبيت الربوبية المطلقة لله سبحانه بإنهاء كل تدبير وكل التدبير اليه وتشمل انتهاء الأشياء اليه من حيث البدء وهو الفطر، وانتهاءها اليه من حيث العود والرجوع وهو الحشر.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ الآية وما يتلوها الى تمام اثنتي عشرة آية بيان لموارد من انتهاء الخلق والتدبير الى الله سبحانه.

والسياق في جميع هذه الآيات سياق الحصر، وتفيد انحصار الربوبية فيه تعالى وانتفاء

الشريك، ولا ينافي ما في هذه الموارد من الحصر توسط أسباب أُخر طبيعية أو غير طبيعية فيها كتوسط السرور والحزن وأعضاء الضحك والبكاء من الانسان في تحقق الضحك والبكاء، وكذا توسط الأسباب المناسبة الطبيعية وغير الطبيعية في الإحياء والإماتة وخلق الزوجين والغنى والقنى وإهلاك الامم الهالكة وذلك أنها لما كانت مسخرة لأمر الله غير مستقلة في نفسها ولا منقطعة عما فوقها كانت وجوداتها وآثار وجوداتها وما يترتب عليها لله وحده لا يشاركه في ذلك أحد.

فمعنى قوله: «وأنه هو أضحك وأبكى» أنه تعالى هو أوجد الضحك في الضاحك وأوجد البكاء في الباكي لا غيره تعالى.

ولا منافاة بين انتهاء الضحك والبكاء في وجودهما الى الله سبحانه وبين انتسابهما الى الانسان وتلبسه بهما لأن نسبة الفعل الى الانسان بقيامه به ونسبة الفعل اليه تعالى بالايجاد وكم بينهما من فرق.

ولا أن تعلق الارادة الالهية بضحك الانسان مثلاً يوجب بطلان إرادة الانسان للضحك وسقوطها عن التاثير لأن الارادة الالهية لم تتعلق بمطلق الضحك كيفما كان وإنما تعلقت بالضحك الارادي الاختياري من حيث انه صادر عن ارادة الانسان واختياره فإرادة الانسان سبب لضحكه في طول ارادة الله سبحانه لا في عرضها حتى تتزاحما ولا تجتمعا معاً فنضطر الى القول بأن أفعال الانسان الاختيارية مخلوقة لله ولا صنع للإنسان فيها كما يقوله الجبري أو أنها مخلوقة للإنسان ولا صنع لله سبحانه فيها كما يقوله المعتزلي.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ الكلام في انتساب الموت والحياة الى أسباب أُخر طبيعية وغير طبيعية كالملائكة كالكلام في انتساب الضحك والبكاء الى غيره تعالى مع انحصار الإيجاد فيه تعالى، وكذا الكلام في الامور المذكورة في الآيات التالية.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾

النطفة ماء الرجل والمرأة الذي يخلق منه الولد، وأمنى الرجل أي صبّ المني، وقيل: معناه التقدير، وقوله: «الذكر والانثى» بيان للزوجين.

قيل: لم يذكر الضمير في الآية على طرز ما تقدم - أنه هو - لأنه لا يتصور نسبة خلق الزوجين الى غيره تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ النشأة الاخرى الخلقة الاخرى الثانية وهي الدار الآخرة التي فيها جزاء، وكون ذلك عليه تعالى قضاؤه قضاء حتم وقد وعد به ووصف نفسه بأنه لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي أعطى الغنى وأعطى القنية، والقنية ما يدوم من الأموال ويبقى ببقاء نفسه كالدار والبستان والحيوان، وعلى هذا فذكر «أقنى» بعد «أغنى» من التعرض للخاص بعد العام لنفاسته وشرفه.

وقيل: الإغناء التمويل والإقناء الإرضاء بذلك، وقال بعضهم: معنى الآية أنه هو أغنى وأفقر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ كأن المراد بالشعرى الشعرى اليمانية وهي كوكبة مضيئة من الثوابت شرقي صورة الجبار في السماء.

قيل: كانت الخزاعة وحمير تبعد هذه الكوكبة، وممن كان يعبده أبوكبشة أحد أجدان النبي ﷺ من جهة امه، وكان المشركون يسمونه ﷺ ابن أبي كبشة لمخالفته إياهم في الدين كما خالف أبوكبشة قومه في عبادة الشعرى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهم قوم هود النبي ﷺ ووصفوا بالاولى لأن هناك عاداً ثانية هم بعد عاد الاولى.

قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ وهم قوم صالح النبي ﷺ أهلك الله الكفار منهم عن آخرهم، وهو المراد من قوله: «فما أبقى» وإلّا فهو سبحانه نجّى المؤمنين منهم من الهلاك كما

قال: ﴿ ونجّينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (فصلت / ١٨).

قوله تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ عطف كسابقه على قوله: «عاداً» والإصرار بالتأكيد على كونهم أظلم وأطغى، أي من القومين عاد وثمود على ما يعطيه السياق لأنهم لم يجيبوا دعوة نوح عليه السلام ولم يتعظوا بموعظته فيما يقرب من ألف سنة ولم يؤمن منهم معه إلّا أقل قليل.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ قيل: إن المؤتفكة قرى قوم لوط ائتفكت بأهلها أي انقلبت والائتفاك الانقلاب، والإهواء الإسقاط.

والمعنى: وأسقط القرى المؤتفكة الى الأرض بقلبها وخسفها فشملها وأحاط بها من العذاب ما شملها وأحاط بها.

واحتمل أن يكون المراد بالمؤتفكة ما هو أعم من قرى قوم لوط وهي كل قرية نزل عليها العذاب فباد أهلها فبقيت خربة دائرة معالمها خاوية على عروشها.

قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ الآلاء جمع الى بمعنى النعمة، والتماري التشكك، والجملة متفرعة على ما تقدم ذكره مما ينسب اليه تعالى من الأفعال.

والمعنى: إذا كان الله سبحانه هو الذي نظم هذا النظام البديع من صنع وتدبير بالإضحاك والإبكاء والإماتة والإحياء والخلق والإهلاك الى آخر ما قيل، فبأيّ نعَم ربك تتشكك وفي أيّها تريب؟

وعد مثل الإبكاء والاماتة وإهلاك الامم الطاغية نعماً لله سبحانه لما فيها من الدخل في تكوين النظام الأتم الذي يجرى في العالم وتنساق به الامور في مرحلة استكمال الخلق ورجوع الكل الى الله سبحانه.

والخطاب في الآيه للذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى أو للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، والاستفهام للانكار.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ قيل: النذير يأتي مصدراً بمعنى الإنذار ووصفاً بمعنى المنذر ويجمع على النذر بضمتين على كلا المعنيين والإشارة بهذا الى القرآن أو النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ أي قربت القيامة والآزفة من أسماء القيامة قال تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ (المؤمن / ١٨).

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي نفس كاشفة والمراد بالكشف إزالة ما فيها من الشدائد والأهوال، والمعنى: ليس نفس تقدر على إزالة ما فيها من الشدائد والأهوال إلّا أن يكشفها الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ الإشارة بهذا الحديث الى ما تقدم من البيان، والسمود اللهو، والآية متفرعة على ما تقدم من البيان، والاستفهام للتوبيخ.

والمعنى: إذا كان الله هو ربكم الذي ينتهي اليه كل أمر وعليه النشأة الاخرى وكانت القيامة قريبة وليس لها من دون الله كاشفة كان عليكم أن تبكوا لما فرطتم في جنب الله، وتعرضتم للشقاء الدائم أفمن هذا البيان الذي يدعوكم الى النجاة تعجبون إنكاراً وتضحكون استهزاء ولا تبكون؟

قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ تفريع آخر على ما تقدم من البيان والمعنى: إذا كان كذلك فعليكم أن تسجدوا لله وتعبدوه ليكشف عنكم ما ليس له من دونه كاشفة[1].

---

١. النجم ٣٣ ـ ٦٢: بحث روائي حول قوله تعالى: «أفرأيت الذي تولى»: ما يتبع الرجل بعد موته من الاجر؛ النهي عن التفكر في ذات الله.

سورة القمر مكية وهي خمس وخمسون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ.

٢ • وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ.

٣ • وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ.

٤ • وَلَقَدْ جٰاءَهُمْ مِنَ ٱلْأَنْبٰاءِ مٰا فِيهِ مُزْدَجَرٌ.

٥ • حِكْمَةٌ بٰالِغَةٌ فَمٰا تُغْنِ النُّذُرُ.

٦ • فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدّٰاعِ إِلىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ.

٧ • خُشَّعاً أَبْصٰارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرٰادٌ مُنْتَشِرٌ.

٨ • مُهْطِعِينَ إِلَى الدّٰاعِ يَقُولُ ٱلْكٰافِرُونَ هٰذٰا يَوْمٌ عَسِرٌ.

بيان:

سورة ممحضة في الإنذار والتخويف إلّا آيتين من آخرها تبشران المتقين بالجنة والحضور عند ربهم.

تبدأ السورة بالإشارة الى آية شقّ القمر التي أتى بها رسول الله ﷺ عن اقتراح من قومه، وتذكر رميهم له بالسحر وتكذيبهم به واتباعهم الأهواء مع ما جاءهم أنباء زاجرة من أنباء يوم القيامة وأنباء الامم الماضين الهالكين ثم يعيد تعالى عليهم نبذة من تلك الأنباء إعادة ساخط معاتب فيذكر سيىء حالهم يوم القيامة عند خروجهم من الأجداث وحضورهم للحساب.

ثم تشير الى قصص قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون وما نزل بهم من أليم العذاب إثر تكذيبهم بالنذر وليس قوم النبي ﷺ بأعز عند الله منهم وما هم بمعجزين، وتختتم السورة ببشرى للمتقين.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها، ولا يعبأ بما قيل: إنها نزلت ببدر، وكذا بما قيل: إن بعض آياتها مدنية، ومن غرر آياتها ما في آخرها من آيات القدر.

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ الاقتراب زيادة في القرب فقوله: «اقتربت الساعة» أي قربت جداً، والساعة هي الظرف الذي تقوم فيه القيامة.

وقوله: «وانشق القمر» أي انفصل بعضه عن بعض فصار فرقتين شقتين تشير الآية الى آية شق القمر التي أجراها الله تعالى على يد النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة إثر سؤال المشركين من أهل مكة، وقد استفاضت الروايات على ذلك، واتفق أهل الحديث والمفسرون على قبولها كما قيل. ولم يخالف فيه منهم إلّا الحسن وعطاء والبلخي حيث قالوا: معنى قوله: «انشق القمر» سينشقُّ القمر عند قيام الساعة وإنما عبر بلفظ الماضي لتحقق الوقوع.

وهو مزيف مدفوع بدلالة الآية التالية « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » فإن سياقها أوضح شاهد على أن قوله : « آية » مطلق شامل لانشقاق القمر فعند وقوعه إعراضهم وقولهم: سحر مستمر ومن المعلوم أن يوم القيامة يوم يظهر فيه الحقائق ويلجؤن فيه الى المعرفة . ولا معنى حينئذ لقولهم في آية ظاهرة : إنها سحر مستمر فليس إلّا أنها آية قد وقعت للدلالة على الحق والصدق وتأتي لهم أن يرموها عناداً بأنها سحر .

ومثله في السقوط ما قيل : إن الآية إشارة الى ما ذهب اليه الرياضيون أخيراً أن القمر قطعة من الأرض كما أن الأرض جزء منفصل من الشمس فقوله : « وانشق القمر » اشارة الى حقيقة علمية لم ينكشف يوم النزول بعد .

وذلك أن هذه النظرية على تقدير صحتها لا يلائمها قوله : « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » إذ لم ينقل عن أحد أنه قال للقمر : هو سحر مستمر .

على أن انفصال القمر عن الأرض اشتقاق والذي في الآية الكريمة انشقاق . ولا يطلق الانشقاق إلّا على تقطع الشيء في نفسه قطعتين دون انفصاله من شيء بعدما كان جزء منه .

ومثله في السقوط ما قيل : إن معنى انشقاق القمر انكشاف الظلمة عند طلوعه وكذا ما قيل : إن انشقاق القمر كناية عن ظهور الأمر ووضوح الحق .

والآية لا تخلو من إشعار بأن انشقاق القمر من لوازم اقتراب الساعة .

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ الاستمرار من الشيء مرور منه بعد مرور مرة بعد مرة ، ولذا يطلق على الدوام والاطراد فقولهم: سحر مستمر أي سحر بعد سحر مداوماً .

وقوله : « آية » نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم . والمعنى وكل آية يشاهدونها يقولون فيها إنها سحر بعد سحر . وفسر بعضهم المستمر بالمحكم الموثق . وبعضهم بالذاهب الزائل . وبعضهم بالمستبشع المنفور . وهي معان بعيدة .

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ متعلق التكذيب بقرينة ذيل الآية هو النبي ﷺ وما أتى به من الآيات أي وكذبوا بالنبي ﷺ وما أتى به من الآيات والحال أن كل أمر مستقر سيستقر في مستقره فيعلم أنه حق أو باطل وصدق أو كذب فسيعلمون أن النبي ﷺ صادق أو كاذب، على الحق أو لا فقوله: «وكل أمر مستقر» في معنى قوله: ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ (ص / ٨٨).

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ المزدجر مصدر ميمي وهو الاتعاظ، وقوله: «من الأنباء» بيان لما فيه مزدجر، والمراد بالأنباء أخبار الامم الدارجة الهالكة أو أخبار يوم القيامة وقد احتمل كل منهما، والظاهر من تعقيب الآية بأنباء يوم القيامة ثم بأنباء عدة من الامم الهالكة أن المراد بالأنباء التي فيها مزدجر جميع ذلك.

قوله تعالى: ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ الحكمة كلمة الحق التي ينتفع بها، والبلوغ وصول الشيء الى ما تنتهي اليه المسافة ويكنى به عن تمام الشيء وكماله فالحكمة البالغة هي الحكمة التامة الكاملة التي لا نقص فيها من حيث نفسها ومن حيث أثرها.

وقوله: «فما تغن النذر» الفاء فيه فصيحة تفصح عن جملة مقدرة تترتب عليها الكلام، والنذر جمع نذير بمعنى المنذر أو بمعنى الإنذار والكل صحيح وإن كان الأول أقرب الى الفهم.

والمعنى: هذا القرآن أو الذي يدعون اليه حكمة بالغة كذبوا بها واتبعوا أهواءهم فما تغني المنذرون أو الإنذارات؟

قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾ التولي الإعراض والفاء في «فتولَّ» لتفريع الأمر بالتولي على ما تقدمه من وصف حالهم أي إذا كانوا مكذبين بك متبعين أهواءهم لا يغني فيهم النذر ولا تؤثر فيهم الزواجر فتولَّ عنهم ولا تلح عليهم بالدعوة.

وقوله: ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾ قال الراغب: الإنكار ضد العرفان يقال:

أنكرت كذا ونكرت، وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره، وذلك ضرب من الجهل قال تعالى: «فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم». قال: والنكر الدهاء والأمر الصعب الذي لا يعرف. انتهى.

وقد تم الكلام في قوله: «فتولَّ عنهم» ببيان حالهم تجاه الحكمة البالغة التي أُلقيت اليهم والزواجر التي ذكّروا بها على سبيل الإنذار، ثم أعاد سبحانه نبذة من تلك الزواجر التي هي أنباء من حالهم يوم القيامة ومن عاقبة حال الامم المكذبين من الماضين في لحن العتاب والتوبيخ الشديد الذي تهز قلوبهم للانتباه وتقطع منابت أعذارهم في الإعراض.

فقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ الخ: كلام مفصول عما قبله لذكر الزواجر التي أُشير اليها سابقاً في مقام الجواب عن سؤال مقدر كأنه لما قال: «فتولَّ عنهم» سئل فقيل: فإلى مَ يؤول أمرهم؟ فقيل «يوم يدع» الخ: أي هذه حال آخرتهم وتلك عاقبة دنيا أشياعهم وأمثالهم من قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، وليسوا خيراً منهم.

وعلى هذا فالظرف في «يوم يدع» متعلق بما سيأتي من قوله: «يخرجون» والمعنى: يخرجون من الأجداث يوم يدعو الداعي الى شيء نكر. الخ: وإما متعلق بمحذوف، والتقدير اذكر يوم يدعو الداعي. والمحصل اذكر ذاك اليوم وحالهم فيه، والآية في معنى قوله: **﴿هل ينظرون إلّا الساعة أن تأتيهم﴾** (الزخرف / ٦٦)، وقوله: **﴿فهل ينتظرون إلّا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾** (يونس / ١٠٢).

ولم يسمّ سبحانه هذا الداعي من هو؟ وقد نسب الدعوة في موضع من كلامه الى نفسه فقال: **﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾** (الاسراء / ٥٢).

وإنما أورد من أنباء القيامة نبأ دعوتهم لخروج من الأجداث والحضور لفصل القضاء وخروجهم منها خشَّعاً أبصارهم مهطعين الى الداعي ليحاذي به دعوتهم في الدنيا الى الايمان بالآيات وإعراضهم وقولهم: سحر مستمر.

ومعنى الآية : اذكر يوم يدعو الداعي الى أمر صعب عليهم وهو القضاء والجزاء .

قوله تعالى: ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنْتَشِرٌ ﴾ الخشع جمع خاشع والخشوع نوع من الذلة ونسب الى الأبصار لأن ظهوره فيها أتم .

والأجداث جمع جدث وهو القبر . والجراد حيوان معروف ، وتشبيههم في الخروج من القبور بالجراد المنتشر من حيث أن الجراد في انتشاره يدخل البعض منه في البعض ويختلط البعض بالبعض في جهات مختلفة فكذلك هؤلاء في خروجهم من القبور ، قال تعالى : ﴿ يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ﴾ (المعارج / ٤٤).

قوله تعالى : ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَافِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ أي حال كونهم مسرعين الى الداعي مطيعين مستجيبين دعوته يقول الكافرون : هذا يوم عسر أي صعب شديد[١][٢] .

٩ ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ .

١٠ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ .

١١ ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ .

١٢ ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى ٱلْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ .

---

١ . القمر ١ ـ ٨ : بحث روائي حول اقتراب القيامة وانشقاق القمر .

٢ . القمر ١ ـ ٨ : كلام فيه اجمال القول في شق القمر .

١٣ ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ.

١٤ ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ.

١٥ ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

١٦ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ.

١٧ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

١٨ ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ.

١٩ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ.

٢٠ ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ.

٢١ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ.

٢٢ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

٢٣ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ.

٢٤ ﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ.

٢٥ ﴿ ءَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ.

٢٦ ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ.

٢٧ ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ.

٢٨ ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ.

٢٩ ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ.

٣٠ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ.

٣١ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ.

٣٢ ● وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

٣٣ ● كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ.

٣٤ ● إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ.

٣٥ ● نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ.

٣٦ ● وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ.

٣٧ ● وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ.

٣٨ ● وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ.

٣٩ ● فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ.

٤٠ ● وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

٤١ ● وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ.

٤٢ ● كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ التكذيب الأول منزل منزلة اللازم أي فعلت التكذيب، وقوله: «فكذبوا عبدنا» الخ؛ تفسيره كما في قوله: ﴿ونادى نوح ربه فقال﴾ الخ؛ (هود / ٤٥).

وقيل: المراد بالتكذيب الأول التكذيب المطلق وهو تكذيبهم بالرسل، وبالثاني التكذيب بنوح خاصة كقوله في سورة الشعراء: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ (الشعراء / ١٠٥)، والمعنى: كذبت قوم نوح المرسلين فترتب عليه تكذيبهم لنوح، وهو وجه حسن.

وقيل :المراد بتفريع التكذيب على التكذيب الإشارة الى كونه تكذيباً إثر تكذيب بطول زمان دعوته فكلما انقرض قرن منهم مكذب جاء بعدهم قرن آخر مكذب، وهو معنى بعيد.

ومثله قول بعضهم: إن المراد بالتكذيب الأول قصده وبالثاني فعله.

وقوله: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ في التعبير عن نوح عليه السلام بقوله: «عبدنا» في مثل المقام تجليل لمقامه وتعظيم لأمره وإشارة الى أن تكذيبهم له يرجع اليه تعالى لأنه عبد لا يملك شيئاً وما له فهو لله.

وقوله: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ المراد بالازدجار زجر الجن له إثر الجنون، والمعنى: ولم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه الى الجنون فقالوا: هو مجنون وازدجر الجن فلا يتكلم إلّا عن زجر وليس كلامه من الوحي السماوي في شيء.

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ الانتصار الانتقام، وقوله: «إني مغلوب» أي بالقهر والتحكم دون الحجة، وهذا الدعاء تلخيص لتفصيل دعائه، وتفصيل دعائه مذكور في سورة نوح وتفصيل حججه في سورة هود وغيرها.

قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ قال في المجمع: الهمر صب الدمع والماء بشدة، والانهمار الانصباب، انتهى. وفتح أبواب السماء وهي الجو بماء منصب استعارة تمثيلية عن شدة انصباب الماء وجريان المطر متوالياً كأنه مدخر وراء باب مسدود يمنع عن انصبابه ففتح الباب فانصب أشد ما يكون.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى ٱلْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ قال في المجمع: التفجير تشقيق الأرض عن الماء، والعيون جمع عين الماء وهو ما يفور من الأرض مستديراً كاستدارة عين الحيوان. انتهى.

والمعنى: جعلنا الأرض عيوناً منفجرة عن الماء تجري جرياناً متوافقاً متتابعاً.

وقوله: ﴿فَالْتَقَى ٱلْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي فالتقى الماءان ماء السماء وماء

الأرض مستقراً على أمر قدره الله تعالى أي حسب ما قدر من غير نقيصة ولا زيادة ولا عجل ولا مهل.

فالماء اسم جنس أُريد به ماء السماء وماء الأرض ولذلك لم يثنّ. والمراد بأمر قد قدر الصفة التي قدرها الله لهذا الطوفان.

قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ المراد بذات الألواح والدسر السفينة، والألواح جمع لوح وهو الخشبة التي يركب بعضها على بعض في السفينة، والدسر جمع دسار ودسر وهو المسمار الذي تشد بها الألواح في السفينة. وقيل فيه معان أُخر لا تلائم الآية تلك الملاءمة.

قوله تعالى: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ أي تجري السفينة على الماء المحيط بالأرض بأنواع من مراقبتنا وحفظنا وحراستنا، وقيل: المراد تجري بأعين أوليائنا ومن وكلناه بها من الملائكة.

وقوله: ﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ أي جريان السفينة كذلك وفيه نجاة من فيها من الهلاك ليكون جزاء لمن كان كفر به وهو نوح عليه السلام كفر به وبدعوته قومه، فالآية في معنى قوله: ﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ـ الى أن قال ـ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ (الصافات / ٨٠).

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ ضمير «تركناها» للسفينة على ما يفيده السياق واللام للقسم، والمعنى: أُقسم لقد أبقينا تلك السفينة التي نجينا بها نوحاً والذين معه، وجعلناها آية يعتبر بها من اعتبر فهل من متذكر يتذكر بها وحدانيته تعالى وأن دعوة أنبيائه حق، وأن أخذه أليم شديد؟ ولازم هذا المعنى بقاء السفينة الى حين نزول هذه الآيات علامة دالّة على واقعة الطوفان مذكرة لها، وقد قال بعضهم في تفسير الآية على ما

نقل: أبقى الله سفينة نوح على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الامة[١]. انتهى. وقد أوردنا في تفسير سورة هود في آخر الأبحاث حول قصة نوح خبر أنهم عثروا في بعض قلل جبل آراراط وهو الجودي قطعات أخشاب من سفينة متلاشية وقعت هناك، فراجع.

وقيل: ضمير «تركناها» لما مر من القصة بما أنها فعله.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ النذر جمع نذير بمعنى الإنذار. وقيل: مصدر بمعنى الإنذار. والظاهر أن «كان» ناقصة واسمها «عذابي» وخبرها «فكيف»، ويمكن أن تكون تامة فاعلها قوله: «عذابي» وقوله: «فكيف» حالاً منه.

وكيف كان فالاستفهام للتهويل يسجل به شدة العذاب وصدق الإنذار.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ التيسير التسهيل وتيسير القرآن للذكر هو إلقاؤه على نحو يسهل فهم مقاصده للعامي والخاصي والافهام البسيطة والمتعمقة كل على مقدار فهمه.

ويمكن أن يراد به تنزيل حقائقه العالية ومقاصده المرتفعة عن أُفق الأفهام العادية الى مرحلة التكليم العربي تناله عامة الأفهام كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أُم الكتاب لدينا لعليّ حكيم﴾ (الزخرف / ٤).

والمراد بالذكر ذكره تعالى بأسمائه أو صفاته أو أفعاله، قال في المفردات: الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للانسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلّا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول، ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب وذكر باللسان وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ، وكل قول يقال له ذكر.

---

١. رواه في الدر المنثور عن عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة.

انتهى.

ومعنى الآية: وأُقسم لقد سهّلنا القرآن لأن يتذكر به، فيذكر الله تعالى وشؤنه، فهل من متذكر يتذكر به فيؤمن بالله ويدين بما يدعو اليه من الدين الحق؟

فالآية دعوة عامة الى التذكر بالقرآن بعد تسجيل صدق الإنذار وشدة العذاب الذي أُنذر به.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ شروع في قصة اخرى من القصص التي فيها الازدجار ولم يعطف على ما قبلها - ومثلها القصص الآتية - لأن كل واحدة من هذه القصص مستقلة كافية في الزجر والردع والعظة لو اتعظوا بها.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مسوق لتوجيه قلوب السامعين الى ما يلقى اليهم من كيفية العذاب الهائل بقوله: «إنا أرسلنا» الخ؛ وليس مسوقاً للتهويل وتسجيل شدة العذاب وصدق الإنذار كسابقه وإلّا لتكرر قوله بعد: «فكيف كان» الخ؛ كذا قيل وهو وجه حسن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ بيان لما استفهم عنه في قوله: «فكيف كان عذابي ونذر» والصرصر - على ما في المجمع - الريح الشديدة الهبوب. والنحس بالفتح فالسكون مصدر كالنحوسة بمعنى الشؤم. و«مستمر» صفة لنحس، ومعنى إرسال الريح في يوم نحس مستمر إرسالها في يوم متلبس بالنحوسة والشأمة بالنسبة اليهم المستمرة عليهم لا يرجى فيه خير لهم ولا نجاة.

والمراد باليوم قطعة من الزمان لا اليوم الذي يساوى سبع الاسبوع لقوله تعالى في موضع آخر من كلامه: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات﴾ (حم السجدة / ١٦)، وفي موضع آخر: ﴿سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾ (الحاقة / ٧).

وفسّر بعضهم النحس بالبرد.

قوله تعالى: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ فاعل «تنزع» ضمير راجع الى الريح أي تنزع الريح الناس من الأرض، وأعجاز النخل أسافله. والمنقعر المقلوع من أصله. والمعنى ظاهر. وفي الآية إشعار ببسطة القوم أجساماً.

قوله تعالى: «فكيف كان عذابي ـ الى قوله ـ مدكر» تقدم تفسير الآيتين[1].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ النذر إما مصدر كما قيل والمعنى: كذبت ثمود بإنذار نبيهم صالح ﷺ، وإما جمع نذير بمعنى المنذر، والمعنى: كذبت ثمود بالأنبياء لأن تكذيبهم بالواحد منهم تكذيب منهم بالجميع لأن رسالتهم واحدة لا اختلاف فيها فيكون في معنى قوله: ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ (الشعراء / ١٤١)، وإما جمع نذير بمعنى الإنذار ومرجعه الى أحد المعنيين السابقين.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ تفريع على التكذيب والسعر جمع سعير بمعنى النار المشتعلة، واحتمل أن يكون بمعنى الجنون وهو أنسب للسياق، والظاهر أن المراد بالواحد الواحد العددي، والمعنى: كذبوا به فقالوا: أبشراً من نوعنا وهو شخص واحد لا عدة له ولا جموع معه نتبعه إنا إذاً مستقرون في ضلال عجيب وجنون.

فيكون هذا القول توجيهاً منهم لعدم اتباعهم لصالح لفقده العدة والقوة وهم قد اعتادوا على اتباع من عنده ذلك كالملوك والعظماء وقد كان لصالح ﷺ يدعوهم الى طاعة نفسه ورفض طاعة عظمائهم كما يحكيه الله سبحانه عنه بقوله: ﴿فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾ (الشعراء / ١٥١).

---

١. القمر ٩ ـ ٤٢: كلام في سعادة الايام ونحوستها والطيرة والفأل في فصول (في سعادة الايام ونحوستها، في سعادة الكواكب ونحوستها، في التفاؤل والتطير).

ولو أُخذ الواحد واحداً نوعياً كان المعنى: أبشراً هو واحد منا أي هو مثلنا ومن نوعنا نتبعه؟ وكانت الآية التالية مفسرة لها.

قوله تعالى: ﴿ءَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ الاستفهام كسابقه للإنكار والمعنى: ءَأُنزل الوحي عليه واختص به من بيننا ولا فضل له علينا؟ لا يكون ذلك أبداً، والتعبير بالإلقاء دون الإنزال ونحوه للإشعار بالعجلة كما قيل.

ومن المحتمل أن يكون المراد نفي أن يختص بإلقاء الذكر من بينهم وهو بشر مثلهم فلو كان الوحي حقاً وجاز أن ينزل على البشر لنزل على البشر كلهم فما باله اختص بما من شأنه أن يرزقه الجميع؟ فتكون الآية في معنى قولهم له كما في سورة الشعراء: ﴿ما أنت إلّا بشر مثلنا﴾ (الشعراء / ١٥٤).

وقوله: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي شديد البطر متكبر يريد أن يتعظّم علينا بهذا الطريق.

قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ حكاية قوله سبحانه لصالح عليه السلام كالآيتين بعدها.

والمراد بالغد العاقبة من قولهم: إن مع اليوم غداً، يشير سبحانه به الى ما سينزل عليهم من العذاب فيعلمون عند ذلك علم عيان من هو الكذاب الأشر صالح أو هم؟

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ في مقام التعليل لما أخبر من أنهم سينزل عليهم العذاب والمفاد أنهم سينزل عليهم العذاب لأنا فاعلون كذا وكذا، والفتنة الامتحان والابتلاء، والمعنى: إنا مرسلون - على طريق الإعجاز - الناقة التي يسألونها امتحاناً لهم فانتظرهم واصبر على أذاهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ ضمير الجمع الأول للقوم والثاني للقوم والناقة على سبيل التغليب، والقسمة بمعنى المقسوم، والشرب

النصيب من شرب الماء، والمعنى: وخبرهم بعد إرسال الناقة أن الماء مقسوم بين القوم وبين الناقة كل نصيب من الشرب يحضر عنده صاحبه فيحضر القوم عند شربهم والناقة عند شربها قال تعالى: ﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ (الشعراء / ١٥٥).

قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ المراد بصاحبهم عاقر الناقة، والتعاطي التناول والمعنى: فنادى القوم عاقر الناقة لعقرها فتناول عقرها فعقرها وقتلها.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ المحتظر صاحب الحظيرة وهي كالحائط يعمل ليجعل فيه الماشية، وهشيم المحتظر الشجر اليابس ونحوه يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ الخ؛ تقدم تفسيره.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ تقدم تفسيره في نظيره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ الحاصب الريح التي تأتي بالحجارة والحصباء، والمراد بها الريح التي أُرسلت فرمتهم بسجيل منضود.

وقال في مجمع البيان: سحر إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار يقال: رأيت زيداً سحراً من الأسحار فإذا أردت سحر يومك قلت: أتيته بسحر ـ بالفتح ـ وأتيته سحر ـ من غير تنوين ـ انتهى، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ «نعمة» مفعول له من «نجيناهم» أي نجيناهم ليكون نعمة من عندنا نخصهم بها لأنهم كانوا شاكرين لنا وجزاء الشكر لنا النجاة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ ضمير الفاعل في

« أنذرهم » للوط ﷺ . والبطشة الأخذة الشديدة بالعذاب ، والتماري الإصرار على الجدال وإلقاء الشك . والنذر الإنذار ، والمعنى : أُقسم لقد خوفهم لوط أخذنا الشديد فجادلوا في إنذاره وتخويفه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ مراودته عن ضيفه طلبهم منه أن يسلم اليهم أضيافه وهم الملائكة ، وطمس أعينهم محوها ، وقوله : « فذوقوا عذابي ونذر » التفات الى خطابهم تشديداً وتقريعاً . والنذر مصدر أُريد به ما يتعلق به الإنذار وهو العذاب ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ قال في مجمع البيان : وقوله : « بكرة » ظرف زمان فإذا كان معرفة بأن تريد بكرة يومك تقول : أتيته بكرة وغدوة لم تصرفهما فبكرة هنا ـ وقد نوّن ـ نكرة . والمراد باستقرار العذاب حلوله بهم وعدم تخلفه عنهم .

قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي ـ الى قوله ـ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ تقدم تفسيره .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ المراد بالنذر الإنذار ، وقوله : « كذبوا بآياتنا » مفصول من غير عطف لكونه جواباً لسؤال مقدر كأنه لما قيل : « ولقد جاء آل فرعون النذر » قيل : فما فعلوا ؟ فاجيب بقوله : « كذبوا بآياتنا » ، وفرّع عليه قوله : « فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » .

٤٣ ● أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ .

٤٤ ● أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ .

٤٥ ● سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ .

٤٦ ● بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهىٰ وَأَمَرُّ.

٤٧ ● إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ.

٤٨ ● يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النّارِ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ.

٤٩ ● إِنّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ.

٥٠ ● وَما أَمْرُنا إِلّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ.

٥١ ● وَلَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

٥٢ ● وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ.

٥٣ ● وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ.

٥٤ ● إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ.

٥٥ ● فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَكُفّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ الظاهر أنه خطاب لقوم النبي ﷺ من مسلم وكافر على ما تشعر به الإضافة في «كفاركم» والخيرية هي الخيرية في زينة الدنيا وزخارف حياتها كالمال والبنين أو من جهة الأخلاق العامة في مجتمعهم كالسخاء والشجاعة والشفقة على الضعفاء، والإشارة باولئكم الى الأقوام المذكورة أنباؤهم: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، والاستفهام للإنكار.

والمعنى: ليس الذين كفروا منكم خيراً من اولئكم الامم المهلكين المعذبين حتى يشملهم العذاب دونكم.

ويمكن أن يكون خطاب «أكفارهم» لخصوص الكفار بعناية أنهم قوم النبي ﷺ وفيهم

كفار وهم هم .

وقوله : ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ظاهره أيضاً عموم الخطاب ، والزبر جمع زبور وهو الكتاب ، وقد ذكروا أن المراد بالزبر الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء ، والمعنى : بل ألكم براءة في الكتب السماوية التي نزلت من عند الله أنكم في أمن من العذاب والمؤاخذة وإن كفرتم وأجرمتم واقترفتم ما شئتم من الذنوب .

قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ الجميع المجموع والمراد به وحدة مجتمعهم من حيث الإرادة والعمل ، والانتصار الانتقام أو التناصر كما في خطابات يوم القيامة ﴿ما لكم لا تناصرون﴾ (الصافات / ٢٥) . والمعنى : بل أيقولون أي الكفار نحن قوم مجتمعون متحدون ننتقم ممن أرادنا بسوء أو ينصر بعضنا بعضاً فلا ننهزم .

قوله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ اللام في « الجمع » للعهد الذكري وفي « الدبر » للجنس ، وتولي الدبر الإدبار ، والمعنى : سيهزم الجمع الذي يتبجّحون به ويولون الأدبار ويفرُّون .

وفي الآية إخبار عن مغلوبية وانهزام لجمعهم ، ودلالة على أن هذه المغلوبية انهزام منهم في حرب سيقدمون عليها ، وقد وقع ذلك في غزاة بدر ، وهذا من ملاحم القرآن الكريم .

قوله تعالى : ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ « أدهى » اسم تفضيل من الدهاء وهو عظم البليّة المنكرة التي ليس الى التخلص منها سبيل . و « أمرّ » اسم تفضيل من المرارة ضد الحلاوة ، وفي الآية إضراب عن إيعادهم بالانهزام والعذاب الدنيوي الى إيعادهم بما سيجري عليهم في الساعة وقد أُشير الى نبإها في أول الأنباء الزاجرة ، والكلام يفيد الترقّي .

والمعنى : وليس الانهزام والعذاب الدنيوي تمام عقوبتهم بل الساعة التي أشرنا الى نبإها هي موعدهم والساعة أدهى من كل داهية وأمرّ من كل مُرّ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ جمع سعير وهي النار المسعّرة وفي الآية تعليل لما قبلها من قوله: ﴿والساعة أدهى وأمر﴾. والمعنى: إنما كانت الساعة أدهى وأمر لهم لأنهم مجرمون والمجرمون في ضلال عن موطن السعادة وهو الجنة ونيران مسعرة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ السحب جر الإنسان على وجهه، و «يوم» ظرف لقوله: «في ضلال وسعر»، و «سقر» من أسماء جهنم ومسّها هو إصابتها لهم بحرّها وعذابها.

والمعنى: كونهم في ضلال وسعر في يوم يجرّون في النار على وجوههم يقال لهم: ذوقوا ما تصيبكم جهنم بحرّها وعذابها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ «كل شيء» منصوب بفعل مقدر يدل عليه «خلقناه» والتقدير خلقنا كل شيء خلقناه، و «بقدر» متعلق بقوله: «خلقناه» والباء للمصاحبة، والمعنى: إنا خلقنا كل شيء مصاحباً لقدر.

وقدر الشيء هو المقدار الذي لا يتعداه والحد والهندسة التي لا يتجاوزه في شيء من جانبي الزيادة والنقيصة، قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١). فلكل شيء حد محدود في خلقه لا يتعداه وصراط ممدود في وجوده يسلكه ولا يتخطاه.

والآية في مقام التعليل لما في الآيتين السابقتين من عذاب المجرمين يوم القيامة كأنه قيل: لماذا جوزي المجرمون بالضلال والسعر يوم القيامة وأُذيقوا مس سقر؟ فاجيب بقوله: «إنا كل شيء خلقناه بقدر» ومحصله أن لكل شيء قدراً ومن القدر في الإنسان أن الله سبحانه خلقه نوعاً متكاثر الأفراد بالتناسل اجتماعياً في حياته الدنيا يتزود من حياته الدنيا الدائرة لحياته الآخرة الباقية. وقد أن يرسل اليهم رسولاً يدعوهم الى سعادة الدنيا والآخرة فمن استجاب

الدعوة فاز بالسعادة ودخل الجنة وجاور ربه، ومن ردّها وأجرم فهو في ضلال وسعر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ قال في المجمع: اللمح النظر بالعجلة وهو خطف البصر. انتهى.

والمراد بالأمر ما يقابل النهي لكنه الأمر التكويني بإرادة وجود الشيء، قال تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (يس / ٨٢) فهو كلمة كن ولعله لكونه كلمة اعتبر الخبر مؤنثاً فقيل «إلّا واحدة».

والذي يفيد السياق أن المراد بكون الأمر واحدة أنه لا يحتاج في مضيّه وتحقق متعلقه الى تعدد وتكرار بل أمر واحد بإلقاء كلمة كن يتحقق به المتعلق المراد كلمح بالبصر من غير تأنٍّ ومهل حتى يحتاج الى الأمر ثانياً وثالثاً.

وتشبيه الأمر من حيث تحقق متعلقه بلمح بالبصر لا لإفادة أن زمان تأثيره قصير كزمان تحقق اللمح بالبصر بل لإفادة أنه لا يحتاج في تأثيره الى مضيّ زمان ولو كان قصيراً فإن التشبيه باللمح بالبصر في الكلام يكنى به عن ذلك، فأمره تعالى وهو إيجاده وإرادة وجوده لا يحتاج في تحقق الى زمان ولا مكان ولا حركة كيف لا؟ ونفس الزمان والمكان والحركة إنما تحققت بأمره تعالى.

والآية وإن كانت بحسب مؤدّاها في نفسها تعطي حقيقة عامة في خلق الأشياء وأن وجودها من حيث إنه فعل الله سبحانه كلمح بالبصر وإن كان من حيث إنه وجود لشيء كذا تدريجياً حاصلاً شيئاً فشيئاً.

إلّا أنها بحسب وقوعها في سياق إيعاد الكفار بعذاب يوم القيامة ناظرة الى إتيان الساعة وأن أمراً واحداً منه تعالى يكفي في قيام الساعة وتجديد الخلق بالبعث والنشور فتكون متممة لما أُقيم من الحجة بقوله: «إنا كل شيء خلقناه بقدر».

فيكون مفاد الآية الاولى أن عذابهم بالنار على وفق الحكمة ولا محيص عنه بحسب الإرادة

الإلهية لأنه من القدر، ومفاد هذه الآية أن تحقق الساعة التي يعذبون فيها بمضي هذه الإرادة وتحقق متعلقها لا مؤنة فيه عليه سبحانه لأنه يكفي فيه أمر واحد منه تعالى كلمح بالبصر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ الأشياع جمع شيعة والمراد ـ كما قيل ـ الأشباه والأمثال في الكفر وتكذيب الأنبياء من الامم الماضية.

والمراد بالآية والآيتين بعدها تأكيد الحجة السابقة التي أُقيمت على شمول العذاب لهم لا محالة.

ومحصل المعنى: أن ليس ما أنذرناكم به من عذاب الدنيا وعذاب الساعة مجرد خبر أخبرناكم به ولا قول ألقيناه اليكم فهذه أشياعكم من الامم الماضية شرع فيهم بذلك فقد أهلكناهم وهو عذابهم في الدنيا وسيلقون عذاب الآخرة فإن أعمالهم مكتوبة مضبوطة في كتب محفوظة عندنا سنحاسبهم بها ونجازيهم بما عملوا.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ الزبر كتب الأعمال وتفسيره باللوح المحفوظ سخيف، والمراد بالصغير والكبير صغير الأعمال وكبيرها على ما يفيده السياق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي في جنات عظيمة الشأن بالغة الوصف ونهر كذلك، قيل: المراد بالنهر الجنس، وقيل: النهر بمعنى السعة.

قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ المقعد المجلس، والمليك صيغة مبالغة للملك على ما قيل، وليس من إشباع كسر لام الملك، والمقتدر القادر العظيم القدرة وهو الله سبحانه.

والمراد بالصدق صدق المتقين في إيمانهم وعملهم أُضيف اليه المقعد لملابسةٍ مّا ويمكن أن يراد به كون مقامهم وماهم فيه صدقاً لا يشوبه كذب فلهم حضور لا غيبة معه، وقرب لا بُعد

معه، ونعمة لا نقمة معها، وسرور لا غمَّ معه، وبقاء لا فناء معه.

ويمكن أن يراد به صدق هذا الخبر من حيث إنه تبشير ووعد جميل للمتقين، وعلى هذا ففيه نوع مقابلة بين وصف عاقبة المتقين والمجرمين حيث أُوعد المجرمون بالعذاب والضلال وقرر ذلك بأنه من القدر ولن يتخلف، ووعد المتقون بالثواب والحضور عند ربهم المليك المقتدر وقرر ذلك بأنه صدق لا كذب فيه[١][٢].

١. القمر ٤٣ـ٥٥: بحث روائي حول القدر، القدرية: الذين أحبّوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢. القمر ٤٣ـ٥٥: كلام في القدر.

سورة الرحمن مكية أو مدنية وهي ثمان وسبعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● الرَّحْمٰنُ.

٢ ● عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ.

٣ ● خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ.

٤ ● عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ.

٥ ● الشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ.

٦ ● وَالنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَانِ.

٧ ● وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ.

٨ ● أَلاَّ تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ.

٩ ● وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ.

١٠ ● وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ.

١١ ● فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ.

١٢ ● وَالْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ.

١٣ ● فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

١٤ ● خَلَقَ ٱلْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخّارِ.

١٥ ● وَخَلَقَ ٱلْجانَّ مِنْ مّارِجٍ مِنْ نّارٍ.

١٦ ● فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

١٧ ● رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ.

١٨ ● فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

١٩ ● مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ.

٢٠ ● بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيانِ.

٢١ ● فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٢٢ ● يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجانُ.

٢٣ ● فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٢٤ ● وَلَهُ ٱلْجَوارِ ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ.

٢٥ ● فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٢٦ ● كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ.

٢٧ ● وَيَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلالِ وَٱلْإِكْرامِ.

٢٨ ● فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٢٩ ● يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰواتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ.

٣٠ ● فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

بيان:

تتضمن السورة الإشارة الى خلقه تعالى العالم بأجزائه من سماء وأرض وبرّ وبحر وإنس وجن ونظم أجزائه نظماً ينتفع به الثقلان الإنس والجن في حياتهما وينقسم بذلك العالم الى نشأتين: نشأة دنيا ستفنى بفناء أهلها، ونشأة أُخرى باقية تتميز فيها السعادة من الشقاء والنعمة من النقمة.

وبذلك يظهر أن دار الوجود من دنياها وآخرتها ذات نظام واحد مؤتلف الأجزاء مرتبط الأبعاض قويم الأركان يصلح بعضه ببعض ويتم شطر منه بشطر.

فما فيه من عين وأثر، من نعمه تعالى وآلائه، ولذا يستفهمهم مرة بعد مرة استفهاماً مشوباً بعتاب بقوله: «فبأي آلاء ربكما تكذبان» فقد كررت الآية في السورة إحدى وثلاثين مرة.

ولذلك افتتحت السورة بذكره تعالى بصفة رحمته العامة الشاملة للمؤمن والكافر والدنيا والآخرة واختتمت بالثناء عليه بقوله: «تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام».

والسورة يحتمل كونها مكية أو مدنية وإن كان سياقها بالسياق المكي أشبه وهي السورة الوحيدة في القرآن التتحت بعد البسملة باسم من أسماء الله عز اسمه، وفي المجمع عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن جلَّ ذكره، ورواه في الدر المنثور عن البيهقي عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ الرحمان كما تقدم في تفسير سورة الفاتحة صيغة مبالغة تدل على كثرة الرحمة ببذل النعم ولذلك ناسب أن يعم ما يناله المؤمن والكافر من نعم الدنيا وما يناله المؤمن من نعم الآخرة، ولعمومه ناسب أن يصدَّر به الكلام لاشتمال الكلام في السورة على أنواع النعم الدنيوية والاخروية التي ينتظم بها عالم الثقلين الإنس والجن.

ذكروا أن الرحمان من الأسماء الخاصة به تعالى لا يسمى به غيره بخلاف مثل الرحيم والراحم.

وقوله: «علّم القرآن» شروع في عد النعم الإلهية، ولما كان القرآن أعظم النعم قدراً وشأناً وأرفعها مكاناً ـ لأنه كلام الله الذي يخط صراطه المستقيم ويتضمن بيان نهج السعادة التي هي غاية ما يأمله آمل ونهاية ما يسأله سائل ـ قدم ذكر تعليمه على سائر النعم حتى على خلق الإنس والجن اللذين نزل القرآن لأجل تعليمهما.

وحذف مفعول «علم» الأول وهو الإنسان أو الإنس والجن والتقدير علم الإنسان القرآن أو علم الإنس والجن القرآن، وهذا الاحتمال الثاني إن لم يتعرضوا له لكنه أقرب الاحتمالين لأن السورة تخاطب في تضاعيف آياتها الجن كالإنس ولولا شمول التعليم في قوله: «علم القرآن» لهم لم يتم ذلك.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ ذكر خلق الإنسان وسيذكر خصوصية خلقه بقوله: «خلق الإنسان من صلصال كالفخار»، والإنسان من أعجب مخلوقات الله تعالى أو هو أعجبها يظهر ذلك بقياس وجوده الى وجود غيره من المخلوقات والتأمل فيما خط له من طريق الكمال في ظاهره وباطنه ودنياه وآخرته، قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ (التين / ٦).

وقوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ البيان الكشف عن الشيء والمراد به الكلام الكاشف عما في الضمير، وهو من أعجب النعم وتعليمه للإنسان من عظيم العناية الإلهية المتعلقة به فليس الكلام مجرد إيجاد صوت مّا باستخدام الرئة وقصبتها والحلقوم ولا ما يحصل من التنوع في الصوت الخارج من الحلقوم باعتماده على مخارج الحروف المختلفة في الفم.

بل يجعل الإنسان بإلهام باطني من الله سبحانه الواحد من هذه الأصوات المعتمدة على

مخرج من مخارج الفم المسمى حرفاً أو المركب من عدة من الحروف علامة مشيرة الى مفهوم من المفاهيم يمثل به ما يغيب عن حس السامع وإدراكه فيقدر به على إحضار أي وضع من أوضاع العالم المشهود وإن جل ما جل أو دق ما دق من موجود أو معدوم ماض أو مستقبل، ثم على إحضار أي وضع من أوضاع المعاني غير المحسوسة التي يناها الإنسان بفكره ولا سبيل للحس اليها يحضرها جميعاً لسامعه ويمثلها لحسّه كأنه يشخصها له بأعيانها.

ولا يتم للانسان اجتماعه المدني ولا تقدم في حياته هذا التقدم الباهر إلّا بتنبهه لوضع الكلام وفتحه بذلك باب التفهيم والتفهم، ولولا ذلك لكان هو والحيوان العجم سواء في جمود الحياة وركودها.

ومن أقوى الدليل على أن اهتداء الإنسان الى البيان بإلهام إلهي له أصل في التكوين اختلاف اللغات باختلاف الامم والطوائف في الخصائص الروحية والأخلاق النفسانية وبحسب اختلاف المناطق الطبيعية التي يعيشون فيها، قال تعالى: ﴿ **ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم** ﴾ (الروم / ٢٢).

وليس المراد بقوله: «علّمه البيان» أن الله سبحانه وضع اللغات ثم علمها الإنسان بالوحي الى نبي من الأنبياء أو بالإلهام فإن الإنسان بوقوعه في ظرف الاجتماع مندفع بالطبع الى اعتبار التفهيم والتفهم بالإشارات والأصوات وهو التكلم والنطق لا يتم له الاجتماع المدني دون ذلك.

على أن فعله تعالى هو التكوين والإيجاد والرابطة بين اللفظ ومعناه اللغوي وضعية اعتبارية لا حقيقية خارجية بل الله سبحانه خلق الإنسان وفطره فطرة تؤديه الى الاجتماع المدني ثم الى وضع اللغة بجعل اللفظ علامة للمعنى بحيث إذا ألقى اللفظ الى سامعه فكأنما يلقي اليه المعنى ثم الى وضع الخط بجعل الأشكال المخصوصة علائم للألفاظ فالخط مكمل لغرض الكلام، وهو يمثل الكلام كما أن الكلام يمثل المعنى.

وبالجملة البيان من أعظم النعم والآلاء الربانية التي تحفظ لنوع الإنسان موقفه الإنساني وتهديه الى كل خير.

هذا ما هو الظاهر المتبادر من الآيتين، ولهم في معناهما أقوال: فقيل: الإنسان هو آدم عليه السلام والبيان الأسماء التي علمه الله إياها.

قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ الحسبان مصدر بمعنى الحساب، والشمس مبتدأ والقمر معطوف عليه، وبحسبان خبره، والجملة خبر بعد خبر لقوله: «الرحمن» والتقدير الشمس والقمر يجريان بحساب منه على ما قدر لهما من نوع الجري.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قالوا: المراد بالنجم ما ينجم من النبات ويطلع من الأرض ولا ساق له، والشجر ما له ساق من النبات، وهو معنى حسن يؤيده الجمع والقرن بين النجم والشجر وإن كان ربما أوهم سبق ذكر الشمس والقمر كون المراد بالنجم هو الكواكب.

وسجود النجم والشجر انقيادهما للأمر الإلهي بالنشوء والنمو على حسب ما قدر لهما كما قيل، وأدق منه أنهما يضربان في التراب باصولهما وأعراقهما لجذب ما يحتاجان اليه من المواد العنصرية التي يغتذيان بها وهذا السقوط على الأرض إظهاراً للحاجة الى المبدأ الذي يقضي حاجتهما ـ وهو في الحقيقة الله الذي يربيهما كذلك ـ سجود منهما له تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ المراد بالسماء إن كان جهة العلو فرفعها خلقها مرفوعة لا رفعها بعد خلقها وإن كان ما في جهة العلو من الأجرام فرفعها تقدير محالها بحيث تكون مرفوعة بالنسبة الى الأرض بالفتق بعدالرتق كما قال تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ (الأنبياء / ٣٠)، والرفع على أي حال رفع حسّي.

وإن كان المراد ما يشمل منازل الملائكة الكرام ومصادر الأمر الإلهي والوحي فالرفع

معنوي أو ما يشمل الحسي والمعنوي.

وقوله: «ووضع الميزان» المراد بالميزان كل ما يوزن أي يقدر به الشيء أعم من أن يكون عقيدة أو قولاً أو فعلاً ومن مصاديقه الميزان الذي يوزن به الأثقال، قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ (الحديد / ٢٥).

فظاهره مطلق ما يميز به الحق من الباطل والصدق من الكذب والعدل من الظلم والفضيلة من الرذيلة على ما هو شأن الرسول أن يأتي به من عند ربه.

وقيل: المراد بالميزان العدل أي وضع الله العدل بينكم لتسوّوا به بين الأشياء بإعطاء كل ذي حق حقه.

وقيل: المراد الميزان الذي يوزن به الأثقال والمعنى الأول أوسع وأشمل.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ الظاهر أن المراد بالميزان الميزان المعروف وهو ميزان الأثقال. فقوله: «ألا تطغوا» الخ؛ على تقدير أن يراد بالميزان في الآية السابقة أيضاً ميزان الأثقال، وهو بيان وضع الميزان. والمعنى أن معنى وضعنا الميزان بينكم هو أن اعدلوا في وزن الأثقال ولا تطغوا فيه.

وعلى تقدير أن يراد به مطلق التقدير الحق أو العدل هو استخراج حكم جزئي من حكم كلي، والمعنى أن لازم ما وضعناه من التقدير الحق أو العدل بينكم هو أن تزنوا الأثقال بالقسط ولا تطغوا فيه.

وعلى أي حال الظاهر أن «أن» في قوله: «أن لا تطغوا» تفسيرية، و«لا تطغوا» نهي عن الطغيان في الميزان و«أقيموا الوزن بالقسط» أمر معطوف عليه. والقسط العدل و«لا تخسروا الميزان» نهي آخر مبين لقوله: «لا تطغوا» الخ؛ ومؤكد له. والاخسار في الميزان التطفيف به بزيادة أو نقيصة بحيث يخسر البائع أو المشتري.

وأما جعل «أن» ناصبة و«لا تطغوا» نفياً، والتقدير: لئلا تطغوا، فيحتاج الى تكلف توجيه في عطف الإنشاء على الإخبار في قوله: «وأقيموا الوزن» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ الأنام الناس، وقيل: الإنس والجن، وقيل: كل ما يدبُّ على الأرض، وفي التعبير في الأرض بالوضع قبال التعبير في السماء بالرفع لطف ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ المراد بالفاكهة الثمرة غير التمر، والأكمام جمع كم بضم الكاف وكسرها وعاء التمر وهو الطلع، وأما كم القميص فهو مضموم الكاف لا غير كما قيل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ معطوف على قوله: «فاكهة» أي وفيها الحب والريحان، والحب ما يقتات به كالحنطة والشعير والارز، والعصف ما هو كالغلاف للحب وهو قشره، وفسّر بورق الزرع مطلقاً وبورق الزرع اليابس، والريحان النبات الطيب الرائحة.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الآلاء جمع الى بمعنى النعمة.

والخطاب في الآية لعامة الثقلين: الجن والإنس ويدل على ذلك توجيه الخطاب اليهما صريحاً فيما سيأتي من قوله: «سنفرغ لكم أيها الثقلان» وقوله: «يا معشر الجن والإنس» الخ؛ وقوله: «يرسل عليكما شواظ» الخ؛ فلا يصغى الى قول من قال: إن الخطاب في الآية للذكر والانثى من بني آدم، ولا الى قول من قال: إنه من خطاب الواحد بخطاب الإثنين ويفيد تكرر الخطاب نحو يا شرطي اضربا عنقه أي اضرب عنقه اضرب عنقه.

وتوجيه الخطاب الى عالمي الجن والإنس هو المصحح لعدّ ما سنذكره من شدائد يوم القيامة وعقوبات المجرمين من أهل النار من آلائه ونعمه تعالى، فإن سوق المسيئين وأهل الشقوة في نظام الكون الى ما تقتضيه شقوتهم ومجازاتهم بتبعات أعمالهم من لوازم صلاح

النظام العام الجاري في الكل الحاكم على الجميع فذلك نعمة بالقياس الى الكل وإن كان نقمة بالنسبة الى طائفة خاصة منهم وهم المجرمون وهذا نظير ما نجده في السنن والقوانين الجارية في المجتمعات فإن التشديد على أهل البغي والفساد مما يتوقف عليه حياة المجتمع وبقاؤه وليس يتنعم به أهل الصلاح خاصة كما أن إثابة أهل الصلاح بالثناء الجميل والأجر الحسن كذلك.

فما في النار من عذاب وعقاب لأهلها وما في الجنة من كرامة وثواب آلاء ونعم على معشر الجن والإنس كما أن الشمس والقمر والسماء المرفوعة والأرض الموضوعة والنجم والشجر وغيرها آلاء ونعم على أهل الدنيا.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ الصلصال الطين اليابس الذي يتردد منه الصوت إذا وطيء، والفخار الخزف.

والمراد بالإنسان نوعه والمراد بخلقه من صلصال كالفخار انتهاء خلقه اليه، وقيل: المراد بالإنسان آدم عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ المارج هو اللهب الخالص من النار، وقيل: اللهب المختلط بسواد، والكلام في الجان كالكلام في الإنسان فالمراد به نوع الجن، وعدّهم مخلوقين من النار باعتبار انتهاء خلقتهم اليها، وقيل: المراد بالجان أبو الجن.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ المراد بالمشرقين مشرق الصيف ومشرق الشتاء، وبذلك تحصل الفصول الأربعة وتنتظم الأرزاق، وقيل: المراد بالمشرقين مشرق الشمس والقمر وبالمغربين مغرباهما.

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ المرج الخلط والمرج الإرسال، يقال: مرجه أي خلطه ومرجه أي أرسله والمعنى الأول أظهر، والظاهر أن المراد بالبحرين العذب الفرات والملح الاجاج، قال تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب

فرات سائغ شرابه وهذا ملح أُجاج ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ (فاطر / ١٢).

وأمثل ما قيل في الآيتين أن المراد بالبحرين جنس البحر المالح الذي يغمر قريباً من ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من البحار المحيطة وغير المحيطة، والبحر العذب المدخر في مخازن الأرض التي تنفجر الأرض عنها فتجري العيون والأنهار الكبيرة فتصب في البحر المالح، ولا يزالان يلتقيان، وبينهما حاجز وهو نفس المخازن الأرضية والمجاري يحجز البحر المالح أن يبغي على البحر العذب فيغشيه ويبدله بحراً مالحاً وتبطل بذلك الحياة، ويحجز البحر العذب أن يزيد في الانصباب على البحر المالح فيبدله ماء عذباً فتبطل بذلك مصلحة ملوحته من تطهير الهواء وغيره.

ولا يزال البحر المالح يمدُّ البحر العذب بالأمطار التي تأخذها منه السحب فتمطر على الأرض وتدخرها المخازن الأرضية والبحر العذب يمدُّ البحر المالح بالانصباب عليه.

فمعنى الآيتين ـ والله أعلم ـ خلط البحرين العذب الفرات والملح الاجاج حال كونهما مستمرين في تلاقيهما بينهما حاجز لا يطغيان بأن يغمر أحدهما الآخر فيذهب بصفته من العذوبة والملوحة فيختل نظام الحياة والبقاء.

قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ أي من البحرين العذب والمالح جميعاً وذلك من فوائدهما التي ينتفع بها الإنسان، وقد تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى: ﴿ وما يستوي البحران ﴾ الآية: (فاطر / ١٢).

قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ الجواري جمع جارية وهي السفينة، والمنشآت اسم مفعول من الإنشاء وهو إحداث الشيء وتربيته، والأعلام جمع علم بفتحتين وهو الجبل.

وعدّ الجواري مملوكة له تعالى مع كونها من صنع الإنسان لأن الأسباب العاملة في إنشائها

من خشب وحديد وسائر أجزائها التي تتركب منها والإنسان الذي يركّبها وشعوره وفكره وإرادته كل ذلك مخلوق له ومملوك فما ينتجه عملها من ملكه.

فهو تعالى المنعم بها للانسان ألهمه طريق صنعها والمنافع المترتبة عليها وسبيل الانتفاع بمنافعها الجمّة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ضمير «عليها» للأرض أي كل ذي شعور وعقل على الأرض سيفنى وفيه تسجيل الزوال والدثور على الثقلين.

وإنما أتى باللفظ الدال على أُولي العقل ـ كل من عليها ـ ولم يقل: كل من عليها كذلك لأن الكلام مسرود في السورة لتعداد نعمه وآلائه تعالى للثقلين في نشأتيهم الدنيا والآخرة.

وظهور قوله: ﴿فَانٍ﴾ في الاستقبال كما يستفاد أيضاً من السياق يعطي أن قوله: «كل من عليها فان» يشير الى انقطاع أمد النشأة الدنيا وارتفاع حكمها بفناء من عليها وهم الثقلان وطلوع النشأة الاخرى عليهم. وكلاهما أعني فناء من عليها وطلوع نشأة الجزاء عليهم من النعم والآلاء لأن الحياة الدنيا حياة مقدمية لغرض الآخرة والانتقال من المقدمة الى الغرض والغاية نعمة.

وبذلك يندفع قول من قال: أي نعمة في الفناء حتى يجعل من النعم ويعد من الآلاء.

ومحصل الجواب أن حقيقة هذا الفناء الرجوع الى الله بالانتقال من الدنيا كما تفسره آيات كثيرة في كلامه تعالى وليس هو الفناء المطلق.

وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ وجه الشيء ما يستقبل به غيره ويقصده به غيره، وهو فيه سبحانه صفاته الكريمة التي تتوسط بينه وبين خلقه فتنزل بها عليهم البركات من خلق وتدبير كالعلم والقدرة والسمع والبصر والرحمة والمغفرة والرزق وقد تقدم في تفسير سورة الأعراف كلام مبسوط في كون أسمائه وصفاته تعالى وسائط بينه وبين خلقه.

وقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ في الجلال شيء من معنى الاعتلاء والترفع المعنوي على الغير فيناسب من الصفات ما فيه شائبة الدفع والمنع كالعلو والتعالي والعظمة والكبرياء والتكبر والإحاطة والعزة والغلبة.

ويبقى للإكرام من المعنى ما فيه نعت البهاء والحسن الذي يجذب الغير ويُولّهه كالعلم والقدرة والحياة والرحمة والجود والجمال والحسن ونحوها وتسمى صفات الجمال كما تسمى القسم الأول صفات الجلال وتسمى الأسماء أيضاً على حسب ما فيها من صفات الجمال أو الجلال بأسماء الجمال أو الجلال.

فذو الجلال والإكرام اسم من الأسماء الحسنى جامع بمفهومه بين أسماء الجمال وأسماء الجلال جميعاً.

والمسمى به بالحقيقة هو الذات المقدسة كما في قوله في آخر السورة: «تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام» لكن أُجري في هذه الآية ـ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ـ على الوجه، وهو إما لكونه وصفاً مقطوعاً عن الوصفية للمدح، والتقدير هو ذو الجلال والإكرام، وإما لأن المراد بالوجه كما تقدم هو صفته الكريمة واسمه المقدس وإجراء الاسم على الاسم مآله الى إجراء الاسم على الذات.

ومعنى الآية على تقدير أن يراد بالوجه ما يستقبل به الشيء غيره وهو الاسم ـ ومن المعلوم أن بقاء الاسم[1] فرع بقاء المسمى ـ: ويبقى ربك عز اسمه بما له من الجلال والإكرام من غير أن يؤثر فناؤهم فيه أثراً أو يُغيّر منه شيئاً.

وعلى تقدير أن يراد بالوجه ما يقصده به غيره ومصداقه كل ما ينتسب اليه تعالى فيكون مقصوداً بنحو للمتوجه اليه كأنبيائه وأوليائه ودينه وثوابه وقربه وسائر ما هو من هذا القبيل

١. المراد بالاسم ما يحكى عنه الاسم اللفظي دون اللفظ الحاكي.

فالمعنى: ويبقى بعد فناء أهل الدنيا ما هو عنده تعالى وهو من صقعه وناحيته كأنواع الجـزاء والثواب والقرب منه. قال تعالى: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ (النحل / ٩٦).

وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلّا وجهه﴾ (القصص / ٨٨) من الكلام بعض ما لا يخلو من نفع في المقام.

قوله تـعالى: ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ سؤالهم سؤال حاجة فهم في حاجة من جميع جهاتهم اليـه تـعالى مـتعلقوا الوجـودات بـه متمسكون بذيل غناه وجوده. قال تعالى: ﴿أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني﴾ (فـاطر / ١٥)، وقال في هذا المعنى من السؤال: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ (إبراهيم / ٣٤).

وقوله: «كل يوم هو في شأن» تنكير «شأن» للدلالة على التفرق والاختلاف فـالمعنى: كل يوم هو تعالى في شأن غير ما في سابقه ولاحقه من الشأن فلا يتكرر فعل من أفعاله مرتين ولا يماثل شأن من شؤنه شأناً آخر من جميع الجهات وإنما يفعل على غير مثال سـابق وهـو الإبداع، قال تعالى: ﴿بديع السماوات والأرض﴾ (البقرة / ١١٧).

ومعنى ظرفية اليوم إحاطته تعالى في مقام الفعل على الأشياء فهو سبحانه في كل زمـان وليس في زمان وفي كل مكان وليس في مكان ومع كل شيء ولا يداني شيئاً[1].

٣١ ● سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاٰنِ.

٣٢ ● فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ.

٣٣ ● يٰا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطٰارِ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ فَانفُذُوا لاٰ تَنْفُذُونَ إِلاّٰ بِسُلْطٰانٍ.

---

١. الرحمن ١ ـ ٣٠: بحث رواني في: المشرقين والمغربين؛ البحرين يلتقيان؛ وجه الله.

٣٤ ● فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُما تُكَذِّبٰانِ.

٣٥ ● يُرْسَلُ عَلَيْكُمٰا شُوٰاظٌ مِنْ نٰارٍ وَنُحٰاسٌ فَلاٰ تَنْتَصِرٰانِ.

٣٦ ● فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُما تُكَذِّبٰانِ.

٣٧ ● فَإِذَا ٱنْشَقَّتِ السَّمٰاءُ فَكٰانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهٰانِ.

٣٨ ● فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُما تُكَذِّبٰانِ.

٣٩ ● فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاٰ جٰانٌّ.

٤٠ ● فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُما تُكَذِّبٰانِ.

٤١ ● يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمٰاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوٰاصِي وَٱلْأَقْدٰامِ.

٤٢ ● فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُما تُكَذِّبٰانِ.

٤٣ ● هٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ.

٤٤ ● يَطُوفُونَ بَيْنَهٰا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ.

٤٥ ● فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُما تُكَذِّبٰانِ.

٤٦ ● وَلِمَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ جَنَّتٰانِ.

٤٧ ● فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُما تُكَذِّبٰانِ.

٤٨ ● ذَوٰاتٰا أَفْنٰانٍ.

٤٩ ● فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُما تُكَذِّبٰانِ.

٥٠ ● فِيهِمٰا عَيْنٰانِ تَجْرِيٰانِ.

٥١ ● فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُما تُكَذِّبٰانِ.

٥٢ ● فِيهِمٰا مِنْ كُلِّ فٰاكِهَةٍ زَوْجٰانِ.

٥٣ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٥٤ ۞ مُتَّكِئِينَ عَلىٰ فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دانٍ.

٥٥ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٥٦ ۞ فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جانٌّ.

٥٧ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٥٨ ۞ كَأَنَّهُنَّ ٱلْياقُوتُ وَٱلْمَرْجانُ.

٥٩ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٦٠ ۞ هَلْ جَزاءُ ٱلْإِحْسانِ إِلَّا ٱلْإِحْسانُ.

٦١ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٦٢ ۞ وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ.

٦٣ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٦٤ ۞ مُدْهامَّتانِ.

٦٥ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٦٦ ۞ فِيهِما عَيْنانِ نَضّاخَتانِ.

٦٧ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٦٨ ۞ فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمّانٌ.

٦٩ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٧٠ ۞ فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ.

٧١ ❁ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٧٢ ❁ حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ.

٧٣ ❁ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٧٤ ❁ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جانٌّ.

٧٥ ❁ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٧٦ ❁ مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ.

٧٧ ❁ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.

٧٨ ❁ تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ يقال: فرغ فلان لأمر كذا إذا كان مشتغلاً قبلاً بامور ثم تركها وقصر الاشتغال بذاك الأمر اهتماماً به.

فمعنى «سنفرغ لكم» سنطوى بساط النشأة الاولى ونشتغل بكم، وتبين الآيات التالية أن المراد بالاشتغال بهم بعثهم وحسابهم ومجازاتهم بأعمالهم خيراً أو شراً فالفراغ لهم استعارة بالكناية عن تبدل النشأة.

ولا ينافي الفراغ لهم كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن فإن الفراغ المذكور ناظر الى تبدل النشأة وكونه لا يشغله شأن عن شأن ناظر الى إطلاق القدرة وسعتها كما لا ينافي كونه تعالى كل يوم هو في شأن الناظر الى اختلاف الشؤن كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن والثقلان الجن والانس، وإرجاع ضمير الجمع في «لكم» و «إن استطعتم» وغيرهما اليهما لكونهما جمعاً ذا أفراد.

قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ الخ: الخطاب ـ على ما يفيده السياق ـ من خطابات يوم القيامة وهو خطاب تعجيزي.

والمراد بالاستطاعة القدرة، وبالنفوذ من الأقطار الفرار. والأقطار جمع قطر وهو الناحية.

والمعنى: يا معشر الجن والإنس ـ وقدَّم الجن لأنهم على الحركات السريعة أقدر ـ إن قدرتم أن تفروا بالنفوذ من نواحي السماوات والأرض والخروج من ملك الله التخلص من مؤاخذته ففروا وانفذوا.

وقوله: ﴿لاٰ تَنْفُذُونَ إِلاّٰ بِسُلْطَانٍ﴾ أي لا تقدرون على النفوذ إلّا بنوع من السلطة على ذلك وليس لكم والسلطان القدرة الوجودية، والسلطان البرهان أو مطلق الحجة، والسلطان الملك.

قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلاٰ تَنْتَصِرَانِ﴾ الشواظ ـ على ما ذكره الراغب ـ اللهب الذي لا دخان فيه، ويقرب منه ما في المجمع أنه اللهب الأخضر المنقطع من النار، والنحاس الدخان وقال الراغب: هو اللهب بلا دخان والمعنى ظاهر.

وقوله: ﴿فَلاٰ تَنْتَصِرَانِ﴾ أي لا تتناصران بأن ينصر بعضكم بعضاً لرفع البلاء والتخلص عن العناء لسقوط تاثير الأسباب ولا عاصم اليوم من الله.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أي كانت حمراء كالدهان وهو الأديم الأحمر.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاٰ جَانٌّ﴾ الآية وما يتلوها من الآيات الى آخر السورة تصف الحساب والجزاء تصف حال المجرمين والخائفين مقام ربهم وما

ينتهي اليه.

ثم الآية تصف سرعة الحساب وقد قال تعالى: ﴿والله سريع الحساب﴾ (النور / ٣٩).

والمراد بيومئذ يوم القيامة. والسؤال المنفي هو النحو المألوف من السؤال، ولا ينافي نفي السؤال في هذه الآية إثباته في قوله: ﴿وقفوهم إنهم مسؤلون﴾ (الصافات / ٢٤)، وقوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ (الحجر / ٩٢)، لأن اليوم ذو مواقف مختلفة يسأل في بعضها، ويختم على الأفواه في بعضها وتكلم الأعضاء، ويعرف بالسيماء في بعضها.

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾ في مقام الجواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل: فإذا لم يسألوا عن ذنبهم فما يصنع بهم؟ فاجيب بأنه يعرف المجرمون بسيماهم. الخ؛ ولذا فصلت الجملة ولم يعطف، والمراد بسيماهم علامتهم البارزة في وجوههم.

وقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾ الكلام متفرع على المعرفة المذكورة، والنواصي جمع ناصية وهي شعر مقدّم الرأس. والأقدام جمع قدم. وقوله: «بالنواصي» نائب فاعل يؤخذ.

والمعنى: ـ لا يسأل أحد عن ذنبه ـ يعرف المجرمون بعلامتهم الظاهرة في وجوههم فيؤخذ بالنواصي والأقدام من المجرمين فيلقون في النار.

قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ـ الى قوله ـ آنٍ﴾ مقول قول مقدر أي يقال يومئذ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون، وقال الطبرسي: ويمكن أنه لما أخبر الله سبحانه أنهم يؤخذون بالنواصي والأقدام قال للنبي ﷺ: هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون من قومك فسيردونها فليهن عليك أمرهم. انتهى.

والحميم الماء الحار، والآني الذي انتهت حرارته والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ شروع في وصف حال السعداء من

الخائفين مقام ربهم. والمقام مصدر ميمي بمعنى القيام مضاف الى فاعله. والمراد قيامه تعالى عليه بعمله وهو إحاطته تعالى وعلمه بما عمله وحفظه له وجزاؤه عليه قال تعالى: ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ (الرعد / ٣٣).

ويمكن أن يكون المقام اسم مكان والاضافة لامية والمراد به مقامه وموقفه تعالى من عبده وهو أنه تعالى ربه الذي يدبر أمره ومن تدبير أمره أنه دعاه بلسان رسله الى الايمان والعمل الصالح وقضى أن يجازيه على ما عمل خيراً أو شراً هذا وهو محيط به وهو معه سميع بما يقول بصير بما يعمل لطيف خبير.

والخوف من الله تعالى ربما كان خوفاً من عقابه تعالى على الكفر به ومعصيته. ولازمه أن يكون عبادة من يعبده خوفاً بهذا المعنى يراد بها التخلص من العقاب لا لوجه الله محضاً وهو عبادة العبيد يعبدون مواليهم خوفاً من السياسة كما أن عبادة من يعبده طمعاً في الثواب غايتها الفوز بما تشتهيه النفس دون وجهه الكريم وهي عبادة التجار كما في الروايات وقد تقدم شطر منها.

والخوف المذكور في الآية ـ ولمن خاف مقام ربه ـ ظاهره غير هذا الخوف فإن هذا خوف من العقاب وهو غير الخوف من قيامه تعالى على عبده بما عمل أو الخوف من مقامه تعالى من عبده فهو تأثر خاص ممن ليس له إلاّ الصغار والحقارة تجاه ساحة العظمة والكبرياء. وظهور أثر المذلة والهوان والاندكاك قبال العزة والجبروت المطلقين.

وعبادته تعالى خوفاً منه بهذا المعنى من الخوف خضوع له تعالى لأنه الله ذو الجلال والإكرام لا لخوف من عقابه ولا طمعاً في ثوابه بل فيه إخلاص العمل لوجهه الكريم. وهذا المعنى من الخوف هو الذي وصف الله به المكرمين من ملائكته وهم معصومون آمنون من عقاب المخالفة وتبعة المعصية قال تعالى: ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ (النحل / ٥٠).

فتبين مما تقدم أن الذين أشار اليهم بقوله: «ولمن خاف» أهل الإخلاص الخاضعون

لجلاله تعالى العابدون له لأنه الله عز اسمه لا خوفاً من عقابه ولا طمعاً في ثوابه. ولا يبعد أن يكونوا هم الذين سموا سابقين في قوله: ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة ـ الى أن قال ـ والسابقون السابقون أُولئك المقربون﴾ (الواقعة / ١١).

وقوله: ﴿جَنَّتَانِ﴾ قيل: إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له والاخرى منزل أزواجه وخدمه. وقيل: بستانان بستان داخل قصره وبستان خارجه، وقيل: منزلان ينتقل من أحدهما الى الآخر ليكمل به التذاذه، وقيل: جنة لعقيدته وجنة لعمله، وقيل: جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصي، وقيل: جنة جسمانية وجنة روحانية وهذه الأقوال ـ كما ترى ـ لا دليل على شيء منها.

وقيل: جنة يثاب بها وجنة يتفضل بها عليه، ويمكن أن يستشعر ذلك من قوله تعالى: ﴿لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد﴾ (ق / ٣٥)، على ما مر في تفسيره.

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ذواتا تثنية ذات، و«أفنان» إما جمع فنّ بمعنى النوع والمعنى: ذواتا أنواع من الثمار ونحوها، وإما جمع فنن بمعنى الغصن الرطب اللين والمعنى: ذواتا أغصان لينة أشجارها.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وقد أُبهمت العينان وفيه دلالة على فخامة أمرهما.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي صنفان قيل: صنف معروف لهم شاهدوه في الدنيا وصنف غير معروف لم يروه في الدنيا. وقيل: غير ذلك، ولا دلالة في الكلام على شيء من ذلك.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ الخ: الفرش جمع فراش، والبطائن جمع بطانة وهي داخل الشيء وجوفه مقابل الظهائر جمع ظهارة، والاستبرق الحرير الغليظ قال في المجمع: ذكر البطانة ولم يذكر الظهارة لأن البطانة تدل على

أن لها ظهارة والبطانة دون الظهارة فدلَّ على أن الظهارة فوق الإستبرق، انتهى.

وقوله: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنا الثمر المجتنى و«دان» اسم فاعل من الدنوّ بمعنى القرب أي ما يجتنى من ثمار الجنتين قريب.

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ الى آخر الآية: ضمير «فيهن» للفرش وجوّز أن يرجع الى الجنان فإنها جنان لكل واحد من أولياء الله منها جنتان، والطرف جفن العين، والمراد بقصور الطرف اكتفاؤهن بأزواجهن فلا يردن غيرهم.

وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ الطمث الافتضاض والنكاح بالتدمية، والمعنى: لم يمسسهن بالنكاح إنس ولا جان قبل أزواجهن.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي في صفاء اللون والبهاء والتلألؤ.

قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ﴾ استفهام إنكاري في مقام التعليل لما ذكر من إحسانه تعالى عليهم بالجنتين وما فيهما من أنواع النعم والآلاء فيفيد أنه تعالى يحسن اليهم هذا الإحسان جزاء لإحسانهم بالخوف من مقام ربهم.

وتفيد الآية أن ما أُوتوه من الجنة ونعيمها جزاء لأعمالهم وأما ما يستفاد من بعض الآيات أنهم يعطون فضلاً وراء جزاء أعمالهم فلا تعرض في هذه الآيات لذلك إلّا أن يقال: الإحسان إنما يتم إذا كان يربو على ما أحسن به المحسن اليه فإطلاق الإحسان في قوله: «إلّا الإحسان» يفيد الزيادة.

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ضمير التثنية للجنتين الموصوفتين في الآيات السابقة ومعنى «من دونهما» أي أنزل درجة وأحط فضلاً وشرفاً منهما وإن كانتا شبيهتين بالجنتين السابقتين في نعمهما وآلائهما، وقد تقدم أن الجنتين السابقتين لأهل الإخلاص الخائفين مقام ربهم فهاتان الجنتان لمن دونهم من المؤمنين العابدين لله سبحانه خوفاً من النار أو طمعاً في الجنة وهم أصحاب اليمين.

قوله تعالى: ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ الادهيام من الدهمة اشتداد الخضرة بحيث تضرب الى السواد وهو ابتهاج الشجرة.

قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي فوّارتان تخرجان من منبعهما بالدفع.

قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ المراد بالفاكهة والرمان شجرتهما بقرينة النخل.

قوله تعالى: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ ضمير «فيهن» للجنان باعتبار أنها جنتان من هاتين الجنتين، وقيل: مرجع الضمير الجنات الأربع المذكورة في الآيات، وقيل: الضمير للفاكهة والنخل والرمان.

وأكثر ما يستعمل الخير في المعاني كما أن أكثر استعمال الحسن في الصور، وعلى هذا فعنى خيرات حسان أنهن حسان في أخلاقهن حسان في وجوههن.

قوله تعالى: ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ الخيام جمع خيمة وهي الفسطاط، وكونهن مقصورات في الخيام أنهن مصونات غير مبتذلات لا نصيب لغير أزواجهن فيهن.

قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ تقدم معناه.

قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ في الصحاح: الرفرف ثياب خضر تتخذ منها المجالس. انتهى. وقيل: هي الوسائد، وقيل: غير ذلك، والخضر جمع أخضر صفة لرفرف، والعبقري قيل: الزرابي، وقيل: الطنافس، وقيل: الثياب الموشاة، وقيل: الديباج.

قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ثناء جميل له تعالى بما امتلأت النشأتان الدنيا والآخرة بنعمه وآلائه وبركاته النازلة من عنده برحمته الواسعة، وبذلك يظهر أن المراد باسمه المتبارك هو الرحمان المفتتحة به السورة، والتبارك كثرة الخيرات والبركات الصادرة.

فقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ تبارك الله المسمى بالرحمان بما أفاض هذه الآلاء.

وقوله: ﴿ ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ إشارة الى تسمّيه بأسمائه الحسنى واتصافه بما يدل عليه من المعاني الوصفية ونعوت الجلال والجمال، ولصفات الفاعل ظهور في أفعاله وأثر فيها يرتبط به الفعل بفاعله فهو تعالى خلق الخلق ونظم النظام لأنه بديع خالق مبدىء فأتقن الفعل لأنه عليم حكيم وجازى أهل الطاعة بالخير لأنه ودود شكور غفور رحيم وأهل الفسق بالشر لأنه منتقم شديد العقاب.

فتوصيف الرب ـ الذي أُثني على سعة رحمته ـ بذي الجلال والإكرام للإشارة الى أن لأسمائه الحسنى وصفاته العليا دخلاً في نزول البركات والخيرات من عنده، وأن نعمه وآلاءه عليها طابع أسمائه الحسنى وصفاته العليا تبارك وتعالى[1].

---

١. الرحمن ٣١ـ٧٨: بحث روائي في: من خاف مقام ربه؛ الحور العين؛ جزاء الاحسان؛ الخيرات الحسان.

سورة الواقعة مكية وهي ست وتسعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ إِذٰا وَقَعَتِ ٱلْوٰاقِعَةُ .

٢ ❁ لَيْسَ لِوَقْعَتِهٰا كٰاذِبَةٌ .

٣ ❁ خٰافِضَةٌ رٰافِعَةٌ .

٤ ❁ إِذٰا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجّاً .

٥ ❁ وَبُسَّتِ ٱلْجِبٰالُ بَسّاً .

٦ ❁ فَكٰانَتْ هَبٰاءً مُنْبَثّاً .

٧ ❁ وَكُنْتُمْ أَزْوٰاجاً ثَلاٰثَةً .

٨ ❁ فَأَصْحٰابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مٰا أَصْحٰابُ ٱلْمَيْمَنَةِ .

٩ ❁ وَأَصْحٰابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مٰا أَصْحٰابُ ٱلْمَشْئَمَةِ .

١٠ ❁ وَٱلسّٰابِقُونَ السّٰابِقُونَ .

بيان:

تصف السورة القيامة الكبرى التي فيها بعث الناس وحسابهم وجزاؤهم فتذكر أولاً شيئاً من أهوالها مما يقرب من الإنسان والأرض التي يسكنها فتذكر تقليبها للأوضاع والأحوال بالخفض والرفع وارتجاج الأرض وانبثاث الجبال وتقسم الناس الى ثلاثة أزواج إجمالاً ثم تذكر ما ينتهي اليه حال كل من الأزواج السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

ثم تحتج على أصحاب الشمال المنكرين لربوبيته وللبعث المكذبين بالقرآن الداعي الى التوحيد والإيمان بالبعث. ثم تختم الكلام بذكر الاحتضار بنزول الموت وانقسام الناس الى ثلاثة أزواج.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ وقوع الحادثة هو حدوثها. والواقعة صفة توصف بها كل حادثة، والمراد بها ههنا واقعة القيامة وقد أُطلقت إطلاق الأعلام كأنها لا تحتاج الى موصوف مقدر ولذا قيل: إنها من أسماء القيامة في القرآن كالحاقَّة والقارعة والغاشية.

والجملة «إذا وقعت الواقعة» مضمنة معنى الشرط ولم يذكر جزاء الشرط إعظاماً له وتفخيماً لأمره وهو على أي حال أمر مفهوم مما ستصفه السورة من حال الناس يوم القيامة، والتقدير نحو من قولنا: فاز المؤمنون وخسر الكافرون.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ قال في المجمع: الكاذبة مصدر كالعافية والعاقبة. انتهى. وعليه فالمعنى: ليس في وقعتها وتحققها كذب، وقيل: كاذبة صفة محذوفة الموصوف والتقدير: ليس لوقعتها قضية كاذبة.

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ خبران مبتدأهما الضمير الراجع الى الواقعة، والخفض خلاف الرفع وكونها خافضة رافعة كناية عن تقليبها نظام الدنيا المشهود فتظهر السرائر وهي

محجوبة اليوم وتحجب وتستر آثار الأسباب وروابطها وهي ظاهرة اليوم وتذلّ الأعزّة من أهل الكفر والفسق وتعزّ المتقين.

قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ الرجّ تحريك الشيء تحريكاً شديداً إشارة الى زلزلة الساعة التي يعظمها الله سبحانه في قوله: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ (الحج / ١)، وقد عظمها في هذه الآية حيث عبّر عنها برجّ الأرض ثم أكد شدتها بتنكير قوله: «رجاً» أي رجاً لا يوصف شدته. والجملة بدل أو بيان لقوله: «إذا وقعت الواقعة».

قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ عطف على «رجّت» والبسّ الفتّ وهو عود الجسم بدق ونحوه أجزاء صغاراً متلاشية كالدقيق، وقيل: البس هو التسيير فهو في معنى قوله: ﴿وسُيِّرت الجبال﴾ (النبأ / ٢٠).

وقوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ الهباء قيل: هو الغبار وقيل: هو الذرّة من الغبار الظاهر في شعاع الشمس الداخل من كوّة، والانبثاث التفرق، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ الزوج بمعنى الصنف والخطاب لعامة البشر.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ متفرع على ما قبلها تفرع البيان على المبيّن، فهذه الآية والآيتان بعدها بيان للأزواج الثلاثة.

والميمنة من اليمن مقابل الشؤم، فأصحاب الميمنة أصحاب السعادة واليمن مقابل أصحاب المشأمة أصحاب الشقاء والشؤم، وما قيل: إن المراد بالميمنة اليمين، أي ناحية اليمين لأنهم يؤتون كتابهم بيمينهم وغيرهم يؤتونه بشمالهم يردّه مقابلة أصحاب الميمنة بأصحاب المشأمة، ولو كان كما قيل لقيل أصحاب الشمال وهو ظاهر.

وما في قوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ استفهامية ومبتدأ خبره «أصحاب الميمنة»، والمجموع خبر لقوله: «وأصحاب الميمنة» وفي الاستفهام إعظام لأمرهم وتفخيم لشأنهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ المشأمة مصدر

كالشؤم مقابل اليمين، والميمنة والمشأمة السعادة والشقاء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الذي يصلح أن يفسر به السابقون الاول قوله تعالى: ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ (فاطر / ٣٢)، وقوله: ﴿ولكل وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات﴾ (البقرة / ١٤٨). وقوله: ﴿اولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ (المؤمنون / ٦١).

فالمراد بالسابقين ـ الأول ـ في الآية السابقون بالخيرات من الأعمال، وإذا سبقوا بالخيرات سبقوا الى المغفرة والرحمة التي بإزائها كما قال تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة﴾ (الحديد / ٢١)، فالسابقون بالخيرات هم السابقون بالرحمة وهو قوله: «والسابقون السابقون».

وقيل: المراد بالسابقون الثاني هو الأول على حد قوله:

أنا أبو النجم وشعري شعري

وقوله: ﴿وَٱلسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ مبتدأ وخبر. وقيل: الأول مبتدأ والثاني تأكيد، والخبر قوله: «اولئك المقرّبون».

ولهم في تفسير السابقين أقوال أُخر فقيل: هم المسارعون الى كل ما دعا الله اليه، وقيل: هم الذين سبقوا الى الايمان والطاعة من غير توان، وقيل: هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم مقدموا أهل الأديان، وقيل: هم مؤمن آل فرعون وحبيب النجار المذكور في سورة يس وعلي عليه السلام السابق الى الايمان بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو أفضلهم[١].

١١ ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ.

---

١. الواقعة ١ ـ ١٠: بحث روائي في: القيامة، السابقون إلى الجنّة.

١٢ ● فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

١٣ ● ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ.

١٤ ● وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ.

١٥ ● عَلىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ.

١٦ ● مُتَّكِئِينَ عَلَيْهٰا مُتَقٰابِلِينَ.

١٧ ● يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدٰانٌ مُخَلَّدُونَ.

١٨ ● بِأَكْوٰابٍ وَأَبٰارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ.

١٩ ● لاٰ يُصَدَّعُونَ عَنْهٰا وَلاٰ يُنْزِفُونَ.

٢٠ ● وَفٰاكِهَةٍ مِمّٰا يَتَخَيَّرُونَ.

٢١ ● وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمّٰا يَشْتَهُونَ.

٢٢ ● وَحُورٌ عِينٌ.

٢٣ ● كَأَمْثٰالِ اللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ.

٢٤ ● جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ.

٢٥ ● لاٰ يَسْمَعُونَ فِيهٰا لَغْواً وَلاٰ تَأْثِيماً.

٢٦ ● إِلاّٰ قِيلاً سَلاٰماً سَلاٰماً.

٢٧ ● وَأَصْحٰابُ ٱلْيَمِينِ مٰا أَصْحٰابُ ٱلْيَمِينِ.

٢٨ ● فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ.

٢٩ ● وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ.

٣٠ ● وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ.

٣١ ● وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ.

٣٢ ● وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ.

٣٣ ● لاٰ مَقْطُوعَةٍ وَلاٰ مَمْنُوعَةٍ.

٣٤ ● وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ.

٣٥ ● إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً.

٣٦ ● فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً.

٣٧ ● عُرُباً أَتْرَاباً.

٣٨ ● لِأَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ.

٣٩ ● ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ.

٤٠ ● وَثُلَّةٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ.

٤١ ● وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ.

٤٢ ● فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ.

٤٣ ● وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ.

٤٤ ● لاٰ بَارِدٍ وَلاٰ كَرِيمٍ.

٤٥ ● إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُتْرَفِينَ.

٤٦ ● وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنْثِ ٱلْعَظِيمِ.

٤٧ ● وَكَانُوا يَقُولُونَ ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ.

٤٨ ● أَوَ آبَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ.

٤٩ ● قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ.

٥٠ ● لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ.

٥١ ● ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ.

٥٢ ● لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ.

٥٣ ● فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ.

٥٤ ● فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ.

٥٥ ● فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ.

٥٦ ● هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ الإشارة باولئك الى السابقين، و«اولئك المقربون» مبتدأ وخبر، والجملة استئنافية، وقيل: خبر لقوله: «والسابقون»، وقيل: مبتدأ خبره في جنات النعيم، وأول الوجوه الثلاثة أوجه بالنظر الى سياق تقسيم الناس الى ثلاثة أزواج أولاً ثم تفصيل ما ينتهي اليه أمر كل منهم.

والقرب والبعد معنيان متضائفان تتصف بهما الأجسام بحسب النسبة المكانية ثم توسع فيهما فاعتبروا في غير المكان من الزمان ونحوه، يقال: الغد قريب من اليوم والأربعة أقرب الى الثلاثة من الخمسة، والخضرة أقرب الى السواد من البياض ثم توسع فيهما فاعتبرا في غير الأجسام والجسمانيات من الحقائق.

وقد اعتبر القرب وصفاً له تعالى بما له من الإحاطة بكل شيء، قال تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ (البقرة / ١٨٦)، وقال: ﴿ونحن أقرب اليه منكم﴾ (الواقعة / ٨٥)، وقال: ﴿ونحن أقرب اليه من حبل الوريد﴾ (ق / ١٦). وهذا المعنى أعني كونه تعالى

أقرب الى الشيء من نفس أعجب ما يتصور من معنى القرب، وقد أشرنا الى تصويره في تفسير الآية.

واعتبر القرب أيضاً وصفاً للعباد في مرحلة العبودية ولما كان أمراً اكتسابياً يستعمل فيه لفظ التقرب فالعبد يتقرب بصالح العمل الى الله سبحانه وهو وقوعه في معرض شمول الرحمة الإلهية بزوال أسباب الشقاء والحرمان، والله سبحانه يقرب العبد بمعنى إنزاله منزلة يختص بنيل ما لا يناله من دونه من إكرامه تعالى ومغفرته ورحمته، قال تعالى: ﴿كتاب مرقوم يشهده المقربون﴾ (المطففين / ٢١)، وقال: ﴿ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون﴾ (المطففين / ٢٨).

فالمقربون هم النمط الأعلى من أهل السعادة كما يشير اليه قوله: «والسابقون السابقون اولئك المقربون» ولا يتم ذلك إلّا بكمال العبودية كما قال: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾ (النساء / ١٧٢)، ولا تكمل العبودية إلّا بأن يكون العبد تبعاً محضاً في إرادته وعمله لمولاه لا يريد ولا يعمل إلّا ما يريده وهذا هو الدخول تحت ولاية الله فهؤلاء هم أولياء الله.

وقوله: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي كل واحد منهم في جنة النعيم فالكل في جنات النعيم، ويمكن أن يراد به أن كلاً منهم في جنات النعيم لكن يبعّده قوله في آخر السورة: «فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم».

وقد تقدم غير مرة أن النعيم هي الولاية وأن جنة النعيم هي جنة الولاية وهو المناسب لما تقدم آنفاً أن المقربين هم أهل ولاية الله.

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ الثلة ـ على ما قيل ـ الجماعة الكثيرة، والمراد بالأولين الامم الماضون للأنبياء السابقين، وبالآخرين هذه الامة على ما هو المعهود من كلامه تعالى في كل موضع ذكر فيه الأولين والآخرين معاً ومنها ما

سيأتي من قوله: «ءإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون قل إن الأولين والآخرين المجموعون الى ميقات يوم معلوم» فمعنى الآيتين: هم أي المقربون جماعة كثيرة من الامم الماضين وقيل من هذه الامة.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ الوضن النسج وقيل: نسج الدرع وإطلاقه على نسج السرر استعارة يراد بها إحكام نسجها.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ حال من الضمير العائد الى المقربين والضمير للسرر، وقوله: «متقابلين» حال آخر منه أو من ضمير «متكئين» وتقابلهم كناية عن بلوغ انسهم وحسن عشرتهم وصفاء باطنهم فلا ينظرون في قفاء صاحبهم ولا يعيبونه ولا يغتابونه.

والمعنى: هم أي المقربون مستقرون على سرر منسوجة حال كونهم متكئين عليها حال كونهم متقابلين.

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ الولدان جمع ولد وهو الغلام، وطوافهم عليهم كناية عن خدمتهم لهم، والمخلدون من الخلود بمعنى الدوام أي باقون أبداً على هيئتهم من حداثة السن، وقيل من الخلد بفتحتين وهو القرط، والمراد أنهم مقرطون بالخلد.

قوله تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ الأكواب جمع كوب وهو الإناء الذي لا عروة له ولا خرطوم، والأباريق جمع إبريق وهو الإناء الذي له خرطوم، وقيل: عروة وخرطوم معاً، والكأس معروف، قيل: أفرد الكأس لأنها لا تسمى كأساً إلّا إذا كانت ممتلئة، والمراد بالمعين الخمر المعين وهو الظاهر للبصر الجاري.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي لا يأخذهم صداع لأجل خمار يحصل من الخمر كما في خمر الدنيا ولا يزول عقلهم بالسكر الحاصل منها.

قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ الفاكهة والطير

معطوفان على قوله: «بأكواب»، والمعنى: يطوف عليهم الولدان بفاكهة مما يختارون وبلحم طير مما يشتهون.

قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ مبتدأ محذوف الخبر على ما يفيده السياق والتقدير ولهم حور عين أو وفيها حور عين والحور العين نساء الجنة وقد تقدم معنى الحور العين في تفسير سورة الدخان.

وقوله: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي اللؤلؤ المصون المخزون في الصدف لم تمسّه الأيدي فهو منته في صفائه.

قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قيد لجميع ما تقدم وهو مفعول له، والمعنى: فعلنا بهم ما فعلنا ليكون جزاء لهم قبال ما كانوا يستمرون عليه من العمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً﴾ اللغو من القول ما لا فائدة فيه ولا أثر يترتب عليه، والتأثيم النسبة الى الاثم أي لا يخاطب أحدهم صاحبه بما لا فائدة فيه ولا ينسبه الى الاثم إذ لا إثم هناك، وفسّر بعضهم التأثيم بالكذب.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً﴾ استثناء منقطع من اللغو والتأثيم، والقيل مصدر كالقول، و«سلاماً» بيان لقوله: «قيلاً» وتكراره يفيد تكرر الوقوع، والمعنى: إلّا قولاً هو السلام بعد السلام.

قيل: ويمكن أن يكون «سلاماً» مصدراً بمعنى الوصف وصفة لقليلاً، والمعنى: إلّا قولاً هو سالم.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ شروع في تفصيل ما انتهى اليه حال أصحاب الميمنة وفي تبديله من أصحاب اليمين يعلم أن أصحاب اليمين وأصحاب الميمنة واحد وهم الذين يؤتون كتابهم بيمينهم. والجملة استفهامية مسوقة لتفخيم أمرهم والتعجيب من حالهم وهي خبر لقوله: «وأصحاب اليمين».

قوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ السدر شجرة النبق، والمخضود ما قطع شوكه فلا شوك له.

قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ الطلح شجر الموز، وقيل: ليس بالموز بل شجر له ظل بارد رطب، وقيل: شجرة ام غيلان لها أنوار طيبة الرائحة، ونضد الأشياء جعل بعضها على بعض، والمعنى: وفي شجر موز منضود الثمر بعضه على بعض من أسفله الى أعلاه.

قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ قيل: الممدود من الظل هو الدائم الذي لا تنسخه شمس فهو باق لا يزول، والماء المسكوب هو المصبوب الجاري من غير انقطاع.

قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ أي لا مقطوعة في بعض الأزمان كانقطاع الفواكه في شتاء ونحوه في الدنيا، ولا ممنوعة التناول لمانع من قبل أنفسهم كسأمة أو شبع أو من خارج كبعد المكان أو شوكة تمنع القطف أو غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ الفرش جمع فراش وهو البساط، والمرفوعة العالية، وقيل: المراد بالفرش المرفوعة النساء المرتفعات قدراً في عقولهن وجمالهن وكمالهن والمرأة تسمى فراشاً، ويناسب هذا المعنى قوله بعد: «إنا أنشأناهن إنشاء» الخ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً﴾ أي إنا أوجدناهن وأحدثناهن وربّيناهن إحداثاً وتربية خاصة، وفيه تلويح الى أنهن لا يختلف حالهن بالشباب والشيب وصباحة المنظر وخلافها، وقوله: «فجعلناهن أبكاراً» أي خلقناهن عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً.

وقوله: ﴿عُرُباً أَتْرَاباً﴾ العرب جمع عروب وهي المتحننة الى زوجها أو الغنجة أو العاشقة لزوجها، والأتراب جمع ترب بالكسر فالسكون بمعنى المثل أي إنهن أمثال أو أمثال في السن لأزواجهن.

قوله تعالى: ﴿لِأَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ يتضح معناه بما تقدم، ويستفاد من الآيات أن أصحاب اليمين في الآخرين جمع كثير كالأولين لكن السابقين المقربين في الآخرين أقل جمعاً منه في الأولين.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ مبتدأ وخبر، والاستفهام للتعجيب والتهويل، وقد بدّل أصحاب المشأمة من أصحاب الشمال إشارة الى أنهم الذين يؤتون كتابهم بشمالهم كما مرَّ نظيره في أصحاب اليمين.

قوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ﴾ السموم - على ما في الكشاف - حر نار ينفذ في المسام، والحميم الماء الشديد الحرارة، والتنوين فيهما لتعظيم الأمر. واليحموم الدخان الأسود، وقوله: «لا بارد ولا كريم» الظاهر أنهما صفتان للظل لا ليحموم، وذلك أن الظل هو الذي يتوقع منه أن يتبرّد بالاستظلال به ويستراح فيه دون الدخان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ تعليل لاستقرار أصحاب الشمال في العذاب، والإشارة بذلك الى ما ذكر من عذابهم يوم القيامة، وإتراف النعمة الإنسان إبطارها وإطغاؤها له، وذلك إشغالها نفسه بحيث يغفل عما وراءها فكون الإنسان مترفاً تعلقه بما عنده من نعم الدنيا وما يطلبه منها سواء كانت كثيرة أو قليلة.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنْثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ في المجمع: الحنث نقض العهد المؤكد بالحلف، والإصرار أن يقيم عليه فلا يقلع عنه. انتهى. ولعل المستفاد من السياق أن إصرارهم على الحنث العظيم هو استكبارهم عن عبودية ربهم التي عاهدوا الله عليها بحسب فطرتهم وأُخذ منهم الميثاق عليها في عالم الذرّ فيطيعون غير ربهم وهو الشرك المطلق.

وقيل: الحنث الذنب العظيم فتوصيفه بالعظيم مبالغة والحنث العظيم الشرك بالله، وقيل:

الحنث العظيم جنس المعاصي الكبيرة، وقيل: هو القسم على إنكار البعث المشار اليه بقوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ (النحل / ٣٨)، ولفظ الآية مطلق.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ آبَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ قول منهم مبني على الاستبعاد ولذا أكدوا استبعاد بعث أنفسهم ببعث آبائهم لأن الاستبعاد في موردهم آكد، والتقدير أو آباؤنا الأولون مبعوثون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أمر منه تعالى لنبيه ﷺ أن يجيب عن استبعادهم البعث بتقريره ثم إخبارهم عما يعيشون به يوم البعث من طعام وشراب وهما الزقوم والحميم.

ومحصل القول أن الأولين والآخرين ـ من غير فرق بينهم لا كما فرّقوا فجعلوا بعث أنفسهم مستبعداً وبعث آبائهم الأولين أشد استبعاداً وآكد ـ لمجموعون محشورين الى ميقات يوم معلوم.

والميقات ما وقّت به الشيء وهو وقته المعين، والمراد بيوم معلوم يوم القيامة المعلوم عند الله فإضافة الميقات الى يوم معلوم بيانية.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّالُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ من تمام كلام النبي ﷺ يخبرهم عما ينتهي اليه حالهم يوم القيامة ويعيشون به من طعام وشراب.

وفي خطابهم بالضالين المكذبين إشارة الى ملاك شقائهم وخسرانهم يوم البعث وهو ضلالهم عن طريق الحق واستقرار ذلك في نفوسهم باستمرارهم عن تكذيبهم وإصرارهم على الحنث، ولو كانوا ضالين فحسب من غير تكذيب لكان من المرجو أن ينجوا ولا يهلكوا.

و «من» في قوله: «من شجر للابتداء، وفي قوله: «من زقوم» بيانية ويحتمل أن يكون «من زقوم» بدلاً من «من شجر»، وضمير «منها» للشجر أو الثمر وكل منهما يؤنث ويذكر ولذا جيء ههنا بضمير التأنيث وفي الآية التالية في قوله: «فشاربون عليه» بضمير التذكير، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ كلمة «على» للاستعلاء وتفيد في المورد كون الشرب عقيب الأكل من غير ريث، والهيم جمع هيماء الإبل التي أصابها الهيام بضم الهاء وهو داء شبه الاستسقاء يصيب الإبل فتشرب الماء حتى تموت أو تسقم سقماً شديداً، وقيل: الهيم الرمال التي لا تروى بالماء.

والمعنى: فشاربون عقيب ما أكلتم من الزقوم من الماء الشديد الحرارة فشاربون كشرب الإبل الهيم أو كشرب الرمال الهيم وهذا آخر ما أُمر النبي ﷺ أن يقوله لهم.

قوله تعالى: ﴿هٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء، والنزل ما يقدَّم للضيف النازل من طعام وشراب إكراماً له، والمعنى: هذا الذي ذكر من طعامهم وشرابهم هو نزل الضالين المكذبين ففي تسمية ما أُعدَّ لهم بالنزل نوع تهكّم. والآية من كلامه تعالى خطاباً للنبي ﷺ، ولو كان من كلام النبي ﷺ خطاباً لهم لقيل: هذا نزلكم[١].

٥٧ ◉ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ.

٥٨ ◉ أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ.

٥٩ ◉ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ.

٦٠ ◉ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ.

---

١. الواقعة ١١ ـ ٥٦: بحث روائي في أصحاب الجنّة: طعام أهل الجنّة: أصحاب اليمين: سدر مخضود: الجنة وأهلها.

٦١ ● عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ.

٦٢ ● وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ.

٦٣ ● أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ.

٦٤ ● ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ.

٦٥ ● لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ.

٦٦ ● إِنَّا لَمُغْرَمُونَ.

٦٧ ● بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ.

٦٨ ● أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ.

٦٩ ● ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ.

٧٠ ● لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ.

٧١ ● أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ.

٧٢ ● ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ.

٧٣ ● نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ.

٧٤ ● فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ.

٧٥ ● فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ.

٧٦ ● وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ.

٧٧ ● إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ.

٧٨ ● فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ.

٧٩ ● لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ.

٨٠ ● تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ.

٨١ ● أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّدْهِنُونَ.

٨٢ ● وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ.

٨٣ ● فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ.

٨٤ ● وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ.

٨٥ ● وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَٰكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ.

٨٦ ● فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ.

٨٧ ● تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

٨٨ ● فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ.

٨٩ ● فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ.

٩٠ ● وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ.

٩١ ● فَسَلاَمٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ.

٩٢ ● وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ.

٩٣ ● فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ.

٩٤ ● وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ.

٩٥ ● إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ.

٩٦ ● فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ السياق سياق الكلام في البعث والجزاء وقد أنكروه وكذبوا به، فقوله: «فلولا تصدقون» تحضيض على تصديق حديث المعاد وترك التكذيب به، وقد علله بقوله: «نحن خلقناكم» كما يستفاد من التفريع الذي في قوله: «فلولا تصدقون».

وإيجاب خلقه تعالى لهم وجوب تصديقه فيما يخبر به من المعاد من وجهين: أحدهما: أنه تعالى خلقهم أول مرة فهو قادر على إعادة خلقهم ثانياً كما قال: ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ (يس / ٧٩).

وثانيهما: أنه تعالى لما كان هو خالقهم وهو المدبر لأمرهم المقدر لهم خصوصيات خلقهم وأمرهم فهو أعلم بما يفعل بهم وسيجري عليهم فإذا أنبأهم بأنه سيبعثهم بعد موتهم ويجزيهم بما عملوا إن خيراً وإن شراً لم يكن بدّ من تصديقه فلا عذر لمن كذب بما أخبر به كتابه من البعث والجزاء، قال تعالى: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ (الملك / ١٤)، وقال: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ (الأنبياء / ١٠٤)، وقال: ﴿وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً﴾ (النساء / ١٢٢).

فمحصل الآية: نحن خلقناكم ونعلم ما فعلنا وما سنفعل بكم فنخبركم أنّا سنبعثكم ونجزيكم بما عملتم فهلّا تصدقون بما نخبركم به فيما أنزلناه من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ الإمناء قذف المني وصبّه والمراد قذفه وصبّه في الأرحام، والمعنى: أفرأيتم المني الذي تصبونه في أرحام النساء.

قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ أي ءأنتم تخلقونه بشراً مثلكم أم نحن خالقوه بشراً.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ تدبير أمر الخلق بجميع شؤنه وخصوصياته من لوازم الخلق بمعنى إفاضة الوجود فوجود الإنسان المحدود بأول كينونته الى آخر لحظة من حياته الدنيا بجميع خصوصياته التي تتحول عليه بتقدير من خالقه عز وجل. فموته أيضاً كحياته بتقدير منه. وليس يعتريه الموت لنقص من قدرة خالقه أن يخلقه بحيث لا يعتريه الموت أو من جهة أسباب وعوامل تؤثر فيه بالموت فتبطل الحياة التي أفاضها عليه خالقه تعالى فإن لازم ذلك أن تكون قدرته تعالى محدودة ناقصة وأن يعجزه بعض الأسباب وتغلب إرادته إرادته وهو محال كيف؟ والقدرة مطلقة والإرادة غير مغلوبة.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ «على» متعلقة بقوله: «قدّرنا» وجملة الجار والمجرور في موضع الحال أي نحن قدرنا بينكم الموت حال كونه على أساس تبديل الأمثال والإنشاء فيما لا تعلمون.

والأمثال جمع مثل بالكسر فالسكون ومثل الشيء ما يتحد معه في نوعه كالفرد من الإنسان بالنسبة الى فرد آخر، والمراد بقوله: «أن نبدل أمثالكم» أن نبدل أمثالكم من البشر منكم أو نبدل أمثالكم مكانكم، والمعنى على أي حال تبديل جماعة من أُخرى وجعل الأخلاف مكان الأسلاف.

وقوله: ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ «ما» موصولة والمراد به الخلق والجملة معطوفة على «نبدل» والتقدير وعلى أن ننشئكم ونوجدكم في خلق آخر لا تعلمونه وهو الوجود الاخروي غير الوجود الدنيوي الفاني.

ومحصل معنى الآيتين أن الموت بينكم إنما هو بتقدير منا لا لنقص في قدرتنا بأن لا يتيسر لنا إدامة حياتكم ولا لغلبة الأسباب المهلكة المبيدة وقهرها وتعجيزها لنا في حفظ حياتكم وإنما قدرناه بينكم على أساس تبديل الأمثال وإذهاب قوم والإتيان بآخرين وإنشاء خلق

لكم يناسب الحياة الآخرة وراء الخلق الدنيوي الداثر فالموت انتقال من دار الى دار وتبدّل خلق الى خلق آخر وليس بانعدام وفناء.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ المراد بالنشأة الاولى نشأة الدنيا، والعلم بها بخصوصياتها يستلزم الإذعان بنشأة اخرى خالدة فيها الجزاء، فإن من المعلوم من النظام الكوني أن لا لغو ولا باطل في الوجود فلهذا النشأة الفانية غاية باقية، وأيضاً من ضروريات هذا النظام هداية كل شيء الى سعادة نوعه وهداية الإنسان تحتاج الى بعث الرسل وتشريع الشرائع وتوجيه الأمر والنهي، والجزاء على خير الأعمال وشرّها وليس في الدنيا فهو في دار اخرى وهي النشأة الآخرة[1].

على أنهم شاهدوا النشأة الاولى وعرفوها وعلموا أن الذي أوجدها عن كتم العدم هو الله سبحانه وإذ قدر عليها أولاً فهو على إيجاد مثلها ثانياً قادر، قال تعالى: ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ (يس / ٧٩)، وهذا برهان على الإمكان يرتفع به استبعادهم للبعث.

وبالجملة يحصل لهم بالعلم بالنشأة الاولى علم بمبادىء البرهان على إمكان البعث فيرتفع به استبعاد البحث فلا استبعاد مع الإمكان.

وهذا ـ كما ترى ـ وبرهان على إمكان حشر الأجساد، محصله أن البدن المحشور مثل البدن الدنيوي وإذ جاز صنع البدن الدنيوي وإحياؤه فليجز صنع البدن الاخروي وإحياؤه لأنه مثله وحكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد.

قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ـ الى قوله ـ مَحْرُومُونَ ﴾ بعد ما ذكّرهم بكيفية خلق أنفسهم وتقدير الموت بينهم تمهيداً للبعث والجزاء وكل ذلك من لوازم ربوبيّته عدّ لهم اموراً ثلاثة من أهم ما يعيشون به في الدنيا وهي الزرع الذي يقتاتون به والماء الذي يشربونه

---

١. الآية ٢٧ و ٢٨ من سورة ص.

والنار التي يصطلون بها ويتوسلون بها الى جمل من مآربهم، وتثبت بذلك ربوبيته لهم فليست الربوبية إلّا التدبير عن ملك.

فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ الحرث العمل في الأرض وإلقاء البذر عليها «ءأنتم تزرعونه» أي تنبتونه وتنمونه حتى يبلغ الغاية، وضمير «تزرعونه» للبذر أو الحرث المعلوم من المقام «أم نحن الزارعون» المنبتون المنمون حتى يكمل زرعاً «لو نشاء لجعلناه حطاماً» أي هشياً متكسراً متفتتاً «فظلتم» أي فظللتم وصرتم «تفكّهون» أي تتعجبون مما أُصيب به زرعكم وتتحدثون بما جرى قائلين «إنا لمغرمون» موقعون في الغرامة والخسارة ذهب مالنا وضاع وقتنا وخاب سعينا «بل نحن محرومون» ممنوعون من الرزق والخير.

ولا منافاة بين نفي الزرع عنهم ونسبته اليه تعالى وبين توسّط عوامل وأسباب طبيعية في نبات الزرع ونموّه فإن الكلام عائد في تأثير هذه الأسباب وصنعها، وليس نحو تأثيرها باقتضاء من ذاتها منقطعة عنه تعالى بل بجعله ووضعه وموهبته، وكذا الكلام في أسباب هذه الأسباب، وينتهي الأمر الى الله سبحانه وأن الى ربك المنتهى.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ - الى قوله - فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ المزن السحاب، وقوله: «فلولا تشكرون» تحضيض على الشكر، وشكره تعالى جميل ذكره تعالى على نعمه وهو إظهار عبوديته قولاً وعملاً. والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ - الى قوله - وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾ قال في المجمع: الإيراء إظهار النار بالقدح، يقال: أورى يوري، قال: ويقال: قدح فأورى إذا أظهر فإذا لم يور يقال: قدح فأكبى، وقال: والمقوي النازل بالقواء من الأرض ليس بها أحد، وأقوت الدار خلت من أهلها. انتهى. والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ خطاب للنبي ﷺ. لما ذكر سبحانه شواهد ربوبيته لهم وأنه الذي يخلقهم ويدبر أمرهم ومن تدبيره أنه سيبعثهم ويجزيهم بأعمالهم

وهم مكذبون بذلك أعرض عن خطابهم والتفت الى خطاب النبي ﷺ إشعاراً بأنهم لا يفقهون القول فأمر النبي ﷺ أن ينزهه تعالى عن إشراكهم به وإنكارهم البعث والجزاء.

فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ﴾ الخ: الفاء لتفريع التسبيح على ما تقدم من البيان، والباء للاستعانة أو الملابسة، والمعنى: فإذا كان كذلك فسبح مستعيناً بذكر اسم ربك، أو المراد بالاسم الذكر لأن إطلاق اسم الشيء ذكر له كما قيل أو الباء للتعدية لأن تنزيه اسم الشيء تنزيه له، والمعنى: نزّه اسم ربك من أن تذكر له شريكاً أو تنفي عنه البعث والجزاء، والعظيم صفة الرب أو الاسم.

قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ «لا اقسم» قسم وقيل: لا زائدة واقسم هو القسم، وقيل: لا نافية واقسم هو القسم.

و«مواقع» جمع موقع وهو المحل، والمعنى: اقسم بمحالّ النجوم من السماء، وقيل: مواقع جمع موقع مصدر ميمي بمعنى السقوط يشير به الى سقوط الكواكب يوم القيامة أو وقوع الشهب على الشياطين، أو مساقط الكواكب في مغاربها، وأول الوجوه هو السابق الى الذهن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ تعظيم لهذا القسم وتأكيد على تأكيد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ - الى قوله - رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ لما كان إنكارهم حديث وحدانيته تعالى في ربوبيته وأُلوهيته وكذا إنكارهم للبعث والجزاء إنما أبدوه بإنكار القرآن النازل على النبي ﷺ الذي فيه نبأ التوحيد والبعث كان إنكارهم منشعباً الى إنكار أصل التوحيد والبعث أصلاً، والى إنكار ذلك بما أن القرآن ينبّئهم به، فأورد تعالى أولاً بياناً لإثبات أصل الوحدانية والبعث بذكر شواهد من آياته تثبت ذلك وهو قوله: «نحن خلقناكم - الى قوله - ومتاعاً للمقوين»، وثانياً بياناً يؤكد فيه كون القرآن الكريم كلامه المحفوظ عنده النازل منه ووصفه بأحسن أوصافه.

فقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ جواب للقسم السابق. الضمير للقرآن المعلوم من السياق السابق ويستفاد من توصيفه بالكريم من غير تقييد في مقام المدح أنه كريم على الله عزيز عنده وكريم محمود الصفات وكريم بذّال نفّاع للناس لما فيه من اصول المعارف التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ وصف ثان للقرآن أي محفوظ مصون عن التغيير والتبديل، وهو اللوح المحفوظ كما قال تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ (البروج / ٢٢).

وقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ صفة الكتاب المكنون ويمكن أن يكون وصفاً ثالثاً للقرآن ومآل الوجهين على تقدير كون لا نافية واحد.

والمعنى: لا يمسّ الكتاب المكنون الذي فيه القرآن إلّا المطهرون أو لا يمس القرآن الذي في الكتاب إلّا المطهرون.

والكلام على أي حال مسوق لتعظيم أمر القرآن وتجليله فمسّه هو العلم به وهو في الكتاب المكنون كما يشير اليه قوله: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وأنه في أُم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم﴾ (الزخرف / ٤).

والمطهرون ـ اسم مفعول من التطهير ـ هم الذين طهَّر الله تعالى نفوسهم من أرجاس المعاصي وقذارات الذنوب أو مما هو أعظم من ذلك وأدق وهو تطهير قلوبهم من التعلق بغيره تعالى، وهذا المعنى من التطهير هو المناسب للمسّ الذي هو العلم دون الطهارة من الخبيث أو الحدث كما هو ظاهر.

فالمطهرون هم الذين أكرمهم الله تعالى بتطهير نفوسهم كالملائكة الكرام والذين طهّرهم الله من البشر، قال تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ (الأحزاب / ٣٣)، ولا وجه لتخصيص المطهرين بالملائكة كما عن جُلّ المفسرين

لكونه تقييداً من غير مقيّد.

وربما جعل «لا» في «لا يمسه» ناهية، والمراد بالمس على هذا مس كتابة القرآن، وبالطهارة الطهارة من الحدث أو الحدث والخبث جميعاً ـ وقرىء «المطهرون» بتشديد الطاء والهاء وكسر الهاء أي المتطهّرون ـ ومدلول الآية تحريم مسّ كتابة القرآن على غير طهارة.

ويمكن حمل الآية على هذا المعنى على تقدير كون «لا» نافية بأن تكون الجملة إخباراً أُريد به الإنشاء وهو أبلغ من الإنشاء.

وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ وصف آخر للقرآن، والمصدر بمعنى اسم المفعول أي منزل من عند الله اليكم تفتهمونه وتعقلونه بعد ما كان في كتاب مكنون لا يمسه إلّا المطهرون.

والتعبير عنه تعالى برب العالمين للإشارة الى أن ربوبيته تعالى منبسطة على جميع العالمين وهم من جملتهم فهو تعالى ربهم وإذا كان ربهم كان عليهم أن يؤمنوا بكتابه ويصغوا لكلامه ويصدقوه من غير تكذيب.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُون﴾ الإشارة بهذا الحديث الى القرآن، والإدهان به التهاون به وأصله التليين بالدهن استعير للتهاون، والاستفهام للتوبيخ يوبخهم تعالى على عدّهم أمر القرآن هيناً لا يعتنى به.

قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قيل: المراد بالرزق حظهم من الخير، والمعنى: وتجعلون حظكم من الخير الذي لكم أن تنالوه بالقرآن أنكم تكذبون به أي تضعونه موضعه، وقيل: المراد بالرزق القرآن رزقهم الله إياه، والمعنى: تأخذون التكذيب مكان هذا الرزق الذي رزقتموه، وقيل: الكلام بحذف مضاف والتقدير: وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون أي وضعتم التكذيب موضع الشكر.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ـ الى قوله ـ صَادِقِينَ﴾ رجوع الى أول

الكلام بالتفريع على تكذيبهم بأنكم إن كنتم صادقين في نفيكم للبعث مصيبين في تكـذيبهم لهذا القرآن الذي ينبؤكم بالبعث رددتم نفس المحتضر التي بلغت الحلقوم إذ لو لم يكن الموت بتقدير من الله كان من الامور الاتفاقية التي ربما أمكن الاحتيال لدفعها، فإذ لم تقدروا عـلى رجوعها وإعادة الحياة معها فاعلموا أن الموت حتى مقدَّر من الله لسوق النفوس الى البـعث والجزاء.

فقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ تفريع على تكذيبهم بالقرآن وبما أخبر به من البعث والجزاء، ولولا للتحضيض تعجيزاً وتبكيتاً لهم، وضمير «بـلغت» للـنفس. وبـلوغ النفس الحلقوم كناية عن الإشراف التام للموت.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ أي تنظرون الى المحتضر أي هو بمنظر منكم.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي والحال أنا أقرب اليه منكم لإحاطتنا به وجوداً ورسلنا القابضون لروحه أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرونا ولا رسلنا.

قال تعالى: ﴿الله يتوفّى الأنفس حين موتها﴾ (الزمر / ٢٦)، وقال: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ (السجدة / ١١)، وقال: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا﴾ (الأنعام / ٦١).

وقوله: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ تكرار «لولا» لتأكـيد «لولا» السـابقة، و «مدينين» أي مجزيين من دان يدين بمعنى جزى يجزي، والمعنى: إن كنتم غير مجزيّين ثواباً وعقاباً بالبعث.

وقوله: ﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم أن لا بعث ولا جزاء، وقوله: «ترجعونها» مدخول لولا التحضيضية بحسب التقدير وترتيب الآيـات بحسب التقدير فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم مدينين.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ رجوع الى بيان حال الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة عند الموت وبعده وضمير «كان» للمتوفى المعلوم من السياق، والمراد بالمقرّبين السابقون المقربون المذكورون سابقاً، والروح الراحة، والريحان الرزق، وقيل: هو الريحان المشموم من ريحان الجنة يؤتى به اليه فيشمه ويتوفى.

والمعنى: فأما إن كان المتوفى من المقربين فله ـ أو فجزاؤه ـ راحة من كل همّ وغمّ وألم ورزق من رزق الجنة وجنة نعيم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ يمكن أن يكون اللام للاختصاص الملكي ومعنى «سلام لك» أنك تختص بالسلام من أصحاب اليمين الذين هم قرناؤك ورفقاؤك فلا ترى منهم إلّا خيراً وسلاماً.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ تصلية النار الادخال فيها، وقيل: مقاساة حرّها وعذابها.

والمعنى: وأما إن كان من أهل التكذيب والضلال فلهم نزل من ماء شديد الحرارة، ومقاساة حر نار جحيم.

وقد وصفهم الله بالمكذبين الضالين فقدم التكذيب على الضلال لأن ما يلقونه من العذاب تبعة تكذيبهم وعنادهم للحق ولو كان ضلالاً بلا تكذيب وعناد كانوا مستضعفين غير نازلين هذه المنزلة، وأما قوله سابقاً: «ثم إنكم أيها الضالون المكذبون» فإذ كان المقام هناك مقام الردّ لقولهم: «ءإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ءإنا لمبعوثون» الخ؛ كان الأنسب توصيفهم أولاً بالضلال ثم بالتكذيب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ الحق هو العلم من حيث إن الخارج الواقع يطابقه، واليقين هو العلم الذي لا لبس فيه ولا ريب فإضافة الحق الى اليقين نحو من الإضافة

البيانية جيء بها للتأكيد.

والمعنى: أن هذا الذي ذكرناه من حال أزواج الناس الثلاثة هو الحق الذي لا تردّد فيه والعلم الذي لا شك يعتريه.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ تقدم تفسيره. وهو تفريع على ما تقدمه من صفة القرآن وبيان حال الأزواج الثلاثة بعد الموت وفي الحشر.

والمعنى: فإذا كان القرآن على هذه الصفات وصادقاً فيما ينبّيء به من حال الناس بعد الموت فنزّه ربك العظيم مستعيناً أو ملابساً باسمه وانف ما يراه ويدّعيه هؤلاء المكذبون الضالون[1].

١. الواقعة ٥٧ ـ ٩٦: بحث روائي حول قوله تعالى: «ءانتم تزرعونه ام نحن الزارعون»: نزول القرآن؛ الكتاب المكنون؛ نعيم الجنّة.

سورة الحديد مدنية وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • سَبَّحَ لِلّٰهِ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ.

٢ • لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٣ • هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَالظّٰاهِرُ وَٱلْبٰاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

٤ • هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ ٱسْتَوىٰ
عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مٰا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمٰا يَخْرُجُ مِنْهٰا وَمٰا
يَنْزِلُ مِنَ السَّمٰاءِ وَمٰا يَعْرُجُ فِيهٰا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ
وَٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

٥ • لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ.

٦ • يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهٰارِ وَيُولِجُ النَّهٰارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ
بِذٰاتِ الصُّدُورِ.

بيان:

غرض السورة حثّ المؤمنين وترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله كما يشعر به تأكيد الأمر به مرة بعد مرة في خلال آياتها ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ الآية ؛ ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ الآية ؛ ﴿إن المصّدّقين والمصّدّقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ وقد صمّت إنفاقهم ذلك إقراضاً منه لله عز اسمه فالله سبحانه خير مطلوب وهو لا يخلف الميعاد وقد وعدهم إن أقرضوه أن يضاعفه لهم وأن يؤتيهم أجراً كريماً كثيراً.

وقد أشار الى أن هذا الإنفاق من التقوى والإيمان بالرسول وأنه يستتبع مغفرة الذنوب وإتيان كفلين من الرحمة ولزوم النور بل واللحوق بالصدّيقين والشهداء عند الله سبحانه.

وفي خلال آياتها معارف راجعة الى المبدأ والمعاد، ودعوة الى التقوى وإخلاص الإيمان والزهد وموعظة.

والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها وقد ادّعى بعضهم إجماع المفسرين على ذلك.

ولقد افتتحت السورة بتسبيحه وتنزيهه تعالى بعدّة من أسمائه الحسنى لما في غرض السورة وهو الحثّ على الإنفاق من شائبة توهم الحاجة والنقص في ناحيته ونظيرتها في ذلك جميع السور المفتتحة بالتسبيح وهي سور الحشر والصف والجمعة والتغابن المصدّرة بسبّح أو يسبّح.

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ التسبيح التنزيه وهو نفي ما يستدعي نقصاً أو حاجة مما لا يليق بساحة كماله تعالى، و «ما» موصولة والمراد بها ما يعمّ العقلاء مما في السماوات والأرض كالملائكة والثقلين وغير العقلاء كالجمادات والدليل عليه ما ذكر بعد من صفاته المتعلقة بالعقلاء كالإحياء والعلم بذات الصدور.

فالمعنى: نزّه الله سبحانه ما في السماوات والأرض من شيء وهو جميع العالم.

والمراد بتسبيحها حقيقة معنى التسبيح دون المعنى المجازي الذي هو دلالة وجود كل موجود في السماوات والأرض على أن له موجداً منزّهاً من كل نقص متصفاً بكل كمال، ودون عموم المجاز وهو دلالة كل موجود على تنزهه تعالى إما بلسان القال كالعقلاء وإما بلسان الحال كغير العقلاء من الموجودات وذلك لقوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلّا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (الإسراء / ٤٤)، حيث استدرك أنهم لا يفقهون تسبيحهم ولو كان المراد بتسبيحهم دلالة على وجودهم على وجوده وهي قيام الحجة على الناس بوجودهم أو كان المراد تسبيحهم وتحميدهم بلسان الحال فذلك مما يفقه الناس لم يكن للاستدراك معنى.

فتسبيح ما في السماوات والأرض تسبيح ونطق بالتنزيه بحقيقة معنى الكلمة وإن كنا لا نفقهه، قال تعالى: ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ (حم السجدة / ٢١).

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي المنيع جانبه يغلب ولا يغلب، المتقن فعله لا يعرض على فعله ما يفسده عليه ولا يتعلق به اعتراض معترض.

قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الكلام موضوع على الحصر فهو المليك في السماوات والأرض يحكم ما يشاء لأنه الموجد لكل شيء فما في السماوات والأرض يقوم به وجوده وآثار وجوده فلا حكم إلّا له فلا ملك ولا سلطنة إلّا له.

وقوله: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ إشارة الى اسميه المحيي والمميت، وإطلاق «يحيي ويميت» يفيد شمولها لكل إحياء وإماتة كإيجاده الملائكة أحياء من غير سبق موت، وإحيائه الجنين في بطن أُمه وإحيائه الموتى في البعث وإيجاده الجماد ميتاً من غير سبق حياة وإماتته الإنسان في الدنيا وإماتته ثانياً في البرزخ على ما يشير اليه قوله: ﴿ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾

(المؤمن / ١١)، وفي «يحيي ويميت» دلالة على الاستمرار.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه إشارة الى صفة قدرته وأنها مطلقة غير مقيدة بشيء دون شيء، وفي تذييل الآية بالقدرة على كل شيء مناسبة مع ما تقدمها من الاحياء والإماتة لما ربما يتوهمه المتوهم أن لا قدرة على إحياء الموتى ولا عين منهم ولا أثر.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لما كان تعالى قديراً على كل شيء مفروض كان محيطاً بقدرته على كل شيء من كل جهة فكل ما فرض أولاً فهو قبله فهو الأول دون الشيء المفروض أولاً، وكل ما فرض آخراً فهو بعده لإحاطة قدرته به من كل جهة فهو الآخر دون الشيء المفروض آخراً، وكل شيء فرض ظاهراً فهو أظهر منه لإحاطة قدرته به من فوقه فهو الظاهر دون المفروض ظاهراً، وكل شيء فرض أنه باطن فهو تعالى أبطن منه لإحاطته به من ورائه فهو الباطن دون المفروض باطناً فهو تعالى الأول والآخر والظاهر والباطن على الإطلاق وما في غيره تعالى من هذه الصفات فهي إضافية نسبية.

وليست أوليته تعالى ولا آخريته ولا ظهوره ولا بطونه زمانية ولا مكانية بمعنى مظروفيته فيها وإلّا لم يتقدمها ولا تنزه عنها سبحانه بل هو محيط بالأشياء على أي نحو فرضت وكيفما تصوّرت.

فبان مما تقدم أن هذه الأسماء الأربعة الأول والآخر والظاهر والباطن من فروع اسمه المحيط وهو فرع إطلاق القدرة فقدرته محيطة بكل شيء ويمكن تفريع الأسماء الأربعة على إحاطة وجوده بكل شيء فإنه تعالى ثابت قبل ثبوت كل شيء وثابت بعد فناء كل شيء وأقرب من كل شيء ظاهر وأبطن من الأوهام والعقول من كل شيء خفي باطن.

وكذا للأسماء الأربعة نوع تفرع على علمه تعالى ويناسبه تذييل الآية بقوله: «وهو بكل شيء عليم».

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تقدم تفسيره.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مٰا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمٰا يَخْرُجُ مِنْهٰا وَمٰا يَنْزِلُ مِنَ السَّمٰاءِ وَمٰا يَعْرُجُ فِيهٰا﴾ تقدّم تفصيل القول في معنى العرش في سورة الأعراف آية: ٥٤.

وتقدم أن الاستواء على العرش كناية على الأخذ في تدبير الملك ولذا عقبه بالعلم بجزئيات الأحوال لأن العلم من لوازم التدبير.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مٰا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمٰا يَخْرُجُ مِنْهٰا وَمٰا يَنْزِلُ مِنَ السَّمٰاءِ وَمٰا يَعْرُجُ فِيهٰا﴾ الولوج ـ كما قال الراغب ـ الدخول في مضيق، والعروج ذهاب في صعود، والمعنى: يعلم ما يدخل وينفذ في الأرض كماء المطر والبذور وغيرهما وما يخرج من الأرض كأنواع النبات والحيوان والماء وما ينزل من السماء كالأمطار والأشعة والملائكة وما يعرج فيها ويصعد كالأبخرة والملائكة وأعمال العباد.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ﴾ لإحاطته بكم فلا تغيبون عنه أينما كنتم وفي أي زمان عشتم وفي أي حال فرضتم فذكر عموم الأمكنة «أينما كنتم» لأن الأعرف في مفارقة شيء شيئاً وغيبته عنه أن يتوسل الى ذلك بتغيير المكان وإلّا فنسبته تعالى الى الأمكنة والأزمنة والأحوال سواء.

وقيل: المعيّة مجاز مرسل عن الإحاطة العلمية.

قوله تعالى: ﴿وَٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ كالفرع المترتب على ما قبله من كونه معهم أينما كانوا وكونه بكل شيء عليماً فإن لازم حضوره عندهم من دون مفارقة ما واحتجاب وهو عليم أن يكون بصيراً بأعمالهم يبصر ظاهر عملهم، وما في باطنهم من نيّة وقصد.

قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ كرر

قوله: «له ملك» الخ: لابتناء رجوع الأشياء اليه على عموم الملك فصرّح به ليفيد الابتناء، قال تعالى: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ (المؤمن / ١٦).

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ الامور جمع محلّى باللام يفيد العموم كقوله: ﴿ألا إلى الله تصير الامور﴾ (الشورى / ٥٣)، فما من شيء إلّا ويرجع الى الله، ولا رادّ اليه تعالى إلّا هو لاختصاص الملك به فله الأمر وله الحكم.

وفي الآية وضع الظاهر موضع الضمير في «الى الله» وكذا في الآية السابقة «والله بما تعملون بصير» ولعل الوجه في ذلك أن تقرع الجملتان قلوبهم كما يقول المثل السائر لما سيجيء من ذكر يوم القيامة وجزيل أجر المنفقين في سبيل الله فيه.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر باختلاف فصول السنة في كل من البقاع الشمالية والجنوبية بعكس الاخرى، وقد تقدم في كلامه تعالى غير مرة.

والمراد بذات الصدور الأفكار المضمرة والنيّات المكنونة التي تصاحب الصدور وتلازمها لما أنها تنسب الى القلوب والقلوب في الصدور، والجملة أعني قوله: «وهو عليم بذات الصدور» بيان لإحاطة علمه بما في الصدور بعد بيان إحاطة بصره بظواهر أعمالهم بقوله: «والله بما تعملون بصير»[1].

٧ ● آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ.

---

١. الحديد ١ ـ ٦: بحث روائي في المسبحات؛ التوحيد؛ صفات الله.

٨ ۞ وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ
وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

٩ ۞ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلىٰ عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ
الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ.

١٠ ۞ وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمٰواتِ
وَٱلْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقاتَلَ
أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلًّا
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنىٰ وَٱللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

١١ ۞ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ
كَرِيمٌ.

١٢ ۞ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْرٰيكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهارُ
خالِدِينَ فِيها ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ.

١٣ ۞ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنافِقُونَ وَٱلْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱنْظُرُونا
نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً
فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ
قِبَلِهِ ٱلْعَذابُ.

١٤ ۞ يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلىٰ وَلٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمانِيُّ حَتّىٰ جاءَ أَمْرُ ٱللَّهِ

وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ.

١٥ ● فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوٰيكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلٰيكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ الخ: المستفاد من سياق الآيات أن الخطاب في الآية للمؤمنين بالله ورسوله لا للكفار ولا للمؤمنين والكفار جميعاً كما قيل. وأمر الذين تلبّسوا بالإيمان بالله ورسوله بالإيمان معناه الأمر بتحقيق الإيمان بترتيب آثاره عليه إذ لو كانت صفة من الصفات كالسخاء والعفة والشجاعة ثابتة في نفس الإنسان حقَّ ثبوتها لم يتخلف عنها أثرها الخاص ومن آثار الإيمان بالله ورسوله الطاعة فيما أمر الله ورسوله به.

وقوله: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ استخلاف الإنسان جعله خليفة، والمراد به إما خلافتهم عن الله سبحانه يخلفونه في الأرض كما يشير اليه قوله: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ (البقرة / ٣٠)، والتعبير عما بأيديهم من المال بهذا التعبير لبيان الواقع ولترغيبهم في الإنفاق فإنهم إذا أيقنوا أن المال لله وهم مستخلفون عليه وكلاء من ناحيته يتصرفون فيه كما اذن لهم سهل عليهم إنفاقه ولم تتحرَّج نفوسهم من ذلك.

وإما خلافتهم عمن سبقهم من الأجيال كما يخلف كل جيل سابقه، وفي التعبير به أيضاً ترغيب في الإنفاق فإنهم إذا تذكروا أن هذا المال كان لغيرهم فلم يدم عليهم علموا أنه كذلك لا يدوم لهم وسيتركونه لغيرهم وهان عليهم إنفاقه وسخت بذلك نفوسهم.

وقوله: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وعد للأجر على الإنفاق تأكيداً للترغيب، والمراد بالإيمان الإيمان بالله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ الخ: المراد بالايمان الايمان بحيث يترتب عليه آثاره ومنها الإنفاق في سبيل الله ـ وإن شئت فقل: المراد ترتيب آثار ما عندهم من الايمان عليه ـ.

وقوله: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ عبّر الرب بالرب وأضافه اليه تلويحاً الى علة توجه الدعوة والأمر كأنه قيل: يدعوكم لتؤمنوا بالله لأنه ربكم يجب عليكم أن تؤمنوا به.

وقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تأكيد للتوبيخ المفهوم من أول الآية، وضمير «أخذ» لله سبحانه أو للرسول وعلى أي حال المراد بالميثاق المأخوذ هو الذي تدل عليه شهادتهم على وحدانية الله ورسالة رسوله يوم آمنوا به ﷺ من أنهم على السمع والطاعة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الخ: المراد بالآيات البينات آيات القرآن الكريم المبينة لهم ما عليهم من فرائض الدين، وفاعل «ليخرجكم» الضمير العائد الى الله أو الى رسوله ﷺ ومرجع الثاني أيضاً هو الأول فالميثاق ميثاقه وقد أخذه بواسطة رسوله أو بغير واسطته كما أن الايمان به وبرسوله إيمان به ولذلك قال في صدر الآية: «وما لكم لا تؤمنون بالله» فذكر نفسه ولم يذكر رسوله إشارة الى أن الايمان برسوله إيمان به.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ في تذييل الآية برأفته تعالى ورحمته إشارة الى أن الايمان الذي يدعوهم اليه رسوله خير لهم وأصلح وهم الذين ينتفعون به دون الله ورسوله، ففيه تأكيد ترغيبهم على الايمان والإنفاق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الميراث والتراث المال الذي ينتقل من الميت الى من بقي بعده من ورّاثه،

وإضافة الميراث الى السماوات والأرض بيانية فالسماوات والأرض هي الميراث بما فيهما من الأشياء التي خلق منها مما يمتلكه ذووا الشعور من سكنتها فالسماوات والأرض شاملة لما فيها مما خلق منها ويتصرف فيها ذووا الشعور كالإنسان مثلاً بتخصيص ما يتصرفون فيه لأنفسهم وهو الملك الاعتباري الذي هداهم الله سبحانه الى اعتباره فيا بينهم لينتظم بذلك جهات حياتهم الدنيا.

غير أنهم لا يبقون ولا يبقى لهم بل يذهبهم الموت المقدر بينهم فينتقل ما في أيديهم الى من بعدهم وهكذا حتى يفنى الجميع ولا يبقى إلّا هو سبحانه.

فالأرض مثلاً وما فيها وعليها من مال ميراث من جهة أن كل جيل من سكانها يرثها ممن قبله فكانت ميراثاً دائماً دائراً بينهم خلفاً عن سلف، وميراث من جهة أنهم سيفنون جميعاً ولا يبقى لها إلّا الله الذي استخلفهم عليها.

ولله سبحانه ميراث السماوات والأرض بكلا المعنيين. أما الأول: فلأنه الذي يملكهم المال وهو المالك لما ملكهم. قال تعالى: ﴿لله ما في السماوات والأرض﴾ (لقمان / ٢٦)، وقال: ﴿ولله ملك السماوات والأرض﴾ (النور / ٤٢)، وقال: ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ (النور / ٣٣).

وأما الثاني: فظاهر آيات القيامة كقوله تعالى: ﴿كل من عليها فان﴾ (الرحمن / ٢٦)، وغيره، والذي يسبق الى الذهن أن المراد بكونها ميراثاً هو المعنى الثاني.

وكيف كان ففي الآيه توبيخ شديد لهم على عدم إنفاقهم في سبيل الله من المال الذي لا يرثه بالحقيقة إلّا هو تعالى ولا يبقى لهم ولا لغيرهم، والإظهار في موضع الإضمار في قوله: «ولله» لتشديد التوبيخ.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ ٱلَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ الخ: الاستواء بمعنى التساوي، وقسيم

قوله: «من أنفق من قبل الفتح وقاتل» محذوف إيجازاً لدلالة قوله: «أُولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا» عليه.

والمراد بالفتح ـ كما قيل ـ فتح مكة أو فتح الحديبية وعطف القتال على الإنفاق لا يخلو من إشعار بل دلالة على أن المراد بالإنفاق في سبيل الله المندوف اليه في الآيات هو الإنفاق في الجهاد.

وكأن الآية مسوقة لبيان أن الإنفاق في سبيل الله كلما عجل اليها كان أحبّ عند الله وأعظم درجة ومنزلة وإلّا فظاهر أن هذه الآيات نزلت بعد الفتح والقتال الذي بادروا اليه قبل الفتح وبعض المقاتل التي بعده.

وقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وعد الله المثوبة الحسنى كل من أنفق وقاتل قبل الفتح أو أنفق وقاتل بعده وإن كانت الطائفة الاولى أعظم درجة من الثانية، وفيه تطييب لقلوب المتأخرين إنفاقاً وقتالاً أن لهم نيلاً من رحمته وليسوا بمحرومين مطلقاً فلا موجب لأن ييأسوا منها وإن تأخروا.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تذييل متعلق بجميع ما تقدم ففيه تشديد للتوبيخ وتقرير وتثبيت لقوله: «لا يستوي منكم» الخ؛ ولقوله: «وكلا وعد الله الحسنى» ويمكن أن يتعلق بالجملة الأخيرة لكن تعلقه بالجميع أعم وأشمل.

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ قال الراغب: وسمي ما يدفع الى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضاً. انتهى، وقال في المجمع: وأصله القطع فهو قطعه عن مالكه باذنه على ضمان رد مثله. قال: والمضاعفة الزيادة على المقدار مثله أو أمثاله. انتهى، وقال الراغب: الأجر والأجرة ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أُخروياً قال: ولا يقال إلّا في النفع دون الضر بخلاف الجزاء فإنه يقال في النفع والضر. انتهى ملخصاً.

وفي الآية حثّ بليغ على ما ندب اليه من الانفاق في سبيل الله حيث استفهم عن الذي ينفق منهم في سبيل الله ومثل إنفاقه بأنه قرض يقرضه الله سبحانه وعليه أن يرده ثم قطع أنه لا يرد مثله اليه بل يضاعفه ولم يكتف بذلك بل أضاف اليه أجراً كريماً في الآخرة والأجر الكريم هو المرضي في نوعه والأجر الاخروي كذلك لأنه غاية ما يتصور من النعمة عند غاية ما يتصور من الحاجة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ الخ؛ اليوم ظرف لقوله: «له أجر كريم» والمراد به يوم القيامة، والخطاب في «ترى» للنبي ﷺ أو لكل سامع يصح خطابه. والظاهر أن الباء في «بأيمانهم» بمعنى في.

والمعنى: لمن أقرض الله قرضاً حسناً أجر كريم يوم ترى أنت يا رسول الله ـ أو كل من يصح منه الرؤية ـ المؤمنين بالله ورسوله والمؤمنات يسعى نورهم أمامهم وفي أيمانهم واليمين هو الجهة التي منها سعادتهم.

والآية مطلقة تشمل مؤمني جميع الامم ولا تختص بهذه الامة، والتعبير عن إشراق النور بالسعي يشعر بأنهم ساعون الى درجات الجنة التي أعدها الله سبحانه لهم وتستنير لهم جهات السعادة ومقامات القرب واحدة بعد واحدة حتى يتم لهم نورهم كما قال تعالى: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾ (الزمر / ٧٣)، وقال: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ (مريم / ٨٥)، وقال: ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ (التحريم / ٨).

وقوله: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حكاية ما يقال للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة. والقائل الملائكة بأمر من الله والتقدير يقال لهم: «بشراكم» الخ؛ والمراد بالبشرى ما يبشر به وهو الجنة والباقي ظاهر.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ كلام الله سبحانه والإشارة الى ما ذكر من سعي

النور والبشرى أو من تمام قول الملائكة والإشارة الى الجنات والخلود فيها.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ الى آخر الآية؛ النظر إذا تعدّى بنفسه أفاد معنى الانتظار والإمهال، وإذا عدّي بالى نحو نظر اليه كان بمعنى إلقاء البصر نحو الشيء وإذا عدّي بفي كان بمعنى التأمل، والاقتباس أخذ قبس من النار.

والسياق يفيد أنهم اليوم في ظلمة أحاطت بهم سرادقها وقد أُلجئوا الى المسير نحو دارهم التي يخلدون فيها غير أن المؤمنين والمؤمنات يسيرون بنورهم الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم فيبصرون الطريق ويهتدون الى مقاماتهم، وأما المنافقون والمنافقات فهم مغشيون بالظلمة لا يهتدون سبيلاً وهم مع المؤمنين كما كانوا في الدنيا معهم ومعدودين منهم فيسبق المؤمنون والمؤمنات الى الجنة ويتأخر عنهم المنافقون والمنافقات في ظلمة تغشاهم فيسألون المؤمنين والمؤمنات أن ينتظروهم حتى يلحقوا بهم ويأخذوا قبساً من نورهم ليستضيئوا به في طريقهم.

وقوله: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُوراً﴾ القائل به إما الملائكة أو قوم من كمّل المؤمنين كأصحاب الأعراف.

وكيف كان فهو من الله وبإذنه، والخطاب بقوله: «ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً» قيل: إنه خطاب مبني على التهكّم والاستهزاء كما كانوا يستهزؤن في الدنيا بالمؤمنين، والأظهر على هذا أن يكون المراد بالوراء الدنيا، ومحصل المعنى: ارجعوا الى الدنيا التي تركتموها وراء ظهوركم وعملتم فيها ما عملتم على النفاق، والتمسوا من تلك الأعمال نوراً فإنما النور نور الأعمال أو الايمان ولا إيمان لكم ولا عمل.

ويمكن أن يجعل هذا وجهاً على حياله من غير معنى الاستهزاء بأن يكون قوله: «ارجعوا» أمراً بالرجوع الى الدنيا واكتساب النور بالايمان والعمل الصالح وليسوا براجعين ولا

يستطيعون فيكون الأمر بالرجوع كالأمر بالسجود المذكور في قوله تعالى: ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ (القلم / ٤٣).

وقيل: المراد ارجعوا الى المكان الذي قسم فيه النور والتمسوا من هناك فيرجعون فلا يجدون شيئاً فينصرفون اليهم وقد ضُرب بينهم بسور. وهذا خدعة منه تعالى يخدعهم بها كما كانوا في الدنيا يخادعونه كما قال: ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ (النساء / ١٤٢).

قوله تعالى: ﴿ فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ سور المدينة حائطها الحاجز بينها وبين الخارج منها، والضمير في « فضُرب بينهم بسور » راجع الى المؤمنين والمنافقين جميعاً أي ضرب بين المؤمنين وبين المنافقين بسور حاجز يحجز إحدى الطائفتين عن الاخرى.

قيل: السور هو الأعراف وهو غير بعيد وقد تقدمت إشارة اليه في تفسير قوله تعالى: ﴿ وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال ﴾ (الأعراف / ٤٦). وقيل: السور غير الأعراف.

وقوله: ﴿ لَهُ بَابٌ ﴾ أي للسور باب وهذا يشبه حال المنافقين في الدنيا فقد كانوا فيها بين المؤمنين لهم اتصال بهم وارتباط وهم مع ذلك محجوبون عنهم بحجاب. على أنهم يرون أهل الجنة ويزيد بذلك حسرتهم وندامتهم.

وقوله: ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ « باطنه » مبتدأ وجملة « فيه الرحمة » مبتدأ وخبر وهي خبر « باطنه » وكذا « ظاهره » مبتدأ وجملة « من قبله العذاب » مبتدأ وخبر هي خبره، وضميرا « فيه ومن قبله » للباطن والظاهر.

ويظهر من كون باطن السورة فيه رحمة وظاهره من قبله العذاب أن السور محيط بالمؤمنين وهم في داخله والمنافقون في الخارج منه.

وفي اشتمال داخله الذي يلي المؤمنين على الرحمة وظاهره الذي يلي المنافقين على العذاب مناسبة لحال الإيمان في الدنيا فإنه نعمة لأهل الإخلاص من المؤمنين يبتهجون بها ويلتذون وعذاب لأهل النفاق يتحرجون من التلبس به ويتألمون منه.

قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ الى آخر الآية استئناف في معنى جواب السؤال كأنه قيل: فماذا يفعل المنافقون والمنافقات بعد ضرب السورة ومشاهدة العذاب من ظاهره؟ فقيل: ينادونهم، الخ.

والمعنى: ينادي المنافقون والمنافقات المؤمنين والمؤمنات بقولهم: «ألم نكن معكم» يريدون به كونهم في الدنيا مع المؤمنين والمؤمنات في ظاهر الدين.

وقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ الى آخر الآية جواب المؤمنين والمؤمنات لهم والمعنى «قالوا» أي قال المؤمنون والمؤمنات جواباً لهم: «بلى» كنتم في الدنيا معنا «ولكنكم فتنتم» أي محنتم وأهلكتم «أنفسكم وتربصتم» الدوائر بالدين وأهله «وارتبتم» وشككتم في دينكم «وغرتكم الأماني» ومنها أُمنيتكم أن الدين سيطفأ نوره ويتركه أهله «حتى جاء أمر الله» وهو الموت «وغركم بالله الغرور» بفتح الغين وهو الشيطان.

والآية ـ كما ترى ـ تفيد أن المنافقين والمنافقات يستنصرون المؤمنين والمؤمنات على ما هم فيه من الظلمة متوسلين بأنهم كانوا معهم في الدنيا ثم تفيد أن المؤمنين والمؤمنات يجيبون بأنهم كانوا معهم لكن قلوبهم كانت لا توافق ظاهر حالهم حيث يفتنون أنفسهم ويتربصون ويرتابون وتغرهم الأماني ويغرهم بالله الغرور، وهذه الصفات الخبيثة آفات القلوب فكانت القلوب غير سليمة ولا ينفع يوم القيامة إلّا القلب السليم قال تعالى: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم﴾ (الشعراء / ٨٩).

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تتمة كلام المؤمنين والمؤمنات يخاطبون به المنافقين والمنافقات ويضيفون اليهم الكفار وهم المعلنون

لكفرهم أنهم رهناء أعمالهم كما قال تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ (المدثر / ٣٨)، لا يؤخذ منهم فدية يخلصون بها أنفسهم والفدية أحد الأمرين الذين بهما التخلص من الرهانة والآخر ناصر ينصر فينجي وقد نفوه بقولهم: «مأواكم النار» الخ.

فقوله: ﴿مأْوٰيكُمُ النّارُ هِيَ مَوْلٰيكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ينفي أيّ ناصر ينصرهم وينجيهم من النار غير النار على ما يفيده قوله: «هي مولاكم» من الحصر، والمولى هو الناصر والجملة مسوقة للتهكم.

ويمكن أن يكون المولى بمعنى من يلي الأمر فإنهم كانوا يدعون لحوائجهم من المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمسكن غير الله سبحانه وحقيقته النار فاليوم مولاهم النار وهي التي تعدّ لهم ذلك فمأكلهم من الزقوم ومشربهم من الحميم وملبسهم من ثياب قطعت من النار وقرناؤهم الشياطين ومأواهم النار على ما أخبر الله سبحانه به في آيات كثيرة من كلامه.

١٦ ● أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللّٰهِ وَمٰا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلاٰ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتٰابَ مِنْ قَبْلُ فَطٰالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ.

١٧ ● إِعْلَمُوا أَنَّ ٱللّٰهَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا قَدْ بَيَّنّٰا لَكُمُ ٱلْآيٰاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

١٨ ● إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقٰاتِ وَأَقْرَضُوا ٱللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً يُضٰاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ.

١٩ ● وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدٰاءُ

عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ.

٢٠ ❁ إِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَيٰهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ.

٢١ ❁ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

٢٢ ❁ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ.

٢٣ ❁ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَيٰكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ.

٢٤ ❁ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ

ٱلْحَقِّ ﴾ الى آخر الآية ؛ يقال : أنى يأني أنيّ وإناء أي جاء وقته ، وخشوع القلب تأثره قبال العظمة والكبرياء ، والمراد بذكر الله ما يذكر به الله ، وما نزل من الحق هو القرآن النازل من عنده تعالى و « من الحق » بيان لما نزل » ومن شأن ذكر الله تعالى عند المؤمن أن يعقب خشوعاً كما أن من شأن الحق النازل من عنده تعالى أن يعقب خشوعاً ممن آمن بالله ورسله .

وقيل : المراد بذكر الله وما نزل من الحق جميعاً القرآن ، وعلى هذا فذكر القرآن بوصفيه لكون كل من الوصفين مستدعياً لخشوع المؤمن فالقرآن لكونه ذكر الله يستدعي الخشوع كما أنه لكونه حقاً نازلاً من عنده تعالى يستدعي الخشوع .

وفي الآية عتاب للمؤمنين على ما عرض لقلوبهم من القسوة وعدم خشوعها لذكر الله والحق النازل من عنده تعالى وتشبيه لحالهم بحال أهل الكتاب الذين نزل عليهم الكتاب وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم .

وقوله : ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ عطف على قوله : « تخشع » الخ ؛ والمعنى : ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم وأن لا يكونوا ، الخ ، والأمد الزمان ، قال الراغب : الفرق بين الزمان والأمد أن الأمد يقال باعتبار الغاية والزمان عام في المبدأ والغاية ولذلك قال بعضهم : إن المدى والأمد يتقاربان . انتهى .

وقد أشار سبحانه بهذا الكلام الى صيرورة قلوبهم كقلوب أهل الكتاب القاسية والقلب القاسي حيث يفقد الخشوع والتأثر عن الحق ربما خرج عن زيّ العبودية فلم يتأثر عن المناهي واقترف الاثم والفسوق ، ولذا أردف قوله : « فقست قلوبهم » بقوله : « وكثير منهم فاسقون » .

قوله تعالى : ﴿ إِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ الى آخر الآية في تعقيب عتاب المؤمنين على قسوة قلوبهم بهذا التمثيل تقوية لرجائهم وترغيب لهم في

الخشوع.

ويمكن أن يكون من تمام العتاب السابق ويكون تنبيهاً على أن الله لا يخلي هذا الدين على ما هو عليه من الحال بل كلما قست قلوب وحرموا الخشوع لأمر الله جاء بقلوب حيّة خاشعة له يعبد بها كما يريد.

فتكون الآية في معنى قوله: ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ (سورة محمد / ٣٨).

ولذلك ذيّل الآية بقوله: «قد بيّنا لكم الآيات لعلكم تعقلون».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ تكرار لحديث المضاعفة والأجر الكريم للترغيب في الإنفاق في سبيل الله وقد أُضيف الى الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً المصدقون والمصدقات.

والمصدقون والمصدقات ـ بتشديد الصاد والدال ـ المتصدقون والمتصدقات، وقوله: «وأقرضوا الله» عطف على مدخول اللام في «المصدقين»، والمعنى: أن الذين تصدّقوا والذين أقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ما أعطوه ولهم أجر كريم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الخ؛ لم يقل «آمنوا بالله ورسوله» كما قال في أول السورة: «آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا» وقال في آخرها: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله» لأنه تعالى لما ذكر أهل الكتاب في الآية السابقة بقوله: «ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتاب من قبل» عدل عن السياق السابق الى سياق عام يشمل المسلمين وأهل الكتاب جميعاً كما قال بعد: «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات» وأما الآيتان المذكورتان في أول السورة وآخرها فالخطاب فيهما لمؤمني هذه الامة خاصة ولذا جيء فيهما بالرسول مفرداً.

والمراد بالايمان بالله ورسله محض الايمان الذي لا يفارق بطبعه الطاعة والاتباع كما مرّت الإشارة اليه في قوله: «آمنوا بالله ورسوله» الآية؛ والمراد بقوله: «أُولئك هم الصديقون والشهداء» إلحاقهم بالصديقين والشهداء بقرينة قوله: «عند ربهم» قوله: «لهم أجرهم ونورهم» فهم ملحقون بالطائفتين يعامل معهم معاملة الصديقين والشهداء فيعطون مثل أجرهم ونورهم.

والظاهر أن المراد بالصدّيقين والشهداء هم المذكورون في قوله: ﴿ومن يُطِع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ اولئك رفيقاً﴾ (النساء / ٦٩)، وقد تقدم في تفسير الآية أن المراد بالصديقين هم الذين سرى الصدق في قولهم وفعلهم فيفعلون ما يقولون ويقولون ما يفعلون، والشهداء هم شهداء الأعمال يوم القيامة دون الشهداء بمعنى المقتولين في سبيل الله.

فهؤلاء الذين آمنوا بالله ورسله ملحقون بالصديقين والشهداء منزّلون منزلتهم عند الله أي بحكم منه لهم أجرهم ونورهم.

وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ ضمير «لهم» للذين آمنوا، وضمير «أجرهم ونورهم» للصدّيقين والشهداء أي للذين آمنوا أجر من نوع أجر الصديقين والشهداء ونور من نوع نورهم، وهذا معنى قول من قال: إن المعنى: لهم أجر كأجرهم ونور كنورهم.

وربما قيل: إن قوله: «والشهداء» ليس عطفاً على قوله: «الصديقون» بل استئناف و«الشهداء» مبتدأ خبره «عند الله» وخبره الآخر «لهم أجرهم» فقد قيل: والذين آمنوا بالله ورسله أُولئك هم الصديقون، وقد تم الكلام ثم استؤنف وقيل «والشهداء عند ربهم» كما قيل ﴿بل أحياء عند ربهم﴾ (آل عمران / ١٦٩)، والمراد بالشهداء المقتولون في سبيل الله، ثم تم الكلام بقوله: «لهم أجرهم ونورهم».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي لا

يفارقونها وهم فيها دائمين.

وقد تعرض سبحانه في الآية لشأن الملحقين بالصديقين والشهداء وهم خيار الناس والناجون قطعاً، والكفار المكذبين لآياته وهم شرار الناس والهالكون قطعاً وبقي فريق بين الفريقين وهم المؤمنون المقترفون للمعاصي والذنوب على طبقاتهم في التمرد على الله ورسوله، وهذا دأب القرآن في كثير من موارد التعرض لشأن الناس يوم القيامة.

وذلك ليكون بعثاً لقريحتي الخوف والرجاء في ذلك الفريق المتخلل بين الخيار والشرار فيميلوا الى السعادة ويختاروا النجاة على الهلاك.

ولذلك أعقب الآية بذم الحياة الدنيا التي تعلق بها هؤلاء الممتنعون من الإنفاق في سبيل الله ثم بدعوتهم الى المسابقة الى المغفرة والجنة ثم بالإشارة الى أن ما يصيبهم من المصيبة في أموالهم وأنفسهم مكتوبة في كتاب سابق وقضاء متقدم فليس ينبغي لهم أن يخافوا الفقر في الإنفاق في سبيل الله، فيبخلوا ويمسكوا أو يخافوا الموت في الجهاد في سبيل الله فيتخلفوا ويقعدوا.

قوله تعالى: ﴿إِعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ﴾ الخ: اللعب عمل منظوم لغرض خيالي كلعب الأطفال، واللهو ما يشغل الإنسان عما يهمه، والزينة بناء نوع وربما يراد به ما يتزين به وهي ضم شيء مرغوب فيه الى شيء آخر ليرغب فيه بما اكتسب به من الجمال، والتفاخر المباهاة بالأنساب والأحساب، والتكاثر في الأموال والأولاد.

والحياة الدنيا عرض زائل وسراب باطل لا يخلو من هذه الخصال الخمس المذكورة: اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر وهي التي يتعلق بها هوى النفس الإنسانية ببعضها أو بجميعها وهي أمور وهمية وأعراض زائلة لا تبقى للانسان وليست ولا واحدة منها تجلب للانسان كمالاً نفسياً ولا خيراً حقيقياً.

وقوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَيٰهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰماً﴾ مثل لزينة الحياة الدنيا التي يتعلق بها الانسان غروراً ثم لا يلبث دون أن يسلبها.

والغيث المطر والكفار جمع كافر بمعنى الحارث، ويهيج من الهيجان وهو الحركة، والحطام الهشيم المتكسر من يابس النبات.

والمعنى: أن مثل الحياة الدنيا في بهجتها المعجبة ثم الزوال كمثل مطر أعجب الحراث نباته الحاصل بسببه ثم يتحرك الى غاية ما يمكنه من النمو فتراه مصفر اللون ثم يكون هشياً متكسراً ـ متلاشياً تذروه الرياح ـ.

وقوله: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ سبق المغفرة على الرضوان لتطهير المحل ليحل به الرضوان، وتوصيف المغفرة بكونه من الله دون العذاب لا يخلو من إيماء الى أن المطلوب بالقصد الأول هو المغفرة وأما العذاب فليس بمطلوب في نفسه وإنما يتسبّب اليه الإنسان بخروجه عن زيّ العبودية كما قيل.

وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي متاعٌ التمتع منه هو الغرور به، وهذا للمتعلق المغرور بها.

والكلام أعني قوله: «وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان» إشارة الى وجهي الحياة الآخرة ليأخذ السامع حذره فيختار المغفرة والرضوان على العذاب، ثم في قوله: «وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور» تنبيه وإيقاظ لئلا تغرّه الحياة الدنيا بخاصة غروره.

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخ: المسابقة هي المغالبة في السبق للوصول الى غرض بأن يريد كل من المسابقين جعل حركته أسرع من حركة صاحبه ففي معنى المسابقة ما يزيد على معنى المسارعة فإن المسارعة الجدّ في تسريع الحركة والمسابقة الجدّ في تسريعها بحيث تزيد في السرعة على حركة صاحبه.

وعلى هذا فقوله: «سابقوه الى مغفرة» الخ؛ يتضمن من التكليف ما هو أزيد مما يتضمنه قوله: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أُعدّت للمتقين﴾ (آل عمران / ١٣٣).

و تقديم المغفرة على الجنة في الآية لأن الحياة في الجنة حياة طاهرة في عالم الطهارة فيتوقف التلبس بها على زوال قذارات الذنوب وأوساخها.

والمراد بالعرض السعة دون العرض المقابل للطول وهو معنى شائع، والكلام كأنه مسوق للدلالة على انتهائها في السعة.

وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ قد عرفت في ذيل قوله: «آمنوا بالله ورسله» وقوله: «والذين آمنوا بالله ورسله» أن المراد بالإيمان بالله ورسله هو مرتبة عالية من الإيمان تلازم ترتب آثاره عليه من الأعمال الصالحة واجتناب الفسوق والإثم.

وقوله: ﴿ذٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وقد شاء أن يؤتيه الذين آمنوا بالله ورسله، وقد تقدم بيان أن ما يؤتيه الله من الأجر لعباده المؤمنين فضل منه تعالى من غير أن يستحقوه عليه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ إشارة الى عظمة فضله، وأن ما يثيبهم به من المغفرة والجنة من عظيم فضله.

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ الخ؛ المصيبة الواقعة التي تصيب الشيء مأخوذة من إصابة السهم الغرض وهي بحسب المفهوم أعم من الخير والشر لكن غلب استعمالها في الشر فالمصيبة هي النائبة، والمصيبة التي تصيب في الأرض كالجدب وعاهة الثمار والزلزلة المخربة ونحوها، والتي تصيب في الأنفس كالمرض والجرح والكسر والقتل والموت، والبرء والبروء الخلق من العدم، وضمير «نبرأها» للمصيبة، وقيل: للأنفس، وقيل: للأرض، وقيل:

للجميع من الأرض والأنفس والمصيبة، ويؤيد الأول أن المقام مقام بيان ما في الدنيا من المصائب الموجبة لنقص الأموال والأنفس التي تدعوهم الى الإمساك عن الانفاق والتخلف عن الجهاد.

والمراد بالكتاب اللوح المكتوب فيه ما كان وما يكون وما هو كائن الى يوم القيامة كما تدل عليه الآيات والروايات وإنما اقتصر على ذكر ما يصيب في الأرض وفي أنفسهم من المصائب لكون الكلام فيها.

قيل: إنما قيّد المصيبة بما في الأرض وفي الأنفس لأن مطلق المصائب غير مكتوبة في اللوح لأن اللوح متناه والحوادث غير متناهية ولا يكون المتناهي ظرفاً لغير المتناهي.

والكلام مبني على أن المراد باللوح لوح فلزي أو نحوه منصوب في ناحية من نواحي الجو مكتوب فيه الحوادث بلغة من لغاتنا بخط يشبه خطوطنا، وقد مر كلام في معنى اللوح والقلم وسيجيء له تتمة.

وقيل: المراد بالكتاب علمه تعالى وهو خلاف الظاهر إلّا أن يراد به أن الكتاب المكتوب فيه الحوادث من مراتب علمه الفعلي.

وختم الآية بقوله: «إن ذلك على الله يسير» للدلالة على أن تقدير الحوادث قبل وقوعها والقضاء عليها بقضاء لا يتغير لا صعوبة فيه عليه تعالى.

قوله تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ الخ: تعليل راجع الى الآية السابقة وهو تعليل للإخبار عن كتابة الحوادث قبل وقوعها لا لنفس الكتابة، والأسى الحزن، والمراد بما فات وما آتى النعمة الفائتة والنعمة المؤتاة.

والمعنى: أخبرناكم بكتابة الحوادث قبل حدوثها وتحققها لئلا تحزنوا بما فاتكم من النعم ولا تفرحوا بما أعطاكم الله منها لأن الانسان إذا أيقن أن الذي أصابه مقدر كائن لا محالة لم يكن ليخطئه وأن ما أُوتيه من النعم وديعة عنده الى أجل مسمى لم يعظم حزنه إذا فاته ولا

فرحه إذا أوتيه.

قيل: إن اختلاف الاسناد في قوليه «ما فاتكم» و«ما آتاكم» حيث أُسند الفوت الى نفس الأشياء والايتاء الى الله سبحانه لأن الفوات والعدم ذاتي للأشياء فلو خليت ونفسها لم تبق بخلاف حصولها وبقائها فإنه لا بد من استنادهما الى الله تعالى.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ المختال من أخذته الخيلاء وهي التكبر عن تخيل فضيلة تراءت له من نفسه ـ على ما ذكره الراغب ـ والفخور الكثير الفخر والمباهاة والاختيال والفخر ناشئان عن توهم الانسان أن يملك ما أوتيه من النعم باستحقاق من نفسه، وهو مخالف لما هو الحق من استناد ذلك الى تقدير من الله لا لاستقلال من نفس الانسان فهما من الرذائل والله لا يحبها.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ وصف لكل مختال فخور يفيد تعليل عدم حبه تعالى. والوجه في بخلهم الاحتفاظ للمال الذي يعتمد عليه اختيالهم وفخرهم والوجه في أمرهم الناس بالبخل أنهم يحبونه لأنفسهم فيحبونه لغيرهم، ولأن شيوع السخاء والجود بين الناس وإقبالهم على الانفاق في سبيل الله يوجب أن يعرفوا بالبخل المذموم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي ومن يعرض عن الانفاق ولم يتعض بعظة الله ولا اطمأن قلبه بما بينه من صفات الدنيا ونعت الجنة وتقدير الامور فإن الله هو الغني فلا حاجة له الى إنفاقهم، والمحمود في أفعاله.

والآيات الثلاث أعني قوله: «وما أصاب من مصيبة ـ الى قوله ـ الغني الحميد» كما ترى حث على الإنفاق وردع عن البخل والإمساك بتزهيدهم عن الأسى بما فاتهم والفرح بما آتاهم لأن الامور مقدَّرة مقضيَّة مكتوبة في كتاب معينة قبل أن يبرأها الله سبحانه[1].

---

١. الحديد ١٦ ـ ٢٤: بحث روائي حول: نزول سورة الحديد؛ الشهادة في سبيل الله؛ الزهد.

٢٥ ● لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ.

٢٦ ● وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ.

٢٧ ● ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ.

٢٨ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٢٩ ● لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَنْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الخ: استئناف يتبين به معنى تشريع الدين بإرسال الرسل وإنزال الكتاب والميزان وأن الغرض من ذلك قيام الناس بالقسط وامتحانهم بذلك وبإنزال الحديد ليتميز من ينصر الله بالغيب ويتبين أن أمر الرسالة لم يزل مستمراً بين الناس ولم يزالوا يهتدي من كل أُمة بعضهم وكثير منهم فاسقون.

فقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالآيات البينات التي يتبين بها أنهم مرسلون من جانب الله سبحانه من المعجزات الباهرة والبشارات الواضحة والحجج القاطعة.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو الوحي الذي يصلح أن يكتب فيصير كتاباً، المشتمل على معارف الدين من اعتقاد وعمل وهو خمسة: كتاب نوح وكتاب إبراهيم والتوراة والإنجيل والقرآن.

وقوله: ﴿وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ فسّروا الميزان بذي الكفتين الذي يوزن به الأثقال، وأخذوا قوله: «ليقوم الناس بالقسط» غاية متعلقة بإنزال الميزان والمعنى: وأنزلنا الميزان ليقوم الناس بالعدل في معاملاتهم فلا يخسروا باختلال الأوزان والنسب بين الأشياء فقوام حياة الإنسان بالاجتماع، وقوام الاجتماع بالمعاملات الدائرة بينهم والمبادلات في الأمتعة والسلع، وقوام المعاملات في ذوات الأوزان بحفظ النسب بينها وهو شأن الميزان.

ولا يبعد - والله أعلم - أن يراد بالميزان الدين فإن الدين هو الذي يوزن به عقائد أشخاص الإنسان وأعمالهم، وهو الذي به قوام حياة الناس السعيدة مجتمعين ومنفردين،

وهذا المعنى أكثر ملائمة للسياق المتعرض لحال الناس من حيث خشوعهم وقسوة قلوبهم وجدهم ومساهلتهم في أمر الدين. وقيل: المراد بالميزان هنا العدل وقيل: العقل.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ الظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ (الزمر / ٦)، وقد تقدم في تفسير الآية أن تسمية الخلق في الأرض إنزالاً إنما هو باعتبار أنه تعالى يسمي ظهور الأشياء في الكون بعد ما لم يكن إنزالاً لها من خزائنه التي عنده ومن الغيب الى الشهادة قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١).

وقوله: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ البأس هو الشدة في التأثير ويغلب استعماله في الشدة في الدفاع والقتال، ولا تزال الحروب والمقاتلات وأنواع الدفاع ذات حاجة شديدة الى الحديد وأقسام الأسلحة المعمولة منه منذ تنبه البشر له واستخرجه.

وأما ما فيه من المنافع للناس فلا يحتاج الى البيان فله دخل في جميع شعب الحياة وما يرتبط بها من الصنائع.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ غاية معطوفة على محذوف والتقدير وأنزلنا الحديد لكذا وليعلم الله من ينصره، الخ. والمراد بنصره ونصره رسله الجهاد في سبيله دفاعاً عن مجتمع الدين وبسطاً لكلمة الحق، وكون النصر بالغيب كونه في حال غيبته منهم أو غيبتهم منه. والمراد بعلمه بمن ينصره ورسله تميزهم ممن لا ينصر.

وختم الآية بقوله: «إن الله قوي عزيز» وكأن وجهه الإشارة الى أن أمره تعالى لهم بالجهاد إنما هو ليتميز الممتثل منهم من غيره لا لحاجة منه تعالى الى ناصر ينصره إنه تعالى قوي لا سبيل للضعف اليه عزيز لا سبيل للذلة اليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ شروع في الإشارة الى أن الإهتداء

والفسق جاريان في الامم الماضية حتى اليوم فلم تصلح أُمة من الامم بعامة أفرادها بل لم يزل كثير منهم فاسقين.

وضمير «فمنهم» و«منهم» للذرية والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ﴾ في المجمع: التقفية جعل الشيء في إثر شيء على الاستمرار فيه، ولهذا قيل لمقاطع الشعر قواف إذ كانت تتبع البيت على أثره مستمرة في غيره على منهاجه. انتهى.

وضمير «على آثارهم» لنوح وإبراهيم والسابقين من ذريتهما، والدليل على أنه لا نبي بعد نوح إلّا من ذريته لأن النسل بعده له. على أن عيسى من ذرية إبراهيم قال تعالى في نوح: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ (الصافات / ٧٧)، وقال: ﴿ومن ذريته داود وسليمان - الى أن قال - وعيسى﴾ (الأنعام / ٨٥). فالمراد بقوله: «ثم قفينا على آثارهم برسلنا» الخ؛ التقفية باللاحقين من ذريتهما على آثارهما والسابقين من ذريتهما.

وفي قوله: ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ إشارة الى أن الطريق المسلوك واحد يتبع فيه بعضهم أثر بعض.

وقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ الرأفة والرحمة - على ما قالوا - مترادفان، ونقل عن بعضهم أن الرأفة يقال في درء الشر والرحمة في جلب الخير.

والظاهر أن المراد بجعل الرأفة والرحمة في قلوب الذين اتبعوه توفيقهم للرأفة والرحمة فيما بينهم فكانوا يعيشون على المعاضدة والمسالمة كما وصف الله سبحانه الذين مع النبي ﷺ بالرحمة إذ قال: ﴿رحماء بينهم﴾ (الفتح / ٢٩)، وقيل: المراد بجعل الرأفة والرحمة في قلوبهم الأمر بهما والترغيب فيهما ووعد الثواب عليهما.

وقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ الرهبانية من الرهبة وهي الخشية، ويطلق عرفاً على انقطاع الانسان من الناس لعبادة الله خشيه منه، والابتداع إتيان ما لم يسبق اليه في دين أو سنة أو صنعة، وقوله: «ما كتبناها عليهم» في معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: ما معنى ابتداعهم لها؟ فقيل: ما كتبناها عليهم.

والمعنى: أنهم ابتدعوا من عند أنفسهم رهبانية من غير أن نشرعه نحن لهم.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ استثناء منقطع معناه ما فرضناها عليهم لكنهم وضعوها من عند أنفسهم ابتغاء لرضوان الله وطلباً لمرضاته فما حافظوا عليها حق محافظتها بتعديهم حدودها.

وفيه إشارة الى أنها كانت مرضية عنده تعالى وإن لم يشرّعها بل كانوا هم المبتدعين لها.

وقوله: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ إشارة الى أنهم كالسابقين من أُمم الرسل منهم مؤمنون مأجورون على إيمانهم وكثير منهم فاسقون، والغلبة للفسق.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ الخ؛ أمر الذين آمنوا بالتقوى والايمان بالرسول مع أن الذين استجابوا الدعوة فآمنوا بالله آمنوا برسوله أيضاً دليل على أن المراد بالايمان بالرسول الاتباع التام والطاعة الكاملة لرسوله فيما يأمر به وينهى عنه سواء كان ما يأمر به أو ينهى عنه حكماً من الأحكام الشرعية أو صادراً عنه بماله من ولاية أُمور الامة كما قال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ (النساء / ٦٥).

فهذا إيمان بعد إيمان ومرتبة فوق مرتبة الايمان الذي ربما يتخلف عنه أثره فلا يترتب عليه لضعفه، وبهذا يناسب قوله: «يؤتكم كفلين من رحمته» والكفل الحظ والنصيب فله ثواب

على ثواب كما أنه إيمان على إيمان.

وقيل: المراد بإتيان كفلين من الرحمة إيتاؤهم أجرين كمؤمني أهل الكتاب كأنه قيل: يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الأجرين لأنكم مثلهم في الايمان بالرسل المتقدمين وبخاتمهم ﷺ لا تفرقون بين أحد من رسله.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ قيل: يعني يوم القيامة وهو النور الذي أُشير اليه بقوله: «يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم».

وفيه أن تقييد من غير دليل بل لهم نورهم في الدنيا وهو المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ (الأنعام / ١٢٢). ونورهم في الآخرة وهو المدلول عليه بقوله: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ (الآية ١٢ من السورة) وغيره.

ثم كمّل تعالى وعده بإيتائهم كفلين من رحمته وجعل نور يمشون به بالمغفرة فقال: «ويغفر لكم والله غفور رحيم».

قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَنْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ ظاهر السياق أن في الآية التفاتاً من خطاب المؤمنين الى خطاب النبي ﷺ، والمراد بالعلم مطلق الاعتقاد كالزعم، و«أن» مخففة من الثقيلة، وضمير «يقدرون» للمؤمنين. وفي الكلام تعليل لمضمون الآية السابقة.

والمعنى: إنما أمرناهم بالايمان بعد الايمان ووعدناهم كفلين من الرحمة وجعل النور والمغفرة لئلا يعتقد أهل الكتاب أن المؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله بخلاف المؤمنين من أهل الكتاب حيث يؤتون أجرهم مرتين أن آمنوا.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ معطوف على «أن لا يعلم»، والمعنى: إنما وعدنا بما وعدنا لأن كذا كذا ولأن الفضل بيد الله والله

ذو الفضل العظيم.

وفي الآية أقوال واحتمالات أُخر لا جدوى في إيرادها والبحث عنها[١].

١. الحديد ٢٥ ـ ٢٩: بحث روائي في: الميزان، الرهبانية.

سورة المجادلة مدنية وهي اثنتان وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● قَدْ سَمِعَ ٱللّٰهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجٰادِلُكَ فِي زَوْجِهٰا وَتَشْتَكِي إِلَى
اللّٰهِ وَاللّٰهُ يَسْمَعُ تَحٰاوُرَكُما إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ.

٢ ● الَّذِينَ يُظٰاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسٰائِهِمْ مٰا هُنَّ أُمَّهٰاتِهِمْ إِنْ أُمَّهٰاتُهُمْ
إِلَّا ٱللّٰائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ ٱلْقَوْلِ وَزُوراً
وَإِنَّ اللّٰهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.

٣ ● وَالَّذِينَ يُظٰاهِرُونَ مِنْ نِسٰائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمٰا قٰالُوا فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمٰاسّٰا ذٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ.

٤ ● فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيٰامُ شَهْرَيْنِ مُتَتٰابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمٰاسّٰا
فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعٰامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ
وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللّٰهِ وَلِلْكٰافِرِينَ عَذٰابٌ أَلِيمٌ.

٥ ● إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ.

٦ ● يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

بيان:

تتعرض السورة لمعانٍ متنوعة من حكم وأدب وصفة فشطر منها في حكم الظهار والنجوى وأدب الجلوس في المجالس وشطر منها يصف حال الذين يحادّون الله ورسوله، والذين يوادّون أعداء الدين ويصف الذين يتحرّزون من موادّتهم من المؤمنين ويعدهم وعداً جميلاً في الدنيا والآخرة.

والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ الخ؛ قال في المجمع: الاشتكاء إظهار ما بالإنسان من مكروه، والشكاية إظهار ما يصنعه به غيره من المكروه. قال: والتحاور التراجع وهي المحاورة يقال: حاوره محاورة أي راجعه الكلام وتحاورا. انتهى.

الآيات الأربع أو الست نزلت في الظهار وكان من أقسام الطلاق عند العرب الجاهلي كان الرجل يقول لامرأته: أنت مني كظهر أُمي فتنفصل عنه وتحرم عليه مؤبدة وقد ظاهر بعض الأنصار من امرأته ثم ندم عليه فجاءت امرأته الى رسول الله ﷺ تسائله فيه لعلها تجد طريقاً الى رجوعه اليها وتجادله ﷺ في ذلك وتشتكي الى الله فنزلت الآيات.

والمراد بالسمع في قوله: «قد سمع الله» استجابة الدعوة وقضاء الحاجة من باب الكناية

وهو شائع، والدليل عليه قوله: «تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله» الظاهر في أنها كانت تتوخى طريقاً الى أن لا تنفصل عن زوجها. وأما قوله: «والله يسمع تحاوركما» فالسمع فيه بمعناه المعروف.

والمعنى: قد استجاب الله للمرأة التي تجادلك في زوجها ـ وقد ظاهر منها ـ وتشتكي غمّها وما حلَّ بها من سوء الحال الى الله والله يسمع تراجعكما في الكلام إن الله سميع للأصوات بصير بالمبصرات.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ الخ: نفي لحكم الظهار المعروف عندهم وإلغاء لتأثيره بالطلاق والتحريم الأبدي بنفي أُمومة الزوجة للزوج بالظهار فإن سنة الجاهلية كانت تلحق الزوجة بالام بسبب الظهار فتحرم على زوجها حرمة الام على ولدها حرمة مؤبدة.

فقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ أي بحسب اعتبار الشرع بأن يلحقن شرعاً بهن بسبب الظهار فيحرمن عليهم أبداً ثم أكده بقوله: «إن أُمهاتهم إلّا اللائي ولدنهم» أي ليس أُمهات أزواجهن إلّا النساء اللاتى ولدنهم.

ثم أكد ذلك ثانياً بقوله: «وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً» بما فيه من سياق التأكيد أي وإن هؤلاء الأزواج المظاهرين ليقولون بالظهار منكراً من القول ينكره الشرع حيث لم يعتبره ولم يسنه، وكذبا باعتبار أنه لا يوافق الشرع كما لا يطابق الخارج الواقع في الكون فأفادت الآية أن الظهار لا يفيد طلاقاً وهذا لا ينافي وجوب الكفارة عليه لو أراد المواقعة بعد الظهار فالزوجية على حالها وإن حرمت المواقعة قبل الكفارة.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لا يخلو من دلالة على كونه ذنباً مغفوراً لكن ذكر الكفارة في الآية التالية مع تذييلها بقوله: «وتلك حدود الله للكافرين عذاب أليم» ربما دل على أن المغفرة مشروطة بالكفارة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ الخ: الكلام في معنى الشرط ولذلك دخلت الفاء في الخبر لأنه في معنى الجزاء والمحصل: أن الذين ظاهروا منهن ثم أرادوا العود لما قالوا فعليهم تحرير رقبة.

وفي قوله: «من قبل أن يتماسا» دلالة على أن الحكم في الآية لمن ظاهر ثم أراد الرجوع الى ما كان عليه قبل الظهار وهو قرينة على أن المراد بقوله: «يعودون لما قالوا» إرادة العود الى نقض ما أبرموه بالظهار.

والمعنى: والذين يظاهرون من نسائهم ثم يريدون أن يعودوا الى ما تكلموا به من كلمة الظهار فينقضوها بالمواقعة فعليهم تحرير رقبة من قبل أن يتماسا.

وقيل: المراد بعودهم لما قالوا ندمهم على الظهار، وفيه أن الندم عليه يصلح أن يكون محصل المعنى لا أن يكون معنى الكلمة «يعودون لما قالوا».

ثم ذيل الآية بقوله: «ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير» إيذاناً بأن ما أمر به من الكفارة توصية منه بها عن خبرة بعلمهم ذاك، فالكفارة هي التي ترتفع بها ما لحقهم من تبعة العمل.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ الى آخر الآية: خصلة ثانية من الكفارة مترتبة على الخصلة الاولى لمن لا يتمكن منها وهي صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، وقيد ثانياً بقوله: «من قبل أن يتماسا» لدفع توهم اختصاص القيد بالخصلة الاولى.

وقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ بيان للخصلة الثالثة فمن لم يطق صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكيناً وتفصيل الكلام في ذلك كله في الفقه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ما جعلناه من الحكم وافترضناه من الكفارة فأبقينا علقة الزوجية ووضعنا الكفارة لمن أراد أن يرجع الى المواقعة جزاء بما أتى

بسنة من سنن الجاهلية كل ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وترفضوا أباطيل السنن.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ حد الشيء ما ينتهي اليه ولا يتعداه وأصله المنع، والمراد أن ما افترضناه من الخصال أو ما نضعها من الأحكام حدود الله فلا تتعدوها بالمخالفة وللكافرين بما حكمنا به في الظهار أو بما شرعناه من الأحكام بالمخالفة والمحادة عذاب أليم.

والظاهر أن المراد بالكفر رد الحكم والأخذ بالظهار بما أنه سنة مؤثرة مقبولة، ويؤيده قوله: «ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله» أي تذعنوا بأن حكم الله حق وأن رسوله صادق أمين في تبليغه، وقد أكده بقوله: «وتلك حدود الله» الخ؛ ويمكن أن يكون المراد بالكفر الكفر في مقام العمل وهو العصيان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الخ؛ المحادّة الممانعة والمخالفة، والكبت الإذلال والإخزاء.

والآية والتي تتلوها وإن أمكن أن تكونا استئنافاً يبين أمر محادّة الله ورسوله من حيث تبعتها وأثرها لكن ظاهر السياق أن تكونا مسوقتين لتعليل ذيل الآية السابقة الذي معناه النهي عن محادّة الله ورسوله، والمعنى: إنما أمرناكم بالإيمان بالله ورسوله ونهيناكم عن تعدّي حدود الله والكفر بها لأن الذين يحادّون الله ورسوله بالمخالفة أُذلّوا وأُخزوا كما أُذلّ وأُخزي الذين من قبلهم.

ثم أكده بقوله: «وقد بيّنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين» أي لا ريب في كونها منا وفي أن رسولنا صادق أمين في تبليغها، وللكافرين بها الرادّين لها عذاب مهين مخزٍ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ ظرف لقوله: «وللكافرين عذاب أليم» أي لهم أليم العذاب في يوم يبعثهم الله وهو يوم الحساب والجزاء فيخبرهم بحقيقة جميع ما عملوا في الدنيا.

وقوله: ﴿أَحْصَيٰهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ الإحصاء الإحاطة بعدد الشيء من غير أن يفوت منه شيء، قال الراغب: الإحصاء التحصيل بالعدد يقال: أحصيت كذا. وذلك من لفظ الحصا، واستعمال ذلك فيه من حيث إنهم كانوا يعتمدون في العدّ كاعتمادنا فيه على الأصابع. انتهى.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعليل لقوله: «أحصاه الله» وقد مرَّ تفسير شهادة الله على كل شيء في آخر سورة حم السجدة[١].

٧ ❁ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاٰثَةٍ إِلاّٰ هُوَ رٰابِعُهُمْ وَلاٰ خَمْسَةٍ إِلاّٰ هُوَ سٰادِسُهُمْ وَلاٰ أَدْنىٰ مِنْ ذٰلِكَ وَلاٰ أَكْثَرَ إِلاّٰ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مٰا كٰانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

٨ ❁ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمٰا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنٰاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَٱلْعُدْوٰانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذٰا جٰاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمٰا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلاٰ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمٰا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهٰا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ.

٩ ❁ يٰا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا تَنٰاجَيْتُمْ فَلاٰ تَتَنٰاجَوْا بِالْإِثْمِ وَٱلْعُدْوٰانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنٰاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوىٰ وَٱتَّقُوا اللَّهَ ٱلَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

---

١. المجادلة ١ ـ ٦: بحث روائي حول قوله تعالى: «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها» طلاق الظهار.

١٠ ● إِنَّمَا النَّجْوىٰ مِنَ الشَّيْطٰانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ
بِضٰارِّهِمْ شَيْئاً إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.
١١ ● يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجٰالِسِ
فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللّٰهُ لَكُمْ وَإِذٰا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللّٰهُ
الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجٰاتٍ وَاللّٰهُ بِمٰا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.
١٢ ● يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا نٰاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ
نَجْوٰيكُمْ صَدَقَةً ذٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللّٰهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ.
١٣ ● ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰيكُمْ صَدَقٰاتٍ فَإِذْ لَمْ
تَفْعَلُوا وَتٰابَ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَآتُوا الزَّكٰوةَ
وَأَطِيعُوا اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَاللّٰهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ.

بيان:

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمٰا فِي الْأَرْضِ﴾ الإستفهام إنكاري، والمراد بالرؤية العلم اليقيني على سبيل الاستعارة، والجملة تقدمة يعلل بها ما يتلوها من كونه تعالى مع أهل النجوى مشاركاً لهم في نجواهم.

قوله تعالى: ﴿مٰا يَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاٰثَةٍ إِلاّٰ هُوَ رٰابِعُهُمْ وَلاٰ خَمْسَةٍ إِلاّٰ هُوَ سٰادِسُهُمْ﴾ الى آخر الآية: النجوى مصدر بمعنى التناجي وهو المسارة، وضمائر الإفراد لله سبحانه، والمراد بقوله: «رابعهم» و«سادسهم» جاعل الثلاثة أربعة وجاعل الخمسة ستة

بمشاركته لهم في العلم بما يتناجون فيه ومعيته لهم في الإطلاع على ما يسارون فيه كما يشهد به ما احتفَّ بالكلام من قوله في أول الآية : «ألم تر أن الله يعلم» الخ ؛ وفي آخرها من قوله : «إن الله بكل شيء عليم» .

وقوله : ﴿ وَلاَ أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ ﴾ أي ولا أقل مما ذكر من العدد ولا أكثر مما ذكر ، وبهاتين الكلمتين يشمل الكلام عدد أهل النجوى أياً ما كان أما الأدنى من ذلك فالأدنى من الثلاثة الإثنان والأدنى من الخمسة الأربعة ، وأما الأكثر فالأكثر من خمسة الستة فما فوقها .

ومن لطف سياق الآية ترتب ما أُشير اليه من مراتب العدد : والثلاثة والأربعة والخمسة والستة من غير تكرار فلم يقل : من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم ولا أربعة إلّا هو خامسهم وهكذا .

وقوله : ﴿ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ المراد به المعية من حيث العلم بما يتناجون به والمشاركة لهم فيه .

وبذلك يظهر أن المراد بكونه تعالى رابع الثلاثة المتناجين وسادس الخمسة المتناجين معيته لهم في العلم ومشاركته لهم في الاطلاع على ما يسارون لا مماثلته لهم في تتميم العدد فإن كلاً منهم شخص واحد جسماني يكون بانضمامه الى مثله عدد الإثنين والى مثليه الثلاثة والله سبحانه منزه عن الجسمية بريء من المادية .

وذلك أن مقتضى السياق أن المستثنى من قوله : «ما يكون من نجوى» الخ ؛ معنى واحد وهو أن الله لا يخفى عليه نجوى فقوله : «إلّا هو رابعهم» «إلّا هو سادسهم» في معنى قوله : «إلّا هو معهم» وهو المعية العلمية أي أنه يشاركهم في العلم ويقارنهم فيه أو المعية الوجودية بمعنى أنه كلما فرض قوم يتناجون فالله سبحانه هناك سميع عليم .

وفي قوله : «أين ما كانوا» تعميم من حيث المكان إذ لما كانت معيته تعالى لهم من حيث

العلم لا بالاقتران الجسماني لم يتفاوت الحال ولم يختلف باختلاف الأمكنة بالقرب والبعد فالله سبحانه لا يخلو منه مكان وليس في مكان.

وبما تقدم يظهر أيضاً أن ـ ما تفيده الآية من معيته تعالى لأصحاب النجوى وكونه رابع الثلاثة منهم وسادسهم الخمسة منهم لا ينافي ما تقدم تفصيلاً في ذيل قوله تعالى: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة**﴾ (المائدة / ٧٣)، من أن وحدته تعالى ليست وحدة عددية بل وحدة أحدية يستحيل معها فرض غير معه يكون ثانياً له فالمراد بكونه معهم ورابعاً للثلاثة منهم وسادساً للخمسة منهم أنه عالم بما يتناجون به وظاهر مكشوف له ما يخفونه من غيرهم لا أن له وجوداً محدوداً يقبل العد يمكن أن يفرض له ثان وثالث وهكذا.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يخبرهم بحقيقة ما عملوا من عمل ومنه نجواهم ومسارتهم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعليل لقوله: «ثم ينبئهم» الخ؛ وتأكيد لما تقدم من علمه بما في السماوات وما في الأرض، وكونه مع أصحاب النجوى.

والآية تصلح أن تكون توطئة وتمهيداً لمضمون الآيات التالية ولا يخلو ذيلها من لحن شديد يرتبط بما في الآيات التالية من الذم والتهديد.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ الى آخر الآية؛ سياق الآيات يدل على أن قوماً من المنافقين والذين في قلوبهم مرض من المؤمنين كانوا قد أشاعوا بينهم النجوى محادة للنبي ﷺ والمؤمنين يتناجون بينهم بالاثم والعدوان ومعصية الرسول وليؤذوا بذلك المؤمنين ويحزنون وكانوا يصرون على ذلك من غير أن ينتهوا بنهي فنزلت الآيات.

فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ذم وتوبيخ غيابي لهم، وقد خاطب النبي ﷺ ولم يخاطبهم أنفسهم مبالغة في تحقير أمرهم

وإبعاداً لهم عن شرف المخاطبة.

والمعنى: ألم تنظر الى الذين نهوا عن التناجي بينهم بما يغمُّ المؤمنين ويحزنهم ثم يعودون الى التناجي الذي نهوا عنه عودة بعد عودة، وفي التعبير بقوله: «يعودون» دلالة على الاستمرار. وفي العدول عن ضمير النجوى الى الموصول والصلة حيث قيل «يعودون لما نهوا عنه» ولم يقل «يعودون اليها» دلالة على سبب الذم والتوبيخ ومساءة العود لأنها أمر منهي عنه.

وقوله: ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ المقابلة بين الامور الثلاثة: الإثم والعدوان ومعصية الرسول تفيد أن المراد بالإثم هو العمل الذي له أثر سيء لا يتعدى نفس عامله كشرب الخمر والميسر وترك الصلاة مما يتعلق من المعاصي بحقوق الله، والعدوان هو العمل الذي فيه تجاوز الى الغير مما يتضرر به الناس ويتأذون مما يتعلق من المعاصي بحقوق الناس، والقسمان أعني الإثم والعدوان جميعاً من معصية الله، ومعصية الرسول مخالفته في الامور التي هي جائزة في نفسها لا أمر ولا نهي من الله فيها لكن الرسول أمر بها أو نهى عنها لمصلحة الامة بماله ولاية أُمورهم والنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم كما نهاهم عن النجوى وإن لم يشتمل على معصية.

كان ما تقدم من قوله: «الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه» ذماً وتوبيخاً لهم على نفس نجواهم بما أنها منهي عنها مع الغض عن كونها بمعصية أو غيرها: وهذا الفصل أعني قوله: «ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول» ذم وتوبيخ لهم بما يشتمل عليه تناجيهم من المعصية بأنواعها وهؤلاء القوم هم المنافقون ومرضى القلوب كانوا يكثرون من النجوى بينهم ليغتمَّ بها المؤمنون ويحزنوا ويتأذوا.

وقيل: المنافقون واليهود كان يناجي بعضهم بعضاً ليحزنوا المؤمنين ويلقوا بينهم الوحشة والفزع ويوهنوا عزمهم لكن في شمول قوله: «الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه»

لليهود خفاء.

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ فإن الله حيَّاه بالتسليم وشرع له ذلك تحية من عند الله مباركة طيبة وهم كانوا يحيونه بغيره. قالوا: هؤلاء هم اليهود كانوا إذا أتوا النبي ﷺ قالوا: السام عليك ـ والسام هو الموت ـ وهم يوهمون أنهم يقولون: السلام عليك، ولا يخلو من شيء فإن الضمير في «جاؤك» و«حيوك» للموصول في قوله: «الذين نهوا عن النجوى» وقد عرفت أن في شموله لليهود خفاء.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ معطوف على «حيوك» أو حال وظاهره أن ذلك منهم من حديث النفس مضمرين ذلك في قلوبهم، وهو تحضيض بداعي الطعن والتهكم فيكون من المنافقين إنكاراً لرسالة النبي ﷺ على طريق الكناية والمعنى: أنهم يحيونك بما لم يحيّك به الله وهم يحدثون أنفسهم بدلالة قولهم ذلك ـ ولولا يعذبهم الله به ـ على أنك لست برسول من الله ولو كنت رسوله لعذبهم بقولهم.

وقد ردَّ الله عليهم احتجاجهم بقولهم: «لولا يعذبنا الله بما نقوله» بقوله: «حسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير» أي إنهم مخطئون في نفيهم العذاب فهم معذبون بما أُعدَّ لهم من العذاب وهو جهنم التي يدخلونها ويقاسون حرَّها وكفى بها عذاباً لهم.

وكأن المنافقين ومن يلحق بهم لما لم ينتهوا بهذه المناهي والتشديدات نزل قوله تعالى: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينَّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلّا قليلاً، ملعونين أين ما ثُقفوا أُخذوا وقُتّلوا تقتيلاً﴾ الآيات، (الأحزاب / ٦١).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ الخ: لا يخلو سياق الآيات من دلالة على أن الآية نزلت في رفع الحظر وقد خوطب فيها المؤمنون فاجيز لهم النجوى واشترط عليهم أن لا يكون تناجياً بالإثم

والعدوان ومعصية الرسول وأن يكون تناجياً بالبر والتقوى والبر وهو التوسع في فعل الخير يقابل العدوان، والتقوى مقابل الإثم ثم أكد الكلام بالأمر بمطلق التقوى بإنذارهم بالحشر بقوله: «واتقوا الله الذي اليه تُحشرون».

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الخ: المراد بالنجوى ـ على ما يفيده السياق ـ هو النجوى الدائرة في تلك الأيام بين المنافقين ومرضى القلوب وهي من الشيطان فإنه الذي يزيّنها في قلوبهم ليتوسل بها الى حزنهم ويشوّش قلوبهم ليوهمهم أنها في نائبة حلّت بهم وبليّة أصابتهم.

ثم طيّب الله سبحانه قلوب المؤمنين بتذكيرهم أن الأمر الى الله سبحانه وأن الشيطان أو التناجي لا يضرُّهم شيئاً إلّا بإذن الله فليتوكلوا عليه ولا يخافوا ضرّه وقد نصَّ سبحانه في قوله: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (الطلاق / ٣) أنه يكفي من توكل عليه، واستنهضهم على التوكل بأنه من لوازم إيمان المؤمن فإن يكونوا مؤمنين فليتوكلوا عليه فهو يكفيهم. وهذا معنى قوله: «وليس بضارّهم شيئاً إلّا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون».

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الخ: التفسُّح الاتساع وكذا الفسح، والمجالس جمع مجلس اسم مكان، والاتساع في المجلس أن يتسع الجالس ليسع المكان غيره وفسح الله له أن يوسع له في الجنة.

والآية تتضمن أدباً من آداب المعاشرة، ويستفاد من سياقها أنهم كانوا يحضرون مجلس النبي ﷺ فيجلسون ركاماً لا يدع لغيرهم من الواردين مكاناً يجلس فيه فادّبوا بقوله: «إذا قيل لكم تفسّحوا» الخ: والحكم عام وإن كان مورد النزول مجلس النبي ﷺ.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم توسّعوا في المجالس ليسع المكان معكم غيركم

فتوسّعوا وسّع الله لكم في الجنة.

وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا ﴾ يتضمن أدباً آخر، والنشوز ـ كما قيل ـ الارتفاع عن الشيء بالذهاب عنه، والنشوز عن المجلس أن يقوم الإنسان عن مجلسه ليجلس فيه غيره إعظاماً له وتواضعاً لفضله.

والمعنى: وإذا قيل لكم قوموا ليجلس مكانكم من هو أفضل منكم في علم أو تقوى فقوموا.

وقوله: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ لا ريب في أن لازم رفعه تعالى درجة عبد من عباده مزيد قربه منه تعالى، وهذا قرينة عقلية على أن المراد بهؤلاء الذين أُوتوا العلم العلماء من المؤمنين فتدلّ الآية على انقسام المؤمنين الى طائفتين: مؤمن ومؤمن عالم، والمؤمن العالم أفضل وقد قال تعالى: ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ (الزمر / ٩).

وفي الآية من تعظيم أمر العلماء ورفع قدرهم ما لا يخفى. وأكد الحكم بتذييل الآية بقوله: « والله بما تعملون خبير ».

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ الخ؛ أي إذا أردتم أن تناجوا الرسول فتصدقوا قبلها.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ تعليل للتشريع نظير قوله: ﴿ وأن تصوموا خير لكم ﴾ (البقرة / ١٨٤)، ولا شك أن المراد بكونها خيراً لهم وأطهر أنها خير لنفوسهم وأطهر لقلوبهم ولعل الوجه في ذلك أن الأغنياء منهم كانوا يكثرون من مناجاة النبي ﷺ يظهرون بذلك نوعاً من التقرب اليه والاختصاص به وكان الفقراء منهم يحزنون بذلك وينكسر قلوبهم فامروا أن يتصدقوا بين يدي نجواهم على فقرائهم بما فيها من ارتباط النفوس وإثارة الرحمة والشفقة والمودة وصلة القلوب بزوال الغيظ والحنق.

وفي قوله: ﴿ ذٰلِكَ ﴾ التفات الى خطاب النبي ﷺ بين خطابين للمؤمنين وفيه تجليل لطيف له ﷺ حيث إن حكم الصدقة مرتبط بنجواه ﷺ والالتفات اليه فيما يرجع اليه من الكلام مزيد عناية به.

وقوله: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي فإن لم تجدوا شيئاً تتصدقون به فلا يجب عليكم تقديمها وقد رخص الله لكم في نجواه وعفى عنكم إنه غفور رحيم فقوله: «فإن الله غفور رحيم» من وضع السبب موضع المسبب.

وفيه دلالة على رفع الوجوب على المعدمين كما أنه قرينة على إرادة الوجوب في قوله: «فقدموا» الخ؛ ووجوبه على الموسرين.

قوله تعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰيكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ الخ: الآية ناسخة لحكم الصدقة المذكور في الآية السابقة، وفيه عتاب شديد لصحابة النبي ﷺ والمؤمنين حيث إنهم تركوا مناجاته ﷺ خوفاً من بذل المال بالصدقة فلم يناجه أحد منهم إلّا عليّ عليه السلام فإنه ناجاه عشر نجوات كلما ناجاه قدم بين يدي نجواه صدقة ثم نزلت الآية ونسخت الحكم.

والإشفاق الخشية، وقوله: «أن تقدموا» الخ؛ مفعوله والمعنى: أخشيتم التصدق وبذل المال للنجوى، واحتمل أن يكون المفعول محذوفاً والتقدير أخشيتم الفقر لأجل بذل المال.

قال بعضهم: جمع الصدقات لما أن الخوف لم يكن في الحقيقة من تقديم صدقة واحدة لأنه ليس مظنة الفقر بل من استمرار الأمر و تقديم صدقات.

وقوله: ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَآتُوا الزَّكٰوةَ ﴾ الخ؛ أي فإذ لم تفعلوا ما كلفتم به ورجع الله اليكم العفو والمغفرة فأثبتوا على امتثال سائر التكاليف من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

ففي قوله: ﴿ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ دلالة على كون ذلك منهم ذنباً ومعصية غير أنه

تعالى غفر لهم ذلك.

وفي كون قوله: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلوٰةَ﴾ الخ؛ متفرعاً على قوله: «فإذ لم تفعلوا» الخ؛ دلالة على نسخ حكم الصدقة قبل النجوى.

وفي قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللّٰهَ وَرَسُولَهُ﴾ تعميم لحكم الطاعة لسائر التكاليف بإيجاب الطاعة المطلقة، وفي قوله: «والله خبير بما تعملون» نوع تشديد يتأكد به حكم وجوب طاعة الله ورسوله[1].

١٤ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ
وَلاٰ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

١٥ ﴿ أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.

١٦ ﴿ إِتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ فَلَهُمْ عَذابٌ
مُّهِينٌ.

١٧ ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلاٰ أَوْلادُهُمْ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً أُولٰئِكَ
أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ.

١٨ ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّٰهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلىٰ شَيْءٍ أَلاٰ إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ.

١٩ ﴿ إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْسيٰهُمْ ذِكْرَ اللّٰهِ أُولٰئِكَ حِزْبُ
الشَّيْطانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ.

---

١. المجادلة ٧-١٣: بحث روائي في: تحية أهل الجاهلية: فضل العالم: النجوى.

٢٠ ● إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ.
٢١ ● كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ.
٢٢ ● لاٰ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ
عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ
وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاٰ إِنَّ حِزْبَ
اللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾الخ؛ القوم المغضوب عليهم هم اليهود، قال تعالى: ﴿من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبدَ الطاغوت﴾ (المائدة / ٦٠).

وقوله: ﴿مَّا هُمْ مِنكُمْ وَلاٰ مِنْهُمْ﴾ ضمير «هم» للمنافقين وضمير «منهم» لليهود، والمعنى: أن هؤلاء المنافقين لتذبذبهم بين الكفر والإيمان ليسوا منكم ولا من اليهود، قال تعالى: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ (النساء / ١٤٣).

وهذه صفتهم بحسب ظاهر حالهم وأما بحسب الحقيقة فهم ملحقون بمن تولوهم، قال تعالى: ﴿ومن يتولّهم منكم فإنه منهم﴾ (المائدة / ٥١)، فلا منافاة بين قوله: «ما هم منكم ولا منهم» وقوله: «فإنه منهم».

وقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يحلفون لكم على الكذب

أنهم منكم مؤمنون أمثالكم وهم يعلمون أنهم كاذبون في حلفهم.

قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الإعداد التهيئة، وقوله: «إنهم ساء» الخ؛ تعليل للإعداد، وفي قوله: «كانوا يعملون» دلالة على أنهم كانوا مستمرين في عملهم مداومين عليه.

والمعنى: هيّأ الله لهم عذاباً شديداً لاستمرارهم على عملهم السيىء.

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ الأيمان جمع يمين وهو الحلف، والجنة السترة التي يتقى بها الشر كالترس، والمهين اسم فاعل من الإهانة بمعنى الإذلال والإخزاء.

والمعنى: اتخذوا أيمانهم سترة يدفعون بها عن نفوسهم التهمة والظنة كلما ظهر منهم أمر يريب المؤمنين فصرفوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله وهو الإسلام فلهم ـ لأجل ذلك ـ عذاب مُذلّ مُخزٍ.

قوله تعالى: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي إن الذي دعاهم الى ما هم عليه متاع الحياة الدنيا الذي هو الأموال والأولاد لكنهم في حاجة الى التخلص من عذاب خالد لا يقضيها لهم إلّا الله سبحانه فهم في فقر اليه لا يغنيهم عنه أموالهم ولا أولادهم شيئاً فليؤمنوا به وليعبدوه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ الخ؛ ظرف لما تقدم من قوله: «أعد الله لهم عذاباً شديداً» أو لقوله: «أولئك أصحاب النار»، وقوله: «فيحلفون له كما يحلفون لكم» أي يحلفون لله يوم البعث كما يحلفون لكم في الدنيا.

وقد قدمنا في تفسير قوله تعالى: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلّا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ (الأنعام / ٢٣) أن حلفهم على الكذب يوم القيامة مع ظهور حقائق الامور يومئذ

من ظهور ملكاتهم هناك لرسوخها في نفوسهم في الدنيا فقد اعتادوا فيها على إظهار الباطل على الحق بالأيمان الكاذبة وكما يعيشون يموتون وكما يموتون يبعثون.

ومن هذا القبيل سؤالهم الرد الى الدنيا يومئذ، والخروج من النار وخصامهم في النار وغير ذلك مما يقصُّه القرآن الكريم، وهم يشاهدون مشاهدة عيان أن لا سبيل الى شيء من ذلك واليوم يوم جزاء لا يوم عمل.

وأما قوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي مستقرون على شيء يصلح أن يستقر عليه ويتمكن فيه فيمكنهم الستر على الحق والمنع عن ظهور كذبهم بمثل الإنكار والحلف الكاذب.

فيمكن أن يكون قيداً لقوله: «كما يحلفون لكم» فيكون إشارة الى وصفهم في الدنيا وأنهم يحسبون أن حلفهم لكم ينفعهم ويرضيكم، ويكون قوله: «ألا إنهم هم الكاذبون» قضاءٌ منه تعالى في حقهم بأنهم كاذبون فلا يصغى الى ما يهذون به ولا يعتنى بما يحلفون به.

ويمكن أن يكون قيداً لقوله: «فيحلفون له» فيكون من قبيل ظهور الملكات يومئذ كما تقدم في معنى حلفهم آنفاً، ويكون قوله: «ألا إنهم هم الكاذبون» حكماً منه تعالى بكذبهم يوم القيامة أو مطلقاً.

قوله تعالى: ﴿إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَيٰهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَـٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الاستحواذ الاستيلاء والغلبة، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ تعليل لكونهم هم الخاسرين أي إنما كانوا خاسرين لأنهم يحادُّون الله ورسوله بالمخالفة والمعاندة والمحادُّون لله ورسوله في جملة الأذلِّين من خلق الله تعالى.

قيل: إنما كانوا في الأذلِّين لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر وإذ كانت العزة

لله جميعاً فلا يبقى لمن حادّه إلّا الذلة محضاً.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الكتابة هي القضاء منه تعالى.

وظاهر إطلاق الغلبة شمولها للغلبة من حيث الحجة ومن حيث التأييد الغيبي ومن حيث طبيعة الإيمان بالله ورسوله.

أما من حيث الحجة فإن الإنسان مفطور على صلاحية إدراك الحق والخضوع له فلو بيّن له الحق من السبيل التي يألفها لم يلبث دون أن يعقله وإذا عقله اعترفت له فطرته وخضعت له طويّته وإن لم يخضع له عملاً اتباعاً لهوىً أو أي مانع يمنعه عن ذلك.

وأما الغلبة من حيث التأييد الغيبي والقضاء للحق على الباطل فيكفي فيها أنواع العذاب التي أنزلها الله تعالى على مكذبي الامم الماضين كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وعلى آل فرعون وغيرهم ممن يشير تعالى اليهم بقوله: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أُمة رسولها كذّبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبُعداً لقوم لا يؤمنون﴾ (المؤمنون / ٤٤)، وعلى ذلك جرت السنة الالهية وقد أجمل ذكرها في قوله: ﴿ولكل أُمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ (يونس / ٤٧).

وأما الغلبة من حيث طبيعة الإيمان بالله ورسوله فإن إيمان المؤمن يدعوه الى الدفاع والذّبّ عن الحق والمقاومة تجاه الباطل مطلقاً وهو يرى أنه إن قَتَل فاز وإن قُتِل فاز فثباته على الدفاع غير مقيد بقيد ولا محدود بحدّ وهذا بخلاف من يدافع لا عن الحق بما هو حق بل عن شيء من المقاصد الدنيوية فإنه إنما يدافع لأجل نفسه فلو شاهد نفسه مشرفة على هلكة أو راكبة مخاطرة تولى منهزماً فهو إنما يدافع على شرط والى حد وهو سلامة النفس وعدم الإشراف على الهلكة ومن الضروري أن العزيمة المطلقة تغلب العزيمة المقيدة بقيد المحدودة بحد ومن الشاهد عليه غزوات رسول الله ﷺ بما أدّت اليه من الفتح والظفر في عين أنها كانت سجالاً

لكن لم تنتهِ إلاّ الى تقدُّم المسلمين وغلبتهم.

ولم تقف الفتوحات الإسلامية ولا تفرّقت جموع المسلمين أيادي سبأ إلاّ بفساد نيّاتهم وتبديل سيرة التقوى والإخلاص لله وبسط الدين الحق من بسط السلطة وتوسعة المملكة ﴿ ذلك بأن الله لم يكُ مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾[1] وقد اشترط الله عليهم حين أكمل دينهم وأمّنهم من عدوهم أن يخشوه إذ قال: «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشوني».

ويكفي في تسجيل هذه الغلبة قوله تعالى فيما يخاطب المؤمنين: ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (آل عمران / ١٣٩).

قوله تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ الخ: نفي وجدان قوم على هذه الصفة كناية عن أن الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر لا يجامع موادّة أهل المحادّة والمعاندة من الكفار ولو قارن أي سبب من أسباب المودة كالابوة والبنوة والاخوة وسائر أقسام القرابة فبين الإيمان وموادة أهل المحادة تضادّ لا يجتمعان لذلك.

وقد بان أن قوله: «ولو كانوا آباءهم» الخ: إشارة الى أسباب المودة مطلقاً وقد خصّت مودة النسب بالذكر لكونه أقوى أسباب المودة من حيث ثباته وعدم تغيره.

وقوله: «اولئك كتب في قلوبهم الإيمان» الإشارة الى القوم بما ذكر لهم من الصفة، والكتابة الإثبات بحيث لا يتغير ولا يزول والضمير لله وفيه نص على أنهم مؤمنون حقاً.

وقوله: ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ التأييد التقوية، وضمير الفاعل في «أيّدهم» لله تعالى وكذا ضمير «منه» و«من» ابتدائية، والمعنى: وقوّاهم الله بروح من عنده تعالى، وقيل:

---

١. الأنفال: ٥٣.

الضمير للإيمان، والمعنى: وقوّاهم الله بروح من جنس الإيمان يحيي بها قلوبهم، ولا بأس به.

ثم الروح ـ على ما يتبادر من معناها ـ هي مبدأ الحياة التي تترشح منها القدرة والشعور فإبقاء قوله: «وأيّدهم بروح منه» على ظاهره يفيد أن للمؤمنين وراء الروح البشرية التي يشترك فيها المؤمن والكافر روحاً اخرى تفيض عليهم حياة اخرى وتصاحبها قدرة وشعور جديدان. والى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ (الأنعام / ١٢٢)، وقوله: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أُنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة﴾ (النحل / ٩٧).

وما في الآية من طيب الحياة يلازم طيب أثرها وهو القدرة والشعور المتفرع عليها الأعمال الصالحة. وهما المعبر عنهما في آية الأنعام المذكورة آنفاً بالنور ونظيرها قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ (الحديد / ٢٨).

وهذه حياة خاصة كريمة لها آثار خاصة ملازمة لسعادة الإنسان الأبدية وراء الحياة المشتركة بين المؤمن والكافر التي لها آثار مشتركة فلها مبدأ خاص وهو روح الإيمان التي تذكرها الآية وراء الروح المشتركة بين المؤمن والكافر.

وعلى هذا فلا موجب لما ذكروا أن المراد بالروح نور القلب وهو نور العلم الذي يحصل به الطمأنينة وأن تسميته روحاً مجاز مرسل لأنه سبب للحياة الطيبة الأبدية أو من الاستعارة لأنه في ملازمته وجوه العلم الفائض على القلب ـ والعلم حياة القلب كما أن الجهل موته ـ يشبه الروح المفيض للحياة. انتهى.

وقوله: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وعد جميل ووصف لحياتهم الآخرة الطيبة.

وقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ استئناف يعلل قوله: «ويدخلهم

جنات» الخ: ورضا الله سبحانه عنهم رحمته لهم لإخلاصهم الإيمان له ورضاهم عنه وابتهاجهم بما رزقهم من الحياة الطيبة والجنة.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تشريف لهؤلاء المخلصين في إيمانهم بأنهم حزبه تعالى كما أن أُولئك المنافقين الموالين لأعداء الله حزب الشيطان وهؤلاء مفلحون كما أن أُولئك خاسرون.

وفي قوله: «ألا إن حزب الله» وضع الظاهر موضع الضمير ليجري الكلام مجرى المثل السائر[1].

---

١. المجادلة ١٤ ـ ٢٢: بحث روائي حول غلبة لله ورسله؛ الحب في الله والبغض في الله؛ روح الايمان.

سورة الحشر مدنية وهي أربع وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ.

٢ • هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَيهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي ٱلْأَبْصَارِ.

٣ • وَلَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ.

٤ • ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ.

٥ ● ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلىٰ أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللّٰهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفاسِقِينَ.

٦ ● وَما أَفاءَ اللّٰهُ عَلىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلىٰ مَنْ يَشاءُ وَاللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٧ ● ما أَفاءَ اللّٰهُ عَلىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرىٰ فَلِلّٰهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبىٰ وَٱلْيَتامىٰ وَٱلْمَساكِينِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتيكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَٱتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ ٱلْعِقابِ.

٨ ● لِلْفُقَراءِ ٱلْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّٰهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُرُونَ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ.

٩ ● وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدّارَ وَٱلْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ.

١٠ ● وَالَّذِينَ جاؤُا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا ٱغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ افتتاح مطابق لما في مختتم السورة من قوله: «يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم».

وإنما افتتح بالتنزيه لما وقع في السورة من الإشارة الى خيانة اليهود ونقضهم العهد ثم وعد المنافقين لهم بالنصر غدراً كمثل الذين كانوا من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم، وبالنظر الى ما أذاقهم الله من وبال كيدهم، وكون ذلك على ما يقتضيه الحكمة والمصلحة ذيّل الآية بقوله: «وهو العزيز الحكيم».

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ تأييد لما ذكر في الآية السابقة من تنزّهه تعالى وعزّته وحكمته. والمراد بإخراج الذين كفروا من أهل الكتاب إجلاء بني النضير حيّ من أحياء اليهود كانوا يسكنون خارج المدينة وكان بينهم وبين النبي ﷺ عهد أن لا يكونوا له ولا عليه ثم نقضوا العهد فأجلاهم النبي ﷺ وسيأتي قصتهم في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

والحشر إخراج الجماعة بإزعاج، و«لأول الحشر» من إضافة الصفة الى الموصوف، واللام بمعنى في كقوله: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ (الإسراء / ٧٨).

والمعنى: الله الذي أخرج بني النضير من اليهود من ديارهم في أول إخراجهم من جزيرة العرب.

ثم أشار تعالى الى أهمية إخراجهم بقوله: «ما ظننتم أن يخرجوا» لما كنتم تشاهدون فيهم من القوة والشدة والمنعة «وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله» فلن يغلبهم الله وهم متحصنون فيها وعدّ حصونهم بحسب ظنهم مانعة من الله لا من المسلمين لما أن إخراجهم منها

منسوب في الآيه السابقة اليه تعالى وكذا إلقاء الرعب في قلوبهم في ذيل الآية. وفي الكلام دلالة على أنه كانت لهم حصون متعددة.

ثم ذكر فساد ظنهم وخبطهم في مزعمتهم بقوله: «فأتيهم الله من حيث لم يحتسبوا» والمراد به نفوذ إرادته تعالى فيهم لا من طريق احتسبوه وهو طريق الحصون والأبواب بل من طريق باطنهم وهو طريق القلوب «وقذف في قلوبهم الرعب» والرعب الخوف الذي يملأ القلب «يخربون بيوتهم بأيديهم» لئلا تقع في أيدي المؤمنين بعد خروجهم وهذه من قوة سلطانه تعالى عليهم حيث أجرى ما أراده بأيدي أنفسهم «وأيدي المؤمنين» حيث أمرهم بذلك ووفقهم لامتثال أمره وإنفاذ إرادته «فاعتبروا» وخذوا بالعظة «يا أُولي الأبصار» بما تشاهدون من صنع الله العزيز الحكيم بهم قبال مشاقتهم له ورسوله.

وقيل: كانوا يخربون البيوت ليهربوا ويخربها المؤمنون ليصلوا.

وقيل: المراد بتخريب البيوت اختلاف نظام حياتهم فقد خربوا بيوتهم بأيديهم حيث نقضوا الموادعة، وبأيدي المؤمنين حيث بعثوهم على قتالهم.

وفيه أن ظاهر قوله: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ﴾ الخ؛ أنه بيان لقوله: «فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا» الخ؛ من حيث أثره فهو متأخر عن نقض الموادعة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ الجلاء ترك الوطن وكتابة الجلاء عليهم قضاؤه في حقهم، والمراد بعذابهم في الدنيا عذاب الاستئصال أو القتل والسبي.

والمعنى: ولولا أن قضى الله عليهم الخروج من ديارهم وترك وطنهم لعذبهم في الدنيا بعذال الاستئصال أو القتل والسبي كما فعل ببني قريظة ولهم في الآخرة عذاب النار.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ المشاقة المخالفة بالعناد، والإشارة بذلك الى ما ذكر من إخراجهم

واستحقاقهم العذاب لو لم يكتب عليهم الجلاء، وفي تخصيص مشاقتهم بالله في قوله: «ومن يشاق الله» بعد تعميمه لله ورسوله في قوله: «شاقوا الله ورسوله» تلويح الى أن مشاقة الرسول مشاقة الله والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿مٰا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهٰا قٰائِمَةً عَلىٰ أُصُولِهٰا فَبِإِذْنِ اللّٰهِ وَلِيُخْزِيَ الْفٰاسِقِينَ﴾ ذكر الراغب أن اللينة النخلة الناعمة من دون اختصاص منه بنوع منها دون نوع، رووا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر بقطع نخيلهم فلما قطع بعضها نادوه: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال النخيل تقطع فنزلت الآية فاجيب عن قولهم بأن ما قطعوا من نخلة أو تركوها قائمة على أصولها فبإذن الله ولله في حكمه هذا غايات حقة وحكم بالغة منها إخزاء الفاسقين وهم بنو النضير.

فقوله: ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفٰاسِقِينَ﴾ اللام فيه للتعليل وهو معطوف على محذوف والتقدير: القطع والترك بإذن الله ليفعل كذا وكذا وليخزي الفاسقين فهو كقوله: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ (الأنعام / ٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَمٰا أَفٰاءَ اللّٰهُ عَلىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمٰا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاٰ رِكٰابٍ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ﴾ الخ: الإفادة الإرجاع من الفيء بمعنى الرجوع، وضمير «منهم» لبني النضير والمراد من أموالهم.

وإيجاف الدابة تسييرها بإزعاج وإسراع والخيل الفرس، والركاب الابل و«من خيل ولا ركاب» مفعول «فما أوجفتم» و«من» زائدة للاستغراق.

والمعنى: والذي أرجعه الله الى رسوله من أموال بني النضير ـ خصه به وملكه وحده إياه ـ فلم تسيروا عليه فرساً ولا إبلاً بالركوب حتى يكون لكم فيه حق بل مشيتم الى حصونهم مشاة لقربها من المدينة، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير وقد سلط النبي صلى الله عليه وآله وسلم على بني النضير فله فيئهم يفعل فيه ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الخ: ظاهره أنه بيان لموارد مصرف الفيء المذكور في الآية السابقة مع تعميم الفيء لفيء أهل القرى أعم من بني النضير وغيرهم.

وقوله: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي منه ما يختص بالله والمراد به صرفه وإنفاقه في سبيل الله على ما يراه الرسول ومنه ما يأخذه الرسول لنفسه ولا يصغى الى قول من قال: إن ذكره تعالى مع أصحاب السهام لمجرد التبرك.

وقوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الخ: المراد بذي القربى قرابة النبي ﷺ، ولا معنى لحمله على قرابة عامة المؤمنين وهو ظاهر، والمراد باليتامى الفقراء منهم كما يشعر به السياق وإنما أُفرد وقدم على «المساكين» مع شموله له اعتناء بأمر اليتامى.

وقد ورد عن أئمة أهل البيت ﵈ أن المراد بذي القربى أهل البيت واليتامى والمساكين وابن السبيل منهم.

وقوله: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ أي أنما حكمنا في الفيء بما حكمنا كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم والدولة ما يتداول بين الناس ويدور يداً بيد.

وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ أي ما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه كما أعطى منه المهاجرين ونفراً من الأنصار، وما نهاكم عنه ومنعكم فانتهوا ولا تطلبوا. وفيه إشعار بأنهم سألوا النبي ﷺ أن يقسّم الفيء بينهم جميعاً فأرجعه الى نبيه وجعل موارد مصرفه ما ذكره في الآية وجعل للنبي ﷺ أن ينفقه فيها على ما يرى.

والآية مع الغضّ عن السياق عامة تشمل كل ما آتاه النبي ﷺ من حكم فأمر به أو نهى عنه.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تحذير لهم عن مخالفة النبي ﷺ

تأكيداً لقوله: «وما آتاكم الرسول» الخ.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾ الخ؛ قيل: إن قوله: «للفقراء» بدل من قوله: «ذي القربى» وما بعده وذكر «الله» لمجرد التبرك فيكون الفيء مختصاً بالرسول والفقراء من المهاجرين، وقد وردت الرواية أن النبي ﷺ قسّم فيء بني النضير بين المهاجرين ولم يعط منه الأنصار شيئاً إلّا رجلين من فقرائهم أو ثلاثة.

والأنسب لما تقدم نقله عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن يكون قوله: «للفقراء المهاجرين» الخ؛ بيان مصداق لصرف سبيل الله الذي أُشير اليه بقوله: «فللّه» لا بأن يكون الفقراء المهاجرون أحد السهاء في الفيء بل بأن يكون صرفه فيهم وإعطاؤهم إياه صرفاً له في سبيل الله.

ومحصل المعنى على هذا: أن الله سبحانه أفاء الفيء وأرجعه الى النبي ﷺ فله أن يتصرف فيه كيف يشاء ثم دلّه على موارد صرفه وهي سبيل الله والرسول وذو القربى ويتاماهم ومساكينهم وابن السبيل منهم ثم أشار الى مصداق الصرف في السبيل أو بعض مصاديقه وهم الفقراء المهاجرون، الخ؛ ينفق منه الرسول لهم على ما يرى.

وعلى هذا ينبغي أن يحمل ما ورد أن النبي ﷺ قسّم فيء بني النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئاً إلّا ثلاثة من فقرائهم: أبا دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة فقد صرف فيهم بما أنه صرف في سبيل الله لا بما أنهم سهماء في الفيء.

وكيف كان فقوله: «للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم» المراد بهم من هاجر من المسلمين من مكة الى المدينة قبل الفتح وهم الذين أخرجهم كفار مكة بالاضطرار الى الخروج فتركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا الى مدينة الرسول.

وقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾ الفضل الرزق أي يطلبون من الله رزقاً في الدنيا ورضواناً في الآخرة.

وقوله: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ينصرونه ورسوله بأموالهم وأنفسهم، وقوله: «اولئك هم الصادقون» تصديق لصدقهم في أمرهم وهم على هذه الصفات.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ الخ؛ قيل: إنه استئناف مسوق لمدح الأنصار لتطيب بذلك قلوبهم إذ لم يشركوا في الفيء، «والذين تبوّؤا» ـ والمراد بهم الأنصار ـ مبتدأ خبره «يحبون» الخ؛ والمراد بتبوّي الدار وهو تعميرها بناء مجتمع ديني يأوي اليه المؤمنون على طريق الكناية، والايمان معطوف على «الدار» وتبوّي الايمان وتعميره رفع نواقصه من حيث العمل بحيث يستطاع العمل بما يدعو اليه من الطاعات والقربات من غير حجر ومنع كما كان بمكة.

واحتمل أن يعطف «الايمان» على تبوّؤا وقد حذف الفعل العامل فيه، والتقدير: وآثروا الايمان.

وقيل: إن قوله: «والذين تبوّؤا» الخ؛ معطوف على قوله: «المهاجرين» وعلى هذا يشارك الأنصار المهاجرين في الفيء، والإشكال عليه بأن المروي أن النبي ﷺ قسمه بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منه شيئاً إلّا ثلاثة من فقرائهم مدفوع بأن الرواية من شواهد العطف دون الاستئناف إذ لو لم يجز إعطاؤه للأنصار لم يجز لا ـ للثلاثة ولا للواحد فإعطاء بعضهم منه دليل على مشاركتهم لهم غير أن الأمر لما كان راجعاً الى النبي ﷺ كان له أن يصرفه كيف يشاء فرجح أن يقسمه بينهم على تلك الوتيرة.

والأنسب لما تقدم من كون «للفقراء» الخ؛ بياناً لمصاديق سهم السبيل هو عطف «والذين تبوّؤا» الخ؛ وكذا قوله الآتي: «والذين جاؤا من بعدهم» على قوله: «المهاجرين» الخ؛ دون الاستئناف.

بل ما ورد من إعطائه ﷺ للثلاثة يؤيد هذا الوجه بعينه إذ لو كان السهم فيه الفقراء المهاجرين فحسب لم يعط الأنصار ولا لثلاثة منهم، ولو كان للفقراء من الأنصار كالمهاجرين

فيه سهم ـ وظاهر الآية أن جمعاً منهم كانوا فقراء بهم خصاصة والتاريخ يؤيده ـ لأعطى غير الثلاثة من فقراء الأنصار ما أعطى فقراء المهاجرين واستوعبهم.

فقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ضمير «من قبلهم» للمهاجرين والمراد من قبل مجيئهم وهجرتهم الى المدينة.

وقوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي يحبون من هاجر اليهم لأجل هجرتهم من دار الكفر الى دار الايمان ومجتمع المسلمين.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ ضميرا «يجدون» و «صدورهم» للأنصار، وضمير «أُوتوا» للمهاجرين، والمراد بالحاجة ما يحتاج اليه و «من» تبعيضية وقيل: بيانية والمعنى: لا يخطر ببالهم شيء مما أُعطيه المهاجرون فلا يضيق نفوسهم من تقسيم الفيء بين المهاجرين دونهم ولا يحسدون.

وقيل: المراد بالحاجة ما يؤدي اليه الحاجة وهو الغيظ.

وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ إيثار الشيء اختياره وتقديمه على غيره، والخصاصة الفقر والحاجة، قال الراغب: خصاص البيت فرجه وعبر عن الفقر الذي لم يسد بالخصاصة كما عبر عنه بالخلة انتهى.

والمعنى: ويقدمون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم فقر وحاجة، وهذه الخصيصة أغزر وأبلغ في مدحهم من الخصيصة السابقة فالكلام في معنى الإضراب كأنه قيل: إنهم لا يطمحون النظر فيما بأيدي المهاجرين بل يقدمونهم على أنفسهم فيما بأيديهم أنفسهم في عين الفقر والحاجة.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال الراغب: الشح بخل مع حرص فيما كان عادة انتهى. و «يوق» فعل مضارع مجهول من الوقاية بمعنى الحفظ، والمعنى: ومن يحفظ ـ أي يحفظه الله ـ من ضيق نفسه من بذل ما بيده من المال أو من وقوع مال

في يد غيره فاولئك هم المفلحون.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ استئناف أو عطف نظير ما تقدم في قوله: «والذين تبوؤا الدار والايمان يحبون» وعلى الاستئناف فالموصول مبتدأ خبره قوله: «يقولون ربنا» الخ.

والمراد بمجيئهم بعد المهاجرين والأنصار إيمانهم بعد انقطاع الهجرة بالفتح وقيل: المراد أنهم خلفوهم.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ دعاء لأنفسهم والسابقين من المؤمنين بالمغفرة، وفي تعبيرهم عنهم بإخواننا إشارة الى أنهم يعدونهم من أنفسهم كما قال الله تعالى: ﴿بعضكم من بعض﴾ (النساء / ٢٥)، فهم يحبونهم كما يحبون أنفسهم ويحبون لهم ما يحبون لأنفسهم.

ولذلك عقبوه بقولهم: «ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك روف رحيم» فسألوا أن لا يجعل الله في قلوبهم غلاً للذين آمنوا والغل العداوة.

وفي قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ تعميم لعامة المؤمنين منهم وممن سبقهم وتلويح الى أنه لا بغية لهم إلّا الايمان[1].

١١ ❁ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

---

١. الحشر ١ ـ ١٠: بحث روائي حول طوائف من اليهود كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد ومدة فنقضوا عهدهم: الفيء والانفال؛ ذي القربى؛ الايمان والاسلام والكفر.

١٢ ● لَئِنْ أُخْرِجُوا لاٰ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاٰ يَنْصُرُونَهُمْ
وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبارَ ثُمَّ لاٰ يُنْصَرُون.

١٣ ● لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللّٰهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ
يَفْقَهُونَ.

١٤ ● لاٰ يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلّاٰ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرٰاءِ جُدُرٍ
بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتّىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لاٰ يَعْقِلُونَ.

١٥ ● كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذٰاقُوا وَبٰالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذٰابٌ
أَلِيمٌ.

١٦ ● كَمَثَلِ الشَّيْطٰانِ إِذْ قٰالَ لِلْإِنْسٰانِ اكْفُرْ فَلَمّٰا كَفَرَ قٰالَ إِنِّي بَرِيءٌ
مِنْكَ إِنِّي أَخٰافُ اللّٰهَ رَبَّ ٱلْعٰالَمِينَ.

١٧ ● فَكٰانَ عٰاقِبَتَهُمٰا أَنَّهُمٰا فِي النّٰارِ خٰالِدَيْنِ فِيهٰا وَذٰلِكَ جَزٰاءُ
الظّٰالِمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نٰافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوٰانِهِم الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتٰابِ﴾ الخ: الإخوان كالإخوة جمع أخ والأخوة الاشتراك في الانتساب الى أب ويتوسع فيه يستعمل في المشتركين في اعتقاد أو صداقة ونحو ذلك، ويكثر استعمال الإخوة في المشتركين في النسبة الى أب واستعمال الإخوان في المشتركين في اعتقاد ونحوه على ما قيل.

والاستفهام في الآية للتعجيب، والمراد بالذين نافقوا عبدالله بن أُبيّ وأصحابه، والمراد

بإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بنو النضير على ما يؤيده السياق فإن مفاد الآيات أنهم كانوا قوماً من أهل الكتاب دار أمرهم بين الخروج والقتال بعد قوم آخر كذلك وليس إلّا بني النضير بعد بني قينقاع.

وقوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاٰ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ مقول قول المنافقين، واللام في «لئن أُخرجتم» للقسم أي نقسم لئن أخرجكم المسلمون من دياركم لنخرجنّ من ديارنا معكم ملازمين لكم ولا نطيع فيكم أي في شأنكم أحداً يشير علينا بمفارقتكم أبداً، وإن قاتلكم المسلمون للنصرنكم عليهم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ تكذيب لوعد المنافقين، وتصريح بأنهم لا يفون بوعدهم.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لاٰ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاٰ يَنْصُرُونَهُمْ﴾ تكذيب تفصيلي لوعدهم بعد تكذيبه الإجمالي بقوله: «والله يشهد إنهم لكاذبون» وقد كرر فيه لام القسم. والمعنى: أُقسم لئن أُخرج بنو النضير لا يخرج معهم المنافقون، وأُقسم لئن قوتلوا لا ينصرونهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لاٰ يُنْصَرُونَ﴾ إشارة الى أن نصرهم على تقدير وقوعه منهم ـ ولن يقع أبداً ـ لا يدوم ولا ينفعهم بل يولون الأدبار فراراً ثم لا ينصرون بل يهلكون من غير أن ينصرهم أحد.

قوله تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ الخ: ضمائر الجمع للمنافقين، والرهبة الخشية، والآية في مقام التعليل لقوله: «ولئن نصروهم ليولّنّ الأدبار» أي ذلك لأنهم يرهبونكم أشد من رهبتهم لله فلا يقاومونكم لو قاتلتم ولا يثبتون لكم.

وعلل ذلك بقوله: «ذلك بأنهم قوم لا يفقهون» والإشارة بذلك الى كون رهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله أي رهبتهم لكم كذلك لأنهم قوم لا يفهمون حق الفهم ولو فقهوا حقيقة

الأمر بان لهم أن الأمر الى الله تعالى وليس لغيره من الأمر شيء سواء في ذلك المسلمون وغيرهم. ولا يقوى غيره تعالى على عمر خير أو شر أو نافع أو ضار إلاّ بحول منه تعالى وقوة فلا ينبغي أن يرهب إلاّ هو عزّ وجل.

قوله تعالى: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ بيان لأثر رهبتهم وجبنهم جميعاً والمعنى: لا يقاتلكم بنو النضير والمنافقون جميعاً بأن يبرزوا بل في قرى حصينة محكمة أو من وراء جدر من غير بروز.

وقوله: ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي هم فيما بينهم شديدوا البطش غير أنهم إذا برزوا لحربكم وشاهدوكم يجبنون بما ألق الله في قلوبهم من الرعب.

وقوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي تظن أنهم مجتمعون في ألفة واتحاد والحال أن قلوبهم متفرقة غير متحدة وذلك أقوى عامل في الخزي والخذلان. ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ولو عقلوا لاتحدوا ووحدوا الكلمة.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الوبال العاقبة السيئة وقوله: «قريباً» قائم مقام الظروف منصوب على الظرفية أي في زمان قريب.

وقوله: ﴿كَمَثَلِ﴾ الخ: خبر مبتدأ محذوف والتقدير «مثلهم كمثل» الخ؛ والمعنى: مثلهم أي مثل بني النضير من اليهود في نقضهم العهد ووعد المنافقين لهم بالنصر كذباً ثم الجلاء مثل الذين من قبلهم في زمان قريب وهم بنو قينقاع رهط آخر من يهود المدينة نقضوا العهد بعد غزوة بدر فأجلاهم رسول الله ﷺ الى أذرعات وقد كان وعدهم المنافقون أن يكلموا النبي ﷺ فيهم ويمنعوه من إجلائهم فغدروا بهم فذاق بنو قينقاع وبال أمرهم ولهم في الآخرة عذاب أليم وقيل: المراد بالذين من قبلهم كفار مكة يوم بدر وما تقدم أنسب للسياق.

والمثل على أي حال مثل لبني النضير لا للمنافقين على ما يعطيه السياق.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ الخ؛ ظاهر السياق أنه مثل للمنافقين في غرورهم بني النضير بوعد النصر ثم خذلانهم عند الحاجة.

وظاهر السياق يفيد أن المراد بالشيطان والإنسان الجنس والإشارة الى غرور الشيطان للإنسان بدعوته الى الكفر بتزيين أمتعة الحياة له وتسويل الإعراض عن الحق بمواعيد الكاذبة والأماني السرابية حتى إذا طلعت له طلائع الآخرة وعاين أن ما اغتر به من أماني الحياة الدنيا لم يكن إلّا سراباً يغره وخيالاً يلعب به تبرأ منه الشيطان ولم يف بما وعده وقال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين.

وبالجملة مثل المنافقين في دعوتهم بني النضير الى مخالفة النبي ﷺ ووعدهم النصر ثم الغدر بهم وخلف الوعد كمثل هذا الشيطان في دعوة الإنسان الى الكفر بمواعيده الكاذبة ثم تبريه منه بعد الكفر عند الحاجة.

وقيل: المراد بالتمثيل الإشارة الى قصة برصيصا العابد الذي زين له الشيطان الفجور ففجر بامرأة ثم كفر وسيأتي القصة في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

وقيل: المثل السابق المذكور في قوله: «كمثل الذين من قبلهم قريباً» مثل كفار مكة يوم بدر ـ كما تقدم ـ والمراد بالإنسان في هذا المثل أبو جهل وبقول الشيطان له أكفر ما قصه الله تعالى بقوله في القصة: **﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾** (الأنفال / ٤٨).

وعلى هذا الوجه فقول الشيطان «إني أخاف الله رب العالمين» قول جدي لأنه كان يخاف تعذيب الملائكة النازلين لنصرة المؤمنين ببدر وأما على الوجهين الأولين فهو نوع من

الاستهزاء والإخزاء.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ الظاهر أن ضمائر التثنية للشيطان والانسان المذكورين في المثل في الآية بيان عاقبة الشيطان في غروره الانسان وإضلاله والانسان في اغتراره به وضلاله، وإشارة الى أن ذلك عاقبة المنافقين في وعدهم لبني النضير وغدرهم بهم وعاقبة بني النضير في اغترارهم بوعدهم الكاذب وإصرارهم على المشاقة والمخالفة، ومعنى الآية ظاهر.

١٨ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.

١٩ ● وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ.

٢٠ ● لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ.

٢١ ● لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.

٢٢ ● هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ.

٢٣ ● هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

٢٤ ● هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ

يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الى آخر الآية؛ أمر للمؤمنين بتقوى الله وبأمر آخر وهو النظر في الأعمال التي قدموها ليوم الحساب أهي صالحة فليرج بها ثواب الله أو طالحة فليخشَ عقاب الله عليها ويتدارك بالتوبة والإنابة وهو محاسبة النفس.

أما التقوى وقد فسّر في الحديث بالورع عن محارم الله فحيث تتعلق بالواجبات والمحرمات جميعاً كانت هي الاجتناب عن ترك الواجبات وفعل المحرمات.

وأما النظر فيما قدمت النفس لغد فهو أمر آخر وراء التقوى نسبته الى التقوى كنسبة النظر الإصلاحي ثانياً من عامل في عمله أو صانع فيما صنعه لتكميله ورفع نواقصه التي غفل عنها أو أخطأ فيها حين العمل والصنع.

فعلى المؤمنين جميعاً أن يتقوا الله فيما وجّه اليهم من التكاليف فيطيعوه ولا يعصوه ثم ينظروا فيما قدموه من الأعمال التي يعيشون بها في غد بعد ما حوسبوا بها أصالح فيرجي ثوابه أم طالح فيخاف عقابه فيتوبوا الى الله ويستغفروه.

وهذا تكليف عام يشمل كل مؤمن لحاجة الجميع الى إصلاح العمل وعدم كفاية نظر بعضهم عن نظر الآخرين غير أن القائم به من أهل الإيمان في نهاية القلة بحيث يكاد يلحق بالعدم والى ذلك يلوح لفظ الآية «ولتنظر نفس».

فقوله: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ خطاب عام لجميع المؤمنين لكن لما كان المشتغل بهذا النظر من بين أهل الإيمان بل من بين أهل التقوى منهم في غاية القلة بل يكاد يلحق بالعدم لاشتغالهم بأعراض الدنيا واستغراق أوقاتهم في تدبير المعيشة وإصلاح امور

الحياة ألق الخطاب في صورة الغيبة وعلّقه بنفس مّا منكّرة فقال: «ولتنظر نفس» وفي هـذا النوع من الخطاب مع كون التكليف عاماً بحسب الطبع عتاب وتقريع للمؤمنين مع التلويح الى قلة من يصلح لامتثاله منهم.

وقوله: ﴿مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ استفهام من ماهية العمل الذي قدَّمت لغد وبيان للنظر، ويمكن أن تكون «ما» موصولة وهي وصلتها متعلقاً بالنظر.

والمراد بغد يوم القيامة وهو يوم حساب الأعمال وإنما عبّر عنه بغد للإشارة الى قربه منهم كقرب الغد من أمسه، قال تعالى: ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ (المعارج / ٧).

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله بطاعته في جميع ما يأمركم به وينهاكم عنه، ولتنظر نفس منكم فيما عملته من عمل ولترَ ما الذي قدمته من عملها ليوم الحساب أهو عمل صالح أو طالح وهل عملها الصالح صالح مقبول أو مردود.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أمر بالتقوى ثانياً و«إن الله خبير» الخ: تعليل له وتعليل هذه التقوى بكونه تعالى خبيراً بالأعمال يعطي أن المراد بهذه التقوى المأمور بها ثانياً هي التقوى في مقام المحاسبة والنظر فيها من حيث إصلاحها وإخلاصها لله سبحانه وحفظها عما يفسدها، وأما قوله في صدر الآية: «اتقوا الله» فالمراد به التقوى في أصل إتيان الأعمال بقصرها في الطاعات وتجنُّب المعاصي.

ومن هنا تبيَّن أن المراد بالتقوى في الموضعين مختلف فالاولى هي التقوى في أصل إتيان الأعمال، والثانية هي التقوى في الأعمال المأتيَّة من حيث إصلاحها وإخلاصها.

وظهر أيضاً أن قول بعضهم: إن الاولى للتوبة عما مضى من الذنوب والثانية لاتقاء المعاصي في المستقبل غير سديد ومثله ما قيل: إن الاولى في أداء الواجبات والثانية في ترك المحرمات، ومثله ما قيل: إن الأمر الثاني لتأكيد الأمر الأول فحسب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ الخ: النسيان

زوال صورة المعلوم عن النفس بعد حصولها فيها مع زوال مبدئه ويتوسع فيه مطلق على مطلق الإعراض عن الشيء بعدم ترتيب الأثر عليه قال تعالى: ﴿وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ (الجاثية / ٣٤).

والآية بحسب لب معناها كالتأكيد لمضمون الآية السابقة كأنه قيل: قدموا ليوم الحساب والجزاء عملاً صالحاً تحيى به أنفسكم ولا تنسوه. ثم لما كان سبب نسيان النفس نسيان الله تعالى إذ بنسيانه تعالى تنسى أسماؤه الحسنى وصفاته العليا التي ترتبط بها صفات الإنسان الذاتية من الذلة والفقر والحاجة فيتوهم الإنسان نفسه مستقلة في الوجود ويخيل اليه أن له لنفسه حياة وقدرة وعلماً وسائر ما يتراءى له من الكمال، ونظراؤه في الاستقلال سائر الأسباب الكونية الظاهرية تؤثر فيه وتتأثر عنه.

وعند ذلك يعتمد على نفسه وكان عليه أن يعتمد على ربه ويرجو ويخاف الأسباب الظاهرية وكان عليه أن يرجو ويخاف ربه، يطمئن الى غير ربه وكان عليه أن يطمئن الى ربه.

وبالجملة ينسى ربه والرجوع اليه ويعرض عنه بالإقبال الى غيره، ويتفرع عليه أن ينسى نفسه فإن الذي يخيل اليه من نفسه أنه موجود مستقل الوجود يملك ما ظهر فيه من كمالات الوجود واليه تدبير أمره مستمداً مما حوله من الأسباب الكونية وليس هذا هو الإنسان بل الإنسان موجود متعلق الوجود جهل كله عجز كله ذلة كله فقر كله وهكذا، وما له من الكمال كالوجود والعلم والقدرة والعزة والغنى وهكذا فلربه والى ربه انتهاؤه ونظراؤه في ذلك سائر الأسباب الكونية.

والحاصل لما كان سبب نسيان النفس نسيان الله تعالى حول النهي عن نسيان النفس في الآية الى النهي عن نسيانه تعالى لأن انقطاع المسبب بانقطاع سببه أبلغ وآكد، ولم يقنع بمجرد النهي الكلي عن نسيانه بأن يقال: ولا تنسوا الله فينسيكم أنفسكم بل جرى بمثل إعطاء الحكم بالمثال ليكون أبلغ في التأثير وأقرب الى القبول فناهم أن يكونوا كالذين نسوا الله

مشيراً به الى من تقدم ذكرهم من يهود بني النضير وبني قينقاع ومن حاله حالهم في مشاقة الله ورسوله.

فقال: «ولا تكونوا كالذين نسوا الله» ثم فرع عليه قوله: «فأنساهم أنفسهم» تفريع المسبب على سببه ثم عقبه بقوله: «أولئك هم الفاسقون» فدل على أنهم فاسقون حقاً خارجون عن زي العبودية.

والآية وإن كانت تنهى عن نسيانه تعالى المتفرع عليه نسيان النفس لكنها بورودها في سياق الآية السابقة تأمر بذكر الله ومراقبته.

فقد بان من جميع ما تقدم في الآيتين أن الآية الاولى تأمر بمحاسبة النفس والثانية تأمر بالذكر والمراقبة.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ قال الراغب: الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة، انتهى. والسياق يشهد بأن المراد بأصحاب النار هم الناسون لله وبأصحاب الجنة هم الذاكرون لله المراقبون.

والآية حجة تامة على وجوب اللحوق بالذاكرين لله المراقبين له دون الناسين، تقريرها أن هناك قبيلين لا ثالث لهما وهما الذاكرون لله والناسون له لابد للإنسان أن يلحق بأحدهما وليسا بمساويين حتى يتساوى اللحوقان ولا يبالي الانسان بأيهما لحق؟ بل هناك راجح ومرجوح يجب اختيار الراجح على المرجوح والرجحان لقبيل الذاكرين لأنهم الفائزون لا غير فالترجيح لجانبهم فمن الواجب لكل نفس أن يختار اللحوق بقبيل الذاكرين.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الخ: في المجمع: التصدع التفرق بعد التلاؤم ومثله التفطر انتهى.

والكلام مسوق سوق المثل مبني على التخييل والدليل عليه قوله في ذيل الآية: «وتلك الأمثال نضربها للناس» الخ.

والمراد تعظيم أمر القرآن بما يشتمل عليه من حقائق المعارف وأُصول الشرائع والعبر والمواعظ والوعد والوعيد وهو كلام الله العظيم، والمعنى: لو كان الجبل مما يجوز أن ينزل عليه القرآن فأنزلناه عليه لرأيته ـ مع ما فيه من الغلظة والقسوة وكبر الجسم وقوة المقاومة قبال النوازل ـ متأثراً متفرقاً من خشية الله فإذا كان هذا حال الجبل بما هو عليه فالإنسان أحق بأن يخشع لله إذا تلاه أو تُلي عليه، وما أعجب حال أهل المشاقة والعناد لا تلين قلوبهم له ولا يخشعون ولا يخشون.

والالتفات من التكلم مع الغير الى الغيبة في قوله: «من خشية الله» للدلالة على علة الحكم فإنما يخشع ويتصدع الجبل بنزول القرآن لأنه كلام الله عز اسمه.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ من وضع الحكم الكلي موضع الجزئي للدلالة على أن الحكم ليس ببدع في مورده بل جارٍ سارٍ في موارد اخرى كثيرة.

فقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ الخ: مثل ضربه الله للناس في أمر القرآن لتقريب عظمته وجلالة قدره بما أنه كلام لله تعالى وبما يشتمل عليه من المعارف رجاء أن يتفكر فيه الناس فيتلقوا القرآن بما يليق به من التلقي ويتحققوا بما فيه من الحق الصريح ويهتدوا الى ما يهدي اليه من طريق العبودية التي لا طريق الى كمالهم وسعادتهم وراءها، ومن ذلك ما ذكر في الآيات السابقة من المراقبة والمحاسبة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ هذه الآية والآيتان بعدها وإن كانت مسوقة لتعداد قبيل من أسمائه تعالى الحسنى والإشارة الى تسميته تعالى بكل اسم أحسن وتنزهه بشهادة ما في السماوات والأرض لكنها بانضمامها الى ما مرَّ من الأمر بالذكر تفيد أن على الذاكرين أن يذكروه بأسمائه الحسنى فيعرفوا أنفسهم بما يقابلها من أسماء النقص، فافهم ذلك.

وبانضمامها الى الآية السابقة وما فيها من قوله : « من خشية الله » تفيد تعليل خشوع الجبل وتصدّعه من خشية الله كأنه قيل : وكيف لا وهو الله الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة ، الى آخر الآيات .

وقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ يفيد الموصول والصلة معنى اسم من أسمائه وهو وحدانيته تعالى في أُلوهيته ومعبوديته ، وقد تقدم بعض ما يتعلق بالتهليل في تفسير قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو ﴾ (البقرة / ١٦٣) .

وقوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ الشهادة هي المشهود الحاضر عند المدرك والغيب خلافها وهما معنيان إضافيان فمن الجائز أن يكون شيء شهادة بالنسبة الى شيء وغيباً بالنسبة الى آخر ويدور الأمر مدار نوع من الإحاطة بالشيء حساً أو خيالاً أو عقلاً أو وجوداً وهو الشهادة وعدمها وهو الغيب ، وكل ما فرض من غيب أو شهادة فهو من حيث هو محاط له تعالى معلوم فهو تعالى عالم الغيب والشهادة وغيره لا علم له بالغيب لمحدودية وجوده وعدم إحاطته إلاّ ما علّمه تعالى كما قال : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول ﴾ (الجن / ٢٧) ، وأما هو تعالى فغيب على الإطلاق لا سبيل الى الإحاطة به لشيء أصلاً كما قال : « ويحيطون به علماً » .

وقوله : ﴿ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ قد تقدم الكلام في معنى الاسمين في تفسير سورة الفاتحة .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ الخ : الملك هو المالك لتدبير أمر الناس والحكم فيهم ، والقدُّوس مبالغة في القدس وهو النزاهة والطهارة ، والسلام من يلاقيك بالسلامة والعافية من غير شرّ وضرّ ، والمؤمن الذي يعطي الأمن ، والمهيمن الفائق المسيطر على الشيء .

والعزيز الغالب الذي لا يغلبه شيء أو من عنده ما عند غيره من غير عكس. والجبال مبالغة من جبر الكسر أو الذي تنفذ إرادته ويجبر على ما يشاء. والمتكبر الذي تلبّس بالكبرياء وظهر بها.

وقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ثناء عليه تعالى كما في قوله: ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه﴾ (البقرة / ١١٦).

قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ الى آخر الآية: الخالق هو الموجد للأشياء عن تقدير. والبارىء المنشىء للأشياء ممتازاً بعضها من بعض. والمصور المعطي لها صوراً يمتاز بها بعضها من بعض. والأسماء الثلاثة تتضمن معنى الإيجاد باعتبارات مختلفة وبينها ترتب فالتصوير فرع البرء والبرء فرع الخلق وهو ظاهر.

وإنما صدّر الآيتين السابقتين بقوله: «الذي لا إله إلاّ هو» فوصف به «الله» وعقبه بالأسماء بخلاف هذه الآية إذ قال: «هو الله الخالق» الخ.

لأن الأسماء الكريمة المذكورة في الآيتين السابقتين وهي أحد عشر اسماً من لوازم الربوبية ومالكية التدبير التي تتفرع عليها الالوهية والمعبودية بالحق وهي على نحو الأصالة والاستقلال لله سبحانه وحده لا شريك له في ذلك فاتصافه تعالى وحده بها يستوجب اختصاص الالوهية واستحقاق المعبودية به تعالى.

فالأسماء الكريمة بمنزلة التعليل لاختصاص الالوهية به تعالى كأنه قيل لا إله إلاّ هو لأنه عالم الغيب والشهادة هو الرحمان الرحيم. ولذا أيضاً ذيل هذه الأسماء بقوله ثناء عليه: «سبحان الله عما يشركون» رداً على القول بالشركاء كما يقوله المشركون.

وأما قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ فالمذكور فيه من الأسماء يفيد معنى الخلق والإيجاد واختصاص ذلك به تعالى لا يستوجب اختصاص الالوهية به كما يدل عليه أن الوثنيين قائلون باختصاص الخلق والإيجاد به تعالى وهم مع ذلك يدعون من دونه

أرباباً وآلهة ويثبتون له شركاء.

وأما وقوع اسم الجلالة في صدر الآيات الثلاث جميعاً فهو علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال يرتبط به ويجري عليه جميع الأسماء وفي التكرار مزيد تأكيد وتثبيت للمطلوب.

وقوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إشارة الى بقية الأسماء الحسنى عن آخرها لكون الأسماء جمعاً محلى باللام وهو يفيد العموم.

وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي جميع ما في العالم من المخلوقات حتى نفس السماوات والأرض وقد تقدم توضيح معنى الجملة مراراً.

ثم ختم الآيات بقوله: «وهو العزيز الحكيم» أي الغالب غير المغلوب الذي فعله متقن لا مجازفة فيه فلا يعجزه فيما شرعه ودعا اليه معصية العاصين ولا مشاقة المعاندين ولا يضيع عنده طاعة المطيعين وأجر المحسنين.

والعناية الى ختم الكلام بالاسمين والإشارة بذلك الى كون القرآن النازل من عنده كلام عزيز حكيم هو الذي دعا الى تكرار اسمه العزيز وذكره مع الحكيم مع تقدم ذكره بين الأسماء.

وقد وصف القرآن أيضاً بالعزة والحكمة كما قال: «وإنه لكتاب عزيز» (حم السجدة / ٤١)، وقال: ﴿والقرآن الحكيم﴾ (يس / ٢)[١].

---

١. الحشر ١٨ ـ ٢٤: بحث روائي في: الغيب والشهادة؛ صفات الله؛ محاسبة النفس؛ ذكر الله.

سورة الممتحنة مدنية وهي ثلاث عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيٰاءَ تُلْقُونَ
إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمٰا جٰاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ
الرَّسُولَ وَإِيّٰاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ
جِهٰاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ
وَأَنَا أَعْلَمُ بِمٰا أَخْفَيْتُمْ وَمٰا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ
سَوٰاءَ السَّبِيلِ.
٢ • إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدٰاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ.
٣ • لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحٰامُكُمْ وَلاٰ أَوْلاٰدُكُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ
وَاللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.
٤ • قَدْ كٰانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرٰاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قٰالُوا

لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ
وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ
اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ.
٥ ❁ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.
٦ ❁ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.
٧ ❁ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً
وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.
٨ ❁ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ
يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ.
٩ ❁ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ
مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ
يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

بيان:

تذكر السورة موالاة المؤمنين لأعداء الله من الكفار وموادّتهم وتشدّد النهي عن ذلك

تفتتح به وتختتم وفيها شيء من أحكام النساء المهاجرات وبيعة المؤمنات، وكونها مدنية ظاهرة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ الخ: سياق الآيات يدلّ على أن بعض المؤمنين من المهاجرين كانوا يسرُّون الموادَّة الى المشركين بمكة ليحموا بذلك من بقي من أرحامهم وأولادهم بمكة بعد خروجهم أنفسهم منها بالمهاجرة الى المدينة فنزلت الآيات ونهاهم الله عن ذلك، ويتأيد بهذا ما ورد أن الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة أسرَّ كتاباً الى المشركين بمكة يخبرهم فيه بعزم رسول الله ﷺ على الخروج اليها لفتحها، فعل ذلك ليكون يداً له عليهم يقي بها من كان بمكة من أرحامه وأولاده فأخبر الله بذلك نبيه ﷺ ونزلت. وستوافيك قصته في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ العدو معروف ويطلق على الواحد والكثير والمراد في الآية هو الكثير بقرينة قوله: «أولياء» و«اليهم» وغير ذلك، وهم المشركون بمكة، وكونهم عدوه من جهة اتخاذهم له شركاء يعبدونهم ولا يعبدون الله ويردّون دعوته ويكذبون رسوله، وكونهم أعداء للمؤمنين لإيمانهم بالله وتفديتهم أموالهم وأنفسهم في سبيله فمن يعادي الله يعاديهم.

وذكر عداوتهم للمؤمنين مع كفاية ذكر عداوتهم لله في سوق النهي لتأكيد التحذير والمنع كأنه قيل: من كان عدواً لله فهو عدو لكم فلا تتخذوه وليّاً.

وقوله: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ بالمودَّة مفعول «تلقون» والباء زائدة كما في قوله: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ (البقرة / ١٩٥)، والمراد بالقاء المودَّة إظهارها أو إيصالها، والجملة صفة أو حال من فاعل «لا تتخذوا».

وقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ هو الدين الحق الذي يصفه كتاب الله

ويدعو اليه النبي ﷺ ، والجملة حالية .

وقوله: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الجملة حالية والمراد بإخراج الرسول وإخراجهم اضطرارهم الرسول والمؤمنين الى الخروج من مكة والمهاجرة الى المدينة ، و «أن تؤمنوا بالله ربكم» بتقدير اللام متعلق بيخرجون ، والمعنى: يجبرون الرسول وإياكم على المهاجرة من مكة لإيمانكم بالله ربكم .

وتوصيف الله بقوله: «ربكم» للاشارة الى أنه يؤاخذونهم على أمر حق مفروض ليس بجرم فإن إيمان الإنسان بربه مفروض عليه وليس من الجرم في شيء .

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ متعلق بقوله: «لا تتخذوا» وجزاء الشرط محذوف يدل عليه المتعلق ، و «جهاداً» مصدر مفعول له ، و «ابتغاء» بمعنى الطلب و «المرضاة» مصدر كالرضى ، والمعنى: لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء إن كنتم هاجرتم للمجاهدة في سبيلي ولطلب رضاي .

وتقييد النهي عن ولائهم واشتراطه بخروجهم للجهاد وابتغائهم مرضاته من باب اشتراط الحكم بأمر محقق الوقوع تأكيداً له وإيذاناً بالملازمة بين الشرط والحكم مقول الوالد لولده: إن كنت ولدي فلا تفعل كذا .

وقوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أسررت اليه حديثاً أي أفضيت اليه في خفية فمعنى «تسرون اليه بالمودة» تطلعونهم على ما تسرون من مودتهم ـ على ما قاله الراغب ـ والإعلان خلاف الإخفاء ، و «أنا أعلم» الخ: حال من فاعل «تسرون» و «أعلم» اسم تفضيل ، واحتمل بعضهم أن يكون فعل المتكلم وحده من المضارع متعدياً بالباء لأن العلم ربما يتعدى بها .

وجملة «تسرون اليهم» الخ: استئناف بيانية كأنه قيل بعد استماع النهي السابق: ماذا فعلنا فاجيب: تطلعونهم سراً على مودتكم لهم وأنا أعلم بما أخفيتم وما أظهرتم أي أنا أعلم بقولكم

وفعلكم علماً يستوي بالنسبة اليه إخفاؤكم وإظهاركم.

ومنه يعلم أن قوله: «بما أخفيتم وما أعلنتم» معاً يفيدان معنى واحداً وهو استواء الإخفاء والإعلان عنده تعالى لإحاطته بما ظهر وما باطن فلا يرد أن ذكر «ما أخفيتم» يغني عن ذكر «ما أعلنتم» لأن العالم بما خفي عالم بما ظهر بطريق أولى.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ الإشارة بذلك الى أسرار المودة اليهم وهو الموالاة، و «سواء السبيل» من إضافة الصفة الى الموصوف أي السبيل السوي والطريق المستقيم وهو مفعول «ضل» أو منصوب بنزع الخافض والتقدير فقد ضل عن سواء السبيل. والسبيل سبيل الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ الخ: قال الراغب: الثقف ـ بالفتح فالسكون ـ الحذق في إدراك الشيء وفعله. قال: ويقال: ثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر ثم يتجوز به فيستعمل في الإدراك وإن لم يكن معه ثقافة. انتهى. وفسره غيره بالظفر ولعله بمعونة مناسبة المقام، والمعنيان متقاربان.

والآية مسوقة لبيان أنه لا ينفعهم الإسرار بالمودة للمشركين في جلب محبتهم ورفع عداوتهم شيئاً وأن المشركين على الرغم من إلقاء المودة اليهم إن يدركوهم ويظفروا بهم يكونوا لهم أعداء من دون أن يتغير ما في قلوبهم من العداوة.

وقوله: ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ بمنزلة عطف التفسير لقوله: «يكونوا لكم أعداء» وبسط الأيدي بالسوء كناية عن القتل والسبي وسائر أنحاء التعذيب وبسط الألسن بالسوء كناية عن السب والشتم.

والظاهر أن قوله: «وودوا لو تكفرون» عطف على الجزاء والماضي بمعنى المستقبل كما يقتضيه الشرط والجزاء، والمعنى: أنهم يبسطون اليكم الأيدي والألسن بالسوء ويودون بذلك لو تكفرون كما كانوا يفتنون المؤمنين بمكة ويعذبونهم يودون بذلك أن يرتدوا عن

دينهم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ دفع لما ربما يمكن أن يتوهم عذراً لإلقاء المودة اليهم أن في ذلك صيانة لأرحامهم وأولادهم الذين تركوهم بمكة بين المشركين من أذاهم.

والجواب أن أمامكم يوماً تجازون فيه على معصيتكم وطالح عملكم ومنه موالاة الكفار ولا ينفعكم اليوم أرحامكم ولا أولادكم الذين قدمتم صيانتهم من أذى الكفار على صيانة أنفسكم من عذاب الله بترك موالاة الكفار.

وقوله: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي يفصل الله يوم القيامة بينكم بتقطع الأسباب الدنيوية كما قال تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ﴾ (المؤمنون / ١٠١)، وذلك أن القرابة وهي انتهاء إنسانين أو أكثر الى رحم واحدة إنما تؤثر آثارها من الرحمة والمودة والالفة والمعاونة والمعاضدة والعصبية والخدمة وغير ذلك من الآثار في ظرف الحياة الاجتماعية التي تسوق الإنسان اليه حاجته اليها بالطبع بحسب الآراء والعقائد الاعتبارية التي أوجدها فيه فهمه الاجتماعي. ولا خبر عن هذه الآراء في الخارج عن طرف الحياة الاجتماعية.

وإذا برزت الحقائق وارتفع الحجاب وانكشف الغطاء يوم القيامة ضلت عن الإنسان هذه الآراء والمزاعم وانقطعت روابط الاستقلال بين الأسباب ومسبباتها كما قال تعالى: ﴿لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ (الأنعام / ٩٤)، وقال: ﴿ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ (البقرة / ١٦٦).

فيومئذ تتقطع رابطة الأنساب ولا ينتفع ذو قرابة من قرابته شيئاً فلا ينبغي للإنسان أن يخون الله ورسوله بموالاة أعداء الدين لأجل أرحامه وأولاده فليسوا يغنونه عن الله يومئذ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ متمم لقوله: «لن تنفعكم» كالمؤكد له والمعنى:

لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة في رفع تبعة هذه الخيانة وأمثالها والله بما تعملون بصير لا يخفى عليه ما هي هذه الخيانة فيؤاخذكم عليها لا محالة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ الى آخر الآيتين: والخطاب للمؤمنين، والاسوة الاتباع والاقتداء، وفي قوله: «والذين معه» بظاهره دلالة على أنه كان معه من آمن به غير زوجته ولوط.

وقوله: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي إنا بريؤن منكم ومن أصنامكم بيان لما فيه الاسطورة والاقتداء.

وقوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ بيان لمعنى البراءة بأثرها وهو الكفر بهم وعداوتهم ما داموا مشركين حتى يوحدوا الله سبحانه.

والمراد بالكفر بهم الكفر بشركهم بدليل قوله: «حتى تؤمنوا بالله وحده»، والكفر بشركهم مخالفتهم فيه عملاً كما أن العداوة بينونة ومخالفة قلباً.

فقد فسروا براءتهم منهم بامور ثلاثة: مخالفتهم لشركهم عملاً، والعداوة والبغضاء بينهم قلباً، واستمرار ذلك ما داموا على شركهم إلّا أن يؤمنوا بالله وحده.

وقوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، استثناء مما تدل عليه الجمل المتقدمة أن إبراهيم والذين معه تبرؤا من قومهم المشركين قولاً مطلقاً. وقطعوا أي رابطة تربطهم بالقوم وتصل بينهم إلّا ما قال إبراهيم لأبيه: «لأستغفرن لك» الخ.

ولم يكن قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ تولياً منه بل وعداً وعده إياه رجاء أن يتوب عن الشرك ويؤمن بالله وحده كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلّا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه**﴾ (التوبة / ١١٤)، حيث يفيد أنه عليه السلام

إنما وعده لأنه لم يتبين له بعد أنه عدو لله راسخ في عداوته ثابت في شركه فكان يرجو أن يرجع عن شركه ويطمع في أن يتوب ويؤمن فلما تبين له رسوخ عداوته ويئس من إيمانه تبرأ منه.

على أن قوله تعالى في قصة محاجته أباه في سورة مريم: ﴿ **قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً وأعتزلكم وما تدعون من دون الله** ﴾ (مريم/ ٤٨)، يتضمن وعده أباه بالاستغفار وإخباره بالاعتزال ولو كان وعده الاستغفار تولياً منه لأبيه لكان من الحري أن يقول: وأعتزل القوم، لا أن يقول: وأعتزلكم فيدخل أباه فيمن يعتزلهم وليس الاعتزال إلّا التبري.

فالاستثناء استثناء متصل من أنهم لم يكلموا قومهم إلّا بالتبري والمحصل من المعنى: أنهم إنما ألقوا اليهم القول بالتبري إلّا قول إبراهيم لأبيه: لأستغفرن لك فلم يكن تبرياً ولا تولياً بل وعداً وعده أباه رجاء أن يؤمن بالله.

وههنا شيء وهو أن مؤدّى آية التوبة «فلما تبيَّن له أنه عدو لله تبرَّء منه» أن تبرّيه الجازم إنما كان بعد الوعد وبعد تبين عداوته لله، وقوله تعالى في الآية التي نحن فيها: «إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم» إخبار عن تبريهم الجازم القاطع فيكون ما وقع في الاستثناء من قول إبراهيم لأبيه وعداً واقعاً قبل تبريه الجازم ومن غير جنس المستثنى منه فيكون الاستثناء منقطعاً لا متصلاً.

وعلى تقدير كون الاستثناء منقطعاً يجوز أن يكون الاستثناء من قوله: «قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم والذين معه» بما أنه مقيد بقوله: «إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم»، والمعنى: قد كان لكم اقتداء حسن بتبري إبراهيم والذين معه من قومهم إلّا أن إبراهيم قال لأبيه كذا وكذا وعداً.

وأما على تقدير كون الاستثناء متصلاً فالوجه ما تقدم، وأما كون المستثنى منه هو قوله: «قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم»، والمعنى: لكم في إبراهيم أُسوة في جميع خصاله إلّا في

قوله لأبيه : « لأستغفرنَّ لك » فلا أُسوة فيه .

ففيه أن قوله : « لكم أُسوة حسنة في إبراهيم » الخ : غير مسوق لإيجاب التأسّي بإبراهيم عليه السلام في جميع خصاله حتى يكون الوعد بالاستغفار أو نفس الاستغفار ـ وذلك من خصاله ـ مستثنى منها بل إنما سيق لإيجاب التأسي به في تبريه من قومه المشركين. والوعد بالاستغفار رجاء للتوبة والإيمان ليس من التبري وإن كان ليس توليا ً أيضاً .

وقوله : ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ تتمة قول إبراهيم عليه السلام ، وهو بيان لحقيقة الأمر من أن سؤاله المغفرة وطلبها من الله ليس من نوع الطلب الذي يملك فيه الطالب من المطلوب منه ما يطلبه ، وإنما هو سؤال يدعو اليه فقر العبودية وذلّتها قبال غنى الربوبية وعزتها فله تعالى أن يقبل بوجهه الكريم فيستجيب ويرحم. وله أن يعرض ويمسك الرحمة فإنه لا يملك أحد منه تعالى شيئاً وهو المالك لكل شيء ، قال تعالى : ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً﴾ (المائدة / ١٧) .

وبالجملة قوله : ﴿وَمَا أَمْلِكُ﴾ الخ : نوع اعتراف بالعجز استدراكاً لما يستشعر من قوله : « لأستغفرن لك » من شائبة إثبات القدرة لنفسه نظير قول شعيب عليه السلام « وما توفيقي إلّا بالله » استدراكاً لما يشعر به قوله لقومه : ﴿إن اريد إلّا الإصلاح ما استطعت﴾ (هود / ٨٨) ، من إثبات القوة والاستطاعة لنفسه بالأصالة والاستقلال .

وقوله : ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ الخ : من تمام القول المنقول عن إبراهيم والذين معه المندوب الى التأسي بهم فيه ، وهو دعاء منهم لربهم وابتهال اليه إثر ما تبرؤا من قومهم ذاك التبري العنيف ليحفظهم من تبعاته ويغفر لهم فلا يخيبهم في إيمانهم .

وقد افتتحوا دعاءهم بتقدمة يذكرون فيها حالهم فيما هم فيه من التبري من أعداء الله فقالوا : « ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا » يعنون به أنّا كنا في موقف من الحياة تتمكن فيه أنفسنا

وندبر فيه امورنا أما أنفسنا فأنبنا ورجعنا بها اليك وهو الإنابة. وأما امورنا التي كان علينا تدبيرها فتركناها لك وجعلنا مشيئك مكان مشيئنا فأنت وكيلنا فيها تدبرها بما تشاء وكيف تشاء وهو التوكل.

ثم قالوا: «واليك المصير» يعنون به أن مصير كل شيء من فعل أو فاعل فعل اليك فقد جرينا في توكلنا عليك وإنابتنا اليك مجرى ما عليه حقيقة الأمر من مصير كل شيء اليك حيث هاجرنا بأنفسنا اليك وتركنا تدبير امورنا لك.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ متن دعائهم يسألونه تعالى أن يعيذهم من تبعة تبريهم من الكفار ويغفر لهم.

والفتنة ما يمتحن به، والمراد بجعلهم فتنة للذين كفروا تسليط الكفار عليهم ليمتحنهم فيخرجوا ما في وسعهم من الفساد فيؤذوهم بأنواع الأذى أن آمنوا بالله ورفضوا آلهتهم وتبرؤا منهم ومما يعبدون.

وقد كرّروا نداءه تعالى ـ ربنا ـ في دعائهم مرة بعد مرة لإثارة الرحمة الإلهية.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي غالب غير مغلوب متقن لأفعاله لا يعجز أن يستجيب دعاءهم فيحفظهم من كيد أعدائه ويعلم بأي طريق يحفظ.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ الخ: تكرار حديث الاسوة لتأكيد الايجاب ولبيان أن هذه الاسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وأيضاً أنهم كما يتأسى بهم في تبرّيهم من الكفار كذلك يتأسى بهم في دعائهم وابتهالهم.

والظاهر أن المراد برجائه تعالى رجاء ثوابه بالايمان به وبرجاء اليوم الآخر رجاء ما وعد الله وأعدّ للمؤمنين من الثواب، وهو كناية عن الايمان.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ استغناء منه تعالى عن

امتثالهم لأمره بتبرّيهم من الكفار وأنهم هم المنتفعون بذلك والله سبحانه غني في ذاته عنهم وعن طاعتهم حميد فيما يأمرهم وينهاهم إذ ليس في ذلك إلّا صلاح حالهم وسعادة حياتهم.

قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ضمير «منهم» للكفار الذين أُمروا بمعاداتهم وهم كفار مكة، والمراد بجعل المودة بين المؤمنين وبينهم جعلها بتوفيقهم للاسلام كما وقع ذلك لما فتح الله لهم مكة، وليس المراد به نسخ حكم المعاداة والتبري.

والمعنى: مرجو من الله أن يجعل بينكم معشر المؤمنين وبين الذين عاديتم من الكفار وهم كفار مكة مودة بتوفيقهم للاسلام فتنقلب المعاداة مودة والله قدير والله غفور لذنوب عباده رحيم بهم إذا تابوا وأسلموا فعلى المؤمنين أن يرجوا من الله أن يبدّل معاداتهم مودة بقدرته ومغفرته ورحمته.

قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ الخ: في هذه الآية والتي تتلوها توضيح للنهي الوارد في أول السورة، والمراد بالذين لم يقاتلوا المؤمنين في الدين ولم يخرجوهم غير أهل مكة ممن لم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من ديارهم من المشركين من أهل المعاهدة، والبر الإحسان، والإقساط المعاملة بالعدل، و «أن تبرّوهم» بدل من «الذين» الخ؛ وقوله: «إن الله يحب المقسطين» تعليل لقوله: «لا ينهاكم الله» الخ.

والمعنى: لا ينهاكم الله بقوله: «لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء» عن أن تحسنوا وتعاملوا بالعدل الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم لأن ذلك منكم إقساط والله يحب المقسطين.

قيل: إن الآية منسوخة بقوله: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ (التوبة / ٥)، وفيه أن

الآية التي نحن فيها لا تشمل باطلاقها إلّا أهل الذمة وأهل المعاهدة وأما أهل الحرب فلا، وآية التوبة إنما تشمل أهل الحرب من المشركين دون أهل المعاهدة فكيف تنسخ ما لا يزاحمها في الدلالة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهٰيكُمُ اللّٰهُ عَنِ الَّذِينَ قٰاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ وَظٰاهَرُوا عَلىٰ إِخْرٰاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ الخ: المراد بالذين قاتلوكم، الخ: مشركوا مكة. والمظاهرة على الإخراج المعاونة والمعاضدة عليه. وقوله: «أن تولوهم» بدل من «الذين قاتلوكم» الخ.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ﴾ قصر إفراد أي المتولون لمشركي مكة ومن ظاهرهم على المسلمين هم الظالمون المتمردون عن النهي دون مطلق المتولين للكفار أو تأكيد للنهي عن توليهم[1].

١٠ ﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا جٰاءَكُمُ الْمُؤْمِنٰاتُ مُهٰاجِرٰاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِإِيمٰانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنٰاتٍ فَلاٰ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفّٰارِ لاٰ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاٰ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مٰا أَنْفَقُوا وَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذٰا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاٰ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوٰافِرِ وَاسْئَلُوا مٰا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مٰا أَنْفَقُوا ذٰلِكُمْ حُكْمُ اللّٰهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

---

١. الممتحنة ١ ـ ٩: بحث روائي حول قوله تعالى: «يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء»؛ قوله تعالى: «اعملوا ما شئتم»؛ الحب في الله والبغض في الله.

١١ • وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَٱتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ.

١٢ • يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ ٱلْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلىٰ أَنْ لاٰ يُشْرِكْنَ بِاللّٰهِ شَيْئاً وَلاٰ يَسْرِقْنَ وَلاٰ يَزْنِينَ وَلاٰ يَقْتُلْنَ أَوْلاٰدَهُنَّ وَلاٰ يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاٰ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

١٣ • يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَما يَئِسَ ٱلْكُفّارُ مِنْ أَصْحابِ ٱلْقُبُورِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ ٱلْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ الآية: سياق الآية يعطي أنها نزلت بعد صلح الحديبية، وكان في العهد المكتوب بين النبي ﷺ وبين أهل مكة أنه إن لحق من أهل مكة رجل بالمسلمين ردّوه اليهم وإن لحق من المسلمين رجل بأهل مكة لم يردّوه اليهم ثم إن بعض نساء المشركين أسلمت وهاجرت الى المدينة فجاء زوجها يستردّها فسأل النبي ﷺ أن يردّها اليه فأجابه النبي ﷺ أن الذي شرطوه في العهد ردّ الرجال دون النساء، ولم يردّها اليهم وأعطاه ما أنفق عليها من المهر وهو الذي تدل عليه الآية مع ما يناسب ذلك من أحكامهن.

فقوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ ٱلْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ﴾ سماهن

مؤمنات قبل امتحانهن والعلم بإيمانهن لتظاهرهن بذلك.

وقوله: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي اختبروا إيمانهن بما يظهر به ذلك من شهادة وحلف يفيد العلم والوثوق، وفي قوله: «الله أعلم بإيمانهن» إشارة الى أنه يجزي في ذلك العلم العادي والوثوق دون اليقين بحقيقة الايمان الذي هو تعالى أعلم به علماً لا يتخلف عنه معلومه.

وقوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ ذكرهم بوصف الإيمان للاشارة الى أنه السبب للحكم وانقطاع علقة الزوجية بين المؤمنة والكافر.

وقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ بمجموع الجملتين كناية عن انقطاع علقة الزوجية، وليس من توجيه الحرمة اليهن واليهم في شيء.

وقوله: ﴿وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ أي أعطوا الزوج الكافر ما أنفق عليها من المهر.

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ رفع المانع من نكاح المؤمنات المهاجرات إذا أُوتين أُجورهن والأجر المهر.

وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ العصم جمع عصمة وهي النكاح الدائم يعصم المرأة ويحصنها، وإمساك العصمة إبقاء الرجل ـ بعد ما أسلم ـ زوجته الكافرة على زوجيتها فعليه بعدما أسلم أن يخلي عن سبيل زوجته الكافرة سواء كانت مشركة أو كتابية.

وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾ (البقرة / ٢٢١)، وقوله: ﴿والمحصنات من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم﴾ (المائدة / ٥)، أن لا نسخ بين الآيتين وبين الآية التي نحن فيها.

وقوله: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ ضمير الجمع في «واسألوا» للمؤمنين وفي «ليسألوا» للكفار أي إن لحقت امرأة منكم بالكفار فاسألوهم ما أنفقتم لها من مهر ولهم أن يسألوا مهر من لحقت بكم من نسائكم.

ثم تمم الآية بالإشارة الى ما تضمنته الآية حكم الله الذي شرع لهم فقال: «ذلكم حكم الله

يحكم بينكم والله عليم حكيم».

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا﴾ الخ: قال الراغب: الفوت بُعد الشيء عن الانسان بحيث يتعذر إدراكه، قال تعالى: «وإن فاتكم شيء من أزواجكم الى الكفار». انتهى. وفسّر المعاقبة والعقاب بمعنى الوصول والانتهاء الى عقبى الشيء، والمراد عاقبتم من الكفار أي أصبتم منهم غنيمة وهي عقبى الغزو، وقيل: عاقب بمعنى عقَّب، وقيل: عاقب مأخوذ من العقبة بمعنى النوبة.

والأقرب أن يكون المراد بالشيء المهر و«من» في «من أزواجكم» لابتداء الغاية و«الى الكفار» متعلق بقوله: «فاتكم» والمراد بالذين ذهبت أزواجهم، بعض المؤمنين واليهم يعود ضمير «أنفقوا».

والمعنى: وإن ذهب وانفلت منكم الى الكفار مهر من أزواجكم بلحوقهن بهم وعدم ردُّهم ما أنفقتم من المهر اليكم فأصبتم منهم بالغزو غنيمة فأعطوا المؤمنين الذين ذهبت أزواجهم اليهم مما أصبتم من الغنيمة مثل ما أنفقوا من المهر.

وفسّرت الآية بوجوه اخرى بعيدة عن الفهم أغمضنا عنها.

وقوله: ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ أمر بالتقوى، وتوصيفه تعالى بالموصول والصلة لتعليل الحكم فإن مقتضى الإيمان بالله تقواه.

وقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ﴾ الخ: تتضمن الآية حكم بيعة النساء المؤمنات للنبي ﷺ، وقد شرطت عليهن في «على أن لا تشركن» الخ: أُموراً منها ما هو مشترك بين الصنفين: الرجال والنساء كالتحرّز من الشرك ومن معصية الرسول في معروف ومنا ما هو أمس بهن من حيث أن تدبير المنزل بحسب الطبع اليهن وهن السبيل الى حفظ عفة البيت والحصول على الأنسال وطهارة مواليدهم، وهي التجنب من

السرقة والزنا وقتل الأولاد وإلحاق غير أولاد أزواجهن بهم، وإن كانت هذه الامور بوجه من المشتركات.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ شرط جوابه قوله: «فبايعهن واستغفر لهن الله».

وقوله: ﴿عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ أي من الأصنام والأوثان والأرباب، وهذا شرط لا غنى عنه لإنسان في حال.

وقوله: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ أي لا من أزواجهن ولا من غيرهم وخاصة من أزواجهن كما يفيده السياق، وقوله: «ولا يزنين» أي باتخاذ الأخدان وغير ذلك وقوله: «ولا يقتلن أولادهن» بالوءد وغيره وإسقاط الأجنة.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ وذلك بأن يحملن من الزنا ثم يضعنه وينسبنه الى أزواجهن فإلحاقهن الولد كذلك بأزواجهن ونسبته اليهم كذباً بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن لأن الولد إذا وضعته أُمه سقط بين يديها ورجليها، ولا يغني عن هذا الشرط شرط الاجتناب عن الزنا لأنهما متغايران وكل مستقل بالنهي والتحريم.

وقوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ نسب المعصية الى النبي ﷺ دون الله مع أنها تنتهي اليه تعالى لأن المراد أن لا يتخلفن بالمعصية عن السنة التي يستنها النبي ﷺ وينفذها في المجتمع الإسلامي فيكون ما سنه هو المعروف عند المسلمين وفي المجتمع الإسلامي.

ومن هنا يظهر أن المعصية في المعروف أعم من ترك المعروف كترك الصلاة والزكاة وفعل المنكر كتبرجهن تبرج الجاهلية الاولى.

وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بيان لمقتضى المغفرة وتقوية للرجاء.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الخ؛ المراد بهم اليهود المغضوب عليهم وقد تكرر في كلامه تعالى فيهم ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ (البقرة / ٦١)، ويشهد بذلك ذيل الآية فإن الظاهر أن المراد بالقوم غير الكفار.

وقوله: ﴿يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ﴾ المراد بالآخرة ثوابها، والمراد بالكفار الكافرون بالله المنكرون للبعث، وقيل: المراد مشركوا مكة واللام للعهد، و«من» في «من أصحاب القبور» لابتداء الغاية.

والجملة بيان لشقائهم الخالد وهلاكهم المؤبد ليحذر المؤمنون من موالاتهم وموادتهم والاختلاط بهم والمعنى: قد يئس اليهود من ثواب الآخرة كما يئس منكرو البعث من الموتى المدفونين في القبور.

وقيل: المراد بالكفار الذين يدفنون الموتى ويوارونهم في الأرض - من الكفر بمعنى الستر -.

وقيل: المراد بهم كفار الموتى و«من» بيانية والمعنى: يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفار المدفونون في القبور منه لقوله: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أُولئك عليهم لعنة الله﴾ (البقرة / ١٦١)[1].

---

١. الممتحنة ١٠ - ١٣: بحث روائي في: المومنات المهاجرات من دار الكفر الى دار الاسلام؛ كيفية بيعة النساء مع رسول الله ﷺ.

سورة الصف مدنية وهي أربع عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● سَبَّحَ لِلّٰهِ ما فِي السَّمٰوٰاتِ وَمٰا فِـي ٱلْأَرْضِ وَهُـوَ ٱلْـعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ.

٢ ● يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مٰا لاٰ تَفْعَلُونَ.

٣ ● كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللّٰهِ أَنْ تَقُولُوا مٰا لاٰ تَفْعَلُونَ.

٤ ● إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقٰاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّـهُمْ بُـنْيٰانٌ
مَرْصُوصٌ.

٥ ● وَإِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يٰا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي
رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ واللّٰهُ لاٰ يَهْدِي
ٱلْقَوْمَ ٱلْفٰاسِقِينَ.

٦ ● وَإِذْ قٰالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللّٰـهِ
إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرٰاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي

مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ.

٧ • وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى اللّٰهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

٨ • يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللّٰهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللّٰهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ.

٩ • هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ.

بيان:

السورة ترغّب المؤمنين وتحرّضهم على أن يجاهدوا في سبيل الله ويقاتلوا أعداء دينه، وتنبّهم أن هذا الدين نور ساطع لله سبحانه يريد الكفار من أهل الكتاب أن يطفئوه بأفواههم والله متمّه ولو كره الكافرون، ومظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وأن هذا النبي الذي آمنوا به رسول من الله أرسله بالهدى ودين الحق، وبشّر به عيسى بن مريم عليه السلام بني إسرائيل.

فعلى المؤمنين أن يشدّوا العزم على طاعته وامتثال ما يأمرهم به من الجهاد ونصرة الله في دينه حتى يسعدهم الله في آخرتهم وينصرهم ويفتح لهم في دنياهم ويؤيدهم على أعدائهم.

وعليهم أن لا يقولوا ما لا يفعلون ولا ينكصوا فيما يعدون فإن ذلك يستوجب مقتاً من الله تعالى وإيذاء الرسول وفيه خطر أن يزيغ الله قلوبهم كما فعل بقوم موسى عليه السلام لما آذوه وهم يعلمون أنه رسول الله اليهم والله لا يهدي القوم الظالمين.

والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدم تفسيره، وافتتاح الكلام بالتسبيح لما فيها من توبيخ المؤمنين بقولهم ما لا يفعلون وإنذارهم بمقت الله وإزاغته قلوب الفاسقين.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ «لم» مخفف لما، و«ما» استفهامية، واللام للتعليل، والكلام مسوق للتوبيخ ففيه توبيخ المؤمنين على قولهم ما لا يفعلون ولا يصغى الى قول بعض المفسرين: أن المراد بالذين آمنوا هم المنافقون والتوبيخ لهم دون المؤمنين لجلالة قدرهم.

وذلك لوفور الآيات المتضمنة لتوبيخهم ومعاتبتهم وخاصة في الآيات النازلة في الغزوات وما يلحق بها كاحُد والأحزاب وحنين وصلح والحديبية وتبوك والإنفاق في سبيل الله وغير ذلك. والصالحون من هؤلاء المؤمنين إنما صلحوا نفساً وجلّوا قدراً بالتربية الإلهية التي تتضمنها أمثال هذه التوبيخات والعتابات المتوجهة اليهم تدريجاً ولم يتصفوا بذلك من عند أنفسهم.

ومورد التوبيخ وإن كان بحسب ظاهر لفظ الآية مطلق تخلف الفعل عن القول وخلف الوعد ونقض العهد وهو كذلك لكونه من آثار مخالفة الظاهر للباطن وهو النفاق لكن سياق الآيات وفيها قوله: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ وما سيأتي من قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة﴾ الخ؛ وغير ذلك يفيد أن متعلق التوبيخ كان هو تخلف بعضهم عما وعده من الثبات في القتال وعدم الانهزام والفرار أو تثاقلهم أو تخلفهم عن الخروج أو عدم الإنفاق في تجهز أنفسهم أو تجهيز غيرهم.

قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ المقت البغض الشديد. والآية في مقام التعليل لمضمون الآية السابقة فهو تعالى يبغض من الإنسان أن يقول

ما لا يفعله لأنه من النفاق، وأن يقول الإنسان ما لا يفعله غير أن لا يفعل ما يقوله فالأول من النفاق والثاني من ضعف الإرادة ورهن العزم وهو رذيلة منافية لسعادة النفس الإنسانية فإن الله بنى سعادة النفس الإنسانية على فعل الخير واكتساب الحسنة من طريق الاختيار ومفتاحه العزم والإرادة، ولا تأثير إلّا للراسخ من العزم والإرادة، وتخلف الفعل عن القول معلول وهن العزم وضعف الإرادة ولا يرجى للانسان مع ذلك خير ولا سعادة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ الصف جعل الأشياء على خط مستو كالناس والأشجار. كذا قاله الراغب، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل ولذا لم يجمع. وهو حال من ضمير الفاعل في «يقاتلون»، والمعنى: يقاتلون في سبيله حال كونهم صافين».

والبنيان هو البناء، والمرصوص من الرصاص، والمراد به ما أُحكم من البناء بالرصاص فيقاوم ما يصادمه من أسباب الانهدام.

والآية تعلل خصوص المورد ـ وهو أن يعدوا الثبات في القتال ثم ينهزموا ـ بالالتزام كما أن الآية السابقة تعلل التوبيخ على مطلق أن يقولوا ما لا يفعلون. وذلك أن الله سبحانه إذا أحبَّ الذين يقاتلون فيلزمون مكانهم ولا يزولون كان لازمه أن يبغض الذين يعدون أن يثبتوا ثم ينهزمون إذا حضروا معركة القتال.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الخ؛ في الآية إشارة الى إيذاء بني اسرائيل رسولهم موسى عليه السلام ولجاجهم حتى آل الى إزاغة الله قلوبهم. وفي ذلك نهي التزامي للمؤمنين عن أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وآله فيؤول أمرهم الى ما آل اليه أمر قوم موسى من إزاغة القلوب وقد قال تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدَّ لهم عذاباً مهيناً﴾ (الأحزاب / ٥٧).

والآية بما فيها من النهي الالتزامي في معنى قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرَّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾ (الأحزاب / ٧٠).

وسياق الآيتين وذكر تبرئة موسى ﷺ يدل على أن المراد بإيذائه بما برَّأه الله منه ليس معصيتهم لأوامره وخروجهم عن طاعته إذ لا معنى حينئذ لتبرئته بل هو أنهم وقعوا فيه ﷺ وقالوا فيه ما فيه عار وشين فتأذى فبرَّأه الله مما قالوا ونسبوا اليه. وقوله في الآية التالية: «اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً» يؤيد هذا الذي ذكرناه.

ويؤيد ذلك إشارته تعالى الى بعض مصاديق إيذاء النبي ﷺ بقول أو فعل في قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلّا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي ـ الى أن قال ـ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ـ الى أن قال ـ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾ (الأحزاب / ٥٣).

فتحصَّل أن في قوله: «وإذ قال موسى لقومه» الخ؛ تلويحاً الى النهي عن إيذاء النبي ﷺ بقول أو فعل على علم بذلك كما أن في ذيل الآية تخويفاً وإنذاراً أنه فسق ربما أدَّى الى إزاغته تعالى قلب من تلبَّس به.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ واللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الزيغ الميل عن الاستقامة ولازمه الانحراف عن الحق الى الباطل.

وإزاغته تعالى إمساك رحمته وقطع هدايته عنهم كما يفيده التعليل بقوله: «إن الله لا يهدي القوم الفاسقين» حيث علل الإزاغة بعدم الهداية. وهي إزاغة على سبيل المجازاة وتثبيت للزيغ الذي تلبسوا به أولاً بسبب فسقهم المستدعي للمجازاة كما قال تعالى: ﴿ يضل به كثيراً

ويهدي به كثيراً وما يضل به إلّا الفاسقين ﴾ (البقرة / ٢٦)، وليس بإزاغة بدئية وإضلال ابتدائي لا يليق بساحة قدسه تعالى.

وأما قوله: «إن الكلام يخرج بذلك عن الفائدة» فيدفعه أن الذي ينسب من الزيغ الى العبد ويحصل معه الكفر تحقق ما له بالفسق والذي ينسب اليه تعالى تثبيت الزيغ في قلب العبد والطبع عليه به فزيغ العبد عن الايمان بسبب فسقه وحصول الكفر بذلك لا يغني عن تثبيت الله الزيغ والكفر في قلبه على سبيل المجازاة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ تقدم في صدر الكلام أن هذه الآية والتي قبلها والآيات الثلاث بعدها مسوقة لتسجيل أن النبي ﷺ رسول معلوم الرسالة عند المؤمنين أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون من أهل الكتاب، وما جاء به من الدين نور ساطع من عند الله يريد المشركون ليطفؤه بأفواههم والله متم نوره ولو كره المشركون.

فعلى المؤمنين أن لا يؤذوه ﷺ وهم يعلمون أنه رسول الله اليهم، وأن ينصروه ويجاهدوا في سبيل ربهم لإحياء دينه ونشر كلمته.

ومن ذلك يعلم أن قوله: «وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل» الخ: كالتوطئة لما سيذكر من كون النبي ﷺ رسولاً مبشراً به من قبل أرسله الله بالهدى ودين الحق ودينه نوره تعالى يهتدي به الناس.

والذي حكاه تعالى عن عيسى بن مريم ﵇ أعني قوله: «يا بني إسرائيل إني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد» ملخص دعوته وقد آذن بأصل دعوته بقوله: «إني رسول الله اليكم» فأشار الى أنه لا شأن له إلّا أنه حامل رسالة من الله اليهم، ثم بين متن ما أُرسل اليهم لأجل تبليغه في رسالته بقوله: «مصدقاً

لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول» الخ.

فقوله: ﴿ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ بيان أن دعوته لا تغاير دين التوراة ولا تناقض شريعتها بل تصدقها ولم تنسخ من أحكامها إلّا يسيراً والنسخ بيان انتهاء أمد الحكم وليس بإبطال، ولذا جمع عليه السلام بين تصديق التوراة ونسخ بعض أحكامها فيما حكاه الله تعالى من قوله: ﴿ ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ (آل عمران / ٥٠)، ولم يبين لهم إلّا بعض ما يختلفون فيه كما في قوله المحكي: ﴿ قد جئتكم بالحكمة ولا بين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون ﴾ (الزخرف / ٦٣).

وقوله: ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ إشارة الى الشطر الثاني من رسالته عليه السلام وقد أشار الى الشطر الأول بقوله: «مصدقاً لما بين يدي من التوراة».

ومن المعلوم أن البشرى هي الخبر الذي يسر المبشر ويفرحه ولا يكون إلّا بشيء من الخير يوافيه ويعود اليه، والخير المترقب من بعثة النبي ودعوته هو انفتاح باب من الرحمة الإلهية على الناس فيه سعادة دنياهم وعقباهم من عقيدة حقة أو عمل صالح أو كليهما. والبشرى بالنبي بعد النبي وبالدعوة الجديدة بعد حلول دعوة سابقة واستقرارها والدعوة الإلهية واحدة لا تبطل بمرور الدهور وتقضي الأزمنة واختلاف الأيام والليالي ـ إنما تتصور إذا كانت الدعوة الجديدة أرقى فيما تشتمل عليه من العقائد الحقة والشرائع المعدلة لأعمال المجتمع وأمثل لسعادة الإنسان في دنياه وعقباه.

وبهذا البيان يظهر أن معنى قوله عليه السلام: «ومبشراً برسول يأتي من بعدي» الخ؛ يفيد كون ما أتى به النبي أحمد صلى الله عليه وآله وسلم أرقى وأكمل مما تضمنته التوراة وبعث به عيسى عليه السلام وهو عليه السلام متوسط رابط بين الدعوتين.

ويعود معنى كلامه «إني رسول الله اليكم مصدقاً» الخ؛ الى أني رسول من الله اليكم أدعو الى شريعة التوراة ومنهاجها ـ ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم ـ وهي شريعة سيكملها

الله ببعث نبي يأتي من بعدي اسمه أحمد.

وهو كذلك فإمعان التأمل في المعارف الإلهية التي يدعو اليها الإسلام يعطي أنها أدق مما في غيره من الشرائع السماوية السابقة وخاصة ما يندب اليه من التوحيد الذي هو أصل الاصول الذي يبتني عليه كل حكم ويعود اليه كل من المعارف الحقيقية وقد تقدم شطر من الكلام فيه في المباحث السابقة من الكتاب.

وكذا الشرائع والقوانين العملية التي لم تدع شيئاً مما دق وجل من أعمال الإنسان الفردية والإجتماعية إلّا عدّلته وحدّت حدوده وقررته على أساس التوحيد ووجهته الى غرض السعادة.

والى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿**الذين يتبعون النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**﴾ (الأعراف / ١٥٧)، وآيات أُخرى يصف القرآن.

والآية أعني قوله: «ومبشراً برسول يأتي من بعدي» وإن كانت مصرحة بالبشارة لكنها لا تدل على كونها مذكورة في كتابه عليه السلام غير أن آية الأعراف المنقولة آنفاً «يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل» وكذا قوله في صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿**ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل**﴾ الآية (الفتح / ٢٩)، يدلان على ذلك.

وقوله: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ دلالة السياق على تعبير عيسى عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله وسلم بأحمد وعلى كونه اسماً له يعرف به عند الناس كما كان يسمى بمحمد ظاهرة لا ستره عليها.

ويدل عليه قول حسان:

صلّى الاله ومن يحفّ بعرشه والطيّبون على المبارك أحمد

ومن أشعار أبي طالب قوله:

وقـالوا لأحـمد أنت امرء خلوف اللسان ضعيف السبب

ألا إن أحـمد قـد جـاءهم بـحق ولم يأتـهم بـالكذب

وقوله مخاطباً للعباس وحمزة وجعفر وعلي يوصيهم بنصر النبي ﷺ:

كونوا فدى لكم أمي وما ولدت في نصر أحمد دون الناس أتراسا

ومن شعره فيه ﷺ وقد سماه باسمه الآخر محمد:

ألم تعلموا أنـا وجـدنا محمداً نبياً كموسى خط في أول الكتب

ويستفاد من البيت أنهم عثروا على وجود البشارة به ﷺ في الكتب السماوية التي كانت عند أهل الكتاب يومئذ ذاك.

ويؤيده أيضاً إيمان جماعة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وفيهم قوم من علمائهم كعبدالله بن سلام وغيره وقد كانوا يسمعون هذه الآيات القرآنية التي تذكر البشارة به ﷺ وذكره في التوراة والإنجيل فتلقوه بالقبول ولم يكذبوه ولا أظهروا فيه شيئاً من الشك والترديد.

وأما خلو الأناجيل الدائرة اليوم عن بشارة عيسى بما فيها من الصراحة فالقرآن ـ وهو آية معجزة باقية ـ في غنى عن تصديقها، وقد تقدم البحث عن سندها واعتبارها في الجزء الثالث من الكتاب.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ضمير «جاء» لأحمد ﷺ، وضمير «هم» لبني إسرائيل أو لهم ولغيرهم، والمراد بالبينات البشارة ومعجزة القرآن وسائر آيات النبوة.

والمعنى: فلما جاء أحمد المبشر به بني إسرائيل أو أتاهم وغيرهم بالآيات البينة التي منها بشارة عيسى عليه السلام قالوا هذا سحر مبين، وقرىء هذا ساحر مبين.

وقيل: ضمير «جاء» لعيسى عليه السلام، والسياق لا يلائمه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ﴾ الخ: الاستفهام للإنكار وهو ردّ لقولهم: «هذا سحر مبين» فإن معناه أن النبي ﷺ ليس برسول وأن ما بلّغه من دين الله ليس منه تعالى.

والمراد بالإسلام الدين الذي يدعو اليه رسول الله بما أنه تسليم لله فيما يريده ويأمر به من اعتقاد وعمل، ولا ريب أن مقتضى ربوبيته وأُلوهيته تعالى تسليم عباده له تسليماً مطلقاً فلا ريب أن الدين الذي هو الاسلام لله دينه الحق الذي يجب أن يدان به فدعوى أنه باطل ليس من الله افتراء على الله.

ومن هنا يظهر أن قوله: «وهو يدعى الى الإسلام» يتضمن الحجة على كون قولهم: «هذا سحر مبين» افتراء على الله.

والافتراء ظلم لا يرتاب العقل في كونه ظلماً وينهى عنه الشرع ويعظم الظلم بعظمة من وقع عليه فإذا كان هو الله سبحانه كان أعظم الظلم فلا أظلم ممن افترى على الله الكذب.

والمعنى: ولا أظلم ممن افترى على الله الكذب ـ بنفي نسبة دين الله اليه ـ والحال أنه يدعى الى دين الإسلام الذي لا يتضمن إلّا التسليم لله فيما أراد ولا ريب أنه من الله. والله لا يهدي القوم الظالمين.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ الخ: إطفاء النور إبطاله وإذهاب شروقه. وإطفاء النور بالأفواه إنما هو بالنفخ بها.

وقد وقعت الآية في سورة التوبة وفيها «يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم» قال الراغب: قال تعالى: «يريدون أن يطفؤا نور الله» «يريدون ليطفؤا نور الله» والفرق بين الموضعين أن في قوله: «يريدون أن يطفؤا» يقصدون إطفاء نور الله، وفي قوله: «ليطفؤا» يقصدون أمراً يتوصلون به الى إطفاء نور الله. انتهى. ومحصله أن متعلق الإرادة في قوله: «يريدون أن يطفؤا نور الله» نفس الإطفاء، وفي قوله: «ويريدون ليطفؤا نور الله» السبب

الموصل الى الإطفاء وهو النفخ بالأفواه والإطفاء غرض وغاية.

والآية وما يتلوها كالشارح لمعنى ما تقدم في الآية السابقة من ظلمهم برمي الدعوة بالسحر وعدم هدايته تعالى لهم بما أنهم ظالمون، والمحصل أنهم يريدون إطفاء نور الله بنفخة أفواههم لكن الله لا يهديهم الى مقصدهم بل يتمّ نوره ويظهر دينه على الدين كله.

فقوله: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي بالنفخ بالأفواه كما يطفأ الشمعة بالنفخة كناية عن أنهم زعموا أن نور الله وهو دينه نور ضعيف كنور الشمعة يطفأ بأدنى نفخة فرموه بالسحر وانقطاع نسبته الى الله.

وقد أخطؤا في مزعمتهم فهو نور الله الذي لا يطفأ وقد شاء أن يتمّه ولو كره الكافرون والله بالغ أمره، وهو قوله: «والله متمّ نوره ولو كره الكافرون».

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ الإضافة في «دين الحق» بيانية كما قيل: والظاهر أنها في الأصل إضافة لاميّة بعناية لطيفة هي أن لكل من الحق والباطل ديناً يقتضيه ويختص به، وقد ارتضى الله تعالى الدين الذي للحق ـ وهو الحق تعالى ـ فأرسل رسوله.

وإظهار شيء على غيره نصرته وتغليبه عليه، والمراد بالدين كله كل سبيل مسلوك غير سبيل الله الذي هو الإسلام والآية في مقام تعليل قوله في الآية السابقة: «والله متمّ نوره»، والمعنى: والله متمّ نوره لأنه هو الذي أرسل رسوله بنوره الذي هو الهدى ودين الحق ليجعله غالباً على جميع الأديان ولو كره المشركون من أهل الأوثان.

ويستفاد من الآيتين أن دين الحق نور الله في الأرض كما يستفاد ذلك من قوله: ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ الآية (النور / ٣٥)، وقد تقدم في تفسير الآية[١].

---

١. الصف ١ ـ ٩: بحث روائي حول بشارة عيسى عليه السلام برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

١٠ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ.

١١ ● تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

١٢ ● يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنّاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

١٣ ● وَأُخْرىٰ تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللّٰهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.

١٤ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللّٰهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللّٰهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللّٰهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ الاستفهام للعرض وهو في معنى الأمر.

والتجارة ـ على ما ذكره الراغب ـ التصرف في رأس المال طلباً للربح، ولا يوجد في كلام العرب تاء بعده جيم إلّا هذه اللفظة.

فقد أُخذ الإيمان والجهاد في الآية تجارة رأس مالها النفس وربحها النجاة من عذاب أليم، والآية في معنى قوله: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في

سبيل الله فيقتلون ويقتلون ـ الى أن قال ـ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم بـه﴾ (التـوبة / ١١١).

وقد فخم تعالى أمر هذه التجارة حيث قال: «على تجارة» أي تجارة جليلة القدر عظيمة الشأن، وجعل الربح الحاصل منها النجاة من عذاب أليم لا يقدر قدره.

ومصداق هذه النجاة الموعودة المغفرة والجنة، ولذا بدل ثانياً النجاة من العذاب من قوله: «يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات» الخ؛ وأما النصر والفتح الموعودان فهما خارجان عن النجاة الموعودة، ولذا فصلهما عن المغفرة والجنة فقال: «وأُخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب» فلا تغفل.

قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ الخ؛ استئناف بياني يفسر التجارة المعروضة عليهم كأنه قيل: ما هذه التجارة؟ فقيل «تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون» الخ؛ وقد أخذ الايمان بالرسول مع الايمان بالله للدلالة على وجوب طاعته فيما أمر به وإلّا فالايمان لا يعد إيماناً بالله إلّا مع الايمان برسالة الرسول قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ـ الى أن قال ـ أُولئك هم الكافرون حقاً﴾ (النساء / ١٥١).

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما ذكر من الايمان والجهاد خير لكم إن كنتم من أهل العلم وأما الجهلة فلا يعتد بأعمالهم.

وقيل: المراد تعلمون خيرية ذلك إن كنتم من أهل العلم والفقه.

قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الخ؛ جواب للشرط المقدّر المفهوم من الآية السابقة أي إن تؤمنوا بالله ورسوله وتجاهدوا في سبيله يغفر لكم، الخ.

وقد أُطلقت الذنوب المتعلقة بها المغفرة فالمغفور جميع الذنوب والاعتبار يساعده إذ هذه

المغفرة مقدمة الدخول في جنة الخلد ولا معنى لدخولها مع بقاء بعض الذنوب على حاله، ولعله للإشارة الى هذه النكتة عقبها بقوله: «ومساكن طيبة في جنات عدن» أي جنات ثبات واستقرار فكونها محل ثبات وموضع قرار يلوح أن المغفرة تتعلق بجميع الذنوب.

مضافاً الى ما فيه من مقابلة النفس المبذولة وهي متاع قليل معجّل بجنات عدن التي هي خالدة فتطيب بذلك نفس المؤمن وتقوى إرادته لبذل النفس وتضحيتها واختيار البقاء على الفناء.

ثم زاد في تأكيد ذلك بقوله: «ذلك الفوز العظيم».

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ الخ: عطف على قوله: «يغفر لكم» الخ؛ و«اخرى» وصف قائم مقام الموصوف وهو خبر لمبتدأ محذوف، وقوله: «نصر من الله وفتح قريب» بيان لاخرى، والتقدير ولكم نعمة أو خصلة اخرى تحبونها وهي نصر من الله وفتح قريب عاجل.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على الأمر المفهوم من سابق الكلام كأنه قيل «قل يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم» الخ؛ وبشر المؤمنين.

وتحاذي هذه البشرى ما في قوله: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ـ الى أن قال ـ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به﴾ (التوبة / ١١١). وبه يظهر أن الذي أُمر أن يبشروا به مجموع ما يؤتيهم الله من الأجر في الآخرة والدنيا لا خصوص النصر والفتح.

هذا كله ما يعطيه السياق في معنى الآية وإعراف أجزائها، وقد ذكر فيها أُمور اخرى لا يساعد عليها السياق تلك المساعدة أغمضنا عن ذكرها، واحتمل أن يكون قوله: «وبشر» الخ؛ استئنافاً.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ الخ؛ أي اتسموا بهذه السمة ودوموا واثبتوا عليها فالآية في معنى الترقي بالنسبة الى قوله السابق: «هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم» ومآل المعنى: اتجروا بأنفسكم وأموالكم فانصروا الله بالايمان والجهاد في سبيله ودوموا واثبتوا على نصره.

والمراد بنصرتهم لله أن ينصروا نبيه في سلوك السبيل الذي يسلكه الى الله على بصيرة كما قال: ﴿قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ (يوسف/١٠٨).

وقوله: ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ إشارة الى ما جرى عليه وانتهى اليه أمر استنصار عيسى وتلبية الحواريين حيث تفرق الناس الى طائفة مؤمنة واخرى كافرة فأيد الله المؤمنين على عدوهم وهم الكفار فأصبحوا ظاهرين بعد ما كانوا مستخفين مضطهدين.

سورة الجمعة مدنية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • يُسَبِّحُ لِلّٰهِ ما فِي السَّمٰواتِ وَما فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ.

٢ • هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيـاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ.

٣ • وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ.

٤ • ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللّٰهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ.

٥ • مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَـحْمِلُوها كَـمَثَلِ ٱلْـحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللّٰهِ وَاللّٰهُ لا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظّالِمِينَ.

٦ • قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلّٰهِ مِنْ دُونِ

النَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.
٧ ● وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ.
٨ ● قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

بيان:

غرض السورة هو الحث البالغ على الاهتمام بأمر صلاة الجمعة والقيام بواجب أمرها فهي من شعائر الله المعظمة التي في تعظيمها والاهتمام بأمرها صلاح أُخراهم ودنياهم، وقد سلك تعالى الى بيان أمره بافتتاح الكلام بتسبيحه والثناء عليه بما منَّ على قوم أُمّيين برسول منهم أُميّ يتلو عليهم آياته ويزكّيهم بصالحات الأعمال والزاكيات من الأخلاق ويعلمهم الكتاب والحكمة فيحملهم كتاب الله ومعارف دينه أحسن التحميل هم ومن يلحق بهم أو يخلفهم من بعدهم من المؤمنين فليحملوا ذلك أحسن الحمل، وليحذروا أن يكونوا كاليهود حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوا معارفها وأحكامها فكانوا مثل الحمار يحمل أسفاراً.

ثم تخلص الى الأمر بترك البيع والسعي الى ذكر الله إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، وقرّعهم على ترك النبي ﷺ قائماً يخطب والانفضاض والانسلال الى التجارة واللهو، وذلك آية عدم تحملهم ما حملوا من معارف كتاب الله وأحكامه. والسورة مدنية.

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ التسبيح تنزيه الشيء ونسبته الى الطهارة والنزاهة من العيوب والنقائص، والتعبير بالمضارع للدلالة على الاستمرار. والملك هو الاختصاص بالحكم في نظام المجتمع. والقدوس مبالغة في القدس وهو النزاهة والطهارة. والعزيز هو الذي لا يغلبه

غالب، والحكيم هو المتقن فعله فلا يفعل عن جهل أو جزاف.

وفي الآية توطئة وتمهيد برهاني لما يتضمنه قوله: «هو الذي بعث» الخ؛ من بعثة الرسول لتكميل الناس وإسعادهم وهدايتهم بعد إذ كانوا في ضلال مبين.

وذلك أنه تعالى يسبحه وينزهه الموجودات السماوية والأرضية بما عندهم من النقص الذي هو متممه والحاجة التي هو قاضيها فما من نقيصة أو حاجة إلّا وهو المرجو في تمامها وقضائها فهو المسبّح المنزّه عن كل نقص وحاجة فله أن يحكم في نظام التكوين بين خلقه بما شاء، وفي نظام التشريع في عباده بما أراد، كيف لا؟ وهو ملك له أن يحكم في أهل مملكته وعليهم أن يطيعوه.

وإذا حكم وشرّع بينهم ديناً لم يكن ذلك منه لحاجة الى تعبيدهم ونقص فيه يتممه بعبادتهم لأنه قدُّوس منزَّه عن كل نقص وحاجة.

ثم إذا حكم وشرَّع وبلغه إياهم عن غنيٍّ منه ودعاهم اليه بوساطة رسله فلم يستجيبوا دعوته وتمردوا عن طاعته لم يكن ذلك تعجيزاً منهم له تعالى لأنه العزيز لا يغلبه فيما يريده غالب.

ثم إن الذي حكم به وشرعه من الدين بما أنه الملك القدوس العزيز ليس يذهب لغى لا أثر له لأنه حكيم على الإطلاق لا يفعل ما يفعل إلّا لمصلحة ولا يريد منهم ما يريد إلّا لنفع يعود اليهم وخير ينالونه فيستقيم به حالهم في دنياهم وأُخراهم.

وبالجملة فتشريعه الدين وإنزاله الكتاب ببعث رسول يبلغهم ذلك بتلاوة آياته، ويزكيهم ويعلمهم من منه تعالى وفضل كما قال: «هو الذي بعث» الخ.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ الخ؛ الاميون جمع أُمي وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب، والمراد بهم ـ كما قيل ـ العرب لقلة من كان منهم يقرأ ويكتب وقد كان الرسول ﷺ منهم أي من جنسهم وهو غير كونه مرسلاً اليهم فقد كان منهم وكان

مرسلاً الى الناس كافة.

واحتمل أن يكون المراد بالاميين غير أهل الكتاب كما قال اليهود ـ على ما حكى الله عنهم ـ: ﴿ليس علينا في الاميين سبيل﴾ (آل عمران / ٧٥).

وفيه أنه لا يناسب قوله في ذيل الآية: «يتلو عليهم آياته» الخ؛ فإنه ﷺ لم يخص غير العرب وغير أهل الكتاب بشيء من الدعوة لم يلقه اليهم.

واحتمل أن يكون المراد بالاميين أهل مكة لكونهم يسمونها أُم القرى.

وفيه أنه لا يناسب كون السورة مدنية لإيهامه كون ضمير «يزكيهم ويعلمهم» راجعاً الى المهاجرين ومن أسلم من أهل مكة بعد الفتح وأخلافهم وهو بعيد من مذاق القرآن.

ولا منافاة بين كونه ﷺ من الاميين مبعوثاً فيهم وبين كونه مبعوثاً اليهم والى غيرهم وهو ظاهر، وتلاوته عليهم آياته وتزكيته وتعليمه لهم الكتاب والحكمة لنزوله بلغتهم وهو أول مراحل دعوته ولذا لما استقرت الدعوة بعض الإستقرار أخذ ﷺ يدعو اليهود والنصارى والمجوس وكاتب العظماء والملوك.

وكذا دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على ما حكى الله تعالى ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أُمة مسلمة لك ـ الى أن قال ـ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾ (البقرة / ١٢٩)، تشمل جميع آل إسماعيل من عرب مضر أعم من أهل مكة وغيرهم، ولا ينافي كونه ﷺ مبعوثاً اليهم والى غيرهم.

وقوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أي آيات كتابه مع كونه أُمياً. صفة للرسول.

وقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ التزكية تفعيل من الزكاة بمعنى النمو الصالح الذي يلازم الخير والبركة فتزكيته لهم تنميته لهم نماء صالحاً بتعويدهم الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة فيكملون بذلك في إنسانيتهم فيستقيم حالهم في دنياهم وآخرتهم يعيشون سعداء ويموتون سعداء.

وتعليم الكتاب بيان ألفاظ آياته وتفسير ما أُشكل من ذلك، ويقابله تعليم الحكمة وهي المعارف الحقيقية التي يتضمنها القرآن، والتعبير عن القرآن تارة بالآيات وتارة بالكتاب للدلالة على أنه بكل من هذه العناوين نعمة يمتن بها ـ كما قيل ـ.

وقد قدم التزكية ههنا على تعليم الكتاب والحكمة بخلاف ما في دعوة إبراهيم ﷺ لأن هذه الآية تصف تربيته ﷺ لمؤمني أُمته، والتزكية مقدمة في مقام التربية على تعليم العلوم الحقة والمعارف الحقيقية وأما ما في دعوة إبراهيم ﷺ فإنها دعاء وسؤال أن يتحقق في ذريته هذه الزكاة والعلم بالكتاب والحكمة، والعلوم والمعارف أقدم مرتبة وأرفع درجة في مرحلة التحقق والاتصاف من الزكاة الراجعة الى الأعمال والأخلاق.

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ «إن» مخففة من الثقيلة والمراد أنهم كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال مبين، والآية تحميد بعد تسبيح ومسوقة للامتنان كما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ عطف على الاميين وضمير «منهم» راجع اليهم و «من» للتبعيض والمعنى: بعث في الاميين وفي آخرين منهم لم يلحقوا بهم بعد وهو العزيز الذي لا يغلب في إرادته الحكيم الذي لا يلغو ولا يجازف في فعله.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الإشارة بذلك الى بعث الرسول ﷺ ـ وقد فخم أمره بالإشارة البعيدة ـ فهو ﷺ المخصوص بالفضل، والمعنى: ذلك البعث وكونه يتلو آيات الله ويزكي الناس ويعلمهم الكتاب والحكمة من فضل الله وعطائه يعطيه من تعلقت به مشيته وقد شاء أن يعطيه محمد ﷺ والله ذو الفضل العظيم كذا قال المفسرون.

ومن الممكن أن تكون الإشارة بذلك الى البعث بما له من النسبة الى أطرافه من المرسل

والمرسل اليهم، والمعنى: ذلك البعث من فضل الله يؤتيه من يشاء وقد شاء أن يخص بهذا الفضل محمداً ﷺ فاختاره رسولاً، وأُمته فاختارهم لذلك فجعله منهم وأرسله اليهم.

والآية والآيتان قبلها أعني قوله: «هو الذي بعث ـ الى قوله ـ العظيم» مسوقة سوق الامتنان.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ الخ؛ قال الراغب: السفر ـ بالفتح فالسكون ـ كشف الغطاء ويختص ذلك بالأعيان نحو سفر العمامة عن الرأس والخمار عن الوجه ـ الى أن قال ـ والسفر ـ بالكسر فالسكون ـ الكتاب الذي يسفر عن الحقائق قال تعالى: «كمثل الحمار يحمل أسفاراً» انتهى.

والمراد بتحميل التوراة تعليمها، والمراد بحملها العمل بها على ما يؤيده السياق ويشهد به ما في ذيل الآية من قوله: «بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله»، والمراد بالذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها اليهود الذين أنزل الله التوراة على رسولهم موسى عليه السلام فعلمهم ما فيها من المعارف والشرائع فتركوها ولم يعملوا بها فحمّلوها ولم يحملوها فضرب الله لهم مثل الحمار يحمل أسفاراً وهو لا يعرف ما فيها من المعارف والحقائق فلا يبق له من حملها إلّا التعب بتحمل ثقلها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ احتجاج على اليهود يظهر به كذبهم في دعواهم أنهم أولياء الله وأحباؤه، وقد حكى الله تعالى ما يدل على ذلك عنهم بقوله: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ (المائدة / ١٨)، وقوله: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس﴾ (البقرة / ٩٤)، وقوله: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلّا من كان هوداً﴾ (البقرة / ١١١).

ومحصل المعنى: قل لليهود مخاطباً لهم يا أيها الذين تهودوا إن كنتم اعتقدتم أنكم أولياء لله

من دون الناس إن كنتم صادقين في دعواكم فتمنوا الموت لأن الولي يحب لقاء وليه ومن أيقن أنه ولي لله وجبت له الجنة ولا حاجب بينه وبينها إلّا الموت أحب الموت وتمنى أن يحلَّ بـه فيدخل دار الكرامة ويتخلص من هذه الحياة الدنيّة التي ما فيها إلّا الهم والغم والمحنة والمصيبة.

قوله تعالى: ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظّٰالِمِينَ﴾ أخبر تعالى نبيه ﷺ أنهم لا يتمنونه أبداً بعد ما أمره أن يعرض عليهم تمني الموت.

وقد علل عدم تمنيهم الموت بما قدمت أيديهم وهو كناية عن الظلم والفسوق، فمعنى الآية: ولا يتمنون الموت أبداً بسبب ما قدمته أيديهم من الظلم فكانوا ظالمين والله عليم بالظالمين يعلم أنهم لا يحبون لقاءه لأنهم أعداؤه لا ولاية بينه وبينهم ولا محبة.

والآيتان في معنى قوله تعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾ (البقرة / ٩٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلىٰ عٰالِمِ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهٰادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الفاء في قوله: «فإنه ملاقيكم» في معنى جواب الشرط، وفيه وعيد لهم بأن الموت الذي يكرهونه كراهة أن يؤاخذوا بوبال أعمالهم فإنه سيلاقيهم لا محالة ثم يردُّون الى ربهم الذي خرجوا من زيّ العبودية بمظالمهم وعادوه بأعمالهم وهو عالم بحقيقة أعمالهم ظاهرها وباطنها فإنه عالم الغيب والشهادة فينبئهم بحقيقة أعمالهم وتبعاتها السيئة وهي أنواع العذاب[1][2].

---

١. الجمعة ١ ـ ٨: بحث روائي قوله تعالى: «هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم»، وقوله تعالى: «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم»؛ أهل فارس؛ أولياء الله.

٢. الجمعة ١ ـ ٨: كلام في معنى تعليم الحكمة.

٩ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

١٠ • فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

١١ • وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ الخ؛ المراد بالنداء للصلاة من يوم الجمعة الأذان كما في قوله: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً﴾ (المائدة / ٥٨).

والجمعة بضمتين أو بالضم فالسكون أحد أيام الاسبوع وكان يسمى أولاً يوم العروبة ثم غلب عليه اسم الجمعة. والمراد بالصلاة من يوم الجمعة صلاة الجمعة المشرّعة يومها، والسعي هو المشي بالإسراع، والمراد بذكر الله الصلاة كما في قوله: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ (العنكبوت / ٤٥)، على ما قيل وقيل: المراد به الخطبة قبل الصلاة وقوله: «وذروا البيع» أمر بتركه، والمراد به على ما يفيده السياق النهي عن الاشتغال بكل عمل يشغل عن صلاة الجمعة سواء كان بيعاً أو غيره وإنما علق النهي بالبيع لكونه من أظهر مصاديق ما يشغل عن الصلاة.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا أُذن لصلاة الجمعة يومها فجدّوا في المشي الى الصلاة واتركوا البيع وكل ما يشغلكم عنها.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حثّ وتحريض لهم لما أُمر به من الصلاة وترك البيع.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ الخ: المراد بقضاء الصلاة إقامة صلاة الجمعة، والانتشار في الأرض التفرق فيها، وابتغاء فضل الله طلب الرزق نظراً الى مقابلته ترك البيع في الآية السابقة لكن تقدم أن المراد ترك كل ما يشغل عن صلاة الجمعة، وعلى هذا فابتغاء فضل الله طلب مطلق عطيته في التفرق لطلب رزقه بالبيع والشرى، وطلب ثوابه بعيادة مريض والسعي في حاجة مسلم وزيارة أخ في الله، وحضور مجلس علم ونحو ذلك.

وقوله: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أمر واقع بعد الحظر فيفيد الجواز والاباحة دون الوجوب وكذا قوله: «وابتغوا، واذكروا».

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المراد بالذكر أعم من الذكر اللفظي فيشمل ذكره تعالى قلباً بالتوجه اليه باطناً، والفلاح النجاة من كل شقاء، وهو في المورد بالنظر الى ما تقدم من حديث التزكية والتعليم وما في الآية التالية من التوبيخ والعتاب الشديد، الزكاة والعلم وذلك أن كثرة الذكر يفيد رسوخ المعنى المذكور في النفس وانتقاشه في الذهن فتنقطع به منابت الغفلة ويورث التقوى الديني الذي هو مظنة الفلاح قال تعالى: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ (آل عمران / ٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً﴾ الخ: الانفضاض ـ على ما ذكره الراغب ـ استعارة عن الانفضاض بمعنى انكسار الشيء وتفرق بعضه من بعض.

وقد اتفقت روايات الشيعة وأهل السنة على أنه ورد المدينة عير معها تجارة وذلك يـوم الجمعة والنبي ﷺ قائم يخطب فضربوا بالطبل والدف لإعلام الناس فانفض أهل المسجد اليهم وتركوا النبي ﷺ قائماً يخطب فنزلت الآية. فالمراد باللهو استعمال المـعازف وآلات الطرب ليجتمع الناس للتجارة، وضمير «اليها» راجع الى التجارة لأنها كانت المـقصودة في نفسها واللهو مقصود لأجلها، وقيل: الضمير لأحدهما كأنه قيل: انفضوا اليه وانفضوا اليها وذلك أن كلاً منهما سبب لانفضاض الناس اليه وتجمعهم عليه، ولذا ردد بينهما وقال: «تجارة أو لهواً» ولم يقل: تجارة ولهواً والضمير يصلح للرجوع الى كل منهما لأن اللهو في الأصل مصدر يجوز فيه الوجهان التذكير والتأنيث.

ولذا أيضاً عد «ما عند الله» خيراً من كل منهما بحياله فقال: «من اللهو ومن التجارة» ولم يقل: من اللهو والتجارة.

وقـوله: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أمر للنبي أن ينبههم على خطإهم فيما فعلوا ـ وما أفظعه ـ والمراد بما عند الله الثواب الذي يستعقبه سماع الخطبة والموعظة.

والمعنى قل لهم: ما عند الله من الثواب خير من اللهو ومن التجارة لأن ثوابه تعالى خـير حقيقي دائم غير منقطع، وما في اللهو والتجارة من الخير أمر خيالي زائل باطل وربما استتبع سخطه تعالى كما في اللهو.

وخير الرازقين من أسمائه تعالى الحسنى كالرزّاق وقد تقدم الكـلام في مـعنى الرزق فـيما تقدم[1].

---

١. الجمعة ٩ ـ ١١: بحث روائي في صلاة الجمعة.

سورة المنافقون مدنية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● إِذٰا جٰاءَكَ الْمُنٰافِقُونَ قٰالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللّٰهِ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنٰافِقِينَ لَكٰاذِبُونَ.

٢ ● إِتَّخَذُوا أَيْمٰانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ إِنَّهُمْ سٰاءَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ.

٣ ● ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ يَفْقَهُونَ.

٤ ● وَإِذٰا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسٰامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قٰاتَلَهُمُ اللّٰهُ أَنّىٰ يُؤْفَكُونَ.

٥ ● وَإِذٰا قِيلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسولُ اللّٰهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ.

٦ ● سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ.

٧ ● هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ.

٨ ● يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ.

بيان:

تصف السورة المنافقين وتسمهم بشدّة العداوة وتأمر النبي ﷺ أن يحذرهم وتعظ المؤمنين أن يتحرّزوا من خصائص النفاق فلا يقعوا في مهلكته ولا يجرّهم الى النار. والسورة مدنية.

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ المنافق اسم فاعل من النفاق وهو في عرف القرآن إظهار الايمان وإبطان الكفر.

والكذب خلاف الصدق وهو عدم مطابقة الخبر للخارج فهو وصف الخبر كالصدق وربما اعتبرت مطابقة الخبر ولا مطابقته بالنسبة الى اعتقاد المخبر فيكون مطابقته لاعتقاد المخبر صدقاً منه وعدم مطابقته له كذباً فيقال: فلان كاذب إذا لم يطابق خبره الخارج وفلان كاذب إذا أخبر بما يخالف اعتقاده ويسمى النوع الأول صدقاً وكذباً خبريين، والثاني

صدقاً وكذباً مخبريين.

فقوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ حكاية لإظهارهم الايمان بالشهادة على الرسالة فإن في الشهادة على الرسالة إيماناً بما جاء به الرسول ﷺ ويتضمن الايمان بوحدانيته تعالى وبالمعاد، وهو الايمان الكامل.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ تثبيت منه تعالى لرسالته ﷺ، وإنما أورده مع أن وحي القرآن ومخاطبته ﷺ كان كافياً في تثبيت رسالته، ليكون قرينة مصرحة بأنهم كاذبون من حيث عدم اعتقادهم بما يقولون وإن كان قولهم في نفسه صادقاً فهم كاذبون في قولهم كذباً مخبرياً لا خبرياً فقوله: «والله يشهد إن المنافقين لكاذبون» أُريد به الكذب المخبري لا الخبري.

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الخ: الأيمان جمع يمين بمعنى القسم، والجنة الترس والمراد بها ما يتقى به من باب الإستعارة، والصد يجيء بمعنى الإعراض وعليه فالمراد إعراضهم أنفسهم عن سبيل الله وهو الدين وبمعنى الصرف وعليه فالمراد صرفهم العامة من الناس عن الدين وهم في وقاية من أيمانهم الكاذبة.

والمعنى: اتخذوا أيمانهم الكاذبة التي يحلفون وقاية لأنفسهم فأعرضوا عن سبيل الله ودينه ـ أو فصرفوا العامة من الناس عن دين الله بما يستطيعونه من الصرف بتقليب الامور وإفساد والعزائم.

وقوله: «إنهم ساء ما كانوا يعملون» تقبيح لأعمالهم التي استمروا عليها منذ نافقوا الى حين نزول السورة.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الظاهر أن الإشارة بذلك الى سوء ما عملوا كما قيل، وقيل: الإشارة الى جميع ما تقدم من كذبهم واستجنانهم بالأيمان الفاجرة وصدهم عن سبيل الله ومساءة أعمالهم.

والمراد بأيمانهم ـ على ما قيل ـ إيمانهم بألسنتهم ظاهراً بشهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسوله ثم كفرهم بخلو باطنهم عن الإيمان كما قال تعالى فيهم: ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن** ﴾ (البقرة / ١٤).

ولا يبعد أن يكون فيهم من آمن حقيقة ثم ارتدّ وكتم ارتداده فلحق بالمنافقين يتربّص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبالمؤمنين الدوائر كما يظهر من بعض آيات سورة التوبة كقوله: ﴿ **فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه** ﴾ (التوبة / ٧٧). وقد عبَّر تعالى عمن لم يدخل الايمان في قلبه منهم بمثل قوله: ﴿ **وكفروا بعد إسلامهم** ﴾ (التوبة / ٧٤).

فالظاهر أن المراد بقوله: «آمنوا ثم كفروا» إظهارهم للشهادتين أعم من أن يكون عن ظهر القلب أو بظاهر من القول ثم كفرهم بإتيان أعمال تستصحب الكفر كالاستهزاء بالدين وردّ بعض الأحكام.

وقوله: ﴿ **فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ** ﴾ تفريع عدم الفقه على طبع القلوب دليل على أن الطبع ختم على القلب يستتبع عدم قبوله لورود كلمة الحق فيه فهو آئس من الايمان محروم من الحق.

والطبع على القلب جعله بحيث لا يقبل الحق ولا يتبعه فلا محالة يتبع الهوى كما قال تعالى: ﴿ **طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم** ﴾ (سورة محمّد / ١٦). فلا يفقه ولا يسمع ولا يعلم كما قال تعالى: ﴿ **وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون** ﴾ (التوبة / ٨٧). وقال: ﴿ **ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون** ﴾ (الأعراف / ١٠٠). وقال: ﴿ **وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون** ﴾ (التوبة / ٩٣). والطبع على أي حال لا يكون منه تعالى إلّا مجازاة لأنه إضلال والذي ينسب اليه تعالى من الاضلال إنما هو الاضلال على سبيل المجازاة دون الإضلال الابتدائي وقد مرّ مراراً.

قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ** ﴾

الخ: الظاهر أن الخطاب في «رأيتهم» و«تسمع» خطاب عام يشمل كل من رآهم وسمع كلامهم لكونهم في أزياء حسنة وبلاغة من الكلام، وليس خطاباً خاصاً بالنبي ﷺ، والمراد أنهم على صباحة من المنظر وتناسب من الأعضاء إذا رآهم الرائي أعجبته أجسامهم، وفصاحة وبلاغة من القول إذا سمع السامع كلامهم مسال الى الإصغاء الى قولهم لحلاوة ظاهره وحسن نظمه.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ ذم لهم بحسب باطنهم والخشب بضمتين جمع خشبة، والتسنيد نصب الشيء معتمداً على شيء آخر كحائط ونحوه.

والجملة مسوقة لذمّهم وهي متممة لسابقتها، والمراد أن لهم أجساماً حسنة معجبة وقولاً رائعاً ذا حلاوة لكنهم كالخشب المسندة أشباح بلا أرواح لا خير فيها ولا فائدة تعتريها لكونهم لا يفقهون.

وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ ذمّ آخر لهم أي إنهم لإبطانهم الكفر وكتمانهم ذلك من المؤمنين يعيشون على خوف ووجل ووحشة يخافون ظهور أمرهم واطّلاع الناس على باطنهم ويظنون أن كل صيحة سمعوها فهي كائنة عليهم وأنهم المقصودون بها.

وقوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ أي هم كاملون في العداوة بالغون فيها فإن أعدى أعدائك من يعاديك وأنت تحسبه صديقك.

وقوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ دعاء عليهم بالقتل وهو أشد شدائد الدنيا وكأن استعمال المقاتلة دون القتل للدلالة على الشدة.

وقوله: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ مسوق للتعجب أي كيف يصرفون عن الحق؟ وقيل: هو توبيخ وتقريع وليس باستفهام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ الخ: التلوية تفعيل من لوى يلوي ليّاً بمعنى مال.

والمعنى: وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله ـ وذلك عندما ظهر منهم بعض خياناتهم وفسوقهم ـ أمالوا رؤسهم إعراضاً واستكباراً ورآهم الرائي يعرضون عن القائل وهم مستكبرون عن إجابة قوله.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ﴾ الخ: أي يتساوى الاستغفار وعدمه في حقهم وتساوي الشيء وعدمه كناية عن أنه لا يفيد الفائدة المطلوبة منه، فالمعنى: لا يفيدهم استغفارك ولا ينفعهم.

وقوله: ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ﴾ دفع دخل كأن سائلاً يسأل: لماذا يتساوى الاستغفار لهم وعدمه؟ فاجيب: لن يغفر الله لهم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾ تعليل لقوله: «لن يغفر الله لهم»، والمعنى: لن يغفر الله لهم لأن مغفرته لهم هداية لهم الى السعادة والجنة وهم فاسقون خارجون عن زي العبودية لابطانهم الكفر والطبع على قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين.

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاٰ تُنْفِقُوا عَلىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللّٰهِ حَتّىٰ يَنْفَضُّوا﴾ الخ: الانفضاض التفرُّق، والمعنى: المنافقون هم الذين يقولون: لا تنفقوا أموالكم على المؤمنين الفقراء الذين لازموا رسول الله واجتمعوا عنده لنصرته وإنفاذ أمره وإجراء مقاصده حتى يتفرقوا عنه فلا يتحكم علينا.

وقوله: ﴿وَلِلّٰهِ خَزٰائِنُ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جواب عن قولهم: لا تنفقوا، الخ: أي إن الدين دين الله ولا حاجة له الى إنفاقهم فله خزائن السماوات والأرض ينفق منها ويرزق من يشاء كيف يشاء فلو شاء لأغنى الفقراء من المؤمنين لكنه تعالى يختار ما هو الأصلح فيمتحنهم بالفقر ويتعبدهم بالصبر ليوجرهم أجراً كريماً ويهديهم صراطاً مستقيماً والمنافقون في جهل من ذلك.

وهذا معنى قوله: «ولكن المنافقين لا يفقهون» أي لا يفقهون وجه الحكمة في ذلك واحتمل

أن يكون المعنى أن المنافقين لا يفقهون أن خزائن العالم بيد الله وهو الرازق لا رازق غيره فلو شاء لأغناهم لكنهم يحسبون أن الغنى والفقر بيد الأسباب فلو لم ينفقوا على اولئك الفقراء من المؤمنين لم يجدوا رازقاً يرزقهم.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ القائل هو عبدالله بن أُبيّ بن سلول، وكذا قائل الجملة السابقة: لا تنفقوا، الخ: وإنما عبر بصيغة الجمع تشريكاً لأصحابه الراضين بقوله معه.

ومراده بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ ويريد بهذا القول تهديد النبي ﷺ بإخراجه من المدينة بعد المراجعة اليها وقد ردَّ الله عليه وعلى من يشاركه في نفاقه بقوله: «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون» فقصر العزة في نفسه ورسوله والمؤمنين فلا يبق لغيرهم إلّا الذلة ونفى عن المنافقين العلم فلم يبق لهم إلّا الذلة والجهالة[1][2].

٩ • يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ.

١٠ • وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ.

---

١. المنافقون ١ ـ ٨: بحث روائي حول: المنافقين: عبدالله بن أُبيّ؛ نزول سورة المنافقون.

٢. المنافقون ١ ـ ٨: كلام حول النفاق في صدر الاسلام.

١١ ● وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الخ: لالهاء الإشغال، والمراد بإلهاء الأموال والأولاد عن ذكر الله إشغالها القلب بالتعلق بها بحيث يوجب الاعراض عن التوجه الى الله بما أنها زينة الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ (الكهف / ٤٦)، والاشتغال بها يوجب خلوّ القلب عن ذكر الله ونسيانه تعالى فلا يبقى له إلّا القول من غير عمل وتصديق قلبي ونسيان العبد لربه يستعقب نسيانه تعالى له، قال تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ (التوبة / ٦٧)، وهو الخسران المبين، قال تعالى في صفة المنافقين: ﴿أُولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾ (البقرة / ١٦).

واليه الإشارة بما في ذيل الآية من قوله: «ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون».

والأصل هو نهي المؤمنين عن التلهّي بالأموال والأولاد وتبديله من نهي الأموال والأولاد عن إلهائهم للتلويح الى أن من طبعها الإلهاء فلا ينبغي لهم أن يتعلقوا بها فتلهيهم عن ذكر الله سبحانه فهو نهي كنائي آكد من التصريح.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ الخ: أمر بالإنفاق في البر أعم من الإنفاق الواجب كالزكاة والكفارات أو المندوب، وتقييده بقوله: «مما رزقناكم» للإشعار بأن أمره هذا ليس سؤالاً لما يملكونه دونه، وإنما هو شيء هو معطيه لهم ورزق هو رازقه وملك هو ملّكهم إياه من غير أن يخرج عن ملكه يأمرهم بإنفاق شيء منه فيما يريد فله المنّة عليهم في كل حال.

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي فينقطع أمد استطاعته من

التصرف في ماله بالإنفاق في سبيل الله.

وقوله: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ عطف على قوله: «أن يأتي» الخ؛ وتقييد الأجل بالقريب للاشعار بأنه قانع بقليل من التمديد ـ وهو مقدار ما يسع الإنفاق من العمر ـ ليسهل إجابته، ولأن الأجل أيّاً ما كان فهو قريب، ومن كلامه ﷺ: كل ما هو آتٍ قريب.

وقوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ نصب «فأصدق» لكونه في جواب التمني، وجزم «أكن» لكونه في معنى جزاء الشرط، والتقدير إن أتصدق أكن من الصالحين.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ إيآس لهم من استجابة دعاء من يسأل تأخير الأجل بعد حلوله والموت بعد نزوله وظهور آيات الآخرة. وقد تكرر في كلامه تعالى أن الأجل المسمّى من مصاديق القضاء المحتوم كقوله: ﴿وإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (يونس / ٤٩).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ حال من ضمير «أحدكم» أو عطف على أول الكلام ويفيد فائدة التعليل، والمعنى: لا تتلهّوا وأنفقوا فإن الله عليم بأعمالكم يجازيكم بها.

سورة التغابن مدنية وهي ثماني عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • يُسَبِّحُ لِلّٰهِ ما فِي السَّمٰواتِ وَما فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ
ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٢ • هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللّٰهُ بِما
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

٣ • خَلَقَ السَّمٰواتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ
وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ.

٤ • يَعْلَمُ ما فِي السَّمٰواتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما
تُعْلِنُونَ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

٥ • أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ
عَذابٌ أَلِيمٌ.

٦ • ذٰلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا

فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللّهُ وَاللّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

٧ ● زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ
لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذٰلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ.

٨ ● ا تَعْمَلُونَ

مانع ولا خوف من لومة لائم.

والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقدم الكلام في معنى التسبيح والملك والحمد والقدرة، وأن المراد بما في السماوات والأرض يشمل نفس السماوات والأرض ومن فيها وما فيها.

وقوله: «له الملك» مطلق يفيد إطلاق الملك وعدم محدوديته بحد ولا تقيده بقيد أو شرط فلا حكم نافذاً إلّا حكمه، ولا حكم له إلّا نافذاً على ما أراد.

وكذا قوله: «وله الحمد» مطلق يفيد رجوع كل حمد من كل حامد ـ والحمد هو الثناء على الجميل الاختياري ـ اليه تعالى لأن الخلق والأمر اليه فلا ذات ولا صفة ولا فعل جميلاً محموداً إلّا منه واليه.

وكذا قوله: «وهو على كل شيء قدير» بما يدل عليه من عموم متعلق القدرة غير محدودة ولا مقيدة بقيد أو شرط.

وإذ كانت الآيات ـ كما تقدمت الإشارة اليه ـ مسوقة لإثبات المعاد كانت الآية كالمقدمة الاولى لإثباته، وتفيد أن الله منزّه عن كل نقص وشين في ذاته وصفاته وأفعاله يملك الحكم على كل شيء والتصرف فيه كيفما شاء وأراد، ـ ولا يتصرف إلّا جميلاً ـ وقدرته تسع كل شيء فله أن يتصرف في خلقه بالإعادة كما تصرف فيهم بالإبداء ـ الإحداث والإبقاء ـ فله أن يبعثهم إن تعلقت به إرادته ولا تتعلق إلّا بحكمه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الفاء في «فمنكم» تدل على مجرد ترتب الكفر والايمان على الخلق فلا دلالة في التفريع على كون الكفر والايمان مخلوقين لله تعالى أو غير مخلوقين، وإنما المراد انشعابهم

فرقتين: بعضهم كافر وبعضهم مؤمن، وقدم ذكر الكافر لكثرة الكفار وغلبتهم.

و «من» في قوله: «فمنكم ومنكم» للتبعيض أي فبعضكم كافر وبعضكم مؤمن.

وقد نبه بقوله: «والله بما تعملون بصير» على أن انقسامهم قسمين وتفرقهم فرقتين حق كما ذكر، وهم متميزون عنده لأن الملاك في ذلك أعمالهم ظاهرها وباطنها والله بما يعملون بصير لا تخفى عليه ولا تشتبه.

وتتضمن الآية مقدمة اخرى لاثبات المعاد وتنجزه وهي أن الناس مخلوقون له تعالى متميزون عنده بالكفر والايمان وصالح العمل وطالحه.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ المراد بالحق خلاف الباطل وهو خلقها من غير غاية ثابتة وغرض ثابت كما قال: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا﴾ (الأنبياء / ١٧)، وقال: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلّا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ (الدخان / ٣٩).

وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ المراد بالتصوير إعطاء الصورة وصورة الشيء قوامه ونحو وجوده كما قال: ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم﴾ (التين / ٤)، وحسن الصورة تناسب تجهيزاتها بعضها لبعض والمجموع لغاية وجودها، وليس هو الحسن بمعنى صباحة المنظر وملاحته بل الحسن العام الساري في الأشياء كما قال تعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ (الم السجدة / ٧).

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ﴾ دفع شبهة لمنكري المعاد مبنية على الاستبعاد وهي أنه كيف يمكن إعادة الموجودات وهي فانية بائدة وحوادث العالم لا تحصى والأعمال والصفات لا تعدّ، منها ظاهرة علنية ومنها باطنة سرية ومنها مشهودة ومنها مغيبة، فاجيب

بأن الله يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون.

وقوله: «والله عليم بذات الصدور» قيل: إنه اعتراض تذييلي مقرر لشمول علمه تعالى بما يسرّون وما يعلنون والمعنى: أنه تعالى محيط علماً بالمضرات المستكنة في صدور الناس مما لا يفارقها أصلاً فكيف يخفى عليه شيء مما تسرونه وما تعلنونه.

وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ الخ؛ وضع الظاهر موضع الضمير والأصل «وهو عليم» الخ؛ والنكتة فيه الإشارة الى علة الحكم، وليكون ضابطاً يجري مجرى المثل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وبال الأمر تبعته السيئة والمراد بأمرهم كفرهم وما تفرع عليه من فسوقهم.

لما كان مقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا المعدودة في الآيات السابقة وجوب معاد الناس ومصيرهم الى ربهم للحساب والجزاء فمن الواجب إعلامهم بما يجب عليهم أن يأتوا به أو يجتنبوا عنه وهو الشرع، والطريق الى ذلك الرسالة فمن الواجب إرسال رسول على أساس الإنذار والتبشير بعقاب الآخرة وثوابها وسخطه تعالى ورضاه.

فقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ الخطاب للمشركين وفيه إشارة الى قصص الامم السالفة الهالكة كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، ممن أهلكهم الله بذنوبهم، وقوله: «فذاقوا وبال أمرهم» إشارة الى ما نزل عليهم من عذاب الاستئصال وقوله: «ولهم عذاب أليم» إشارة الى عذابهم الاخروي.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ الخ؛ بيان لسبب ما ذكر من تعذيبهم بعذاب الاستئصال وعذاب الآخرة، ولذلك جيء بالفصل دون العطف كأنه جواب لسؤال مقدر كأن سائلاً يسأل فيقول: لم أصابهم ما أصابهم من العذاب؟ فقيل «ذلك بأنه كانت» الخ؛ والإشارة بذلك الى ما ذكر من العذاب.

وفي التعبير عن إتيان الرسل ودعوتهم بقوله: «كانت تأتيهم» الدال على الاستمرار، وعن

كفرهم وقولهم بقوله: «فقالوا وكفروا وتولوا» الدال بالمقابلة على المرة دلالة على أنهم قالوا ما قالوا كلمة واحدة قاطعة لا معدل عنها وثبتوا عليها وهو العناد واللجاج فتكون الآية في معنى قوله تعالى: ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ (الأعراف / ١٠١)، وقوله: ﴿ثم بعثنا من بعده (أي بعد نوح) رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ (يونس / ٧٤).

وقوله: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ يطلق البشر على الواحد والجمع والمراد به الثاني بدليل قوله: «يهدوننا» والتنكير للتحقير، والاستفهام للانكار أي قالوا على سبيل الإنكار: أآحاد من البشر لا فضل لهم علينا يهدوننا؟

وهذا القول منهم مبني على الاستكبار، على أن أكثر هؤلاء الامم الهالكة كانوا وثنيين وهم منكرون للنبوة وهو أساس تكذيبهم لدعوة الأنبياء، ولذلك فرّع تعالى على قولهم: «أبشر يهدوننا» قوله: «فكفروا وتولوا» أي بنوا عليه كفرهم وإعراضهم.

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ الاستغناء طلب الغنى وهو من الله سبحانه ـ وهو غني بالذات ـ إظهار الغنى وذلك أنهم كانوا يرون أن لهم من العلم والقوة والاستطاعة ما يدفع عن جمعهم الفناء ويضمن لهم البقاء كأنه لا غنى للوجود عنهم كما حكى الله سبحانه عن قائلهم ﴿قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾ (الكهف / ٣٥)، وقال: ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضرّاء مسّته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة﴾ (حم السجدة / ٥٠).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ في محل التعليل لمضمون الآية. والمعنى: والله غني في ذاته محمود فيما فعل، فما فعل بهم من إذاقتهم وبال أمرهم وتعذيبهم بعذاب أليم على كفرهم وتوليهم من غناه وعدله لأنه مقتضى عملهم المردود اليهم.

قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ

لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ذكر ركن آخر من أركان كفر الوثنيين وهو إنكارهم الدين السماوي بإنكار المعاد إذ لا يبقى مع انتفاء المعاد أثر للدين المبني على الأمر والنهي والحساب والجزاء ويصلح تعليلاً لإنكار الرسالة إذ لا معنى حينئذ للتبليغ والوعيد.

والمراد بالذين كفروا عامة الوثنيين ومنهم من عاصر النبي ﷺ منهم كأهل مكة وما والاها، وقيل: المراد أهل مكة خاصة.

وقوله: ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أمر النبي ﷺ أن يجيب عن زعمهم أن لن يبعثوا، بإثبات ما نفوه بما في الكلام من أصناف التأكيد بالقسم واللام والنون.

و «ثم» في «ثم لتنبؤن» للتراخي بحسب رتبة الكلام، وفي الجملة إشارة الى غاية البعث وهو الحساب وقوله: «وذلك على الله يسير» أي ما ذكر من البعث والإنباء بالأعمال يسير عليه تعالى غير عسير، وفيه رد لإحالتهم أمر البعث على الله سبحانه استبعاداً. وقد عبر عنه في موضع آخر من كلامه بمثل قوله: ﴿ وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ (الروم / ٢٧).

والدليل عليه ما عده في صدر الآيات من أسمائه تعالى وصفاته من الخلق والملك والعلم وأنه مسبح محمود، ويجمع الجميع أنه الله المستجمع لجميع صفات الكمال.

ويظهر من هنا أن التصريح باسم الجلالة في الجملة أعني قوله: «وذلك على الله يسير» للإيماء الى التعليل، والمفاد أن ذلك يسير عليه تعالى لأنه الله، والكلام حجة برهانية لا دعوى مجردة.

وذكروا أن الآية ثالثة الآيات التي أمر الله نبيه ﷺ أن يقسم بربه على وقوع المعاد وهي ثلاث: إحداها قوله: ﴿ ويستنبؤنك أحق هو قل أي وربي ﴾ (يونس / ٥٣)، والثانية قوله: ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ﴾ (سبأ / ٣)، والثالثة

الآية التي نحن فيها.

قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تفريع على مضمون الآية السابقة أي إذا كنتم مبعوثين لا محالة منبئين بما علمتم وجب عليكم أن تؤمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزله على رسوله وهو القرآن الذي يهدي بنوره الساطع الى مستقيم الصراط، ويبين شرائع الدين.

وفي قوله: ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ التفات من الغيبة الى التكلم مع الغير ولعل النكتة فيه تتميم الحجة بالسلوك من طريق الشهادة وهي أقطع للعذر فكم فرق بين قولنا: والنور الذي أُنزل وهو إخبار، وقوله: «والنور الذي أنزلنا» ففيه شهادة منه تعالى على أن القرآن كتاب سماوي نازل من عنده تعالى، والشهادة آكد من الإخبار المجرد.

لا يقال: ماذا ينفع ذلك وهم ينكرون كون القرآن كلامه تعالى النازل من عنده ولو صدقوا ذلك كفاهم ما مر من الحجة على المعاد وأغنى عن التمسك بذيل الالتفات المذكور.

لأنه يقال: كفى في إبطال إنكارهم كونه كلام الله ما في القرآن من آيات التحدي المثبتة لكونه كلام الله، والشهادة على أي حال آكد وأقوى من الإخبار وإن كان مدللاً.

وقوله: «والله بما تعملون خبير» تذكرة بعلمه تعالى بدقائق أعمالهم ليتأكد به الأمر في قوله: «فآمنوا» والمعنى: آمنوا وجدوا في إيمانكم فإنه عليم بدقائق أعمالكم لا يغفل عن شيء منها وهو مجازيكم بها لا محالة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ الخ: «يوم» ظرف لقوله السابق: «لتبعثن ثم لتنبؤن» الخ؛ والمراد بيوم الجمع يوم القيامة الذي يجمع فيه الناس لفصل القضاء بينهم قال تعالى: ﴿ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً﴾ (الكهف / ٩٩)، وقد تكرر في القرآن الكريم حديث الجمع ليوم القيامة، ويفسره أمثال قوله تعالى: ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (الجاثية / ١٧)، وقوله: ﴿فالله يحكم بينهم

يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ (البقرة / ١١٣). وقوله: ﴿ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ (السجدة / ٢٥). فالآيات تشير الى أن جمعهم للقضاء بينهم.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ قال الراغب: الغبن أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء. قال: ويوم التغابن يوم القيامة لظهور الغبن في المعاملة المشار اليها بقوله: ﴿ ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضات الله ﴾ وبقوله: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين ﴾ الآية؛ وبقوله: ﴿ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ فعلموا أنهم غبنوا فيما تركوا من المبايعة وفيما تعاطوه من ذلك جميعاً.

وسئل بعضهم عن يوم التغابن فقال: تبدو الأشياء لهم بخلاف مقاديرهم في الدنيا. انتهى موضع الحاجة.

وما ذكره أولاً مبني على تفسير التغابن بسريان المغبونية بين الكفار بأخذهم لمعاملة خاسرة وتركهم معاملة رابحة، وهو معنى حسن غير أنه لا يلائم معنى باب التفاعل الظاهر في فعل البعض في البعض.

وما نقله عن بعضهم وجه ثان لا يخلو من دقة، ويؤيده مثل قوله تعالى: ﴿ فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين ﴾ (الم السجدة / ١٧)، وقوله: ﴿ لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد ﴾ (ق / ٣٥)، وقوله: ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ (الزمر / ٤٧).

ومقتضى هذا الوجه عموم التغابن لجميع أهل الجمع من مؤمن وكافر أما المؤمن فلما أنه لم يعمل لآخرته أكثر مما عمل، وأما الكافر فلأنه لم يعمل أصلاً، والوجه المشترك بينهما أنهما لم يقدّرا اليوم حق قدره.

ويرد على هذا الوجه ما يرد على سابقه.

وهناك وجه ثالث وهو أن يعتبر التغابن بين أهل الضلال متبوعيهم وتابعيهم فالمتبوعون وهم المستكبرون يغبنون تابعيهم وهم الضعفاء حيث يأمرونهم بأخذ الدنيا وترك الآخرة

فيضلون، والتابعون يغبنون المتبوعين حيث يعينونهم في استكبارهم باتباعهم فيضلون، فكل من الفريقين غابن لغيره ومغبون من غيره.

وهناك وجه رابع وردت به الرواية وهو أن لكل عبد منزلاً في الجنة لو أطاع الله لدخله، ومنزلاً في النار لو عصى الله لدخله يوم القيامة يعطى منازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة، ويعطى منازل أهل الجنة في النار لأهل النار فيكون أهل الجنة وهم المؤمنون غابنين لأهل النار وهم الكفار والكفار هم المغبونون.

وقال بعض المفسرين بعد إيراد هذا الوجه: وقد فسّر التغابن قوله ذيلاً: «ومن يؤمن بالله ـ الى قوله ـ وبئس المصير» انتهى. وليس بظاهر ذاك الظهور.

وقوله: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً ـ الى قوله ـ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ تقدم تفسيره مراراً.

١١ • مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّٰهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

١٢ • وَأَطِيعُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلاَغُ ٱلْمُبِينُ.

١٣ • اللّٰهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ.

١٤ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

١٥ • إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللّٰهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ.

١٦ ● فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

١٧ ● إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ .

١٨ ● عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

بيان:

قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ المصيبة صفة شاع استعمالها في الحوادث السوء التي تصحب الضر. والإذن الإعلام بالرخصة وعدم المانع ويلازم علم الآذان بما أذن فيه. وليس هو العلم كما قيل.

فظهر بما تقدم أولاً أنه إذنه تعالى في عمل سبب من الأسباب هو التخلية بينه وبين مسببيه برفع الموانع التي تتخلل بينه وبين مسببه فلا تدعه يفعل فيه ما يقتضيه بسببيته كالنار تقتضي إحراق القطن مثلاً لولا الفصل بينهما والرطوبة فرفع الفصل بينهما والرطوبة من القطن مع العلم بذلك إذن في عمل النار في القطن بما تقتضيه ذاتها أعني الإحراق.

وقد كان استعمال الإذن في العرف العام مختصاً بما إذا كان المأذون له من العقلاء لمكان أخذ معنى الإعلام في مفهومه فيقال: أذنت لفلان أن يفعل كذا ولا يقال: أذنت للنار أن تحرق، ولا أذنت للفرس أن يعدو. لكن القرآن الكريم يستعمله فيما يعم العقلاء وغيرهم بالتحليل كقوله: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله ﴾ (النساء / ٦٤)، وقوله: ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾ (الأعراف / ٥٨)، ولا يبعد أن يكون هذا التعميم مبنياً على ما يفيده القرآن

من سريان العلم والإدراك في الموجودات كما قدمناه في تفسير قوله: ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ (حم السجدة / ٢١).

وكيف كان فلا يتم عمل من عامل ولا تأثير من مؤثر إلّا بإذن من الله سبحانه فما كان من الأسباب غير تام له موانع لو تحققت منعت من تأثيره فإذنه تعالى له في أن يؤثر رفعه الموانع، وما كان منها تاماً لا مانع له يمنعه فإذنه له عدم جعله له شيئاً من الموانع فتأثيره يصاحب الإذن من غير انفكاك.

وثانياً: أن المصائب وهي الحوادث التي تصيب الانسان فتؤثر فيه آثاراً سيئة مكروهة إنما تقع بإذن من الله سبحانه كما أن الحسنات كذلك لاستيعاب إذنه تعالى صدور كل أثر من كل مؤثر.

وثالثاً: أن هذا الإذن تكويني غير الاذن التشريعي الذي هو رفع الحظر عن الفعل فإصابة المصيبة تصاحب إذناً من الله في وقوعها وإن كانت من الظلم الممنوع فإن كون الظلم ممنوعاً غير مأذون فيه إنما هو من جهة التشريع دون التكوين.

ولذا كانت بعض المصائب غير جائزة الصبر عليها ولا مأذوناً في تحملها ويجب على الإنسان أن يقاومها ما استطاع كالمظالم المتعلقة بالأعراض والنفوس.

ومن هنا يظهر أن المصائب التي ندب الى الصبر عندها هي التي لم يؤمر المصاب عندها بالذب والامتناع عن تحملها كالمصائب العامة الكونية من موت ومرض مما لا شأن لاختيار الإنسان فيها. وأما ما للاختيار فيها دخل كالمظالم المتعلقة نوع تعلق بالاختيار من المظالم المتوجه الى الأعراض فللإنسان أن يتوقاها ما استطاع.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ كان ظاهر سياق قوله: «ما أصاب من مصيبة إلّا بإذن الله» يفيد أن لله سبحانه في الحوادث التي تسوء الإنسان علماً ومشيّة فليست تصيبه مصيبة إلّا بعد علمه تعالى ومشيته فليس لسبب من الأسباب الكونية أن يستقل بنفسه

فيما يؤثره فإنما هو نظام الخلقة لا رب يملكه إلّا خالقه فلا تحدث حادثة ولا تقع واقعة إلّا بعلم منه ومشية فلم يكن ليخطئه ما أصابه ولم يكن ليصيبه ما أخطأه.

وهذه هي الحقيقة التي بيّنها بلسان آخر في قوله: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلّا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ (الحديد / ٢٢).

فالله سبحانه رب العالمين ولازم ربوبيته العامة أنه وحده يملك كل شيء لا مالك بالحقيقة سواه، والنظام الجاري في الوجود مجموع من أنحاء تصرفاته في خلقه فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلّا عن إذن منه، ولا يفعل فاعل ولا يقبل قابل إلّا عن علم سابق منه ومشية لا يخطىء علمه ومشيته ولا يرد قضاؤه.

فالاذعان بكونه تعالى هو الله يستعقب اهتداء النفس الى هذه الحقائق واطمئنان القلب وسكونه وعدم اضطرابه وقلقه من جهة تعلقه بالأسباب الظاهرية وإسناده المصائب والنوائب المرّة اليها دون الله سبحانه.

وهذا معنى قوله تعالى: «ومن يؤمن بالله يهد قلبه».

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تأكيد للاستثناء المتقدم، ويمكن أن يكون إشارة الى ما يفيده قوله: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلّا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ (الحديد / ٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ظاهر تكرار «أطيعوا» دون أن يقال: أطيعوا الله والرسول اختلاف المراد بالإطاعة، فالمراد بإطاعة الله تعالى الانقياد له فيما شرّعه لهم من شرائع الدين والمراد بإطاعة الرسول الانقياد له وامتثال ما يأمر به بحسب ولايته للامة على ما جعلها الله له.

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾ التولي الإعراض، والبلاغ التبليغ، والمعنى: فإن أعرضتم عن إطاعة الله فيما شرّع من الدين أو عن إطاعة

الرسول فيما أمركم به بما أنه وليُّ أمركم ، فلم يكرهكم رسولنا عن الطاعة فإنه لم يؤمر بذلك ، وإنما أُمر بالتبليغ وقد بلّغ .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ في مقام التعليل لوجوب إطاعة الله على ما تقدم أن طاعة الرسول من طاعة الله ، توضيح ذلك أن الطاعة بمعنى الانقياد ، والإئتمار للأمر والإنتهاء للأمر والإنتهاء عن النهي من شؤن العبودية حيث لا أثر لملك المولى رقبة عبده إلاّ مالكيته لإرادته وعمله فلا يريد إلاّ ما يريد المولى أن يريده ولا يعمل إلاّ ما يريد المولى أن يعمله فالطاعة نحو من العبودية كما يشير اليه قوله : ﴿ ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ (يس / ٦٠) ، يعاتبهم بعبادة الشيطان وإنما أطاعوه .

فطاعة المطيع بالنسبة الى المطاع عبادة له ، وإذ لا معبود إلاّ الله فلا طاعة إلاّ لله عز اسمه أو من أمر بطاعته فالمعنى : أطيعوا الله سبحانه إذ لا طاعة إلاّ لمعبود ولا معبود بالحق إلاّ الله فيجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به بطاعة غيره وعبادته كالشيطان وهوى النفس وهذا معنى كون الجملة في مقام التعليل .

وقوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ تأكيد لمعنى الجملة السابقة أعني قوله : « الله لا إله إلاّ هو » .

توضيحه : أن التوكيل إقامة الإنسان غيره مقام نفسه في إدارة أُموره ولازم ذلك قيام إرادته مقام إرادة موكله وفعله مقام فعله فينطبق بوجه على الإطاعة فإن المطيع يجعل إرادته وعمله تبعاً لإرادة المطاع فتقوم إرادة المطاع مقام إرادته ويعود عمله متعلقاً لإرادة المطاع صادراً منها اعتباراً فترجع الإطاعة توكيلاً بوجه كما أن التوكيل إطاعة بوجه .

فإطاعة العبد لربه إتباع إرادته لإرادة ربه والإتيان بالفعل على هذا النمط وبعبارة اخرى إيثار إرادته وما يتعلق بها من العمل على إرادة نفسه وما يتعلق بها من العمل .

فطاعته تعالى فيما شرّع لعباده وما يتعلق بها نوع تعلق من التوكل عليه، وطاعته واجبة لمن عرفه وآمن به فعلى الله فليتوكل المؤمنون وإياه فليطيعوا، وأما من لم يعرفه ولم يؤمن به فلا تتحقق منه طاعة.

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ الخ؛ «من» في «أزواجكم» للتبعيض، وسياق الخطاب بلفظ «يا أيها الذين آمنوا» وتعليق العداوة بهم يفيد التعليل أي أنهم يعادونهم بما أنهم مؤمنون، والعداوة من جهة الايمان لا تتحقق إلّا باهتمامهم أن يصرفوهم عن أصل الايمان أو عن الأعمال الصالحة كالإنفاق في سبيل الله والهجرة من دار الكفر أو أن يحملوهم على الكفر أو المعاصي الموبقة كالبخل عن الإنفاق في سبيل الله شفقة على الأولاد والأزواج والغصب واكتساب المال من غير طريق حله.

فالله سبحانه يعد بعض الأولاد والأزواج عدواً للمؤمنين في إيمانهم حيث يحملونهم على ترك الايمان بالله أو ترك بعض الأعمال الصالحة أو اقتراف بعض الكبائر الموبقة وربما أطاعوهم في بعض ذلك شفقة عليهم وحباً لهم فأمرهم الله بالحذر منهم.

وقوله: ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قال الراغب: العفو القصد لتناول الشيء يقال: عفاه واعتفاه أي قصده متناولاً ما عنده ـ الى أن قال ـ وعفوت عنه قصدت إزالة ذنبه صارفاً عنه، وقال: الصفح ترك التثريب وهو أبلغ من العفو، ولذلك قال تعالى: «فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره» وقد يعفو الانسان ولا يصفح، وقال: الغفر إلباس ما يصونه عن الدنس، ومنه قيل: اغفر ثوبك في الوعاء واصبغ ثوبك فإنه أغفر للوسخ، والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب قال: ﴿ غفرانك ربنا ﴾ ﴿ ومغفرة من ربكم ﴾ ﴿ ومن يغفر الذنوب إلّا الله ﴾ انتهى.

ففي قوله: «فاعفوا واصفحوا واغفروا» ندب الى كمال الاغماض عن الأولاد والأزواج.

إذا ظهر منهم شيء من آثار المعاداة المذكورة ـ مع الحذر من أن يفتتن بهم ـ.

وفي قوله : «فإن الله غفور رحيم» إن كان المراد خصوص مغفرته ورحمته للمخاطبين أن يعفوا ويصفحوا ويغفروا كان وعداً جميلاً لهم تجاه عملهم الصالح كما في قوله تعالى: ﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ (النور / ٢٢).

وإن أُريد مغفرته ورحمته العامتان من غير تقييد بمورد الخطاب أفاد أن المغفرة والرحمة من صفات الله سبحانه فإن عفوا وصفحوا وغفروا فقد اتصفوا بصفات الله وتخلّقوا بأخلاقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الفتنة ما يبتلى ويمتحن به، وكون الأموال والبنين فتنة إنما هو لكونهما زينة الحياة تنجذب اليهما النفس انجذاباً فتفتتن وتلهو بهما عما يهمها من أمر آخرته وطاعة ربه، قال تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ (الكهف / ٤٦).

والجملة كناية عن النهي عن التلهي بهما والتفريط في جنب الله باللىّ اليهما ويؤكده قوله: «والله عنده أجر عظيم».

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ الخ؛ أي مبلغ استطاعتكم ـ على ما يفيده السياق فإن السياق سياق الدعوة والندب الى السمع والطاعة والإنفاق والمجاهدة في الله ـ والجملة تفريع على قوله: «إنما أموالكم» الخ؛ فالمعنى: اتقوه مبلغ استطاعتكم ولا تدعوا من الاتقاء شيئاً تسعه طاقتكم وجهدكم فتجري الآية مجرى قوله: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ (آل عمران / ١٠٢)، وليست الآية ناظرة الى النفي التكليف بالاتقاء فيما وراء الاستطاعة وفوق الطاقة كما في قوله: ﴿ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به﴾ (البقرة / ٢٨٦).

وقوله: ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ﴾ توضيح وتأكيد لقوله: «فاتقوا الله ما استطعتم» والسمع الاستجابة والقبول وهو في مقام الالتزام القلبي، والطاعة الانقياد وهو في مقام العمل، والإنفاق المراد به بذل المال في سبيل الله.

و ﴿خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ﴾ منصوب بمحذوف ـ على ما في الكشاف ـ والتقدير آمنوا خيراً لأنفسكم، ويحتمل أن يكون «أنفقوا» مضمناً معنى قدّموا أو ما يقرب منه بقرينة المقام، وفي قوله: «لأنفسكم» دون أن يقال: خيراً لكم زيادة تطييب لنفوسهم أي إن الإنفاق خير لكم لا ينتفع به إلّا أنفسكم لما فيه من بسط أيديكم وسعه قدرتكم على رفع حوائج مجتمعكم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تقدم تفسيره في تفسير سورة الحشر.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّٰهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ المراد بإقراض الله الإنفاق في سبيله سمّاه الله إقراضاً لله وسمّى المال المنفق قرضاً حسناً حثّاً وترغيباً لهم فيه.

وقوله: ﴿يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ إشارة الى حسن جزائه في الدنيا والآخرة.

والشكور والحليم وعالم الغيب والشهادة والعزيز والحكيم خمسة من أسماء الله الحسنى تقدم شرحها، ووجه مناسبتها لما أُمر به في الآية من السمع والطاعة والإنفاق ظاهر[1].

---

١. التغابن ١١ ـ١٨: بحث روائي في كون الاموال والاولاد فتنة: تقوى الله حق تقاته؛ شح النفس.

سورة الطلاق مدنية وهي اثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذٰا طَلَّقْتُمُ النِّسٰاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا
ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا اللّٰهَ رَبَّكُمْ لاٰ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاٰ
يَخْرُجْنَ إِلّاٰ أَنْ يَأْتِينَ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّٰهِ وَمَنْ
يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّٰهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاٰ تَدْرِي لَعَلَّ اللّٰهَ يُحْدِثُ
بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً.
٢ • فَإِذٰا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فٰارِقُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهٰادَةَ لِلّٰهِ
ذٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كٰانَ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ
اللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً.
٣ • وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَهُوَ
حَسْبُهُ إِنَّ اللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللّٰهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً.

٤ • وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً.

٥ • ذٰلِكَ أَمْرُ اللّٰهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً.

٦ • أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتّٰى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرىٰ.

٧ • لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمّا آتاهُ اللّٰهُ لا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها سَيَجْعَلُ اللّٰهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً.

بيان:

تتضمن السورة بيان كليات من أحكام الطلاق تعقبه عظة وإنذار وتبشير، والسورة مدنية بشهادة سياقها.

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ الى آخر الآية؛ بُدىء الخطاب بنداء النبي ﷺ لأنه الرسول الى الامة وإمامهم فيصلح لخطابه أن يشمله وأتباعه من أُمته وهذا شائع في الاستعمال يخص مقدّم القوم وسيدهم بالنداء ويخاطب بما يعمّه وقومه فلا موجب لقول بعضهم: إن التقدير يا أيها النبي قل

لامّتك: إذا طلقتم النساء، الخ.

وقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي إذا أردتم أن تطلقوا النساء وأشرفتم على ذلك إذ لا معنى لتحقق الطلاق بعد وقوع الطلاق فهو كقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا﴾ الآية (المائدة / ٦).

والعدة قعود المرأة عن الزوج حتى تنقضي المدة المرتبة شرعاً، والمراد بتطليقهن لعدتهن تطليقهن لزمان عدتهن بحيث يأخذ زمان العدة من يوم تحقق التطليقة وذلك بأن تكون التطليقة في طهر لا مواقعة فيه حتى تنقضي أقراؤها.

وقوله: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي عدُّوا الأقراء التي تعتد بها، وهو الاحتفاظ عليها لأن للمرأة فيها حق النفقة والسكنى على زوجها وللزوج فيها حق الرجوع.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ ظاهر السياق كون «لا تخرجوهن» الخ؛ بدلاً من «اتقوا الله ربكم» ويفيد ذلك تأكيد النهي في «لا تخرجوهن» والمراد بيوتهن البيوت التي كن يسكنه قبل الطلاق أُضيفت اليهن بعناية السكنى.

وقوله: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ نهي عن خروجهن أنفسهن كما كان سابقه نهياً عن إخراجهن.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ أي ظاهرة كالزنا والبذاء وإيذاء أهلها كما في الروايات المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي الأحكام المذكورة للطلاق حدود الله حدَّ بها أعمالكم ومن يتعد ويتجاوز حدود الله بأن لم يراعها وخالفها فقد ظلم نفسه أي عصى ربه.

وقوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أي أمراً يقضي بتغير الحال وتبدّل رأي الزوج في طلاقها بأن يميل إلّا الالتيام ويظهر في قلبه محبة حب الرجوع الى

سابق الحال.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ـ الى قوله ـ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ المراد من بلوغهن أجلهن اقترابهن من آخر زمان العدة وإشرافهن عليه، والمراد بإمساكهن الرجوع على سبيل الاستعارة، وبمفارقتهن تركهن ليخرجن من العدة ويبنّ.

والمراد بكون الإمساك بمعروف حسن الصحبة ورعاية ما جعل الله لهن من الحقوق، وبكون فراقهن بمعروف أيضاً لسترام الحقوق الشرعية فالتقدير بمعروف من الشرع.

وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي أشهدوا على الطلاق رجلين منكم صاحبي عدل، وقد مر توضيح معنى العدل في تفسير سورة البقرة.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ تقدم توضيحه في تفسير سورة البقرة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي ما مر من الأمر بتقوى الله وإقامة الشهادة لله والنهي عن تعدي حدود الله أو مجموع ما مرَّ من الأحكام والبعث الى التقوى والإخلاص في الشهادة والزجر عن تعدي حدود الله يوعظ به المؤمنون ليركنوا الى الحق وينقلعوا عن الباطل، وفيه إيهام أن الإعراض عن هذه الأحكام أو تغييرها خروجاً من الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ـ الى قوله ـ قَدْراً﴾ أي «ومن يتق الله» ويتورع عن محارمه ولم يتعد حدوده واحترم لشرائعه فعمل بها «يجعل له مخرجاً» من مضائق مشكلات الحياة فإن شريعته فطرية يهدي بها الله الإنسان الى ما تستدعيه فطرته وتقضي به حاجته وتضمن سعادته في الدنيا والآخرة «ويرزقه» من الزوج والمال وكل ما يفتقر اليه في طيب عيشه وزكاة حياته «من حيث لا يحتسب» ولا يتوقع فلا يخف المؤمن أنه إن اتقى الله واحترم حدوده حرم طيب الحياة

وابتلي بضنك المعيشة فإن الرزق مضمون والله على ما ضمنه قادر .

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ باعتزاله عن نفسه فيما تهواه وتأمر به وإيثاره إرادة الله سبحانه على إرادة نفسه والعمل الذي يريده الله على العمل الذي تهواه وتريده نفسه وبعبارة اخرى تدين بدين الله وعمل بأحكامه «فهو حسبه» أي كافية فيما يريده من طيب العيش ويتمناه من السعادة بفطرته لا بواهمته الكاذبة .

وذلك أنه تعالى هو السبب الأعلى الذي تنتهي اليه الأسباب فإذا أراد شيئاً فعله وبلغ ما أراده من غير أن تتغير إرادته فهو القائل ﴿ما يبدل القول لدي﴾ (ق / ٢٩)، أو يحول بينه وبين ما أراده مانع فهو القائل ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ (الرعد / ٤١)، وأما الأسباب الاخر التي يتشبث بها الإنسان في رفع حوائجه فإنما تملك من السببية ما ملكها الله سبحانه وهو المالك لما ملكها والقادر على ما عليه أقدرها ولها من الفعل مقدار ما أذن الله فيه .

فالله كاف لمن توكل عليه لا غيره «إن الله بالغ أمره» يبلغ حيث أراد، وهو القائل «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» «قد جعل الله لكل شيء قدراً» فما من شيء إلّا له قدر مقدور وحدّ محدود والله سبحانه لا يحدّه حد ولا يحيط به شيء وهو المحيط بكل شيء.

هذا هو معنى الآية بالنظر الى وقوعها في سياق آيات الطلاق وانطباقها على المورد.

وأما بالنظر الى إطلاقها في نفسها مع الغض عن السياق الذي وقعت فيه فقوله : «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب» مفاده أن من اتقى الله بحقيقة معنى تقواه ولا يتم ذلك إلّا بمعرفته تعالى بأسمائه وصفاته ثم تورعه واتقاؤه بالاجتناب عن المحرمات وتحرز ترك الواجبات خالصاً لوجهه الكريم، ولازمه أن لا يريد إلّا ما يريده الله من فعل أو ترك، ولازمه أن يستهلك إرادته في إرادة الله فلا يصدر عنه فعل إلّا عن إرادة من الله .

ولازم ذلك أن يرى نفسه وما يترتب عليها من سمة أو فعل ملكاً طلقاً لله سبحانه يتصرف فيها بما يشاء وهو ولاية الله يتولى أمر عبده فلا يبقى له من الملك بحقيقة معناه شيء إلّا ما ملّكه

الله سبحانه وهو المالك لما ملكه والملك لله عز اسمه.

وعند ذلك ينجيه الله من مضيق الوهم وسجن الشرك بالتعلق بالأسباب الظاهرية «ويجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب» أما الرزق المادي فإنه كان يرى ذلك من عطايا سعيه والأسباب الظاهرية التي كان يطمئن اليها وما كان يعلم من الأسباب إلّا قليلاً من كثير كقبس من نار يضيء للانسان في الليلة الظلماء موضع قدمه وهو غافل عما وراءه. لكن الله سبحانه محيط بالأسباب وهو الناظم لها ينظمها كيف يشاء ويأذن في تأثير ما لا علم له به من خباياها.

وأما الرزق المعنوي الذي هو حقيقة الرزق الذي يعيش به النفس الإنسانية وتبقى فهو مما لم يكن يحتسبه ولا يحتسب طريق وروده عليه.

وبالجملة هو سبحانه يتولى أمره ويخرجه من مهبط الهلاك ويرزقه من حيث لا يحتسب، ولا يفقد من كماله والنعم التي كان يرجو نيلها بسعيه شيئاً لأنه توكل على الله وفوّض الى ربه ما كان لنفسه «ومن يتوكل على الله فهو حسبه» دون سائر الأسباب الظاهرية التي تخطىء تارة وتصيب أُخرى «إن الله بالغ أمره» لأن الامور محدودة محاطة له تعالى و«قد جعل الله لكل شيء قدراً» فهو غير خارج عن قدره الذي قدّره به.

وهذا نصيب الصالحين من الأولياء من هذه الآية.

وأما من هو دونهم من المؤمنين المتوسطين من أهل التقوى النازلة درجاتهم من حيث المعرفة والعمل فلهم من ولاية الله ما يلائم حالهم في إخلاص الإيمان والعمل الصالح وقد قال تعالى وأطلق: ﴿والله وليّ المؤمنين﴾ (آل عمران / ٦٨)، وقال وأطلق: ﴿والله وليّ المتقين﴾ (الجاثية / ١٩).

وتديّنهم بدين الحق وهي سنّة الحياة وورودهم وصدورهم في الامور عن إرادته تعالى هو تقوى الله والتوكل عليه بوضع إرادته تعالى موضع إرادة أنفسهم فينالون من سعادة الحياة

بحسبه ويجعل الله له مخرجاً ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، وحسبهم ربهم فهو بالغ أمره وقد جعل لكل شيء قدراً.

وعليهم من حرمان السعادة قدر ما دبَّ من الشرك في إيمانهم وعملهم وقد قال تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون﴾ (يوسف / ١٠٦)، وقال وأطلق: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ (النساء / ٤٨).

وقال: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ (طه / ٨٢)، أي لمن تاب من الشرك وقال وأطلق: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ (المزمل / ٢٠).

فلا يرقى المؤمن الى درجة من درجات ولاية الله إلّا بالتوبة من خفيّ الشرك الذي دونها.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ المراد بالارتياب الشك في يأسهن من المحيض أهو لكبر أم لعارض، فالمعنى: واللائي يئسن من المحيض من نسائكم وشككتم في أمر يأسهن أهو لبلوغ سنهن سن اليأس أم لعارض فعدَّتهن ثلاثة أشهر.

وقوله: ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ عطف على قوله: «واللائي يئسن» الخ؛ والمعنى: واللائي لم يحضن وهو في سن من تحيض فعدّتهن ثلاثة أشهر.

وقوله: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي منتهى زمان عدتهن وضع الحمل.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ أي يسهل عليه ما يستقبله من الشدائد والمشاق، وقيل: المراد أنه يسهل عليه امور الدنيا والآخرة إما بفرج عاجل أو عوض آجل.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي ما بيَّنه في الآيات المتقدمة حكم الله أنزله اليكم، وفي قوله: «ومن يتق الله يكفّر عنه سيئاته ويعظم له أجراً» دلالة على أن اتباع

الأوامر من التقوى كاجتناب المحرمات ولعله باعتبار أن امتثال الأمر يلازم اجتناب تركه.

وتكفير السيئات سترها بالمغفرة، والمراد بالسيئات المعاصي الصغيرة فيبقى للتقوى كبائر المعاصي، ويكون مجموع قوله: «ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً» في معنى قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ (النساء / ٣١)، ومن الآيتين يظهر أن المراد بالمحارم في قوله ﷺ في تعريف التقوى: أنها الورع عن محارم الله المعاصي الكبيرة.

ويظهر أيضاً أن مخالفة ما أنزله الله من الأمر في الطلاق والعدة من الكبائر إذ التقوى المذكورة في الآية تشمل ما ذكر من أمر الطلاق والعدة لا محالة فهو غير السيئات المكفرة وإلّا اختلّ معنى الآية.

قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ الى آخر الآية؛ قال في المفردات: وقوله تعالى: «من وجدكم» أي تمكّنكم وقدر غناكم، ويعبر عن الغنى بالوجدان والجدة، وقد حكي فيه الوَجد والوِجد والوُجد ـ بالحركات الثلاث في الواو ـ انتهى.

وضمير «هن» للمطلقات على ما يؤيده السياق، والمعنى: أسكنوا المطلقات من حيث سكنتم من المساكن على قدر تمكنكم وغناكم على الموسر قدره وعلى المعسر قدره.

وقوله: ﴿وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ أي لا توجهوا اليهن ضرراً يشق عليهن تحمّله من حيث السكنى والكسوة والنفقة لتوردوا الضيق والحرج عليهن.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ معناه ظاهر.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فلهن عليكم أجر الرضاعة وهو من نفقة الولد التي على الوالد.

وقوله: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ الائتمار بشيء تشاور القوم فيه بحيث يأمر بعضهم فيه بعضاً، وهو خطاب للرجل والمرأة أي تشاوروا في أمر الولد وتوافقوا في معروف من العادة بحيث لا يتضرر الرجل بزيادة الأجر الذي ينفقه ولا المرأة بنقيصته ولا الولد بنقص مدة الرضاع الى غير ذلك.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ أي وإن أراد كل منكم من الآخر ما فيه عسر واختلفتم فسترضع الولد امرأة أخرى أجنبية غير والدته أي فليسترضع الوالد غير والدة الصبي.

قوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ الإنفاق من سعة هو التوسعة في الإنفاق وهو أمر لأهل السعة بأن يوسعوا على نسائهم المطلقات المرضعات أولادهم.

وقوله: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ قدر الرزق ضيقه، والإيتاء الإعطاء، والمعنى: ومن ضاق عليه رزقه وكان فقيراً لا يتمكن من التوسع في الإنفاق فلينفق على قدر ما أعطاه الله من المال أي فلينفق على قدر تمكنه.

وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ أي لا يكلف الله نفساً إلّا بقدر ما أعطاها من القدرة فالجملة تنفي الحرج من التكاليف الإلهي ومنها إنفاق المطلقة.

وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ فيه بشرى وتسلية[1].

٨ ● وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً.

٩ ● فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً.

---

١. الطلاق ١ ـ ٧: بحث روائي في الطلاق والعدة: الشكر: الدعاء والاستجابة: التوكل على الله.

١٠ • أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً.

١١ • رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آياتِ اللّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللّهُ لَهُ رِزْقاً.

١٢ • اللّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً﴾ قال الراغب: العتو النبوء عن الطاعة انتهى. فهو قريب المعنى من الاستكبار، وقال: النكر الدهاء والأمر الصعب الذي لا يعرف انتهى. والمراد بالنكر في الآية المعنى الثاني: وفي المجمع النكر المنكر الفظيع الذي لم يرَ مثله انتهى.

والمراد بالقرية أهلها على سبيل التجوز كقوله: ﴿واسأل القرية﴾ (يوسف / ٨٢)، وفي قوله: «عتت عن أمر ربها ورسله» إشارة الى أنهم كفروا بالله سبحانه بالشرك وكفروا كفراً آخر برسله بتكذيبهم في دعوتهم. على أنهم كفروا بالله تعالى في ترك شرائعه المشرعة وكفروا برسله فيما أُمروا به بولايتهم لهم كما مر نظيره في قوله: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ (التغابن / ١٢).

وشدة الحساب المناقشة فيه والاستقصاء لتوفية الأجر كما هو عليه، والمراد به حساب الدنيا غير حساب الآخرة والدليل على كونه حساب الدنيا قوله تعالى: ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**﴾ (الشورى / ٣٠)، وقوله: ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون**﴾ (الأعراف / ٩٦).

فما يصيب الإنسان من مصيبة ـ وهي المصيبة في نظر الدين ـ هو حاصل محاسبة أعماله والله يعفو عن كثير منها بالمسامحة والمساهلة في المحاسبة غير أنه تعالى يحاسب العاتين المستكبرين عن أمره ورسله حساباً شديداً بالمناقشة والاستقصاء والتثريب فيعذبهم عذاباً نكراً.

والمعنى: وكم من أهل قرية عتوا واستكبروا عن أمر ربهم ورسله فلم يطيعوا الله ورسله فحاسبناها حساباً شديداً ناقشنا فيه واستقصيناه، وعذبناهم عذاباً صعباً غير معهود وهو عذاب الاستئصال في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿**فَذٰاقَتْ وَبٰالَ أَمْرِهٰا وَكٰانَ عٰاقِبَةُ أَمْرِهٰا خُسْراً**﴾ المراد بأمرها عتوّها واستكبارها، والمعنى: فأصابتهم عقوبة عتوهم وكان عاقبة عتوهم خساراً كأنهم اشتروا العتو بالطاعة فانتهى الى أن خسروا.

قوله تعالى: ﴿**أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ عَذٰاباً شَدِيداً**﴾ هذا جزاؤهم في الاخرى كما كان ما في قوله: «فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها» جزاءهم في الدنيا.

والفضل في قوله: «أعدَّ الله لهم» الخ؛ لكونه في مقام دفع الدخل كأنه لما قيل «وكان عاقبة أمرها خسراً»، قيل: ما المراد بخسرهم؟ فقيل «أعدَّ الله لهم عذاباً شديداً».

قوله تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللّٰهَ يٰا أُولِي الْأَلْبٰابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللّٰهُ إِلَيْكُمْ**

ذِكْراً ﴾ استنتاج مما تقدم خوطب به المؤمنون ليأخذوا حذرهم ويقوا أنفسهم أن يعتوا عن أمر ربهم ويطغوا عن طاعته فيبتلوا بوبال عتوهم وخسران عاقبتهم كما ابتليت بذلك القرى الهالكة.

وقد وصف المؤمنين باولي الألباب فقال: «اتقوا الله يا أُولي الألباب الذين آمنوا» استمداداً من عقولهم على ما يريده منهم من التقوى فإنهم لما سمعوا أن قوماً عتو عن أمر ربهم فحوسبوا حساباً شديداً وعذبوا عذاباً نكراً وكان عاقبة أمرهم خسراً ثم سمعوا أن ذلك تكرر مرة بعد مرة وأباد قوماً بعد قوم، قضت عقولهم بأن العتو والاستكبار عن أمر الله تعرض لشديد حساب الله ومنكر عذابه فتنبههم وتبعثهم الى التقوى وقد أنزل الله اليهم ذكراً يذكرهم به ما لهم وما عليهم ويهديهم الى الحق والى طريق مستقيم.

قوله تعالى: ﴿ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ الخ؛ عطف بيان أو بدل من «ذكراً» فالمراد بالذكر الذي أنزله هو الرسول سمي به لأنه وسيلة التذكرة بالله وآياته وسبيل الدعوة الى دين الحق، والمراد بالرسول محمّد ﷺ على ما يؤيده ظاهر قوله: «يتلوا عليكم آيات الله مبينات» الخ.

وعلى هذا فالمراد بإنزال الرسول بعثه من عالم الغيب وإظهاره لهم رسولاً من عنده بعد ما لم يكونوا يحتسبون كما في قوله: ﴿وأنزلنا الحديد﴾ (الحديد / ٢٥).

وقد دعى ظهور الإنزال في كونه من السماء بعضهم كصاحب الكشاف الى أن فسّر «رسولاً» بجبريل ويكون حينئذ معنى تلاوته الآيات عليهم تلاوته على النبي ﷺ بما أنه متبوع لقومه ووسيلة الابلاغ لهم لكن ظاهر قوله: «يتلو عليكم» الخ؛ خلاف ذلك.

ويحتمل أن يكون «رسولاً» منصوباً بفعل محذوف والتقدير أرسل رسولاً يتلو عليكم آيات الله، ويكون المراد بالذكر المنزل اليهم القرآن أو ما بيَّن فيه من الأحكام والمعارف.

وقوله: ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

تقدم تفسيره في نظائره.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ وعد جميل وتبشير.

وقوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾ وصف لإحسانه تعالى اليهم فيما رزقهم به من الرزق والمراد بالرزق ما رزقهم من الايمان والعمل الصالح في الدنيا والجنة في الآخرة، وقيل المراد به الجنة.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الخ: بيان يتأكد به ما تقدم في الآيات من حديث ربوبيته تعالى وبعثه الرسول وإنزاله الذكر ليطيعوه فيه وأن في تمرده ومخالفته الحساب الشديد والعذاب الأليم وفي طاعته الجنة الخالدة كل ذلك لأنه قدير عليم.

فقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ تقدّم بعض الكلام فيه في تفسير سورة حم السجدة.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ظاهره المثلية في العدد، وعليه فالمعنى: وخلق من الأرض سبعاً كما خلق من السماء سبعاً فهل الأرضون السبع سبع كرات من نوع الأرض التي نحن عليها والتي نحن عليها إحداها؟ أو الأرض التي نحن عليها سبع طبقات محيطة بعضها ببعض والطبقة العليا بسيطها الذي نحن عليه؟ أو المراد الأقاليم السبعة التي قسّموا اليها المعمور من سطح الكرة؟ وجوه ذهب الى كل منها جمع وربما لاح بالرجوع الى ما تقدم في تفسير سورة حم السجدة محتمل آخر غيرها.

وربما قيل: إن المراد بقوله: «ومن الأرض مثلهن» أنه خلق من الأرض شيئاً هو مثل السماوات السبع وهو الانسان المركب من المادة الأرضية والروح السماوية التي فيها نماذج سماوية ملكوتية.

وقوله: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الظاهر أن المراد للسماوات والأرض جميعاً والأمر هو الأمر الإلهي الذي فسره بقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن﴾ (يس / ٨٣)، وهو كلمة الإيجاد. وتنزله هو أخذه بالنزول من مصدر الأمر الى سماء بعد سماء حتى ينتهي الى العالم الأرضي فيتكوّن ما قصد بالأمر من عين أو أثر أو رزق أو موت أو حياة أو عزة أو ذلة أو غير ذلك قال تعالى: ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ (حم السجدة / ١٢)، وقال: ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ (الم السجدة / ٥٠).

وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ من الغايات المترتبة على خلقه السماوات السبع ومن الأرض مثلهن وتنزيله الأمر بينهن، وفي ذلك انتساب الخلق والأمر اليه واختصاصهما به فإن المتفكر في ذلك لا يرتاب في قدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء فليتق مخالفة أمره أُولوا الألباب من المؤمنين فإن سنة هذا القدير العليم تجري على إثابة المطيعين لأوامره، ومجازاة العاتين المستكبرين وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد.

سورة التحريم مدنية وهي اثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضٰاتَ
أَزْوٰاجِكَ وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٢ • قَدْ فَرَضَ اللّٰهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمٰانِكُمْ وَاللّٰهُ مَوْلٰيكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ
ٱلْحَكِيمُ.

٣ • وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلىٰ بَعْضِ أَزْوٰاجِهِ حَدِيثاً فَلَمّٰا نَبَّأَتْ بِهِ
وَأَظْهَرَهُ اللّٰهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمّٰا نَبَّأَهٰا
بِهِ قٰالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هٰذٰا قٰالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ.

٤ • إِنْ تَتُوبٰا إِلَى اللّٰهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمٰا وَإِنْ تَظٰاهَرٰا عَلَيْهِ فَإِنَّ
اللّٰهَ هُوَ مَوْلٰيهُ وَجِبْرِيلُ وَصٰالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلاٰئِكَةُ بَعْدَ
ذٰلِكَ ظَهِيرٌ.

٥ • عَسىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوٰاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمٰاتٍ

مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً.

٦ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا
النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ
مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

٧ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ.

٨ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ
يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا
وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٩ ● يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

بيان:

تبدأُ السورة بالإشارة الى ما جرى بين النبي ﷺ وبين بعض أزواجه من قصة التحريم فيعاتب النبي ﷺ بتحريمه ما أحلَّ الله له ابتغاءً لمرضاة بعض أزواجه ومرجعه الى عتاب تلك البعض والانتصار له ﷺ كما يدل عليه سياق الآيات.

ثم تخاطب المؤمنين أن يقوا أنفسهم من عذاب الله النار التي وقودها الناس والحجارة وليسوا يجزون إلّا بأعمالهم ولا مخلص منها إلّا للنبي والذين آمنوا معه ثم تخاطب النبي بجهاد

الكفار والمنافقين.

وتختتم السورة بضربه تعالى مثلاً من النساء للكفار ومثلاً منهن للمؤمنين.

وظهور السياق في كون السورة مدنية لا ريب فيه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ خطاب مشوب بعتاب لتحريمه ﷺ لنفسه بعض ما أحل الله له، ولم يصرح تعالى به ولم يبين أنه ما هو؟ وماذا كان؟ غير أن قوله: «تبتغي مرضاة أزواجك» يومي أنه كان عملاً من الأعمال المحللة التي يقترفها النبي ﷺ لا ترتضيه أزواجه فضيّقن عليه وآذينه حتى أرضاهن بالحلف على أن يتركه ولا يأتي به بعد.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ علّق الخطاب والنداء بوصف النبي دون الرسول لاختصاصه به في نفسه دون غيره حتى يلائم وصف الرسالة.

وقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ المراد بالتحريم التسبب الى الحرمة بالحلف على ما تدل عليه الآية التالية فإن ظاهر قوله: «قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم» الخ: أنه ﷺ حلف على ذلك ومن شأن اليمين أن يوجب عروض الوجوب إن كان الحلف على الفعل والحرمة وإن كان الحلف على الترك، وإذ كان ﷺ حلف على ترك ما أحل الله له فقد حرم ما أحل الله له بالحلف.

وليس المراد بالتحريم تشريعه ﷺ على نفسه الحرمة فيما شرع الله له فيه الحليّة فليس له ذلك.

وقوله: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ أي تطلب بالتحريم رضاهن بدل من «تحرم» الخ: أو حال من فاعله، والجملة قرينة على أن العتاب بالحقيقة متوجه اليهن، ويؤيده قوله خطاباً لهما: «إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما» الخ: مع قوله فيه: «والله غفور رحيم».

قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ قال الراغب: كل موضع ورد فرض الله عليه ففي الإيجاب الذي أدخله الله فيه، وما ورد من فرض الله له فهو في أن لا يحظره على نفسه نحو «ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له» وقوله: «قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم». انتهى. والتحلة أصلها تحللة على وزن تذكرة وتكرمة مصدر كالتحليل، قال الراغب: وقوله عزّ وجل: «قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم» اي بيّن ما تحل به عقدة أيمانكم من الكفارة.

فالمعنى: قد قدّر الله لكم ـ كأنه قدره نصيباً لهم حيث لم يمنعهم عن حل عقدة اليمين ـ تحليل أيمانكم بالكفارة والله وليُّكم الذي يتولى تدبير أُموركم بالتشريع والهداية وهو العليم الحكيم.

وفي الآية دلالة على أن النبي ﷺ كان قد حلف على الترك، وأمر به بتحلة يمينه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ السرّ هو الحديث الذي تكتمه في نفسك وتخفيه، والإسرار إفضاؤك الحديث الى غيرك مع إيصائك بإخفائه، وضمير «نبّأت» لبعض أزواجه، وضمير «به» للحديث الذي أسرّه النبي ﷺ اليها، وضمير «أظهره» للنبي ﷺ، وضمير «عليه» لإنبائها به غيرها وإفشائها السر، وضمير «عرّف وأعرض» للنبي ﷺ، وضمير «بعضه» للحديث، والإشارة بقوله: «هذا» لإنبائها غيره وإفشائها السر.

ومحصل المعنى: وإذ أفضى النبي الى بعض أزواجه ـ وهي حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ حديثاً وأوصاها بكتمانه فلما أخبرت به غيرها وأفشت السر خلافاً لما أوصاها به، وأعلم الله النبي ﷺ أنها نبأت به غيرها وأفشت السر عرّف وأعلم بعضه وأعرض عن بعض آخر، فلما خبرها النبي ﷺ بالحديث قالت للنبي ﷺ: من أنبأك وأخبرك أني نبأت به غيري وأفشيت السر؟ قال النبي ﷺ: نبأني وخبرني العليم الخبير وهو الله العليم بالسر والعلانية

الخبير بالسرائر.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي إن تتوبا الى الله فقد تحقق منكما ما يستوجب عليكما التوبة وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه، الخ.

وقد اتفق النقل على أنهما عائشة وحفصة زوجا رسول الله ﷺ.

والصغو الميل والمراد به الميل الى الباطل والخروج عن الاستقامة وقد كان ما كان منهما من إيذائه والتظاهر عليه ﷺ من الكبائر وقد قال تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدَّ لهم عذاباً مهيناً﴾ (الأحزاب / ٥٧)، وقال: ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ (التوبة / ٦١).

والتعبير بقلوبكما وإرادة معنى التثنية من الجمع كثير النظير في الاستعمال.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ الخ: التظاهر التعاون، وأصل «وإن تظاهرا» وإن تتظاهرا. وضمير الفصل في قوله: «فإن الله هو مولاه» للدلالة على أن لله سبحانه عناية خاصة به ﷺ ينصره ويتولى أمره من غير واسطة من خلقه. والمولى الولي الذي يتولى أمره وينصره على من يريده بسوء.

و «جبريل» عطف على لفظ الجلالة، و «صالح المؤمنين» عطف جبريل. والمراد بصالح المؤمنين على ما قيل الصلحاء من المؤمنين فصالح المؤمنين واحد أُريد به الجمع كقولك: لا يفعل هذا الصالح من الناس تريد به الجنس كقولك لا يفعله من صلح منه ومثله قولك: كنت في السامر والحاضر.

وفيه قياس المضاف الى الجمع الى مدخول اللام فظاهر صالح المؤمنين غير ظاهر «الصالح من المؤمنين».

ووردت الرواية من طرق أهل السنة عن النبي ﷺ ومن طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد بصالح المؤمنين علي عليه أفضل السلام، وستوافيك إن شاء الله.

وفي المراد منه أقوال أُخر أغمضنا عنها لعدم دليل عليها.

وقوله: «والملائكة بعد ذلك ظهير» إفراد الخبر للدلالة على أنهم متفقون في نصره متحدون صفاً واحداً. وفي جعلهم بعد ذلك أي بعد ولاية الله وجبريل وصالح المؤمنين تعظيم وتفخيم.

ولحن الآيات في إظهار النبي ﷺ على من يؤذيه ويريده بسوء وتشديد العتاب على من يتظاهر عليه عجيب، وقد خوطب فيها النبي ﷺ أولاً وعوتب على تحريمه ما أحل الله له وأُشير عليه بتحلة يمينه وهو إظهار وتأييد وانتصار له وإن كان في صورة العتاب.

ثم التفت من خطابه الى خطاب المؤمنين في قوله: «وإذا أسرَّ النبي الى بعض أزواجه» يشير الى القصة وقد أبهمها إبهاماً وقد كان أيَّد النبي وأظهره قبل الإشارة الى القصة وإفشائها مختوماً عليها، وفيه مزيد إظهاره.

ثم التفت من خطاب المؤمنين الى خطابهما وقرر أن قلوبهما قد صغت بما فعلتا ولم يأمرهما أن تتوبا من ذنبهما بل بين لهما أنهما واقعتان بين أمرين إما أن تتوبا وإما أن تظاهرا على من الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك أجمع ثم أظهر الرجاء إن طلقهن أن يرزقه الله نساء خيراً منهن. ثم أمر النبي ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين ويغلظ عليهم.

وانتهى الكلام الى ضربه تعالى مثلين مثلاً للذين كفروا ومثلاً للذين آمنوا.

وقد أدار تعالى الكلام في السورة بعد التعرض لحالها بقوله: «إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه» الخ؛ بين التعرض لحال المؤمنين والتعرض لحال الكفار فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم﴾ الخ؛ و ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا﴾ الخ؛ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا﴾ الخ؛ و ﴿يا أيها النبي جاهد﴾ الخ؛ وقال: ﴿ضرب الله

مثلاً للذين كفروا﴾، ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا﴾.

قوله تعالى: ﴿عَسىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ﴾ الى آخر الآية؛ استغناء إلهي فإنهن وإن كن مشرفات بشرف زوجية النبي ﷺ لكن الكرامة عند الله بالتقوى كما قال تعالى: ﴿فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ (الأحزاب / ٢٩)، انظر الى مكان «منكن» وقال: ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ (الأحزاب / ٣١).

ولذا ساق الاستغناء بترجي إبداله إن طلقهن أزواجاً خيراً منهن. وعلق الخبر بما ذكر لأزواجه الجديدة من صفات الكرامة وهي أن يكنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ـ أي صائمات ـ ثيّبات وأبكاراً.

فمن تزوج بها النبي ﷺ وكانت متصفة بمجموع هذه الصفات كانت خيراً منهن وليس إلّا لأجل اختصاص منها بالقنوت والتوبة أو القنوت فقط مع مشاركتها لهن في باقي الصفات. والقنوت هو لزوم الطاعة مع الخضوع.

ويتأيد هذا المعنى بما في مثل مريم الآتي في آخر السورة من ذكر القنوت ﴿وكانت من القانتين﴾ فالقنوت هو الذي يفقدنه وهو لزومهن طاعة النبي ﷺ التي فيها طاعة الله واتقاؤهن أن يعصين النبي ﷺ ويؤذينه.

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النّاسُ وَالْحِجارَةُ﴾ الخ؛ «قوا» أمر من الوقاية بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه ويضرّه، والوقود بفتح الواو اسم لما توقد به النار من حطب ونحوه. والمراد بالنار نار جهنم وكون الناس المعذبين فيها وقوداً لها معناه اشتعال الناس فيها بأنفسهم كما في قوله تعالى: ﴿ثم في النار يسجرون﴾ (المؤمن / ٧٢). فيناسب تجسم الأعمال كما هو ظاهر الآية التالية ﴿يا أيها الذين كفروا﴾ الخ؛

وفسرت الحجارة بالأصنام.

وقوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي وكّل عليها لإجراء أنواع العذاب على أهلها ملائكة غلاظ شداد.

والغلاظ جمع غليظ ضد الرقيق والأنسب للمقام كون المراد بالغلظة خشونة العمل كما في قوله الآتي: ﴿جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ (الآية ٩ من السورة)، والشداد جمع شديد بمعنى القوي في عزمه وفعله.

وقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ كالمفسر لقوله: «غلاظ شداد» أي هم ملتزمون بما أمرهم الله من أنواع العذاب لا يعصونه بالمخالفة والرد ويفعلون ما يؤمرون به على ما أُمروا به من غير أن يفوت منهم فائت أو ينقص منه شيء لضعف فيهم أو فتور فهم غلاظ شداد.

والآية الكريمة بعدالآيات السابقة كالتعميم بعد التخصيص فإنه تعالى لما أدَّب نساء النبي ﷺ ببيان ما لإيذائهم النبي ﷺ من الأثر السيء عمم الخطاب فخاطب المؤمنين عامة أن يؤدِّبوا أنفسهم وأهليهم ويقوهم من النار التي وقودها نفس الداخلين فيها أي أن أعمالهم السيئة تلزمهم وتعود ناراً تعذبهم ولا مخلص لهم منها ولا مناص عنها.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ خطاب عام للكفار بعدما جوزوا بالنار فإنهم يعتذرون عن كفرهم ومعاصيهم فيخاطبون أن لا تعتذروا اليوم ـ وهو يوم الجزاء ـ إنما تجزون نفس ما كنتم تعملون أي إن العذاب الذي تعذبون بها هو عملكم السيء الذي عملتموه وقد برز لكم اليوم حقيقته وإذ عملتموه فقد لزمكم أنكم عملتموه والواقع لا يتغير وما حقَّ عليكم من كلمة العذاب لا يعود باطلاً فهذا ظاهر الخطاب.

وقيل: المعنى: لا تعتذروا ـ اليوم ـ بعد دخول النار فإن الاعتذار توبة والتوبة غير مقبولة

بعد دخول النار إنما تجزون ما لزم في مقابل عملكم من الجزاء في الحكمة.

وفي إتباع الآيات السابقة بما في هذه الآية من خطاب القهر تهديد ضمني وإشعار بأن معصية الله ورسوله ربما أدى الى الكفر.

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ الخ: النصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه، ويأتي بمعنى الإخلاص نحو نصحت له الود أي أخلصته ـ على ما ذكره الراغب ـ فالتوبة النصوح ما يصرف صاحبه عن العود الى المعصية أو ما يخلص العبد للرجوع عن الذنب فلا يرجع الى ما تاب منه.

لما أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار أمرهم جميعاً ثانياً بالتوبة وفرع عليه رجاء أن يستر الله سيئاتهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

وقوله: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ قال الراغب: يقال: خزي الرجل يخزى من باب علم يعلم إذا لحقه انكسار إما من نفسه وإما من غيره فالذي يلحقه من نفسه وهو الحياء المفرط مصدره الخزاية. والذي يلحقه من غيره ويعد ضرباً من الاستخفاف مصدره الخزي والإخزاء من الخزاية والخزي جميعاً قال: وعلى نحو ما قلنا في خزي ذل وهان فإن ذلك متى كان من الإنسان نفسه يقال له الهون ـ بفتح الهاء ـ والذل ويكون محموداً، ومتى كان من غيره يقال له: الهون ـ بضم الهاء ـ والهوان والذل ويكون مذموماً. انتهى ملخصاً.

فقوله: ﴿يَوْمَ﴾ ظرف لما تقدمه، والمعنى: توبوا الى الله عسى أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم الجنة في يوم لا يخزي ولا يكسر الله النبي ﷺ بجعلهم محرومين من الكرامة وخلفه ما وعدهم من الوعد الجميل.

وفي قوله: ﴿النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ اعتبار المعية في الايمان في الدنيا ولازمه

ملازمتهم النبي ﷺ وطاعتهم له من غير مخالفة ومشاقة.

ومن المحتمل أن يكون قوله: «الذين آمنوا» مبتدأ خبره «معه» وقوله: «نورهم يسعى» الخ؛ خبراً ثانياً، وقوله: «يقولون» الخ؛ خبراً ثالثاً فيفيد أنهم لا يفارقون النبي ولا يفارقهم يوم القيامة. وهذا وجه جيد لازمه كون عدم الخزي خاصاً بالنبي ﷺ وسعي النور وسؤال إتمامه خاصاً بالذين معه من المؤمنين وتؤيده آية الحديد الآتية. ومن الممكن أن يكون «معه» متعلقاً بقوله: «آمنوا» وقوله: «نورهم يسعى» الخ؛ خبراً أولاً وثانياً للموصول.

وقوله: ﴿نُورُهُمْ يَسعىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ تقدم الكلام في معناه في قوله تعالى: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ (الحديد / ١٢)، ولا يبعد أن يكون ما بين أيديهم من النور نور الإيمان وما بأيمانهم نور العمل.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يفيد السياق أن المغفرة المسؤلة سبب لتمام النور أو هو ملازم لتمام النور فيفيد أن في نورهم نقصاً والنور نور الإيمان والعمل فلهم نقائص بحسب درجات الإيمان أو آثار السيئات التي خلت محالها في صحائفهم من العبودية في العمل فيسألون ربهم أن يتم لهم نورهم ويغفر لهم، واليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ (الحديد / ١٩).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَيٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المراد بالجهاد بذل الجهد في إصلاح الأمر من جهتهم ودفع شرهم ففي الكفار ببيان الحق وتبليغه فإن آمنوا وإلّا فالحرب وفي المنافقين باستمالتهم وتأليف قلوبهم حتى تطمئن قلوبهم الى الإيمان وإلّا فلم يقاتل النبي ﷺ منافقاً قط[1].

---

١. التحريم ١ ـ ٩: بحث روائي حول قوله تعالى: «يا أيها النبي لم تحرّم ما أحل الله لك»؛ فضائل علي ﷺ: التوبة النصوح؛ حال المؤمنين يوم القيامة.

١٠ ● ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَةَ نُوحٍ وَٱمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ٱدْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ.

١١ ● وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

١٢ ● وَمَرْيَمَ ٱبْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَانِتِينَ.

بيان:

تتضمن الآيات الكريمة مثلين يمثل بهما الله سبحانه حال الكفار والمؤمنين في أن شقاء الكفار وهلاكهم إنما كان بخيانتهم لله ورسوله وكفرهم ولم ينفعهم اتصال بسبب الى الأنبياء المكرمين، وأن سعادة المؤمنين وفلاحهم إنما كان بإخلاصهم الايمان بالله ورسوله والقنوت وحسن الطاعة ولم يضرُّهم اتصال بأعداء الله بسبب فإنما ملاك الكرامة عند الله التقوى.

يمثل الحال أولاً: بحال امرأتين كانتا زوجين لنبيين كريمين عدّهما الله سبحانه عبدين صالحين ـ ويا له من كرامة ـ فخانتاهما فامِرَتا بدخول النار مع الداخلين فلم ينفعها زوجيتهما للنبيين الكريمين شيئاً فهلكتا في ضمن الهالكين من غير أدنى تميّز وكرامة.

وثانياً: بحال امرأتين إحداهما امرأة فرعون الذي كانت منزلته في الكفر بالله أن نادى في

الناس فقال: أنا ربكم الأعلى، فآمنت بالله وأخلصت الإيمان فأنجاها الله وأدخلها الجنة ولم يضرّها زوجية مثل فرعون شيئاً، وثانيتهما مريم ابنة عمران الصدّيقة القانتة أكرمها الله بكرامته ونفخ فيها من روحه.

وفي التمثيل تعريض ظاهر شديد لزوجي النبي ﷺ حيث خانتاه في إفشاء سرّه وتظاهرتا عليه وآذتاه بذلك، وخاصة من حيث التعبير بلفظ الكفر والخيانة وذكر الأمر بدخول النار.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَةَ نُوحٍ وَٱمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ الخ؛ قال الراغب: الخيانة والنفاق واحد إلّا أن الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدين ثم يتداخلان فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ونقيض الخيانة الأمانة، يقال: خنت فلاناً وخنت أمانة فلان. انتهى.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إن كان متعلقاً بالمثل كان المعنى: ضرب الله مثلاً يمثل به حال الذين كفروا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالعباد الصالحين، وإن كان متعلقاً بضرب كان المعنى: ضرب الله الامرأتين وما انتهت اليه حالهما مثلاً للذين كفروا ليعتبروا به ويعلموا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالصالحين من عباده وأنهم بخيانتهم النبي ﷺ من أهل النار لا محالة.

وقوله: ﴿ٱمْرَأَةَ نُوحٍ وَٱمْرَأَةَ لُوطٍ﴾ مفعول «ضرب»، والمراد بكونهما تحتهما زوجيتهما لهما.

وقوله: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ ضمير التثنية الاولى للعبدين، والثانية للامرأتين، والمراد أنه لم ينفع المرأتين زوجيتهما للعبدين الصالحين.

وقوله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ أي مع الداخلين فيها من قوميهما كما يلوح من قوله في امرأة نوح: ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين

اثنين وأهلك إلّا من سبق عليه القول﴾ (هود / ٤٠)، وقوله في امرأة لوط: ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلّا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم﴾ (هود / ٨١)، أو المعنى مع الداخلين فيها من الكفار.

وفي التعبير بقيل بالبناء للمفعول، وإطلاق الداخلين إشارة الى هوان أمرهما وعدم كرامة لهما أصلاً فلم يبال بهما أين هلكتا.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾الخ: الكلام في قوله: «للذين آمنوا» كالكلام في قوله: «للذين كفروا».

وقوله: «إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة» لخص سبحانه جميع ما كانت تبتغيه في حياتها وترومه في مسير عبوديتها في مسألة سألت ربها وذلك أن الايمان إذا كمل تواطأ الظاهر والباطن وتوافق القلب واللسان فلا يقول الانسان إلّا ما يفعل ولا يفعل إلّا ما يقول فيكون ما يرجوه أو يتمناه أو يسأله بلسانه هو الذي يريده كذلك بعمله.

فقوله: ﴿امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾اسمها على ما في الرواية آسية، وقوله: «إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة» الجمع بين كون البيت المبني لها عند الله وفي الجنة لكون الجنة دار القرب من الله وجوار رب العالمين كما قال تعالى: ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (آل عمران / ١٦٩).

على أن الحضور عنده تعالى والقرب منه كرامة معنوية والاستقرار في الجنة كرامة صورية، وسؤال الجمع بينهما سؤال الجمع بين الكرامتين.

وقوله: ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ تبر منها وسؤال أن ينجيها الله من شخص فرعون ومن عمله الذي تدعو ضرورة المصاحبة والمعاشرة الى الشركة فيه والتلبس به، وقيل: المراد بالعمل الجماع.

وقوله: ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وهم قوم فرعون وهو تبرّ آخر وسؤال أن ينجيها الله من المجتمع العام كما أن الجملة السابقة كانت سؤال أن ينجيها من المجتمع الخاص.

قوله تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ الخ: عطف على امرأة فرعون والتقدير وضرب الله مثلاً للذين آمنوا مريم، الخ.

ضربها الله مثلاً باسمها وأثنى عليها ولم يذكر في كلامه تعالى امرأة باسمها غيرها ذكر اسمها في القرآن في بضع وثلاثين موضعاً في نيف وعشرين سورة.

وقوله: ﴿ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ ثناء عليها على عفتها، وقد تكرر في القرآن ذكر ذلك ولعل ذلك بإزاء ما افتعله اليهود من البهتان عليها كما قال تعالى: ﴿ وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ (النساء / ١٥٦)، وفي سورة الأنبياء في مثل القصة ﴿ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها ﴾ (الأنبياء / ٩١).

وقوله: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ أي بما تكلم به الله سبحانه من الوحي الى أنبيائه كما قيل، وقيل: المراد بها وعده تعالى ووعيده وأمره ونهيه، وفيه أنه يستلزم كون ذكر الكتب مستدركاً.

وقوله: ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ وهي المشتملة على شرائع الله المنزلة من السماء كالتوراة والإنجيل كما هو مصطلح القرآن ولعل المراد من تصديقها كلمات ربها وكتبه كونها صديقة كما في قوله تعالى: ﴿ ما المسيح بن مريم إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل وأُمه صديقة ﴾ (المائدة / ٧٥).

وقوله: ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ أي من القوم المطيعين لله الخاضعين له الدائمين عليه غلب فيه المذكر على المؤنث.

ويؤيد هذا المعنى كون القنوت بهذا المعنى واقعاً فيما حكى الله من نداء الملائكة لها: ﴿ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ (آل عمران / ٤٣)، وقيل: يجوز أن يراد

بالقانتين رهطها وعشيرتها الذين كانت مريم منهم وكانوا أهل بيت صلاح وطاعة، وهو بعيد لما تقدم.

على أن المناسب لكون المثل تعريضاً لزوجي النبي ﷺ أن يراد بالقانتين مطلق أهل الطاعة والخضوع لله تعالى[١].

١. التحريم ١٠ ـ ١٢: بحث روائي في امرأة فرعون وجعلها الله مثلاً للذين آمنوا: ايمان امرأة فرعون بموسى، كيفية قتلها على يد فرعون.

سورة الملك مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● تَبٰارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

٢ ● الَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيٰوةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ.

٣ ● الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ طِبٰاقاً مٰا تَرىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ
مِنْ تَفٰاوُتٍ فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرىٰ مِنْ فُطُورٍ.

٤ ● ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خٰاسِئاً وَهُوَ
حَسِيرٌ.

٥ ● وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِمَصٰابِيحَ وَجَعَلْنٰاهٰا رُجُوماً
لِلشَّيٰاطِينِ وَأَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰابَ السَّعِيرِ.

٦ ● وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذٰابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ.

٧ ● إِذٰا أُلْقُوا فِيهٰا سَمِعُوا لَهٰا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ.

٨ ● قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ.

٩ ● تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ.

١٠ ● وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ.

١١ ● فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ.

١٢ ● إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ.

١٣ ● وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

١٤ ● أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

بيان:

غرض السورة بيان عموم ربوبيته تعالى للعالمين تجاه قول الوثنية إن لكل شطر من العالم رباً من الملائكة وغيرهم وإنه تعالى رب الأرباب فقط.

ولذا يعد سبحانه كثيراً من نعمه في الخلق والتدبير ـ وهو في معنى الاحتجاج على ربوبيته ـ ويفتتح الكلام بتباركه وهو كثرة صدور البركات عنه، ويكرر توصيفه بالرحمان وهو مبالغة في الرحمة التي هي العطية قبال الاستدعاء فقراً وفيها إنذار ينتهي الى ذكر الحشر والبعث.

وتتلخص مضامين آياتها في الدعوة الى توحيد الربوبية والقول بالمعاد.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تبارك

الشيء كثرة صدور الخيرات والبركات عنه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ يشمل باطلاقه كل ملك، وجعل الملك في يده استعارة بالكناية عن كمال تسلطه عليه وكونه متصرفاً فيه كيف يشاء كما يتصرف ذو اليد فيما بيده ويقلبه كيف يشاء فهو تعالى يملك بنفسه كل شيء من جميع جهاته، ويملك ما يملكه كل شيء.

فتوصيفه تعالى بالذي بيده الملك أوسع من توصيفه بالمليك في قوله: ﴿عند مليك مقتدر﴾ (القمر، ٥٥)، وأصرح وآكد من توصيفه في قوله: ﴿له الملك﴾ (التغابن / ١).

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إشارة الى كون قدرته غير محدودة بحد ولا منتهية الى نهاية وهو لازم إطلاق الملك بحسب السياق، وإن كان إطلاق الملك وهو من صفات الفعل من لوازم إطلاق القدرة وهي من صفات الذات.

وفي الآية مع ذلك إيماء الى الحجة على إمكان ما سيأتي من أمر المعاد.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ الحياة كون الشيء بحيث يشعر ويريد، والموت عدم ذلك لكن الموت على ما يظهر من تعليم القرآن انتقال من نشأة من نشآت الحياة الى نشأة اخرى كما تقدم استفادة ذلك من قوله تعالى: ﴿نحن قدّرنا بينكم الموت ـ الى قوله ـ فيما لا تعلمون﴾ (الواقعة / ٦١)، فلا مانع من تعلق الخلق بالموت كالحياة.

على أنه لو أُخذ عدمياً كما عند العرف فهو عدم ملكة الحياة وله حظ من الوجود يصحح تعلق الخلق به كالعمى من البصر والظلمة من النور.

وقوله: «ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» غاية خلقه تعالى الموت والحياة، والبلاء الامتحان والمراد أن خلقكم هذا النوع من الخلق وهو أنكم تحيون ثم تموتون خلق مقدميّ امتحاني يمتاز به منكم من هو أحسن عملاً من غيره ومن المعلوم أن الامتحان والتميز لا يكون إلّا لأمر ما يستقبلكم بعد ذلك وهو جزاء كل بحسب عمله.

وفي الكلام مع ذلك إشارة الى أن المقصود بالذات من الخلقة هو إيصال الخير من الجزاء حيث ذكر حسن العمل وامتياز من جاء بأحسنه فالمحسنون عملاً هم المقصودون بالخلقة وغيرهم مقصودون لأجلهم.

وقد ذيل الكلام بقوله: «وهو العزيز الغفور» فهو العزيز لأن الملك والقدرة المطلقين له وحده فلا يغلبه غالب وما أقدر أحداً على مخالفته إلّا بلاء وامتحاناً وسينتقم منهم وهو الغفور لأنه يعفو عن كثير من سيئاتهم في الدنيا وسيغفر كثيراً منها في الآخرة كما وعد.

وفي التذييل بالاسمين مع ذلك تخويف وتطميع على ما يدعو الى ذلك سياق الدعوة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ طِبٰاقاً﴾ الخ؛ أي مطابقة بعضها فوق بعض أو بعضها يشبه البعض ـ على ما احتمل ـ وقد مرَّ في تفسير حم السجدة بعض ما يمكننا من القول فيها.

وقوله: ﴿مٰا تَرىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفٰاوُتٍ﴾ قال الراغب: الفوت بعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه، قال تعالى: «وإن فاتكم شيء من أزواجكم الى الكفار». قال: والتفاوت الاختلاف في الأوصاف كأنه يفوت وصف أحدهما الآخر أو وصف كل واحد منهما الآخر، قال تعالى: «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» أي ليس فيها ما يخرج عن مقتضى الحكمة. انتهى.

فالمراد بنفي التفاوت اتصال التدبير وارتباط الأشياء بعضها ببعض من حيث الغايات والمنافع المترتبة على تفاعل بعضها في بعض، فاصطكاك الأسباب المختلفة في الخلقة وتنازعها كتشاجر كفتي الميزان وتصارعهما بالثقل والخفة والارتفاع والانخفاض فإنهما في عين أنهما تختلفان تتفقان في إعانة من بيده الميزان فيما يريده من تشخيص وزن السلعة الموزونة.

فقد رتب الله أجزاء الخلقة بحيث تؤدي الى مقاصدها من غير أن يفوّت بعضها غرض

بعض أو يفوت من بعضها الوصف اللازم فيه لحصول الغاية المطلوبة.

والخطاب في «ما ترى» خطاب عام لكل من يمكنه الرؤية وفي إضافة الخلق الى الرحمن إشارة الى أن الغاية منه هي الرحمة العامة، وتنكير «تفاوت» وهو في سياق النفي وإدخال «من» عليه لإفادة العموم.

وقوله: ﴿فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾ الفطور الاختلال والوهي، والمراد بإرجاع البصر النظر ثانياً وهو كناية عن المداقّة في النظر والإمعان فيه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الخاسىء من خسأ البصر إذا انقبض عن مهانة كما قال الراغب، وقال أيضاً: الخاسر المعيا لانكشاف قواه، ويقال للمعيا: حاسر ومحسور: أما الحاسر فتصور أنه بنفسه قد حسر قوّته، وأما المحسور فتصور أن التعب قد حسره، وقوله عزّ وجل: «ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير» يصح أن يكون بمعنى حاسر وأن يكون بمعنى محسور. انتهى.

وقوله: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ الكرّة الرجعة والمراد بالتثنية التكثير والتكرير، والمعنى: ثم ارجع البصر رجعة بعد رجعة أي رجعات كثيرة ينقلب اليك البصر منقبضة مهينة والحال أنه كليل معيا لم يجد فطوراً.

فقد أُشير في الآيتين الى أن النظام الجاري في الكون نظام واحد متصل الأجزاء مرتبط الأبعاض.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ﴾ الى آخر الآية: المصابيح جمع مصباح وهو السراج سمّي الكواكب مصابيح لإنارتها وإضاءتها وقد تقدم كلام في ذلك في تفسير سورة حم السجدة.

وقوله: ﴿وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ﴾ أي وجعلنا الكواكب التي زيّنا بها السماء رجوماً يرجم بها من استرق السمع من الشياطين كما قال تعالى: ﴿إلّا من استرق السمع

فأتبعه شهاب مبين﴾ (الحجر / ١٨)، وقال: ﴿إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ (الصافات / ١٠).

قيل: إن الجملة دليل أن المراد بالكواكب المزينة بها السماء مجموع الكواكب الأصلية والشهب السماوية فإن الكواكب الأصلية لا تزول عن مستقرها والكواكب والنجم يطلقان على الشهب كما يطلقان على الأجرام الأصلية.

وقيل: تنفصل من الكواكب شهب تكون رجوماً للشياطين أما الكواكب أنفسها فليست تزول إلّا أن يريد الله إفناءها.

وهذا الوجه أوفق للأنظار العلمية الحاضرة، وقد تقدم بعض الكلام في معنى رمي الشياطين بالشهب.

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي وهيأنا للشياطين وهم أشرار الجن عذاب النار المسعرة المشتعلة.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ لما أورد بعض آيات ربوبيته تعالى عقبها بالوعيد على من كفر بربوبيته على ما هو شأن هذه السورة من تداخل الحجج والوعيد والإنذار.

والمراد بالذين كفروا بربوبيته أعم من الوثنيين النافين لربوبيته لغير أربابهم القائلين بأنه تعالى رب الأرباب فقط، والنافين لها مطلقاً والمثبتين لربوبيته مع التفريق بينه وبين رسله كاليهود والنصارى حيث آمنوا ببعض رسله وكفروا ببعض.

والآية مع ذلك متصلة بقوله: «الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور» لما فيها من الإشارة الى البعث والجزاء متصلة بما قبلها كالتعميم بعد التخصيص.

قوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ

ٱلْغَيْظِ ﴾ قال الراغب: الشهيق طول الزفير وهو رد النفس والزفير مده انتهى، والفوران كما في المجمع ارتفاع الغليان، والتميز: التقطع والتفرق، والغيظ: شدة الغضب، والمعنى: إذا طرح الكفار في جهنم سمعوا لها شهيقاً ـ أي تجذبهم الى داخلها كما يجذب الهواء بالشهيق الى داخل الصدر ـ وهي تغلي بهم فترفعهم وتخفضهم تكاد تتلاشى من شدة الغضب.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ الفوج ـ كما قاله الراغب ـ الجماعة المارة المسرعة، وفي قوله: «كلما أُلقي فيها فوج» إشارة الى أن الكفار يلقون في النار جماعة جماعة كما يشير اليه قوله: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً﴾ (الزمر / ٧١)، وإنما يلقون كذلك بلحوق التابعين لمتبوعيهم في الضلال كما قال تعالى: ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم﴾ (الأنفال / ٣٧)، وقد تقدم بعض توضيحه في ذيل الآية من سورة الأنفال.

والخزنة جمع خازن وهو الحافظ على الشيء المدخر والمراد بهم الملائكة الموكلون على النار المدبرون لأنواع عذابها قال تعالى: ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ (التحريم / ٦)، وقال: ﴿وما أدراك ما سقر ـ الى أن قال ـ عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار إلّا ملائكة﴾ (المدثر / ٣١).

والمعنى: كلما طرح في جهنم جماعة من جماعات الكفار المسوقين اليها سألهم الملائكة الموكلون على النار الحافظون لها ـ توبيخاً ـ ألم يأتكم نذير؟ وهو النبي المنذر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾ الى آخر الآية؛ حكاية جوابهم لسؤال الخزنة، وفيه تصديق أنهم قد جاءهم نذير فنسبوه الى الكذب واعتراف.

وقوله: ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ بيان لتكذيبهم، وكذا قوله: «إن أنتم إلّا في ضلال كبير» وقيل: قوله: «إن أنتم» الخ؛ كلام الملائكة يخاطبون به الكفار بعد جوابهم عن سؤالهم بما أجابوا، وهو بعيد من السياق، وكذا احتمال كونه من كلام الرسل الذين كذبوهم تحكيه

الملائكة لاولئك الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يطلق السمع ويراد به إدراك الصوت والقول بالجارحة وربما يراد به ما هو الغاية منه عند العقلاء وهو الالتزام بمقتضاه من الفعل والترك. ويطلق العقل على تمييز الخير من الشر والنافع من الضار، وربما يراد به ما هو الغاية منه وهو الالتزام بمقتضاه من طلب الخير والنافع واجتناب الشر والضر، قال تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون به أُولئك كالأنعام بل هم أضلّ﴾ (الأعراف / ١٧٩).

وأكثر ما ينتفع بالسمع عامة الناس لقصورهم عن تعقل دقائق الامور وإدراك حقيقتها والاهتداء الى مصالحها ومفاسدها وإنما ينتفع بالعقل الخاصة.

فقوله: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ أُريد بالسمع استجابة دعوة الرسل والالتزام بمقتضى قولهم وهم النصحاء الامناء، وبالعقل الالتزام بمقتضى ما يدعون اليه من الحق بتعقله والاهتداء العقلي الى أن حق ومن الواجب أن يخضع الإنسان للحق.

وإنما قدم السمع على العقل لأن استعماله من شأن عامة الناس وهم الأكثرون والعقل شأن الخاصة وهم آحاد قليلون.

والمعنى: لو كنا في الدنيا نطيع الرسل في نصائحهم ومواعظهم أو عقلنا حجة الحق ما كنا اليوم في أصحاب السعير وهم مصاحبوا النار المخلدون فيها.

وقيل: إنما جمع بين السمع والعقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل.

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ كانوا إنما قالوا: «لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير» ندامة على ما فرَّطوا في جنب الله وفوَّتوا على أنفسهم من الخير فاعترفوا بأن ما أتوا به كان تبعته دخول النار وكان عليهم أن لا يأتوا به، وهذا هو الذنب فقد اعترفوا بذنبهم.

وإنما أفرد الذنب بناء على إرادة معنى المصدر منه وهو في الأصل مصدر.

وقوله: ﴿فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ السحق تفتيت الشيء كما ذكره الراغب وهو دعاء عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لما ذكر حال الكفار وما يجازون به على كفرهم قابله بحال المؤمنين بالغيب لتمام التقسيم وذكر من وصفهم الخشية لأن المقام مقام الانذار والوعيد.

وعدّ خشيتهم خشية بالغيب لكون ما آمنوا به محجوباً عنهم تحت حجب الغيب.

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ رفع شبهة يمكن أن تختلج في قلوبهم مبنية على الاستبعاد وذلك أنه تعالى ساق الكلام في بيان ربوبيته لكل شيء المستتبعة للبعث والجزاء وذكر ملكه وقدرته المطلقين وخلقه وتدبيره ولم يذكر علمه المحيط بهم وبأحوالهم وأعمالهم وهو مما لا يتم البعث والجزاء بدونه.

وكان من الممكن أن يتوهموا أن الأعمال على كثرتها الخارجة عن الإحصاء لا يتأتى ضبطها وخاصة ما تكنّه الصدور منها فإن الانسان يقيس الأشياء بنفسه ويزنها بزنة نفسه وهو غير قادر على إحصاء جزئيات الأعمال التي هي حركات مختلفة متقضية وخاصة أعمال القلوب المستكنّة في زواياها.

فدفعه بأن إظهار القول وإخفاءه سواء بالنسبة اليه تعالى فإنه عليم بذات الصدور، والسياق يشهد أن المراد استواء خفايا الأعمال وجلاياها بالنسبة اليه، وإنما ذكر إسرار القول وجهره من حيث ظهور معنى الخفاء والظهور فيه بالجهر والإسرار.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ استفهام إنكاري مأخوذ حجة على علمه تعالى بأعمال الخلق ظاهرها وباطنها وسرّها وجهرها وذلك أن أعمال الخلق ـ ومن جملتها أعمال الانسان الاختيارية ـ وإن نسبت الى فواعلها لكن الله

سبحانه هو الذي يريدها ويوجدها من طريق اختيار الإنسان واقتضاء سائر الأسباب فهو الخالق لأعيان الأشياء والمقدر لها آثارها كيفما كانت والرابط بينها وبين آثارها الموصل لها الى آثارها، قال تعالى: ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾ (الزمر / ٦٢)، وقال: ﴿الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى﴾ (الأعلى / ٣)، فهو سبحانه محيط بعين من خلقه وأثره ومن أثره أعماله الظاهرة والباطنة وما أسرّه وما جهر به وكيف يحيط به ولا يعلمه.

وفي الآية إشارة الى أن أحوال الأشياء وأعمالها غير خارجة عن خلقها لأنه تعالى استدلّ بعلمه بمن خلق على علمه بخصوصيات أحواله وأعماله ولولا كون الأحوال والأعمال غير خارجة عن وجود موضوعاتها لم يتم الاستدلال.

على أن الأحوال والأعمال من مقتضيات موضوعاتها والذي ينتسب اليه وجود الشيء ينتسب اليه آثار وجوده.

وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أي النافذ في بواطن الأشياء المطّلع على جزئيات وجودها وآثارها، والجملة حالية تعلل ما قبلها والاسمان الكريمان من الأسماء الحسنى ذيّلت بهما الآية لتأكيد مضمونها.

١٥ • هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ.

١٦ • ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ.

١٧ • أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ

كَيْفَ نَذِيرِ.

١٨ ● وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ.

١٩ ● أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلّا الرَّحْمٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ.

٢٠ ● أَمَّنْ هٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ إِنِ ٱلْكافِرُونَ إِلّا فِي غُرُورٍ.

٢١ ● أَمَّنْ هٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ.

٢٢ ● أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلىٰ وَجْهِهِ أَهْدىٰ أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ الذلول من المراكب ما يسهل ركوبه من غير أن يضطرب ويجمح والمناكب جمع منكب وهو مجتمع ما بين العضد والكتف واستعير لسطح الأرض، قال الراغب: واستعارته للأرض كاستعارة الظهر لها في قوله: «ما ترك على ظهرها من دابة» وتسمية الأرض ذلولاً وجعل ظهورها مناكب لها يستقر عليها ويمشي فيها باعتبار انقيادها لأنواع التصرفات الإنسانية من غير امتناع، وقد وجّه كونها ذلولاً ذا مناكب بوجوه مختلفة تؤل جميعها الى ما ذكرنا.

والأمر في قوله: «وكلوا من رزقه» للإباحة والنشور والنشر إحياء الميت بعد موته وأصله

من نشر الصحيفة والثوب إذا بسطها بعد طيّها.

والمعنى: هو الذي جعل الأرض مطاوعة منقادة لكم يمكنكم أن تستقروا على ظهورها وتمشوا فيها تأكلون من رزقه الذي قدّره لكم بأنواع الطلب والتصرف فيها.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي ويرجع اليه نشر الأموات بإخراجهم من الأرض وإحيائهم للحساب والجزاء، واختصاص رجوع النشر به كناية عن اختصاص الحكم بالنشور به والإحياء يوم القيامة فهو ربكم المدبّر لأمر حياتكم الدنيا بالإقرار على الأرض والهداية الى مآرب الحياة، وله الحكم بالنشور للحساب والجزاء.

وفي عدّ الأرض ذلولاً والبشر على مناكبها تلويح ظاهر الى ما أدّت اليه الأبحاث العلمية أخيراً من كون الأرض كرة سيّارة.

قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ إنذار وتخويف بعد إقامة الحجة وتوبيخ على مساهلتهم في أمر الربوبية وإهمالهم أمر الشكر على نعم ربهم بالخضوع لربوبيته ورفض ما اختلقوه من الأنداد.

والمراد بمن في السماء الملائكة المقيمون فيها الموكلون على حوادث الكون وإرجاع ضمير الإفراد الى «من» باعتبار لفظه وخسف الأرض بقوم كذا شقها وتغييبهم في بطنها والمور على ما في المجمع التردد في الذهاب والمجيء مثل الموج.

والمعنى: ءأمنتم في كفركم بربوبيته تعالى الملائكة المقيمين في السماء الموكلين بامور العالم أن يشقوا الأرض ويغيّبوكم فيها بأمر الله فإذا الأرض تضطرب ذهاباً ومجيئاً بزلزالها.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ الحاصب الريح التي تأتي بالحصاة والحجارة، والمعنى: ءأمنتم من في السماء أن يرسل عليكم ريحاً ذات حصاة وحجارة كما أرسلها على قوم لوط قال تعالى: ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلّا آل لوط﴾ (القمر / ٣٤).

وقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ النذير مصدر بمعنى الإنذار والجملة متفرعة على ما يفهم من سابق الكلام من كفرهم بربوبيته تعالى وأمنهم من عذابه والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ المراد بالنكير العقوبة وتغيير النعمة أو الإنكار. والآية كالشاهد يستشهد به على صدق ما في قوله: «فستعلمون كيف نذير» من الوعيد والتهديد.

والمعنى: ولقد كذب الذين من قبلهم من الامم الهالكة رسلي وجحدوا بربوبيتي فكيف كان عقوبتي وتغييري النعمة عليهم أو كيف كان إنكاري ذلك عليهم حيث أهلكتهم واستأصلتهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ المراد بكون الطير فوقهم طيرانه في الهواء، وصفيف الطير بسطه جناحه حال الطيران وقبضه قبض جناحه حاله، والجمع في «صافات ويقبضن» لكون المراد بالطير استغراق الجنس.

وقوله: ﴿ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ﴾ كالجواب لسؤال مقدّر كأن سائلاً يسأل فيقول: ما هو المراد بإلفات نظرهم الى صفيف الطير وقبضه فوقهم؟ فاجيب بقوله: «ما يمسكهن إلّا الرحمان».

وقرار الطير حال الطيران في الهواء من غير سقوط وإن كان مستنداً الى أسباب طبيعية كقرار الإنسان على بسيط الأرض والسمك في الماء وسائر الامور الطبيعية المستندة الى علل طبيعية تنتهي اليه تعالى لكن لما كان بعض الحوادث غير ظاهر السبب للإنسان في بادي النظر سهل له إذا نظر اليه أن ينتقل الى أن الله سبحانه هو السبب الأعلى الذي ينتهي اليه حدوثه ووجوده، ولذا نبههم الله سبحانه في كلامه بإرجاع نظرهم اليها ودلالتهم على وحدانيته في الربوبية.

وقد ورد في كلامه تعالى شيء كثير من هذا القبيل كامساك السماوات بغير عمد وإمساك الأرض وحفظ السفن على الماء واختلاف الأثمار والألوان والألسنة وغيرها مما كان سببه الطبيعي القريب خفياً في الجملة يسهل للذهن الساذج الانتقال الى استناده اليه تعالى ثم إذا تنبه لوجود أسبابه القريبة بنوع من المجاهدة الفكرية وجد الحاجة بعينها في أسبابه حتى تنتهي اليه تعالى وأن الى ربك المنتهى.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ إِنِ ٱلْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ توبيخ وتقريع لهم في اتخاذهم آلهة من دون الله لينصروهم ولذا التفت عن الغيبة الى الخطاب فخاطبهم ليشتد عليهم التقريع.

وقوله: «أمن هذا الذي» الخ: معناه بل من الذي يشار اليه فيقال: هذا جند لكم ينصركم من دون الرحمان إن أرادكم بسوء أو عذاب؟ فليس دون الله من ينصركم عليه، وفيه إشارة الى خطاهم في اتخاذ بعض خلق الله آلهة لينصروهم في النوائب وهم مملوكون لله لا يملكون لأنفسهم نفعاً وضراً ولا لغيرهم.

وإذ لم يكن لهم جواب أجاب تعالى بقوله: «إن الكافرون إلّا في غرور» أي أحاط بهم الغرور وغشيهم فخيل اليهم ما يدعون من أُلوهية آلهتهم.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي بل من الذي يشار اليه بأن هذا هو الذي يرزقكم إن أمسك الله رزقه فينوب مقامه فيرزقكم؟ ثم أجاب سبحانه بقوله: «بل لجوا في عتو ونفور» أي إن الحق قد تبين لهم لكنهم لا يخضعون للحق بتصديقه ثم اتباعه بل تمادوا في ابتعادهم من الحقّ ونفورهم منه، ولجوا في ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إكباب الشيء على وجهه إسقاطه عليه، وقال في الكشاف: معنى

أكبّ دخل في الكب وصار ذا كب.

استفهام إنكاري عن استواء الحالين تعريضاً لهم بعد ضرب حجاب الغيبة عليهم وتحريمهم من تشريف الحضور والخطاب بعد استقرار اللجاج فيهم، والمراد أنهم بلجاجهم في عتو عجيب ونفور من الحق كمن يسلك سبيلاً وهو مكب على وجه لا يرى ما في الطريق من ارتفاع وانخفاض ومزالق ومعاثر فليس هذا السائر كمن يمشي سوياً على صراط مستقيم فيرى موضع قدمه وما يواجهه من الطريق على استقامة، وما يقصده من الغاية وهؤلاء الكفار سائرون سبيل الحياة وهم يعاندون الحق على علم به فيغمضون عن معرفة ما عليهم أن يعرفوه والعمل بما عليهم أن يعملوا به ولا يخضعون للحق حتى يكونوا على بصيرة من الأمر ويسلكوا سبيل الحياة وهم مستوون على صراط مستقيم فيأمنوا الهلاك.

وقد ظهر أن ما في الآية مثل عام يمثل حال الكافر الجاهل اللجوج المتمادي على جهله والمؤمن المستبصر الباحث عن الحق.

٢٣ • قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ.

٢٤ • قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

٢٥ • وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

٢٦ • قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ.

٢٧ • فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ.

٢٨ • قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ

ٱلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ.

٢٩ ● قُلْ هُوَ الرَّحْمٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

٣٠ ● قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الإنشاء إحداث الشيء ابتداءً وتربيته.

ما في ذيل الآية من لحن العتاب في قوله: «قليلاً مّا تشكرون» وقد تكرّر نظيره في غير موضع من كلامه كما في سورة المؤمنون[1] والم السجدة[2] يدلّ على أن إنشاءه تعالى الإنسان وتجهيزه بجهاز الحس والفكر من أعظم نعمه تعالى التي لا يقدّر قدرها.

وليس المراد بإنشائه مجرد خلقه كيفما كان بل خلقه وإحداثه من دون سابقة في مادته كما أشار اليه في قوله يصف خلقه طوراً بعد طور: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ـ الى أن قال ـ ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ (المؤمنون / ١٤)، فصيرورة المضغة إنساناً سميعاً بصيراً متفكراً بتركيب النفس الإنسانية عليها خلق آخر لا يسانخ أنواع الخلقة المادية الواردة على مادة الإنسان من أخذها من الأرض ثم جعلها نطفة ثم علقة ثم مضغة فإنما هي أطوار مادية متعاقبة بخلاف صيرورتها إنساناً ذا شعور فلا سابقة لها تماثلها أو تشابهها فهو الإنشاء.

---

١. الآية ٧٨.

٢. الآية ٩.

ومثله قوله: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ (الروم / ٢٠) (انظر الى موضع إذا الفجائية).

فقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ﴾ إشارة الى خلق الانسان.

وقوله: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ إشارة الى تجهيزه بجهاز الحسّ والفكر، والجعل إنشائي كجعل نفس الانسان كما يشير اليه قوله: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ (المؤمنون / ٧٨).

وقوله: ﴿ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي تشكرون قليلاً على هذه النعمة ـ أو النعم ـ العظمى فما زائدة وقليلاً مفعول مطلق تقديره تشكرون شكراً قليلاً، وقيل: ما مصدرية والمعنى: قليلاً شكركم.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الذرء الخلق والمراد بذرئهم في الأرض خلقهم متعلقين بالأرض فلا يتم لهم كمالهم إلّا بأعمال متعلقة بالمادة الأرضية بما زينها الله تعالى بما تنجذب اليه النفس الانسانية في حياتها المعجلة ليمتاز به الصالح من الطالح قال تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ (الكهف / ٨).

وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ إشارة الى البعث والجزاء ووعد جازم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ المراد بهذا الوعد الحشر الموعود، وهو استعجال منهم استهزاء.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ جواب عن قولهم: «متى هذا الوعد» الخ؛ ومحصله أن العلم به عند الله لا يعلم به إلّا هو كما قال: ﴿لا يجليها لوقتها إلّا هو﴾ (الأعراف / ١٨٧)، وليس لي إلّا أني نذير مبين أُمرت أن أُخبركم أنكم اليه تحشرون وأما أنه متى هو فليس لي بذلك علم.

هذا على ما يفيده وقوع الآية في سياق الجواب عن السؤال عن وقت الحشر، وعلى هذا تكون اللام في العلم للعهد، والمراد العلم بوقت الحشر. وأما لو كانت للجنس على ما تفيده جملة «إنما العلم عند الله» في نفسها فالمعنى: إنما حقيقة العلم عند الله ولا يحاط بشيء منه إلّا بإذنه كما قال: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء﴾ (البقرة / ٢٥٥)، ولم يشأن أن أعلم من ذلك إلّا أنه سيقع وأُنذركم به وأما أنه متى يقع فلا علم لي به.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الخ: الزلفة القرب والمراد به القريب أو هو من باب زيد عدل، وضمير «رأوه» للوعد وقيل للعذاب والمعنى: فلما رأوا الوعد المذكور قريباً قد أشرف عليهم ساء ذلك وجوه الذين كفروا به فظهر في سيماهم أثر الخيبة والخسران.

وقوله: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ قيل تدعون وتدّعون بمعنى واحد كتدخرون وتدّخرون والمعنى: وقيل لهم: هذا هو الوعد الذي كنتم تسألونه وتستعجلون به بقولكم: متى هذا الوعد، وظاهر السياق أن القائل هم الملائكة بأمر من الله، وقيل القائل من الكفار يقوله بعضهم لبعض.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ «إن» شرطية شرطها قوله: «أهلكني الله» وجزاؤها قوله: «فمن يجير» الخ؛ والمعنى: قل لهم أخبروني إن أهلكني الله ومن معي من المؤمنين أو رحمنا فلم يهلكنا فمن الذي يجير ويعيد الكافرين ـ وهم أنتم كفرتم بالله فاستحققتم أليم العذاب ـ من عذاب أليم يهددهم تهديداً قاطعاً أي إن هلاكي ومن معي وبقاؤنا برحمة ربي لا ينفعكم شيئاً في العذاب الذي سيصيبكم قطعاً بكفركم بالله.

قيل: إن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك فأمر ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك فأمر ﷺ أن يقول لهم إن أهلكنا الله تعالى أو أبقانا فأمرنا الى الله

ونرجو الخير من رحمته وأما أنتم فما تصنعون؟ من يجيركم من أليم العذاب على كفركم بالله؟

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الضمير للذي يدعو الى توحيده وهم يدعونه عليه، والمعنى: قل الذي أدعوكم الى توحيده وتدعونه علي وعلى من معي هو الرحمن الذي عمت نعمته كل شيء آمنا به وعلى توكلنا من غير أن نميل ونعتمد على شيء دونه فستعلمون أيها الكفار من هو في ضلال مبين؟ نحن أم أنتم؟

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ الغور ذهاب الماء ونضوبه في الأرض والمراد به الغائر، والمعين الظاهر الجاري من الماء، والمعنى: أخبروني إن صار ماؤكم غائراً ناضباً في الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر جار.

وهناك روايات تطبّق الآيات على ولاية علي عليه السلام ومحادّته، وهي من الجري وليست بمفسّرة.

سورة القلم مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❋ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ.

٢ ❋ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ.

٣ ❋ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ.

٤ ❋ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ.

٥ ❋ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ.

٦ ❋ بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ.

٧ ❋ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

٨ ❋ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ.

٩ ❋ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ.

١٠ ❋ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ.

١١ ❋ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ.

١٢ ● مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ.

١٣ ● عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيمٍ.

١٤ ● أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ.

١٥ ● إِذَا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ.

١٦ ● سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ.

١٧ ● إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ.

١٨ ● وَلَا يَسْتَثْنُونَ.

١٩ ● فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ.

٢٠ ● فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ.

٢١ ● فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ.

٢٢ ● أَنِ ٱغْدُوا عَلىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ.

٢٣ ● فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ.

٢٤ ● أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ.

٢٥ ● وَغَدَوْا عَلىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ.

٢٦ ● فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ.

٢٧ ● بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ.

٢٨ ● قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ.

٢٩ ● قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ.

٣٠ • فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ.

٣١ • قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ.

٣٢ • عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ.

٣٣ • كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

بيان:

السورة تعزّي النبي ﷺ إثر ما رماه المشركون بالجنون وتطيّب نفسه بالوعد الجميل والشكر على خلقه العظيم وتنهاه نهياً بالغاً عن طاعتهم ومداهنتهم، وتأمره أمراً أكيداً بالصبر لحكم ربه.

وسياق آياتها على الجملة سياق مكي، ونقل عن ابن عباس وقتادة أن صدرها الى قوله: سنسمه على الخرطوم ـ ستة عشرة آية ـ مكي، وما بعده الى قوله: لو كانوا يعلمون ـ سبع عشرة آية ـ مدني، وما بعده الى قوله: يكتبون ـ خمس عشرة آية ـ مكي، وما بعده الى آخر السورة ـ أربع آيات ـ مدني.

ولا يخلو من وجه بالنسبة الى الآيات السبع عشرة «إنا بلوناهم ـ الى قوله ـ لو كانوا يعلمون» فإنها أشبه بالمدنية منها بالمكية.

قوله تعالى: ﴿نٓ﴾ تقدم الكلام في الحروف المقطعة التي في أوائل السور في تفسير سورة الشورى.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ القلم معروف، والسطر بالفتح فالسكون وربما يستعمل بفتحتين ـ كما في المفردات ـ الصف من الكتابة، ومن الشجر المغروس ومن القوم الوقوف وسطر فلان كذا كتب سطراً سطراً.

أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون به وظاهر السياق أن المراد بذلك مطلق القلم ومطلق ما يسطرون به وهو المكتوب فإن القلم وما يسطر به من الكتابة من أعظم النعم الإلهية التي اهتدى اليها الإنسان يتلو الكلام في ضبط الحوادث الغائبة عن الأنظار والمعاني المستكنة في الضمائر. وبه يتيسر للإنسان أن يستحضر كل ما ضرب مرور الزمان أو بعد المكان دونه حجاباً.

وقد امتنّ الله سبحانه على الإنسان بهدايته اليها وتعليمها له فقال في الكلام: ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ (الرحمن / ٤)، وقال في القلم: ﴿ علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (العلق / ٥).

فإقسامه تعالى بالقلم وما يسطرون إقسام بالنعمة، وقد أقسم تعالى في كلامه بكثير من خلقه بما أنه رحمة ونعمة كالسماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار الى غير ذلك حتى التين والزيتون.

قوله تعالى: ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ مقسم عليه والخطاب للنبي ﷺ، والباء في «بنعمة» للسببية أو المصاحبة أي ما أنت بمجنون بسبب النعمة ـ أو مع النعمة ـ التي أنعمها عليك ربك.

والسياق يؤيد أن المراد بهذه النعمة النبوة فإن دليل النبوة يدفع عن النبي كل اختلال عقلي حتى تستقيم الهداية الإلهية اللازمة في نظام الحياة الإنسانية. والآية ترد ما رموه به من الجنون كما يحكى عنهم في آخر السورة «ويقولون إنه لمجنون».

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ الممنون من المن بمعنى القطع يقال: منّه السير مناً إذا قطعه وأضعفه لا من المنة بمعنى تثقيل النعمة قولاً.

والمراد بالأجر أجر الرسالة عند الله سبحانه، وفيه تطييب لنفس النبي ﷺ وأن له على تحمل رسالة الله أجراً غير مقطوع وليس يذهب سدى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ الخلق هو الملكة النفسانية التي تصدر عنها الأفعال بسهولة وينقسم الى الفضيلة وهي الممدوحة كالعفة والشجاعة، والرذيلة وهي المذمومة كالشره والجبن لكنه إذا أُطلق فهم منه الخلق الحسن.

قال الراغب: والخلق ـ بفتح الخاء ـ والخلق ـ بضم الخاء ـ في الأصل واحد كالشرب والشُرب والصرم والصُرم لكن خصَّ الخلق ـ بالفتح ـ بالهيأت والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق ـ بالضم ـ بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة قال تعالى: «وإنك لعلى خلق عظيم» انتهى.

والآية وإن كانت في نفسها تمدح حسن خلقه ﷺ وتعظمه غير أنها بالنظر الى خصوص السياق ناظرة الى أخلاقه الجميلة الاجتماعية المتعلقة بالمعاشرة كالثبات على الحق والصبر على أذى الناس وجفاء أجلافهم والعفو والإغماض وسعة البذل والرفق والمداراة والتواضع وغير ذلك، وقد أوردنا في آخر الجزء السادس من الكتاب ما روي في جوامع أخلاقه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ تفريع على محصل ما تقدم أي فإذا لم تكن مجنوناً بل متلبساً بالنبوة ومتخلقاً بالخلق ولك عظيم الأجر من ربك فسيظهر أمر دعوتك وينكشف على الأبصار والبصائر من المفتون بالجنون أنت أو المكذبون الرامون لك بالجنون.

وقيل: المراد ظهور عاقبة أمر الدعوة له ولهم في الدنيا أو في الآخرة؟ الآية تقبل الحمل على كل منها. ولكل قائل، ولا مانع من الجمع فإن الله تعالى أظهر نبيه عليهم ودينه على دينهم، ورفع ذكره ﷺ ومحا أثرهم في الدنيا وسيذوقون وبال أمرهم غداً ويعلمون[1] أن الله

---

١. النور / ٣٥.

هو الحق المبين يوم هم[1] على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون.

وقوله: ﴿بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ الباء زائدة للصلة، والمفتون اسم مفعول من الفتنة بمعنى الإبتلاء يريد به المبتلى بالجنون وفقدان العقل، والمعنى: فستبصر ويبصرون أيكم المفتون المبتلى بالجنون؟ أنت أم هم؟

وقيل: المفتون مصدر على زنة مفعول كمعقول وميسور ومعسور في قولهم: ليس له معقول، وخذ ميسوره، ودع معسوره، والباء في «بأيكم» بمعنى في والمعنى: فستبصر ويبصرون في أي الفريقين الفتنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ لما أُفيد بما تقدم من القول أن هناك ضلالاً واهتداء، وأُشير الى أن الرامين للنبي ﷺ بالجنون هم المفتونون الضالون وسيظهر أمرهم وأن النبي ﷺ مهتد وكان ذلك ببيان من الله سبحانه أكد ذلك بأن الله أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين لأن سبيله وهو أعلم بمن هو في سبيله ومن ليس فيه واليه أمر الهداية.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ تفريع على المحصل من معنى الآيات السابقة وفي المكذبين معنى العهد والمراد بالطاعة مطلق الموافقة عملاً أو قولاً، والمعنى: فإذا كان هؤلاء المكذبون لك مفتونين ضالين فلا تطعهم.

قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ الإدهان من الدهن يراد به التليين أي ودّ وأحبّ هؤلاء المكذبون أن تليّنهم بالاقتراب منهم في دينك فيليّنوك بالاقتراب منك في دينهم، ومحصله أنهم ودُّوا أن تصالحهم ويصالحوك على أن يتسامح كل منكم بعض المسامحة في دين الآخر كما قيل: إنهم عرضوا عليه أن يكفَّ عن ذكر آلهتهم فيكفُّوا عنه وعن ربه.

---

١. الذاريات / ١٤.

وبما تقدم ظهر أن متعلق مودَّتهم مجموع «لو تدهن فيدهنون» وأن الفاء في «فيدهنون» للتفريع لا للسببية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ـ الى قوله ـ زَنِيمٍ﴾ الحلاف كثير الحلف، ولازم كثرة الحلف والإقسام في كل يسير وخطير وحق وباطل أن لا يحترم الحالف شيئاً مما يقسم به، وإذا كان حلفه بالله فهو لا يستشعر عظمة الله عز اسمه وكفى به رذيلة.

والمهين من المهانة بمعنى الحقارة والمراد به حقارة الرأي، وقيل: هو المكثار في الشر، وقيل: هو الكذاب.

والهمّاز مبالغة من الهمز والمراد به العيّاب والطعّان، وقيل: الطعّان بالعين والإشارة وقيل: كثير الاغتياب.

والمشّاء بنميم النميم: السعاية والإفساد، والمشاء به هو نقّال الحديث من قوم الى قوم على وجه الإفساد بينهم.

والمنّاع للخير كثير المنع لفعل الخير أو للخير الذي ينال أهله.

والمعتدي من الاعتداء وهو المجاوزة للحدّ ظلماً.

والأثيم هو الذي كثر إثمه حتى استقر فيه من غير زوال والإثم هو العمل السيىء الذي يبطىء الخير.

والعتلّ بضمتين هو الفظ الغليظ الطبع، وفسّر بالفاحش السيىء الخلق، وبالجافي الشديد الخصومة بالباطل، وبالأكول المنوع للغير، وبالذي يعتلّ الناس ويجرُّهم الى حبس أو عذاب.

والزنيم هو الذي لا أصل له، وقيل: هو الدعيّ الملحق بقوم وليس منهم، وقيل: هو المعروف باللؤم، وقيل: هو الذي له علامة في الشر يعرف بها وإذا ذكر الشر سبق هو الى الذهن، والمعاني متقاربة.

فهذه صفات تسع رذيلة وصف الله بها بعض أعداء الدين ممن كان يدعو النبي ﷺ الى الطاعة والمداهنة، وهي جماع الرذائل.

وقوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ معناه أنه بعدما ذكر من مثالبة ورذائله عتل زنيم قيل: وفيه دلالة على أن هاتين الرذيلتين أشد معايبه.

والظاهر أن فيه إشارة الى أن له خبائث من الصفات لا ينبغي معها أن يطاع في أمر الحق ولو أُغمض عن تلك الصفات فإنه فظ خشن الطبع لا أصل له لا ينبغي أن يعبأ بمثله في مجتمع بشري فليطرد ولا يطع في قول ولا يتّبع في فعل.

قوله تعالى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ الظاهر أنه بتقدير لام التعليل وهو متعلق بفعل محصل من مجموع الصفات الرذيلة المذكورة أي هو يفعل كذا وكذا لأن كان ذا مال وبنين فبطر بذلك وكفر بنعمة الله وتلبّس بكل رذيلة خبيثة بدل أن يشكر الله على نعمته ويصلح نفسه. فالآية في إفادة الذم والتهكم تجري مجرى قوله: «ألم تر الى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك».

قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ الأساطير جمع اسطورة وهي القصة الخرافية. والآية تجري مجرى التعليل لقوله السابق: «لا تطع».

قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ الوسم والسمة وضع العلامة. والخرطوم الأنف. وقيل: إن في إطلاق الخرطوم على أنفه وإنما يطلق في الفيل والخنزير تهكماً. وفي الآية وعيد على عداوته الشديدة لله ورسوله وما نزّله على رسوله.

والظاهر أن الوسم على الأنف أُريد به نهاية إذلاله بذلّة ظاهرة يعرفه بها كل من رآه فإن الأنف مما يظهر فيه العزة والذلة كما يقال: شمخ فلان بأنفه وحمي فلان أنفه وأرغمت أنفه وجدع أنفه.

والظاهر أن الوسم على الخرطوم مما سيقع يوم القيامة لا في الدنيا وإن تكلف بعضهم في

توجيه حمله على فضاحته في الدنيا .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ - الى قوله - كَالصَّرِيمِ﴾ البلاء الاختبار وإصابة المصيبة ، والصرم قطع الثمار من الأشجار ، والاستثناء عزل البعض من حكم الكل وأيضاً الاستثناء قول إن شاء الله عند القطع بقول وذلك أن الأصل فيه الاستثناء فالأصل في قولك : أخرج غداً إن شاء الله هو أخرج غداً إلّا أن يشاء الله أن لا أخرج ، والطائف العذاب الذي يأتي بالليل ، والصريم الشجر المقطوع ثمره ، وقيل : الليل الأسود ، وقيل : الرمل المقطوع من سائر الرمل وهو لا ينبت شيئاً ولا يفيد فائدة .

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ على الجنة « طائف » أي بلاء يطوف عليها ويحيط بها ليلاً « من » ناحية « ربك ، فأصبحت » وصارت الجنة « كالصريم » وهو الشجر المقطوع ثمره أو المعنى : فصارت الجنة كالليل الأسود لما اسودَّت بإحراق النار التي أرسلها الله اليها أو المعنى : فصارت الجنة كالقطعة من الرمل لا نبات بها ولا فائدة .

قوله تعالى : ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ - الى قوله - قَادِرِينَ﴾ التنادي نداء بعض القوم بعضاً ، والإصباح الدخول في الإصباح ، وصارمين من الصرم بمعنى قطع الثمار من الشجرة ، والمراد به في الآية القاصدون لقطع الثمار ، والحرث الزرع والشجر ، والخفت الإخفاء والكتمان ، والحرد المنع وقادرين من القدر بمعنى التقدير .

والمعنى « فتنادوا » أي فنادى بعض القوم بعضاً « مصبحين » أي والحال أنهم داخلون في الصباح « أن أغدوا على حرثكم » تفسير للتنادي أي بكروا مقبلين على جنتكم - فأغدوا أمر بمعنى بكروا مضمن معنى أقبلوا ولذا عدي بعلى ولو كان غير مضمن عدي بـإلى كما في الكشاف - « إن كنتم صارمين » أي قاصدين عازمين على الصرم والقطع .

﴿فَانْطَلَقُوا﴾ وذهبوا الى جنتهم ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي والحال أنهم يأتمرون فيما بينهم بطريق المخافتة والمكاتمة « أن لا يدخلنها » أي الجنة « اليوم عليكم مسكين » أي أخفوا

ورودكم الجنة للصرم من المساكين حتى لا يدخلوا عليكم فيحملكم ذلك على عزل نصيب من الثمر المصروم لهم «وغدوا» وبكروا الى الجنة «على حرد» أي على منع للمساكين «قادرين» مقدرين في أنفسهم أنهم سيصرمونها ولا يساهمون المساكين بشيء منها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي فلما رأوا الجنة وشاهدوها وقد أصبحت كالصريم بطواف طائف من عند الله قالوا: إنا لضالون عن الصواب في غدونا اليها بقصد الصرم ومنع المساكين.

وقيل: المراد إنا لضالون طريق جنتنا وما هي بها.

وقوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ إضراب عن سابقه أي ليس مجرد الضلال عن الصواب بل حرمنا الزرع.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ـ الى قوله ـ رَاغِبُونَ﴾ أي «قال أوسطهم» أي أعدلهم طريقاً وذلك أنه ذكرهم بالحق وإن تبعهم في العمل وقيل: المراد أوسطهم سناً وليس بشيء «ألم أقل لكم» وقد كان قال لهم ذلك وإنما لم يذكر قبل في القصة إيجازاً بالتعويل على ذكره ههنا.

«لولا تسبحون» المراد بتسبيحهم له تعالى تنزيههم له من الشركاء حيث اعتمدوا على أنفسهم وعلى سائر الأسباب الظاهرية فأقسموا ليصرمنها مصبحين ولم يستثنوا لله مشية فعزلوه تعالى عن السببية والتأثير ونسبوا التاثير الى أنفسهم وسائر الأسباب الظاهرية، وهو إثبات للشريك، ولو قالوا: لنصرمنها مصبحين إلّا أن يشاء الله كان معنى ذلك نفي الشركاء وأنهم إن لم يصرموا كان لمشية من الله وإن صرموا كان ذلك بإذن من الله فلله الأمر وحده لا شريك له.

وقيل: المراد بتسبيحهم لله ذكر الله تعالى وتوبتهم اليه حيث نووا أن يصرموها ويحرموا المساكين منها، وله وجه على تقدير أن يراد بالاستثناء عزل نصيب من الثمار للمساكين.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ تسبيح منهم لله سبحانه إثر توبيخ أوسطهم لهم، أي ننزه الله تنزيهاً من الشركاء الذين أثبتناهم فيما حلفنا عليه فهو ربنا الذي يدير بمشيته أمورنا لأنا كنا ظالمين في إثباتنا الشركاء فهو تسبيح واعتراف بظلمهم على أنفسهم في إثبات الشركاء.

وعلى القول الآخر توبة واعتراف بظلمهم على أنفسهم وعلى المساكين.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً على ما ارتكبوه من الظلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا ـ الى قوله ـ رَاغِبُونَ﴾ الطغيان تجاوز الحد وضمير «منها» للجنة باعتبار ثمارها والمعنى: قالوا يا ويلنا إنا كنا متجاوزين حد العبودية إذ أثبتنا شركاء لربنا ولم نوحده، ونرجوا من ربنا أن يبدلنا خيراً من هذه الجنة التي طاف عليها طائف منه لأنا راغبون اليه معرضون عن غيره.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العذاب مبتدأ مؤخر، وكذلك خبر مقدم أي إنما يكون العذاب على ما وصفناه في قصة أصحاب الجنة وهو أن الإنسان يمتحن بالمال والبنين فيطغى مغتراً بذلك فيستغني بنفسه وينسى ربه ويشرك بالأسباب الظاهرية وبنفسه ويجترىء على المعصية وهو غافل عما يحيط به من وبال عمله ويهيؤ له من العذاب كذلك حتى إذا فاجأه العذاب وبرز له بأهول وجوهه وأمرّها انتبه من نومة الغفلة وتذكر ما جاءه من النصح قبلاً وندم على ما فرّط بالطغيان والظلم وسأل الله أن يعيد عليه النعمة فيشكر كما انتهى اليه أمر أصحاب الجنة، ففي ذلك إعطاء الضابط بالمثال.

وقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لأنه ناش عن قهر إلهي لا يقوم له شيء لا رجاء للتخلص منه ولو بالموت والفناء كما في شدائد الدنيا، محيط بالإنسان

من جميع أقطار وجوده لا كعذاب الدنيا دائم لا انتهاء لأمده كما في الابتلاءات الدنيوية[1].

٣٤ ● إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ.

٣٥ ● أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ.

٣٦ ● مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ.

٣٧ ● أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ.

٣٨ ● إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ.

٣٩ ● أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا
تَحْكُمُونَ.

٤٠ ● سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ.

٤١ ● أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ.

٤٢ ● يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ.

٤٣ ● خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى
السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ.

٤٤ ● فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ
لَا يَعْلَمُونَ.

---

١. القلم ١ ـ ٣٣: بحث روائي في تفسير الحروف المقطعة؛ خلق رسول الله العظيم؛ الذين لا يدخلون الجنّة: امة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

٤٥ • وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ.

٤٦ • أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ.

٤٧ • أَمْ عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ.

٤٨ • فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاٰ تَكُنْ كَصٰاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نٰادىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ.

٤٩ • لَوْلاٰ أَنْ تَدٰارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرٰاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ.

٥٠ • فَاجْتَبٰاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصّٰالِحِينَ.

٥١ • وَإِنْ يَكٰادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصٰارِهِمْ لَمّٰا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ.

٥٢ • وَمٰا هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّٰاتُ النَّعِيمِ﴾ بشرى وبيان لحال المتقين في الآخرة قبال ما بين من حال المكذبين فيها.

وفي قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ دون أن يقال: عند الله إشارة الى رابطة التدبير والرحمة بينهم وبينه سبحانه وأن لهم ذلك قبال قصرهم الربوبية فيه تعالى وإخلاصهم العبودية له.

وإضافة الجنات الى النعيم وهو النعمة للإشارة الى أن ما فيها من شيء نعمة لا تشوبها نقمة ولذة لا يخالطها ألم، وسيجيء إن شاء الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم﴾ (التكاثر / ٨)، أن المراد بالنعيم الولاية.

قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تحتمل الآية في بادىء النظر أن

تكون مسوقة حجة على المعاد كقوله تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ (ص / ٢٨)، وقد تقدم تفسيره.

وأن تكون رداً على قول من قال منهم للمؤمنين: لو كان هناك بعث وإعادة لكنا منعمين كما في الدنيا وقد حكى سبحانه ذلك عن قائلهم ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ (حم السجدة / ٥٠).

ظاهر سياق الآيات التالية التي ترد عليهم الحكم بالتساوي هم الاحتمال الثاني، وهو الذي رووه أن المشركين لما سمعوا حديث البعث والمعاد قالوا: إن صح ما يقوله محمّد والذين آمنوا معه لم تكن حالنا إلّا أفضل من حالهم كما في الدنيا ولا أقل من أن تتساوي حالنا وحالهم.

غير أنه يرد عليه أن الآية لو سيقت لرد قولهم، سنساويهم في الآخرة أو نزيد عليهم كما في الدنيا، كان مقتضى التطابق بين الرد والمردود أن يقال: أفنجعل المجرمين كالمسلمين وقد عكس.

فقوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ مسوق للتعجب من حكمهم بكون المجرمين يوم القيامة كالمسلمين، وهو إشارة الى تأبِّي العقل عن تجويز التساوي، ومحصله نفي حكم العقل بذلك إذ معناه: أي شيء حصل لكم من اختلال الفكر وفساد الرأي حتى حكمتم بذلك؟

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ إشارة الى انتفاء الحجة على حكمهم بالتساوي من جهة السمع كما أن الآية السابقة كانت إشارة الى انتفائها من جهة العقل.

والمراد بالكتاب الكتاب السماوي النازل من عند الله وهو حجة، ودرس الكتاب قراءته، والتخيّر الاختيار، وقوله: «إن لكم لما تخيّرون» في مقام المفعول لتدرسون والاستفهام إنكاري.

والمعنى: بل ألكم كتاب سماوي تقرؤن فيه إن لكم في الآخرة ـ أو مطلقاً ـ لما تختارونه فاخترتم السعادة والجنة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلىٰ يَوْمِ ٱلْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ﴾ إشارة الى انتفاء أن يملكوا الحكم بعهد ويمين شفاهي لهم على الله سبحانه.

والأيمان جمع يمين وهو القسَم، والبلوغ هو الانتهاء في الكمال فالأيمان البالغة هي المؤكدة نهاية التوكيد، وقوله: «الى يوم القيامة» على هذا ظرف مستقر متعلق بمقدر والتقدير: أم لكم علينا أيمان كائنة الى يوم القيامة مؤكدة نهاية التوكيد، الخ.

ويمكن أن يكون «الى يوم القيامة» متعلقاً ببالغة والمراد ببلوغ الأيمان انطباقها على امتداد الزمان حتى ينتهى الى يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ﴾ جواب القسم وهو المعاهد عليه، والاستفهام للانكار.

والمعنى: بل ألكم علينا عهود أقسمنا فيها إقساماً مؤكداً الى يوم القيامة إنا سلمنا لكم أن لكم لما تحكمون به.

قوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ إعراض عن خطابهم والتفات الى النبي ﷺ بتوجيه الخطاب لسقوطهم عن درجة استحقاق الخطاب ولذلك أورد بقية السؤالات وهي مسائل أربع في سياق الغيبة أولها قوله: «سلهم أيّهم بذلك زعيم» والزعيم القائم بالأمر المتصدي له، والاستفهام إنكاري.

والمعنى: سل المشركين أيّهم قائم بأمر التسوية الذي يدّعونه أي إذا ثبت أن الله لا يسوّي بين الفريقين لعدم دليل يدلُّ عليه فهل الذي يقوم بهذا الأمر ويتصدّاه هو منهم؟ فأيّهم هو؟ ومن الواضح بطلانه لا يتفوّه به إلّا مصاب في عقله.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ﴾ ردّ لهم

على تقدير أن يكون حكمهم بالتساوي مبنياً على دعواهم أن لهم آلهة يشاركون الله سبحانه في الربوبية سيشفعون لهم عند الله فيجعلهم كالمسلمين والاستفهام إنكاري يفيد نفي الشركاء.

وقوله: «فليأتوا بشركائهم» الخ؛ كناية عن انتفاء الشركاء يفيد تأكيد ما في قوله: «أم لهم شركاء» من النفي.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ـ الى قوله ـ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ يوم ظرف متعلق بمحذوف كاذكر ونحوه، والكشف عن الساق تمثيل في اشتداد الأمر اشتداداً بالغاً لما أنهم كانوا يشمّرون عن سوقهم إذا اشتد الأمر للعمل أو للفرار قال في الكشاف: فمعنى «يوم يكشف عن ساق» في معنى يوم يشتد الأمر ويتفاقم، ولا كشف ثم ولا ساق كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة ولا يد ثم ولا غل وإنما هو مثل في البخل انتهى.

والآية وما بعدها الى تمام خمس آيات اعتراض وقع في البين بمناسبة ذكر شركائهم الذين يزعمون أنهم سيسعدونهم لو كان هناك بعث وحساب فذكر سبحانه أن لا شركاء لله ولا شفاعة وإنما يحرز الإنسان سعادة الآخرة بالسجود أي الخضوع لله سبحانه بتوحيد الربوبية في الدنيا حتى يحمل معه صفة الخضوع فيسعد بها يوم القيامة.

وهؤلاء المكذبون المجرمون لم يسجدوا لله في الدنيا فلا يستطيعون السجود في الآخرة فلا يسعدون ولا تتساوي حالهم وحال المسلمين فيها البتة بل الله سبحانه يعاملهم في الدنيا لاستكبارهم عن سجوده معاملة الاستدراج والإملاء حتى يتم لهم شقاؤهم فيردوا العذاب الأليم في الآخرة.

فقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ معناه اذكر يوم يشتد عليهم الأمر ويدعون الى السجود لله خضوعاً فلا يستطيعون لاستقرار

ملكة الاستكبار في سرائرهم واليوم تبلى السرائر[١].

وقوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ حالان من نائب فاعل يدعون أي حال كون أبصارهم خاشعة وحال كونهم يغشاهم الذلة بقهر. ونسبة الخشوع الى الأبصار لظهور أثره فيها.

وقوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ المراد بالسلامة سلامتهم من الآفات والعاهات التي لحقت نفوسهم بسبب الاستكبار عن الحق فسلبتها التمكن من إجابة الحق أو المراد مطلق استطاعتهم منه في الدنيا.

والمعنى: وقد كانوا في الدنيا يدعون الى السجود لله وهم سالمون متمكنون منه أقوى تمكن فلا يجيبون اليه.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ المراد بهذا الحديث القرآن الكريم وقوله: «فذرني ومن يكذب» الخ: كناية عن أنه يكفيهم وحده وهو غير تاركهم وفيه نوع تسلية للنبي ﷺ وتهديد للمشركين.

قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استئناف فيه بيان كيفية أخذه تعالى لهم وتعذيبه إياهم المفهوم من قوله: «فذرني» الخ.

والاستدراج هو استنزالهم درجة فدرجة حتى يتم لهم الشقاء فيقعوا في ورطة الهلاك وذلك بأن يؤتيهم الله نعمة بعد نعمة وكلما أُوتوا نعمة اشتغلوا بها وفرطوا في شكرها وزادوا نسياناً له وابتعدوا عن ذكره.

فالإستدراج إيتاؤهم النعمة بعد النعمة الموجب لنزولهم درجة بعد درجة واقترابهم من ورطة الهلاك. وكونه من حيث لا يعلمون إنما هو لكونه من طريق النعمة التي يحسبونها خيراً

---

١. الطارق الآية ٩.

وسعادة لا شر فيها ولا شقاء.

قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ الإملاء الإمهال، والكيد ضرب من الاحتيال، والمتين القوي.

والمعنى: وأُمهلهم حتى يتوسعوا في نعمنا بالمعاصي كما يشاؤن إن كيدي قوي.

والنكتة في الالتفات الذي في «سنستدرجهم» عن التكلم وحده الى التكلم مع الغير الدالة على العظمة وأن هناك موكلين على هذه النعم التي تصب عليهم صباً. والالتفات في قوله: «وأُملي لهم» عن التكلم مع الغير الى التكلم وحده لأن الإملاء تأخير في الأجل ولم ينسب أمر الأجل في القرآن الى غير الله سبحانه قال تعالى: ﴿ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾ (الأنعام / ٢).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ المغرم الغرامة، والإثقال تحميل الثقل، والجملة معطوفة على قوله: «أم لهم شركاء» الخ.

والمعنى: أم تسأل هؤلاء المجرمين ـ الذين يحكمون بتساوي المجرمين والمسلمين يوم القيامة ـ أجراً على دعوتك فهم من غرامة تحملها عليهم مثقلون فيواجهونك بمثل هذا القول تخلصاً من الغرامة دون أن يكون ذلك منهم قولاً جدياً.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ظاهر السياق أن يكون المراد بالغيب غيب الأشياء الذي منه تنزل الامور بقدر محدود فتستقر في منصة الظهور، والمراد بالكتابة على هذا هو التقدير والقضاء. والمراد بكون الغيب عندهم تسلطهم عليه وملكهم له.

فالمعنى: أم بيدهم أمر القدر والقضاء فهم يقضون كما شاؤا فيقضون لأنفسهم أن يساووا المسلمين يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادىٰ وَهُوَ

مَكْظُومٌ ﴾ صاحب الحوت يونس النبي ﷺ والمكظوم من كظم الغيظ إذا تجرعه ولذا فسر بالمختنق بالغم حيث لا يجد لغيظه شفاء، ونهيه ﷺ عن أن يكون كيونس ﷺ وهو في زمن النداء مملوء بالغم نهي عن السبب المؤدي الى نظير هذا الإبتلاء وهو ضيق الصدر والاستعجال بالعذاب.

والمعنى: فاصبر لقاء ربك أن يستدرجهم ويملي لهم ولا تستعجل لهم العذاب لكفرهم ولا تكن كيونس فتكون مثله وهو مملوء غماً أو غيضاً ينادي الله بالتسبيح والاعتراف بالظلم أي فاصبر واحذر أن تبتلي بما يشبه ابتلاءه، ونداؤه قوله في بطن الحوت: «لا إله إلّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» كما في سورة الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ في مقام التعليل للنهي السابق «لا تكن كصاحب الحوت» والتدارك الإدراك واللحوق، وفسرت النعمة بقبول التوبة، والنبذ الطرح، والعراء الأرض غير المستورة بسقف أو نبات، والذمّ مقابل المدح.

والمعني: لولا أن أدركته ولحقت به نعمة من ربه وهو أن الله قبل توبته لطرح بالأرض العراء وهو مذموم بما فعل.

لا يقال: إن الآية تنافي قوله تعالى: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ (الصافات / ١٤٤)، فإن مدلوله أن مقتضى عمله أن يلبث في بطنه الى يوم القيامة ومقتضى هذه الآية أن مقتضاه أن يطرح في الأرض العراء مذموماً وهما تبعتان متنافيتان لا تجتمعان.

فإنه يقال: الآيتان تحكيان عن مقتضيين مختلفين لكل منهما أثر على حدة فآية الصافات تذكر أنه ﷺ كان مداوماً للتسبيح مستمراً عليه طول حياته قبل ابتلائه ـ وهو قوله: كان من المسبحين ـ ولولا ذلك للبث في بطنه الى يوم القيامة، والآية التي نحن فيها تدلُّ على أن النعمة

وهو قبول توبته في بطن الحوت شملته فلم ينبذ بالعراء مذموماً.

فمجموع الآيتين يدلّ على أن ذهابه مغاضباً كان يقتضي أن يلبث في بطنه الى يوم القيامة فمنع عن دوام تسبيحه قبل التقامه وبعده، وقدّر أن ينبذ بالعراء وكان مقتضى عمله أن ينبذ مذموماً فمنع من ذلك تدارك نعمة ربه له فنبذ غير مذموم بل اجتباه الله وجعله من الصالحين فلا منافاة بين الآيتين.

وقد تكرر في مباحثنا السابقة أن حقيقة النعمة الولاية وعلى ذلك يتعين لقوله: «لولا أن تداركه نعمة من ربه» معنى آخر.

قوله تعالى: ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ تقدم توضيح معنى الاجتباء والصلاح في مباحثنا المتقدمة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ إن مخففة من الثقيلة. والزلق هو الزلل، والإزلاق الإزلال وهو الصرع كناية عن القتل والإهلاك.

والمعنى: أنه قارب الذين كفروا أن يصرعوك بأبصارهم لما سمعوا الذكر.

والمراد بإزلاقه بالأبصار وصرعه بها ـ على ما عليه عامة المفسرين ـ الإصابة بالأعين، وهو نوع من التأثير النفساني لا دليل على نفيه عقلاً وربما شوهد من الموارد ما يقبل الانطباق عليه، وقد وردت في الروايات فلا موجب لإنكاره.

وقيل: المعنى أنهم ينظرون اليك إذا سمعوا منك الذكر الذي هو القرآن نظراً مليئاً بالعداوة والبغضاء يكادون يقتلونك بحديد نظرهم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ رميهم له بالجنون عندما سمعوا الذكر دليل على أن مرادهم به رمي القرآن بأنه من إلقاء الشياطين، ولذا ردّ قولهم بأن القرآن ليس إلّا ذكراً للعالمين.

وقد ردّ قولهم: «إنه لمجنون» في أول السورة بقوله: «ما أنت بنعمة ربك بمجنون» وبه ينطبق خاتمة السورة على فاتحتها[1].

١. القلم ٣٤ ـ ٥٢: بحث روائي حول قوله تعالى: «يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود»؛ استدراج المكذبين؛ العين.

سوة الحاقة مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● أَلْحَاقَّةُ.

٢ ● مَا ٱلْحَاقَّةُ.

٣ ● وَمَا أَدْرٰيكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ.

٤ ● كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ.

٥ ● فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ.

٦ ● وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ.

٧ ● سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى ٱلْقَوْمَ
فِيهَا صَرْعىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ.

٨ ● فَهَلْ تَرىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ.

٩ ● وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ.

١٠ ● فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً.

١١ ● إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ.
١٢ ● لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ.

بيان:

السورة تذكر الحاقة وهي القيامة وقد سمّتها أيضاً بالقارعة والواقعة.

وقد ساقت الكلام فيها في فصول ثلاثة: فصل تذكر فيه إجمالاً الامم الذين كذّبوا بها فأخذهم الله أخذة رابية، وفصل تصف فيه الحاقة وانقسام الناس فيها الى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال واختلاف حالهم بالسعادة والشقاء، وفصل تؤكد فيه صدق القرآن في إنبائه بها وأنه حق اليقين. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَاقَّةُ مَا ٱلْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ المراد بالحاقة القيامة الكبرى سميت بها لثبوتها ثبوتاً لا مردَّ له ولا ريب فيه، من حقَّ الشيء بمعنى ثبت وتقرَّر تقرُّراً واقعياً.

و «ما» في «ما الحاقة» استفهامية تفيد تفخيم أمرها ولذلك بعينه وضع الظاهر موضع الضمير ولم يُقَل: ما هي، والجملة الاستفهامية خبر الحاقة.

فقوله: «الحاقة ما الحاق» مسوق لتفخيم أمر القيامة يفيد تفخيم أمرها وإعظام حقيقتها إفادة بعد إفادة.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرِيكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ خطاب بنفي العلم بحقيقة اليوم وهذا التعبير كناية عن كمال أهمية الشيء وبلوغه الغاية في الفخامة ولعل هذا هو المراد مما نقل عن ابن عباس: أن ما في القرآن من قوله تعالى: «ما أدراك» فقد أدراه وما فيه من قوله: «ما يدريك» فقد طوى عنه، يعني أن «ما أدراك» كناية و «ما يدريك» تصريح.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ المراد بالقارعة القيامة وسميت بها

لأنها تقرع وتدكّ السماوات والأرض بتبديلها والجبال بتسييرها والشمس بتكويرها والقمر بخسفها والكواكب بنثرها والأشياء كلها بقهرها على ما نطقت به الآيات، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: كذبت ثمود وعاد بها فوضع القارعة موضع الضمير لتأكيد تفخيم أمرها.

وهذه الآية وما يتلوها الى تمام تسع آيات وإن كانت مسوقة للاشارة الى إجمال قصص قوم نوح وعاد وثمود وفرعون ومن قبله والمؤتفكات وإهلاكهم لكنها في الحقيقة بيان للحاقة ببعض أوصافها وهو أن الله أهلك أُمماً كثيرة بالتكذيب بها فهي في الحقيقة جواب للسؤال بما الاستفهامية كما أن قوله: «فإذا نفخ في الصور» الخ؛ جواب آخر.

ومحصل المعنى: هي القارعة التي كذبت بها ثمود وعاد وفرعون ومن قبله والمؤتفكات وقوم نوح فأخذهم الله أخذة رابية وأهلكهم بعذاب الاستئصال.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ بيان تفصيلي لأكثر تكذيبهم بالقارعة، والمراد بالطاغية الصيحة أو الرجفة أو الصاعقة على اختلاف ظاهر تعبير القرآن في سبب هلاكهم في قصتهم قال تعالى: ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ (هود / ٦٧)، وقال أيضاً: ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ (الأعراف / ٨٧)، وقال: أيضاً ﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾ (حم السجدة / ١٧).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ الصرصر الريح الباردة الشديدة الهبوب، وعاتية من العتوّ بمعنى الطغيان والابتعاد من الطاعة والملاءمة.

قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ تسخيرها عليهم تسليطها عليهم، والحسوم جمع حاسم كشهود جمع شاهد من الحسم بمعنى تكرار الكي مرات متتالية، وهي صفة لسبع أي سبع ليال وثمانية أيام متتالية متتابعة وصرعى جمع صريع وأعجاز عجز بالفتح فالضم آخر الشيء، وخاوية الخالية الجوف الملقاة والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرىٰ لَهُمْ مِنْ بٰاقِيَةٍ﴾ أي من نفس باقية، والجملة كناية عن استيعاب الهلاك لهم جميعاً. وقيل: الباقية مصدر بمعنى البقاء وقد أُريد به البقية وما قدمناه من المعنى أقرب.

قوله تعالى: ﴿وَجٰاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكٰاتُ بِالْخٰاطِئَةِ﴾ المراد بفرعون فرعون موسى، وبمن قبله الامم المتقدمة عليه زماناً من المكذبين. وبالمؤتفكات قرى قوم لوط والجماعة القاطنة بها. «وخاطئة» مصدر بمعنى الخطاء والمراد بالمجيء بالخاطئة إخطاء طريق العبودية، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رٰابِيَةً﴾ ضمير «عصوا» لفرعون ومن قبله والمؤتفكات، والمراد بالرسول جنسه، والرابية الزائدة من ربا يربو ربوة إذا زاد. والمراد بالأخذة الرابية العقوبة الشديدة وقيل: العقوبة الزائدة على سائر العقوبات وقيل: الخارقة للعادة.

قوله تعالى: ﴿إِنّٰا لَمّٰا طَغَا الْمٰاءُ حَمَلْنٰاكُمْ فِي الْجٰارِيَةِ﴾ إشارة الى طوفان نوح والجارية السفينة، وعد المخاطبين محمولين في سفينة نوح والمحمول في الحقيقة أسلافهم لكون الجميع نوعاً واحداً ينسب حال البعض منه الى الكل والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهٰا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهٰا أُذُنٌ وٰاعِيَةٌ﴾ تعليل لحملهم في السفينة فضمير «لنجعلها» للحمل باعتبار أنه فعلة أي فعلنا بكم تلك الفعلة لنجعلها لكم أمراً تتذكرون به وعبرة تعتبرون بها وموعظة تتعظون بها.

وقوله: ﴿وَتَعِيَهٰا أُذُنٌ وٰاعِيَةٌ﴾ الوعي جعل الشيء في الوعاء، والمراد بوعي الاذن ها تقريرها في النفس وحفظها فيها لترتب عليها فائدتها وهي التذكر والاتعاظ.

وفي الآية بجملتيها إشارة الى الهداية الربوبية بكلا قسميها أعني الهداية بمعنى إراءة الطريق

والهداية بمعنى الإيصال الى المطلوب[١].

١٣ ◉ فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ.

١٤ ◉ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً.

١٥ ◉ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْواقِعَةُ.

١٦ ◉ وَٱنْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ.

١٧ ◉ وَٱلْمَلَكُ عَلىٰ أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ.

١٨ ◉ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفىٰ مِنْكُمْ خافِيَةٌ.

١٩ ◉ فَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتابِيَهْ.

٢٠ ◉ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ.

٢١ ◉ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ.

٢٢ ◉ فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ.

٢٣ ◉ قُطُوفُها دانِيَةٌ.

٢٤ ◉ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيّامِ ٱلْخالِيَةِ.

٢٥ ◉ وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ.

٢٦ ◉ وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ.

٢٧ ◉ يا لَيْتَها كانَتِ ٱلْقاضِيَةَ.

---

١. الحاقة ١ ـ ١٢: بحث حول هداية كل نوع من انواع المخلوقات؛ هداية الانسان.

٢٨ ● مٰا أَغْنىٰ عَنِّي مٰالِيَهْ.

٢٩ ● هَلَكَ عَنِّي سُلْطٰانِيَهْ.

٣٠ ● خُذُوهُ فَغُلُّوهُ.

٣١ ● ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ.

٣٢ ● ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهٰا سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ.

٣٣ ● إِنَّهُ كٰانَ لاٰ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ ٱلْعَظِيمِ.

٣٤ ● وَلاٰ يَحُضُّ عَلىٰ طَعٰامِ ٱلْمِسْكِينِ.

٣٥ ● فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هٰهُنٰا حَمِيمٌ.

٣٦ ● وَلاٰ طَعٰامٌ إِلاّٰ مِنْ غِسْلِينٍ.

٣٧ ● لاٰ يَأْكُلُهُ إِلاّٰ ٱلْخٰاطِؤُنَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَإِذٰا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ﴾ قد تقدم أن النفخ في الصور كناية عن البعث والإحضار لفصل القضاء، وفي توصيف النفخة بالواحدة إشارة الى مضي الأمر ونفوذ القدرة فلا وهن فيه حتى يحتاج الى تكرار النفخة، والذي يسبق الى الفهم من سياق الآيات أنها النفخة الثانية التي تحيي الموتى.

قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً﴾ الدك أشد الدق وهو كسر الشيء وتبديله الى أجزاء صغار، وحمل الأرض والجبال إحاطة القدرة بها، وتوصيف الدكة بالواحدة للإشارة الى سرعة تفتتها بحيث لا يفتقر الى دكة ثانية.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْواقِعَةُ﴾ أي قامت القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ﴾ انشقاق الشيء انفصال شطر منه من شطر آخر. وواهية من الوهي بمعنى الضعف، وقيل: من الوهي بمعنى شق الأديم والثوب ونحوهما.

ويمكن أن تكون الآية أعني قوله: «وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها» في معنى قوله: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾ (الفرقان / ٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلىٰ أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ﴾ قال الراغب: رجا البئر والسماء وغيرهما جانبها والجمع أرجاء قال تعالى: «والملك على أرجائها» انتهى، والملك ـ كما قيل ـ يطلق على الواحد والجمع والمراد به في الآية الجمع.

وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ﴾ ضمير «فوقهم» على ظاهر ما يقتضيه السياق للملائكة، وقيل: الضمير للخلائق.

وظاهر كلامه أن للعرش اليوم حملة من الملائكة قال تعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا﴾ (المؤمن / ٧)، وقد وردت الروايات أنهم أربعة، وظاهر الآية أعني قوله: «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية» أن الحملة يوم القيامة ثمانية وهل هم من الملائكة أو من غيرهم؟ الآية ساكتة عن ذلك وإن كان لا يخلو السياق من إشعار ما بأنهم من الملائكة.

ومن الممكن ـ كما تقدمت الإشارة اليه ـ أن يكون الغرض من ذكر انشقاق السماء وكون الملائكة على أرجائها وكون حملة العرش يومئذ ثمانية بيان ظهور الملائكة والسماء والعرش للإنسان يومئذ، قال تعالى: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبّحون بحمد ربهم﴾ (الزمر / ٧٥).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاٰ تَخْفىٰ مِنْكُمْ خٰافِيَةٌ﴾ الظاهر أن المراد به العرض على الله كما قال تعالى: ﴿وعرضوا على ربك صفا﴾ (الكهف / ٤٨)، والعرض إراءة البائع سلعته للمشتري ببسطها بين يديه. فالعرض يومئذ على الله وهو يوم القضاء إبراز ما عند الانسان من اعتقاد وعمل إبرازاً لا يخفى معه عقيدة خافية ولا فعلة خافية وذلك بتبدل الغيب شهادة والسر علناً قال: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ (الطارق / ٩)، وقال: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء﴾ (المؤمن / ١٦).

فالمعنى: يومئذ يظهر أنكم في معرض على علم الله ويظهر كل فعلة خافية من أفعالكم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمّٰا مَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هٰاؤُمُ اقْرَؤُا كِتٰابِيَهْ﴾ قال في المجمع: هاؤم أمر للجماعة بمنزلة هاكم. تقول للواحد: هاءَ يا رجل، وللاثنين: هاؤما يا رجلان، وللجماعة: هاؤم يا رجال، وللمرأة: هاءِ يا امرأة بكسر الهمزة وليس بعدها ياء، وللمرأتين: هاؤما، وللنساء: هاؤنَّ. هذه لغة أهل الحجاز.

وتميم وقيس يقولون: هاءَ يا رجل مثل قول أهل الحجاز. وللاثنين: هاءآ. وللجماعة: هاؤا. وللمرأة: هائي. وللنساء: هاؤنّ.

وبعض العرب يجعل مكان الهمزة كافاً فيقول: هاكَ هاكما هاكم هاكِ هاكما هاكنَّ. ومعناه: خذ وتناول، ويؤمر بها ولا ينهى. انتهى.

والآية وما بعدها الى قوله: «الخاطؤن» بيان تفصيلي لاختلاف حال الناس يومئذ من حيث السعادة والشقاء، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿فمن أُوتي كتابه بيمينه﴾ (الإسراء / ٧١) كلام في معنى إعطاء الكتاب باليمين. والظاهر أن قوله: «هاؤم اقرؤا كتابيه» خطاب للملائكة. والهاء في «كتابيه» وكذا في أواخر الآيات التالية للوقف وتسمى هاء الاستراحة.

والمعنى: فأما من أُوتي كتابه بيمينه فيقول للملائكة: خذوا واقرؤا كتابيه أي إنها كتاب

يقضي بسعادتي.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ الظن بمعنى اليقين. والآية تعليل لما يتحصل من الآية السابقة ومحصل التعليل إنما كان كتابي كتاب اليمين وقاضياً بسعادتي لأني أيقنت في الدنيا أني سالاقي حسابي فآمنت بربي وأصلحت عملي.

قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي يعيش عيشة يرضاها فنسبة الرضا الى العيشة من المجاز العقلي.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ـ الى قوله ـ الْخَالِيَةِ﴾ أي هو في جنة عالية قدراً فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ القطوف جمع قطف بالكسر فالسكون وهو ما يجتنى من الثمر والمعنى: أثمارها قريبة منه يتناوله كيف يشاء.

وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي يقال لهم: كلوا واشربوا من جميع ما يؤكل فيها وما يشرب حال كونه هنيئاً لكم بما قدمتم من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا التي تقضّت أيامها.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ وهؤلاء هم الطائفة الثانية وهم الأشقياء المجرمون يؤتون صحيفة أعمالهم بشمالهم وقد مر الكلام في معناه في سورة الإسراء، وهؤلاء يتمنون أن لو لم يكونوا يؤتون كتابهم ويدرون ما حسابهم يتمنون ذلك لما يشاهدون من أليم العذاب المعد لهم.

قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ ذكروا أن ضمير «ليتها» للموتة الاولى التي ذاقها الإنسان في الدنيا.

والمعنى: يا ليت الموتة الاولى التي ذقتها كانت قاضية على تقضي بعدمي فكنت انعدمت ولم أُبعث حياً فأقع في ورطة العذاب الخالد وأُشاهد ما أُشاهد.

قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ كلمتا تحسر يقولها حيث يرى خيبة سعيه في الدنيا فإنه كان يحسب أن مفتاح سعادته في الحياة هو المال والسلطان يدفعان عنه كل مكروه ويسلطانه على كل ما يحب ويرضى فبذل كل جهده في تحصيلها وأعرض عن ربه وعن كل حق يدعى اليه وكذب داعيه فلما شاهد تقطع الأسباب وأنه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ذكر عدم نفع ما له وبطلان سلطانه تحسراً وتوجعاً وماذا ينفع التحسر؟

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ـ إلى قوله ـ فَاسْلُكُوهُ﴾ حكاية أمره تعالى الملائكة بأخذه وإدخاله النار، والتقدير يقال للملائكة خذوه الخ، و «غلوه» أمر من الغل بالفتح وهو الشد بالغل الذي يجمع بين اليد والرجل والعنق.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي أدخلوه النار العظيمة وألزموه إياها.

وقوله: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ السلسلة القيد، والذرع الطول، والذراعُ بعد ما بين المرفق ورأس الأصابع وهو واحد الطول وسلوكه فيه جعله فيه، والمحصّل ثم اجعلوه في قيد طوله سبعون ذراعاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ٱلْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ الحضّ التحريض والترغيب، والآيتان في مقام التعليل للأمر بالأخذ والإدخال في النار أي إن الأخذ ثم التصلية في الجحيم والسلوك في السلسلة لأجل أنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحرض على طعام المسكين أي يساهل في أمر المساكين ولا يبالي بما يقاسونه.

قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ـ الى قوله ـ ٱلْخَاطِئُونَ﴾ الحميم الصديق والآية تفريع على قوله: «إنه كان لا يؤمن» الخ؛ والمحصل: أنه لما كان لا يؤمن بالله العظيم فليس له اليوم ههنا صديق ينفعه أي شفيع يشفع له إذ لا مغفرة لكافر فلا شفاعة.

وقوله: ﴿وَلاٰ طَعٰامٌ إِلاّٰ مِنْ غِسْلِينٍ﴾ الغسلين الغسالة وكأن المراد به ما يسيل من أبدان أهل النار من قيح ونحوه والآية عطف على قوله في الآية السابقة: «حميم» ومتفرع على قوله: «ولا يحض» الخ: والمحصل: أنه لما كان لا يحرض على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا طعام إلّا من غسلين أهل النار.

وقوله: ﴿لاٰ يَأْكُلُهُ إِلاّٰ اَلْخٰاطِؤُنَ﴾ وصف لغسلين والخاطؤن المتلبسون بالخطيئة والإثم[1].

٣٨ ● فَلاٰ أُقْسِمُ بِمٰا تُبْصِرُونَ.

٣٩ ● وَمٰا لاٰ تُبْصِرُونَ.

٤٠ ● إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ.

٤١ ● وَمٰا هُوَ بِقَوْلِ شٰاعِرٍ قَلِيلاً مٰا تُؤْمِنُونَ.

٤٢ ● وَلاٰ بِقَوْلِ كٰاهِنٍ قَلِيلاً مٰا تَذَكَّرُونَ.

٤٣ ● تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ.

٤٤ ● وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنٰا بَعْضَ اَلْأَقٰاوِيلِ.

٤٥ ● لَأَخَذْنٰا مِنْهُ بِالْيَمِينِ.

٤٦ ● ثُمَّ لَقَطَعْنٰا مِنْهُ اَلْوَتِينَ.

٤٧ ● فَمٰا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حٰاجِزِينَ.

٤٨ ● وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ.

---

١. الحاقة ١٣-٣٧: بحث روائي في: حملة العرش يوم القيامة؛ من اوتي كتابه بيمينه؛ عذاب أهل جهنم.

٤٩ ● وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ.

٥٠ ● وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ.

٥١ ● وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ.

٥٢ ● فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾ ظاهر الآية أنه إقسام بما هو مشهود لهم وما لا يشاهدون أي الغيب والشهادة فهو إقسام بمجموع الخليقة ولا يشمل ذاته المتعالية فإن من البعيد من أدب القرآن أن يجمع الخالق والخلق في وصف واحد ويعظمه تعالى وما صنع تعظيماً مشتركاً في عرض واحد.

وفي الإقسام نوع تعظيم وتجليل للمقسم به وخلقه تعالى بما أنه خلقه جليل جميل لأنه تعالى جميل لا يصدر منه إلّا الجميل وقد استحسن تعالى فعل نفسه وأثنى على نفسه بخلقه في قوله: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ (الم السجدة / ٧)، وقوله: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (المؤمنون / ١٤). فليس للموجودات منه تعالى إلّا الحسن وما دون ذلك من مساءة فن أنفسها وبقياس بعضها الى بعض.

وفي اختيار ما يبصرون وما لا يبصرون للإقسام به على حقيّة القرآن ما لا يخفى من المناسبة فإن النظام الواحد المتشابك أجزاؤه الجاري في مجموع العالم يقضي بتوحّده تعالى ومصير الكل اليه وما يترتب عليه من بعث الرسل وإنزال الكتب والقرآن خير كتاب سماوي يهدي الى الحق في جميع ذلك والى طريق مستقيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ الضمير للقرآن. والمستفاد من السياق أن

المراد برسول كريم النبي ﷺ وهو تصديق لرسالته قبال ما كانوا يقولون إنه شاعر أو كاهن.

ولا ضير في نسبة القرآن الى قوله فإنه إنما ينسب اليه بما أنه رسول والرسول بما أنه رسول لا يأتي إلّا بقول مرسله. وقد بيَّن ذلك فضل بيان بقوله بعد: «تنزيل من رب العالمين».

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾ نفي أن يكون القرآن نظماً ألّفه شاعر ولم يقل النبي ﷺ شعراً ولم يكن شاعراً.

وقوله: «قليلاً ما تؤمنون» توبيخ لمجتمعهم حيث إن الأكثرين منهم لم يؤمنوا وما آمن به إلّا قليل منهم.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ نفي أن يكون القرآن كهانة والنبي ﷺ كاهناً يأخذ القرآن من الجن وهم يلقونه اليه.

وقوله: ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ توبيخ أيضاً لمجتمعهم.

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ أي منزَّل من رب العالمين وليس من صنع الرسول نسبه الى الله كما تقدَّمت الإشارة اليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ حَاجِزِينَ﴾ يقال: تقوَّل على فلان أي اختلق قولاً من نفسه ونسبه اليه. والوتين ـ على ما ذكره الراغب ـ عرق يسقي الكبد وإذا انقطع مات صاحبه. وقيل: هو رباط القلب.

والمعنى «ولو تقوّل علينا» هذا الرسول الكريم الذي حمّلناه رسالتنا وأرسلناه اليكم بقرآن نزّلناه عليه واختلق «بعض الأقاويل» ونسبه الينا «لأخذنا منه باليمين» كما يقبض على المجرم فيؤخذ بيده أو المراد قطعنا منه يده اليمنى أو المراد لانتقمنا منه بالقوة كما في رواية القمي «ولقطعنا منه الوتين» وقتلناه لتقوّله علينا «فما منكم من أحد عنه حاجزين» تحجبونه عنا

وتنجونه من عقوبتنا وإهلاكنا.

وهذا تهديد النبي ﷺ على تقدير أن يفتري على الله كذباً وينسب اليه شيئاً لم يقله وهو رسول من عنده أكرمه بنبوّته واختاره لرسالته.

فالآيات في معنى قوله: ﴿لولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ (الاسراء / ٧٥). وكذا قوله في الأنبياء بعد ذكر نعمه العظمى عليهم: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون﴾ (الأنعام / ٨٨).

فلا يرد أن مقتضى الآيات أن كل من ادّعى النبوة وافترى على الله الكذب أهلكه الله وعاقبه في الدنيا أشدّ العقاب وهو منقوض ببعض مدّعي النبوة من الكذابين.

وذلك أن التهديد في الآية متوجبة الى الرسول الصادق في رسالته لو تقول على الله ونسب اليه بعض ما ليس منه لا مطلق مدّعي النبوة المفتري على الله في دعواه النبوة وإخباره عن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يذكرهم كرامة تقواهم ومعارف المبدأ والمعاد بحقائقها، ويعرفهم درجاتهم عند الله ومقاماتهم في الآخرة والجنة وما هذا شأنه لا يكون تقوّلاً وافتراء فالآية مسوقة حجة على كون القرآن منزهاً عن التقول والفرية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾ ستظهر لهم يوم الحسرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قد تقدم كلام في نظيرتي الآيتين في آخر سورة الواقعة، والسورتان متحدتان في الغرض وهو وصف يوم القيامة ومتحدتان في سياق خاتمتها وهي الإقسام على حقيقة القرآن المنبيء عن يوم القيامة، وقد ختمت السورتان بكون القرآن وما أنبأ به عن وقوع الواقعة حق اليقين ثم الأمر بتسبيح

اسم الرب العظيم المنزّه عن خلق العالم باطلاً لا معاد فيه وعن أن يبطل المعارف الحـقة التي يعطيها القرآن في أمر المبدأ والمعاد.

سورة المعارج مكية وهي أربع وأربعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ.

٢ ❁ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ.

٣ ❁ مِنَ اللّٰهِ ذِي الْمَعَارِجِ.

٤ ❁ تَعْرُجُ الْمَلٰئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ
أَلْفَ سَنَةٍ.

٥ ❁ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً.

٦ ❁ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً.

٧ ❁ وَنَرٰيهُ قَرِيباً.

٨ ❁ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ.

٩ ❁ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ.

١٠ ❁ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً.

١١ ❁ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ.

١٢ ❁ وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ.

١٣ ❁ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ.

١٤ ❁ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ.

١٥ ❁ كَلَّا إِنَّها لَظىٰ.

١٦ ❁ نَزّاعَةً لِلشَّوىٰ.

١٧ ❁ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلّىٰ.

١٨ ❁ وَجَمَعَ فَأَوْعىٰ.

بيان:

الّذي يعطيه سياق السورة أنها تصف يوم القيامة بما أُعدّ فيه من أليم العذاب للكافرين. تبتدىء السورة فتذكر سؤال سائل سأل عذاباً من الله للكافرين فتشير الى أنّه واقع ليس له دافع قريب غير بعيد كما يحسبونه ثمّ تصف اليوم الذي يقع فيه والعذاب الذي أُعد لهم فيه وتستثني المؤمنين الذين قاموا بوظائف الاعتقاد الحقّ والعمل الصالح.

وهذا السياق يشبه سياق السور المكّيّة غير أنّ المنقول عن بعضهم أنّ قوله: ﴿والذين في أموالهم حقّ معلوم﴾ مدنيّ والاعتبار يؤيّده لأنّ ظاهره الزكاة وقد شرّعت بالمدينة بعد الهجرة، وكون هذه الآية مدنيّة يستتبع كون الآيات الحافّة بها الواقعة تحت الاستثناء وهي أربع عشرة آية قوله: «إلّا المصلّين ـ الى قوله ـ في جنّات مكرمون» مدنيّة لما في سياقها من الاتّحاد واستلزام البعض للبعض.

ومدنيّة هذه الآية تحت الاستثناء تستدعي ما استثنيت منه وهو على الأقل ثلاث آيات قوله: «إنّ الإنسان خلق هلوعا ـ الى قوله ـ منوعاً».

على أنّ قوله: «فما للّذين كفروا قِبَلك مهطعين» متفرّع على ما قبله تفرّعاً ظاهراً وهو ما بعده الى آخر السورة ذو سياق واحد فتكون هذه الآيات أيضاً مدنيّة.

ومن جهة أُخرى مضامين هذا الفصل من الآيات تناسب حال المنافقين الحافّين حول النبي ﷺ عن اليمين وعن الشمال عزين وهم الرادّون لبعض ما أنزل الله من الحكم وخاصّة قوله: «أيطمع كلّ امرىء منهم» الخ؛ وقوله: «على أن نبدّل خيراً منهم» الخ؛ على ما سيجيء، وموطن ظهور هذا النفاق المدينة لا مكّة، ولا ضير في التعبير عن هؤلاء بالّذين كفروا فنظير ذلك موجود في سورة التوبة وغيرها.

على أنّهم رووا أنّ السورة نزلت في قول القائل: ﴿اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ (الأنفال / ٣٢) وقد تقدّم في تفسير الآية أنّ سياقها والّتي بعدها سياق مدنيّ لا مكّي. لكن المروي عن الصادق عليه السلام أن المراد بالحق المعلوم في الآية حق يسميه صاحب المال في ماله غير الزكاة المفروضة.

ولا عبرة بما نسب الى اتفاق المفسرين أن السورة مكيّة على أن الخلاف ظاهر وكذا ما نسب الى ابن عباس أنها نزلت بعد سورة الحاقة.

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ السؤال بمعنى الطلب والدعاء، ولذا عدي بالباء كما في قوله: ﴿يدعون فيها بكل فاكهة آمنين﴾ (الدخان / ٥٥) وقيل: الفعل مضمن معنى الاهتمام والاعتناء ولذا عدي بالباء، وقيل: الباء زائدة للتأكيد، ومآل الوجوه واحد وهو طلب العذاب من الله كفراً وعتواً.

والمعنى سأل سائل من الكفار عذاباً للكافرين من الله سيصيبهم ويقع عليهم لا محالة ولا دافع له أي إنه واقع عليهم أو لم يسأل ففيه جواب تحقيري وإجابة لمسؤله تهكماً.

قوله تعالى: ﴿لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ للكافرين متعلق بعذاب وصفة له، وكذا قوله: «ليس له دافع» وقد مرت الإشارة الى معنى الآية.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ الجار والمجرور متعلق بقوله: «دافع» أي ليس له دافع من جانب الله ومن المعلوم أنه لو اندفع لم يندفع إلا من جانب الله سبحانه، ومن المحتمل أن يتعلق بقوله: «بعذاب».

والمعارج جمع معرج وفسروه بالصاعد وهي الدرجات وهي مقامات الملكوت التي يعرج اليها الملائكة عند رجوعهم الى الله سبحانه على ما يفسره قوله بعد: «تعرج الملائكة والروح اليه في يوم» الخ؛ فله سبحانه معارج الملكوت و مقاماتها المترتبة علواً وشرفا التي تعرج فيها الملائكة والروح بحسب قربهم من الله وليست بمقامات وهمية اعتبارية.

قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المراد بهذا اليوم يوم القيامة على ما يفيده سياق الآيات التالية.

والمراد بكون مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنة على ما ذكروا أنه بحيث لو وقع في الدنيا وانطبق على الزمان الجاري فيها كان مقداره من الزمان خمسين ألف سنة من سني الدنيا.

والمراد بعروج الملائكة والروح اليه يومئذ رجوعهم اليه تعالى عند رجوع الكل اليه فإن يوم القيامة يوم بروز سقوط الوسائط وتقطع الأسباب وارتفاع الروابط بينها وبين مسبباتها والملائكة وسائط موكلة على امور العالم وحوادث الكون فإذا تقطعت الأسباب عن مسبباتها وزيل الله بينهم ورجع الكل الى الله عز اسمه رجعوا اليه وعرجوا معارجهم فحفوا من حول عرش ربهم وصفوا قال تعالى: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾ (الزمر / ٧٥)، وقال: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا﴾ (النبأ / ٣٨).

والظاهر أن المراد بالروح الذي هو من أمره تعالى كما قال: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ (الإسراء / ٨٥) وهو غير الملائكة كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح من

أمره﴾ (النحل / ٢).

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾ لما كان سؤال السائل للعذاب عن تعنت واستكبار وهو مما يشق تحمله أمر نبيه ﷺ بالصبر ووصفه بالجميل ـ والجميل من الصبر ما ليس فيه شائبة الجزع والشكوى، وعلله بأن اليوم بما فيه من العذاب قريب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَيْهُ قَرِيباً﴾ ضميرا «يرونه» و«نراه» للعذاب أو ليوم القيامة بما فيه من العذاب الواقع ويؤيد الأول قوله فيما بعد: «يوم تكون السماء كالمهل» الخ.

والمراد بالرؤية الاعتقاد بنوع من العناية المجازية ورؤيتهم ذلك بعيداً ظنهم أنه بعيد من الإمكان فإن سؤال العذاب من الله سبحانه استكباراً عن دينه ورداً لحكمه لا يجامع الإيمان بالمعاد وإن تفوه به السائل، ورؤيته تعالى ذلك قريباً علمه بتحققه وكل ما هو آت قريب.

وفي الآيتين تعليل أمره ﷺ بالصبر الجميل فإن تحمل الأذى والصبر على المكاره يهون على الإنسان إذا استيقن أن الفرج قريب وتذكر ذلك فالكلام في معنى قولنا فاصبر على تعنتهم واستكبارهم في سؤالهم العذاب صبراً جميلاً لا يشوبه جزع وشكوى فإنا نعلم أن العذاب قريب على خلاف ما يستبعدونه، وعلمنا لا يتخلف عن الواقع بل هو نفس الواقع.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ المهل المذاب من المعدنيات كالنحاس والذهب وغيرهما، وقيل: دردي الزيت، وقيل: عكر القطران[1].

والظرف متعلق بقوله: «واقع» على ما يفيده السياق.

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ العهن مطلق الصوف، ولعل المراد المنفوش منه كما في قوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ (القارعة / ٥).

---

١. اي رديه وخبيثه.

وقيل: هو الصوف الأحمر، وقيل: المصبوغ ألواناً لأن الجبال ذات ألوان مختلفة فمنها جدد بيض وحمر وغرابيب سود[١].

قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ الحميم القريب الذي تهتم بأمره وتشفق عليه.

إشارة الى شدة اليوم فالإنسان يومئذ تشغله نفسه عن غيره حتى أن الحميم لا يسأل حميمه عن حاله لاشتغاله بنفسه.

قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ الضميران للأحماء المعلوم من السياق والتبصير الإراءة والإيضاح أي يرى ويوضح الأحماء للأحماء فلا يسألونهم عن حالهم اشتغالاً بأنفسهم.

والجملة مستأنفة في معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه لما قيل: لا يسأل حميم حمياً سئل فقيل: هل يرى الأحماء يومئذ أحماءهم؟ فأجيب: يبصرّونهم ويمكن أن يكون «يبصرونهم» صفة «حمياً».

قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ قال في المجمع: المودة مشتركة بين التمني وبين المحبة يقال: وددت الشيء أي تمنيته ووددته أي أحببته أود فيهما جميعاً. انتهى، ويمكن أن يكون استعماله بمعنى التمني من باب التضمين.

وقال: والافتداء افتداء الضرر عن الشيء ببدل منه انتهى، وقال: الفصيلة الجماعة المنقطعة عن جملة القبيلة برجوعها الى ابوة خاصة عن ابوة عامة. انتهى، وذكر بعضهم أن الفصيلة عشيرته الأقربين الذين فصل عنهم كالآباء الأدنين.

وسياق هذه الآيات سياق الإضراب والترقي بالنسبة الى قوله: «ولا يسأل حميم حمياً»

---

١. كما في الآية ٢٧ من سورة فاطر.

فيفيد أن المجرم يبلغ به شدة العذاب الى أن يتمنى أن يفتدي من العذاب بأحب أقاربه وأكرمهم عليه بنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته وجميع من في الأرض ثم ينجيه الافتداء فيود ذلك فضلاً عن عدم سؤاله عن حال حميه.

والمعنى « يود » ويتمنى « المجرم » وهو المتلبس بالإجرام أعم من الكافر « لو يفتدي من عذاب يومئذ » وهذا هو الذي يتمناه، والجملة قائمة مقام مفعول يود. « ببنيه » الذين هم أحب الناس عنده « وصاحبته » التي كانت سكنا له وكان يحبها وربما قدمها على أبويه « وأخيه » الذي كان شقيقه وناصره « وفصيلته » من عشيرته الأقربين « التي تؤويه » وتضمه اليها « ومن في الأرض جميعاً » من اولي العقل « ثم ينجيه » هذا الافتداء.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ كلا للردع، وضمير « إنها » لجهنم أو للنار وسميت لظى لكونها تتلظى وتشتعل، والنزاعة اسم مبالغة من النزع بمعنى الاقتلاع، والشوى الأطراف كاليد والرجل يقال: رماه فأشواه أي أصاب شواه كذا قال الراغب، وإيعاء المال إمساكه في وعاء.

فقوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع لتمنيه النجاة من العذاب بالافتداء وقد علل الردع بقوله: « إنها لظى » الخ؛ ومحصله أن جهنم نار مشتعلة محرقة للأطراف شأنها أنها تطلب المجرمين لتعذيبهم فلا تصرف عنهم بافتداء كائنا ما كان.

فقوله: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ أي نار صفتها الاشتعال لا تنعزل عن شأنها ولا تخمد، وقوله: « نزاعة للشوى » أي صفتها إحراق الأطراف واقتلاعها لا يبطل ما لها من الأثر فيمن تعذبه.

وقوله: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ أي تطلب من أدبر عن الدعوة الإلهية الى الايمان بالله وأعرض عن عبادته تعالى وجمع المال فأمسكه في وعائه ولم ينفق منه للسائل والمحروم.

وهذا المعنى هو المناسب لسياق الاستثناء الآتي وذكر الصلاة والإنفاق فيه.

١٩ ◉ إِنَّ الْإِنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً.

٢٠ ◉ إِذٰا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً.

٢١ ◉ وَإِذٰا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً.

٢٢ ◉ إِلَّا الْمُصَلِّينَ.

٢٣ ◉ الَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلاٰتِهِمْ دٰائِمُونَ.

٢٤ ◉ وَالَّذِينَ فِي أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ.

٢٥ ◉ لِلسّٰائِلِ وَالْمَحْرُومِ.

٢٦ ◉ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ.

٢٧ ◉ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذٰابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ.

٢٨ ◉ إِنَّ عَذٰابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ.

٢٩ ◉ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ.

٣٠ ◉ إِلَّا عَلىٰ أَزْوٰاجِهِمْ أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ.

٣١ ◉ فَمَنِ ابْتَغىٰ وَرٰاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْعٰادُونَ.

٣٢ ◉ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمٰانٰاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رٰاعُونَ.

٣٣ ◉ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهٰادٰاتِهِمْ قٰائِمُونَ.

٣٤ ◉ وَالَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلاٰتِهِمْ يُحٰافِظُونَ.

٣٥ ◉ أُولٰئِكَ فِي جَنّٰاتٍ مُكْرَمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ الهلوع صفة مشتقة من الهلع بفتحتين وهو شدة الحرص، وذكروا أيضاً أن الهلوع تفسره الآيتان بعده فهو الجزوع عند الشر والمنوع عند الخير وهو تفسير سديد والسياق يناسبه.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ استثناء من الانسان الموصوف بالهلع، وفي تقديم الصلاة على سائر الأعمال الصالحة المعدودة في الآيات التالية دلالة على شرفها وأنها خير الأعمال.

على أن لها الأثر البارز في دفع رذيلة الهلع المذموم وقد قال تعالى: ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ (العنكبوت / ٤٥).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ في إضافة الصلاة الى الضمير دلالة على أنهم مداومون على ما يأتون به من الصلاة كائنة ما كانت لا أنهم دائماً في الصلاة، وفيه إشارة الى أن العمل إنما يكمل أثره بالمداومة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ فسره بعضهم بالزكاة المفروضة، وفي الحديث عن الصادق عليه السلام أن الحق المعلوم ليس من الزكاة وإنما هو مقدار معلوم ينفقونه للفقراء، والسائل هو الفقير الذي يسأل، والمحروم الفقير الذي يتعفف ولا يسأل والسياق لا يخلو من تأييده فان للزكاة موارد مسماة في قوله: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله**﴾ (التوبة / ٦٠) وليست مختصة بالسائل والمحروم على ما هو ظاهر الآية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ الذي يفيده سياق عد الأعمال الصالحة أن المراد بتصديقهم يوم الدين التصديق العملي دون التصديق الاعتقادي وذلك بأن

تكون سيرتهم في الحياة سيرة من يرى ان ما يأتي به من عمل سيحاسب عليه فيجازى به إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً.

وفي التعبير بقوله: «يصدقون» دلالة على الاستمرار فهو المراقبة الدائمة بذكره تعالى عند كل عمل يواجهونه فيأتون بما يريده ويتركون ما يكرهه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي خائفون. والكلام في إشفاقهم من عذاب ربهم نظير الكلام في تصديقهم بيوم الدين فهو الإشفاق العملي الظاهر من حالهم.

ولازم إشفاقهم من عذاب ربهم مع لزومهم الأعمال الصالحة ومجاهدتهم في الله أن لا يثقوا بما يأتون به من الأعمال الصالحة ولا يأمنوا عذاب الله فإن الأمن لا يجامع الخوف.

والملاك في الإشفاق من العذاب أن العذاب على المخالفة فلا منجى منه إلا بالطاعة من النفس ولا ثقة بالنفس إذ لا قدرة لها في ذاتها إلا ما أقدرها الله عليه والله سبحانه مالك غير مملوك، قال تعالى: ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً﴾ (المائدة / ١٧).

على أن الله سبحانه وإن وعد أهل الطاعة النجاة وذكر أنه لا يخلف الميعاد لكن الوعد لا يقيد إطلاق قدرته فهو مع ذلك قادر على ما يريد ومشيته نافذة فلا أمن بمعنى انتفاء للقدرة على ما يخالف الوعد فالخوف على حاله ولذلك نرى أنه تعالى يقول في ملائكته ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ فيصفهم بالخوف وهو يصرح بعصمتهم، ويقول في أنبيائه ﴿ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ (الأحزاب / ٣٩)، ويصف المؤمنين في هذه الآية بالإشفاق وهو يعدهم في آخر الآيات بقول جازم فيقول «اولئك في جنات مكرمون».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ تعليل لإشفاقهم من عذاب ربهم فيتبين به أنهم مصيبون في إشفاقهم من العذاب وقد تقدم وجهه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ـ الى قوله ـ هُمُ الْعَادُونَ﴾ تقدم

تفسير الآيات الثلاث في أول سورة المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ المتبادر من الأمانات أنواع الأمانة التي يؤتمنون عليها من المال وسائر ما يوصى به من نفس أو عرض ورعايتهم لها أن يحفظوها ولا يخونوها قيل: ولكثرة أنواعها جيء بلفظ الجمع بخلاف العهد.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ الشهادة معروفة، والقيام بالشهادة عدم الاستنكاف عن تحملها وأداء ما تحمل منها كما تحمل من غير كتمان ولا تغيير، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ المراد بالمحافظة على الصلاة رعاية صفات كمالها على ما ندب اليه الشرع.

قيل: والمحافظة على الصلاة غير الدوام عليها فإن الدوام متعلق بنفس الصلاة والمحافظة بكيفيتها فلا تكرار في ذكر المحافظة عليها بعد ذكر الداوم عليها.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ الإشارة الى المصلين في قوله: «إلا المصلين» وتنكير جنات للتفخيم، و«في جنات» خبر و«مكرمون» خبر بعد خبر أو ظرف لقوله: «مكرمون»[1].

٣٦ • فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ.

٣٧ • عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ.

٣٨ • أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ.

٣٩ • كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ.

---

١. المعارج ١٩ ـ ٣٥: بحث روائي في: الشر والخير؛ الذين هم على صلاتهم يحافظون.

٤٠ • فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ.

٤١ • عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ.

٤٢ • فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ.

٤٣ • يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ.

٤٤ • خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ قال في المجمع: قال الزجاج: المهطع المقبل ببصره على الشيء لا يزايله وذلك من نظر العدو. وقال أبوعبيدة: الاهطاع الاسراع. وعزين جماعات في تفرقة. واحدتهم عزة. انتهى. وقبل الشيء بالكسر فالفتح الجهة التي تليه والفاء في «فما» فصيحة.

والمعنى: إذا كان الانسان بكفره واستكباره على الحق مصيره الى النار إلا من استثنى من المؤمنين فما للذين كفروا عندك مقبلين لا يرفعون عنك أبصارهم وهم جماعات متفرقة عن يمينك وشمالك أيطمعون أن يدخلوا الجنة فيعجزوا الله ويسبقوه فيما قضى به أن لا يدخل الجنة إلا الصلحاء من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ الاستفهام للانكار أي ـ ما هو الذي يحملهم على أن يحتفوا بك ويهطعوا عليك؟ ـ هل يحملهم على ذلك

طمع كل منهم أن يدخل جنة نعيم وهو كافر فلا مطمع للكافر في دخول الجنة.

ونسب الطمع الى كل امرء منهم ولم ينسب الى جماعتهم بأن يقال: أيطمعون أن يدخلوا، الخ؛ كما نسب الاهطاع الى جماعتهم فقيل: مهطعين لأن النافع من الطمع في السعادة والفلاح هو الطمع القائم بنفس الفرد الباعث له الى الايمان والعمل الصالح دون القائم بالجماعة بما أنها جماعة فطمع المجموع من حيث أنه مجموع لا يكفي في سعادة كل واحد واحد.

وفي قوله: ﴿أَنْ يُدْخَلَ﴾ مجهولاً من باب الإفعال إشارة الى أن دخولهم في الجنة ليس منوطاً باختيارهم ومشيتهم بل لو كان فانما هو الى الله سبحانه فهو الذي يدخلهم الجنة إن شاء ولن يدخل بما قدر أن لا يدخلها كافر.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ردع لهم عن الطمع في دخول الجنة مع كفرهم.

وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ المراد بما يعلمون النطفة فإن الإنسان مخلوق منها. والكلام مرتبط بما بعده والمجموع تعليل للردع، ومحصل التعليل أنا خلقناهم من النطفة ـ وهم يعلمون به ـ فلنا أن نذهب بهم ونخلق مكانهم قوماً آخرين يكونون خيراً منهم مؤمنين غير رادين لشيء من دين الله، ولسنا بمسبوقين حتى يعجزنا هؤلاء الكفار ويسبقونا فندخلهم الجنة وينتقض به ما قدرنا أن لا يدخل الجنة كافر.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ المراد بالمشارق والمغارب مشارق الشمس ومغاربها فإن لها في كل يوم من أيام السنة الشمسية مشرقاً ومغرباً لا يعود اليهما الى مثل اليوم من السنة القابلة، ومن المحتمل أن يكون المراد بها مشارق جميع النجوم ومغاربها.

وفي الآية على قصرها وجوه من الالتفات ففي قوله: «فلا أقسم» التفات من التكلم مع الغير في «إنا خلقناهم» الى التكلم وحده، والوجه فيه تأكيد القسم بإسناده الى الله تعالى

نفسه.

وفي قوله: ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ التفات من التكلم وحده الى الغيبة، والوجه فيه الإشارة الى صفة من صفاته تعالى هي المبدء في خلق الناس جيلا بعد جيل وهي ربوبيته للمشارق والمغارب فإن الشروق بعد الشروق والغروب بعد الغروب الملازم لمرور الزمان دخلاً تاماً في تكوّن الانسان جيلا بعد جيل وسائر الحوادث الأرضية المقارنة له.

وفي قوله: «إنا لقادرون» التفات من الغيبة الى التكلم مع الغير، والوجه فيه الإشارة الى العظمة المناسبة لذكر القدرة، وفي ذكر ربوبيته للمشارق والمغارب إشارة الى تعليل القدرة فإن الذي ينتهي اليه تدبير الحوادث في تكونها لا يعجزه شيء من الحوادث التي هي أفعاله عن شيء منها ولا يمنعه شيء من خلقه من أن يبدله خيراً منه وإلا شاركه المانع في أمر التدبير والله سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيته فافهم ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ﴾ «على» متعلق بقوله: «لقادرون» والمفعول الأول لنبدل ضمير محذوف راجع اليهم وإنما حذف للإشارة الى هوان أمرهم وعدم الاهتمام بهم، و «خيرا» مفعوله الثاني وهو صفة أُقيمت مقام موصوفها، والتقدير إنا لقادرون على أن نبدلهم قوماً خيراً منهم، وخيريتهم منهم أن يؤمنوا بالله ولا يكفروا به ويتبعوا الحق ولا يردوه.

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ المراد بالسبق الغلبة على سبيل الاستعارة، وكونه تعالى مسبوقاً هو أن يمنعه خلقهم أن يذهب بهم ويأتي بدلهم بقوم خير منهم.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أمر للنبي ﷺ أن يتركهم وما هم فيه، ولا يلح عليهم بحجاج ولا يتعب نفسه فيهم بعظة، وقد سمى ما هم عليه بالخوض واللعب دلالة على أنهم لا ينتفعون به انتفاعاً

حقيقياً على ما هم فيه من الإمعان والإصرار كاللعب الذي لا نفع فيه وراء الخيال فليتركوا حتى يلاقوا اليوم الذي يوعدون وهو يوم القيامة .

وفي إضافة اليوم اليهم إشارة الى نوع اختصاص له بهم وهو الاختصاص بعذابهم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ بيان ليومهم الذي يوعدون وهو يوم القيامة .

والأجداث جمع جدث وهو القبر ، وسراعاً جمع سريع . والنصب ما ينصب علامة في الطريق يقصده السائرون للاهتداء به ، وقيل : هو الصنم المنصوب للعبادة وهو بعيد من كلامه تعالى ، والإيفاض الإسراع والمعنى ظاهر .

قوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ الخشوع تأثر خاص في القلب عن مشاهدة العظمة والكبرياء ، ويناظره الخضوع في الجوارح ، ونسبة الخشوع الى الأبصار لظهور آثاره فيها ، والرهق غشيان الشيء بقهر .

وقوله : « ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » الإشارة الى ما مر من أوصافه من الخروج من الأجداث سراعاً وخشوع الأبصار ورهق الذلة .

سورة نوح مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ.

٢ ● قَالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ.

٣ ● أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ.

٤ ● يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ إِذَا جَآءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

٥ ● قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً.

٦ ● فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً.

٧ ● وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً.

٨ ● ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً.

٩ ● ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً.

١٠ ● فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً.

١١ ● يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً.

١٢ ● وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً.

١٣ ● ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً.

١٤ ● وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً.

١٥ ● أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً.

١٦ ● وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً.

١٧ ● وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً.

١٨ ● ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً.

١٩ ● وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً.

٢٠ ● لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً.

٢١ ● قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَساراً.

٢٢ ● وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً.

٢٣ ● وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً.

٢٤ ● وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلّا ضَلالاً.

بيان:

تشير السورة الى رسالة نوح عليه السلام الى قومه وإجمال دعوته وعدم استجابتهم له ثم شكواه الى ربه منهم ودعائه عليهم واستغفاره لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ثم حلول العذاب بهم وإهلاكهم بالإغراق والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ «أن أنذر قومك» الخ: تفسير لرسالته أي أوحينا اليه أن أنذر، الخ.

وفي الكلام دلالة على أن قومه كانوا عرضة للعذاب بشركهم ومعاصيهم كما يدل عليه ما حكى من قوله عليه السلام في الآية التالية: «اعبدوا الله واتقوه» وذلك أن الإنذار تخويف والتخويف إنما يكون من خطر محتمل لا دافع له لولا التحذر، وقد أفاد قوله: «من قبل أن يأتيهم عذاب أليم» أنه متوجه اليهم غير تاركهم لولا تحذرهم منه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ بيان لتبليغه رسالته إجمالاً بقوله: «إني لكم نذير مبين» وتفصيلاً بقوله: «أن اعبدوا الله» الخ.

وفي إضافته اليوم الى نفسه إظهار إشفاق ورحمة أي إنكم قومي يجمعكم وإياي مجتمعنا القومي تسوؤني ما أساءكم فلست أُريد إلا ما فيه خيركم وسعادتكم إني لكم نذير، الخ.

وفي قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ دعوتهم الى توحيده تعالى في عبادته فإن القوم كانوا وثنيين يعبدون الأصنام، والوثنية لا تجوّز عبادة الله سبحانه لا وحده ولا مع غيره، وإنما يعبدون أرباب الأصنام بعبادة الأصنام ليكونوا شفعاء لهم عند الله، ولو جوزوا عبادته تعالى

لعبدوه وحده فدعوتهم الى عبادة الله دعوة لهم الى توحيده في العبادة.

وفي قوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ دعوتهم الى اجتناب معاصيه من كبائر الاثم وصغائره وهي الشرك فما دونه، وفعل الأعمال الصالحة التي في تركها معصية.

وفي قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ دعوة لهم الى طاعة نفسه المستلزم لتصديق رسالته وأخذ معالم دينهم مما يعبد به الله سبحانه ويستن به في الحياة منه عليه السلام ففي قوله: «اعبدوا الله واتقوه وأطعون» ندب الى اصول الدين الثلاثة: التوحيد المشار اليه بقوله: «اعبدوا الله» والمعاد الذي هو أساس التقوى[1] والتصديق بالنبوة المشار اليه بالدعوة الى الطاعة المطلقة.

قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ مجزوم في جواب الأمر وكلمة «من» للتبعيض على ما هو المتبادر من السياق، والمعنى إن تعبدوه وتتقوه وتطيعوني يغفر لكم بعض ذنوبكم وهي الذنوب التي قبل الايمان: الشرك فما دونه، وأما الذنوب التي لم تقترف بعد مما سيستقبل فلا معنى لمغفرتها قبل تحققها، ولا معنى أيضاً للوعد بمغفرتها إن تحققت في المستقبل أو كلما تحققت لاستلزام ذلك إلغاء التكاليف الدينية بإلغاء المجازاة على مخالفتها.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تعليق تأخيرهم الى أجل مسمى على عبادة الله والتقوى وطاعة الرسول يدل على أن هناك أجلين أجل مسمى يؤخرهم الله اليه إن أجابوا الدعوة، وأجل غيره يعجل اليهم لو بقوا على الكفر، وأن الأجل المسمى اقصى الأجلين وابعدهما.

ففي الآية وعدهم بالتأخير الى الأجل المسمى إن آمنوا وفي قوله: «إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر» تعليل للتأخير الى الأجل المسمى إن آمنوا فالمراد بأجل الله إذا جاء مطلق الأجل المقضي المتحتم أعم من الأجل المسمى وغير المسمى فلا راد لقضائه تعالى ولا

---

١. اذ لولا المعاد بما فيه من الحساب والجزاء لم يكن للتقوى الديني وجه، منه.

معقب لحكمه.

والمعنى: أن أعبدوا الله واتقوه وأطيعوني يؤخرهم الله الى أجل مسمى هو أقصى الأجلين فإنكم إن لم تفعلوا ذلك جاءكم الأجل غير المسمى بكفركم ولم تؤخروا فإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ففي الكلام مضافاً الى وعد التأخير الى الأجل المسمى إن آمنوا، تهديد بعذاب معجل إن لم يؤمنوا.

وقوله: ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ متعلق بأول الكلام أي لو كنتم تعلمون أن لله أجلين وأن أجله إذا جاء لا يؤخر استجبتم دعوتي وعبدتم الله واتقيتموه وأطعتموني هذا فمفعول «تعلمون» محذوف يدل عليه سابق الكلام.

وقيل: إن «تعلمون» منزل منزلة الفعل اللازم، وجواب لو متعلق بأول الكلام، والمعنى: لو كنت من أهل العلم لاستجبتم دعوتي وآمنتم، أو متعلق بآخر الكلام، والمعنى: لو كنتم من أهل العلم لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً﴾ القائل هو نوح ﷺ والذي دعا اليه هو عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله، والدعاء ليلاً ونهاراً كناية عن دوامه من غير فتور ولا توان.

وقوله: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً﴾ أي من إجابة دعوتي فالمراد بالفرار التمرد والتأبي عن القبول استعارة، وإسناد زيادة الفرار الى دعائه لما فيه من شائبة السببية لأن الخير إذا وقع في محل غير صالح قاومه المحل بما فيه من الفساد فأفسده فانقلب شراً، وقد قال تعالى في صفة القرآن: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾ (الإسراء / ٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ الخ: ذكر مغفرته تعالى غاية لدعوته والأصل «دعوتهم ليؤمنوا فتغفر

لهم» لأن الغرض الإشارة الى أنه كان ناصحاً لهم في دعوته ولم يرد إلا ما فيه خير دنياهم وعقباهم.

وقوله: ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ كناية عن استنكافهم عن الاستماع الى دعوته، وقوله: «واستغشوا ثيابهم» أي غطوا بها رؤوسهم ووجوههم لئلا يروني ولا يسمعوا كلامي وهو كناية عن التنفر وعدم الاستماع الى قوله.

وقوله: ﴿ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴾ أي وألحوا على الامتناع من الاستماع واستكبروا عن قبول دعوتي استكباراً عجيباً.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ﴾ «ثم» للتراخي بحسب رتبة الكلام والجهال النداء بأعلى الصوت.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ الإعلان والإسرار متقابلان وهما الإظهار والإخفاء، وظاهر السياق أن مرجع ضمير لهم في الموضعين واحد فالمعنى دعوتهم سراً وعلانية فتارة علانية وتارة سراً سالكاً في دعوتي كل مذهب ممكن وسائراً في كل مسير مرجو.

قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ـ الى قوله ـ أَنْهَاراً ﴾ علل أمرهم بالاستغفار بقوله: «إنه كان غفاراً» دلالة على أنه تعالى كثير المغفرة وهي مضافاً الى كثرتها منه سنة مستمرة له تعالى.

وقوله: ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ﴾ مجزوم في جواب الأمر، والمراد بالسماء السحاب، والمدرار كثير الدرور بالأمطار.

وقوله: ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ الإمداد إلحاق المدد وهو ما يتقوى به المدد على حاجته، والأموال والبنون أقرب الأعضاد الابتدائية التي يستعين بها المجتمع الانساني على حوائجه الحيوية.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ هما من قسم الأموال غير أنهما لكونهما من أبسط ضروريات المعاش خصا بالذكر.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ استفهام إنكاري والوقار ـ كما في المجمع ـ بمعنى العظمة اسم من التوقير بمعنى التعظيم، والرجاء مقابل الخوف وهو الظن بما فيه مسرة، والمراد به في الآية مطلق الاعتقاد على ما قيل، وقيل: المراد به الخوف للملازمة بينهما.

والمعنى: أي سبب حصل لكم حال كونكم لا تعتقدون أو لا تخافون لله عظمة توجب أن تعبدوه.

والآية أعني قوله: «مالكم لا ترجون لله وقاراً» وما يتلوها الى تمام سبع آيات مسوقة لاثبات وقاره تعالى في الربوبية وحجة قاطعة في نفي ما لفّقوه لوجوب عباده غيره من الملائكة وغيرهم لاستناد تدبير العالم اليهم، ويتبين به إمكان التوجه العبادي اليه تعالى.

ومحصل الحجة: ما الذي دعاكم الى نفي ربوبيته تعالى المستتبع للالوهية والمعبودية واليأس عن وقاره؟ وأنتم تعلمون أنه تعالى خلقكم وخلق العالم الذي تعيشون فيه طوراً من الخلق لا ينفك عن هذا النظام الجاري فيه، وليس تدبير الكون ومن فيه من الإنسان إلا التطورات المخلوقة في أجزائه والنظام الجاري فيه فكونه تعالى خالقاً هو كونه مالكاً مدبراً فهو الرب لا رب سواه فيجب أن يتخذ إلهاً معبوداً.

ويتبين به صحة التوجه اليه تعالى بالعبادة فإنا نعرفه بصفاته الكريمة من الخلق الرزق والرحمة وسائر صفاته الفعلية فلنا أن نتوجه اليه بما نعرفه من صفاته[1].

---

١. وإنما أخذنا بما نعرفه من صفاته الفعلية لأن من المنسوب إليهم أنهم ينكرون صفاته الذاتية ويفسرونها بسلب النقائص فمعنى كونه حياً قديراً علياً عندهم أنه ليس بميت ولا عاجز ولا جاهل على أن الآيات ايضاً تصفه بالصفات الفعلية، منه.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ حال من فاعل «لا ترجون» والأطوار جمع طور وهو حد الشيء وحاله التي هو عليها.

ومحصل المعنى ـ لا ترجون لله وقاراً في ربوبية ـ والحال أنه أنشأكم طوراً بعد طور يستعقب طوراً آخر فأنشأ الواحد منكم تراباً ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنيناً ثم طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً وأنشأ جمعكم مختلفة الأفراد في الذكورة والانوثة والالوان والهيآت والقوة والضعف الى غير ذلك، وهل هذا إلا التدبير فهو مدبر أمركم فهو ربكم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً﴾ مطابقة السماوات السبع بعضها لبعض كون بعضها فوق بعض أو تطابقهن وتماثلهن على الاحتمالين المتقدمين في تفسير أوائل سورة الملك.

والمراد بالرؤية العلم، وتوصيف السماوات السبع ـ والكلام مسوق سوق الحجة ـ يدل على أنهم كانوا يرون كونها سبعاً ويسلمون ذلك فاحتج عليهم بالمسلم عندهم.

وكيف كان فوقوع حديث السماوات السبع في كلام نوح دليل على كونه مأثوراً من الأنبياء عليهم السلام من أقدم العهود.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ الآيات ـ كما يشهد به سياقها ـ مسوقة لبيان وقوع التدبير الإلهي على الانسان بما يفيض عليه من النعم حتى تثبت ربوبيته فتجب عبادته.

وعلى هذا فكون الشمس سراجاً هو كونها مضيئة لعالمنا ولولاها لانغمرنا في ظلمة ظلماء، وكون القمر نوراً هو كونه منوراً لأرضنا بنور مكتسب من الشمس فليس منوراً بنفسه حتى يعد سراجاً.

وأما أخذ السماوات ظرفاً للقمر في قوله: «وجعل القمر فيهن نوراً» فالمراد به كما قيل كونه في حيزهن وإن كان في واحده منها كما تقول: إن في هذه الدور لبئراً وإن كانت في واحدة منها

لأن ما كان في إحداهن كان فيهن وكما تقول: أتيت بني تميم وانما أتيت بعضهم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾ أي أنبتكم إنبات وذلك أن الانسان تنتهي خلقته الى عناصر أرضية تركبت تركباً خاصاً به يغتذي وينمو ويولد المثل، وهذه حقيقة النبات، فالكلام مسوق سوق الحقيقة من غير تشبيه واستعارة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ الإعادة فيها بالإماتة والإقبار، والاخراج للجزاء يوم القيامة فالآية والتي قبلها قريبتا المعنى من قوله تعالى: ﴿فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ (الأعراف / ٢٥).

وفي قوله: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ دون أن يقول: ثم يخرجكم إيماء الى أن الاعادة والإخراج كالصنع الواحد والاعادة مقدمة للاخراج، والانسان في حالتي الاعادة والاخراج في دار الحق كما أنه في الدنيا في دار الغرور.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً﴾ أي كالبساط يسهل لكم التقلب من جانب الى جانب، والانتقال من قطر الى قطر.

قوله تعالى: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾ السبل جمع سبيل بمعنى الطريق والفجاج جمع فج بمعنى الطريق الواسعة، وقيل: الطريق الواقعة بين الجبلين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً﴾ رجوع منه ﷺ الى شكواه من قومه الى ربه بعدما ذكر تفصيل دعوته لهم وما ألقاه من القول اليهم من قوله: «ثم إني دعوتهم جهاراً» الى آخر الآيات.

وشكواه السابق له قوله: «فلم يزدهم دعائي إلا فراراً» بعدما أخبر بإجمال دعوته بقوله: «رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً».

وفي الآية دلالة على أن العظماء المترفين من قومه ﷺ كانوا يصدون الناس عنه ويحرضونهم على مخالفته وإيذائه.

ومعنى قوله: ﴿لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً﴾ ـ وقد عد المال والولد في سابق كلامه من النعم ـ أن المال والولد اللذين هما من نعمك وكان يجب عليهم شكرهما لم يزيداهم إلا كفراً وأورثهم ذلك خسراناً من رحمتك.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾ الكبار اسم مبالغة من الكبر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ توصية منهم بالتمسك بآلهتهم وعدم ترك عبادتها.

وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر خمس من آلهتهم لهم اهتمام تام بعبادتهن ولذا خصوها بالذكر مع الوصية بمطلق الآلهة، ولعل تصدير ود وذكر سواع ويغوث بلا المؤكدة للنفي لكونها أعظم أمراً عندهم من يعوق ونسر والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالاً﴾ ضمير «أضلوا» للرؤساء المتبوعين ويتأيد به أنهم هم المحدث عنهم في قوله: «ومكروا» «وقالوا لا تذرن آلهتكم» وقيل: الضمير للأصنام فهم المضلون، ولا يخلو من بعد.

وقوله: ﴿وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالاً﴾ دعاء من نوح على الظالمين بالضلال والمراد به الضلال مجازاة دون الضلال الابتدائي فهو دعاء منه أن يجازيهم الله بكفرهم وفسقهم مضافاً الى ما سيحكي عنه من دعائه عليهم بالهلاك[1].

٢٥ ● مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً.

---

١. نوح ١ ـ ٢٤: بحث روائي في: الاستغفار ونتائجه: السماوات السبع: الاصنام والاوثان التي كانت في قوم نوح عليه السلام.

٢٦ ● وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً.

٢٧ ● إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاّٰ فَاجِراً كَفَّاراً.

٢٨ ● رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوٰالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ تَباراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾ الخ؛ «من» لابتداء الغاية تفيد بحسب المورد التعليل و«ما» زائدة لتأكيد أمرا الخطايا وتفخيمه. والخطيآت المعاصي والذنوب، وتنكير النار للتفخيم.

والمعنى: من أجل معاصيهم وذنوبهم أُغرقوا بالطوفان فادخلوا ـ أدخلهم الله ـ ناراً لا يقدر عذابها بقدر، ومن لطيف نظم الآية الجمع بين الأغراق بالماء وإدخال النار.

والمراد بالنار نار البرزخ التي يعذب بها المجرمون بين الموت والبعث دون نار الآخرة، والآية من أدلة البرزخ إذ ليس المراد أنهم أُغرقوا وسيدخلون النار يوم القيامة، ولا يعبأ بما قيل: ان من الجائز أن يراد بها نار الآخرة.

وقوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَنْصَاراً﴾ أي ينصرونهم في صرف الهلاك والعذاب عنهم. تعريض لأصنامهم وآلهتهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ الديار نازل الدار، والآية تتمة دعائه عليه السلام عليهم، وكان قوله: «مما خطيآتهم اغرقوا» الخ؛ معترضاً واقعاً بين فقرتي الدعاء للاشارة الى أنهم اهلكوا لما عد نوح من خطيآتهم ولتكون كالتمهيد لسؤاله الهلاك فيتبين أن اغراقهم كان استجابة لدعائه، وأن العذاب استوعبهم عن

آخرهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ تعليل لسؤال اهلاكهم عن آخرهم مفاده أن لا فائدة في بقائهم لا لمن دونهم من المؤمنين فانهم يضلونهم، ولا فيمن يلدونه من الأولاد فإنهم لا يلدون الا فاجراً كفاراً ـ والفجور الفسق الشنيع والكفار المبالغ في الكفر.

وقد استفاد ﷺ ما ذكره من صفتهم من الوحي الإلهي على ما تقدم في تفسير قصة نوح من سورة هود.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الخ؛ المراد بمن دخل بيته مؤمناً المؤمنون به من قومه، وبالمؤمنين والمؤمنات عامتهم الى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾ التبار الهلاك، والظاهر أن المراد بالتبار ما يوجب عذاب الآخرة وهو الضلال وهلاك الدنيا بالغرق، وقد تقدما جميعاً في دعائه، وهذا الدعاء آخر ما نقل من كلامه ﷺ في القرآن الكريم.

سورة الجن مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا
قُرْآناً عَجَباً.

٢ ❁ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً.

٣ ❁ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً.

٤ ❁ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً.

٥ ❁ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً.

٦ ❁ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ
فَزَادُوهُمْ رَهَقاً.

٧ ❁ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً.

٨ ❁ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً.

٩ ❁ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ

شِهَاباً رَصَداً.

١٠ • وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً.

١١ • وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً.

١٢ • وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللّٰهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً.

١٣ • وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً.

١٤ • وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً.

١٥ • وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً.

١٦ • وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً.

١٧ • لِنَفْتِنَهُم فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً.

بيان:

تشير السورة الى قصة نفر من الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وأقروا بأصول معارفه، وتتخلص منها الى تسجيل نبوة النبي ﷺ، والإشارة الى وحدانيته تعالى في ربوبيته والى المعاد، والسورة مكية بشهادة سياقها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ أمر للنبي ﷺ أن يقص القصة لقومه، والموحي هو الله سبحانه، ومفعول «استمع» القرآن حذف لدلالة الكلام عليه، والنفر الجماعة من ثلاثة الى

تسعة على المشهور، وقيل: بل الى أربعين.

والعجب بفتحتين ما يدعو الى التعجب منه لخروجه عن العادة الجارية في مثله، وإنما وصفوا القرآن بالعجب لأنه كلام خارق للعادة في لفظه ومعناه أتى به رجل امي ما كان يقرء ولا يكتب.

والرشد إصابة الواقع وهو خلاف الغي، وهداية القرآن الى الرشد دعوته الى عقائد وأعمال تتضمن للمتلبس بها سعادته الواقعية.

والمعنى: يا أيها الرسول قل للناس: اوحى ـ أي أوحى الله ـ الى أنه استمع القرآن جماعة من الجن فقالوا ـ لقومهم لما رجعوا اليهم ـ إنا سمعنا كلاماً مقروءاً خارقاً للعادة يهدي الى معارف من عقائد وأعمال في التلبس بها إصابة الواقع والظفر بحقيقة السعادة[1].

قوله تعالى: ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ إخبار عن إيمانهم بالقرآن وتصديقهم بأنه حق، وقوله: «ولن نشرك بربنا أحداً» تأكيد لمعنى إيمانهم به أن إيمانهم بالقرآن إيمان بالله الذي أنزله فهو ربهم، وأن إيمانهم به تعالى إيمان توحيد لا يشركون به أحداً أبداً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً﴾ فسر الجد بالعظمة وفسر بالحظ، والآية في معنى التأكيد لقولهم: «ولن نشرك بربنا أحداً».

والقراءة المشهورة «أنه» بالفتح، وقرء بالكسر في هذه الآية وفيما بعدها من الآيات ـ اثنا عشر مورداً ـ الى قوله: «وأن لو استقاموا» فبالفتح وهو الأرجح لظهور سياق الآيات في أنها مقولة قول الجن.

وأما قراءة الفتح فوجهها لا يخلو من خفاء، وقد وجهها بعضهم بأن الجملة «وأنه» الخ؛

---

١. الجن ١ ـ ١٧: كلام في الجن.

معطوفة على الضمير المجرور في قوله: «آمنا به» والتقدير وآمنا بأنه تعالى جد ربنا. الخ؛ فهو إخبار منهم بالايمان بنفي الصاحبة والولد منه تعالى على ما يقول به الوثنيون.

وهذا إنما يستقيم على قول الكوفيين من النحاة بجواز العطف على الضمير المتصل المجرور. وأما على قول البصريين منهم من عدم جوازه فقد وجهه بعضهم كما عن الفراء والزجاج والزمخشري بأنها معطوفة على محل الجار والمجرور وهو النصب فإن قوله: «آمنا به» في معنى صدقناه، والتقدير وصدقناه أنه تعالى جد ربنا. الخ. ولا يخفى ما فيه من التكلف.

ووجهه بعضهم بتقدير حرف الجر في الجملة المعطوفة وذلك مطرد في أن وأنّ. والتقدير آمنا به وبأنه تعالى جد ربنا. الخ.

ويرد على الجميع أعم من العطف على الضمير المجرور أو على محله أو بتقدير حرف الجر أن المعنى إنما يستقيم حينئذ في قوله: «وأنه تعالى جد ربنا» الخ؛ وقوله: «وأنه كان يقول سفيهنا» الخ؛ وأما بقية الآيات المصدرة بأن كقوله: «وأنا ظننا أن لن تقول» الخ؛ وقوله: «وأنه كان رجال من الإنس» الخ؛ وقوله: «وأنا لمسنا السماء» فلا يصح قطعاً فلا معنى لأن يقال: آمنا أو صدقنا أنا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله شططا. أو يقال: آمنا أو صدقنا أنه كان رجال من الإنس يعوذون. الخ؛ أو يقال: آمنا أو صدقنا أنا لمسنا السماء. الخ.

ولا يندفع الإشكال إلا بالمصير الى ما ذكره بعضهم أنه إذا وجه الفتح في الآيتين الأوليين بتقدير الايمان أو التصديق فليوجه في كل من الآيات الباقية بما يناسبها من التقدير.

ووجّه بعضهم الفتح بأن قوله: «وأنه تعالى» الخ؛ وسائر الآيات المصدرة بأن معطوفة على قوله: «أنه استمع» الخ.

ولا يخفى فساده فان محصله أن الآيات في مقام الإخبار عما اوحي الى النبي ﷺ من أقوالهم وقد أخبر عن قولهم: إنا سمعنا قرآنا عجبا فآمنا به بعنوان أنه إخبار عن قولهم ثم

حكى سائر أقوالهم بألفاظها فالمعنى اوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا كذا وكذا واوحي الى أنه تعالى جد ربنا. الخ؛ واوحي الى أنه كان يقول سفيهنا الى آخر الآيات.

فيرد عليه أن ما وقع في صدر الآيات من لفظة «أنه» و«أنهم» و«أنا» إن لم يكن جزء من لفظهم المحكي كان زائداً مخلاً بالكلام، وإن كان جزء من كلامهم المحكي بلفظه لم يكن المحكي من مجموع أن وما بعدها كلاماً تاماً واحتاج الى تقدير ما يتم به كلاماً حتى تصح الحكاية، ولم ينفع في ذلك عطفه على قوله: «أنه استمع» شيئاً فلا تغفل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً﴾ السفه ـ على ما ذكره الراغب ـ خفة النفس لنقصان العقل، والشطط القول البعيد من الحق.

والآية أيضاً في معنى التأكيد لقولهم: «لن نشرك بربنا أحداً» ومرادهم بسفيههم من سبقهم من مشركي الجن، وقيل: المراد إبليس وهو من الجن، وهو بعيد من سياق قوله: «كان يقول سفيهنا» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ اعتراف منهم بأنهم ظنوا أن الإنس والجن صادقون فيما يقولون ولا يكذبون على الله فلما وجدوهم مشركين وسمعوهم ينسبون اليه تعالى الصاحبة والولد أذعنوا وقلدوهم فيما يقولون فأشركوا مثلهم حتى سمعوا القرآن فانكشف لهم الحق؛ وفيه تكذيب منهم للمشركين من الإنس والجن.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ قال الراغب: العوذ الالتجاء الى الغير، وقال: رهقه الأمر غشيه بقهر انتهى. وفسر الرهق بالإثم، وبالطغيان، وبالخوف، وبالشر، وبالذلة والضعف، وهي تفاسير بلازم المعنى.

والمراد بعوذ الإنس بالجن ـ على ما قيل: أن الرجل من العرب كان إذا نزل الوادي في سفره

ليلاً قال: أعوذ بعزيز هذا الوادي من شر سفهاء قومه، ونقل عن مقاتل أن أول من تعوذ بالجن قوم من اليمن ثم بنو حنيفة ثم فشا في العرب.

ولا يبعد أن يكون المراد بالعوذ بالجن الاستعانة بهم في المقاصد من طريق الكهانة، واليه يرجع ما نقل عن بعضهم أن المعنى كان رجال من الإنس يعوذون برجال من أجل الجن ومن معرتهم وأذاهم.

والضميران في قوله: «فزادوهم» أولهما لرجال من الإنس وثانيهما لرجال من الجن والمعنى فزاد رجال الإنس رجال الجن رهقاً بالتجائهم اليهم فاستكبر رجال الجن وطغوا وأثموا، ويجوز العكس بأن يكون الضمير الأول لرجال الجن والثاني لرجال الإنس، والمعنى فزاد رجال الجن رجال الإنس رهقاً أي إثماً وطغياناً أو ذلة وخوفاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً﴾ ضمير «انهم» لرجال من الإنس، والخطاب في «ظننتم» لقومهم من الجن، والمراد بالبعث بعث الرسول بالرسالة فالمشركون ينكرون ذلك، وقيل: المراد به الإحياء بعد الموت، وسياق الآيات التالية يؤيد الأول.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴾ لمس السماء الاقتراب منها بالصعود اليها، والحرس ـ على ما قيل ـ اسم جمع لحارس ولذا وصف بالمفرد والمراد بالحرس الشديد الحفاظ الأقوياء في دفع من يريد الاستراق منها ولذا شفع بالشهب وهي سلاحهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ يفيد انضمام صدر الآية الى الآية السابقة أن ملء السماء بالحرس الشديد والشهب مما حدث أخيراً وأنهم كانوا من قبل يقعدون من السماء مقاعد لاستماع كلام الملائكة ويفيد ذيل الآية بالتفريع على جميع ما تقدم أن من يستمع الآن منا بالقعود منها مقعداً للسمع

يجد له شهاباً من صفته أنه راصد له يرميه به الحرس.

فيتحصل من مجموع الآيتين الإخبار بأنهم عثروا على حادثة سماوية جديدة مقارنة لنزول القرآن وبعثة النبي ﷺ وهي منع الجن من تلقي أخبار السماء باستراق السمع.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ الرشد بفتحتين والرشد بالضم فالسكون خلاف الغي وتنكير «رشداً» لإفادة النوع أي نوعاً من الرشد.

هذا منهم إظهار للجهل والتحير فيما شاهدوه من أمر الرجم ومنع شياطين الجن من الاطلاع على أخبار السماء غير أنهم تنبهوا على أن ذلك لأمر ما يرجع الى أهل الأرض إما خير أو شر وإذا كان خيراً فهو نوع هدى لهم وسعادة ولذا بدلوا الخير وهو المقابل للشر من الرشد، ويؤيده قولهم: «أراد بهم ربهم» المشعر بالرحمة والعناية.

وقد صرحوا بالفاعل لإرادة الرشد وحذفوه في جانب الشر أدباً ولا يراد شر من جانبه تعالى إلا لمن استحقه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾ الصلاح مقابل الطلاح، والمراد بدون ذلك ما يقرب منه رتبة ـ على ما قيل ـ. والظاهر أن دون بمعنى غير، ويؤيده قوله: «كنا طرائق قدداً» الدال على التفرق والتشتت والطرائق جمع طريقة وهي الطريق المطروقة المسلوكة، والقدد القطع جمع قدة بمعنى قطعة من القد بمعنى القطع وصفت الطرائق بالقدد لأن كل واحدة منها مقطوعة عن غيرها تنتهي بسالكها الى غاية غير ما ينتهي به اليه غيرها، والى هذا المعنى يرجع تفسير القدد بالطرائق المتفرقة المتشتتة.

والظاهر أن المراد بقوله: «الصالحون» الصالحون بحسب الطبع الأولي في المعاشرة والمعاملة دون الصالحين بحسب الايمان، ولو كان المراد صلاح الايمان لكان الأنسب أن يذكر بعدما سيجيء من حديث إيمانهم لما سمعوا الهدى.

وذكر بعضهم أن قوله: «طرائق قدداً» منصوب على الظرفية أي في طرائق قدد وهي المذاهب المتفرقة المتشتتة، وقال آخرون إنه على تقدير مضاف أي ذوى طرائق، ولا يبعد أن يكون من الاستعارة بتشبيههم أنفسهم في الاختلاف والتباين بالطرق المقطوع بعضها من بعض الموصلة الى غايات متشتتة.

والمعنى: وأنا منا الصالحون طبعاً ومنا غير ذلك كنا في مذاهب مختلفة أو ذوي مذاهب مختلفة أو كالطرق المقطوعة بعضها عن بعض.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً﴾ الظن هو العلم اليقيني، والأنسب أن يكون المراد بقوله: «لن نعجز الله في الارض» إعجازه تعالى بالغلبة عليه فيما يشاء فيها وذلك بالإفساد في الارض وإخلال النظام الذي يجري فيها فإن إفسادهم لو أفسدوا من القدر، والمراد بقوله: «ولن نعجزه هرباً» إعجازه تعالى بالهرب منه إذا طلبهم حتى يفوتوه فلا يقدر على الظفر بهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً﴾ المراد بالهدى القرآن باعتبار ما يتضمنه من الهدى، والبخس النقص على سبيل الظلم، والرهق غشيان المكروه.

والفاء في قوله: «فمن يؤمن» للتفريع وهو من تفريع العلة على المعلول لإفادة الحجة في إيمانهم بالقرآن من دون ريث ولا مهل.

ومحصل المعنى: أنا لما سمعنا القرآن الذي هو الهدى بادرنا الى الإيمان به من دون مكث لأن من آمن به فقد آمن بربه ومن يؤمن بربه فلا يخاف نقصانا في خير أو غشياناً من مكروه حتى يكف عن المبادرة والاستعجال ويتروى في الإقدام عليه لئلا يقع في بخس أو رهق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾ المراد بالاسلام تسليم الأمر لله تعالى فالمسلمون المسلمون له الأمر المطيعون له فيما

يريده ويأمر به، والقاسطون هم المائلون الى الباطل قال في المجمع: القاسط هو العادل عن الحق والمقسط العادل الى الحق، انتهى.

والمعنى: أنا معشر الجن منقسمون الى من يسلم لأمر الله مطيعين له، والى من يعدل عن التسليم لأمر الله وهو الحق.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾ تحري الشيء توخيه وقصده، والمعنى فالذين أسلموا فاولئك قصدوا إصابة الواقع والظفر بالحق.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ فيعذبون بتسعرهم واشتعالهم بأنفسهم كالقاسطين من الانس قال تعالى: ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس﴾ (البقرة / ٢٦).

وقد عد كثير منهم قوله: «فمن أسلم فاولئك ـ الى قوله ـ لجهنم حطباً» تتمة لكلام الجن يخاطبون به قومهم وقيل: إنه من كلامه تعالى يخاطب به النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ «أن» مخففة من الثقيلة، والمراد بالطريقة طريقة الاسلام، والاستقامة عليها لزومها والثبات على ما تقتضيه من الايمان بالله وآياته.

والماء الغدق الكثير منه، ولا يبعد أن يستفاد من السياق أن قوله: «لأسقيناهم ماء غدقاً» مثل اريد به التوسعة في الرزق، ويؤيده قوله بعده: «لنفتنهم فيه».

والمعنى: وأنه لو استقاموا أي الجن والانس على طريقة الاسلام لله لرزقناهم رزقاً كثيراً لنمتحنهم في رزقهم فالآية في معنى قوله: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ (الأعراف / ٩٦).

والآية من كلامه تعالى معطوف على قوله في أول السورة: «أنه استمع» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾ العذاب الصعد

هو الذي يتصعد على المعذب ويغلبه، وقيل: هو العذاب الشاق.

والإعراض عن ذكر الله لازم عدم الاستقامة على الطريقة وهو الأصل في سلوك العذاب، ولذا وضع موضعه ليدل على السبب الأصلي في دخول النار.

وهو الوجه أيضاً في الالتفات عن التكلم مع الغير الى الغيبة في قوله: «ذكر ربه» وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ذكرنا وذلك أن صفة الربوبية هي المبدأ الأصلي لتعذيب المعرضين عن ذكره تعالى فوضعت موضع ضمير المتكلم مع الغير ليدل على المبدء الأصلي كما وضع الإعراض عن الذكر موضع عدم الاستقامة ليدل على السبب.

قيل: وقوله: «يسلكه» مضمن معنى يدخله ولذا عدي الى المفعول الثاني، والمعنى ظاهر[1].

١٨ • وَأَنَّ المَسَاجِدَ لِلّٰهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَداً.

١٩ • وَأَنَّه لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللّٰهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً.

٢٠ • قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً.

٢١ • قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً.

٢٢ • قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللّٰهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً.

٢٣ • إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللّٰهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً.

٢٤ • حَتَّىٰ إِذا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً.

---

١. الجن ١ ـ ١٧: بحث روائي في الجن.

٢٥ ● قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً.

٢٦ ● عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً.

٢٧ ● إِلَّا مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً.

٢٨ ● لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلّٰهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَداً﴾ معطوف على قوله: «أنه استمع» الخ؛ وجملة «أن المساجد لله» في موضع التعليل لقوله: «فلا تدعوا مع الله أحداً» والتقدير لا تدعوا مع الله أحداً غيره لأن المساجد له.

والمراد بالدعاء العبادة وقد سماها الله دعاء كما في قوله: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ (المؤمن / ٦٠).

وعن الامام الجواد عليه السلام أن المراد بالمساجد الأعضاء السبعة التي يسجد عليها في الصلاة وهي الجبهة والكفان والركبتان وأصابع الرجلين، وستوافيك روايته في البحث الروائي التالي إن شاء الله. ونقل ذلك أيضاً عن سعيد بن جبير والفراء والزجاج.

والأنسب على هذا أن يكون المراد بكون مواضع السجود من الانسان لله اختصاصها به اختصاصاً تشريعياً، والمراد بالدعاء السجدة لكونها أظهر مصاديق العبادة أو الصلاة بما أنها تتضمن السجود لله سبحانه.

والمعنى: وأوحي إلي أن أعضاء السجود يختص بالله تعالى فاسجدوا له بها ـ أو اعبدوه

بها ـ ولا تجسدو ـ أو لا تعبدوا ـ أحدا غيره.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّه لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ اللبد بالكسر فالفتح جمع لبدة بالضم فالسكون المجتمعة المتراكمة. والمراد بعبد الله النبي ﷺ كما تدل عليه الآية التالية، والتعبير بعبد الله كالتمهيد لقوله في الآية التالية: «قل إنما أدعو ربي». والأنسب لسياق الآيات التالية أن يكون مرجع ضميري الجمع في قوله: «كادوا يكونون» المشركين وقد كانوا يزدحمون عليه ﷺ إذا صلى وقرء القرآن يستهزؤن ويرفعون أصواتهم فوق صوته على ما نقل.

والمعنى: وأنه لما قام النبي ﷺ يعبد الله بالصلاة كاد المشركون يكونون بازدحامهم لبداً مجتمعين متراكمين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾ أمر منه تعالى للنبي ﷺ أن يبين لهم وجه عبادته بياناً يزيل عنهم الحيرة حيث رأوا منه ما لم يكونوا رأوه من أحد غيره، ويتعجبون حاملين له على نوع من المكيدة والمكر بأصنامهم أو خدعة بهم لأغراض أُخر دنيوية.

ومحصل البيان: أني لست أُريد بما آتي به من العمل شيئاً من المقاصد التي تحسبونها وترمونني بها وإنما أدعو ربي وحده غير مشرك به أحداً وعبادة الانسان لمن عرفه رباً لنفسه مما لا ينبغي أن يلام أو يتعجب منه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً﴾ الذي يفيده سياق الآيات الكريمة أنه ﷺ يبين فيها بأمر من ربه موقع نفسه وبالنسبة الى ربه وبالنسبة الى الناس.

أما موقعه بالنسبة الى ربه فهو أنه يدعوه ولا يشرك به أحدا وهو قوله: «قل إنما أدعوا ربي ولا أُشرك به أحداً».

وأما موقعه بالنسبة اليهم فهو أنه بشر مثلهم لا يملك لهم ضراً ولا رشدا حتى يضرهم بما

يريد أن يرشدهم من الخير الى ما يريد بما عنده من القدرة ، وأنه مأمور من الله بدعوتهم أمراً ليس له إلا أن يمتثله فلا مجير يجيره منه ولا ملجأ يلتجىء اليه لو خالف وعصى كما ليس لهم إلا أن يطيعوا الله ورسوله ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ، وسيعلمون إذا رأوا ما يوعدون .

ولازم هذا السياق أن يكون المراد بملك الضر القدرة على إيقاع الضر بهم فيوقعه بهم إذا أراد ، والمراد بملك الرشد القدرة على إيصال النفع اليهم بإصابة الواقع أي أني لا أدعي أني أقدر أن أضركم أو أنفعكم ، وقيل : المراد بالضر الغي المقابل للرشد تعبيرا باسم المسبب عن السبب .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ ﴾ الإجارة إعطاء الجوار وحكمه حماية المجير للجار ومنعه ممن يقصده بسوء ، والظاهر أن الملتحد اسم مكان وهو المكان الذي يعدل وينحرف اليه للتحرز من الشر ، وقيل : المدخل ويتعلق به قوله : « من دونه » وهو كالقيد التوضيحي والضمير لله والبلاغ التبليغ .

وقوله : ﴿ إِلاَّ بَلاغاً ﴾ استثناء من قوله : « ملتحدا » وقوله : « من الله » متعلق بمقدر أي كائناً من الله وليس متعلقاً بقوله : « بلاغاً » لأنه يتعدى بعن لا بمن ولذا قال بعض من جعله متعلقاً ببلاغاً : إن « من » بمعنى عن ، والمعنى على أي حال إلا تبليغ ما هو تعالى عليه من الأسماء والصفات .

وقوله : ﴿ وَرِسَالاتِهِ ﴾ قيل : معطوف على « بلاغاً » والتقدير إلا بلاغاً من الله وإلا رسالاته وقيل : معطوف على لفظ الجلالة ومن بمعنى عن ، والمعنى إلا بلاغاً عن الله وعن رسالاته .

وفيما استثني منه بلاغاً قول آخر وهو أنه مفعول « لا أملك » والمعنى لا أملك لكم ضرا ولا

رشدا إلا تبليغاً من الله ورسالاته، ويبعده الفصل بين المستثنى والمستثنى منه بقوله: «لن يجيرني من الله أحد» الخ؛ وهو كلام مستأنف.

ومعنى الآيتين على ما قدمنا: قل لن يجيرني من الله أحد فيمنعني منه ولن أجد من دونه مكاناً ألتجيء اليه إلا تبليغاً كائناً منه ورسالاته أي إلا أن أمتثل ما أمرني به من التبليغ منه تعالى ببيان أسمائه وصفاته وإلا رسالاته في شرائع الدين.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ إفراد ضمير «له» باعتبار لفظ «من» كما أن جمع «خالدين» باعتبار معناها.

وعطف الرسول على الله في قوله: «ومن يعص الله ورسوله» لكون معصيته معصية لله تعالى إذ ليس له إلا رسالة ربه فالرد عليه فيما أتى به رد على الله سبحانه وطاعته فيما يأمر به طاعة لله قال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (النساء / ٨٠).

والمراد بالمعصية ـ كما يشهد به سياق الآيات السابقة ـ معصية ما أمر به من التوحيد أو التوحيد وما يتفرع عليه من اصول الدين وفروعه فلا يشمل التهديد والوعيد بخلود النار إلا الكافرين بأصل الدعوة دون مطلق أهل المعصية المتخلفين عن فروع الدين فالاحتجاج بالآية على تخليد مطلق العصاة في النار في غير محله.

والظاهر أن قوله: «ومن يعص الله» الى آخر الآية؛ من كلام الله سبحانه لا من تتمة كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً﴾ لقوله: «حتى» دلالة على معنى مدخولها غاية له ومدخولها يدل على أنهم كانوا يستضعفون النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعدّ ناصريه ـ وهم المؤمنون ـ ضعفاء واستقلال عدده بعدّ عددهم قليلاً فالكلام يدل على معنى محذوف هو غايته كقولنا: لا يزالون يستضعفون ناصريك ويستقلون عددهم حتى إذا رأوا ما يوعدون، الخ.

والمراد بما يوعدون نار جهنم لأنها هي الموعودة في الآية، والآية من كلامه تعالى يخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولو كانت من كلامه وهي مصدرة بقوله تعالى: «قل» لكان من حق الكلام أن يقال: حتى إذا رأيتم ما توعدون فستعلمون، الخ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾ الأمد الغاية التي ينتهي اليها، والآية بمنزلة دفع دخل تقتضيه حالهم كأنهم لما سمعوا الوعيد قالوا: متى يكون ذلك فقيل له «قل إن أدري أقريب» الخ.

قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً﴾ إظهار الشيء على الشيء إعانته وتسليطه عليه، و«عالم الغيب» خبر لمبتدء محذوف، والتقدير هو عالم الغيب، ومفاد الكلمة بإعانة من السياق اختصاص علم الغيب به تعالى مع استيعاب علمه كل غيب، ولذا أضاف الغيب الى نفسه ثانياً فقال: «على غيبه» بوضع الظاهر موضع المضمر ليفيد الاختصاص ولو قال: «فلا يظهر عليه» لم يفد ذلك.

والمعنى هو عالم كل غيب علماً يختص به فلا يطلع على الغيب وهو مختص به أحدا من الناس فالمفاد سلب كلي وإن أصر بعضهم على كونه سلباً جزئياً محصل معناه لا يظهر على كل غيبة أحدا ويؤيد ما قلنا ظاهر ما سيأتي من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ استثناء من قوله: «أحدا» و«من رسول» بيان لقوله: «من ارتضى» فيفيد أن الله تعالى يظهر رسله على ما شاء من الغيب المختص به فالآية إذا انضمت الى الايات التي تخص علم الغيب به تعالى كقوله: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ (الأنعام / ٥٩)، وقوله: ﴿ولله غيب السماوات والأرض﴾ (النحل / ٧٧)، وقوله: ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾ (النمل / ٦٥) أفاد ذلك معنى الأصالة والتبعية فهو تعالى يعلم الغيب لذاته وغيره يعلمه بتعليم من الله.

فهذه الآيات نظيرة الآيات المتعرضة للتوفي كقوله: ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ (الزمر / ٤٢)

الدال على الحصر، وقوله: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ (الم السجدة / ١١)، وقوله: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ (الأنعام / ٦١) فالتوفي منسوب اليه تعالى على نحو الأصالة والى الملائكة على نحو التبعية لكونهم أسباباً متوسطة مسخرة له تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ـ الى قوله ـ عَدَداً﴾ ضمير «فإنه» لله تعالى، وضميرا «يديه» و «خلفه» للرسول، والراصد المراقب للأمر الحارس له، والرصد الراصد يطلق على الواحد والجماعة وهو في الأصل مصدر، والمراد بما بين يدي الرسول ما بينه وبين الناس المرسل اليهم، وبما خلفه ما بينه وبين مصدر الوحي الذي هو الله سبحانه وقد اعتبر في هذا التصوير ما يوهمه معنى الرسالة من امتداد متوهم يأخذ من المرسل ـ اسم فاعل ـ وينتهي الى المرسل اليه يقطعه الرسول حتى ينتهي الى المرسل اليه فيؤدي رسالته، والآية تصف طريق بلوغ الغيب الى الرسول وهو الرسالات التي توحي اليه كما يشير الى ذلك قوله: «ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم».

والمعنى: فإن الله يسلك ما بين الرسول ومن ارسل اليه وما بين الرسول ومصدر الوحي مراقبين حارسين من الملائكة ـ ومن المعلوم أن سلوك الرصد من بين يديه ومن خلفه لحفظ الوحي من كل تخليط وتغيير بالزيادة والنقصان يقع فيه من ناحية الشياطين بلا واسطة أو معها.

وقوله: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ﴾ ضمير «ليعلم» لله سبحانه، وضميرا «قد أبلغوا» و «ربهم» لقوله: «من» باعتبار المعنى أو لرسول باعتبار الجنس، والمراد بعلمه تعالى بإبلاغهم رسالت ربهم العلم الفعلي وهو تحقق الإبلاغ في الخارج على حد قوله: ﴿فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ (العنكبوت / ٣) وهو كثير الورود في كلامه تعالى.

والجملة تعليل لسلوك الرصد بين يدي الرسول ومن خلفه، والمعنى ليتحقق إبلاغ رسالات ربهم أي لتبلغ الناس رسالاته تعالى على ما هي عليه من غير تغير وتبدل.

ومن المحتمل أن يرجع ضميرا «بين يديه ومن خلفه» الى «غيبه» فيكون الرصد الحرس مسلوكين بين يدي الغيب النازل ومن خلفه الى أن يبلغ الرسول، ويضعفه أنه لا يلائم قوله: «ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم» بالمعنى الذي تقدم لعدم استلزام بلوغ الغيب للرسول سليماً من تعرض الشياطين حصول العلم بإبلاغه الى الناس.

والى هذا المعنى يرجع قول بعضهم إن الضميرين يرجعان الى جبريل حامل الوحي ويضعفه مضافاً الى ما مر عدم سبق ذكره.

وقوله: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ ضمير الجمع للرسل بناء على ما تقدم من المعنى والظاهر أن الجملة متممة لمعنى الحراسة المذكورة سابقاً فقوله: «من بين يديه» يشير الى رصد ما بين الرسول والمرسل اليهم، وقوله: «ومن خلفه» الى حفظ ما بينه ومصدر الوحي، وقوله: «وأحاط بما لديهم» يشير الى ظرف نفس الرسول والاحاطة إحاطة علمية فالوحي في أمن من تطرق التغيير فيما بين مصدر الوحي والرسول وفي نفس الرسول وفيما بين الرسول والمرسل اليهم.

ويمكن أن يكون المراد بما لديهم جميع ماله تعلق ما بالرسل أعم من مسير الوحي أو أنفسهم كما أن قوله: «وأحصى كل شيء عدداً» مسوق لإفادة عموم العلم بالأشياء غير أنه العلم بعددها وتميز بعضها من بعض (١).

---

١ . الجن ١٨ ـ ٢٨: بحث في اختصاصه تعالى بعلم الغيب: علم الانبياء والائمه والملائكة؛ مصونية الوحي من حين صدوره من مصدره الى الرسول وحين اخذ الرسول اياه وتلقيه ومصونية في حفظه وفي تبليغه الى الناس.

سورة المزمل مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ.

٢ • قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً.

٣ • نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنهُ قَلِيلاً.

٤ • أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً.

٥ • إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً.

٦ • إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً.

٧ • إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً.

٨ • وَاذكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً.

٩ • رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً.

١٠ • وَاصْبِرْ عَلىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً.

١١ • وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً.

١٢ ◆ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً.

١٣ ◆ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً.

١٤ ◆ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً.

١٥ ◆ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً.

١٦ ◆ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً.

١٧ ◆ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيباً.

١٨ ◆ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً.

١٩ ◆ إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً.

بيان:

السورة تأمر النبي ﷺ بقيام الليل والصلاة فيه ليستعد بذلك لتلق ثقل ما سيلق عليه من القول الثقيل والقرآن الموحي اليه، وتأمره أن يصبر على ما يقولون فيه إنه شاعر أو كاهن أو مجنون الى غير دلك ويهجرهم هجراً جميلاً، وفيها وعيد وإنذار للكفار وتعميم الحكم لسائر المؤمنين. وفي آخرها تخفيف ما للنبي ﷺ والمؤمنين.

والسورة مكية من عتائق السوق النازلة في أول البعثة حتى قيل: انها ثانية السور النازلة على النبي ﷺ أو ثالثتها.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ بتشديد الزاي والميم وأصله المتزمل اسم فاعل من التزمل بمعنى التلفف بالثوب لنوم ونحوه، وظاهره أنه ﷺ كان قد تزمل بثوب للنوم فنزل عليه الوحي وخوطب بالمزمل.

وليس في الخطاب به تهجين ولا تحسين كما توهمه بعضهم، نعم يمكن أن يستفاد من سياق الآيات أنه ﷺ كان قد قوبل في دعوته بالهزء والسخرية والايذاء فاغتم في الله فتزمل بثوب لينام دفعاً للهم فخوطب بالمزمل وأمر بقيام الليل والصلاة فيه والصبر على ما يقولون على حد قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ (البقرة / ١٥٣) فأفيد بذلك عليه أن يقاوم الكرب العظام والنوائب المرة بالصلاة والصبر لا بالتزمل والنوم.

وقيل: المراد يا أيها المتزمل بعباءة النبوة أي المتحمل لأثقالها، ولا شاهد عليه من جهة اللفظ.

قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ المراد بقيام الليل القيام فيه الى الصلاة فالليل مفعول به توسعاً كما في قولهم: دخلت الدار، وقيل: معمول «قم» مقدر و«الليل» منصوب على الظرفية والتقدير قم الى الصلاة في الليل، وقوله: «إلا قليلاً» استثناء من الليل.

وقوله: ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ ظاهر السياق أنه بدل من «الليل إلا قليلا» المتعلق به تكليف القيام، وضميرا «منه» و«عليه» للنصف، وضمير «نصفه» لليل، والمعنى قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا أو زد على النصف قليلا، والترديد بين الثلاثة للتخيير فقد خير بين قيام النصف وقيام أقل من النصف بقليل وقيام أكثر منه بقليل.

وقوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ ترتيل القرآن تلاوته بتبيين حروفه على تواليها، والجملة معطوفة على قوله: «قم الليل» أي قم الليل واقرء القرآن بترتيل.

والظاهر أن المراد بترتيل القرآن ترتيله في الصلاة أو المراد به الصلاة نفسها وقد عبر سبحانه عن الصلاة بنظير هذا التعبير في قوله: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ (الإسراء / ٨٧)، وقيل: المراد إيجاب قراءة

القرآن دون الصلاة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ الثقل كيفية جسمانية من خاصته أنه تشق حمل الجسم الثقيل ونقله من مكان الى مكان وربما يستعار للمعاني إذا شق على النفس تحملها أو لم تطقها فربما أُضيف الى القول من جهة معناه فعد ثقيلا لتضمنه معنى يشق على النفس إدراكه أو لا تطيق فهمه أو تتحرج من تلقيه كدقائق الأنظار العلمية إذا القيت على الافهام العامة، أو لتضمنه حقائق يصعب التحقق بها او تكاليف يشق الاتيان بها والمداومة عليها.

والقرآن قول إلهي ثقيل بكلا المعنيين: أما من حيث تلقي معناه فإنه كلام إلهي مأخوذ ن ساحة العظمة والكبرياء لا تتلقاه إلا نفس طاهرة من كل دنس منقطع عن كل سبب إلا الله سبحانه، وكتبا عزيز له ظهر وبطن وتنزيل وتأويل تبياناً لكل شيء، وقد كان ثقله مشهوداً من حال النبي ﷺ بما كان يأخذ من البرحاء وشبه الإغماء على ما وردت به الأخبار المستفيضة.

وأما من حيث التحقق بحقيقة التوحيد وما يتبعها من الحقائق الاعتقادية فكفى في الاشارة الى ثقله قوله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ (الحشر / ٢١)، وقوله تعالى: ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى﴾ (الرعد / ٣١).

وأما من حيث القيام بما يشتمل عليه من أمر الدعوة واقامة مراسم الدين الحنيف، واظهاره على الدين كله فيشهد به ما لقي ﷺ من المصائب والمحن في سبيل الله والأذى في جنب الله على ما يشهد به الآيات القرآنية الحاكية لما لقيه النبي ﷺ من المشركين والكفار والمنافقين والذين في قلوبهم مرض من أنواع الإيذاء والهزء والجفاء.

فقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ المراد بالقول الثقيل القرآن العظيم على ما

يسبق الى الذهن من سياق هذه الآيات النازلة في أول البعثة، وبه فسره المفسرون.

والآية في مقام التعليل للحكم المدلول عليه بقوله: «قم الليل» الخ؛ فتفيد بمقتضى السياق ـ والخطاب خاص بالنبي ﷺ ـ أن أمره بقيام الليل والتوجه فيه اليه تعالى بصلاة الليل تهيئة له واعداد لكرامة القرب وشرف الحضور والقاء قول ثقيل فقيام الليل هي السبيل المؤدية الى هذا الموقف الكريم وقد عد سبحانه صلاة الليل سبيلا اليه في قوله الآتي: «ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا».

وقد زاد سبحانه وعدا على ما في هذه الآية في قوله: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ (الإسراء / ٧٩) وقد تقدم معنى المقام المحمود في تفسير الآية.

واذ كان من ثقل القرآن ثقله من حيث التحقق بحقائقه ومن حيث استجابته فيما يندب اليه من الشرائع والأحكام فهو ثقيل على الامة كما هو ثقيل عليه ﷺ ومعنى الآية انا سنوحي اليک قولا يثقل عليك وعلى امتك أما ثقله عليه ﷺ فلما في التحقق بحقائقه من الصعوبة ولما فيه من محنة الرسالة وما يتبعها من الأذى في جنب الله وترك الراحة والدعة ومجاهدة النفس والانقطاع الى الله مضافاً الى ما في تلقيه من مصدر الوحي من الجهد، وأما ثقله على امته فلأنهم يشاركونه ﷺ في لزوم التحقق بحقائقه واتباع أوامره ونواهيه ورعاية حدوده كل طائفة منهم على قدر طاقته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ الآية الاولى في مقام التعليل لاختيار الليل وقتاً لهذه الصلاة، والآية الثانية في مقام التعليل لترك النهار والاعراض عنه كما أن الآية السابقة أعني قوله: «انا سنلقي عليك قولاً ثقيلا» في مقام التعليل لتشريع أصل هذه الصلاة.

فقوله: «ان ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا» الناشئة اما مصدر كالعاقبة والعافية

بمعنى النشأة وهي الحدوث والتكون، واما اسم فاعل من النشأة مضاف الى موصوفه وكيف كان فالمراد بها الليل واطلاق الحادثة على الليل كاطلاقها على سائر أجزاء الخلقة وربما قيل: انها الصلاة في الليل ووطؤ الأرض وضع القدم عليها، وكونها أشد وطأ كناية عن كونها أثبت قدماً لصفاء النفس وعدم تكدرها بالشواغل النهارية وقيل: الوطء مواطاة القلب اللسان وأيد بقراءة «أشد وطاء» والمراد بكونها أقوم قيلا كونها أثبت قولا وأصوب لحضور القلب وهدو الأصوات.

والمعنى ان حادثة الليل أو الصلاة في الليل هي أثبت قدماً ـ أو أشد في مواطاة القلب اللسان وأثبت قولا وأصوب لما أن الله جعل الليل سكناً يستتبع انقطاع الإنسان عن شواغل المعيشة الى نفسه وفراغ باله.

وقوله: «إن لك في النهار سبحاً طويلا» السبح المشي السريع في الماء والسبح الطويل في النهار كناية عن الغور في مهمات المعاش وأنواع التقلب في قضاء حوائج الحياة.

والمعنى إن لك في النهار مشاغل كثيرة تشتغل بها مستوعبة لا تدع لك فراغاً تشتغل فيه بالتوجه التام الى ربك والانقطاع اليه بذكره فعليك بالليل والصلاة فيه.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ الظاهر أنه يصف صلاة الليل فهو كالعطف التفسيري على قوله: «ورتل القرآن ترتيلا» وعلى هذا فالمراد بذكر اسم الرب تعالى الذكر اللفظي بمواطاة من القلب وكذا المراد بالتبتل التبتل مع اللفظ.

وقيل: الآية تعميم بعد التخصيص والمراد بالذكر دوام ذكره تعالى ليلاً ونهاراً على أي وجه كان من تسبيح وتحميد وصلاة وقراءة قرآن وغير ذلك، وإنما فسر الذكر بالدوام لأنه صلى الله عليه وآله وسلم لم ينسه تعالى حتى يؤمر بذكره، والمراد الدوام العرفي دون الحقيقي لعدم إمكانه. انتهى.

وفيه أنه إن أراد بالذكر الذكر اللفظي فعدم نسيانه صلى الله عليه وآله وسلم ربه تعالى لا ينافي أمره بالذكر

اللفظي، وإن أراد ما يعم الذكر القلبي فهو ممنوع ولو سلم ففيه أولا أن عدم نسيانه ﷺ ربه الى حين الخطاب لا ينافي أمره بذكره بعده وثانياً أن عدّه الداوم الحقيقي غير ممكن وحمل الدوام على العرفي وهم ناش عن عدم تحصيل المعنى على ما هو عليه فالله جل ذكره مذكور للإنسان لا يغيب عنه ولا لحظة سواء تنبه عليه الإنسان أو غفل عنه. ومن الممكن أن يعرّفه الله نفسه بحيث لا يغفل عنه ولا في حال قال تعالى: ﴿فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ (حم السجدة / ٣٨) وقال: ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ (الأنبياء / ٢٠) وقد تقدم في تفسير الآيتين وآخر سورة الأعراف أن ذلك لا يختص بالملائكة.

وبالجملة قوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أمر بذكر اسم من أسمائه أو لفظ الجلالة خاصة وقيل: المراد به البسملة.

وفي قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ التفات عن التكلم مع الغير في قوله: «إنا سنلقي» الى الغيبة ولعل الوجه فيه إيقاظ ذلة العبودية التي هي الرابطة بين العبد وربه، بذكر صفة الربوبية.

وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ فسر التبتل بالانقطاع أي وانقطع الى الله، ومن المروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن التبتل رفع اليد الى الله والتضرع اليه. وهذا المعنى أنسب بناء على حمل الذكر على الذكر اللفظي كما تقدم.

و« تبتيلا » مفعول مطلق ظاهرا وكان مقتضى الظاهر أن يقال: وتبتل اليه تبتلاً فالعدول الى التبتيل قيل: لتضمين تبتل معنى بتل، والمعنى وقطع نفسك من غيره اليه تقطيعاً أو احمل نفسك على رفع اليد اليه والتضرع حملا، وقيل: لمراعاة الفواصل.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ وصف مقطوع عن الوصفية والتقدير هو رب المشرق والمغرب، ورب المشرق والمغرب في معنى رب العالم كله فان المشرق والمغرب جهتان نسبيتان تشملان جهات العالم المشهود كلها، وإنما اختصا بالذكر لمناسبة ما تقدم من ذكر الليل والنهار المرتبطين بالشروق والغروب.

وإنما لم يقتصر في الاشارة الى ربوبيته تعالى بقوله السابق : « ربك » للإيـذان بأنـه ﷺ مأمور باتخاذه رباً لأنه ربه ورب العالم كله لأنه ربه وحده كما ربما كان الرجل مـن الوثـنيين يتخذ صنما لنفسه فحسب غير ما اتخذه غيره من الأصنام ولو كان اتخاذه ﷺ له تعالى رباً من هذا القبيل أو احتمل ذلك لم تصح دعوته الى التوحيد .

وليكون قوله : ربك رب المشرق والمغرب ـ وهو في معنى رب العالم كله ـ توطئة وتمهيداً لقوله بعده : « لا إله إلا هو » يعلل به توحيد الالوهية فإن الالوهية وهي المعبودية من فروع الربوبية التي هي الملك والتدبير كما تقدم مراراً فهو تعالى الإله وحده لا إله إلا هو لأنه الرب وحده لا رب إلا هو .

وقوله : ﴿ فَاتَّخِذهُ وَكِيلاً ﴾ أي في جميع امورك ، وتوكيل الوكيل هو إقامة الانسان غير مقام نفسه بحيث تقوم إرادته مقام إرادته وعمله مقام عمله فـاتخاذه تـعالى وكـيلاً أن يـرى الانسان الأمر كله له واليه تعالى أما في الامور الخارجية والحوادث الكونية فأن لا يرى لنفسه ولا لشيء من الأسباب الظاهرية استقلالا في التأثير فلا مؤثر في الوجود بحقيقة معنى التأثير إلا الله فلا يتعلق بتأثير سبب من الأسباب برضى أو سخط أو سرور أو أسف وغير ذلك بل يتوسل الى مقاصده ومآربه بما عرّفه الله من الأسباب من غـير أن يـطمئن الى اسـتقلالها في التأثير ويرجع الظفر بالمطلوب الى الله ليختار له ما يرتضيه .

وأما الامور التي لها تعلق بالعمل من العبادات والمعاملات فأن يجعل ارادته تابعة لإرادة ربه التشريعية فيعمل على حسب ما يريده الله تعالى منه فيما شرّع من الشريعة .

قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ معطوف هو وما بعده على مدخول الفاء في قوله : « فاتخذه وكيلا » فالمعنى اتخذه وكيلا ولازم اتخاذه وكيلا أن تصبر على ما يقولون مما فيه إيذاؤك والاستهزاء بك ورميك بما ليس فيك كقولهم : افترى على الله ، كاهن شاعر ، مجنون ، أساطير الأولين وغير ذلك مما يقصه القرآن .

وأن تهجرهم هجرا جميلاً، والمراد بالهجر الجميل على ما يعطيه السياق أن يعاملهم بحسن الخلق والدعوة الى الحق بالمناصحة، ولا يواجه قولهم بما في وسعه من المقابلة بالمثل، والآية لا تدافع آية القتال فلا وجه لقول من قال: إنها منسوخة بآية القتال.

قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ تهديد للكفار يقال: دعني وفلاناً وذرني وفلاناً أي لا تحل بيني وبينه حتى أنتقم منه.

والمراد بالمكذبين اولي النعمة الكفار المذكورون في الآية السابقة او رؤساؤهم المتبوعون، والجمع بين توصيفهم بالمكذبين وتوصيفهم باولي النعمة للإشارة الى علة ما يهددهم به من العذاب فإن تكذيبهم بالدعوة الإلهية وهم متنعمون بنعمة ربهم كفران منهم بالنعمة وجزاء الكفران سلب النعمة وتبديلها من النقمة.

والمراد بالقليل الذي يمهلونه الزمان القليل الذي يمكثون في الأرض حتى يرجعوا الى ربهم فيحاسبهم ويجازيهم قال تعالى: ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ (المعارج / ٧)، وقال: ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ (آل عمران / ١٩٧).

والآية بظاهرها عامة، وقيل: وعيد لهم بوقعة بدر وليس بظاهر، وفي الآيه التفات عن الغيبة في «ربك» الى التكلم وحده في «ذرني» ولعل الوجه فيه تشديد التهديد بنسبة الأمر اليه سبحانه نفسه ثم التفت في قوله: «إن لدينا» الى التكلم مع الغير للدلالة على العظمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً﴾ تعليل لقوله: «ذرني» الخ؛ والأنكال القيود، قال الراغب يقال: نكل عن الشيء ضعف وعجز، ونكلته قيدته والنكل ـ بالكسر فالسكون ـ قيد الدابة وحديدة اللجام لكونهما مانعين، والجمع الأنكال انتهى. وقال: الجحمة شدة تأجج النار ومنه الجحيم. انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴾ قال في المجمع: الغصة تردد اللقمة في الحلق ولا يسيغها أكلها يقال: غصّ بريقه يغص غصصاً، وفي قلبه غصة من كذا وهي كاللدغة

التي لا يسوغ معها الطعام والشراب، انتهى.

والآيتان تذكران نقم الآخرة التي بدلت منها نعم الدنيا جزاء لكفرانهم بنعم الله.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ ظرف للعذاب الموعود في الآيتين السابقتين، قال الراغب: الرجف الاضطراب الشديد يقال: رجفت الارض والبحر انتهى. وفي المجمع: الكثيب الرمل المجتمع الكثير، وهلت أهيله هيلا فهو مهيل إذا حرك أسفله فسال أعلاه انتهى، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ إنذار للمكذبين اولي النعمة من قومه ﷺ بعدما أوعد مطلق المكذبين اولي النعمة بما أتد لهم من العذاب يوم القيامة بقياس حالهم الى حال فرعون المستكبر على الله ورسوله المستذل لرسول الله ومن آمن معه من قومه ثم قرع أسماعهم بما انتهى اليه أمر فرعون من أخذ الله له أخذاً وبيلاً فليتعظوا وليأخذوا حذرهم.

فقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ﴾ إشارة الى تصديق رسالة النبي ﷺ من قبله تعالى وشهادته على أعمالهم بتحملها في الدنيا وتأديتها يوم القيامة، وقد تقدم البحث عن معنى شهادة الأعمال في الآيات المشتملة عليها مرارا، وفي الاشارة الى شهادته ﷺ نوع زجر لهم عن عصيانه ومخالفته وتكذيبه.

وقوله: «كما أرسلنا الى فرعون رسولاً» هو موسى بن عمران ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾ أي شديدا ثقيلا.

إشارة الى عاقبة أمر فرعون في عصيانه موسى ﷺ، وفي التعبير عن موسى بالرسول إشارة الى أن السبب الموجب لأخذ فرعون مخالفته أمر رسالته لا نفس موسى بما أنه موسى، وإذا كان السبب هو مخالفة الرسالة فليحذروا مخالفة رسالة محمد ﷺ.

كما أن وضع الظاهر موضع الضمير في قوله: «فعصى فرعون» للإيماء الى أن ما كان له من

العزة والعلو في الارض والتبجح بكثرة العدد وسعة المملكة ونفوذ المشية لم يغن عنه شيئاً ولم يدفع عنه عذاب الله فما الظن بهؤلاء المكذبين؟ وهم كما قال الله: ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ (ص / ١١).

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيباً ﴾ نسبة الاتقاء الى اليوم من المجاز العقلي والمراد اتقاء العذاب الموعود فيه. وعليه فيوماً مفعول به لتتقون، وقيل: مفعول «تتقون» محذوف و«يوماً» ظرف له والتقدير فكيف تتقون العذاب الكائن في يوم. وقيل: المفعول محذوف و«يوماً» ظرف للاتقاء وقيل غير ذلك.

وقوله: «يجعل الولدان شيباً» الشيب جمع أشيب مقابل الشاب. وجعل الولدان شيباً كناية عن شدة اليوم لا عن طوله.

قوله تعالى: ﴿السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ إشارة بعد إشارة الى شدة اليوم. والانفطار الانشقاق وتذكير الصفة لكون السماء جائز الوجهين يذكر ويؤنث. وضمير «به» لليوم. والباء بمعنى في أو للسببية. والمعنى السماء منشقة في ذلك اليوم أو بسبب ذلك اليوم أي بسبب شدته.

وقوله: «كان وعده مفعولاً» استئناف لتسجيل ما تقدم من الوعيد وأنه حتم مقضي ونسبة الوعد الى ضميره تعالى لعله للإشعار بأن لا يصلح لهذا الوعد إلا الله تعالى فيكفي فيه الضمير من غير حاجة الى ذكره باسمه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَآءَ اتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ الإشارة بهذه الى الآيات السابقة بما تشتمل عليه من القوارع والزواجر. والتذكرة الموعظة التي يذكر بها ما يعمل عليه.

وقوله: ﴿فَمَنْ شَآءَ ﴾ مفعول «شاء» محذوف والمعروف في مثل هذا المورد أن يقدر المفعول من جنس الجواب والسياق يلائمه. والتقدير فمن شاء أن يتخذ الى ربه سبيلاً اتخذ.

الخ. وقيل: المقدر الاتعاظ. والمراد باتخاذ السبيل اليه اتخاذ السبيل الى التقرب منه. والسبيل هو الايمان والطاعة هذا ما ذكره المفسرون.

ومن الممكن أن تكون هذه اشارة الى ما تقدم في صدر السورة من الآيات النادبة الى قيام الليل والتهجد فيه. والآية مسوقة لتوسعة الخطاب وتعميمه لغير النبي ﷺ من المؤمنين بعدما كان خطاب صدر الصورة مختصاً به ﷺ. والدليل على هذا التعميم قوله: «فمن شاء» الخ.

ويؤيد ما ذكرنا وقوع هذه الآية «ان هذه تذكرة» الخ؛ بعينها في سورة الدهر بعدما أشير الى صلاه الليل بقوله تعالى: «وسبحه ليلاً طويلاً» ويستنتج من ذلك أن صلاة الليل سبيل خاصة تهدي العبد الى ربه[1].

٢٠ ● إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ
وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ
تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ
سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ
يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَاقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَآتُوا الزَّكٰوةَ وَأَقْرِضُوا
اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ
اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ.

---

١. المزمل ١ ـ ١٩: بحث روائي في نزول سورة المزمل: قيام النبي ﷺ بالليل وطائفة من اصحابه؛ حالة رسول الله ﷺ حين تلقي الوحي.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ الى آخر الآية؛ الخطاب للنبي ﷺ وفي التعبير بقوله: «ربك» تلويح الى شمول الرحمة والعناية الإلهية، وكذا في قوله: «يعلم أنك تقوم» الخ؛ مضافاً الى ما فيه من لائحة الشكر قال تعالى: ﴿وكان سعيكم مشكورا﴾ (الدهر / ٢٢).

وقوله: ﴿تَقُومُ أَدْنىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ «أدنى» اسم تفضيل من الدنو بمعنى القرب، وقد جرى العرف على استعمال أدنى فيما يقرب من الشيء وهو أقل فيقال: إن عدتهم أدنى من عشرة إذا كانوا تسعة مثلاً دون ما لو كانوا أحد عشر فمعنى قوله: «أدنى من ثلثي الليل» أقرب من ثلثيه وأقل بقليل.

والواو العاطفة في قوله: «ونصفه وثلثه» لمطلق الجمع والمراد أنه يعلم أنك تقوم في بعض الليالي أدنى من ثلثي الليل وفي بعضها نصفه وفي بعضها ثلثه.

وقوله: ﴿وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ المراد المعية في الايمان و«من» للتبعيض فالآية تدل على أن بعضهم كان يقوم الليل كما كان يقومه النبي ﷺ. وقيل «من» بيانية، وهو كما ترى.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ في مقام التعليل لقوله: «إن ربك يعلم» والمعنى وكيف لا يعلم وهو الله الذي اليه الخلق والتقدير فيي تعيين قدر الليل والنهار تعيين ثلثهما ونصفهما وثلثيهما، ونسبة تقدير الليل والنهار الى اسم الجلالة دون اسم الرب وغيره لأن التقدير من شؤن الخلق والخلق الى الله الذي اليه ينتهي كل شيء.

وقوله: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ الاحصاء تحصيل مقدار الشيء وعدده والإحاطة به، وضمير «لن تحصوه» للتقدير أو للقيام

مقدار ثلث الليل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه، وإحصاء ذلك من اختلاف الليالى طولاً وقصراً في أيام السنة مما لا يتيسر لعامة المكلفين ويشتد عسراً لمن نام أول الليل وأراد القيام بأحد المقادير الثلاثة دون أن يحتاط بقيام جميع الليل أو ما في حكمه.

فالمراد بقوله: «علم أن لا تحصوه» علمه تعالى بعدم تيسر إحصاء المقدار الذي أُمروا بقيامه من الليل لعامه المكلفين.

والمراد بقوله: «فتاب عليكم» توبته تعالى ورجوعه اليهم بمعنى انعطاف الرحمة الإلهية عليهم بالتخفيف فلله سبحانه توبة على عباده ببسط رحمته عليهم وأثرها توفيقهم للتوبة أو لمطلق الطاعة أو رفع بعض التكاليف أو التخفيف قال تعالى: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ (التوبة / ١١٨).

كما أن له توبة عليهم بمعنى الرجوع إليهم بعد توبتهم وأثرها مغفرة ذنوبهم، وقد تقدمت الإشارة اليه.

والمراد بقوله: «فاقرءوا ما تيسر من القرآن» التخفيف في قيام الليل من حيث المقدار لعامة المكلفين تفريعاً على علمه تعالى أنهم لن يحصوه.

ولازم ذلك التوسعة في التكليف بقيام الليل من حيث المقدار حتى يسع لعامة المكلفين الشاق عليهم إحصاؤه دون النسخ بمعنى كون قيام الثلث أو النصف أو الأدنى من الثلثين لمن استطاع ذلك بدعة محرمة وذلك أن الإحصاء المذكور إنما لا يتيسر لمجموع المكلفين لا لجميعهم ولو امتنع لجميعهم ولم يتيسر لأحدهم لم يشرع من أصله ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

على أنه تعالى يصدق لنبيه ﷺ وطائفة من الذين معه قيام الثلث والنصف والأدى من الثلثين وينسب عدم التمكن من الاحصاء الى الجميع وهم لا محالة هم القائمون وغيرهم فالحكم إنما كان شاقاً على المجموع من حيث المجموع دون كل واحد فوسع في التكليف بقوله:

«فاقرءوا ما تيسر من القرآن» وسهل الأمر بالتخفيف ليكون لعامة المكلفين فيه نصيب مع بقاء الاصل المتشتمل عليه صدر السورة على حاله لمن تمكن من الاحصاء وأراده، والحكم استحبابي لسائر المؤمنين وإن كان ظاهر ما للنبي ﷺ من الخطاب الوجوب كما تقدمت الإشارة اليه.

وقوله: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إشارة الى مصلحة اخرى مقتضية للتخفيف في أمر القيام ثلث الليل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه، وراء كونه شاقاً على عامة المكلفين بالصفة المذكورة أولاً فإن الإحصاء المذكور للمريض والمسافر والمقاتل مع ما هم عليه من الحال شاق عسير جداً.

والمراد بالضرب في الأرض للابتغاء من فضل الله طلب الرزق بالمسافرة من أرض الى أرض للتجارة.

وقوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ تكرار للتخفيف تأكيداً، وضمير «منه» للقرآن، والمراد الإتيان بالصلاة على ما يناسب سعة الوقت الذي قاموا فيه.

والمراد بالصلاة المأمور بإقامتها الفريضة فإن كانت الآية مدنية فالفرائض الخمس اليومية وإن كانت مكية فبحسب ما كانت مفروضة من الصلاة، والمراد بالزكاة زكاة المفروضة، والمراد بإقراضه تعالى غير الزكاة من الإنفاقات المالية في سبيل الله.

وعطف الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقراض للتلويح الى أن التكاليف الدينية على حالها في وجوب الاهتمام بها والاعتناء بأمرها، فلا يتوهمن متوهم سريان التخفيف والمسامحة في جميع التكاليف فالآية نظيرة قوله في آية النجوى: ﴿فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله﴾ (المجادلة / ١٣).

وقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ «من خير» بيان للموصول، والمراد بالخير مطلق الطاعة أعم من الواجبة والمندوبة، و«هو» ضمير فصل أو تأكيد للضمير في «تجدوه».

والمعنى: والطاعة التي تقدمونها لأنفسكم ـ أي لتعيشوا بها في الآخرة ـ تجدونها عند الله ـ أي في يوم اللقاء ـ خيراً من كل ما تعملون أو تتركون وأعظم أجراً.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ختم الكلام بالأمر بالاستغفار، وفي قوله: «إن الله غفور رحيم» إشعار بوعد المغفرة والرحمة، ولا يبعد أن يكون المراد بالاستغفار الإتيان بمطلق الطاعات لأنها وسائل يتوسل بها الى مغفرة الله فالاتيان بها استغفار[1].

---

١. المزمل ٢٠: بحث روائي في قيام النبي ﷺ بالليل وطائفة من اصحابه: قراءة ما تيسر من القرآن، القرض الحسن لله تعالى.

سورة المدثر مكية وهي ست وخمسون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ يا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ .

٢ ❁ قُمْ فَأَنْذِرْ .

٣ ❁ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ .

٤ ❁ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ .

٥ ❁ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ .

٦ ❁ وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ .

٧ ❁ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ .

بيان:

تتضمن السورة أمر النبي ﷺ بالإنذار في سياق يلوح منه كونه من أوامر أوائل البعثة ثم الإشارة الى عظم شأن القرآن الكريم وجلالة قدره، والوعيد الشديد على من يواجهه

بالإنكار والرمي بالسحر ، وذم المعرضين عن دعوته .

والسورة مكية من العتائق النازلة في أوائل البعثة وظهور الدعوة حتى قيل : إنها أول سورة نزلت من القرآن وإن كان يكذبه نفس آيات السورة الصريحة في سبق قراءته ﷺ القرآن على القوم وتكذيبهم به وإعراضهم عنهم ورميهم له بأنه سحر يؤثر .

ولذا مال بعضهم الى أن النازل أولاً هي الآيات السبع الواقعة في أول السورة ولازمه كون السورة غير نازلة دفعة وهو وإن كان غير بعيد بالنظر الى متن الآيات السبع لكن يدفعه سياق أول سورة العلق الظاهر في كونه أول ما نزل من القرآن .

واحتمل بعضهم أن تكون السورة أول ما نزل على النبي ﷺ عند الأمر بإعلان الدعوة بعد إخفائها مدة في أول البعثة فهي في معنى قوله : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ (الحجر / ٩٤) ، وبذلك جمع بين ما ورد من أنها أول ما نزل ، وما ورد أنها نزلت بعد سورة العلق ، وما ورد أن سورتي المزمل والمدثر نزلتا معاً ، وهذا القول لا يتعدى طور الاحتمال .

وكيف كان فالمتيقن أن السورة من أوائل ما نزل على النبي ﷺ من السور القرآنية ، والآيات السبع التي نقلناها تتضمن الأمر بالإنذار وسائر الخصائل التي تلزمه مما وصاه الله به .

قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ المدثر بتشديد الدال والثاء أصله المتدثر اسم فاعل من التدثر بمعنى التغطي بالثياب عند النوم .

والمعنى : يا أيها المتغطي بالثياب للنوم خطاب للنبي ﷺ وقد كان على هذه الحال فخوطب بوصف مأخوذ من حاله تأنيساً وملاطفة نظير قوله : « يا أيها المزمل » .

قوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ الظاهر أن المراد به الأمر بالإنذار من غير نظر الى من ينذر فالمعنى افعل الإنذار ، وذكر بعضهم أن مفعول الفعل محذوف ، والتقدير أنذر عشيرتك

الأقربين لمناسبته لابتداء الدعوة كما ورد في سورة الشعراء.

وذكر آخرون أن المفعول المحذوف عام وهو جميع الناس لقوله: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ (سبأ / ٢٨).

ولم يذكر التبشير مع الإنذار مع أنهما كالمتلازمين في تمام الدعوة لأن السورة مما نزل في ابتداء الدعوة والإنذار هو الغالب إذ ذاك.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي انسب ربك الى الكبرياء والعظمة اعتقاداً وعملاً قولاً وفعلاً وهو تنزيهه تعالى من أن يعادله أو يفوقه شيء فلا شيء يشاركه أو يغلبه أو يمانعه، ولا نقص يعرضه، ولا وصف يحده.

ولذا ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن معنى التكبير: الله أكبر من أن يوصف، فهو تعالى اكبر من كل وصف نصفه به حتى من هذا الوصف، وهذا هو المناسب للتوحيد الإسلامي الذي يفوق ما نجده من معنى التوحيد في سائر الشرائع السماوية.

وهذا الذي ذكرناه هو الفرق بين كلمتي التكبير والتسبيح ـ الله أكبر وسبحان الله ـ فسبحان الله تنزيه له تعالى عن كل وصف عدمي مبني على النقص كالموت والعجز والجهل وغير ذلك، والله أكبر تنزيه مطلق له تعالى عن كل وصف نصفه به أعم من أن يكون عدمياً أو وجودياً حتى من نفس هذا الوصف لما أن كل مفهوم محدود في نفسه لا يتعدى الى غيره من المفاهيم وهو تعالى لا يحيط به حد. فافهم ذلك.

وقيل: المراد الأمر بالتكبير في الصلاة.

قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قيل: كناية عن إصلاح العمل؛ ولا يخلو من وجه فإن العمل بمنزلة الثياب للنفس بما لها من الاعتقاد فالظاهر عنوان الباطن. وكثيراً ما يكنى في كلامهم عن صلاح العمل بطهارة الثياب.

وقيل: كناية عن تزكية النفس وتنزيهها عن الذنوب والمعاصي.

وقيل : المراد تقصير الثياب لأنه أبعد من النجاسة ولو طالت وانجرت على الأرض لم يؤمن أن تتنجّس.

وقيل : المراد تطهير الأزواج من الكفر والمعاصي لقوله تعالى : ﴿هن لباس لكم﴾ (البقرة / ١٨٧).

وقيل : الكلام على ظاهره والمراد تطهير الثياب من النجاسات للصلاة والأقرب على هذا أن يجعل قوله : « وربك فكبر » إشارة الى تكبير الصلاة وتكون الآيتان مسوقتين لتشريع أصل الصلاة مقارناً للأمر بالدعوة.

ولا يرد عليه ما قيل : إن نزول هذه الآيات كان حيث لا صلاة أصلاً وذلك أن تشريع الفرائض الخمس اليومية على ما هي عليها اليوم وإن كان في ليله المعراج وهي جميعاً عشر ركعات ثم زيد عليها سبع ركعات إلا أن أصل الصلاة كان فمنذ أوائل البعثة كما يشهد به ذكرها في هذه السوره وسورتي العلق والمزمل ، ويدل عليه الروايات.

وقيل : المراد بتطهير الثياب التخلق بالأخلاق الحميدة والملكات الفاضلة.

وفي معنى تطهير الثياب أقوال أُخر أغمضنا عن نقلها لإمكان إرجاعها الى بعض ما تقدم من الوجوه ، وأرجح الوجوه المتقدمة أولها وخامسها.

قوله تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ قيل : الرجز بضم الراء وكسرها العذاب ، والمراد بهجره هجر سببه وهو الإثم والمعصية ، والمعنى اهجر الإثم والمعصية.

وقيل : الرجز اسم لكل قبيح مستقذر من الأفعال والأخلاق فالأمر بهجره أمر بترك كل ما يكرهه الله ولا يرتضيه مطلقاً ، أو أمر بترك خصوص الأخلاق الرذيلة الذميمة على تقدير أن يكون المراد بتطهير الثياب ترك الذنوب والمعاصي.

وقيل : الرجز هو الصنم فهو أمر بترك عبادة الأصنام.

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ الذي يعطيه سياق الآيات ويناسب المقام أن

يكون المراد بالمن تكدير الصنيعة بذكرها للمنعم عليه كما في قوله تعالى: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ (البقرة / ٢٦٤)، وقوله: ﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾ (الحجرات / ١٧) والمراد بالاستكثار رؤية الشيء وحسبانه كثيراً لا طلب الكثرة.

والمعنى: لا تمنن امتثالك لهذه الأوامر وقيامك بالانذار وتكبيرك ربك وتطهيرك ثيابك وهجرك الرجز حال كونك ترى ذلك كثيراً وتعجبه ـ فانما أنت عبد لا تملك من نفسك شيئاً إلا ما ملكك الله وأقدرك عليه وهو المالك لما ملكك والقادر على ما عليه أقدرك فله الأمر وعليك الامتثال ـ.

قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي لوجه ربك، والصبر مطلق يشمل الصبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، والمعنى ولوجه ربك فاصبر عندما يصيبك من المصيبة والأذى في قيامك بالإنذار وامتثالك هذه الأوامر واصبر على طاعة الله واصبر عن معصيته، وهذا معنى جامع لمتفرقات ما ذكروه في تفسير الآية كقول بعضهم: إنه أمر بنفس الفعل من غير نظر الى متعلقه، وقول بعضهم: إنه الصبر على أذى المشركين، وقول بعضهم: إنه الصبر على أداء الفرائض، الى غير ذلك[1].

٨ ● فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ.
٩ ● فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ.
١٠ ● عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ.
١١ ● ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً.
١٢ ● وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً.

---

١. المدثر ١ ـ ٧: بحث روائي في نزول سورة المدثر: نزول ملك الوحي لرسول الله: معنى تطهير الثياب، الرجز.

١٣ ● وَبَنِينَ شُهُوداً.

١٤ ● وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً.

١٥ ● ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ.

١٦ ● كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنَا عَنِيداً.

١٧ ● سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً.

١٨ ● إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ.

١٩ ● فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ.

٢٠ ● ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ.

٢١ ● ثُمَّ نَظَرَ.

٢٢ ● ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ.

٢٣ ● ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ.

٢٤ ● فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ.

٢٥ ● إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ.

٢٦ ● سَأُصْلِيهِ سَقَرَ.

٢٧ ● وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ.

٢٨ ● لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ.

٢٩ ● لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ.

٣٠ ● عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ.

٣١ ● وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا

فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهٰذَا مَثَلاً كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرىٰ لِلْبَشَرِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ النقر القرع والناقور ما يقرع فيه للتصويت، والنقر في الناقور كالنفخ في الصور كناية عن بعث الموتى وإحضارهم لفصل القضاء يوم القيامة والجملة شرطية جزاؤها قوله: «فذلك» الخ.

قوله تعالى: ﴿فَذٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ الاشارة بقوله: «فذلك» الى زمان نقر الناقور ولا يبعد أن يكون المراد بيومئذ يوم إذ يرجعون الى الله للحساب والجزاء أو يوم اذ يرجع الخلائق الى الله فيكون ظرفا ليوم نقر الناقور فمن الجائز أن تعتبر قطعة من الزمان ظرفاً لبعض أجزائه كالسنة تجعل ظرفاً للشهر والشهر يجعل ظرفاً لليوم لنوع من العناية أو يعتبر زمان متعدداً مختلفاً باختلاف صفاته أو الحوادث الواقعة فيه ثم يجعل باعتبار بعض صفاته ظرفا لنفسه باعتبار صفة اخرى.

والمعنى فزمان نقر الناقور الواقع في يوم رجوع الخلائق الى الله زمان عسير على الكافرين أو زمان نقر الناقور زمان عسير على الكافرين في يوم الرجوع - بناء على كون قوله: «يومئذ» قيداً لقوله: «فذلك» أو لقوله: «يوما» -.

وقال في الكشاف: فان قلت: بمَ انتصب اذا وكيف صح أن يقع يومئذ ظرفا ليوم عسير؟

قلت: انتصب اذا بما دل عليه الجزاء لأن المعنى اذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين، والذي أجاز وقوع يومئذ ظرفا ليوم عسير أن المعنى فذلك وقت النقر وقوع يوم عسير لأن يوم القيامة يأتي ويقع حين ينقر في الناقور. انتهى.

وقال: ويجوز أن يكون يومئذ مبنيا مرفوع المحل بدلا من ذلك، ويوم عسير خبر كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير. انتهى.

وقوله: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ وصف آخر ليوم مؤكد لعسره ويفيد أنه عسير من كل وجه لا من وجه دون وجه.

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ كلمة تهديد وقد استفاض النقل أن الآية وما يتلوها الى تمام عشرين آية نزلت في الوليد بن المغيرة، وستأتي قصته في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿وَحِيداً﴾ حال من فاعل «خلقت» ومحصل المعنى: دعني ومن خلقته حال كوني وحيداً لا يشاركني في خلقه أحد ثم دبرت أمره أحسن التدبير. ولا تحل بيني وبينه فأنا أكفيه.

ومن المحتمل أن يكون حالاً من مفعول «ذرني». وقيل حال من مفعول خلقت المحذوف وهو ضمير عائد الى الموصول، ومحصل المعنى دعني ومن خلقته حال كونه وحيداً لا مال له ولا بنون، واحتمل أيضاً أن يكون «وحيداً» منصوباً بتقدير «أذم» وأحسن الوجوه أولها.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً﴾ أي مبسوطاً كثيراً أو ممدوداً بمدد النماء.

قوله تعالى: ﴿وَبَنِينَ شُهُوداً﴾ أي حضوراً يشاهدهم ويتأيد بهم، وهو عطف على قوله: «مالاً».

قوله تعالى: ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾ التمهيد التهيئة ويتجوز به عن بسطة المال والجاه وانتظام الامور.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنَا عَنِيداً﴾ أي ثم يطمع أن أزيد فيما جعلت له من المال والبنين ومهدت له من التمهيد.

وقوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع له، وقوله: «إنه كان» الخ: تعليل المردع، والعنيد المعاند المباهي بما عنده، قيل، مازال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك.

قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ الارهاق الغشيان بالعنف، والصعود عقبة الجبل التي يشق مصعدها شبه ما سيناله من سوء الجزاء ومر العذاب بغشيانه عقبة وعرة صعبة الصعود.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ التفكير معروف والتقدير عن تفكير نظم معان وأوصاف في الذهن بالتقديم والتأخير والوضع والرفع لاستنتاج غرض مطلوب، وقد كان الرجل يهوى أن يقول في أمر القرآن شيئاً يبطل به دعوته ويرضي به قومه المعاندين ففكر فيه أيقول: شعر أو كهانة أو هذرة جنون أو اسطورة فقدّر أن يقول: سحر من كلام البشر لأنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه.

وقوله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ دعا عليه على ما يعطيه السياق نظير قوله: ﴿قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾ (التوبة / ٣٠).

وقوله: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تكرار للدعاء تأكيداً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَـذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ تمثيل لحاله بعد التفكير والتقدير وهو من ألطف التمثيل وأبلغه.

فقوله: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي ثم نظر بعد التفكير والتقدير نظرة من يريد أن يقضي في أمر سئل أن ينظر فيه ـ على ما يعطيه سياق التمثيل ـ.

وقوله: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ العبوس تقطيب الوجه، قال في المجمع: وعبس يعبس

عبوساً إذا قبض وجهه والعبوس والتكليح والتقطيب نظائر وضدها الطلاقة والبشاشة ، وقال : والبسور بدء التكرّه في الوجه انتهى ، فالمعنى ثم قبض وجهه وأبدا التكره في وجهه بعدما نظر .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ الإدبار عن شيء الإعراض عنه ، والاستكبار الامتناع كبراً وعتواً ، والأمران أعني الإدبار والاستكبار من الأحوال الروحية ، وإنما رتبا في التمثيل على النظر والعبوس والبسور وهي أحوال صورية محسوسة لظهورهما بقوله : « إن هذا إلا سحر » الخ ؛ ولذا عطف قوله : « فقال إن هذا إلا سحر يؤثر » بالفاء دون « ثم » .

وقوله : ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أي أظهر إدباره واستكباره بقوله مفرعاً عليه : « إنهذا ـ أي القرآن ـ إلا سحر يؤثر » أي يروى ويتعلم من السحرة .

وقوله : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ أي ليس بكلام الله كما يدعيه محمد ﷺ .

قيل : إن هذه الآية كالتأكيد للآية السابقة وإن اختلفتا معنى لأن المقصود منهما نفي كونه قرآناً من كلام الله ، وباعتبار الاتحاد في المقصود لم تعطف الجملة على الجملة .

قوله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أي سادخله سقر وسقر من أسماء جهنم في القرآن أو دركة من دركاتها ، وجملة « سأصليه سقر » بيان أو بدل من قوله : « سارهقه صعوداً » .

وقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ تفخيم لأمرها وتهويل .

وقوله : ﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ قضية إطلاق النفي أن يكون المراد أنها لا تبقي شيئاً ممن نالته إلا أحرقته ، ولا تدع أحداً ممن أُلقي فيها إلا نالته بخلاف نار الدنيا التي ربما تركت بعض ما أُلقي فيها ولم تحرقه ، وإذا نالت إنساناً مثلاً نالت جسمه وصفاته الجسمية ولم تنل شيئاً من روحه وصفاته الروحية ، وأما سقر فلا تدع أحداً ممن أُلقي فيها إلا نالته قال تعالى : ﴿ تدعو من أدبر وتولى ﴾ (المعارج / ١٧) ، وإذا نالته لم تبق منه شيئاً من روح أو جسم إلا أحرقته قال

تعالى: ﴿نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة﴾ (الهمزة / ٧).

ويمكن أن يراد أنها لا تبقيهم أحياء ولا تتركهم يموتون فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ (الأعلى / ١٣).

وقيل: المعنى لا تبقي شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته، وإذا هلك لم تذره هالكاً حتى يعاد فيعذب ثانياً.

وقيل: المراد أنها لا تبقي لهم لحماً ولا تذر عظماً، وقيل غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ اللواحة من التلويح بمعنى تغيير اللون الى السواد وقيل: الى الحمرة، والبشر جمع بشرة بمعنى ظاهر الجلد.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ يتولون أمر عذاب المجرمين وقد أُبهم ولم يصرح أنهم من الملائكة أو غيرهم غير أن المستفاد من آيات القيامة ـ وتصرح به الآية التالية ـ أنهم من الملائكة.

وقد استظهر بعضهم أن مميز قوله: «تسعة عشر» ملكاً ثم قال: ألا ترى العرب وهم الفصحاء كيف فهموا منه ذلك فقد روي عن ابن عباس أنها لما نزلت «عليها تسعة عشر» قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أُمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وانتم الدهم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأسد ابن اسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش: انا اكفيكم سبعة عشر فاكفوني انتم اثنين انتهى، وانت ترى ان لا دليل في كلامه على ما يدعيه. على انه سمى الواحد من الخزنة رجلاً ولا يطلق الرجل على الملك البتة ولا سيما عند المشركين الذين قال تعالى فيهم: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا﴾ (الزخرف / ١٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ الى آخر الآية: سياق الآية يشهد على انهم تكلموا فيما ذكر في الآية من عدد خزان النار فنزلت هذه الآية، ويتأيد بذلك

ما ورد من سبب النزول وسيوافيك في البحث الروائي التالي .

فقوله : « وما جعلنا اصحاب النار إلا ملائكة » المراد بأصحاب النار خزنتها الموكلون عليها المتولون لتعذيب المجرمين فيها كما يفيده قوله : « عليها تسعة عشر » ويشهد بذلك قوله بعد : « وما جعلنا عدتهم إلا فتنة » الخ .

ومحصل المعنى : انا جعلناهم ملائكة يقدرون على ما امروا به كما قال : ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (التحريم / ٦) فليسوا من البشر حتى يرجو المجرمون أن يقاوموهم ويطيقوهم .

وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الفتنة المحنة والاختبار . ذكروا أن المراد بالجعل الجعل بحسب الإخبار دون الجعل بحسب التكوين فالمعنى وما أخبرنا عن عدتهم أنها تسعة عشر إلا ليكون فتنة للذين كفروا ، ويؤيده ذيل الكلام : « ليستيقن الذين اوتوا الكتاب » الخ .

وقوله : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ الاستيقان وجدان اليقين في النفس أي ليوقن أهل الكتاب بأن القرآن النازل عليك حق حيث يجدون ما أخبرنا به من عدة أصحاب النار موافقاً لما ذكر فيما عندهم من الكتاب .

وقوله : ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً ﴾ أي بسبب ما يجدون من تصديق أهل الكتاب ذلك .

وقوله : ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً ﴾ اللام في « ليقول » للعاقبة بخلاف اللام في « ليستيقن » فللتعليل بالغاية . والفرق أن قولهم : « ماذا أراد الله بهذا مثلا » تحقير وتهكم وهو كفر لا يعد غاية لفعله سبحانه إلا بالعرض بخلاف الاستيقان الذي هو من الايمان . ولعل اختلاف المعنيين هو الموجب لاعادة اللام في قوله : « وليقول » .

وقد فسروا «الذين في قلوبهم مرض» بالشك والجحود بالمنافقين وفسروا الكافرين بالمتظاهرين بالكفر من المشركين وغيرهم.

وقولهم: «ماذا أراد الله بهذا مثلاً» أرادوا به التحقير والتهكم يشيرون بهذا الى قوله تعالى: «عليها تسعة عشر» والمثل الوصف، والمعنى ما الذي يعنيه من وصف الخزنة بأنهم تسعة عشر؟ فهذه العدة القليلة كيف تقوى على تعذيب أكثر الثقلين من الجن والانس[1]؟

وقوله: ﴿كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ الإشارة بذلك الى مضمون قوله: «وما جعلنا عدتهم إلا فتنة» الخ.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ علق تعالى العلم المنفي بالجنود ـ وهي الجموع الغليظة التي خلقهم وسائط لإجراء أوامره ـ لا بخصوص عدتهم فأفاد بإطلاقه أن العلم بحقيقتهم وخصوصيات خلقتهم وعدتهم وما يعملونه من عمل ودقائق الحكمة في جميع ذلك يختص به تعالى لا يشاركه فيه أحد، فليس لأحد أن يستقل عدتهم او يستكثر او يطعن في شيء مما يرجع الى صفاتهم وهو جاهل بها.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ الضمير راجع الى ما تقدم من قوله: «عليها تسعة عشر» وتأنيثه لتأنيث الخبر، والمعنى ان البشر لا سبيل لهم الى العلم بجنود ربك وإنما اخبرنا عن خزنة النار ان عدتهم تسعة عشر ليكون ذكرى لهم يتعظون بها.

وفي الآية دلالة على أن الخطابات القرآنية لعامة البشر[2].

٣٢ ● كَلَّا وَالْقَمَرِ.

---

١. المدثر ٨ ـ ٣١: ذنابة لما تقدم من الكلام في النفاق.

٢. المدثر ٨ ـ ٣١: بحث روائي حول مناظرة الوليد بن المغيرة مع رسول الله ﷺ في القرآن: تغيير حالة الوليد: قول الوليد في القرآن.

٣٣ ● وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ.

٣٤ ● وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ.

٣٥ ● إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ.

٣٦ ● نَذِيراً لِلْبَشَرِ.

٣٧ ● لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ.

٣٨ ● كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ.

٣٩ ● إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ.

٤٠ ● فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ.

٤١ ● عَنِ الْمُجْرِمِينَ.

٤٢ ● مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ.

٤٣ ● قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ.

٤٤ ● وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ.

٤٥ ● وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ.

٤٦ ● وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ.

٤٧ ● حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ.

٤٨ ● فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردع وإنكار لما تقدم قال في الكشاف: انكار بعد أن جعلها ذكرى أن

يكون لهم ذكرى لانهم لا يتذكرون، أو ردع لمن ينكر أن يكون إحدى الكبر نذيراً. انتهى. فعلى الأول إنكار لما تقدم وعلى الثاني ردع لما سيأتي، وهناك وجه آخر سيوافيك.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ قسم بعد قسم، وإدبار الليل مقابل إقباله، وإسفار الصبح انجلاؤه وانكشافه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ ذكروا ان الضمير لسقر، والكبر جمع كبرى، والمراد بكون سقر احدى الكبر إنها إحدى الدواهي الكبر لا يعادلها غيرها من الدواهي كما يقال: هو أحد الرجال أي لا نظير له بينهم، والجملة جواب للقسم.

والمعنى اقسم بكذا وكذا إن سقر لإحدى الدواهي الكبر ـ أكبرها انذاراً للبشر.

ولا يبعد أن يكون «كلا» ردعاً لقوله في القرآن: «إن هو إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر» ويكون ضمير «إنها» للقرآن بما أنه آيات او من باب مطابقة اسم إن لخبرها.

والمعنى: ليس كما قال اقسم بكذا وكذا إن القرآن ـ آياته ـ لإحدى الآيات الإلهية الكبرى انذاراً للبشر.

وقيل: الجملة «إنها لاحدى الكبر» تعليل للردع، والقسم معترض للتأكيد لا جواب له أو جوابه مقدر يدل عليه كلا.

قوله تعالى: ﴿نَذِيراً لِلْبَشَرِ﴾ مصدر بمعنى الإنذار منصوب للتمييز، وقيل: حال مما يفهم من سياق قوله: «إنها لإحدى الكبر» أي كبرت وعصمت حال كونها إنذاراً أي منذرة.

قوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ تعميم للانذار «ولمن شاء» بدل من البشر، و«ان يتقدم» الخ؛ مفعول «شاء» والمراد بالتقدم والتأخر: الاتباع للحق ومصداقه الايمان والطاعة، وعدم الاتباع ومصداقه الكفر والمعصية.

والمعنى: نذيراً لمن اتبع منكم الحق ولمن لم يتبع أي لجميعكم من غير استثناء.

وقيل «أن يتقدم» في موضع الرفع على الابتداء و«لمن شاء» خبره كقولك لمن توضأ أن

يصلي، والمعنى مطلق لمن شاء التقدم او التأخر أن يتقدم او يتأخر، وهو كقوله: «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» والمراد بالتقدم والتأخر السبق الى الخير والتخلف عنه انتهى.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ الباء بمعنى مع أو للسببية أو للمقابلة و «رهينة» بمعنى الرهن على ما ذكره الزمخشري قال في الكشاف: رهينة ليست بتأنيث رهين في قوله: «كل امرىء بما كسب رهين» لتأنيث النفس لأنه لو قصدت لقيل: رهين لأن فعيلاً بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث، وإنما هي اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهن. انتهى.

وكأن العناية في عد كل نفس رهينة أن لله عليها حق العبودية بالإيمان والعمل الصالح فهي رهينة محفوظة محبوسة عند الله حتى توفي دينه وتؤدي حقه تعالى فإن آمنت وصلحت فكت وأُطلقت، وإن كفرت وأجرمت وماتت على ذلك كانت رهينة محبوسة دائماً، وهذا غير كونها رهين عملها ملازمة المكتسبت من خير وشر كما تقدم في قوله تعالى: ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾ (الطور / ٢١).

والآية في مقام بيان وجه التعميم المستفاد من قوله: «نذيراً للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر» فإن كون النفس الإنسانية رهينة بما كسبت يوجب على كل نفس أن تتقي النار التي ستحبس فيها إن أجرمت ولم تتبع الحق.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ هم الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم يوم الحساب وهم أصحاب العقائد الحقة والأعمال الصالحة من متوسطي المؤمنين، وقد تكرر ذكرهم وتسميتهم بأصحاب اليمين في مواضع من كلامه تعالى، وعلى هذا فالاستثناء متصل.

والمتحصل من مجموع المستثنى منه والمستثنى انقسام النفوس ذوات الكسب الى نفوس رهينة بما كسبت وهي نفوس المجرمين، ونفوس مفكوكة من الرهن مطلقة وهي نفوس أصحاب اليمين، وأما السابقون المقربون وهم الذين ذكرهم الله في مواضع من كلامه وعدّهم

ثالثة الطائفتين وغيرهما كما في قوله تعالى: ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة ـ الى أن قال ـ والسابقون السابقون اولئك المقربون﴾ (الواقعة / ١١)، فهؤلاء قد استقروا في مستقر العبودية لا يملكون نفساً ولا عمل نفس فنفوسهم لله وكذلك أعمالهم فلا يحضرون ولا يحاسبون قال تعالى: ﴿فانهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين﴾ (الصافات / ١٢٨)، فهم خارجون عن المقسم رأساً.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ «في جنات» خبر لمبتدء محذوف وتنوين جنات للتعظيم، والتقدير هم في جنات لا يدرك وصفها، ويمكن أن يكون حالاً من أصحاب اليمين.

وقوله: ﴿يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي يتساءل جمعهم عن جمع المجرمين.

وقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ أي ما أدخلكم في سقر بيان لتساؤلهم من بيان الجملة بالجملة، أو بتقدير القول أي قائلين ما سلككم في سقر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ضمير الجمع للمجرمين، والمراد بالصلاة التوجه العبادي الخاص الى الله سبحانه فلا يضره اختلاف الصلاة كماً وكيفاً باختلاف الشرائع السماوية الحقة.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ المراد بإطعام المسكين الإنفاق على فقراء المجتمع بما يقوم به صلبهم ويرتفع به حاجتهم، وإطعام المسكين إشاره الى حق الناس عملاً كما أن الصلاة إشارة الى حق الله كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ المراد بالخوض الاشتغال بالباطل قولاً أو فعلاً والغور فيه.

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ وهو يوم الجزاء فهذه خصال أربع من طبع المجرم أن يبتلي بها كلاً أو بعضاً، ولما كان المجيب عن التساؤل جمع المجرمين صحت نسبة الجميع

الى الجميع وإن كان بعضهم مبتلى ببعضها دون بعض .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ أَتَيٰنَا الْيَقِينُ ﴾ قيد للتكذيب ، وفسروا اليقين بالموت لكونه مما لا شك فيه فالمعنى وكنا في الدنيا نكذب بيوم الجزاء حتى أتانا الموت فانقطعت به الحياة الدنيا أي كنا نكذب به ما دامت الحياة .

وقيل : المراد به اليقين الحاصل بحقية يوم الجزاء بمشاهدة آيات الآخرة ومعاينة الحياة البرزخية حين الموت وبعده ، وهو معنى حسن .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ تقدم في بحث الشفاعة أن في الآية دلالة على أن هناك شافعين يشفعون فيشفّعون لكن لا تنفع هؤلاء شفاعتهم لأنهم محرومون من نيلها .

وقد أوردنا جملة من أخبار الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب .

٤٩ * فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ .

٥٠ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ .

٥١ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ .

٥٢ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً .

٥٣ * كَلَّا بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ .

٥٤ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ .

٥٥ * فَمَنْ شَآءَ ذَكَرَهُ .

٥٦ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَآءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ .

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ تفريع على ما تقدم من التذكرة والموعظة، والاستفهام للتعجيب، و«لهم» متعلق بمحذوف والتقدير فما كان لهم: و«معرضين» حال من ضمير «لهم» و«عن التذكرة» متعلق بمعرضين.

والمعنى: فإذا كان كذلك فأي شيء كان ـ عرض ـ للمشركين الذين يكذبون بتذكرة القرآن حال كونهم معرضين عنها أي كان من الواجب عليهم أن يصدقوا ويؤمنوا لكنهم أعرضوا عنها وهو من العجب.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ تشبيه لهم من حيث حالهم في الإعراض عن التذكرة، والحمر جمع حمار، والمراد الحمر الوحشية والاستنفار بمعنى النفرة والقسورة الأسد والصائد، وقد فسر بكل من المعنيين.

والمعني: معرضين عن التذكرة كأنهم حمر وحشية نفرت من أسد أو من الصائد.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِيءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾ المراد بالصحف المنشرة الكتاب السماوي المتشمل على الدعوة الحقة.

وفي الكلام إضراب عما ذكر من إعراضهم، والمعنى ليس إعراضهم عن التذكرة لمجرد النفرة بل يريد كل امرىء منهم أن ينزل عليه كتاب من عند الله مشتمل على ما تشتمل عليه دعوة القرآن.

وهذه النسبة اليهم كناية عن استكبارهم على الله سبحانه أنهم إنما يقبلون دعوته ولا يردونها لو دعا كل واحد منهم بإنزال كتاب سماوي اليه مستقلاً وأما الدعوة من طريق الرسالة فليسوا يستجيبونها وإن كانت حقة مؤيدة بالآيات البينة.

فالآيه في معنى ما حكاه الله سبحانه من قولهم: ﴿لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أُوتي رسل

الله ﴾ (الأنعام / ١٢٤). وفي معنى قول الامم لرسلهم «إن أنتم إلا بشر مثلنا» على ما قررنا من حجتهم على نفي رسالة الرسل.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾ ردع لهم بما يريدونه من نزول كتاب سماوي على كل واحد منهم فإن دعوة الرسالة مؤيدة بآيات بينة وحجج قاطعة لا تدع ريباً لمرتاب فالحجة تامة قائمة على الرسول وغيره على حد سواء من غير حاجة الى أن يؤتى كل واحد من الناس المدعوين صحفاً منشرة.

على أن الرسالة تحتاج من طهارة الذات وصلاحية النفس الى ما يفقده نفوس سائر الناس كما هو مدلول جوابه تعالى في سورة الأنعام عن قولهم: ﴿لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أُوتي رسل الله﴾ بقوله: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

وقوله: «بل لا يخافون الآخرة» إضراب عن قوله: «يريد كل امرىء منهم» الخ؛ والمراد أن اقتراحهم نزول كتاب على كل امرىء منهم قول ظاهري منهم يريدون به صرف الدعوة عن أنفسهم، والسبب الحقيقي لكفرهم وتكذيبهم بالدعوة أنهم لا يخافون الآخرة، ولو خافوها لآمنوا ولم يقترحوا آية بعد قيام الحجة بظهور الآيات البينات.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ ردع ثان لاقتراحهم نزول كتاب سماوي لكل امرىء منهم، والمعنى لا ننزل كتاباً كذلك إن القرآن تذكرة وموعظة نعظهم به لا نريد به أزيد من ذلك، وأثر ذلك ما أعد للمطيع والعاصي عندنا من الجزاء.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي فمن شاء اتعظ به فإنما هي دعوة في ظرف الاختيار من غير إكراه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ دفع لما يمكن أن يتوهموه من قوله تعالى: «فمن شاء ذكره» أن الأمر اليهم وأنهم مستقلون في إرادتهم وما يترتب عليها من أفعالهم فإن لم يشأوا الذكر ولم يذكروا غلبوه تعالى

فيما أراد وأعجزوه فيما شاء من ذكرهم.

والمحصل من الدفع أن حكم القدر جاء في أفعالهم كغيرها من الحوادث، وتذكرهم إن تذكروا وإن كان فعلاً اختيارياً صادراً عنهم باختيارهم من غير إكراه فالمشية الإلهية متعلقة به بما هو اختياري بمعنى أن الله تعالى يريد بارادة تكوينية أن يفعل الانسان الفعل الفلاني بإرادته واختياره فالفعل اختياري ممكن بالنسبة الى الانسان وهو بعينه متعلق الارادة الإلهية ضروري التحقيق بالنسبة اليها ولولاها لم يتحقق.

وقوله: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوىٰ وَأَهْلُ المَغْفِرَةِ﴾ أي أهل لأن يتق منه لأن له الولاية المطلقة على كل شيء، وبيده سعادة الإنسان وشقاوته، وأهل لأن يغفر لمن اتقاه لأنه غفور رحيم.

سورة القيامة مكية وهي اربعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيٰمَةِ.

٢ ❁ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ.

٣ ❁ أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَن لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ.

٤ ❁ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ.

٥ ❁ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ.

٦ ❁ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيٰمَةِ.

٧ ❁ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ.

٨ ❁ وَخَسَفَ الْقَمَرُ.

٩ ❁ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ.

١٠ ❁ يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ.

١١ ❁ كَلَّا لا وَزَرَ.

١٢ • إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ.

١٣ • يُنَبَّؤُا الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ.

١٤ • بَلِ الإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ.

١٥ • وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ.

بيان:

يطوف بيان السورة حول القيامة الكبرى فتنبيء بوقوع يوم القيامة أولاً ثم تصفه ببعض أشراطه تارة، وبإجمال ما يجرى على الإنسان اخرى، وينبيء أن المساق اليه يبدأ من يوم الموت، وتختتم بالاحتجاج على القدرة على الإعادة بالقدرة على الابتداء.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيٰمَةِ﴾ إقسام بيوم القيامة سواء قبل بكون «لا اقسم» كلمة قسم أو بكون لا زائدة أو نافية على اختلاف الأقوال.

قوله تعالى: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ إقسام ثان على ما يقتضيه السياق ومشاكلة اللفظ فلا يعبأ بما قيل: أنه نفي الإقسام وليس بقسم، والمراد اقسم بيوم القيامة ولا أُقسم بالنفس اللوامة.

والمراد بالنفس اللوامة نفس المؤمن التي تلومه في الدنيا على المعصية والتثاقل في الطاعة وتنفعه يوم القيامة.

وقيل: المراد به النفس الانسانية أعم من المؤمنة الصالحة والكافرة الفاجرة فإنها تلوم الانسان يوم القيامة أما الكافرة فانها تلومه على كفره وفجوره، وأما المؤمنة فانها تلومه على

قلة الطاعة وعدم الاستكثار من الخير.

وقيل: المراد نفس الكافر الذي تلومه يوم القيامة على ما قدمت من كفر ومعصية قال تعالى: ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ (يونس / ٥٤).

ولكل من الأقوال وجه.

وجواب القسم محذوف يدل عليه الآيات التالية، والتقدير ليبعثن. وإنما حذف للدلالة على تفخيم اليوم وعظمة أمره قال تعالى: ﴿ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾ (الأعراف / ١٨٧)، وقال: ﴿إن الساعة آتية أكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ (طه / ١٥)، وقال: ﴿عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم﴾ (النباء / ١).

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ الحسبان الظن، وجمع العظام كناية عن الاحياء بعد الموت، والاستفهام للتوبيخ، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ أي بلى نجمعها «وقادرين» حال من فاعل مدخول بلى المقدر، والبنان أطراف الأصابع وقيل: الأصابع وتسوية البنان تصويرها على ما هي عليها من الصور، والمعنى بلى نجمعها والحال أنا قادرون على أن نصور بنانه على صورها التي هي عليها خلقنا الأول.

وتخصيص البنان بالذكر ـ لعله ـ للاشارة الى عجيب خلقها بما لها من الصور وخصوصيات التركيب والعدد تترتب عليها فوائد جمة لا تكاد تحصى من أنواع القبض والبسط والأخذ والرد وسائر الحركات اللطيفة والأعمال الدقيقة والصنائع الظريفة التي يمتاز بها الانسان من سائر الحيوان مضافاً الى ما عليها من الهيئات والخطوط التي لا يزال ينكشف للانسان منها سر بعد سر.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ قال الراغب: الفجر شق الشيء شقاً واسعاً. قال: والفجور شق ستر الديانة يقال: فجر فجوراً فهو فاجر وجمعه فجار وفجرة.

انتهى، و«أمام» ظرف مكان استعير لمستقبل الزمان، والمراد من فجوره أمامه فجوره مدى عمره ومادام حياً، وضمير «أمامه» للانسان.

وقوله: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ تعليل ساد مسد معلله وهو التكذيب بالبعث والاحياء بعد الموت، و«بل» إضراب عن حسبانه عدم البعث والإحياء بعد الموت.

والمعنى: أنه لا يحسب أن لن نجمع عظامه بل يريد أن يكذب بالبعث ليفجر مدى عمره إذ لا موجب للايمان والتقوى لو لم يكن هناك بعث للحساب والجزاء.

هذا ما يعطيه السياق في معنى الآية، ولهم وجوه أُخر ذكروها في معى الآيه بعيدة لا تلائم السياق أغمضنا عن ذكرها.

وذكر الانسان في الآية وضع الظاهر موضع الضمير والنكتة فيه زيادة التوبيخ والمبالغة في التقريع، وقد كرر ذلك في الآية وما يتلوها من الآيات أربع مرات.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ﴾ الظاهر أنه بيان لقوله: «بل يريد الانسان ليفجر أمامه» فيفيد التعليل وأن السائل في مقام التكذيب والسؤال سؤال تكذيب إذ من الواجب على من دعي الى الإيمان والتقوى؛ وأنذر بهذا النبأ العظيم مع دلالة الآيات البينة وقيام الحجج القاطعة أن يتخذ حذره ويتجهز بالايمان والتقوى ويتهيأ للقاء اليوم قريباً كان أو بعيداً فكل ما هو آت قريب لا أن يسأل متى تقوم الساعة؟ وأيان يوم القيامة؟ فليس إلا سؤال مكذب مستهزىء.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ ذكر جملة من أشراط الساعة، وبريق البصر تحيره في إبصاره ودهشته، وخسوف القمر زوال نوره.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ أي أين موضع الفرار، وقوله: «أين المفر» مع ظهور السلطنة الإلهية له وعلمه بأن لا مفر ولا فرار يومئذ من باب ظهور

ملكاته يومئذ فقد كان في الدنيا يسأل عن المفر إذا وقع في شدة أو هددته مهلكة وذلك كإنكارهم الشرك يومئذ وحلفهم كذباً قال تعالى: ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ (الانعام / ٢٣)، وقال: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ﴾ (المجادلة / ١٨).

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ ردع عن طلبهم المفر، والوزر الملجأ من جبل أو حصن أو غيرهما، وهو من كلامه تعالى لا من تمام كلام الإنسان.

قوله تعالى: ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وتقديم «الى ربك» وهو متعلق بقوله: «المستقر» يفيد الحصر فلا مستقر الى غيره فلا وزر ولا ملجأ يلتجأ اليه فيمنع عنه.

وذلك أن الإنسان سائر اليه عالى كما قال: ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ (الإنشقاق / ٦) وقال: ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ (العلق / ٨) وقال: ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ (النجم / ٤٢) فهو ملاقي ربه راجع ومنته اليه لا حاجب يحجبه عنه ولا مانع يمنعه منه واما الحجاب الذي يشير اليه قوله: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ (المطففين / ١٥) فسياق الآيتين يعطي ان المراد به حجاب الحرمان من الكرامة لا حجاب الجهل او الغيبة.

ويمكن ان يكون المراد بكون مستقره اليه رجوع امر ما يستقر فيه من سعادة او شقاوة وجنة او نار الى مشيته تعالى فمن شاء جعله في الجنة وهم المتقون ومن شاء جعله في النار وهم المجرمون قال تعالى: ﴿ يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ﴾ (المائدة / ٤٠).

ويمكن ان يراد به ان استقرارهم يومئذ الى حكمه تعالى فهو النافذ فيهم لا غير قال تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ (القصص / ٨٨).

قوله تعالى: ﴿ يُنَبَّؤُا الإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ المراد بما قدم واخر ما عمله

من حسنة أو سيئة في أول عمره وآخره او ما قدمه على موته من حسنة او سيئة وما اخر من سنة حسنة سنها او سنة سيئة فيثاب بالحسنات ويعاقب على السيئات.

قوله تعالى: ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ إضراب عن قوله: «ينبؤ الانسان» الخ؛ والبصيرة رؤية القلب والإدراك الباطني وإطلاقها على الانسان من باب زيد عدل او التقدير الانسان ذو بصيرة على نفسه.

وقيل: المراد بالبصيرة الحجة كما في قوله تعالى: ﴿ما انزل هؤلاء إلا رب السماوات والارض بصائر﴾ (الإسراء / ١٠٢) والانسان نفسه حجة على نفسه يومئذ حيث يسأل عن سمعه وبصره وفؤاده ويشهد عليه سمعه وبصره وجلده ويتكلم يداه ورجلاه، قال تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤلا﴾ (الإسراء / ٣٦)، وقال: ﴿شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم﴾ (حم السجدة / ٢٠). وقال: ﴿وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم﴾ (يس / ٦٥).

وقوله: ﴿ولو الق معاذيره﴾ المعاذير جمع معذرة وهي ذكر موانع تقطع عن الفعل المطلوب، والمعنى هو ذو بصيرة على نفسه ولو جادل عن نفسه واعتذر بالمعاذير لصرف العذاب عنها.

١٦ • لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ.

١٧ • إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ.

١٨ • فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ.

١٩ • ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ.

٢٠ • كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ.

٢١ ● وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ.

٢٢ ● وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ.

٢٣ ● إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ.

٢٤ ● وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ.

٢٥ ● تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ.

٢٦ ● كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ.

٢٧ ● وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ.

٢٨ ● وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ.

٢٩ ● وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ.

٤٠ ● أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ـ الى قوله ـ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيانَهُ﴾ الذي يعطيه سياق الآيات الأربع بما يحفها من الآيات المتقدمة والمتأخرة الواصفة ليوم القيامة أنها معترضة متضمن أدباً إلهياً كلف النبي ﷺ أن يتأدب به حينما يتلقى ما يوحى اليه من القرآن الكريم فلا يبادر الى قراءة ما لم يقرء بعد ولا يحرك به لسانه وينصب حتى يتم الوحي.

فالآيات الأربع في معنى قوله تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾ (طه / ١١٤).

فالكلام في هذه الآيات يجري مجرى قول المتكلم منا أثناء حديثه لمخاطبه إذا بادر الى تتميم بعض كلام المتكلم باللفظة واللفظتين قبل أن يلفظ بها المتكلم وذلك يشغله عن التجرد للانصات فيقطع المتكلم حديثه ويعترض ويقول لا تعجل بكلامي وأنصت لتفقه ما أقول لك ثم يمضي في حديثه.

فقوله: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ، والضمير ان للقرآن الذي يوحى اليه أو للوحي، والمعنى لا تحرك بالوحي لسانك لتأخذه عاجلاً فتسبقنا الى قراءة ما لم نقرء بعد فهو كما مر في معنى قوله: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾ (طه / ١١٤).

وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ القرآن ههنا مصدر كالفرقان والرجحان، والضميران للوحي. والمعنى لا تعجل به إذ علينا أن نجمع ما نوحيه اليك بضم بعض أجزائه الى بعض وقراءته عليك فلا يفوتنا شيء منه حتى يحتاج الى أن تسبقنا الى قراءة ما لم نوحه

بعد .

وقوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أي فاذا اتممنا قراءته عليك وحياً فاتبع قراءتنا له واقرء بعد تمامها .

وقيل : المراد باتباع قرآنه اتباعه ذهناً بالانصات والتوجه التام اليه وهو معنى لا بأس به .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ اي علينا ايضاحه عليك بعدما كان علينا جمعه وقرآنه فثم للتأخير الرتبي لأن البيان مترتب على الجمع والقراءة رتبة .

وقيل ؛ المعنى ثم إن علينا بيانه للناس بلسانك نحفظه في ذهنك عن التغير والزوال حتى تقرأه على الناس .

وعن بعضهم أن الآيات الأربع متصلة بما تقدم من حديث يوم القيامة ، وخطاب « لا تحرك » للنبي ﷺ . وضمير « به » ليوم القيامة ، والمعنى لا تتفوه بالسؤال عن وقت القيامة أصلاً ولو كنت غير مكذب ولا مستهزىء « لتعجل به » أي بالعلم به « إن علينا جمعه وقرآنه » أي من الواجب في الحكمة أن نجمع من نجمعه فيه ونوحي شرح وصفه اليك في القرآن « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » أي إذا قرأنا ما يتعلق به فاتبع ذلك بالعمل بما يقتضيه من الاستعداد له « ثم إن علينا بيانه » أي إظهار ذلك بالنفخ في الصور انتهى ملخصاً وهو كما ترى .

وقد تقدم في تفسير قوله : « ولا تعجل بالقرآن » أن هذا النهي عن العجل بالقرآن يؤيدما ورد في الروايات أن للقرآن نزولاً على النبي ﷺ دفعة غير نزوله تدريجاً .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ خطاب للناس وليس من تعميم الخطاب السابق في شيء لأن خطاب « لا تحرك » اعتراضي غير مرتبط بشيء من طرفيه .

وقوله : « كلا » ردع عن قوله السابق : « يحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه » وقوله : « بل

تحبون العاجلة » ـ أي الحياة العاجلة وهي الحياة الدنيا ـ « وتذرون الآخـرة » أي تـتركون الحياة الآخرة، وما في الكلام من الإضراب إضراب عن حسبان عدم الإحياء بعد الموت نظير الإضراب في قوله: « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ».

قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وصف ليوم القيامة بانقسام الوجوه فيه الى قسمين: ناضرة وباسرة، ونضرة الوجه واللون والشجر ونحوها ونـضارتها حسنها وبهجتها.

والمعنى: نظراً الى ما يقابله من قوله: « ووجوه يومئذ باسرة » الخ؛ وجـوه يـوم إذ تـقوم القيامة حسنة متهللة ظاهرة المسرة والبشاشة قال تعالى: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ (المطففين / ٢٤)، وقال: ﴿ولقاهم نضرة وسروراً﴾ (الدهر / ١١).

وقوله: « الى ربها ناظرة » خبر بعد خبر لوجوه، و« الى ربها » متعلق بناظرة قدم عليها لإفادة الحصر أو الأهمية.

والمراد بالنظر اليه تعالى ليس هو النظر الحسي المتعلق بالعين الجسمانية المادية التي قامت البراهين القاطعة على استحالته في حقه تعالى بل المـراد النظر القلبي ورؤيـة القـلب بحـقيقة الإيمان على ما يسوق اليه البرهان ويدل عليه الأخبار المأثورة عن أهل العصمة عليهم السلام وقـد أوردنا شطراً منها في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿ قـال رب أرني أنـظر اليك ﴾ (الأعـراف / ١٤٣)، وقوله تعالى: ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ (النجم / ١١).

فهؤلاء قلوبهم متوجهة الى ربهم لا يشغلهم عنه سبحانه شاغل مـن الأسـباب لتـقطع الأسباب يومئذ، ولا يقفون موقفاً من مواقف اليوم ولا يقطعون مـرحـلة مـن مـراحـله إلا والرحمة الإلهية شاملة لهم ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ (النمل / ٨٩) ولا يشهدون مشهداً من مشاهد الجنة ولا يتنعمون بشيء من نعيمها إلا وهم يشاهدون ربهم به لأنهم لا ينظرون الى شيء ولا يرون شيئاً إلا من حيث إنه آية لله سبحانه والنظر الى الآية من حيث إنهـا آية

ورؤيتها نظر الى ذي الآية ورؤية له.

قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ فسر البسور بشدة العبوس والظن بالعلم و«فاقرة» صفة محذوفة الموصوف أي فعلة فاقرة. والفاقرة من فقره اذا أصاب فقار ظهره، وقيل: من فقرت البعير اذا وسمت أنفه بالنار.

والمعنى: ووجوه يومئذ شديدة العبوس تعلم أنه يفعل بها فعلة تقصم ظهورها أو تسم انوفها بالنار، واحتمل أن يكون تظن خطاباً للنبي ﷺ بما أنه سامع والظن بمعناه المعروف.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ ردع عن حبهم العاجلة وإيثارها على الآخرة كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك فليس يدوم عليكم وسينزل عليكم الموت فتساقون الى ربكم وفاعل «بلغت» محذوف يدل عليه السياق كما في قوله تعالى: ﴿فلولا اذا بلغت الحلقوم﴾ (الواقعة / ٨٣) والتقدير اذا بلغت النفس التراقي.

والتراقي العظام المكتنفة للنحر عن يمين وشمال جمع ترقوة، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ اسم فاعل من الرقى أي قال من حضره من اهله واصدقائه من يرقيه ويشفيه؟ كلمة يأس، وقيل: المعنى قال بعض الملائكة لبعض: من يرقى بروحه من الملائكة أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ اي وعلم الإنسان المحتضر من مشاهدة هذه الأحوال انه مفارقته للعاجلة التي كان يحبها ويؤثرها على الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ ظاهره ان المراد به التفاف ساق المحتضر بساقه ببطلان الحياة السارية في اطراف البدن عند بلوغ الروح التراقي.

قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ المساق مصدر ميمي بمعنى السوق، والمراد بكون السوق يومئذ اليه تعالى انه الرجوع اليه، وعبر بالمساق للإشارة الى ان لا خيرة للإنسان في هذا المسير ولا مناص له عنه فهو مسوق مسير من يوم موته وهو قوله: «الى ربك

يومئذ المساق» حتى يرد على ربه يوم القيامة وهو قوله: «الى ربك يومئذ المستقر» ولو كان تقديم «الى ربك» لإفادة الحصر افاد انحصار الغاية في الرجوع اليه تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ وَلٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ثُمَّ ذَهَبَ إِلىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ الضمائر راجعة الى الإنسان المذكور في قوله: «أيحسب الإنسان» الخ؛ والمراد بالتصديق المنفي تصديق الدعوة الحقة التي يتضمنها القرآن الكريم، وبالتصلية المنفية التوجه العبادي اليه تعالى بالصلاة التي هي عمود الدين.

والتمطي ـ على ما في المجمع ـ تمدد البدن من الكسل واصله ان يلوي مطاه اي ظهره، والمراد بتمطيه في ذهابه التبختر والاختيال استعارة.

والمعنى: فلم يصدق هذا الانسان الدعوة فيما فيها من الاعتقاد ولم يصل لربه أي لم يتبعها فيما فيها من الفروع وركنها الصلاة ولكن كذب بها وتولى عنها ثم ذهب الى أهله يتبختر ويختال مستكبراً.

قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ لا ريب أنه كلمة تهديد كررت لتأكيد التهديد، ولا يبعد ـ والله أعلم ـ أن يكون قوله: «أولى لك» خبراً لمبتدء محذوف هو ضمير عائد الى ما ذكر من حال هذا الانسان وهو أنه لم يصدق ولم يصل ولكن كذب وتولى ثم ذهب الى أهله متبختراً مختالاً، وإثبات ما هو فيه من الحال له كناية عن إثبات ما هو لازمه من التبعة والعقاب.

فيكون الكلام وهي كلمة ملقاة من الله تعالى الى هذا الانسان كلمة طبع طبع الله بها على قلبه حرم بها الإيمان والتقوى وكتب عليه أنه من أصحاب النار، والآيتان تشبهان بوجه قوله تعالى: ﴿ فإذا أُنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم﴾ (سورة محمد / ٢٠).

والمعنى: ما أنت عليه من الحال أولى وأرجح لك فأولى ثم أولى لك فأولى لتذوق وبال

أمرك ويأخذك ما أعد لك من العذاب.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سَدىً﴾ مختتم فيه رجوع الى ما في مفتتح السورة من قوله: «أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه».

والاستفهام للتوبيخ، والسدى المهمل، والمعنى أيظن الانسان ان يترك مهملاً لا يعتنى به فلا يبعث بإحيائه بعد الموت ولازمه ان لا يكلف ولا يجزي.

قوله تعالى: «ألم يك نطفة من مني يمنى» اسم كان ضمير راجع الى الإنسان. وإمناء المني صبه في الرحم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّىٰ﴾ أي ثم كان الإنسان ـ أو المني ـ قطعة من دم منعقد فقدره فصوره بالتعديل والتكميل.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثىٰ﴾ أي فجعل من الإنسان الصنفين: الذكر والانثى.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقادِرٍ عَلىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتىٰ﴾ احتجاج على البعث الذي ينكرونه استبعاداً له بعموم القدرة وثبوتها على الخلق الابتدائي والإعادة لا تزيد على الابتداء مؤنة بل هي أهون. وقد تقدم الكلام في تقريب هذه الحجة في تفسير الآيات المتعرضة لها مراراً[1].

---

١. القيامة ١٦ ـ ٤٠: بحث روائي حول قوله تعالى: «لا تحرك به لسانك لتعجل به» اصحاب الجنة واصحاب الناس؛ صفات الله تعالى؛ معنى النظر الى الله يوم القيامة: قبض الروح؛ حقيقة الموت.

سورة الدهر مدنية وهي إحدى وثلاثون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● هَلْ أَتىٰ عَلَى الْإِنسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً
مَذكُوراً.

٢ ● إِنّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً
بَصِيراً.

٣ ● إِنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمّا شاكِراً وَإِمّا كَفُوراً.

٤ ● إِنّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً.

٥ ● إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً.

٦ ● عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللّٰهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً.

٧ ● يُوفُونَ بِالنَّذرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً.

٨ ● وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً.

٩ ● إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً.

١٠ • إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً.

١١ • فَوَقيٰهُمُ اللّٰهُ شَرَّ ذٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقّٰيهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً.

١٢ • وَجَزٰاهُمْ بِمٰا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً.

١٣ • مُتَّكِئِينَ فِيهٰا عَلَى الأَرٰائِكِ لاٰ يَرَوْنَ فِيهٰا شَمْساً وَلاٰ
زَمْهَرِيراً.

١٤ • وَدٰانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاٰلُهٰا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً.

١٥ • وَيُطٰافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوٰابٍ كٰانَتْ قَوٰارِيراً.

١٦ • قَوٰارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهٰا تَقْدِيراً.

١٧ • وَيُسْقَوْنَ فِيهٰا كَأْساً كٰانَ مِزٰاجُها زَنْجَبِيلاً.

١٨ • عَيْناً فِيهٰا تُسَمّىٰ سَلْسَبِيلاً.

١٩ • وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدٰانٌ مُخَلَّدُونَ إِذٰا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً
مَنْثُوراً.

٢٠ • وَإِذٰا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً.

٢١ • عٰالِيَهُمْ ثِيٰابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسٰاوِرَ مِنْ
فِضَّةٍ وَسَقٰيهُمْ رَبُّهُمْ شَرٰاباً طَهُوراً.

٢٢ • إِنَّ هٰذٰا كٰانَ لَكُمْ جَزٰاءً وَكٰانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتىٰ عَلَى الإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً

مَذْكُوراً ﴾ الاستفهام للتقرير فيفيد ثبوت معنى الجملة وتحققه أي قد أتى على الانسان، الخ؛ ولعل هذا مراد من قال من قدماء المفسرين: إن «هل» في الآية بمعنى قد، لا على أن ذلك أحد معاني «هل» كما ذكره بعضهم.

والمراد بالإنسان الجنس. وأما قول بعضهم: إن المراد به آدم عليه السلام فلا يلائمه قوله في الآية التالية: «إنا خلقنا الإنسان من نطفة».

والحين قطعة من الزمان محدودة قصيرة كانت أو طويلة، والدهر الزمان الممتد من دون تحديد ببداية أو نهاية.

وقوله: ﴿شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾ أي شيئاً يذكر باسمه في المذكورات أي كان يذكر مثلاً الأرض والسماء والبر والبحر وغير ذلك ولا يذكر الإنسان لأنه لم يوجد بعد حتى وجد فقيل: الإنسان فكونه مذكوراً كناية عن كونه موجوداً بالفعل فالنفي في قوله: «لم يكن شيئاً مذكوراً» متوجه الى كونه شيئاً مذكوراً لا الى أصل كونه شيئاً فقد كان شيئاً ولم يكن شيئاً مذكوراً ويؤيده قوله: «إنا خلقنا الانسان من نطفة» الخ؛ فقد كان موجوداً بمادته ولم يتكون بعد إنسانا بالفعل والآية وما يتلوها من الآيات واقعة في سياق الاحتجاج يبين بها أن الإنسان حادث يحتاج في وجوده الى صانع يصنعه وخالق يخلقه، وقد خلقه ربه وجهزه التدبير الربوبي بأدوات الشعور من السمع والبصر يهتدي بها الى السبيل الحق الذي من الواجب أن يسلكه مدى حياته فان كفر فصيره الى عذاب أليم وان شكر فالى نعيم مقيم.

والمعنى هل أتى ـ قد أتى ـ على الإنسان قطعة محدودة من هذا الزمان الممتد ـ غير المحدود والحال أنه لم يكن موجوداً بالفعل مذكوراً في عداد المذكورات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ النطفة في الأصل بمعنى الماء القليل غلب استعماله في ماء الذكور من الحيوان الذي يتكون منه مثله، وأمشاج جمع مشيج او المشج بفتحتين او بفتح فكسر بمعنى المختلط الممتزج،

ووصفت بها النطفة باعتبار اجزائها المختلفة او اختلاط ماء الذكور والإناث.

والابتلاء نقل الشيء من حال الى حال ومن طور الى طور كابتلاء الذهب في البوتقة، وابتلاؤه تعالى الإنسان في خلقه من النطفة هو ما ذكره في مواضع من كلامه انه يخلق النطفة فيجعلها علقة والعلقة مضغة الى آخر الأطوار التي تتعاقبها حتى ينشئه خلقاً آخر.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ سياق الآيات وخاصة قوله: «إنا هديناه السبيل» الخ؛ يفيد أن ذكر جعله سميعاً بصيراً للتوسل به في التدبير الربوبي الى غايته وهي أن يرى آيات الله الدالة على المبدإ والمعاد ويسمع كلمة الحق التي تأتيه من جانب ربه بإرسال الرسل وإنزال الكتب فيدعوه البصر والسمع الى سلوك سبيل الحق والسير في مسير الحياة بالإيمان والعمل الصالح فإن لزم السبيل الذي هدي اليه أداه الى نعيم الأبد وإلا فإلى عذاب مخلد.

وذكر الإنسان في الآية من وضع الظاهر موضع الضمير والنكتة فيه تسجيل أنه تعالى هو خالقه ومدبر أمره.

والمعنى: إنا خلقنا الإنسان من نطفة هي أجزاء مختلطة ممتزجة والحال أنّا ننقله من حال الى حال ومن طور الى طور فجعلناه سميعاً بصيراً ليسمع ما يأتيه من الدعوة الإلهية، ويبصر الآيات الإلهية الدالة على وحدانيته تعالى والنبوة والمعاد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ الهداية بمعنى إراءة الطريق دون الإيصال الى المطلوب والمراد بالسبيل السبيل بحقيقة معنى الكلمة وهو المؤدي الى الغاية المطلوبة وهو سبيل الحق.

والشكر استعمال النعمة بإظهار كونها من منعمها وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ (آل عمران / ١٤٤) أن حقيقة كون العبد شاكراً لله كونه مخلصاً لربه، والكفران استعمالها مع ستر كونها من المنعم.

وقوله: ﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ حالان من ضمير «هديناه» لا من «السبيل» كما قاله بعضهم، و«إما» يفيد التقسيم و التنويع أي إنا هديناه السبيل حال كونه منقسماً الى الشاكر والكفور أي إنه مهدي سواء كان كذا أو كذلك.

والتعبير بقوله: «إما شاكراً وإما كفوراً» هو الدليل أولاً: على أن المراد بالسبيل السنة والطريقة التي يجب على الإنسان أن يسلكها في حياته الدنيا لتوصله الى سعادته في الدنيا والآخرة وتسوقه الى كرامة القرب والزلفى من ربه ومحصله الدين الحق وهو عند الله الإسلام[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً﴾ الاعتاد التهيئة، وسلاسل جمع سلسلة وهي القيد الذي يقاد به المجرم، وأغلال جمع غل بالضم قيل هي القيد الذي يجمع اليدين على العنق، وقال الراغب: فالغل مختص بما يقيد به فيجعل الأعضاء وسطه. انتهى. والسعير النار المشتعلة، والمعنى ظاهر.

والآية تشير الى تبعة الانسان الكفور المذكور في قوله: «إما شاكراً وإما كفوراً» وقدم بيان تبعته على بيان جزاء الانسان الشاكر لاختصار الكلام فيه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾ الكأس إناء الشراب إذا كان فيه شراب، والمزاج ما يمزج به كالحزام لما يحزم به، والكافور معروف يضرب به المثل في البرودة وطيب الرائحة، وقيل: هو اسم عين في الجنة.

والأبرار جمع بر بفتح الباء صفة مشبهة من البر وهو الاحسان ويتحصل معناه في أن يحسن الانسان في عمله من غير أن يريد به نفعاً يرجع اليه من جزاء او شكور فهو يريد الخير لأنه خير لا لأن فيه نفعاً يرجع الى نفسه وإن كرهت نفسه ذلك فيصبر على مر مخالفة نفسه فيما

---

١. الدهر ١ ـ ٢٢: بحث في هداية الانسان.

يريده ويعمل لأنه خير في نفسه كالوفاء بالنذر أو لأن فيه خيراً لغيره كاطعام الطعام للمستحقين من عباد الله.

وإذ لا خير في عمل ولا صلاح إلا بالايمان بالله ورسوله واليوم الآخر كما قال تعالى: ﴿أُولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم﴾ (الأحزاب / ١٩) الى غير ذلك من الآيات.

فالأبرار مؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، وإذ كان إيمانهم إيمان رشد وبصيرة فهم يرون أنفسهم عبيداً مملوكين لربهم، له خلقهم وأمرهم، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً عليهم أن لا يريدوا إلا ما أراده ربهم ولا يفعلوا إلا ما يرتضيه فقدموا إرادته على ارادة أنفسهم وعملوا له فصبروا على مخالفة أنفسهم فيما تهواه وتحبه وكلفة الطاعة، وعملوا ما عملوه لوجه الله، فأخلصوا العبودية في مرحلة العمل لله سبحانه.

وهذه الصفات هي التي عرف سبحانه الأبرار بها كما يستفاد من قوله: «يشرب بها عباد الله» وقوله: «انما نطعمكم لوجه الله» وقوله: «وجزاهم بما صبروا» وهي المستفادة من قوله في صفتهم: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله﴾ الخ (البقرة / ١٧٧) وقد مر بعض الكلام في معنى البر في تفسير الآية وسيأتي بعضه في قوله: ﴿كلا ان كتاب الأبرار لفي عليّين﴾ (المطففين / ١٨).

والآية أعني قوله: «ان الأبرار يشربون» الخ؛ بما يتبادر من معناها من حيث مقابلتها لقوله: «انا اعتدنا للكافرين» الخ؛ المبين لحال الكافرين في الآخرة، تبين حال الأبرار في الآخرة في الجنة، وانهم يشربون من شراب ممزوج بالكافور بارداً طيب الرائحة.

قوله تعالى: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ «عيناً» منصوب بنزع الخافض والتقدير من عين أو بالاختصاص والتقدير أخصُّ عينا. والشرب ـ على ما قيل ـ يتعدى بنفسه وبالباء فشرب بها وشربها واحد. والتعبير عنهم بعباد الله للاشارة الى تحليهم بحلية العبودية وقيامهم بلوازمها على ما يفيده سياق المدح.

وتفجير العين شق الأرض لإجرائها، وينبغي ان يحمل تفجيرهم العين على ارادتهم جريانها لأن نعم الجنة لا تحتاج في تحققها والتنعم بها الى ازيد من مشية اهلها قال تعالى: ﴿ لهم ما يشاؤن فيها ﴾ (ق / ٣٥).

والآيتان ـ كما تقدمت الإشارة اليه ـ تصفان تنعم الأبرار بشراب الجنة في الآخرة، وبذلك فسرت الآيتان.

ولا يبعد ان تكون الآيتان مسوقتين على مسلك تجسم الأعمال تصفان حقيقة عملهم الصالح من الإيفاء بالنذر واطعام الطعام لوجه الله، وان اعمالهم المذكورة بحسب باطنها شرب من كأس مزاجها كافور من عين لا يزالون يفجرونها بأعمالهم الصالحة وستظهر لهم بحقيقتها في جنة الخلد وإن كانت في الدنيا في صورة الأعمال فتكون الآيتان في مجرى أمثال قوله تعالى: ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ (يس / ٨).

ويؤيد ذلك ظاهر قوله: «يشربون» و«يشرب بها» ولم يقل: سيشربون وسيشرب بها، ووقوع قوله: يشربون ويوفون ويخافون ويطعمون متعاقبة في سياق واحد، وذكر التفجير في قوله: «يفجرونها تفجيراً» الظاهر في استخراج العين وإجرائها بالتوسل بالأسباب.

ولهم في مفردات الآيتين وإعرابها أقاويل كثيرة مختلفة مذكورة في المطولات فليراجعها من أراد الوقوف عليها.

قوله تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ المستطير اسم فاعل من استطار إذا فشى وانتشر في الأقطار غاية الانتشار وهو أبلغ من طار كما قيل: يقال: استطار الحريق واستطار الفجر إذا اتسعا غايته، والمراد باستطارة شر اليوم وهو يوم القيامة بلوغ شدائده وأهواله وما فيه من العذاب غايته.

والمراد بالإيفاء بالنذر ما هو ظاهره المعروف من معناه، وقول القائل: إن المراد به ما عقدوا عليه قلوبهم من العمل بالواجبات أو ما عقدوا عليه القلوب من اتباع الشارع في جميع ما

شرعه خلاف ظاهر اللفظ من غير دليل يدل عليه.

قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ ضمير «على حبه» للطعام على ما هو الظاهر، والمراد بحبه توقان النفس اليه لشدة الحاجة، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ (آل عمران / ٩٢).

والمراد بالمسكين واليتيم معلوم، والمراد بالأسير ما هو الظاهر منه وهو المأخوذ من أهل دار الحرب.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ وجه الشيء هو ما يستقبل به غيره، ووجهه تعالى صفاته الفعلية الكريمة التي يفيض بها الخير على خلقه من الخلق والتدبير والرزق وبالجملة الرحمة العامة التي بها قيام كل شيء، ومعنى كون العمل لوجه الله على هذا كون الغاية في العمل هي الاستفاضة من رحمة الله وطلب مرضاته بالاقتصار على ذلك والإعراض عما عند غيره من الجزاء المطلوب، ولذا ذيلوا قولهم: «إنما نطعمكم لوجه الله» بقولهم: «لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً».

ووراء ذلك صفاته الذاتية الكريمة التي هي المبدء لصفاته الفعلية ولما يترتب عليها من الخير في العالم، ومرجع كون العمل لوجه الله على هذا هو الإتيان بالعمل حباً لله لأن الجميل على الإطلاق، وإن شئت فقل: عبادته تعالى لأنه اهل للعبادة.

وابتغاء وجه الله بجعله غاية داعية في الأعمال مذكور في مواضع من كلامه تعالى كقوله: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ (الكهف / ٢٨)، وقوله: ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ (البقرة / ٢٧٢)، وفي هذا المعنى قوله: ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ (البينة / ٥)، وقوله: ﴿فادعوه مخلصين له الدين﴾ (المؤمن / ٦٥)، وقوله: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ (الزمر / ٣).

وقوله: «لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً» الجزاء مقابلة العمل بما يعادله إن خيراً فخيراً

وإن شراً فشراً، ويعم الفعل والقول لكن المراد به في الآية بقرينة مقابلته الشكور مقابلة إطعامهم عملاً لا لساناً.

والشكر والشكور ذكر النعمة وإظهارها قلباً أو لساناً أو عملاً، والمراد به في الآية وقد قوبل بالجزاء الثناء الجميل لساناً.

والآية أعني قوله: «إنما نطعمكم لوجه الله» الخ؛ خطاب منهم لمن أطعموه من المسكين واليتيم والأسير إما بلسان المقال فهي حكاية قولهم أو بتقدير القول وكيف كان فقد أرادوا به تطييب قلوبهم أن يأمنوا المن والأذى، وإما بلسان الحال وهو ثناء من الله عليهم لما يعلم من الإخلاص في قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ عد اليوم وهو يوم القيامة عبوساً من الاستعارة، والمراد بعبوسه ظهوره على المجرمين بكمال شدته، والقمطرير الصعب الشديد على ما قيل.

والآية في مقام التعليل لقولهم المحكي: «إنما نطعمكم لوجه الله» الخ؛ ينبهون بقولهم هذا أن قصرهم العمل في ابتغاء وجه الله تعالى إخلاصاً للعبودية لمخافتهم ذاك اليوم الشديد، ولم يكتفوا بنسبة المخافة الى اليوم حتى نسبوه نحواً من النسبة الى ربهم فقالوا: «نخاف من ربنا يوماً» الخ؛ لأنهم لما لم يريدوا إلا وجه ربهم فهم لا يخافون غيره كما لا يرجون غيره وإنما يخافون ويرجون ربهم فلا يخافون يوم القيامة إلا لأنه من ربهم يحاسب فيه عباده على أعمالهم فيجزيهم بها.

وأما قوله قبلاً: «ويخافون يوماً كان شره مستطيراً» حيث نسب خوفهم الى اليوم فإن الواصف فيه هو الله سبحانه وقد نسب اليوم بشدائده الى نفسه قبلاً حيث قال: «إنا أعتدنا للكافرين سلاسل» الخ.

وبالجملة ما ذكروه من الخوف مخافة في مقام العمل لما يحاسب العبد على عمله فالعبودية

لازمة للإنسان لا تفارقه وإن بلغ ما بلغ قال تعالى: ﴿إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾ (الغاشية / ٢٦).

قوله تعالى: ﴿فَوَقَيهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّيهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ الوقاية الحفظ والمنع من الأذى ولق الشيء بكذا يلقيه أي استقبله به والنضرة البهجة وحسن اللون والسرور مقابل المساءة والحزن.

والمعنى: فحفظهم الله ومنع عنهم شر ذلك اليوم واستقبلهم بالنضرة والسرور، فهم ناضرة الوجوه مسرورون يومئذ كما قال: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ (القيامة / ٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ المراد بالصبر صبرهم عند المصيبة وعلى الطاعة وعن المعصية فإنهم ابتغوا في الدنيا وجه ربهم وقدموا إرادته على إرادتهم فصبروا على ما قضى به فيهم وأراده من المحن ومصائب الدنيا في حقهم، وصبروا على امتثال ما أمرهم به وصبروا على ترك ما نهاهم عنه وإن كان مخالفاً لأهواء أنفسهم فبدل الله ما لقوه من المشقة والكلفة نعمة وراحة.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾ الأرائك جمع أريكة وهو ما يتكيء عليه، والزمهرير البرد الشديد، والمعنى حالكونهم متكئين في الجنة على الأرائك لا يرون فيها شمساً حتى يتأذوا بحرّها ولا زمهريراً حتى يتأذوا ببرده.

قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ الظلال جمع ظل، ودنو الظلال عليهم قربها منهم بحيث تنبسط عليهم فكأن الدنو مضمن معنى الانبساط وقطوف جمع قطف بالكسر فالسكون وهو الثمرة المقطوفة المجتناة، وتذليل القطوف لهم جعلها مسخرة لهم يقطفونها كيف شاؤا من غير مانع أو كلفة.

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيراً﴾ الآنية

جمع إناء كأكسية جمع كساء وهو الوعاء، وأكواب جمع كوب وهو إناء الشراب الذي لا عروة له ولا خرطوم والمراد طوف الولدان المخلدين عليهم بالآنية وأكواب الشراب كما سيأتي في قوله: «ويطوف عليهم ولدان» الآية.

قوله تعالى: ﴿قَوارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً﴾ بدل من قوارير في الآية السابقة، وكون القوارير من فضة مبني على التشبيه البليغ أي إنها في صفاء الفضة وإن لم تكن منها حقيقة، كذا قيل. واحتمل أن يكون بحذف مضاف والتقدير من صفاء الفضة.

وضمير الفاعل في «قدروها» للأبرار والمراد بتقديرهم الآنية والأكواب كونها على ما شاؤوا من القدر ترويهم بحيث لا تزيد ولا تنقص كما قال تعالى: ﴿لهم ما يشاؤن فيها﴾ (ق / ٣٥) وقد قال تعالى قبل: «يفجرونها تفجيراً».

ويحتمل رجوع الضمير الى الطائفين المفهوم من قوله: «يطاف عليهم» والمراد بتقديرهم الآنية والأكواب إتيانهم بها على قدر ما أرادوا محتوية على ما اشتهوا قدر ما اشتهوا.

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً﴾ قيل: إنهم كانوا يستطيبون الزنجبيل في الشراب فوعد الأبرار بذلك وزنجبيل الجنة أطيب وألذ.

قوله تعالى: ﴿عَيْناً فِيها تُسَمّىٰ سَلْسَبِيلاً﴾ أي من عين أو التقدير أعني أو أخص عيناً. قال الراغب: وقوله: «سلسبيلا» أي سهلاً لذيذاً سلساً حديد الجرية.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ أي ولدان دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء وصباحة المنظر، وقيل: أي مقرطون بخلدة وهي ضرب من القرط.

والمراد بحسبانهم لؤلؤاً منظوراً أنهم في صفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانعكاس أشعة بعضهم على بعض وانبثاثهم في مجالسهم كاللؤلؤ المنثور.

قوله تعالى: ﴿وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ «ثم» ظرف مكان

محض في الظرفية، ولذا قيل: إن معنى «رأيت» الأول: رميت ببصرك، والمعنى وإذا رميت ببصرك ثم يعني الجنة رأيت نعيماً لا يوصف وملكاً كبيراً لا يقدر قدره.

وقيل «ثم» صلة محذوفة الموصول والتقدير وإذا رأيت ما ثم من النعيم والملك، وهو كقوله: ﴿لقد تقطع بينكم﴾ (الأنعام / ٩٤) والكوفيون من النحاة يجوزون حذف الموصول وإبقاء الصلة وإن منعه البصريون منهم.

قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ الخ: الظاهر أن «عاليهم» حال من الأبرار الراجعة اليه الضمائر و«ثياب» فاعله، والسندس ـ كما قيل ـ ما رق نسجه من الحرير، والخضر صفه ثياب والإستبرق ما غلظ نسجه من ثياب الحرير، وهو معرب كالسندس.

وقوله: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ التحلية التزيين، وأساور جمع سوار وهو معروف، وقال الراغب: هو معرب دستواره.

وقوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ أي بالغاً في التطهير لا تدع قذارة إلا أزالها ومن القذارة قذارة الغفلة عن الله سبحانه والاحتجاب عن التوجه اليه فهم غير محجوبين عن ربهم ولذا كان لهم أن يحمدوا ربهم كما قال: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ (يونس / ١٠) وقد تقدم في تفسير سورة الحمد أن الحمد وصف لا يصلح له إلا المخلصون من عباد الله تعالى لقوله: ﴿سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين﴾ (الصافات / ١٦٠).

وقد أسقط تعالى في قوله: «وسقاهم ربهم» الوسائط كلها ونسب سقيهم الى نفسه، وهذا أفضل ما ذكره الله تعالى من النعيم الموهوب لهم في الجنة، ولعله من المزيد المذكور في قوله: ﴿لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد﴾ (ق / ٣٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ حكاية ما يخاطبون به من عنده تعالى عند توفيته أجرهم أو بحذف القول والتقدير ويقال لهم: إن هذا

كان لكم جزاء، الخ.

وقوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ إنشاء شكر لمساعيهم المرضية وأعمالهم المقبولة، ويالها من كلمة طيبة تطيب بها نفوسهم.

واعلم أنه تعالى لم يذكر فيما ذكر من نعيم الجنة في هذه الآيات نساء الجنة من الحور العين وهي من أهم ما يذكره عنده وصف نعم الجنة في سائر كلامه ويمكن أن يستظهر منه أنه كانت بين هؤلاء الأبرار الذين نزلت فيهم الآيات من هي من النساء.

وقال في روح المعاني: ومن اللطائف على القول بنزول السورة فيهم يعني في أهل البيت أنه سبحانه لم يذكر فيها الحور العين وإنما صرح عز وجل بولدان مخلدين رعاية لحرمة البتول وقرة عين الرسول، انتهى.

بحث روائي:

في إتقان السيوطي عن البيهقي في دلائل النبوة باسناده عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن قالا: أنزل الله من القرآن بمكة اقرء باسم ربك ون والمزمل ـ الى أن قالا ـ ومانزل بالمدينة ويل للمطففين، والبقرة، وآل عمران، والأنفال، والأحزاب، والمائدة، والممتحنة، والنساء، وإذا زلزلت، والحديد، ومحمد، والرعد، والرحمان، وهل أتى على الإنسان. الحديث.

وفيه عن ابن الضريس في فضائل القرآن بإسناده عن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن ابن عباس قال: كان إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما شاء.

وكان أول ما انزل من القرآن اقرء باسم ربك، ثم ن، ثم يا أيها المزمل ـ الى أن قال ـ ثم انزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء ثم إذا زلزلت ثم الحديد ثم القتال ثم الرعد ثم الرحمان ثم الإنسان. الحديث.

وفيه عن البيهقي في الدلائل بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال: إن أول ما أنزل الله على نبيه من القرآن اقرء باسم ربك، وذكر مثل حديث عكرمة والحسين وفيه ذكر ثلاث من السور المكية التي سقطت من روايتها وهي الفاتحة والاعراف وكهيعص.

وفي الدر المنثور أخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الإنسان بالمدينة.

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾ الآية؛ قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أقول: الآية تشارك سائر آيات صدر السورة مما تقدم عليها أو تأخر عنها في سياق واحد متصل فنزولها فيهما عليهما السلام لا ينفك نزولها جميعاً بالمدينة.

وفي الكشاف: وعن ابن عباس أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ناس معه فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك (ولديك ظ) فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن برءآ مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شيء.

فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطرو فوقف عليهم سائل وقال: السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً.

فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك.

فلما أصبحوا أخذ علي بيد الحسن والحسين وأقبلوا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم فانطلق معهم فرآى

فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها[١] ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبريل وقال: خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك فأقرءه السورة.

أقول: الرواية مروية بغير واحد من الطرق عن عطاء عن ابن عباس ونقلها البحراني في غاية المرام عن أبي المؤيد الموفق بن احمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين باسناده عن مجاهد عن ابن عباس، وعنه باسناد آخر عن الضحاك عن ابن عباس وعن الحمويني في كتاب فرائد السمطين باسناده عن مجاهد عن ابن عباس، وعن الثعلبي باسناده عن أبي صالح عن ابن عباس، ورواه في المجمع عن الواحدي في تفسيره.

وفي المجمع باسناده عن الحاكم باسناده عن سعيد بن المسيب عن علي بن ابي طالب أنه قال: سألت النبي عن ثواب القرآن فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء.

فأول ما نزل عليه بمكة فاتحة الكتاب ثم اقرء باسم ربك، ثم ن ـ الى ان قال ـ وأول ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء ثم إذا زلزلت ثم الحديد ثم سورة محمد ثم الرعد ثم سورة الرحمن ثم هل أتى. الحديث.

وفيه عن أبي حمزة الثمالي في تفسيره قال: حدثني الحسن بن الحسن أبو عبدالله بن الحسن أنها مدنية نزلت في علي وفاطمة السورة كلها.

وفي تفسير القمي عن أبيه عن عبدالله بن ميمون عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان عند فاطمة عليها السلام شعير فجعلوه عصيدة[٢] فلما أنضجوها ووضعوها بين أيديهم جاء مسكين فقال: مسكين رحمكم الله فقام علي عليه السلام أعطاه ثلثاً فلم يلبث أن جاء يتيم فقال: اليتيم رحمكم الله فقام علي عليه السلام فأعطاه الثلث ثم جاء أسير فقال: الأسير رحمكم الله فأعطاه علي عليه السلام الثلث وما

---

١. بطنها بظهرها ظ.

٢. العصيدة: شعير يلت بالسمن ويطبخ.

ذاقوها فأنزل الله سبحانه الآيات فيهم وهي جارية في كل مؤمن فعل ذلك لله عز وجل.

أقول: القصة كما ترى ملخصة في الرواية وروى ذلك البحراني في غاية المرام عن المفيد في الاختصاص مسنداً وعن ابن بابويه في الامالي باسناده عن مجاهد عن ابن عباس. وباسناده عن سلمة بن خالد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام، وعن محمد بن العباس ابن ماهيار في تفسيره باسناده عن أبي كثير الزبيري عن عبدالله بن عباس. وفي المناقب أنه مروي عن الأصبغ بن نباتة.

وفي الاحتجاج عن علي عليه السلام في حديث يقول فيه للقوم بعد موت عمر بن الخطاب: نشدتكم بالله هل فيكم أحد نزل فيه وفي ولده «إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً» الى آخر السورة غيري؟ قالوا: لا.

وفي كتاب الخصال في احتجاج علي على أبي بكر قال: أنشدك بالله أنا صاحب الآيه ﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا﴾ أم أنت؟ قال: بل أنت.

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشه الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سل واستفهم فقال: يا رسول الله فضلتم علينا بالألوان والصور والنبوة أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بمثل ما عملت به أني لكائن معك في الجنة؟ قال: نعم والذي نفسي بيده إنه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام. ثم قال: من قال: لا إله إلا الله كان له عهد عند الله ومن قال: سبحان الله وبحمده كتبت له مائة الف حسنة واربعة وعشرون الف حسنة ونزلت عليه السورة هل أتى على الانسان حينٌ من الدهر الى قوله: ملكاً كبيراً.

فقال الحبشي: وإن عيني لترى ما ترى عيناك في الجنة؟ قال: نعم فاشتكى حتى فاضت نفسه. قال عمر: فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدليه في حفرته بيده.

وفيه أخرج أحمد في الزهد عن محمد بن مطرف قال: حدثني الثقة أن رجلاً أسود كان

يسأل النبي ﷺ عن التسبيح والتهليل فقال له عمر بن الخطاب: مه أكثرت على رسول الله فقال: مه يا عمر وانزلت على رسول الله ﷺ ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر﴾ حتى إذا أتى على ذكر الجنة زفر الاسود زفرة خرجت نفسه فقال النبي ﷺ: مات شوقاً الى الجنة.

وفيه أخرج ابن وهب عن ابن زيد أن رسول الله ﷺ قرء هذه السورة هل أتى على الإنسان حين من الدهر وقد انزلت عليه وعنده رجل أسود فلما بلغ صفة الجنان زفر زفرة فخرجت نفسه فقال رسول الله ﷺ: أخرج نفس صاحبكم الشوق الى الجنة.

أقول: وهذه الروايات الثلاث على تقدير صحتها لا تدل على أزيد من كون نزول السورة مقارناً لقصة الرجل وأما كونها سبباً للنزول فلا. وهذا المعنى في الرواية الأخيره أظهر وبالجملة لا تنافي الروايات الثلاث نزول السورة في أهل البيت عليهم السلام.

على أن رواية ابن عمر للقصة الظاهرة في حضوره القصة وقد هاجر الى المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة من شواهد وقوع القصة بالمدينة.

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الانسان بمكة.

أقول: هو تلخيص حديث طويل أورده النحاس في كتاب الناسخ والمنسوخ، وقد نقله في الإتقان وهو معارض لما تقدم نقله مستفيضاً عن ابن عباس من نزول السورة بالمدينة وأنها نزلت في أهل البيت عليهم السلام.

على أن سياق آياتها وخاصة قوله: «يوفون بالنذر» «ويطعمون الطعام» الخ؛ سياق قصة واقعة وذكر الأسير فيمن أطعموهم نعم الشاهد على نزول الآيات بالمدينة إذ لم يكن للمسلمين أسير بمكة كما تقدمت الإشارة الى ذلك.

قال بعضهم ما ملخصه: ان الروايات مختلفة في مكية هذه السورة ومدنيتها والأرجح أنها مكية بل الظاهر من سياقها انها من عتائق السور القرآنية النازلة بمكة في أوائل البعثة يؤيد

ذلك ما ورد فيها من صور النعم الحسية المفصلة الطويلة وصور العذاب الغليظ كما يؤيده ما ورد فيها من أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر لحكم ربه وأن لا يطيع منهم آثماً او كفوراً ويثبت على ما نزل عليه من الحق ولا يداهن المشركين من الأوامر التي كانت تنزل بمكة عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها بمكة كما في السورة القلم والمزمل والمدثر فلا عبرة باحتمال مدنية السورة.

وهو فاسد اما ما ذكره من اشتمال السورة على صور النعم الحسية المفصلة الطويلة وصور العذاب الغليظ فليس ذلك مما يختص بالسور المكية حتى يقضي بها على كون السورة مكية فهذه سورة الرحمن وسورة الحج مدنيتان على ما تقدمت في الروايات المشتملة على ترتيب نزول السور القرآنية وقد اشتملتا من صور النعم الحسية المفصلة الطويلة وصور العذاب الغليظ على ما يربو ويزيد على هذه السورة بكثير.

واما ما ذكره من اشتمال السورة على امر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر وان لا يطيع منهم آثماً او كفوراً ولا يداهنهم ويثبت على ما نزل عليه من الحق ففيه ان هذه الأوامر واقعة في الفصل الثاني من آيات السورة وهو قوله: ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا﴾ الى آخر السورة؛ ومن المحتمل جداً ان يكون هذا الفصل من الآيات ـ وهو ذو سياق تام مستقل ـ نازلاً بمكة، ويؤيده ما في كثير من الروايات المتقدمة ان الذي نزل في اهل البيت بالمدينة هو الفصل الأول من الآيات، وعلى هذا اول السورة مدني وآخرها مكي.

ولو سلم نزولها دفعة واحدة فأمره صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر لا اختصاص له بالسور المكية فقد ورد في قوله: ﴿واصبر نفسك مع لذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا﴾ (الكهف / ٢٨) والآية ـ على ما روي ـ مدنية والآية ـ كما ترى ـ متحدة المعنى مع قوله: «فاصبر لحكم ربك» الخ؛ وهي في سايق شبيه جداً بسياق هذه الآيات فراجع وتأمل.

ثم الذي كان يلقاه النبي ﷺ من اذى المنافقين والذين في قلوبهم مرض والجفاة من ضعفاء الايمان لم يكون بأهون من اذى المشركين بمكة يشهد بذلك اخبار سيرته.

ولا دليل ايضاً على انحصار الإثم والكفور في مشركي مكة فهناك غيرهم من الكفار وقد اثبت القرآن الإثم لجمع من المسلمين في موارد كقوله: ﴿لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم﴾ (النور / ١١)، وقوله: ﴿ومن يكسب خطيئة او اثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً واثماً مبيناً﴾ (النساء / ١١٢).

وفي المجمع وروى العياشي باسناده عن عبدالله بن بكير عن زرارة قال: سألت ابا جعفر عليه السلام عن قوله: «لم يكن شيئاً مذكوراً» قال: كان شيئاً ولم يكن مذكوراً.

أقول: وروى فيه ايضاً عن عبد الأعلى مولى آل سام عن ابي عبدالله عليه السلام مثله.

وفيه ايضاً عن العياشي باسناده عن سعيد الحذاء عن ابي جعفر عليه السلام قال: كان مذكوراً في العلم ولم يكن مذكوراً في الخلق.

أقول: يعني انه كان له ثبوت في علم الله ثم خلق بالفعل فصار مذكوراً فيمن خلق.

وفي الكافي باسناده عن مالك الجهني عن ابي عبدالله عليه السلام في الآية قال: كان مقدراً غير مذكور.

أقول: هو في معنى الحديث السابق.

وفي تفسير القمي في الآية قال: لم يكن في العلم ولا في الذكر، وفي حديث آخر: كان في العلم ولم يكن في الذكر.

أقول: معنى الحديث الأول انه لم يكن في علم الناس ولا فيمن يذكرونه فيما بينهم، ومعنى الثاني انه كان في علم الله ولم يكن مذكوراً عند الناس.

وفي تفسير القمي ايضاً في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: «امشاج نبتليه» قال: ماء الرجل والمرأة اختلطا جميعاً.

وفي الكافي باسناده عن حمران بن اعين قال: سألت ابا عبدالله عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ قال: إما آخذ فهو شاكر وإما تارك فهو كافر.

أقول: ورواه القمي في تفسيره باسناده عن ابن ابي عمير عن ابي جعفر عليه السلام مثله. وفي التوحيد باسناده الى حمزة بن الطيار عن ابي عبدالله عليه السلام ما يقرب منه ولفظه: عرفناه إما آخذا وإما تاركاً.

وفي الدر المنثور اخرج احمد وابن المنذر عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً والله تعالى اعلم.

وفي أمالي الصدوق باسناده عن الصادق عن أبيه عليهما السلام في حديث، ﴿عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً﴾ قال: هي عين في دار النبي صلى الله عليه وآله وسلم يفجر الى دور الأنبياء والمؤمنين «يوفون بالنذر» يعني علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجاريتهم «ويخافون يوماً كان شره مستطيرا» يقول عابساً كلوحاً «ويطعمون الطعام على حبه» يقول: على شهوتهم للطعام وايثارهم له «مسكيناً» من مساكين المسلمين «ويتيماً» من يتامى المسلمين «وأسيراً» من أُسارى المشركين.

ويقولون اذا اطعموهم ﴿انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾ قال: والله ما قالوا هذا لهم ولكنهم أضمروه في أنفسهم فأخبر الله باضمارهم يقولون: لا نريد جزاء تكافؤننا به ولا شكورا تثنون علينا به، ولكنا انما أطعمناكم لوجه الله وطلب ثوابه.

وفي الدر المنثور اخرج سعيد بن منصور وابن ابي شيبة وابن المنذر وابن مردويه عن الحسن قال: كان الاسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾.

أقول: مدلول الرواية نزول الآية بالمدينة، ونظيرها ما رواه فيه عن عبد بن حميد عن

قتادة، وما رواه عن ابن المنذر عن ابن جريج، وما رواه عن عبدالرزاق وابن المنذر عن ابن عباس.

وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يوماً عبوساً قمطريراً﴾ قال: يقبض ما بين الأبصار.

وفي روضة الكافي باسناده عن محمد بن اسحاق المدني عن أبي جعفر عليه السلام في صفة الجنة قال: والثمار دانية منهم وهو قوله عزّ وجل: ﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا﴾ من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهيه من الثمار بفيه وهو متكىء وإن الأنواع من الفاكهة ليقلن لولي الله: يا ولي الله كلمني قبل أن تأكل هذه قبلي.

وفي تفسير القمي في قوله: «ولدان مخلدون» قال: مسورون.

وفي المعاني بإسناده عن عباس بن يزيد قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام وكنت عنده ذات يوم: أخبرني عن قول الله عزّ وجل: ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾ ما هذا الملك الذي كبر الله عز وجل حتى سماه كبيراً؟ قال: إذا أدخل الله أهل الجنة الجنة أرسل رسولاً الى ولي من أوليائه فيجد الحجبة على بابه فتقول له: قف حتى نستأذن لك، فما يصل اليه رسول ربه إلا بإذن فهو قوله عزّ وجل: ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾.

وفي المجمع «وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً» لا يزول ولا يفنى عن الصادق عليه السلام.

وفيه «عاليهم ثياب سندس خضر» وروي عن الصادق عليه السلام في معناه: تعلوهم الثياب فيلبسونها[1].

٢٣ • إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً.

---

١. الدهر ٢٣ ـ ٣١: كلام في هوية الانسان على ما يفيده القرآن.

٢٤ ● فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاٰ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً.

٢٥ ● وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً.

٢٦ ● وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً.

٢٧ ● إِنَّ هٰؤُلاٰءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً.

٢٨ ● نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَإِذٰا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً.

٢٩ ● إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً.

٣٠ ● وَمٰا تَشَاؤُنَ إِلاّٰ أَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً.

٣١ ● يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظّٰالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ تصدير الكلام بإن وتكرار ضمير المتكلم مع الغير والاتيان بالمفعول المطلق كل ذلك للتأكيد، ولتسجيل أن الذي نزل من القرآن نجوماً متفرقة هو من الله سبحانه لم يداخله نفث شيطاني ولا هو نفساني.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاٰ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ تفريع على ما هو لازم مضمون الآيه السابقة فإن لازم كون الله سبحانه هو الذي نزّل القرآن عله أن يكون ما في القرآن من الحكم حكم ربه يجب أن يطاع فالمعنى إذا كان تنزيله منا فما فيه من الحكم حكم ربك فيجب عليك أن تصبر له فاصبر لحكم ربك.

وقوله: ﴿وَلاٰ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ ورود الترديد في سياق النهي يفيد عموم

الحكم فالنهي عن طاعتهما سواء اجتمعا أو افترقا، والظاهر أن المراد بالإثم المتلبس بالمعصية وبالكفور المبالغ في الكفر فتشمل الآية الكفار والفساق جميعاً.

وسبق النهي عن طاعة الإثم والكفور بالأمر بالصبر لحكم ربه يفيد كون النهي مفسراً للأمر فمفاد النهي أن لا تطع منهم آثماً إذا دعاك الى إثمه ولا كفوراً إذا دعاك الى كفره لأن إثم الآثم منهم وكفر الكافر مخالفان لحكم ربك وأما تعليق الحكم بالوصف المشعر بالعلية فإنما يفيد علية الإثم والكفر للنهي عن الطاعة مطلقاً لا عليتهما للنهي إذا دعا الآثم الى خصوص إثمه والكافر الى خصوص كفره.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي داوم على ذكر ربك وهو الصلاة في كل بكرة وأصيل وهما الغدو والعشي.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ «من» للتبعيض والمراد بالسجود له الصلاة، ويقبل ما في الآيتين من ذكر اسمه بكرة وأصيلا والسجود له بعض الليل الإنطباق على صلاة الصبح والعصر والمغرب والعشاء وهذا يؤيد نزول الآيات بمكة قبل فرض الفرائض الخمس بقوله في آية الإسراء: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر﴾ (الإسراء / ٧٨).

فالآيتان كقوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل﴾ (هود / ١١٤)، وقوله: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار﴾ (طه / ١٣٠).

نعم قيل: على ان الأصيل يطلق على ما بعد الزوال فيشمل قوله: «وأصيلا» وقتي صلاتي الظهر والعصر جميعاً، ولا يخلو من وجه.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ أي في ليل طويل ووصف الليل بالطويل توضيحي لا احترازي، والمراد بالتسبيح صلاة الليل، واحتمل أن يكون طويلا صفة لمفعول مطلق

محذوف، والتقدير سبحه في الليل تسبيحاً طويلا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾ تعليل لما تقدم من الأمر والنهي والإشارة بهؤلاء الى جمع الإثم والكفور المدلول عليه بوقوع النكرة في سياق النهي. والمراد بالعاجلة الحياة الدنيا. وعدّ اليوم ثقيلاً من الاستعارة، والمراد بثقله شدته كأنه محمول ثقيل يشق حمله، واليوم يوم القيامة.

وكون اليوم وراءهم تقرره أمامهم لأن وراء تفيد معنى الإحاطة، أو جعلهم إياه خلفهم ووراء ظهورهم بناء على إفادة «تذرون» معنى الإعراض.

والمعنى: فاصبر لحكم ربك وأقم الصلاة ولا تطع الآثمين والكفار منهم لأن هؤلاء الآثمين والكفار يحبون الحياة الدنيا فلا يعملون إلا لها ويتركون أمامهم يوماً شديداً أو يعرضون فيجعلون خلفهم يوماً شديداً سيلقونه.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ الشد خلاف الفك، والأسر في الأصل الشد والربط ويطلق على ما يشد ويربط به فمعنى شددنا أسرهم أحكمنا ربط مفاصلهم بالرباطات والأعصاب والعضلات أو الأسر بمعنى المأسور والمعنى أحكمنا ربط أعضائهم المختلفة المشدودة بعضها ببعض حتى صار الواحد منهم بذلك إنساناً واحدا.

وقوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ أي إذا شئنا بدلناهم أمثالهم فذهبنا بهم وجئنا بأمثالهم مكانهم وهو إماتة قرن وإحياء آخرين، وقيل المراد به تبديل نشأتهم الدنيا من نشأة القيامة وهو بعيد من السياق.

والآية في معنى دفع الدخل كأن متوهماً يتوهم أنهم بحبهم للدنيا وإعراضهم عن الآخرة يعجزونه تعالى ويفسدون عليه إرادته منهم أن يؤمنوا ويطيعوا فاجيب بأنهم مخلوقون لله خلقهم وشد أسرهم وإذا شاء أذهبهم وجاء بآخرين فكيف يعجزونه وخلقهم وأمرهم

وحياتهم وموتهم بيده ؟

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَآءَ اتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ تقدم تفسيره في سورة المزمل والإشارة بهذه الى ما ذكر في السورة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ الاستثناء من النفي يفيد أن مشية العبد متوقفة في وجودها على مشيته تعالى فلمشيته تعالى تأثير في فعل العبد من طريق تعلقها بمشية العبد. وليست متعلقة بفعل العبد مستقلاً وبلا واسطة حتى تستلزم بطلان تأثير إرادة العبد وكون الفعل جبرياً ولا أن العبد مستقل في إرادة يفعل ما يشاؤه شاء الله أو لم يشأ. فالفعل اختياري لاستناده الى اختيار العبد. وأما اختيار العبد فليس مستنداً الى اختيار آخر. وقد تكرر توضيح هذا البحث في مواضع مما تقدم.

والآية مسوقة لدفع توهم أنهم مستقلون في مشيتهم منقطعون من مشيَّة ربهم. ولعل تسجيل هذا التنبيه عليهم هو الوجه في الإلتفات الى الخطاب في قوله: «وما تشاؤن إلا أن يشاء الله» كما أن الوجه في الإلتفات من التكلم بالغير الى الغيبة في قوله: «يشاء الله إن الله» هو الإشارة الى علة الحكم فإن مسمَّى الإسم الجليل يبتدىء منه كل شيء وينتهي اليه كل شيء فلا تكون مشيَّة إلا بمشيَّته ولا تؤثر مشية إلا بإذنه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ توطئة لبيان مضمون الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ مفعول «يشاء» محذوف يدل عليه الكلام. والتقدير يدخل في رحمته من يشاء دخوله في رحمته. ولا يشاء إلا دخول من آمن واتقى. وأما غيرهم وهم أهل الإثم والكفر فبين حالهم بقوله: «والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً».

والآية تبين سنته تعالى الجارية في عباده من حيث السعادة والشقاء. وقد علل ذلك بما في

ذيل الآية السابقة من قوله: «إن الله كان علياً حكيماً» فأفاد به أن سنته تعالى ليست سنة جزافية مبنية على الجهالة بل هو يعامل كلاً من الطائفتين بما هو أهل له وسينبئهم حقيقة ما كانوا يعملون.

سورة المرسلات مكية وهي خمسون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • وَالمُرْسَلاتِ عُرْفاً.

٢ • فَالعَاصِفَاتِ عَصْفاً.

٣ • وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً.

٤ • فَالفَارِقَاتِ فَرْقاً.

٥ • فَالمُلْقِيَاتِ ذِكْراً.

٦ • عُذراً أَوْ نُذراً.

٧ • إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ.

٨ • فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ.

٩ • وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ.

١٠ • وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ.

١١ • وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ.

١٢ • لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ.

١٣ • لِيَوْمِ الْفَصْلِ.

١٤ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ.

١٥ • وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.

بيان:

تذكر السورة يوم الفصل وهو يوم القيامة وتؤكد الإخبار بوقوعه وتشفعه بالوعيد الشديد للمكذبين به والإنذار والتبشير لغيرهم ويربو فيها جانب الوعيد على غيره فقد كرر فيها قوله: «ويل يومئذ للمكذبين» عشر مرات.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً﴾ الآية وما يتلوها الى تمام آيات إقسام منه تعالى بامور يعبر عنها بالمرسلات فالعاصفات والناشرات فالفارقات فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا، والاوليان أعني المرسلات عرفاً والعاصفات عصفاً لا تخلوان لو خليتا ونفسهما مع الغض عن السياق من ظهور ما في الرياح المتعاقبة الشديدة الهبوب لكن الأخيرة أعني الملقيات ذكرا عذراً أو نذراً كالصريحة في الملائكة النازلين على الرسل الحاملين لوحي الرسالة الملقين له اليهم إتماماً للحجة أو إنذارا وبقية الصفات لا تأبى الحمل على ما يناسب هذا المعنى.

وحمل جميع الصفات الخمس على إرادة الرياح كما هو ظاهر المرسلات والعاصفات ـ على ما عرفت ـ يحتاج الى تكلف شديد في توجيه الصفات الثلاث الباقية وخاصة في الصفة الأخيرة.

وكذا حمل المرسلات والعاصفات على إرادة الرياح وحمل الثلاث الباقيات أو الأخيرتين أو الأخيرة فحسب على ملائكة الوحي إذ لا تناسب ظاهراً بين الرياح وبين ملائكة الوحي حتى يقارن بينها في الأقسام وينظم الجميع في سلك واحد، وما وجهوه من مختلف التوجيهات معان بعيدة عن الذهن لا ينتقل اليها في مفتتح الكلام من غير تنبيه سابق.

فالوجه هو الغض عن هذه الأقاويل وهي كثيرة جداً لا تكاد تنضبط، وحمل المذكورات على إرادة ملائكة الوحي كنظيرتها في مفتتح سورة الصافات ﴿**والصافات صفاً فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا**﴾ وفي معناها قوله تعالى: ﴿**عالم الغيبة فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم**﴾ (الجن / ٢٨).

فقوله: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً﴾ إقسام منه تعالى بها والعرف بالضم فالسكون الشعر النابت على عنق الفرس ويشبّه به الامور إذا تتابعت يقال: جاؤا كعرف الفرس، ويستعار فيقال: جاء القطا عرفاً أي متتابعة وجاؤا اليه عرفاً واحدا أي متتابعين، والعرف أيضاً المعروف من الأمر والنهي و«عرفاً» حال بالمعنى الأول مفعول له بالمعنى الثاني، والارسال خلاف الإمساك، وتأنيث المرسلات باعتبار الجماعات أو باعتبار الروح التي تنزل بها الملائكة قال تعالى: ﴿**ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده**﴾ (النحل / ٢) وقال: ﴿**يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده**﴾ (المؤمن / ١٥).

والمعنى أُقسم بالجماعات المرسلات من ملائكة الوحي.

وقيل: المراد بالمرسلات عرفاً الرياح المتتابعة المرسلة وقد تقدمت الإشارة الى ضعفه، ومثله في الضعف القول بأن المراد بها الأنبياء عليهم السلام فلا يلائمه ما يتلوها.

قوله تعالى: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً﴾ عطف على المرسلات والمراد بالعصف سرعة السير استعارة من عصف الرياح أي سرعة هبوبها إشارة الى سرعة سيرها الى ما ارسلت

اليه، والمعنى أُقسم بالملائكة الذين يرسلون متتابعين فيسرعون في سيرهم كالرياح العاصفة.

قوله تعالى: ﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً ﴾ إقسام آخر، ونشر الصحيفة والكتاب والثوب ونحوها: بسطه، والمراد بالنشر نشر صحف الوحي كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة﴾ (عبس / ١٦) والمعنى واقسم بالملائكة الناشرين للصحف المكتوبة عليها الوحي للنبي ليتلقاه.

وقيل: المراد بها الرياح ينشرها الله تعالى بين يدي رحمته وقيل: الرياح الناشرة للسحاب، وقيل: الملائكة الناشرين لصحائف الأعمال، وقيل: الملائكة نشروا أجنحتهم حين النزول وقيل: غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً ﴾ المراد به الفرق بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام، والفرق المذكور صفة متفرعة على النشر المذكور.

قوله تعالى: ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً عُذراً أَوْ نُذراً ﴾ المراد بالذكر القرآن يقرؤنه على النبي ﷺ أو مطلق الوحي النازل على الأنبياء المقروّ عليهم.

والصفات الثلاثة أعني النشر والفرق وإلقاء الذكر مترتبة فإن الفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام يتحقق بنشر الصحف وإلقاء الذكر فبالنشر يشرع الفرق في التحقيق وبالتلاوة يتم تحققه فالنشر يترتب عليه مرتبة من وجود الفرق ويترتب عليها تمام وجوده بالإلقاء.

وقوله: ﴿ عُذراً أَوْ نُذراً ﴾ هما من المفعول له و«أو» للتنويع قيل: هما مصدران بمعنى الإعذار والإنذار، والاعذار الإتيان بما يصير به معذورا والمعنى أنهم يلقون الذكر لتكون عذراً لعباده المؤمنين بالذكر وتخويفاً لغيرهم.

وقيل: ليكون عذرا يعتذر به الله الى عباده في العقاب أنه لم يكن إلا على وجه الحكمة، ويؤل الى إتمام الحجة. فحصل المعنى عليه أنهم يلقون الذكر ليكون إتماماً للحجة على المكذبين وتخويفاً لغيرهم. وهو معنى حسن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ جواب القسم، وما موصولة والخطاب لعامة البشر، والمراد بما توعدون يوم القيامة بما فيه العقاب والثواب والواقع أبلغ من الكائن لما فيه من شائبة الاستقرار، والمعنى أن الذي وعدكم الله به من البعث والعقاب والثواب سيتحقق لا محالة[1].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ـ الى قوله ـ أُقِّتَتْ﴾ بيان لليوم الموعود الذي اخبر بوقوعه في قوله: «إنما توعدون لواقع» وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله: «لأي يوم اجلت ـ الى قوله ـ للمكذبين».

وقد عرف سبحانه اليوم الموعود بذكر حوادث واقعة تلازم انقراض العالم الانساني وانقطاع النظام الدنيوي كانطماس النجوم وانشقاق الأرض واندكاك الجبال وتحول النظام الى نظام آخر يغايره، وقد تكرر ذلك في كثير من السور القرآنية وخاصة السور القصار كسورة النبأ والنازعات والتكوير والإنفطار والإنشقاق والفجر والزلزال والقارعة، وغيرها، وقد عدت الامور المذكورة فيها في الأخبار من أشراط الساعة.

ومن المعلوم بالضرورة من بيانات الكتاب والسنة أن نظام الحياة في جميع شؤنها في الآخره غير نظامها في الدنيا فالدار الآخرة دار أبدية فيها محض السعادة لساكنيها لهم فيها ما يشاؤن أو محض الشقاء وليس لهم فيها إلا ما يكرهون والدار الدنيا دار فناء وزوال لا يحكم فيها إلا الأسباب والعوامل الخارجية الظاهرية مخلوط فيها الموت بالحياة، والفقدان

---

١. المرسلات ١ ـ ١٥: كلام في اقسامه تعالى في القرآن.

بالوجدان، والشقاء بالسعادة، والتعب بالراحة، والمساءة بالسرور، والآخرة دار جـزاء ولا عمل والدنيا دار عمل ولا جزاء، وبالجملة النشأة غير النشأة.

فتعريفه تعالى نشأة البعث والجزاء بأشراطها التي فيها انطواء بساط الدنيا بخراب بـنيان أرضها وانتساف جبالها وانشقاق سمائها وانطماس نجومها الى غير ذلك من قبيل تحديد نشأة بسقوط النظام الحاكـم في نشأة أُخـرى قـال تـعالى: ﴿**ولقـد عـلمتم النشأة الاولى فـلولا تذكرون**﴾ (الواقعة / ٦٢).

فقوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي محي أثرها من النور وغـيره، والطـمس إزالة الأثر بالمحو قال تعالى: ﴿**وإذا النجوم انكدرت**﴾ (التكوير / ٢).

وقوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ أي انشقت، والفرج والفرجة الشق بين الشيئين قال تعالى: ﴿**إذا السماء انشقت**﴾ (الانشقاق / ١).

وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي قلعت وازيلت من قولهم: نسفت الريح الشيء أي اقتلعته وأزالته قال تعالى: ﴿**ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً**﴾ (طه / ١٠٥).

وقوله: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي عين لها الوقت الذي تحضر فيه للشهادة على الامم أو بلغت الوقت الذي تنتظره لأداء شهادتها على الامم من التأقيت بمعنى التوقيت، قال تعالى: ﴿**فلنسألن الذين أُرسل إليهم ولنسألن المرسلين**﴾ (الأعراف / ٦)، وقال: ﴿**يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم**﴾ (المائدة / ١٠٩).

قوله تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ـ الى قوله ـ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ الأجل المـدة المـضروبة للشيء، والتأجيل جعل الأجل للشيء، ويستعمل في لازمه وهـو التأخـير كـقولهم: ديـن مؤجل أي له مدة بخلاف الحال وهذا المعنى هو الأنسب للآية، والضمير في «أجلت» للامور المذكورة قبلاً من طمس النجوم وفرج السماء ونسف الجبال وتأقيت الرسل، والمعنى لأي يوم اخرت يوم أُخرت هذه الامور.

واحتمل أن يكون «أُجلت» بمعنى ضرب الأجل للشيء وأن يكون الضمير المقدر فيه راجعاً الى الرسل، أو الى ما يشعر به الكلام من الامور المتعلقة بالرسل مما أخبروه به من أحوال الآخرة وأهوالها وتعذيب الكافرين وتنعيم المؤمنين فيها، ولا يخلو كل ذلك من خفاء.

وقد سيقت الآية والتي بعدها أعني قوله: «لأي يوم أُجلت ليوم الفصل» في صورة الإستفهام وجوابه للتعظيم والتهويل والتعجيب وأصل المعنى أُخرت هذه الامور ليوم الفصل.

وهذا النوع من الجمل الاستفهامية في معنى تقدير القول، والمعنى إن من عظمة هذا اليوم وهوله وكونه عجباً أنه يسأل فيقال: لأي يوم أُخرت هذه الامور العظيمة الهائلة العجيبة فيجاب: ليوم الفصل.

وقوله: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ هو يوم الجزاء الذي فيه فصل القضاء قال تعالى: ﴿إن الله يفصل بينهم يوم القيامة﴾ (الحج / ١٧).

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ تعظيم لليوم وتفخيم لأمره.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ الويل الهلاك، والمراد بالمكذبين المكذبون بيوم الفصل الذي فيه ما يوعدون فإن الآيات مسوقة لبيان وقوعه وقد أقسم على أنه واقع.

وفي الآية دعاء على المكذبين، وقد استغني به عن ذكر جواب إذا في قوله: «فإذا النجوم طمست» الخ: والتقدير فإذا كان كذا وكذا وقع ما توعدون من العذاب على التكذيب أو التقدير فإذا كان كذا وكذا كان يوم الفصل وهلك المكذبون به.

١٦ ● أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ.

١٧ ● ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ.

١٨ ● كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ.

١٩ ● وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.

٢٠ ● أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ.

٢١ ● فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ.

٢٢ ● إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ.

٢٣ ● فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ.

٢٤ ● وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.

٢٥ ● أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً.

٢٦ ● أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً.

٢٧ ● وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً.

٢٨ ● وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.

٢٩ ● اِنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ.

٣٠ ● اِنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ.

٣١ ● لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ.

٣٢ ● إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ.

٣٣ ● كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ.

٣٤ ● وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.

٣٥ ● هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ.

٣٦ ● وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ.

٣٧ • وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.

٣٨ • هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ.

٣٩ • فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ.

٤٠ • وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.

٤١ • إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ.

٤٢ • وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ.

٤٣ • كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

٤٤ • إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.

٤٥ • وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.

٤٦ • كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ.

٤٧ • وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.

٤٨ • وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ.

٤٩ • وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.

٥٠ • فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ الاستفهام للإنكار، والمراد بالأولين أمثال قوم نوح وعاد وثمود من الأمم القديمة عهداً، وبالآخرين الملحقون بهم من الأمم الغابرة، والإتباع جعل الشيء إثر الشيء.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ﴾ برفع نتبع على الاستيناف وليس بمعطوف على «نهلك» وإلا

لجزم.

والمعنى قد أهلكنا المكذبين من الامم الأولين ثم إنا نهلك الامم الآخرين على إثرهم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ في موضع التعليل لما تقدمه ولذا أورد بالفصل من غير عطف كأن قائلاً قال: لما اهلكوا؟ فقيل: كذلك نفعل بالمجرمين. والآيات ـ كما ترى ـ إنذار وإرجاع للبيان الى الأصل المضروب في السورة أعني قوله: «ويل يومئذ للمكذبين» وهي بعينها حجة على توحد الربوبية فإن إهلاك المجرمين من الانسان تصرف في العالم الانساني وتدبير، وإذا ليس المهلك إلا الله ـ وقد اعترف به المشركون ـ فهو الرب لا رب سواه ولا إله غيره.

على أنها تدل على وجود يوم الفصل لأن إهلاك قوم لإجرامهم لا يتم إلا بعد توجه تكليف اليهم يعصونه ولا معنى للتكليف إلا مع مجازاة المطيع بالثواب والعاصي بالعقاب فهناك يوم يفصل فيه القضاء فيثاب فيه المطيع ويعاقب فيه العاصي وليس هو الثواب والعقاب الدنيويين لأنهما لا يستوعبان في هذه الدار فهناك يوم يجازى فيه كل بما عمل، وهو يوم الفصل ذلك يوم مجموع له الناس.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ـ الى قوله ـ فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، والماء المهين الحقير قليل الغناء والمراد به النطفة، والمراد بالقرار المكين الرحم وبقوله: «قدر معلوم» مدة الحمل.

وقوله: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ من القدر بمعنى التقدير، والفاء لتفريع القدر على الخلق أي خلقناكم فقدرنا ما سيجري عليكم من الحوادث وما يستقبلكم من الأوصاف والأحوال من طول العمر وقصره وهيئة وجمال وصحة ومرض ورزق الى غير ذلك.

والمعنى: قد خلناكم من ماء حقير هو النطفة فجعلنا ذلك الماء في قرار مكين هي الرحم الى مدة معلومة هي مدة الحمل فقدّرنا جميع ما يتعلق بوجودكم من الحوادث والصفات

والأحوال فنعم المقدرون نحن.

ويجري في كون مضمون هذه الآيات حجة على توحد الربوبية نظير البيان السابق في الآيات المتقدمة، وكذا في كونه حجة على تحقق يوم الفصل فإن الربوبية تستوجب خضوع المربوبين لساحتها وهو الدين المتضمن للتكليف، ولا يتم التكليف إلا بجعل جزاء على الطاعة والعصيان، واليوم الذي يجازى فيه بالأعمال هو يوم الفصل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً - الى قوله - فُرَاتاً﴾ الكفت والكفات بمعنى الضم والجمع أي ألم نجعل الارض كفاتاً بجمع العباد أحياء وأمواتاً، وقيل: الكفات جمع كفت بمعنى الوعاء، والمعنى ألم نجعل الأرض أوعية تجمع الأحياء والأموات.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ الرواسي الثابتات من الجبال، والشامخات العاليات، وكأن في ذكر الرواسي توطئة لقوله: «وأسقيناكم ماء فراتاً» لأن الأنهار والعيون الطبيعية تنفجر من الجبال فتجري على السهول، والفرات الماء العذب.

ويجري في حجية الآيات نظير البيان السابق في الآيات المتقدمة.

قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ حكاية لما يقال لهم يوم الفصل والقائل هو الله سبحانه بقرينة قوله في آخر الآيات: «إن كان لكم كيد فكيدون» والمراد بما كانوا به يكذّبون: جهنم، والانطلاق الانتقال من مكان الى مكان من غير مكث، والمعنى يقال لهم: انتقلوا من المحشر من غير مكث الى النار التي كنتم تكذّبون به.

قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ ذكروا أن المراد بهذا الظل ظل دخان نار جهنم قال تعالى: ﴿وظل من يحموم﴾ (الواقعة / ٤٣).

وذكروا أن في ذكر انشعابه الى ثلاث شعب إشارة الى عظم الدخان فان الدخان العظيم يتفرق تفرق الذوائب.

قوله تعالى: ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ الظل الظليل هو المانع من الحر والأذى بستره على المستظل فكون الظل غير ظليل كونه لا يمنع ذلك، واللهب ما يعلو على النار من أحمر وأصفر وأخضر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ ضمير «إنها» للنار المعلومة من السياق، والشرر ما يتطاير من النار، والقصر معروف. والجمالة جمع جمل وهو البعير. والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ الإشارة الى يوم الفصل، والمراد بالإذن الإذن في النطق أو في الاعتذار.

وقوله: ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ معطوف على «يؤذن» منتظم معه في سلك النفي، والمعنى هذا اليوم يوم لا ينطقون فيه أي أهل المحشر من الناس. لا يؤذن لهم في النطق أو في الإعتذار فلا يعتذرون، ولا ينافي نفي النطق ههنا اثباته في آيات أُخر لأن اليوم ذو مواقف كثيرة مختلفة يسألون في بعضها فينطقون ويختم على أفواههم في آخر فلا ينطقون.

وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه﴾ (هود / ١٠٥) عليراجع.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ سمي يوم الفصل لما أن الله تعالى يفصل ويميّز فيه بين أهل الحق وأهل الباطل بالقضاء بينهم قال تعالى: ﴿ان ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (السجدة / ٢٥)، وقال: ﴿ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (يونس / ٩٣).

والخطاب في قوله: «جمعناكم والأولين» لمكذّبي هذه الامة بما أنهم من الآخرون ولذا قوبلوا بالأولين قال تعالى: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾ (هود / ١٠٣) وقال: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾ (الكهف / ٦٧).

وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ أي ان كانت لكم حيلة تحتالون بي في دفع عذابي عن أنفسكم فاحتالوا. وهذا خطاب تعجيزي منبيء عن انسلاب القوة والقدرة عنهم يومئذ بالكلية بظهور أن لا قوة الا لله عز اسمه قال تعالى: ﴿ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب اذ تبرء الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ (البقرة / ١٦٦).

والآية أعني قوله: «ان كان لكم كيد فكيدون» أوسع مدلولاً من قوله: ﴿يا معشر الجن والإنس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ (الرحمن / ٣٣) لاختصاصه بنفي القدرة على الفرار بخلاف الآية التي نحن فيها.

وفي قوله: ﴿فَكِيدُونِ﴾ التفات من التكلم مع الغير الى التكلم وحده والنكتة فيه أن متعلق هذا الأمر التعجيزيّ إنما هو الكيد لمن له القوة والقدرة فحسب وهو الله وحده ولو قيل: فكيدونا فات الإشعار بالتوحُّد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ - الى قوله - الْمُحْسِنِينَ﴾ الظلال والعيون ظلال الجنة وعيونها التي يتنعمون بالاستظلال بها وشربها، والفواكه جمع فاكهة وهي الثمرة.

وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مفاده الإذن والإباحة، وكأن الأكل والشرب كناية عن مطلق التنعم بنعم الجنة والتصرف فيها وإن لم يكن بالأكل والشرب، وهو شائع كما يطلق أكل المال على مطلق التصرف فيه.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تسجيل لسعادتهم.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ الخطاب من قبيل قولهم: إفعل ما شئت فانه لا ينفعك، وهذا النوع من الأمر إياس للمخاطب أن ينتفع بما يأتي به من الفعل للحصول على ما يريده، ومنه قوله: ﴿فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾

(طه / ٧٢)، وقوله: ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ (حم السجدة / ٦٠).

فقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً﴾ أي تمتعاً قليلاً او زماناً قليلا إياس لهم من أن ينتفعوا بمثل الأكل والتمتع في دفع العذاب عن أنفسهم فليأكلوا وليتمتعوا قليلا فليس يدفع عنهم شيئاً.

وإنما ذكر الأكل والتمتع لأن منكري المعاد لا يرون من السعادة إلا سعادة الحياة الدنيا ولا يرون لها من السعادة إلا الفوز بالأكل والتمتع كالحيوان العجم قال تعالى: ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ (سورة محمد / ١٢).

وقوله: «إنكم مجرمون» تعليل لما يستفاد من الجملة السابقة المشتملة على الأمر أي لا ينفعكم الأكل والمتمتع قليلا لأنكم مجرمون بتكذيبكم بيوم الفصل وجزاء المكذبين به النار لا محالة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ المراد بالركوع الصلاة كما قيل ولعل ذلك باعتبار اشتمالها على الركوع.

وقيل: المراد بالركوع المأمور به الخشوع والخضوع والتواضع له تعالى باستجابة دعوته وقبول كلامه واتباع دينه، وعبادته.

ووجه اتصال الآية بما قبلها أن الكلام كان مسوقاً لتهديد المكذبين بيوم الفصل وبيان تبعة تكذيبهم به وتم ذلك في هذه الآية بأنهم لا يعبدون الله إذا دعوا الى عبادته كما ينكرون ذلك اليوم فلا معنى للعبادة مع نفي الجزاء، وليكون كالتوطئة لقوله الآتي: «فبأيّ حديث بعده يؤمنون».

ونسب الى الزمخشري أن الآيه متصلة بقوله في الآية السابقة: «للمكذبين» كأنه قيل: ويل يومئذ للذين كذبوا والذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون.

وفي الآية التفات من الخطاب الى الغيبة في قوله: «وإذا قيل لهم» الخ؛ وجهه الإعراض عن

مخاطبتهم بعد تركهم وأنفسهم يفعلون ما يشاؤن بقوله: «كلوا وتمتعوا».

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إذا لم يؤمنوا بالقرآن وهو آية معجزة إلهية، وقد بين لهم أنّ الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن أمامهم يوم الفصل بأوضح البيان وساطع البرهان فبأي كلام بعد القرآن يؤمنون.

وهذا إيئاس من إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر وكالتنبيه على أن رفع اليد عن دعوتهم الى الإيمان بإلقاء قوله: «كلوا وتمتعوا» اليهم في محله فليسوا بمؤمنين ولا فائدة في دعوتهم غير أن فيها إتماماً للحجة.

سورة النبأ مكية وهي أربعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● عَمَّ يَتَسٰاءَلُونَ.

٢ ● عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ.

٣ ● الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ.

٤ ● كَلّاٰ سَيَعْلَمُونَ.

٥ ● ثُمَّ كَلّاٰ سَيَعْلَمُونَ.

٦ ● أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهٰاداً.

٧ ● وَالْجِبٰالَ أَوْتَاداً.

٨ ● وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوٰاجاً.

٩ ● وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبٰاتاً.

١٠ ● وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبٰاساً.

١١ ● وَجَعَلْنَا النَّهٰارَ مَعٰاشاً.

١٢ ● وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً.

١٣ ● وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً.

١٤ ● وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً.

١٥ ● لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً.

١٦ ● وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ «عم» أصله عمّا وما استفهامية تحذف الألف منها اطّراداً إذا دخل عليها حرف الجر نحو لم وممّ وعلام والى م، والتساؤل سؤال القوم بعضهم بعضاً عن أمر أو سؤال بعضهم بعد بعض عن أمر وإن كان المسؤول غيرهم، فهم كان يسأل بعضهم بعضاً عن أمر أو كان بعضهم بعد بعض يسأل النبي ﷺ عن أمر وحيث كان سياق السورة سياق جواب يغلب فيه الإنذار والوعيد تأيّد به أن المتسائلين هم كفار مكة من المشركين النافين للنبوة والمعاد دون المؤمنين ودون الكفار والمؤمنين جميعاً.

فالتساؤل من المشركين والإخبار عنه في صوره الاستفهام للإشعار بهوانه وحقارته لظهور الجواب عنه ظهوراً ما كان ينبغي معه أن يتساءلوا عنه.

قوله تعالى: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ جواب عن الاستفهام السابق أي يتسائلون عن النبأ العظيم، ولا يخفى ما في توصيف النبأ المتسائل عنه بالعظيم من تعظيمه وتفخيم أمره.

والمراد بالنبإ العظيم نبؤ البعث والقيامة الذي يهتم به القرآن العظيم في سوره المكية ولاسيما في العتائق النازلة في أوائل البعثة كل الاهتمام.

ويؤيد ذلك سياق آيات السورة بما فيه من الاقتصار على ذكر صفة يوم الفصل وما تقدم عليها من الحجة على أنه حق واقع.

وقوله: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ إنما اختلفوا في نحو إنكاره وهم متفقون في نفيه فنهم من كان يرى استحالته فينكره كما هو ظاهر قولهم على ما حكاه الله: ﴿هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل مزق إنكم لفي خلق جديد﴾ (سبأ / ٧). ومنهم من كان يستعبده فينكره وهو قولهم: ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون﴾ (المؤمنون / ٣٦)، ومنهم من كان يشك فيه فينكره قال تعالى: ﴿بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها﴾ (النمل / ٦٦)، ومنهم من كان يوقن به لكنه لا يؤمن عناداً فينكره كما كان لا يؤمن بالتوحيد والنبوة وسائر فروع الدين بعد تمام الحجة عناداً قال تعالى: ﴿بل لجوا في عتو ونفور﴾ (الملك / ٢١).

والمحصل من سياق الآيات الثلاث وما يتلوها أنهم لما سمعوا ما ينذرهم به القرآن من أمر البعث والجزاء يوم الفصل ثقل عليهم ذلك فغدوا يسأل بعضهم بعضاً عن شأن هذا النبإ العجيب الذي لم يكن مما قرع أسماعهم حتى اليوم، وربما راجعوا النبي ﷺ والمؤمنين وسألوهم عن صفة اليوم وأنه متى هذا الوعد إن كنتم صادقين وربما كانوا يراجعون في بعض ما قرع سمعهم من حقائق القرآن واحتوته دعوته الجديدة أهل الكتاب وخاصة اليهود ويستمدونهم في فهمه.

وقد أشار تعلى في هذه السورة الى قصة تساؤلهم في صورة السؤال والجواب فقال: «عم يتساءلون» وهو سؤال عما يتساءلون عنه. ثم قال: «عن النبإ العظيم الذي هم فيه مختلفون» وهو جواب السؤال عما يتساءلون عنه. ثم قال: «كلا سيعلمون» الخ؛ وهو جواب عن تساؤلهم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردع عن تساؤلهم عنه بانين ذلك

على الاختلاف في النفي أي ليرتدعوا عن التساؤل لأنه سينكشف لهم الأمر بوقوع هذا النبأ فيعلمونه، وفي هذا التعبير تهديد كما في قوله: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ (الشعراء / ٢٢٧).

وقوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيد للردع والتهديد السابقين ولحن التهديد هو القرينة على أن المتسائلين هم المشركون النافون للبعث والجزاء دون المؤمنين ودون المشركين والمؤمنين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً﴾ الآية الى تمام إحدى عشرة آية مسوق سوق الاحتجاج على ثبوت البعث والجزاء وتحقق هذا النبإ العظيم ولازم ثبوته صحة ما في قوله: «سيعلمون» من الإخبار أنهم سيشاهدونه فيعلمون.

تقرير الحجة: أن العالم المشهود بأرضه وسمائه وليله ونهاره والبشر المتناسلين والنظام الجاري فيها والتدبير المتقن الدقيق لامورها من المحال أن يكون لعباً باطلاً لا غاية لها ثابتة باقية فمن الضروري أن يستعقب هذا النظام المتحول المتغير الدائر الى علم ذي نظام ثابت باق، وأن يظهر فيه أثر الصلاح الذي تدعو اليه الفطرة الانسانية والفساد الذي تردع عنه، ولم يظهر في هذا العالم المشهود أعني سعادة المتقين وشقاء المفسدين، ومن المحال أن يودع الله الفطرة دعوة غريزية أو ردعاً غريزياً بالنسبة الى ما لا أثر له في الخارج ولا حظ له من الوقوع فهناك يوم يلقاه الانسان ويجزى فيه على عمله إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً.

فالآيات في معنى قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين منوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ (ص / ٢٨).

وبهذا البيان يثبت أن هناك يوماً يلقاه الانسان ويجزى فيه بما عمل إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً فليس للمشركين أن يختلفوا فيه فيشك فيه بعضهم ويستبعده طائفة، ويحيله قوم،

ولا يؤمن به مع العلم به عناداً آخرون، فاليوم ضروري الوقوع والجزاء لا ريب فيه.

وكيف كان فقوله: «ألم نجعل الأرض مهاداً» الاستفهام للإنكار، والمهاد الوطاء والقرار الذي يتصرف فيه، ويطلق على البساط الذي يجلس عليه والمعنى قد جعلنا الأرض قراراً لكم تستقرون عليها وتتصرفون فيها.

قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ الأوتاد جمع وتد وهو المسمار إلا أنه أغلظ منه كما في المجمع، ولعل عدّ الجبال أوتاداً مبنيّ على أن عمدة جبال الأرض من عمل البركانات بشق الأرض فتخرج منه مواد أرضية مذابة تنتصب على فم الشقة متراكمة كهيئة الوتد المنصوب على الأرض تسكن به فورة البركان الذي تحته فيرتفع به ما في الأرض من الاضطراب والميدان.

وعن بعضهم: أن المراد بجعل الجبال أوتاداً انتظام معاش أهل الأرض بما أُودع فيها من المنافع ولولاها لمادت الأرض بهم أي لما تهيأت لانتفاعهم. وفيه أنه صرف اللفظ عن ظاهره من غير ضرورة موجبة.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً﴾ أي زوجاً زوجاً من ذكر وأُنثى لتجري بينكم سنّة التناسل فيدوم بقاء النوع الى ما شاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾ السبات الراحة والدعة فإن في المنام سكوتاً وراحة للقوى الحيوانية البدنية مما اعتراها في اليقظة من التعب والكلال بواسطة تصرفات النفس فيها.

وقيل: السبات بمعنى القطع وفي النوم قطع التصرفات النفسانية في البدن، وهو قريب من سابقه.

وقيل: المراد بالسبات الموت، وقد عد سبحانه النوم من الموت حيث قال: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ (الأنعام / ٦٠) وهو بعيد، وأما الآية فإنه تعالى عدّ النوم توفياً ولم يعده موتاً

بل القرآن يصرح بخلافه قال تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ (الزمر / ٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ أي ساتراً يستر الأشياء بما فيه من الظلمة الساترة للمبصرات كما يستر اللباس البدن وهذا سبب إلهي يدعو الى ترك التقلب والحركة والميل الى السكن والدعة والرجوع الى الأهل والمنزل.

وعن بعضهم: أن المراد بكون الليل لباساً كونه كاللباس للنهار يسهل إخراجه منه وهو كما ترى.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾ العيش هو الحياة ـ على ما ذكره الراغب ـ غير أن العيش يختص بحياة الحيوان فلا يقال: عيشه تعالى وعيش الملائكة ويقال حياته تعالى وحياة الملائكة، والمعاش مصدر ميميّ واسم زمان واسم مكان، وهو في الآية بأحد المعنيين الأخيرين، والمعنى وجعلنا النهار زماناً لحياتكم أو موضعاً لحياتكم تبتغون فيه من فضل ربكم، وقيل: المراد به المعنى المصدريّ بحذف مضاف، والتقدير وجعلنا النهار طلب معاش أي مبتغي معاش.

قوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً﴾ أي سبع سماوات شديدة في بنائها.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾ الوهاج شديد النور والحرارة والمراد بالسراج الوهاج: الشمس.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾ المعصرات السحب الماطرة وقيل: الرياح التي تعصر السحب لتمطر والثجّاج الكثير الصبّ للماء، والأولى على هذا المعنى أن تكون «من» بمعنى الباء.

قوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً﴾ أي حباً ونباتاً يقتات بهما الإنسان وسائر الحيوان.

قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾ معطوف على قوله: «حباً» وجنات ألفاف أي ملتفة أشجارها بعضها ببعض.

قيل: إن الألفاف جمع لا واحد له من لفظه.

١٧ ● إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً.

١٨ ● يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً.

١٩ ● وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً.

٢٠ ● وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً.

٢١ ● إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً.

٢٢ ● لِلطَّاغِينَ مَآباً.

٢٣ ● لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً.

٢٤ ● لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً.

٢٥ ● إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً.

٢٦ ● جَزَاءً وِفَاقاً.

٢٧ ● إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً.

٢٨ ● وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً.

٢٩ ● وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً.

٣٠ ● فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً.

٣١ ● إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً.

٣٢ ● حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً.

٣٣ ● وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً.

٣٤ ● وَكَأْساً دِهَاقاً.

٣٥ ● لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً.

٣٦ ● جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً.

٣٧ ● رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمٰنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً.

٣٨ ● يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالمَلٰئِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً.

٣٩ ● ذٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَآءَ اتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ مَآباً.

٤٠ ● إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً﴾ قال في المجمع: الميقات منتهى المقدار المضروب لحدوث أمر من الامور وهو من الوقت كما أن الميعاد من الوعد والمقدار من القدر، انتهى.

شروع في وصف ما تضمنه النبأ العظيم الذي أخبر بوقوعه وهددهم به في قوله: «كلا سيعلمون» ثم أقام الحجة عليه بقوله: «ألم نجعل الأرض مهاداً» الخ؛ وقد سماه يوم الفصل ونبه به على أنه يوم يفصل فيه القضاء بين الناس فينال كل طائفة ما يستحقه بعمله فهو ميقات

وحد مضروب لفصل القضاء بينهم والتعبير بلفظ «كان» للدلالة على ثبوته وتعينه في العلم الإلهي على ما ينطق به الحجة السابقة الذكر، ولذا أكد الجملة بإن.

والمعنى: إن يوم فصل القضاء الذي نبؤه نبأ عظيم كان في علم الله يوم خلق السماوات والأرض وحكم فيها النظام الجاري حداً مضروباً ينتهي اليه هذا العالم فإنه تعالى كان يعلم أن هذه النشأة التي أنشأها لا تتم إلا بالانتهاء الى يوم يفصل فيه القضاء بينهم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ قد تقدم الكلام في معنى نفخ الصور كراراً، والأفواج جمع فوج وهي الجماعة المارة المسرعة على ما ذكره الراغب.

وفي قوله: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ جري على اخطاب السابق الملتفت اليه قضاء لحق الوعيد الذي يتضمنه قوله: «كلا سيعلمون» وكأن الآية ناظرة الى قوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أُناس بإمامهم﴾ (الإسراء / ٧١).

قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً﴾ فاتصل به عالم الإنسان بعالم الملائكة.

وقيل: التقدير فكانت ذات أبواب، وقيل: صار فيها طرق ولم يكن كذلك من قبل، ولا يخلو الوجهان من تحكم فليتدبر.

قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ السراب هو الموهوم من الماء اللامع في المفاوز ويطلق على كل ما يتوهم ذا حقيقة ولا حقيقة له على طريق الاستعارة.

ولعل المراد بالسراب في الآية هو المعنى الثاني.

بيان ذلك: أن تسيير الجبال ودكها ينتهي بالطبع الى تفرق أجزائها وزوال شكلها كما وقع في مواضع من كلامه تعالى عند وصف زلزلة الساعة وآثارها إذ قال: ﴿وتسير الجبال سيراً﴾ (الطور / ١٠) وقال: ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ (الحاقة / ١٤)، وقال: ﴿وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ (المزمل / ١٤)، وقال: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾

(القارعة / ٥)، وقال: ﴿وبست الجبال بساً﴾ (الواقعة / ٥)، وقال: ﴿وإذا الجبال نسفت﴾ (المرسلات / ١٠).

فتسيير الجبال ودكها ينتهي بها الى بسها ونسفها وصيرورتها كثيباً مهيلاً وكالعهن المنفوش كما ذكره الله تعالى وأما صيرورتها سراباً بمعنى ما يتوهم ماء لامعاً فلا نسبة بين التسيير وبين السراب بهذا المعنى.

نعم ينتهي تسييرها الى انعدامها وبطلان كينونتها وحقيقتها بمعنى كونها جبلاً فالجبال الراسيات التي كانت ترى حقائق ذوات كينونة قوية لا تحركه العواصف تتبدل بالتسيير سراباً باطلاً لا حقيقة له. ونظيره من كلامه تعالى قوله في أقوام أهلكهم وقطع دابرهم: ﴿فجعلناهم أحاديث﴾ (سبأ / ١٩)، وقوله: ﴿فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث﴾ (المؤمنون / ٤٤)، وقوله في الأصنام: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ (النجم / ٢٣).

فالآية بوجه كقوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ (النمل / ٨٨) ـ بناء على كونه ناظراً الى صفة زلزلة الساعة ـ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾ قال في المفردات: الرصد الاستعداد للترقب ـ الى أن قال ـ والمرصد موضع الرصد قال تعالى: «واقعدوا لهم كل مرصد» والمرصاد نحوه لكن يقال للمكان الذي اختص بالرصد قال تعالى: «إن جهنم كانت مرصاداً» تنبيهاً على أن عليها مجاز الناس، وعلى هذا قوله تعالى: «وإن منكم إلا واردها». انتهى.

قوله تعالى: ﴿لِلطَّاغِينَ مَآباً﴾ الطاغون المتلبسون بالطغيان وهو الخروج عن الحد، والمآب اسم مكان من الأوب بمعنى الرجوع، والعناية في عدها مآباً للطاغين أنهم هيئوها مأوى لأنفسهم وهم في الدنيا ثم إذا انقطعوا عن الدنيا آبوا ورجعوا اليها.

قوله تعالى: ﴿ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ الأحقاب الأزمنة الكثيرة والدهور الطويلة من غير تحديد.

وهو جمع اختلفوا في واحدة فقيل: واحده حقب بالضم فالسكون أو بضمتين، وقد وقع في قوله تعالى: ﴿ او أمضي حقبا ﴾ (الكهف / ٦٠)، وقيل: حقب بالفتح فالسكون وواحد الحقب حقبة بالكسر فالسكون قال الراغب: والحق أن الحقبة مدة من الزمان مبهمة. انتهى.

وحد بعضهم الحقب بثمانين سنة أو ببضع وثمانين سنة وزاد آخرون أن السنة منها ثلاثمائة وستون يوماً كل يوم يعدل ألف سنة، وعن بعضهم أن الحقب أربعون سنة وعن آخرين أنه سبعون ألف سنة الى غير ذلك ولا دليل من الكتاب يدل على شيء من هذه التحديدات ولم يثبت من اللغة شيء منها.

وظاهر الآية أن المراد بالطاغين المعاندون من الكفار ويؤيده قوله ذيلاً: «إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا».

وقد فسروا «أحقابا» في الآية بالحقب بعد الحقب فالمعنى حالكون الطاغين لابثين في جهنم حقباً بعد حقب بلا تحديد ولا نهاية فلا تنفي الآية ما نص عليه القرآن من خلود الكفار في النار.

قوله: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً ﴾ ظاهر المقابلة بين البرد والشراب أن المراد بالبرد مطلق ما يتبرد به غير الشراب كالظل الذي يستراح اليه بالاستظلال فالمراد بالذوق مطلق النيل والمس.

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً ﴾ الحميم الماء الحار شديد الحر، والغساق صديد أهل النار.

قوله تعالى: ﴿ جَزَاءً وِفَاقاً ـ الى قوله ـ كِتَاباً ﴾ المصدر بمعنى اسم الفاعل والمعنى يجزون جزاء موافقاً لما عملوا أو بتقدير مضاف أي جزاءً ذا وفاق او اطلاق الوفاق على الجزاء

للمبالغة كزيد عدل.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً﴾ اي تكذيباً عجيباً يصرون عليه، تعليل يوضح موافقة جزائهم لعملهم، وذلك أنهم لم يرجوا الحساب يوم الفصل فأيسوا من الحياة الآخره وكذبوا بالآيات الدالة فأنكروا التوحيد والنبوة وتعدوا في أعمالهم طور العبودية فنسوا الله تعالى فنسيهم وحرم عليهم سعادة الدار الآخرة فلم يبق لهم إلا الشقاء ولا يجدون فيها إلا ما يكرهون، ولا يواجهون إلا ما يتعذبون به وهو قوله: «فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا».

وفي الآية أعني قوله: «جزاء وفاقاً» دلالة على المطابقة التامة بين الجزاء والعمل فالإنسان لا يريد بعمله إلا الجزاء الذي بإزائه والتلبس بالجزاء تلبس بالعمل بالحقيقة قال تعالى: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ (التحريم / ٧).

وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً﴾ أي كل شيء ومنه الأعمال ضبطناه وبيناه في كتاب جليل القدر فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ (يس / ١٢).

أو المراد وكل شيء حفظناه حال كونه مكتوباً أي في اللوح المحفوظ أو في صحائف الأعمال، وجوز أن يكون الإحصاء بمعنى الكتابة أو الكتابة بمعنى الإحصاء فإن الإحصاء والكتابة يتشاركان في معنى الضبط والمعنى كل شيء أحصيناه إحصاء أو كل شيء كتبناه كتاباً.

والآية على أي حال متمم للتعليل السابق. والمعنى الجزاء موافق لأعمالهم لأنهم كانوا على حال كذا وكذا وقد حفظناها عليهم فجزيناهم بها جزاء وفاقاً.

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً﴾ تفريع على ما تقدم من تفصيل عذابهم مسوق لإيئاسهم من أن يرجوا نجاة من الشقوة وراحة ينالونها.

والإلتفات الى خطابهم بقوله: «فذوقوا» تقدير لحضورهم ليخاطبوا بالتوبيخ والتقريع بلا واسطة.

والمراد بقوله: «فلن نزيدكم إلا عذاباً» أن ما تذوقونه بعد عذاب ذقتموه عذاب آخر فهو عذاب بعد عذاب وعذاب على عذاب فلا تزالون يضاعف عذاب جديد الى عذابكم القديم فاقنطوا من أن تنالوا شيئاً مما تطلبون وتحبون.

والآية لا تخلو من ظهور في كون المراد بقوله: «لابثين فيها أحقاباً» الخلود دون الانقطاع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ـ الى قوله ـ كِذَّاباً﴾ الفوز الظفر بالخير مع حصور السلامة ـ على ما قاله الراغب ـ ففيه معنى النجاة والتخلص من الشر والحصول على الخير، والمفاز مصدر ميمي أو اسم مكان من الفوز والآية تحتمل الوجهين جميعاً.

وقوله: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً﴾ الحدائق جمع حديقة وهي البستان المحوّط، والأعناب جمع عنب وهو ثمر شجرة الكرم وربما يطلق على نفس الشجرة.

وقوله: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب وهي الفتاة التي تكعّب ثدياها واستدار مع ارتفاع يسير، والتراتب جمع ترب وهي المماثلة لغيرها من اللذات.

وقوله: ﴿وَكَأْساً دِهَاقاً﴾ أي ممتلئة شراباً مصدر بمعنى اسم الفاعل.

وقوله: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً﴾ أي لا يسمعون في الجنة لغواً من القول لا يترتب عليه أثر مطلوب ولا تكذيباً من بعضهم لبعضهم فيما قال فقولهم حق له أثره المطلوب وصدق مطابق للواقع.

قوله تعالى: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً﴾ أي فعل بالمتقين ما فعل حالكونه جزاء من ربك عطيّة محسوبة فقوله: «جزاء» حال وكذا «عطاءً» و«حساباً» بمعنى اسم المفعول صفة لعطاء، ويحتمل أن يكون عطاء تمييزاً أو مفعولاً مطلقاً.

قيل: إضافة الجزاء الى الرب مضافاً الى ضميره ﷺ تشريف له، ولم يضف جزاء

الطاغين اليه تعالى تنزهاً منه تعالى فليس يغشاهم شرّ إلا من عند أنفسهم قال تعالى: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلّام للعبيد﴾ (الأنفال / ٥١).

ووقوع لفظ الحساب في ذيل جزاء الطاغين والمتقين معاً لتتبين ما يلوّح اليه يوم الفصل الواقع في أول الكلام.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمٰنِ﴾ بيان لقوله: «ربك» أُريد به أن ربوبيته تعالى عامة لكل شيء وأن الرب الذي يتخذه النبي ﷺ رباً ويدعو اليه رب كل شيء لا كما كان يقول المشركون: إن لكل طائفة من الموجودات رباً والله سبحانه رب الأرباب أو كما كان يقول بعضهم: إنه رب السماء.

وفي توصيف الرب بالرحمن ـ صيغة مبالغة من الرحمة ـ إشارة الى سعة رحمته وأنها سمة ربوبية لا يحرم منها شيء إلا أن يمتنع منها شيء بنفسه لقصوره وسوء اختياره فمن شقوة هؤلاء الطاغين أنهم حرّموها على أنفسهم بالخروج عن طور العبودية.

قوله تعالى: ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلٰئِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ وقوع صدر الآيه في سياق قوله: «رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن» ـ وشأن الربوبية هو التدبير وشأن الرحمانية بسط الرحمة ـ دليل على أن المراد بخطابه تعالى تكليمه في بعض ما فعل من الفعل بنحو السؤال عن السبب الداعي الى الفعل كأن يقال: لم فعلت هذا؟ ولِمَ لم تفعل كذا؟ كما يسأل الفاعل منا عن فعله فتكون الجملة «لا يملكون منه خطاباً» في معنى قوله تعالى: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ (الأنبياء / ٢٣) وقد تقدم الكلام في معنى الآية.

لكن وقوع قوله: «يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً» بعد قوله: «لا يملكون منه خطاباً» الظاهر في اختصاص عدم الملك بيوم الفصل مضافاً الى وقوعه في سياق تفصيل جزاء الطاغين والمتقين منه تعالى يوم الفصل يعطي أن يكون المراد به أنهم لا يملكون أن يخاطبوه فيما يقضي

ويفعل بهم باعتراض عليه أو شفاعة فيهم لكن الملائكة ـ وهم ممن لا يملكون منه خطاباً ـ منزهون عن وصمة الاعتراض عليه تعالى وقد قال فيهم: ﴿عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ (الأنبياء / ٢٧) وكذلك الروح الذي هو[١] كلمته وقوله، وقوله[٢] حق، وهو تعالى[٣] الحق المبين والحق لا يعارض الحق ولا يناقضه.

ومن هنا يظهر أن المراد بالخطاب الذي لا يملكونه هو الشفاعة وما يجري مجراها من وسائل التخلص من الشر كالعدل والبيع والخلة والدعاء والسؤال قال تعالى: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة﴾ (البقرة ٢٥٤)، وقال: ﴿ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة﴾ (البقرة / ١٢٣)، وقال: ﴿يوم يأت لا تكلّم نفس إلا بإذنه﴾ (هود / ١٠٥).

وبالجملة قوله: «لا يملكون منه خطاباً» ضمير الفاعل في «لا يملكون» لجميع المجموعين ليوم الفصل من الملائكة والروح والإنس والجن كما هو المناسب للسياق الحاكي عن ظهور العظمة والكبرياء دون خصوص الملائكة والروح لعدم سبق الذكر ودون خصوص الطاغين كما قيل لكثرة الفصل، والمراد بالخطاب الشفاعة وما يجري مجراها كما تقدم.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَٰئِكَةُ صَفّاً﴾ ظرف لقوله: «لا يملكون» وقيل: لقوله: «لا يتكلمون» وهو بعيد مع صلاحية ظرفيته لما سبقه.

والمراد بالروح المخلوق الأمري الذي يشير اليه قوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ (الإسراء / ٨٥).

وقوله: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ بيان لقوله: «لا يملكون منه خطاباً» وضمير الفاعل لأهل الجمع من الروح والملائكة والإنس والجن على ما يفيده السياق.

---

١. النحل: ٤٠.

٢. الانعام: ٧٣.

٣. النور: ٢٥.

وقيل: الضمير للروح والملائكة. وقيل: للناس ووقع «لا يملكون» بما مرّ من معناه و«لا يتكلمون» في سياق واحد لا يلائم شيئاً من القولين.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ﴾ بدل من ضمير الفاعل في «لا يتكلمون» أُريد به بيان من له أن يتكلم منهم يومئذ باذن الله فالجملة في معنى قوله: ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا باذنه﴾ (هود / ١٠٥) على ظاهر إطلاقه.

وقوله: ﴿وَقَالَ صَوَاباً﴾ أي قال قولاً صواباً لا يشوبه خطأ وهو الحق الذي لا يداخله باطل. والجملة في الحقيقة قيد للإذن كأنه قيل: إلا من أذن له الرحمان ولا يأذن إلا لمن قال صواباً فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ (الزخرف / ٨٦)[١].

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ إشارة الى يوم الفصل المذكور في السورة الموصوف بما مر من الأوصاف وهو في الحقيقة خاتمة الكلام المنعطفة الى فاتحة السورة وما بعده أعني قوله: «فمن شاء اتخذ الى ربه مآباً» الخ: فضل تفريع على البيان السابق.

والإشارة اليه بالاشارة البعيدة للدلالة على فخامة أمره والمراد بكونه حقاً ثبوته حتماً مقضياً لا يتخلف عن الوقوع.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَآءَ اتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ مَآباً﴾ أي مرجعاً الى ربه ينال به ثواب المتقين وينجو به من عذاب الطاغين. والجملة كما أشرنا اليه تفريع على ما تقدم من الأخبار بيوم الفصل والاحتجاج عليه ووصفه. والمعنى إذا كان كذلك فمن شاء الرجوع الى ربه فليرجع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾ الخ: المراد به عذاب الآخرة. وكونه قريباً

---

١. النبأ ١٧ ـ ٤٠: كلام فيما هو الروح في القرآن.

لكونه حقاً لا ريب في إتيانه وكل ما هو آت قريب.

على أن الأعمال التي سيجزى بها الانسان هي معه أقرب ما يكون منه.

وقوله: ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي ينتظر المرء جزاء أعماله التي قدمتها يداه بالاكتساب، وقيل: المعنى ينظر المرء الى ما قدمت يداه من الأعمال لحضورها عنده قال تعالى: ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ﴾ (آل عمران / ٣٠).

وقوله: ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً ﴾ أي يتمنى من شدة اليوم أن لو كان تراباً فاقداً للشعور والارادة فلم يعمل ولم يجز.

سورة النازعات مكية وهي ست وأربعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ۞ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً.

٢ ۞ وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً.

٣ ۞ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً.

٤ ۞ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً.

٥ ۞ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً.

٦ ۞ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ.

٧ ۞ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ.

٨ ۞ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ.

٩ ۞ أَبْصارُها خَاشِعَةٌ.

١٠ ۞ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ.

١١ ۞ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً.

١٢ ● قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ.

١٣ ● فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ.

١٤ ● فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ.

١٥ ● هَلْ أَتيٰكَ حَدِيثُ مُوسىٰ.

١٦ ● إِذْ نَاديٰهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى.

١٧ ● إِذهَبْ إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى.

١٨ ● فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلىٰ أَنْ تَزَكّىٰ.

١٩ ● وَأَهْدِيَكَ إِلىٰ رَبِّكَ فَتَخْشىٰ.

٢٠ ● فَأَريٰهُ الْآيَةَ الْكُبْرىٰ.

٢١ ● فَكَذَّبَ وَعَصىٰ.

٢٢ ● ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعىٰ.

٢٣ ● فَحَشَرَ فَنَادىٰ.

٢٤ ● فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ.

٢٥ ● فَأَخَذَهُ اللّٰهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى.

٢٦ ● إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشىٰ.

٢٧ ● أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنيٰهَا.

٢٨ ● رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوّيٰهَا.

٢٩ ● وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحٰيهَا.

٣٠ ● وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحٰيهَا.

٣١ ● أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعٰيهَا.

٣٢ ● وَالْجِبَالَ أَرْسٰيهَا.

٣٣ ● مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ.

٣٤ ● فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرىٰ.

٣٥ ● يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ.

٣٦ ● وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرىٰ.

٣٧ ● فَأَمَّا مَنْ طَغىٰ.

٣٨ ● وَآثَرَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا.

٣٩ ● فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوىٰ.

٤٠ ● وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ.

٤١ ● فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوىٰ.

بيان:

في السورة إخبار مؤكد بوقوع البعث والقيامة، واحتجاج عليه من طريق التدبير الربوبي المنتج أن الناس سينقسمون يومئذ طائفتين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم وتختتم السورة بالإشارة الى سؤالهم النبي ﷺ عن وقت قيام الساعة والجواب عنه.

والسورة مكيَّة بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ اختلف المفسرون في تفسير هذه الآيات الخمس اختلافا عجيبا مع اتفاقهم على أنها إقسام، وقول أكثرهم بأن جواب القسم محذوف، والتقدير

أُقسم بكذا وكذا لتبعثن.

فقوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً﴾ قيل: المراد بها ملائكة الموت تنزع الأرواح من الأجساد، و«غرقاً» مصدر مؤكد بحذف الزوائد أي إغراقاً وتشديداً في النزع.

وقيل: المراد بها الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم بشدة، وقيل: هو الموت ينزع الأرواح من الأبدان نزعاً بالغاً.

وقيل: المراد بها النجوم تنزع من أُفق لتغيب في افق أي تطلع من مطالعها لتغرب في مغاربها، وقيل: المراد بها القسي تنزع بالسهم أي تمد بجذب وترها إغراقاً في المد فالإقسام بقسي المجاهدين في سبيل الله أو بالمجاهدين أنفسهم، وقيل: المراد بها الوحش تنزع الى الكلأ.

وقوله: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً﴾ النشط الجذب والخروج والإخراج برفق وسهولة وحل العقدة، قيل: المراد بها الملائكة الذين يخرجون الأرواح من الأجساد، وقيل المراد بها خصوص الملائكة يخرجون أرواح المؤمنين من أجسادهم برفق وسهولة، كما أن المراد بالنازعات غرقاً الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم.

وقيل: هم الملائكة الذين ينشطون أرواح الكفار من أجسادهم، وقيل: المراد بها أرواح المؤمنين أنفسهم، وقيل: هي النجوم تنشط وتذهب من افق الى افق، وقيل: هي السهام تنشط من قسيها في الغزوات، وقيل: هو الموت ينشط ويخرج الأرواح من الأجساد، وقيل: هي الوحش تنشط من قطر الى قطر.

وقوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾ قيل: المراد بها الملائكة تقبض الأرواح فتسرع بروح المؤمن الى الجنة وبروح الكافر الى النار، والسبح الإسراع في الحركة كما يقال: الفرس سابح إذا أسرع في جريه، وقيل: المراد بها الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلُّونها من الأبدان سلاً رفيقاً ثم يدعونها حتى يستريح كالسابح بالشيء في الماء يرمي، وقيل: هي الملائكة

ينزلون من السماء مسرعين، وقيل: هي النجوم تسبح في فلكها كما قال تعالى: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾.

وقيل: هي خيل الغزاة تسبح في عدوها وتسرع، وقيل: هي المنايا تسبح في نفوس الحيوان، وقيل: هي السفن تسبح في المياه، وقيل: السحاب، وقيل: دواب البحر.

وقوله: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً﴾ قيل المراد بها مطلق الملائكة لأنها سبقت ابن آدم بالخير والإيمان والعمل الصالح. وقيل ملائكة الموت تسبق بروح المؤمن الى الجنة وبروح الكافر الى النار، وقيل الملائكة القابضون لروح المؤمن تسبق بها الى الجنة، وقيل، ملائكة الوحي تسبق الشياطين بالوحي الى الأنبياء، وقيل أرواح المؤمنين تسبق الى الملائكة التي يقبضونها شوقاً الى لقاء الله سبحانه، وقيل هي النجوم تسبق بعضها بعضاً في السير، وقيل هي خيل الغزاة تسبق بعضها بعضاً في الحرب، وقيل هي المنايا تسبق الآمال.

وقوله: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ قيل: المراد بها مطلق الملائكة المدبر للامور، كذا فسر الأكثرون حتى ادعى بعضهم اتفاق المفسرين عليه، وقيل المراد بها الملائكة الأربعة المدبّرون لامور الدنيا: جبرائيل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل، فجبرائيل يدبر أمر الرياح والجنود والوحي، وميكائيل يدبر أمر القطر والنبات، وعزرائيل موكل بقبض الأرواح، وإسرافيل يتنزل بالأمر عليهم وهو صاحب الصور، وقيل: إنها الأفلاك يقع فيها أمر الله فيجري بها القضاء في الدنيا.

وهناك قول بأن الإقسام في الآيات بمضاف محذوف والتقدير ورب النازعات نزعاً، الخ.

وأنت خبير بأن سياق الآيات الخمس سياق واحد متصل متشابه الأجزاء لا يلائم كثيراً من هذه الأقوال القاضية باختلاف المعاني المقسم بها ككون المراد بالنازعات الملائكة القابضين لأرواح الكفار، وبالناشطات الوحش، وبالسابحات السفن، وبالسابقات المنايا

تسبق الآمال وبالمدبرات الأفلاك .

مضافاً الى أن كثيراً منها لا دليل عليها من جهة السياق إلا مجرد صلاحية اللفظ بحسب اللغة للاستعمال فيه أعم من الحقيقة والمجاز .

على أن كثيراً منها لا تناسب سياق آيات السورة التي تذكر يوم البعث وتحتج على وقوعه على ما تقدم في سورة المرسلات من حديث المناسبة بين ما في كلامه تعالى من الإقسام وجوابه .

والذي يمكن أن يقال ـ والله أعلم ـ أن ما في هذه الآيات من الأوصاف المقسم بها يقبل الانطباق على صفات الملائكة في امتثالها للأوامر الصادرة عليهم من ساحة العزة المتعلقة بتدبير امور هذا العالم المشهود ثم قيامهم بالتدبير بإذن الله .

والآيات شديدة الشبه سياقاً بآيات مفتتح سورة الصافات « والصافات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراه » وآيات مفتتح سورة المرسلات « والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشراً فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكراً » وهي تصف الملائكة في امتثالهم لأمر الله غير أنها تصف ملائكة الوحي ، والآيات في مفتتح هذه السورة تصف مطلق الملائكة في تدبيرهم أمر العالم بإذن الله .

ثم إن أظهر الصفات المذكورة في هذه الآيات الخمس في الانطباق على الملائكة قوله : « فالمدبرات أمراً » وقد أطلق التدبير ولم يقيد بشيء دون شيء فالمراد به التدبير العالمي بإطلاقه ، وقوله : « أمراً » تميز أو مفعول به للمدبرات ومطلق التدبير شأن مطلق الملائكة فالمراد بالمدبرات مطلق الملائكة .

وإذ كان قوله : « فالمدبرات أمراً » مفتتحاً بفاء التفريع الدال على تفرع صفة التدبير على صفة السبق ، وكذا قوله : « فالسابقات سبقاً » مقروناً بفاء التفريع الدالة على تفرع السبق على السبح دل ذلك على مجانسة المعاني المرادة بالآيات الثلاث « والسابحات سبحاً فالسابقات

سبقاً فالمدبرات أمراً» فدلولها أنهم يدبرون الأمر بعدما سبقوا اليه ويسبقون اليه بعدما سبحوا أي أسرعوا اليه عند النزول فالمراد بالسابحات والسابقات هم المدبرات من الملائكة باعتبار نزولهم الى ما أُمروا بتدبيره.

فالآيات الثلاث في معنى قوله تعالى: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ (الرعد / ١١) على ما تقدم من توضيح معناه فالملائكة ينزلون على الأشياء وقد تجمعت عليها الأسباب وتنازعت فيها وجوداً وعدماً وبقاء وزوالاً وفي مختلف أحوالها فما قضاه الله فيها من الأمر وأبرم قضاءه أسرع اليه الملك المأمور به ـ بما عين له من المقام ـ وسبق غيره وتمم السبب الذي يقتضيه فكان ما أراده الله. فافهم ذلك.

وإذا كان المراد بالآيات الثلاث الإشارة الى إسراع الملائكة في النزول على ما أُمروا به من أمر وسبقهم اليه وتدبيره تعين حمل قوله: «والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً» على انتزاعهم وخروجهم من موقف الخطاب الى ما أُمروا به فنزعهم غرقاً شروعهم في النزول نحو المطلوب بشدة وجد. ونشطهم خروجهم من موقفهم نحوه كما أن سبحهم إسراعهم اليه بعد الخروج ويتعقب ذلك سبقهم اليه وتدبير الأمر بإذن الله.

فالآيات الخمس إقسام بما يتلبس به الملائكة من الصفات عندما يؤمرون بتدبير أمر من امور هذا العالم المشهود من حين يأخذون في النزول اليه الى تمام التدبير.

وفيها إشارة الى نظام التدبير الملكوتي عند حدوث الحوادث كما أن الآيات التالية أعني قوله: «هل أتاك» الخ؛ إشارة الى التدبير الربوبي الظاهر في هذا العالم.

وفي التدبير الملكوتي حجة على البعث والجزاء كما أن في التدبير الدنيوي المشهود حجة عليه على ما سيوافيك إن شاء الله بيانه.

هذا ما يعطيه التدبر في سياق الآيات الكريمة ويؤيده بعض التأييد ما سيأتي من الأخبار

في البحث الروائي الآتي إن شاء الله[١].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ فسّرت الراجفة بالصيحة العظيمة التي فيها تردد واضطراب والرادفة بالمتأخرة التابعة، وعليه تنطبق الآيتان على نفختي الصور التي يدل عليهما قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ (الزمر / ٦٨).

والأنسب بالسياق على أي حال كون قوله: «يوم ترجف» الخ؛ ظرفاً لجواب القسم المحذوف للدلالة على فخامته وبلوغه الغاية في الشدة وهو لتبعثنّ، وقيل: إن «يوم» منصوب على معنى قلوب يومئذ واجفة يوم ترجف الراجفة، ولا يخلو من بعد.

قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ تنكير «قلوب» للتنويع وهو مبتدء خبره «واجفة» والوجيف الاضطراب، و«يومئذ» ظرف متعلق بواجفة والجملة استئناف مبيّن لصفة اليوم.

وقوله: ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ ضمير «أبصارها» للقلوب ونسبة الأبصار وإضافتها الى القلوب لمكان أن المراد بالقلوب في أمثال هذه المواضع التي تضاف اليها الصفات الإدراكية كالعلم والخوف والرجاء وما يشبهها هي النفوس، وقد تقدمت الإشارة اليها.

ونسبة الخشوع الى الأبصار وهو من أحوال القلب إنما هي لظهور أثره الدال عليه في الأبصار أقوى من سائر الأعضاء.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ إخبار وحكاية لقولهم في الدنيا استبعاداً منهم لوقوع البعث والجزاء وإشارة الى أن هؤلاء الذين لقلوبهم وجيف ولأبصارهم خشوع يوم القيامة هم الذين ينكرون البعث وهم في الدنيا ويقولون كذا وكذا.

---

١. النازعات ١ ـ ٤١: كلام في ان الملائكة وسائط في التدبير.

والحافرة ـ على ما قيل ـ أول الشيء ومبتداه، والاستفهام للإنكار استبعاداً، والمعنى يقول هؤلاء: ءإنا لمردودون بعد الموت الى حالتنا الاولى وهي الحياة.

قوله تعالى: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً﴾ تكرار للاستفهام لتأكيد الاستبعاد فلو كانت الحياة بعد الموت مستبعدة فهي مع فرض نخر العظام وتفتت الأجزاء أشد استبعاداً، والنخر بفتحتين البلى والتفتت يقال: نخر العظم ينخر نخراً فهو ناخر ونخر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ الإشارة بتلك الى معنى الرجعة المفهوم من قوله: «ءإنا لمردودون في الحافرة» والكرة الرجعة والعطفة، وعدّ الكرة خاسرة إما مجاز والخاسر بالحقيقة صاحبها، أو الخاسرة بمعنى ذات خسران، والمعنى قالوا: تلك الرجعة ـوهي الرجعة الى الحياة بعد الموت ـ رجعة متلبسة بالخسران.

وهذا قول منهم أوردوه استهزاء ـعلى أن يكون قولهم: «ءإنا لمردودون» الخ: مما قالوه في الدنيا ـ ولذا غير السياق وقال: «قالوا تلك إذاً» الخ؛ بعد قوله: «يقولون ءإنا لمردودن» الخ؛ وأما على تقدير أن يكون مما سيقولونه عند البعث فهو قول منهم على سبيل التشؤم والتحسر.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ ضمير «هي» للكرّة وقيل: للرادفة والمراد بها النفخة الثانية؛ والزجر طرد بصوت وصياح عبِّر عن النفخة الثانية بالزجرة لما فيها من نقلهم من نشأة الموت الى نشأة الحياة ومن بطن الأرض الى ظهرها، و «إذا» فجائيّة، والساهرة الأرض المستوية أو الارض الخالية من النبات.

والآيات في محل الجواب عما يدل عليه قولهم: «ءإنا لمردودون» الخ؛ من استبعاد البعث واستصعابه والمعنى لا يصعب علينا إحياؤهم بعد الموت وكرتهم فإنما كرتهم ـ أو الرادفة التي هي النفخة الثانية ـ زجرة واحدة فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعدما كانوا أمواتاً في بطنها.

فالآيتان في معنى قوله تعالى: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ (النحل / ٧٧).

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتيٰكَ حَدِيثُ مُوسىٰ﴾ الآية الى تمام اثنتي عشرة آية إشارة الى إجمال قصة موسى ورسالته الى فرعون ورده دعوته الى أن أخذه الله نكال الآخرة والاولى.

وفيها عظة وإنذار للمشركين المنكرين للبعث وقد توسلوا به الى رد الدعوة الدينية إذ لا معنى لتشريع الدين لولا المعاد. وفيها مع ذلك تسلية للنبي ﷺ من تكذيب قومه، وتهديد لهم كما يؤيده توجيه الخطاب في قوله: «هل أتاك».

وفي القصة مع ذلك كله حجة على وقوع البعث والجزاء فإن هلاك فرعون وجنوده تلك الهلكة الهائلة دليل على حقيّة رسالة موسى من جانب الله الى الناس ولا تتم رسالته من جانبه تعالى إلا بربوبيته منه تعالى للناس على خلاف ما يزعمه المشركون أن لا ربوبية له تعالى بالنسبة الى الناس وأن هناك أرباباً دونه وأنه سبحانه رب الأرباب لا غير.

ففي قوله: «هل أتاك حديث موسى» استفهام بداعي ترغيب السامع في استماع الحديث ليتسلى به هو ويكون للمنكرين إنذاراً بما فيه من ذكر العذاب وإتماماً للحجة كما تقدم.

ولا ينافي هذا النوع من الاستفهام تقدم علم السامع بالحديث لأن الغرض توجيه نظر السامع الى الحديث دون السؤال والاستعلام حقيقة فمن الممكن أن تكون الآيات أول ما يقصه الله من قصة موسى أو تكون مسبوقة بذكر قصته كما في سورة المزمل إجمالاً ـ وهي أقدم نزولاً من سورة النازعات ـ وفي سورة الأعراف وطه وغيرهما تفصيلاً.

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَاديٰهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ظرف للحديث وهو أول ما أوحى الله اليه فقلده الرسالة. وطوى اسم للوادي المقدس.

قوله تعالى: ﴿إِذْهَبْ إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ تفسير للنداء. وقيل: الكلام على تقدير القول أي قائلاً اذهب. الخ؛ أو بتقدير أن المفسرة أي أن اذهب. الخ؛ وفي الوجهين أن

التقدير مستغنى عنه، وقوله: «إنه طغى» تعليل للأمر.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ﴾ متعلّق «الى» محذوف والتقدير هل لك ميل الى أن تتزكّى أو ما في معناه، والمراد بالتزكّي التطهّر من قذارة الطغيان.

قوله تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ عطف على قوله: «تزكّى»، والمراد بهدايته إياه الى ربه ـ كما قيل ـ تعريفه له وإرشاده الى معرفته تعالى وتترتب عليه الخشية منه الرادعة عن الطغيان وتعدّي طور العبودية قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر / ٢٨).

والمراد بالتزكّي إن كان هو التطهر عن الطغيان بالتوبة والرجوع الى الله تعالى كانت الخشية مترتبة عليه والمراد بها الخشية الملازمة للإيمان الداعية الى الطاعة والرادعة عن المعصية، وإن كان هو التطهر بالطاعة وتجنب المعصية كان قوله: «وأهديك الى ربك فتخشى» مفسّراً لما قبله والعطف عطف تفسير.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ الفاء فصيحة وفي الكلام حذف وتقدير والأصل فأتاه ودعاه فأراه، الخ.

والمراد بالآية الكبرى على ما يظهر من تفصيل القصة آية العصا، وقيل: المراد به مجموع معجزاته التي أراها فرعون وملأه وهو بعيد.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ أي كذّب موسى فجحد رسالته وسمّاه ساحراً وعصاه فيما أمره به أو عصى الله.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ الإدبار التولّي والسعي هو الجد والاجتهاد أي ثم تولى فرعون يجد ويجتهد في ابطال أمر موسى ومعارضته.

قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ الحشر جمع الناس بإزعاج والمراد به جمعه الناس من أهل مملكته كما يدل عليه تفريع قوله: «فنادى فقال أنا ربكم الأعلى» عليه فإنه كان يدعّي

الربوبية لأهل مملكته جميعاً لا لطائفة خاصة منهم.

وقيل: المراد بالحشر جمع السحرة لقوله تعالى: ﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾ (الشعراء / ٥٣)، وقوله: ﴿فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾ (طه / ٦٠) وفيه أنه لا دليل على كون المراد بالحشر في هذه الآية هو عين المراد بالحشر والجمع في تينك الآيتين.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ دعوى الربوبية وظاهره أنه يدّعي أنه أعلى في الربوبية من سائر الأرباب التي كان يقول بها قومه الوثنيون فيفضّل نفسه على سائر آلهتهم.

ولعل مراده بهذا التفضيل مع كونه وثنياً يعبد الآلهة كما يدل عليه قوله تعالى حكاية عن ملائه يخاطبونه: ﴿أتذر موسى وقومه ليُفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك﴾ (الأعراف / ١٢٧) أنه أقرب الآلهة منهم تجري بيده أرزاقهم وتصلح بأمره شؤون حياتهم ويحفظ بمشيته شرفهم وسؤددهم، وسائر الالهة ليسوا على هذه الصفة.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ﴾ الأخذ كناية عن التعذيب، والنكال التعذيب الذي يردع من رآه أو سمعه عن تعاطي مثله، وعذاب الآخرة نكال حيث إن من شأنه أن يردع من سمعه عن تعاطي ما يؤدي اليه من المعصية كما أن عذاب الاستئصال في الدنيا نكال.

والمعنى: فأخذ الله فرعون أي عذبه ونكله نكال الآخرة والاولى وأما عذاب الدنيا فإغراقه وإغراق جنوده، وأما عذاب الاخرة فعذابه بعد الموت، فالمراد بالأولى والآخرة الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ الإشارة الى حديث موسى، والظاهر أن مفعول «يخشى» منسي معرض عنه، والمعنى إن في هذا الحديث ـ حديث موسى ـ لعبرة لمن كان له خشية وكائن غريزته أن يخشى الشقاء والعذاب والانسان من غريزته ذلك

ففيه عبرة لمن كان انساناً مستقيم الفطرة.

قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا - الى قوله - وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ خطاب توبيخي للمشركين المنكرين للبعث المستهزئين به على سبيل العتاب ويتضمن الجواب عن استبعادهم البعث بقولهم: «أإنا لمردودون في الحافرة أإذا كنا عظاماً نخرة» بأن الله خلق ما هو أشد منكم خلقاً فهو على خلقكم وإنشائكم النشأة الاخرى لقدير.

ويتضمن أيضاً الإشارة الى الحجة على وقوع البعث حيث يذكر التدبير العام العالمي وارتباطه بالعالم الإنساني ولازمه ربوبيته تعالى، ولازم الربوبية صحة النبوة وجعل التكاليف، ولازم ذلك الجزاء الذي موطنه البعث والحشر، ولذا فرع عليه حديث البعث بقوله: «فإذا جاءت الطامة الكبرى» الخ.

فقوله: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ﴾ استفهام توبيخي بداعي رفع استبعادهم البعث بعد الموت، والإشارة الى تفصيل خلق السماء بقوله: «بناها» الخ: دليل أن المراد به تقرير كون السماء أشد خلقاً.

وقوله: ﴿بَنَاهَا﴾ استئناف وبيان تفصيلي لخلق السماء.

وقوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ أي رفع سقفها وما ارتفع منها، وتسويتها ترتيب أجزائه وتركيبها بوضع كل جزء في موضعه الذي تقتضيه الحكمة كما في قوله: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ (الحجر / ٢٩).

وقوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي أظلم ليلها وأبرز نهارها، والأصل في معنى الضحى انبساط الشمس وامتداد النهار أُريد به مطلق النهار بقرينة المقابلة ونسبة الليل والضحى الى السماء لأن السبب الأصلي لها سماوي وهو ظهور الأجرام المظلمة بشروق الأنوار السماوية كنور الشمس وغيره وخفاؤها بالاستتار ولا يختص الليل والنهار بالأرض التي نحن عليها بل يعمان سائر الأجرام المظلمة المستنيرة.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ أي بسطها ومدها بعدما بنى السماء ورفع سمكها وسوّاها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها.

وقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ قيل: المرعى يطلق على الرعي بالكسر فالسكون وهو الكلأ كما يجيء مصدراً ميمياً، واسم زمان ومكان، والمراد باخراج مائها منها تفجير العيون وإجراء الأنهار عليها، وإخراج المرعى إنبات النبات عليها مما يتغذى به الحيوان والإنسان فالظاهر أن المراد بالمرعى مطلق النبات الذي يتغذى به الحيوان والانسان كما يشعر به قوله: «متاعاً لكم ولأنعامكم» لا ما يختص بالحيوان كما هو الغالب في استعماله.

وقوله: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أي أثبتها على الارض لئلا تميد بكم وادّخر فيها المياه والمعادن كما ينبيء عنه سائر كلامه تعالى.

وقوله: ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ أي خلق ما ذكر من السماء والأرض ودبر ما دبر من أمرها ليكون متاعاً لكم ولأنعامكم التي سخرها لكم تتمتعون به في حياتكم فهذا الخلق والتدبير الذي فيه تمتيعكم يوجب عليكم معرفة ربكم وخوف مقامه وشكر نعمته فهناك يوم تجزون فيه بما عملتم في ذلك إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً كما أن هذا الخلق والتدبير أشد من خلقكم فليس لكم أن تستبعدوا خلقكم ثانياً وتستصعبوه عليه تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ في المجمع: والطامة العالية الغالبة يقال: هذا أطم من هذا أي أعلى منه، وطمّ الطائر الشجرة أي علاها وتسمى الداهية التي لا يستطاع دفعها طامة. انتهى. فالمراد بالطامة الكبرى القيامة لأنها داهية تعلو وتغلب كل داهية هائلة، وهذا معنى اتصافها بالكبرى وقد اطلقت إطلاقاً.

وتصدير الجملة بفاء التفريع للإشارة الى أن مضمونها أعني مجيء القيامة من لوازم خلق السماء والارض وجعل التدبير الجاري فيهما المترتبة على ذلك كما تقدمت الإشارة اليه.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسانُ مَا سَعَىٰ ﴾ ظرف لمجيء الطامة الكبرى. والسعي هو العمل بجد.

قوله تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَنْ يَرىٰ ﴾ التبريز لإظهار ومفعول «برى» منسي معرض عنه والمراد بمن يرى من له بصر يرى به. والمعنى واظهرت الجحيم بكشف الغطاء عنها لكل ذي بصر فيشاهدونها مشاهدة عيان.

فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ (ق / ٢٢) غير أن آية ق آوسع معنى.

والآية ظاهرة في أن الجحيم مخلوقة قبل يوم القيامة وإنما تظهر يومئذ ظهوراً بكشف الغطاء عنها.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْـمَأْوىٰ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوىٰ ﴾ تفصيل حال الناس يومئذ في انقسامهم قسمين اقيم مقام الإجمال الذي هو جواب إذا المحذوف استغناء بالتفصيل عن الاجمال. والتقدير فإذا جاءت الطامة الكبرى انقسم الناس قسمين فأما من طغى، الخ.

وقد قسم تعالى الناس في الآيات الثلاث الى أهل الجحيم وأهل الجنة ـ وقدم صفة أهل الجحيم لأن وجه الكلام الى المشركين ـ وعرّف أهل الجحيم بما وصفهم به في قوله: «من طغى وآثر الحياة الدنيا» وقابل تعريفهم بتعريف أهل الجنة بقوله: «من خالف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى» وسبيل ما وصف به الطائفتين على أي حال سبيل بيان الضابط.

وإذ كانت الطائفتان متقابلتين بحسب حالها كان ما بين لكل منهما من الوصف مقابلاً لوصف الآخر فوصف أهل الجنة بالخوف من مقام ربهم ـ والخوف تأثر الضعيف المقهور من القوي القاهر وخشوعه وخضوعه له ـ يقتضي كون طغيان أهل الجحيم ـ والطغيان التعدي

عن الحد ـ هو عدم تأثرهم من قام ربهم بـالاستكبار وخـروجهم عـن زي العـبودية فـلا يخشعون ولا يخضعون ولا يجرون على ما أراده منهم ولا يختارون ما اختاره لهم من السعادة الخالدة بل ما تهواه أنفسهم من زينة الحياة الدنيا .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ الخ ؛ المقام اسم مكان يراد به المكان الذي يقوم فيه جسم من الأجسـام وهو الأصل في معناه ككونه اسم زمان ومصدراً ميمياً لكن ربما يعتبر ما عليه الشيء من الصفات والأحوال محلاً ومستقراً للشيء بنوع من العناية فـيطلق عـليه المقام كالمنزلة كما في قوله تعالى في الشهادة : ﴿ فآخران يقومان مقامهما ﴾ (المـائدة / ١٠٧) وقول نوح ﷺ لقومه على ما حكاه الله ﴿ إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيـات الله ﴾ (يونس / ٧١) ، وقول الملائكة على ما حكاه الله ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ (الصافات / ١٦٤) .

فقامه تعالى المنسـوب اليه بما أنه رب هو صفة ربوبيته بمـا تستلزمه أو تتوقف عليه مـن صفاته الكريمة كالعلم والقدرة المطلقة والقهر والغلبة والرحمة والغضب وما يناسبها قال إيذاناً به : ﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ (طه / ٨٢) ، وقال : ﴿ نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ (الحجر / ٥٠) .

فقامه تعالى الذي يخوّف منه عباده مرحلة ربوبيته التي هي المبدء لرحمته ومـغفرته لمـن آمن واتّقى ولأليم عذابه وشديد عقابه لمن كذّب وعصى .

٤٢ ● يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَيهَا .

٤٣ ● فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَيهَا .

٤٤ ● إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهٰيهَا.

٤٥ ● إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشٰيهَا.

٤٦ ● كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحٰيهَا.

بيان:

تعرَّض لسؤالهم عن وقت قيام الساعة ورد له بأن علمه ليس لأحد إلا الله فقد خصَّه بنفسه.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسٰيهَا﴾ الظاهر أن التعبير بيسألونك لإفادة الاستمرار فقد كان المشركون بعدما سمعوا حديث القيامة يراجعون النبي ﷺ ويسألونه أن يعيِّن لهم وقتها مصرِّين على ذلك وقد تكرر في القرآن الكريم الإشارة الى ذلك.

والمرسى مصدر ميمي بمعنى الإثبات والإقرار وقوله: «أيان مرساها» بيان للسؤال والمعنى يسألك هؤلاء المنكرون للساعة المستهزؤن به عن الساعة متى إثباتها وإقرارها؟ أي متى تقوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرٰيهَا﴾ استفهام إنكاري و «فيم أنت» مبتدء وخبر، و «من» لابتداء الغاية، والذكرى كثرة الذكر وهو أبلغ من الذكر على ذكره الراغب.

والمعنى في أي شيء أنت من كثرة ذكر الساعة أي ماذا يحصل لك من العلم بوقتها من ناحية كثرة ذكرها وبسبب ذلك أي لست تعلمها بكثرة ذكرها.

أو الذكرى بمعنى حضور حقيقة معنى الشيء في القلب، والمعنى ـ على الاستفهام الإنكاري ـ لست في شيء من العلم بحقيقتها وما هي عليه حتى تحيط بوقتها وهو أنسب من المعنى السابق.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهٰيهَا﴾ في مقام التعليل لقوله: «فيم أنت من ذكراها»

والمعنى لست تعلم وقتها لأن انتهاءها الى ربك فلا يعلم حقيقتها وصفاتها ومنها تعين الوقت إلا ربك فليس لهم أن يسألوا عن وقتها وليس في وسعك أن تجيب عنها.

وليس من البعيد ـ والله أعلم ـ أن تكون الآية في مقام التعليل بمعنى آخر وهو أن الساعة تقوم بفناء الأشياء وسقوط الأسباب وظهور أن لا ملك إلا لله الواحد القهار فلا ينتسب اليوم إلا اليه تعالى من غير أن يتوسط بالحقيقة بينه تعالى وبين اليوم أي سبب مفروض ومنه الزمان فليس يقبل اليوم توقيتاً بحسب الحقيقة.

ولذا لم يرد في كلامه تعالى من التحديد إلا تحديد اليوم بانقراض نشأة الدنيا كقوله: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الارض﴾ (الزمر / ٦٨) وما في معناه من الآيات الدالة على خراب الدنيا بتبدل الأرض والسماء وانتثار الكواكب وغير ذلك.

وإلا تحديده بنوع من التمثيل والتشبيه كقوله تعالى: «كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها»، وقوله: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ (الأحقاف / ٣٥)، وقوله: «ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة» ثم ذكر حق القول في ذلك فقال: ﴿وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث﴾ (الروم / ٥٦).

ويلوح الى ما مر ما في مواضع من كلامه أن الساعة لا تأتي إلا بغتة، قال تعالى: ﴿ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾ (الأعراف / ١٨٧) الى غير ذلك من الآيات.

وهذا وجه عميق يحتاج في تمامه الى تدبر واف ليرتفع به ما يترآى من مخالفته لظواهر عدة من آيات القيامة وعليك بالتدبر في قوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ (ق / ٢٢) وما في معناه من الآيات والله المستعان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشٰيهَا﴾ أي إنما كلفناك بإنذار من يخشى

الساعة دون الإخبار بوقت قيام الساعة حتى تجيبهم عن وقتها إذا سألوك عنه فالقصر في الآية قصر إفراد بقصر شأنه ﷺ في الإنذار وتنفي عنه العلم بالوقت وتعيينه لمن يسأل عنه.

والمراد بالخشية على ما يناسب المقام الخوف منها إذا ذكر بها أي شأنية الخشية لا فعليتها قبل الإنذار.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ بيان لقرب الساعة بحسب التمثيل والتشبيه بأن قرب الساعة من حياتهم الدنيا بحيث مثلهم حين يرونها مثلهم لو لبثوا بعد حياتهم في الأرض عشية أو ضحى تلك العشية أي وقتاً نسبته الى نهار واحد نسبة العشية الى ما قبلها منه أو نسبة الضحى الى ما قبله منه.

وقد ظهر بما تقدم أن المراد باللبث لبث ما بين الحياة الدنيا والبعث أي لبثهم في القبور لأن الحساب يقع على مجموع الحياة الدنيا.

سورة عبس مكية وهي اثنان واربعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ۞ عَبَسَ وَتَوَلّٰى.

٢ ۞ أَنْ جَآءَهُ الْأَعْمىٰ.

٣ ۞ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكّٰى.

٤ ۞ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرىٰ.

٥ ۞ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنىٰ.

٦ ۞ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدّٰى.

٧ ۞ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكّٰى.

٨ ۞ وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعىٰ.

٩ ۞ وَهُوَ يَخْشىٰ.

١٠ ۞ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهّٰى.

١١ ۞ كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ.

١٢ ● فَمَنْ شَآءَ ذَكَرَهُ.

١٣ ● فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ.

١٤ ● مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ.

١٥ ● بِأَيْدِي سَفَرَةٍ.

١٦ ● كِرَامٍ بَرَرَةٍ.

بيان:

وردت الروايات من طرق أهل السنة أن الآيات نزلت في قصة ابن ام مكتوم الأعمى دخل على النبي ﷺ وعنده قوم من صناديد قريش يناجيهم في أمر الإسلام فعبس النبي عنه فعاتبه الله تعالى بهذه الآيات وفي بعض الأخبار من طرق الشيعة إشارة الى ذلك.

وفي بعض روايات الشيعة أن العابس المتولي رجل من بني أُميّة كان عند النبي ﷺ فدخل عليه ابن ام مكتوم فعبس الرجل وقبض وجهه فنزلت الآيات: وسيوافك تفصيل البحث عن ذلك في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

وكيف كان الأمر فغرض السورة عتاب من يقدم الأغنياء والمترفين على الضعفاء والمساكين من المؤمنين فيرفع أهل الدنيا ويضع أهل الآخرة ثم ينجر الكلام الى الإشارة الى هوان أمر الإنسان في خلقه وتناهيه في الحاجة الى تدبير أمره وكفره مع ذلك بنعم ربه وتدبيره العظيم لأمره وتتخلص الى ذكر بعثه وجزائه إنذاراً. والسورة مكية بلا كلام.

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي بسر وقبض وجهه وأعرض.

قوله تعالى: ﴿أَنْ جَآءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ تعليل لما ذكر من العبوس بتقدير لام التعليل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ حال من فاعل

«عبس وتولى» والمراد بالتزكي التطهر بعمل صالح بعد التذكر الذي هو الاتعاظ والانتباه للاعتقاد الحق. ونفع الذكرى هو دعوتها الى التزكي بالايمان والعمل الصالح.

ومحصل المعنى: بسر وأعرض عن الأعمى لما جاءه والحال أنه ليس يدري لعل الأعمى الذي جاءه يتطهر بصالح العمل بعد الايمان بسبب مجيئه وتعلّمه وقد تذكر قبل أو يتذكر بسبب مجيئه واتعاظه بما يتعلم فتنفعه الذكرى فيتطهر.

وفي الآيات الأربع عتاب شديد ويزيد شدة بإتيان الآيتين الاوليين في سياق الغيبة لما فيه من الإعراض عن المشافهة والدلالة على تشديد الانكار وإتيان الآيتين الأخيرتين في سياق الخطاب لما فيه من تشديد التوبيخ وإلزام الحجة بسبب المواجهة بعد الإعراض والتقريع من غير واسطة.

وفي التعبير عن الجاني بالأعمى مزيد توبيخ لما أن المحتاج الساعي في حاجته إذا كان أعمى فاقداً للبصر وكانت حاجته في دينه دعته الى السعي فيها خشية الله كان من الحري أن يرحم ويخص بمزيد الإقبال والتعطف لا أن ينقبض ويعرض عنه.

وقيل ـ بناء على كون المراد بالمعاتب هو النبي ﷺ ـ: أن في التعبير عنه أولاً بضمير الغيبة إجلالاً له لإيهام أن من صدر عنه العبوس والتولي غيره ﷺ لأنه لا يصدر مثله عن مثله. وثانياً بضمير الخطاب إجلالاً له أيضاً لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش والإقبال بعد الإعراض.

وفيه أنه لا يلائمه الخطاب في قوله بعد: «أما من استغنى فأنت له تصدّى» الخ؛ والعتاب والتوبيخ فيه أشد مما في قوله: «عبس وتولى» الخ؛ ولا إيناس فيه قطعاً.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ الغنى والاستغناء والتغني والتغاني بمعنى على ما ذكره الراغب فالمراد بمن استغنى من تلبّس بالغنى ولازمه التقدم والرئاسة والعظمة في أعين الناس والاستكبار عن اتباع الحق قال تعالى: ﴿إن

الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ (العلق / ٧) والتصدي التعرض للشيء بالإقبال عليه والاهتمام بأمره.

وفي الآية الى تمام ست آيات إشارة الى تفصيل القول في ملاك ما ذكر من العبوس والتولي فعوتب عليه ومحصله أنك تعتني وتقبل على من استغنى واستكبر عن اتباع الحق وما عليك أن لا يزكى وتتلهى وتعرض عمن يجتهد في التزكي وهو يخشى.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ قيل: «ما» نافية والمعنى وليس عليك بأس أن لا يتزكى حتى يبعثك الحرص على إسلامه الى الاعراض والتلهي عمن أسلم والإقبال عليه.

وقيل: «ما» للاستفهام الإنكاري والمعنى وأي شيء يلزمك إن لم يتطهر من الكفر والفجور فإنما أنت رسول ليس عليك إلا البلاغ.

وقيل: المعنى ولا تبالي بعدم تطهره من دنس الكفر والفجور وهذا المعنى أنسب لسياق العتاب ثم الذي قبله ثم الذي قبله.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ السعي الإسراع في المشي فمعنى قوله: «وأما من جاءك يسعى» بحسب ما يفيده المقام: وأما من جاءك مسرعاً ليتذكر ويتزكى بما يتعلم من معارف الدين.

وقوله: ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي يخشى الله والخشية آية التذكر بالقرآن قال تعالى: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾ (طه / ٣)، وقال: ﴿سيذكر من يخشى﴾ (الأعلى / ١٠).

وقوله: ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي تتلهى وتتشاغل بغيره وتقديم ضمير «أنت» في قوله: «فأنت له تصدّى» وقوله: «فأنت عنه تلهى» وكذا الضميرين «له» و «عنه» في الآيتين لتسجيل العتاب وتثبيته.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ «كلا» ردع عما عوتب عليه من

العبوس والتولي والتصدي لمن استغنى والتلهي عمن يخشى.

والضمير في «إنها تذكرة» للآيات القرآنية أو للقرآن وتأنيث الضمير لتأنيث الخبر والمعنى إن الآيات القرآنية أو القرآن تذكرة أي موعظة يتعظ بها من اتعظ أو مذكر يذكر حق الاعتقاد والعمل.

وقوله: ﴿فَمَنْ شَآءَ ذَكَرَهُ﴾ جملة معترضة والضمير للقرآن أو ما يذكر به القرآن من المعارف. والمعنى فمن شاء ذكر القرآن أو ذكر ما يذكر به القرآن وهو الانتقال الى ما تهدي اليه الفطرة مما تحفظه في لوحها من حق الاعتقاد والعمل.

وفي التعبير بهذا التعبير «فمن شاء ذكره» تلويح الى أن لا إكراه في الدعوة الى التذكر فلا نفع فيها يعود الى الداعي وإنما المنتفع بها المتذكر فليختر ما يختاره.

قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾ قال في المجمع: الصحف جمع صحيفة. والعرب تسمي كل مكتوب فيه صحيفة كما تسميه كتاباً رقاً كان أو غيره انتهى.

و«في صحف» خبر بعد خبر لإن وظاهره أنه مكتوب في صحف متعددة بأيدي ملائكة الوحي. وهذا يضعّف القول بأن المراد بالصحف اللوح المحفوظ ولم يرد في كلامه تعالى إطلاق الصحف ولا الكتب ولا الألواح بصيغة الجمع على اللوح المحفوظ. ونظيره في الضعف القول بأن المراد بالصحف كتب الأنبياء الماضين لعدم ملاءمته لظهور قوله: «بأيدي سفرة» الخ؛ في أنه صفة لصحف.

وقوله: ﴿مُكَرَّمَةٍ﴾ أي معظمة. وقوله: «مرفوعة» أي قدراً عند الله. وقوله: «مطهرة» أي من قذارة الباطل ولغو القول والشك والتناقض قال تعالى: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ (حم السجدة / ٤٢)، وقال: ﴿إنه لقول فصل وما هو بالهزل﴾ (الطارق / ١٤) وقال: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ (البقرة / ٢)، وقال: ﴿ولو كان من عند غير الله فيه اختلافاً كثيراً﴾ (النساء / ٨٢).

قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ صفة بعد صفة لصحف، والسفرة هم السفراء جمع سفير بمعنى الرسول و«كرام» صفة لهم باعتبار ذواتهم و«بررة» صفة لهم باعتبار عملهم وهو الإحسان في الفعل.

ومعنى الآيات أن القرآن تذكرة مكتوبة في صحف متعددة معظمة مرفوعة قدراً مطهراً من كل دنس وقذارة بأيدي سفراء من الملائكة كرام على ربهم بطهارة ذواتهم بررة عنده تعالى بحسن أعمالهم.

ويظهر من الآيات أن للوحي ملائكة يتصدون لحمل الصحف وإيحاء ما فيها من القرآن فهم أعوان جبريل وتحت أمره ونسبة إلقاء الوحي اليهم لا تنافي نسبته الى جبريل في مثل قوله: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ (الشعراء / ١٩٤) وقد قال تعالى في صفته: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾ (التكوير / ٢١) فهو مطاع من الملائكة من يصدر عن أمره ويأتي بما يريده والإيحاء الذي هو فعل أعوانه فعله كما أن فعله وفعلهم جميعاً فعل الله وذلك نظير كون التوفي الذي هو فعل أعوان ملك الموت فعله، وفعله وفعلهم جميعاً فعل الله تعالى، وقد تقدمت الاشارة الى هذا البحث مراراً[1].

١٧ ● قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ.

١٨ ● مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ.

١٩ ● مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ.

٢٠ ● ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ.

---

١. عبس ١ ـ ١٦: بحث روائي حول نزول سورة عبس: ليست الآيات ظاهرة الدلالة على ان المراد بالذي عبس وتولى هو النبي ﷺ، خلق رسول الله العظيم.

٢١ • ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ.

٢٢ • ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنْشَرَهُ.

٢٣ • كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ.

٢٤ • فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ.

٢٥ • أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا.

٢٦ • ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا.

٢٧ • فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا.

٢٨ • وَعِنَبًا وَقَضْبًا.

٢٩ • وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا.

٣٠ • وَحَدَآئِقَ غُلْبًا.

٣١ • وَفَاكِهَةً وَأَبًّا.

٣٢ • مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ.

٣٣ • فَإِذَا جَآءَتِ الصَّاخَّةُ.

٣٤ • يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ.

٣٥ • وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ.

٣٦ • وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ.

٣٧ • لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.

٣٨ • وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ.

٣٩ • ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ.

٤٠ ● وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ.
٤١ ● تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ.
٤٢ ● أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ دعاء على الإنسان لما أنّ في طبعه التوغل في اتباع الهوى ونسيان ربوبية ربه والاستكبار عن اتباع أوامره.

وقوله: ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ تعجيب من مبالغة في الكفر وستر الحق الصريح وهو يرى أنه مدبر بتدبير الله لا يملك شيئاً من تدبير أمره غيره تعالى.

فالمراد بالكفر مطلق ستر الحق وينطبق على إنكار الربوبية وترك العبادة ويؤيده ما في ذيل الآية من الاشارة الى جهات من التدبير الربوبي المتناسبة مع الكفر بمعنى ستر الحق وترك العبادة. وقد فسر بعضهم الكفر بترك الشكر وكفران النعمة وهو وإن كان معنى صحيحاً في نفسه لكن الأنسب بالنظر الى السياق هو المعنى المتقدم.

قال في الكشاف: «قتل الانسان» دعاء عليه وهي من أشنع دعواتهم لأن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها و«ما أكفره» تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله ولا ترى اسلوباً أغلظ منه، ولا أخشن مساً، ولا أدل على سخط، ولا أبعد شوطاً في المذمة مع تقارب طرفيه، ولا أجمع للأئمة على قصر متنه، انتهى.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ معناه على ما يعطيه المقام من أي شيء خلق الله الانسان حتى يحق له أن يطغى ويستكبر عن الايمان والطاعة، وحذف فاعل قوله: «خلقه» وما بعده من الأفعال للإشعار بظهوره فمن المعلوم بالفطرة ـ وقد اعترف به المشركون ـ أن لا خالق إلا الله تعالى.

والاستفهام بداعي تأكيد ما في قوله: «ما أكفره» من العجب ـ والعجب إنما هو في الحوادث التي لا يظهر لها سبب ـ فافيد أولاً: أن من العجب إفراط الإنسان في كفره ثم سئل ثانياً: هل في خلقته إذ خلقه الله ما يوجب له الإفراط في الكفر فاجيب بنفيه وأن لا حجة له يحتج بها ولا عذر يعتذر به فإنه مخلوق من ماء مهين لا يملك شيئا من خلقته ولا من تدبير أمره في حياته ومماته ونشره، وبالجملة الاستفهام توطئة للجواب الذي في قوله: «من نطفة خلقه» الخ.

قوله تعالى: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ تنكير «نطفة» للتحقير أي من نطفة مهينة حقيرة خلقه فلا يحق له وأصله هذا الأصل أن يطغى بكفره ويستكبر عن الطاعة.

وقوله: ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أي أعطاه القدر في ذاته وصفاته وأفعاله فليس له أن يتعدى الطور الذي قدر له ويتجاوز الحد الذي عين له فقد أحاط به التدبير الربوبي من كل جانب ليس له أن يستقل بنيل ما لم يقدر له.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ ظاهر السياق المقصود به نفي العذر من الإنسان في كفره واستكباره أن المراد بالسبيل ـ وقد أُطلق ـ السبيل الى طاعة الله وامتثال أوامره وإن شئت فقل: السبيل الى الخير والسعادة.

فتكون الآية في معنى دفع الدخل فإنه إذا قيل «من نطفة خلقه فقدره» أمكن أن يتوهم السامع أن الخلق والتقدير إذا كانا محيطين بالإنسان من كل جهة كانت أفعال الانسان لذاته وصفاته مقدرة مكتوبة ومتعلقة لمشية الربوبية التي لا تتخلف فتكون أفعال الانسان ضرورية الثبوت واجبة التحقق والإنسان مجبراً عليها فاقداً للاختيار فلا صنع للإنسان في كفره إذا كفر ولا في فسقه إذا فسق ولم يقض ما أمره الله به وإنما ذلك بتقديره تعالى وإرادته فلا ذم ولا لائمة على الإنسان ولا دعوة دينية تتعلق به لأن ذلك كله فرع للاختيار ولا اختيار.

فدفع الشبهة بقوله: «ثم السبيل يسّره» ومحصله أن الخلق والتقدير لا ينافيان كون

الانسان مختاراً فيا أُمر به من الايمان والطاعة له طريق الى السعادة التي خلق لها فكل ميسر لما خلق له وذلك أن التقدير واقع على الأفعال الانسانية من طريق اختياره، والإرادة الربوبية متعلقة بأن يفعل الانسان بإرادته واختياره كذا وكذا فالفعل صادر عن الانسان باختياره وهو بما أنه اختياري متعلق للتقدير.

فالانسان مختار في فعله مسؤول عنه وإن كان متعلقاً للقدر، وقد تقدم البحث عن هذا المعنى كراراً في ذيل الآيات المناسبة له في هذا الكتاب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ الإماتة إيقاع الموت على الانسان، والمراد بالإقبار دفنه في القبر وإخفاؤه في بطن الأرض وهذا بالبناء على الغالب الذي جرى عليه ديدن الناس وبهذه المناسبة نسب اليه تعالى لأنه تعالى هو الذي هداهم الى ذلك وألهمهم إياه فللفعل نسبة اليه كما له نسبة الى الناس.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنْشَرَهُ﴾ في المجمع: الإنشار الإحياء للتصرف بعد الموت كنشر الثوب بعد الطي. انتهى. فالمراد به البعث إذا شاء الله، وفيه إشارة الى كونه بغتة لا يعلمه غيره تعالى.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ الذي يعطيه السياق أن «كلًّا» ردع عن معنى سؤال يستدعيه السياق ويلوح اليه قوله: «لما يقضى ما أمره» كأنه لما أُشير الى أن الإنسان مخلوق مدبر له تعالى من أول وجوده الى آخره من خلق وتقدير وتيسير للسبيل وإماتة وإقبار وإنشار وكل ذلك نعمة منه تعالى سئل فقيل: فماذا صنع الإنسان والحال هذه الحال وهل خضع للربوبية أو هل شكر النعمة فاجيب وقيل: كلا، ثم أوضح فقيل: لما يقض ما أمره الله به بل كفر وعصى.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلىٰ طَعامِهِ﴾ متفرع على ما تقدم تفرع التفصيل على الإجمال ففيه توجيه نظر الإنسان الى طعامه الذي يقتات به ويستمد منه لبقائه وهو واحد مما

لا يحصى مما هيأه التدبير الربوبي لرفع حوائجه في الحياة حتى يتأمله فيشاهد سعة التدبير الربوبي التي تدهش لبه وتحير عقله، وتعلق العناية الإلهية - على دقتها وإحاطتها - بصلاح حاله واستقامة أمره.

والمراد بالانسان - كما قيل - غير الإنسان المتقدم المذكور في قوله: «قتل الإنسان ما أكفره» فإن المراد به خصوص الإنسان المبالغ في الكفر بخلاف الإنسان المذكور في هذه الآية المأمور بالنظر فإنه عام شامل لكل إنسان، ولذلك أظهر ولم يضمر.

قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً - الى قوله - وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ القراءة الدائرة «أنا» بفتح الهمزة وهو بيان تفصيلي لتدبيره تعالى طعام الإنسان نعم هو مرحلة ابتدائية من التفصيل وأما القول المستوفي لبيان خصوصيات النظام الذي هيأ له هذه الامور والنظام الوسيع الجاري في كل من هذه الامور والروابط الكونية التي بين كل واحد منها وبين الإنسان فما لا يسعه نطاق البيان عادة.

وبالجملة قوله: «أنا صببنا الماء صباً» الصب اراقة الماء من العلو. والمراد بصب الماء إنزال الأمطار على الأرض لإنبات النبات، ولا يبعد أن يشمل إجراء العيون والأنهار فإن ما في بطن الأرض من ذخائر الماء إنما يتكون من الأمطار.

وقوله: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً﴾ ظاهره شق الأرض بالنبات الخارج منها ولذا عطف على صب الماء بثم وعطف عليه إنبات الحب بالفاء.

وقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً﴾ ضمير «فيها» للأرض، والمراد بالحبّ جنس الحبّ الذي يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير ونحوهما وكذا في العنب والقضب وغيرهما.

وقوله: ﴿وَعِنَباً وَقَضْباً﴾ العنب معروف، ويطلق على شجر الكرم ولعله المراد في الآية ونظيره الزيتون.

والقضب هو الغض الرطب من البقول الذي يأكله الإنسان يقضب أي يقطع مرة بعد

أُخرى، وقيل: هو ما يقطع من النبات فتعلف به الدواب.

وقوله: ﴿وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً﴾ معروفان.

وقوله: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْباً﴾ الحدائق جمع حديقة وهي على ما فسر البستان المحوط والغلب جمع غلباء يقال: شجرة غلباء أي عظيمة غليظة فالحدائق الغلب البساتين المشتملة على أشجار عظام غلاظ.

وقوله: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبّاً﴾ قيل: الفاكهة مطلق الثمار، وقيل: ما عدا العنب والرُّمان. قيل: ان ذكر ما يدخل في الفاكهة أولاً كالزيتون والنخل للاعتناء بشأنه والأب الكلاء والمرعى.

وقوله: ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ مفعول له أي أنبتنا ما أنبتنا مما تطعمونه ليكون تمتيعاً لكم وللأنعام التي خصصتموها بأنفسكم.

والالتفات عن الغيبة الى الخطاب في الآية لتأكيد الامتنان بالتدبير أو بإنعام النعمة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ﴾ إشارة الى ما ينتهي اليه ما ذكر من التدبير العام الربوبي للانسان بما أن فيه أمراً ربوبياً إلهياً بالعبودية يقضيه الانسان أولاً يقضيه وهو يوم القيامة الذي يوفّى فيه الانسان جزاء أعماله.

والصاخة: الصيحة الشديدة التي تصم الأسماع من شدتها، والمراد بها نفخة الصور.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ إشارة الى شدة اليوم فالذين عدوا من أقرباء الانسان وأخصائه هم الذين كان يأوى اليهم ويأنس بهم ويتخذهم أعضاداً وأنصاراً يلوذ بهم في الدنيا لكنه يفر منهم يوم القيامة لما أن الشدة أحاطت به بحيث لا تدعه يشتغل بغيره ويعتني بما سواه كائناً من كان فالبلبلة اذا عظمت واشتدت وأظلت على الانسان جذبته الى نفسها وصرفته عن كل شيء.

والدليل على هذا المعنى قوله بعد: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» أي يكفيه من أن يشتغل بغيره.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ بيان لانقسام الناس يومئذ الى قسمين: أهل السعادة وأهل الشقاء، وإشارة الى أنهم يعرفون بسياهم في وجوههم وإسفار الوجه إشراقه وإضاءته فرحاً وسرورا واستبشاره تهلله بمشاهدة ما فيه البشرى.

قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ هي الغبار والكدورة وهي سياء الهم والغم.

قوله تعالى: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي يعلوها ويغشاها سواد وظلمة، وقد بين حال الطائفتين في الآيات الأربع ببيان حال وجوههما لأن الوجه مرآة القلب في سروره ومساءته.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أي الجامعون بين الكفر اعتقاداً والفجور وهو المعصية الشنيعة عملاً أو الكافرون بنعمة الله الفاجرون، وهذا تعريف للطائفة الثانية وهم أهل الشقاء ولم يأت بمثله في الطائفة الاولى وهم أهل السعادة لأن الكلام مسوق للانذار والاعتناء بشأن أهل الشقاء.

سورة التكوير مكية وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ .

٢ ❁ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ .

٣ ❁ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ .

٤ ❁ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ .

٥ ❁ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ .

٦ ❁ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ .

٧ ❁ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ .

٨ ❁ وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ .

٩ ❁ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ .

١٠ ❁ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ .

١١ ❁ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ .

١٢ ● وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ.

١٣ ● وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ.

١٤ ● عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ.

بيان:

تذكر السورة يوم القيامة بذكر بعض أشراطها وما يقع فيه اوتصفه بأنه يوم ينكشف فيه للإنسان ما عمله من عمل ثم تصف القرآن بأنه مما ألقاه الى النبي ﷺ رسول سماوي وهو ملك الوحي وليس بإلقاء شيطاني ولا أن النبي ﷺ مجنون يمسه الشيطان.

ويشبه أن تكون السورة من السور العتائق النازلة في أوائل البعثة كما يشهد به ما فيها من تنزيهه ﷺ مما رموه به من الجنون وقد اتهموه به في أوائل الدعوة وقد اشتملت على تنزيهه منه سورة «ن» وهي من العتائق.

والسورة مكية بلا كلام.

قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ التكوير اللف على طريق الإدارة كلف العمامة على الرأس، ولعل المراد بتكوير الشمس انظلام جرمها على نحو الإحاطة استعارة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ انكدار الطائر من الهواء انقضاضه نحو الأرض، وعليه فالمراد سقوط النجوم كما يفيده قوله: ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ (الإنفطار / ٢) ويمكن أن يكون من الانكدار بمعنى التغيُّر وقبول الكدورة فيكون المراد به ذهاب ضوئها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ بما يصيبها من زلزلت الساعة من التسيير فتندك وتكون هباء منبثاً وتصير سراباً على ما ذكره سبحانه في مواضع من كلامه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قيل: «العشار جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء وهي الناقة الحامل التي أتت عليها عشرة أشهر فتسمى عشراء حتى تضع حملها وربما سميت

عشراء بعد الوضع أيضاً وهي من أنفس المال عند العرب.

وتعطيل العشار تركها مهملة لا راعي لها ولا حافظ يحفظها وكأن في الجملة إشارة على نحو الكناية الى أن نفائس الأموال التي يتنافس فيها الانسان تبقى اليوم ولا صاحب لها يتملكها ويتصرف فيها لأنهم مشغولون بأنفسهم عن كل شيء كما قال: ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ (عبس / ٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ الوحوش جمع وحش وهو من الحيوان ما لا يتأنّس بالإنسان كالسباع وغيرها.

وظاهر الآية من حيث وقوعها في سياق الآيات الواصفة ليوم القيامة أن الوحوش محشورة كالإنسان، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمم أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ (الأنعام / ٣٨).

وأما تفصيل حالها بعد الحشر وما يؤول اليه أمرها فلم يرد في كلامه تعالى ولا فيما يعتمد عليه من الاخبار ما يكشف عن ذلك نعم ربما استفيد من قوله في آية الأنعام: «أُمم أمثالكم»، وقوله: «ما فرّطنا في الكتاب من شيء» بعض ما يتضح به الحال في الجملة لا يخفى على الناقد المتدبر، وربما قيل: إن حشر الوحوش من أشراط الساعة لا مما يقع يوم القيامة والمراد به خروجها من غاباتها وأكنانها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ فسّر التسجير بإضرام النار وفسر بالملأ والمعنى على الأول وإذا البحار أُضرمت ناراً، وعلى الثاني وإذا البحار ملئت.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أما نفوس السعداء فبنساء الجنة قال تعالى: ﴿لهم فيها أزواج مطهّرة﴾ (النساء / ٥٧)، وقال: ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ (الدخان / ٥٤) وأما نفوس الأشقياء فبقرناء الشياطين قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وماكانوا يعبدون﴾ (الصافات / ٢٢)، وقال: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً

فهو له قرين﴾ (الزخرف / ٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ الموؤدة البنت التي تدفن حية وكانت العرب تئد البنات خوفاً من لحوق العار بهم من أجلهن كما يشير اليه قوله تعالى: **﴿وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب﴾** (النحل / ٥٩).

والمسؤول بالحقيقة عن قتل الموؤدة أبوها الوائد لها لينتصف منه وينتقم لكن عد المسؤول في الآية هي الموؤدة نفسها فسئلت عن سبب قتلها لنوع من التعريض والتوبيخ لقاتلها وتوطئة لأن تسأل الله الانتصاف لها من قاتلها حتى يسأل عن قتلها فيؤخذ لها منه. فالكلام نظير قوله تعالى في عيسى عليه السلام: **﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامي إلهين من دون الله﴾** (المائدة / ١١٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أي للحساب، والصحف كتب الأعمال.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ في المجمع الكشط القلع عن شدة التزاق فينطبق على طيها كما في قوله: **﴿والسماوات مطويّات بيمينه﴾** (الزمر / ٦٧)، وقوله: **﴿ويوم تشقّق السماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلاً﴾** (الفرقان / ٢٥) وغير ذلك من الآيات المفصحة عن هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ التسعير تهييج النار حتى تتأجج.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ الإزلاف التقريب والمراد تقريبها من أهلها للدخول.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ جواب اذا، والمراد بالنفس الجنس والمراد بما أحضرت عملها الذي عملته يقال: أحضرت الشيء أي وجدته حاضراً كما يقال: أحمدته أي وجدته محموداً.

فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء﴾ (آل عمران / ٣٠)[١].

١٥ ● فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ.

١٦ ● الْجَوَارِ الْكُنَّسِ.

١٧ ● وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ.

١٨ ● وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ.

١٩ ● إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ.

٢٠ ● ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ.

٢١ ● مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ.

٢٢ ● وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ.

٢٣ ● وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ.

٢٤ ● وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ.

٢٥ ● وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ.

٢٦ ● فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ.

٢٧ ● إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ.

٢٨ ● لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ.

٢٩ ● وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

---

١. التكوير ١ ـ ١٤: بحث روائي حول قوله تعالى: «اذا الشمس كورت».

بيان:

تنزيه للنبي ﷺ من الجنون ـ وقد اتهموه به ـ ولما يأتي به ـ من القرآن ـ من مداخلة الشيطان، وأنه كلامه تعالى يلقيه اليه ملك الوحي الذي لا يخون في رسالته، وأنه ذكر للعالمين هاد بإذن الله لمن اهتدى منهم.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ الخنس جمع خانس كطلب جمع طالب، والخنوس الانقباض والتأخر والاستتار، والجواري جمع جارية، والجري السير السريع مستعار من جري الماء، والكنس جمع كانس والكنوس دخول الوحش كالظبي والطير كناسه أي بيته الذي اتخذه لنفسه واستقراره فيه.

وتعقّب قوله: «فلا أُقسم بالخنس» الخ؛ بقوله: «والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس» يؤيد كون المراد بالخنس الجوار الكنس الكواكب كلها أو بعضها لكن صفات حركة بعضها أشد مناسبة وأوضح انطباقاً على ما ذكر من الصفات المقسم بها: الخنوس والجري والكنوس وهي السيارات الخمس المتحيرة: زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد فإن لها في حركاتها على ما تشاهد استقامة ورجعة وإقامة فهي تسير وتجري حركة متشابهة زماناً وهي الاستقامة وتنقبض وتتأخر وتخنس زماناً وهي الرجعة وتقف عن الحركة استقامة ورجعة زماناً كأنها الوحش تنكس في كناسها وهي الإقامة.

قوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ عطف على الخنس، و«إذا عسعس» قيد لليل، والعسعسة تطلق على إقبال الليل وعلى إدباره قال الراغب: «والليل إذا عسعس» أي أقبل وأدبر وذلك في مبدء الليل ومنتهاه فالعسعسة والعساس رقة الظلام وذلك في طرفي الليل. انتهى والأنسب لاتصال الجملة بقوله: «والصبح إذا تنفس» أن يراد بها إدبار الليل.

قوله تعالى: ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ عطف على الخنس، و«إذا تنفس» قيد للصبح،

وعدَّ الصبح متنفساً بسبب انبساط ضوئه على الافق ودفعه الظلمة التي غشيته نوع من الاستعارة بتشبيه الصبح وقد طلع بعد غشيان الظلام للآفاق بمن أحاطت به متاعب أعمال شاقة ثم وجد خلاء من الزمان فاستراح فيه وتنفس فعد إضاءته للافق تنفساً منه كذا يستفاد من بعضهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ جواب القسم. وضمير «إنه» للقرآن أو لما تقدم من آيات السورة بما أنها قرآن بدليل قوله: «لقول رسول» الخ؛ والمراد بالرسول جبريل كما قال تعالى: ﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله﴾ (البقرة / ٩٧).

وفي إضافة القول اليه بما أنه رسول دلالة على أن القول لله سبحانه. ونسبته الى جبريل نسبة الرسالة الى الرسول وقد وصفه الله بصفات ست مدحه بها.

فقوله: ﴿رَسُولٍ﴾ يدل على رسالته وإلقائه وحي القرآن الى النبي ﷺ. وقوله: «كريم» أي ذي كرامة وعزة عند الله بإعزازه، وقوله: «ذي قوة» أي ذي قدرة وشدة بالغة. وقوله: «عند ذي العرش مكين» أي صاحب مكانة عند الله والمكانة القرب والمنزلة. وقوله: «مطاع ثم» أي مطاع عند الله فهناك ملائكة يأمرهم فيطيعونه، ومن هنا يظهر أن له أعواناً من الملائكة يأمرهم فيأتمرون بأمره. وقوله: «أمين» أي لا يخون فيما امر به يبلّغ ما حمّله من الوحي والرسالة من غير أي تصرف فيه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ عطف على قوله: «إنه لقول» الخ؛ ورد لرميهم له ﷺ بالجنون.

وفي التعبير عنه ﷺ بقوله: «صاحبكم» تكذيب لهم في رميهم له بالجنون وتنزيه لساحته ـ كما قيل ـ ففيه إيماء الى أنه صاحبكم لبث بينكم معاشراً لكم طول عمره وأنتم أعرف به قد وجدتموه على كمال من العقل ورزانة من الرأي وصدق من القول ومن هذه صفته

لا يرمي بالجنون.

وتوصيف جبريل بما مر من صفات المدح دون النبي ﷺ لا دلالة فيه على أفضليته من النبي ﷺ لأن الكلام مسوق لبيان أن القرآن كلام الله سبحانه منزل على النبي ﷺ من عنده سبحانه من طريق الوحي لا من أوهام الجنون بالقاء من شيطان والذي يفيد في هذا الغرض بيان سلامة طريق الإنزال وتجليل المنزل ـ اسم فاعل ـ بذكر أوصافه الكريمة والمبالغة في تنزيهه عن الخطأ والخيانة، وأما المنزل عليه فلا يتعلق به غرض إلا بمقدار الإشارة الى دفع ما يرتاب فيه من صفته وقد افيد بنفي الجنون الذي رموه به والتعبير عنه بقوله: «صاحبكم» كما تقدم توضيحه، كذا قيل.

وفي مطاوي كلامه تعالى من نعوت النبي ﷺ الكريمة ما لا يرتاب معه في أفضليته ﷺ على جميع الملائكة، وقد أسجد الله الملائكة كلهم أجمعين للإنسان الذي هو خليفته في الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ضمير الفاعل في «رآه» للصاحب وضمير المفعول للرسول الكريم وهو جبريل.

والافق المبين الناحية الظاهرة، والظاهر أنه الذي أشار اليه بقوله: ﴿وهو بالافق الأعلى﴾ (النجم / ٧).

والمعنى واقسم لقد رآى النبي ﷺ جبريل حال كون جبريل كائناً في الافق المبين وهو الافق الأعلى من سائر الآفاق بما يناسب عالم الملائكة.

وفيه أن لا دليل من اللفظ يدل عليه وخاصة في تعلّق لرؤية بصورته الأصلية ورؤيته في أي مثال تمثّل به رؤيته، وكأنه مأخوذ مما ورد في بعض الروايات أنه رآه في أول البعثة وهو بين السماء والأرض جالس على كرسي، وهو محمول على التمثل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ الضمير للنبي ﷺ، والمراد بالغيب

الوحي النازل عليه، والضنين صفة مشبهة من الضن بمعنى البخل يعني أنـه ﷺ لا يـبخل بشيء مما يوحي اليه فلا يكتمه ولا يحسبه ولا يغيِّره بتبديل بعضه أو كله شيئاً آخر بل يعلّم الناس كما علَّمه الله ويبلِّغهم ما أمر بتبليغه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ نفي لاستناد القرآن الى إلقاء شيطان بما هو أعم من طريق الجنون فإن الشيطان بمعنى الشرير والشيطان الرجيم كما اطلق في كـلامه تعالى على إبليس وذريته كذلك اطلق على أشرار سائر الجن قال تعالى: ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم﴾ (ص / ٧٧)، وقال: ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ (الحجر / ١٧).

فالمعنى أن القرآن ليس بتسويل من إبليس وجنوده ولا بإلقاء من أشرار الجن كما يلقونه على المجانين.

قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أوضح سبحانه في الآيات السبع المتقدمة ما هو الحق في أمر القرآن دافعاً عنه ارتيابهم فيه بما يرمون به الجائي به من الجنون وغيره على إيجاز متون الآيات فبيَّن أولاً أنه كلام الله واتكاء هذه الحقيقة على آيات التحدي، وثانياً أن نزوله برسالة ملك سماوي جليل القدر عظيم المنزلة وهو أمين الوحي جبريل لا حاجز بينه وبين الله ولا بينه وبين النبي ﷺ، ولا صارف من نفسه أو غيره يصرفه عن أخذه ولا حـفظه ولا تـبليغه، وثالثاً أن الذي انزل عليه وهو يتلوه لكم وهو صاحبكم الذي لا يخفى عـليكم حـاله ليس بمجنون كما يبهتونه به وقد رآى الملك الحامل للوحي وأخذ عنه وليس بكاتم لما يوحى اليه ولا بمغيِّر، ورابعاً أنه ليس بتسويل من إبليس وجنوده ولا بإلقاء من بعض أشرار الجن.

ونتيجة هذا البيان أن القرآن كتاب هدى يهتدي به من أراد الاستقامة على الحـق وهـو قوله: «إن هو إلا ذكر للعالمين» الخ.

فقوله: «فأين تذهبون» توطئة وتمهيد لذكر نتيجة البيان السابق، وهو استضلال لهم فيما يرونه في أمر القرآن الكريم أنه من طواري الجنون أو من تسويلات الشيطان الباطلة.

فالاستفهام في الآية توبيخي والمعنى إذا كان الأمر على هذا فأين تذهبون وتتركون الحق وراءكم؟

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي تذكرة لجماعات الناس كائنين من كانوا يمكنهم بها أن يتبصروا للحق، وقد تقدم بعض الكلام في نظيرة الآية.

قوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ بدل من قوله: «للعالمين» مسوق لبيان أن فعلية الانتفاع بهذا الذكر مشروط بأن يشاؤا الاستقامة على الحق وهو التلبس بالثبات على العبودية والطاعة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ تقدم الكلام في معناه في نظائر الآية.

والآية بحسب ما يفيده السياق في معنى دفع الدخل فإن من الممكن أن يتوهموا من قوله: «لمن شاء منكم أن يستقيم» أن لهم الاستقلال في مشية الاستقامة ان شاؤا استقاموا وان لم يشاؤا لم يستقيموا، فلله اليهم حاجة في الاستقامة التي يريدها منهم.

فدفع ذلك بأن مشيتهم متوقفة على مشية الله سبحانه فلا يشاؤن الاستقامة الا أن يشاء الله أن يشاؤها، فأفعال الإنسان الإرادية مرادة لله تعالى من طريق ارادته وهو أن يريد الله أن يفعل الإنسان فعلاً كذا وكذا عن ارادته.

سورة الإنفطار مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ إِذَا السَّمٰاءُ انْفَطَرَتْ.

٢ ❁ وَإِذَا الْكَوٰاكِبُ انْتَثَرَتْ.

٣ ❁ وَإِذَا الْبِحٰارُ فُجِّرَتْ.

٤ ❁ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ.

٥ ❁ عَلِمَتْ نَفْسٌ مٰا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ.

٦ ❁ يٰا أَيُّهَا الإِنْسانُ مٰا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ.

٧ ❁ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوّٰيكَ فَعَدَلَكَ.

٨ ❁ فِي أَيِّ صُورَةٍ مٰا شٰاءَ رَكَّبَكَ.

٩ ❁ كَلّٰا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ.

١٠ ❁ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحٰافِظِينَ.

١١ ❁ كِرٰاماً كٰاتِبِينَ.

١٢ ● يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ.

١٣ ● إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ.

١٤ ● وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ.

١٥ ● يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ.

١٦ ● وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ.

١٧ ● وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ.

١٨ ● ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ.

١٩ ● يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ.

بيان:

تحدُّ السورة يوم القيامة ببعض أشراطه الملازمة له المتصلة به وتصفه بما يقع فيه وهو ذكر الانسان ما قدم وما أخر من أعماله الحسنة والسيئة ـ على أنها محفوظة عليه بواسطة حفظة الملائكة الموكلين عليه ـ وجزاؤه بعمله إن كان براً فبنعيم وإن كان فاجراً مكذباً بيوم الدين فبجحيم يصلاها مخلداً فيها.

ثم يستأنف وصف اليوم بأنه يوم لا يملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله، وهي من غرر الآيات، والسورة مكية بلا كلام.

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ الفطر الشق والانفطار الانشقاق والآية كقوله: ﴿وانشقّت السماء فهي يومئذ واهية﴾ (الحاقة / ١٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ أي تفرقت بتركها مواضعها التي ركزت فيها شبهت الكواكب بلآلي منظومة قطع سلكها فانتثرت وتفرقت.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ قال في المجمع: التفجير خرق بعض مواضع الماء الى بعض التكثير، ومنه الفجور لانخراق صاحبه بالخروج الى كثير من الذنوب، ومنه الفجر لانفجاره بالضياء، انتهى. واليه يرجع تفسيرهم لتفجير البحار بفتح بعضها في بعض حتى يزول الحائل ويختلط العذب منها والمالح ويعود بحراً واحداً. وهذا المعنى يناسب تفسير قوله: ﴿ وإذا البحار سجّرت ﴾ (التكوير / ٦) بامتلاء البحار.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ قال في المجمع: بعثرت الحوض وبحثرته إذا جعلت أسفله أعلاه، والبعثرة والبحثرة إثاره الشيء بقلب باطنه الى ظاهره، انتهى. فالمعنى وإذا قلب تراب القبور وأُثير باطنها الى ظاهرها لإخراج الموتى وبعثهم للجزاء.

قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ المراد بالعلم علمها التفصيلي بأعمالها التي عملتها في الدنيا، وهذا غير ما يحصل لها من العلم بنشر كتاب أعمالها لظاهر قوله تعالى: ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ (القيامة / ١٥) وقوله: ﴿ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴾ (النازعات / ٣٥)، وقوله: ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ﴾ (آل عمران / ٣٠).

والمراد بالنفس جنسها فتفيد الشمول، والمراد بما قدمت وما أخرت هو ما قدمته مما عملته في حياتها، وبما أخرت ما سنته من سنّة حسنة أو سيئة فعملت بها بعد موتها فتكتب صحيفة عملها قال تعالى: ﴿ ونكتب ما قدّموا وآثارهم ﴾ (يس / ١٢).

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ - الى قوله - رَكَّبَكَ ﴾ عتاب وتوبيخ للإنسان، والمراد بهذا الإنسان المكذب ليوم الدين - على ما يفيده السياق المشتمل على قوله: «بل تكذّبون بيوم الدين» وفي تكذيب يوم الدين كفر وإنكار لتشريع الدين وفي إنكاره إنكار لربوبيّة الرب تعالى، وإنما وجه الخطاب اليه بما أنه إنسان ليكون حجة أو كالحجة لثبوت الخصال التي يذكرها من نعمه عليه المختصة من حيث المجموع بالإنسان.

وقد علّق الغرور بصفتي ربوبيته وكرمه تعالى ليكون ذلك حجة في توجه العتاب والتوبيخ فإن تمرد المربوب وتوغله في معصية ربه الذي يدبر أمره ويغشيه نعمه ظاهرة وباطنة كفران لا ترتاب الفطرة السليمة في قبحه ولا في استحقاق العقاب عليه وخاصة إذا كان الرب المنعم كريماً لا يريد في نعمه وعطاياه نفعاً ينتفع به ولا عضواً يقابله به المنعم عليه، ويسامح في إحسانه ويصفح عما يأتي به المربوب من الخطيئة والإثم بجهالة فإن الكفران حينئذ أقبح وأقبح وتوجه الذم واللائمة أشد وأوضح.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ استفهام توبيخي يوبخ الإنسان بكفران خاص لا عذر له يعتذر به عنه وهو كفران نعمة رب كريم.

وليس للانسان أن يجيب فيقول: أي رب غرني كرمك فقد قضى الله سبحانه فيما قضى وبلغه بلسان أنبيائه ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ (إبراهيم / ٧)، وقال: ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى﴾ (النازعات / ٣٩)، الى غير ذلك من الآيات الناصة في أن لا مخلص للمعاندين من العذاب وأن الكرم لا يشملهم يوم القيامة قال: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ (الأعراف / ١٥٦).

ولو كفى الانسان العاصي قوله: «غرني كرمك» لصرف العذاب عن الكافر المعاند كما يصرفه عن المؤمن العاصي، ولا عذر بعد البيان.

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ بيان لربوبيته المتلبسة بالكرم فإن من تدبيره خلق الانسان بجمع أجزاء وجوده ثم تسويته بوضع كل عضو فيما يناسبه من الموضع على ما يقتضيه الحكمة ثم عدله بعدل بعض أعضائه وقواه ببعض بجعل التوازن والتعادل بينها فما يضعف عنه عضو يقوى عليه عضو فيتم به فعله كما أن الأكل مثلاً بالالتقام وهو للفم، ويضعف الفم عن قطع اللقمة ونهشها وطحنها فيتم ذلك بمختلف الأسنان، ويحتاج ذلك الى نقل اللقمة من جانب من الفم الى آخر وقلبها من حال الى حال فجعل ذلك للسان ثم الفم

يحتاج في فعل الأكل الى وضع الغذاء فيه فتوصل الى ذلك باليد وتمم عملها بالكف وعملها بالأصابع على اختلاف منافعها وعملها بالأنامل، وتحتاج اليد في الأخذ والوضع الى الانتقال المكاني نحو الغذاء وعدل ذلك بالرجل.

وعلى هذا القياس في أعمال سائر الجوارح والقوى وهي الوف والوف لا يحصيها العد، والكل من تدبيره تعالى وهو المفيض لها من غير أن يريد بذلك انتفاعاً لنفسه ومن غير أن يمنعه من إفاضتها ما يقابله به الانسان من نسيان الشكر وكفران النعمة فهو تعالى ربه الكريم.

وقوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ بيان لقوله: «عدلك» ولذا لم يعطف على ما تقدمه والصورة ما ينتقش به الأعيان ويتميز به الشيء من غيره و«ما» زائدة للتأكيد.

والمعنى: في أي صورة شاء أن يركّبك ـ ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة ـ ركبك من ذكر وأُنثى وأبيض وأسود وطويل وقصير ووسيم ودميم وقوي وضعيف الى غير ذلك وكذا الأعضاء المشتركة بين أفراد الإنسان المميزة لها من غيرها كاليدين والرجلين والعينين والرأس والبدن واستواء القامة ونحوها فكل ذلك من عدل بعض الأجزاء ببعض في التركيب قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ (التين / ٤) والجميع ينتهي الى تدبير الرب الكريم لا صنع للانسان في شيء من ذلك.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ «كلا» ردع عن اغترار الانسان بكرم الله وجعل ذلك ذريعة الى الكفر والمعصية أي لا تغتروا فلا ينفعكم الاغترار.

وقوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أي بالجزاء. إضراب عمّا يفهم من قوله: «ما غرّك بربك الكريم» من غرور الانسان بربه الكريم على اعتراف منه ولو بالقوة بالجزاء لقضاء الفطرة السليمة به.

فإذ عاتب الإنسان ووبخه على غروره بربه الكريم واجترائه على الكفران والمعصية من غير أن يخاف الجزاء أضرب عنه مخاطباً للانسان وكل من يشاركه في كفره ومعصيته فقال: بل

أنت ومن حاله حالك تكذبون بيوم الدين والجزاء فتجحدونه ملحّين عليه.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ ﴾ إشارة الى أن أعمال الانسان حاضرة محفوظة يوم القيامة من طريق آخر غير حضورها للانسان العامل لها من طريق الذكر وذلك حفظها بكتابة كتاب الاعمال من الملائكة الموكلين بالانسان فيحاسب عليها كما قال تعالى: ﴿ **ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾ (الإسراء / ١٤).

فقوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ ﴾ أي إن عليكم من قبلنا حافظين يحفظون أعمالكم بالكتابة كما يفيده السياق.

وقوله: ﴿ كِراماً كاتِبِينَ ﴾ أي اولي كرامة وعزة عند الله تعالى وقد تكرر في القرآن الكريم وصف الملائكة بالكرامة ولا يبعد أن يكون المراد به بإعانة من السياق كونهم بحسب الخلقة مصونين عن الإثم والمعصية مفطورين على العصمة، ويؤيده قوله: ﴿ **بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ (الأنبياء / ٢٦) حيث دل على أنهم لا يريدون إلا ما أراده الله ولا يفعلون إلا ما أمرهم به، وكذا قوله: ﴿**كرام بررة**﴾ (عبس / ١٦).

والمراد بالكتابة في قوله: «كاتبين» كتابة الأعمال بقرينة قوله: «يعلمون ما تفعلون» وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿ **إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾ (الجاثية / ٢٩) كلام في معنى كتابة الأعمال فليراجعه من شاء.

وقوله: ﴿ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ ﴾ نفي لخطإهم في تشخيص الخير والشر وتمييز الحسنة والسيئة كما أن الآية السابقة متضمنة لتنزيههم عن الإثم والمعصية فهم محيطون بالأفعال على ما هي عليه من الصفة وحافظون لها على ما هي عليه.

ولا تعيين في هذه الآيات لعدة هؤلاء الملائكة الموكلين على كتابة أعمال الانسان نعم

المستفاد من قوله تعالى: ﴿إذ يتلق المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ (ق / ١٧) أن على كل إنسان منهم إثنين عن يمينه وشماله، وقد ورد في الروايات المأثورة أن الذي على اليمين كاتب الحسنات والذي على الشمال كاتب السيئات.

وورد أيضاً في تفسير قوله: ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ (الإسراء / ٧٨) أخبار مستفيضة من طرق الفريقين دالة على أن كتبة الأعمال بالنهار يصعدون بعد غروب الشمس وينزل آخرون فيكتبون أعمال الليل حتى إذا طلع الفجر صعدوا ونزل ملائكة النهار وهكذا.

وفي الآية أعني قوله: «يعلمون ما تفعلون» دلالة على أن الكتبة عالمون بالنيات إذ لا طريق الى العلم بخصوصيات الافعال وعناوينها وكونها خيراً أو شراً أو حسنة أو سيئة إلا العلم بالنيات فعلمهم بالأفعال لا يتم إلا عن العلم بالنيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ استئناف مبين لنتيجة حفظ الاعمال بكتابة الكتبة وظهورها يوم القيامة.

والأبرار هم المحسنون عملاً، والفجار هم المنخرقون بالذنوب والظاهر أن المراد بهم المتهتكون من الكفار إذ لا خلود لمؤمن في النار، وفي تنكير «نعيم» و«جحيم» إشعار بالتفخيم والتهويل ـ كما قيل ـ.

قوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ﴾ الضمير للجحيم أي يلزمون يعني الفجار الجحيم يوم الجزاء ولا يفارقونها.

قوله تعالى: ﴿وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ﴾ عطف تفسيري على قوله: «يصلونها» الخ؛ يؤكد معنى ملازمتهم للجحيم وخلودهم في النار، والمراد بغيبتهم عنها خروجهم منها فالآية في معنى قوله: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ (البقرة / ١٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ﴾ تهويل وتفخيم لأمر يوم الدين، والمعنى لا تحيط علماً بحقيقة يوم الدين وهذا التعبير كناية عن فخامة أمر الشيء وعلوه من أن يناله

وصف الواصف، وفي إظهار اليوم ـ والمحل محل الضمير ـ تأكيد لأمر التفخيم.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ في تكرار الجملة تأكيد للتفخيم.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ الظرف منصوب بتقدير اذكر ونحوه، وفي الآية بيان إجمالي لحقيقة يوم الدين بعد ما في قوله: «وما أدراك ما يوم الدين» من الحث على معرفته.

وذلك أن رابطة التأثير والتأثر بين الأسباب الظاهرية ومسبباتها منقطعة زائلة يومئذ كما يستفاد من أمثال قوله تعالى: ﴿ وتقطعت بهم الاسباب ﴾ (البقرة / ١٦٦)، وقوله: ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ﴾ (البقرة / ١٦٥) فلا تملك نفس لنفس شيئاً فلا تقدر على دفع شر عنها ولا جلب خير لها، ولا ينافي ذلك آيات الشفاعة لأنها بإذن الله فهو المالك لها لا غير.

وقوله: ﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ أي هو المالك للأمر ليس لغيره من الأمر شيء.

والمراد بالأمر كما قيل واحد الأوامر لقوله تعالى: ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار ﴾ (المؤمن / ١٦) وشأن الملك المطاع، الأمر بالمعنى المقابل للنهي، والأمر بمعنى الشأن لا يلائم المقام تلك الملاءمة.

سورة المطففين مكية أو مدنية وهي ست وثلاثون آية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ.

٢ ● اَلَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ.

٣ ● وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ.

٤ ● أَلَا يَظُنُّ أُولٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ.

٥ ● لِيَوْمٍ عَظِيمٍ.

٦ ● يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

٧ ● كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ.

٨ ● وَمَا أَدْرٰيكَ مَا سِجِّينٌ.

٩ ● كِتَابٌ مَرْقُومٌ.

١٠ ● وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.

١١ ● اَلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ.

١٢ ● وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ .

١٣ ● إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

١٤ ● كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

١٥ ● كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ .

١٦ ● ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ .

١٧ ● ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

١٨ ● كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ .

١٩ ● وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ .

٢٠ ● كِتَابٌ مَرْقُومٌ .

٢١ ● يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ .

بيان:

تفتتح السورة بوعيد أهل التطفيف في الكيل والوزن وتنذرهم بأنهم مبعوثون للجزاء في يوم عظيم وهو يوم القيامة ثم تتخلص لتفصيل ما يجري يومئذ على الفجّار والأبرار.

والأنسب بالنظر الى السياق أن يكون أول السورة المشتمل على وعيد المطففين نازلاً بالمدينة وأما ما يتلوه من الآيات الى آخر السورة فيقبل الانطباق على السياقات المكية والمدنية.

قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ دعاء على المطففين والتطفيف نقص المكيال والميزان، وقد نهى الله تعالى عنه وسماه إفساداً في الأرض كما فيما حكاه من قول شعيب ﴿ ويا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ (هود /

٨٤)، وقد تقدم الكلام في تفسير الآية في معنى كونه إفساداً في الأرض.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ الاكتيال من الناس الأخذ منهم بالكيل، وتعديته بعلى لإفادة معنى الضرر، والكيل إعطاؤهم بالمكيال يقال: كاله طعامه ووزنه وكال له طعامه ووزن له والأول لغة أهل الحجاز وعليه التنزيل والثاني لغة غيرهم كما في المجمع، والاستيفاء أخذ الحق تاماً كاملاً، والإخسار الإيقاع في الخسارة.

والمعنى: الذين إذا أخذوا من الناس بالكيل يأخذون حقهم تاماً كاملاً، وإذا أعطوا الناس بالكيل أو الوزن ينقصون فيوقعونهم في الخسران.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجيب، والظن بمعناه المعروف والإشارة الى المطففين باولئك الموضوعة للاشارة البعيدة للدلالة على بعدهم من رحمة الله، واليوم العظيم يوم القيامة الذي يجازون فيه بعملهم.

والاكتفاء بظن البعث وحسبانه ـ مع أن من الواجب الاعتقاد العلمي بالمعاد ـ لأن مجرد حسبان الخطر والضرر في عمل يوجب التجنب عنه والتحرز عن اقترافه وإن لم يكن هناك علم فالظن بالبعث ليوم عظيم يؤاخذ الله فيه الناس بما كسبوا من شأنه أن يردعهم عن اقتراف هذا الذنب العظيم الذي يستتبع العذاب الاليم.

وقيل: الظن في الآية بمعنى العلم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المراد به قيامهم من قبورهم ـ كناية عن تلبسهم بالحياة بعد الممات ـ لحكمه تعالى وقضائه بينهم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ردع ـ كما قيل ـ عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب.

وقوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ الخ: الذي يعطيه التدبر في سياق الآيات الأربع بقياس بعضها الى بعض وقياس المجموع الى مجموع قوله: «كلا ان كتاب الأبرار لفي عليّين» الى تمام أربع آيات أن المراد بسجّين ما يقابل عليين ومعناه علو على علو مضاعف ففيه شيء من معنى السفل والانحباس فيه كما يشير اليه قوله: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ (التين / ٥) فالأقرب أن يكون مبالغة من السجن بمعنى الحبس كسكير وشرّيب من السكر والشرب فمعناه الذي يحبس من دخله على التخليد كما قيل.

والكتاب بمعنى المكتوب من الكتابة بمعنى القضاء المحتوم والمراد بكتاب الفجّار ما قدّره الله لهم من الجزاء وأثبته بقضائه المحتوم.

فمحصل الآية أن الذي أثبته الله من جزائهم أو عده لهم لفي سجين الذي هو سجن يحبس من دخله حبساً طويلاً أو خالداً.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ مسوق للتهويل.

وقوله: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ خبر لمبتدء محذوف هو ضمير راجع الى سجين والجملة بيان لسجين و«كتاب» أيضاً بمعنى المكتوب من الكتابة بمعنى القضاء والإثبات. و«مرقوم» من الرقم. قال الراغب: الرقم الخط الغليظ. وقيل: هو تعجيم الكتاب. وقوله تعالى: «كتاب مرقوم» حمل على الوجهين. انتهى. والمعنى الثاني أنسب للمقام فيكون إشارة الى كون ما كتب لهم متبيناً لا إبهام فيه أي إن القضاء حتم لا يتخلف.

والمحصل أن سجين مقضي عليهم مثبت لهم متبين متميز لا إبهام فيه.

ولا ضير في لزوم كون الكتاب ظرفاً للكتاب على هذا المعنى لأن ذلك من ظرفية الكل للجزء وهي مما لا ضير فيه فيكون سجين كتاباً جامعاً فيه ما قضي على الفجّار وغيرهم من مستحقي العذاب.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ نعي ودعاء على الفجار وفيه تفسيرهم

بالمكذبين، و «يومئذ» ظرف لقوله: «إن كتاب الفجّار لفي سجين» بحسب المعنى أي ليهلك الفجّار ـ وهم المكذبون ـ يومئذ تحقق ما كتب الله لهم وقضى عليهم من الجزاء وحل بهم ما أعد لهم من العذاب.

هذا ما يفيده التدبر في هذه الآيات الأربع. وهي ذات سياق واحد متصل متلائم الأجزاء.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ تفسير للمكذبين وظاهر الآية ـ ويؤيده الآيات التالية ـ أن المراد بالتكذيب هو التكذيب القولي الصريح فيختص الذم بالكفار ولا يشمل الفسقة من أهل الايمان فلا يشمل مطلق المطففين بل الكفار منهم.

اللهم إلا أن يراد بالكتذيب ما يعم التكذيب العملي كما ربما أيده قوله السابق: «الا يظن اولئك أنهم مبعوثون» فيشمل الفجار من المؤمنين كالكفار.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ المعتدى اسم فاعل من الاعتداء بمعنى التجاوز والمراد به المتجاوز عن حدود العبودية. والأثيم كثير الآثام بحيث تراكم بعضها على بعض بانهماكه في الأهواء.

ومن المعلوم أن المانع الوحيد الذي يردع عن المعصية هو الإيمان بالبعث والجزاء، والمنهمك في الأهواء المتعلق قلبه بالاعتداء والإثم تأبى نفسه التسليم لما يردع عنها والتزهد عن المعاصي وينتهي الى تكذيب البعث والجزاء قال تعالى: **﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن﴾** (الروم / ١٠).

قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ المراد بالآيات آيات القرآن بقرينة «تتلى» والاساطير ما سطروه وكتبوه والمراد بها أباطيل الامم الماضين والمعنى إذا تتلى عليه آيات القرآن مما يحذرهم المعصية وينذرهم بالبعث والجزاء قال: هي أباطيل.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ردع عما قاله

المكذبون: «أساطير الأولين» قال الراغب: الرين صدأ يعلو الشيء الجليل[1]، قال تعالى: «بل ران على قلوبهم» أي صار ذلك كصدء على جلاء قلوبهم فعمي عليهم معرفة الخير من الشر، انتهى. فكون ما كانوا يكسبون وهو الذنوب ريناً على قلوبهم هو حيلولة الذنوب بينهم وبين أن يدركوا الحق على ما هو عليه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ ردع عن كسب الذنوب الحائلة بين القلب وإدراك الحق، والمراد بكونهم محجوبين عن ربهم يوم القيامة حرمانهم من كرامة القرب والمنزلة ولعله مراد من قال: إن المراد كونهم محجوبين عن رحمة ربهم.

وأما ارتفاع الحجاب بمعنى سقوط الأسباب المتوسطة بينه تعالى وبين خلقه والمعرفة التامة به تعالى فهو حاصل لكل أحد قال تعالى: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار﴾ (المؤمن / ١٦) وقال: ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ (النور / ٢٥).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي داخلون فيها ملازمون لها أو مقاسون حرها على ما فسره بعضهم و«ثم» في الآية وما بعدها للتراخي بحسب رتبة الكلام.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ هو توبيخ وتقريع والقائل خزنة النار أو أهل الجنة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرٰيكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ ردع في معنى الردع الذي في قوله: «كلا إن كتاب الفجار» وعليون ـ كما تقدم ـ علو على علو مضاعف، وينطبق على الدرجات العالية ومنازل القرب من الله تعالى كما أن السجين بخلافه.

والكلام في معنى الآيات الثلاث نظير الكلام في الآيات الثلاث المتقدمة التي تحازيها من

---

١. الجلي ظ.

قوله: «إن كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم».

فالمعنى أن الذي كتب للأبرار وقضي جزاء لبرهم لفي عليين وما أدراك ما عليون هو أمر مكتوب ومقضي قضاء حتماً لازماً متبين لا إبهام فيه.

وللقوم أقاويل في هذه الآيات نظير ما لهم في الآيات السابقة من الأقوال غير أن من أقوالهم في عليين أنه السماء السابعة تحت العرش فيه أرواح المؤمنين، وقيل سدرة المنتهى التي اليها تنتهي الأعمال، وقيل: لوح من زبر جدة تحت العرش معلق مكتوبه فيه أعمالهم، وقيل: هي مراتب عاليه محفوفة بالجلالة، والكلام فيها كالكلام فيما تقدم من أقوالهم.

قوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ الأنسب لما تقدم من معنى الآيات السابقة أن يكون «يشهده» من الشهود بمعنى المعاينة والمقربون قوم من أهل الجنة هم أعلى درجة من عامة الأبرار على ما سيأتي استفادته من قوله: «عيناً يشرب بها المقربون» فالمراد معاينتهم له بإراءة الله إياه لهم وقد قال الله تعالى في مثله من أمر الجحيم: ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم﴾ (التكاثر / ٦) ومنه يظهر أن المقربين هم أهل اليقين[1].

٢٢ • إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ.

٢٣ • عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ.

٢٤ • تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ.

٢٥ • يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ.

٢٦ • خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذٰلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ.

٢٧ • وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ.

---

١. المطففين ١ ـ ٢١: بحث روائي في خلقه الائمة والشيعة: العليين: السجين: تاثير الذنوب على القلب.

٢٨ ● عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ.

٢٩ ● إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ.

٣٠ ● وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ.

٣١ ● وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ.

٣٢ ● وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ.

٣٣ ● وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ.

٣٤ ● فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ.

٣٥ ● عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ.

٣٦ ● هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ النعيم النعمة الكثيرة وفي تنكيره دلالة على فخامة قدره، والمعنى إن الابرار لفي نعمة كثيرة لا يحيط بها الوصف.

قوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ الأرائك جمع أريكة والأريكة السرير في الجملة وهي البيت المزين للعروس وإطلاق قوله: «ينظرون» من غير تقييد يؤيد أن يكون المراد نظرهم الى مناظر الجنة البهجة وما فيها من النعيم المقيم. وقيل: المراد به النظر الى ما يجزى به الكفار وليس بذاك.

قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ النضرة البهجة والرونق. والخطاب للنبي ﷺ باعتبار أن له أن ينظر فيعرف فالحكم عام والمعنى كل من نظر الى وجوههم يعرف فيها بهجة النعيم الذي هم فيه.

قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ الرحيق الشراب الصافي الخالص من الغش، ويناسبه وصفه بأنه مختوم فانه إنما يختم على الشيء النفيس الخالص ليسلم من الغش والخلط وإدخال ما يفسده فيه.

قوله تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ قيل الختام بمعنى ما يختم به أي إن الذي يختم به مسك بدلاً من الطين ونحوه الذي يختم به في الدنيا. وقيل: أي آخر طعمه الذي يجده شاربه رائحة المسك.

وقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ التنافس التغالب على الشيء ويفيد بحسب المقام معنى التسابق قال تعالى: ﴿سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة﴾ (الحديد / ٢١).

وقال: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ (المائدة / ٤٨)، ففيه ترغيب الى ما وصف من الرحيق المختوم.

قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ المزاج ما يمزج به، والتسنيم على ما تفسره الآية التالية عين في الجنة سماه الله تسنيماً وفي لفظه معنى الرفع والملء يقال: سنمه أي رفعه ومنه سنام الابل، ويقال: سنّم الإناء أي ملأه.

قوله تعالى: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ يقال: شربه وشرب به بمعنى و «عيناً» منصوب على المدح أو الاختصاص و «يشرب بها المقربون» وصف لها والمجموع تفسير للتسنيم.

ومفاد الآية أن المقرَّبين يشربون التسنيم صرفاً كما أن مفاد قوله: «ومزاجه من تسنيم» أنه يمزج بها ما في كأس الابرار من الرحيق المختوم، ويدل ذلك أولاً على أن التسنيم أفضل من الرحيق المختوم الذي يزيد لذة بمزجها، وثانياً أن المقربين أعلى درجة من الأبرار الذين يصفهم الآيات.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ يعطي السياق أن المراد بالذين آمنوا هم الابرار الموصوفون في الآيات وإنما عبر عنهم بالذين آمنوا لأن سبب ضحك الكفار منهم واستهزائهم بهم إنما إيمانهم كما أن التعبير عن الكفار بالذين اجرموا للدلالة على أنهم بذلك من المجرمين.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ عطف على قوله: «يضحكون» أي كانوا إذا مروا بالذين آمنوا يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم استهزاء بهم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ الفكه بالفتح فالكسر المرح البطر. والمعنى وكانوا إذا انقلبوا وصاروا الى أهلهم عن ضحكهم وتغامزهم انقلبوا ملتذين فرحين بما فعلوا أو هو من الفكاهة بمعنى حديث ذوي الانس والمعنى انقلبوا وهم يحدثون بما فعلوا تفكهاً.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ على سبيل الشهادة عليهم بالضلال أو القضاء عليهم والثاني أقرب.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أي وما ارسل هؤلاء الذين أجرموا حافظين على المؤمنين يقضون في حقهم بما شاؤا أو يشهدون عليهم بما هووا، وهذا تهكم بالمستهزئين.

قوله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ المراد باليوم يوم الجزاء، والتعبير عن الذين أجرموا بالكفار رجوع الى حقيقة صفتهم. قيل: تقديم الجارّ والمجرور على الفعل أعني «من الكفار» على «يضحكون» لإفادة قصر القلب، والمعنى فاليوم الذين آمنوا يضحكون من الكفار لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ الثواب في الأصل مطلق الجزاء وإن غلب استعماله في الخير، وقوله: «على الأرائك» خبر بعد

خبر للذين آمنوا و « ينظرون » خبر آخر ، وقوله : « هل ثوّب » الخ : متعلق بقوله : « ينظرون » قائم مقام المفعول .

والمعنى : الذين آمنوا على سرر في الحجال ينظرون الى جزاء الكفار بأفعالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا من انواع الإجرام ومنها ضحكهم من المؤمنين وتغامزهم إذا مروا بهم وانقلابهم الى أهلهم فكهين وقولهم : إن هؤلاء لضالون .

سورة الإنشقاق مكية وهي خمس وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● إِذَا السَّمٰاءُ انْشَقَّتْ.

٢ ● وَأَذِنَتْ لِرَبِّهٰا وَحُقَّتْ.

٣ ● وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ.

٤ ● وَأَلْقَتْ مٰا فِيهٰا وَتَخَلَّتْ.

٥ ● وَأَذِنَتْ لِرَبِّهٰا وَحُقَّتْ.

٦ ● يٰا أَيُّهَا الْإِنْسٰانُ إِنَّكَ كٰادِحٌ إِلىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاٰقِيهِ.

٧ ● فَأَمّٰا مَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ بِيَمِينِهِ.

٨ ● فَسَوْفَ يُحٰاسَبُ حِسٰاباً يَسِيراً.

٩ ● وَيَنْقَلِبُ إِلىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً.

١٠ ● وَأَمّٰا مَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ وَرٰاءَ ظَهْرِهِ.

١١ ● فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً.

١٢ ● وَيَصْلىٰ سَعِيراً.

١٣ ● إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً.

١٤ ● إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ.

١٥ ● بَلىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً.

١٦ ● فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ.

١٧ ● وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ.

١٨ ● وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ.

١٩ ● لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ.

٢٠ ● فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ.

٢١ ● وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ.

٢٢ ● بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ.

٢٣ ● وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ.

٢٤ ● فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

٢٥ ● إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ شرط جزاؤه محذوف يدل عليه قوله: «يا أيها الانسان إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه» والتقدير: لاقى الإنسان ربه فحاسبه وجازاه على ما عمل.

وانشقاق السماء وهو تصدعه وانفراجه من أشراط الساعة كمدّ الارض وسائر ما ذكر في مواضع من كلامه تعالى من تكوير الشمس واجتماع الشمس والقمر وانتثار الكواكب ونحوها.

قوله تعالى: ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ الإذن الاستماع ومنه الاذن لجارحة السمع وهو مجاز عن الانقياد والطاعة، و « حقت » أي جعلت حقيقة وجديرة بأن تسمع، والمعنى أطاعت وانقادت لربها وكانت حقيقة وجديرة بأن تستمع وتطيع.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ الظاهر أن المراد به اتساع الارض، وقد قال تعالى: ﴿ يوم تبدّل الأرض غير الأرض ﴾ (إبراهيم / ٤٨).

قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أي ألقت الارض ما في جوفها من الموتى وبالغت في الخلو مما فيها منهم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ ضمائر التأنيث للأرض كما أنها في نظيرتها المتقدمة للسماء، وقد تقدم معنى الآية.

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ﴾ قال الراغب: الكدح السعي والعناء. انتهى. ففيه معنى السير، وقيل: الكدح جهد النفس في العمل حتى يؤثر فيها انتهى. وعلى هذا فهو مضمن معنى السير بدليل تعديه بإلى ففي الكدح معنى السير على أي حال.

وقوله: ﴿ فَمُلاقِيهِ ﴾ عطف على « كادح » وقد بين به أن غاية هذا السير والسعي والعناء هو الله سبحانه بما أن له الربوبية أي إن الإنسان بما أنه عبد مربوب ومملوك مدبر ساع الى الله سبحانه بما أنه ربه ومالكه المدبر لأمره فإن العبد لا يملك لنفسه إرادة ولا عملاً فعليه أن يريد ولا يعمل إلا ما أراده ربه ومولاه وأمره به فهو مسؤل عن إرادته وعمله.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ تفصيل مترتب على ما يلوح اليه قوله: «إنك كادح الى ربك» أن هناك رجوعاً وسؤالاً عن الاعمال وحساباً، والمراد بالكتاب صحيفة الأعمال بقرينة ذكر الحساب، وقد تقدم الكلام في معنى إعطاء الكتاب باليمين في سورتي الإسراء والحاقة.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ الحساب اليسير ما سوهل فيه وخلا عن المناقشة.

قوله تعالى: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ المراد بالأهل من أعده الله له في الجنة من الحور والغلمان وغيرهم وهذا هو الذي يفيد السياق.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ الظرف منصوب بنزع الخافض والتقدير من وراء ظهره، ولعلهم إنما يؤتون كتبهم من وراء ظهورهم لرد وجوههم على أدبارهم كما قال تعالى: ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾ (النساء / ٤٧).

ولا منافاة بين إيتاء كتابهم من وراء ظهورهم وبين إيتائهم بشمالهم كما وقع في قوله تعالى: ﴿وأمّا من أُوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أُوت كتابيه﴾ (الحاقة / ٢٧)، وسيأتي في البحث الروائي التالي ما ورد في الروايات من معنى إيتاء الكتاب من وراء ظهورهم.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً﴾ الثبور كالويل الهلاك ودعاؤهم الثبور قولهم: واثبوراه.

قوله تعالى: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيراً﴾ أي يدخل ناراً مؤججة لا يوصف عذابها، أو يقاسي حرها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ يسره ما يناله من متاع الدنيا وتنجذب نفسه الى زينتها وينسيه ذلك أمر الآخرة وقد ذم تعالى فرح الإنسان بما يناله من خير الدنيا وسماه فرحاً بغير حق قال تعالى بعد ذكر النار وعذابها: ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض

بغير الحق وبما كنتم تمرحون﴾ (المؤمن / ٧٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أي لن يرجع والمراد الرجوع الى ربه للحساب والجزاء، ولا سبب يوجبه عليهم إلا التوغل في الذنوب والآثام الصارفة عن الآخرة الداعية الى استبعاد البعث.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ رد لظنه أي ليس الامر كما ظنه بل يحور ويرجع، وقوله: «إن ربه كان به بصيراً» تعليل للرد المذكور فإن الله سبحانه كان ربه المالك له المدبر لأمره وكان يحيط به علماً ويرى ما كان من أعماله وقد كلفه بما كلف ولأعماله جزاء خيراً أو شراً فلابد أن يرجع اليه ويجزي بما يستحقه بعمله[١].

قوله تعالى: ﴿فَلَاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ الشفق الحمرة ثم الصفرة ثم البياض التي تحدث بالمغرب أول الليل.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي ضم وجمع ما تفرق وانتشر في النهار من الإنسان والحيوان فإنها تتفرق وتنتشر بالطبع في النهار وترجع الى مأواها في الليل فتسكن.

وفسر بعضهم «وسق» بمعنى طرد أي طرد الكواكب من الخفاء الى الظهور.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي اجتمع وانضم بعض نوره الى بعض فاكتمل نوره وتبدر.

قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ﴾ جواب القسم والخطاب للناس والطبق هو الشيء أو الحال الذي يطابق آخر سواء كان أحدهما فوق الآخر أم لا والمراد به كيف كان المرحلة بعد المرحلة يقطعها الإنسان في كدحه الى ربه من الحياة الدنيا ثم الموت ثم الحياة البرزخية ثم الإنتقال الى الآخرة ثم الحياة الآخرة ثم الحساب والجزاء.

---

١. الانشقاق ١ ـ ٢٥: بحث في اصحاب اليمين واصحاب الشمال: معنى ايتا الكتاب باليمين وبالشمال.

وفي هذا الإقسام ـ كما ترى ـ تأكيد لما في قوله: «يا أيها الإنسان إنك كادح» الآية؛ وما بعده من نبأ البعث وتوطئة وتمهيد لما في قوله: «فما لهم لا يؤمنون» من التعجيب والتوبيخ وما في قوله: «فبشرهم بعذاب» الخ؛ من الإنذار والتبشير.

وفي الآية إشارة الى أن المراحل التي قطعها الإنسان في مسيره الى ربه مترتبة متطابقة.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ﴾ الاستفهام للتعجيب والتوبيخ ولذا ناسب الالتفات الذي فيه من الخطاب الى الغيبة كأنه لما رآى أنهم لا يتذكرون بتذكيره ولا يتعظون بعظته أعرض عنهم الى النبي ﷺ فخاطبه بقوله: «فمالهم لا يؤمنون» الخ.

قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَروا يُكَذِّبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ «يكذبون» يفيد الاستمرار، والتعبير عنهم بالذين كفروا للدلالة على علة التكذيب. والايعاء كما قيل جعل الشيء في وعاء.

والمعنى: أنهم لم يتركوا الإيمان لقصور في البيان أو لانقطاع من البرهان لكنهم اتبعوا أسلافهم ورؤساءهم فرسخوا في الكفر واستمروا على التكذيب والله يعلم بما جمعوا في صدورهم وأضمروا في قلوبهم من الكفر والشرك.

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ التعبير عن الأخبار بالعذاب بالتبشير مبني على التهكم، والجملة متفرعة على التكذيب.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ استثناء منقطع من ضمير «فبشرهم» والمراد بكون أجرهم غير ممنون خلوه من قول يثقل على المأجور.

سورة البروج مكية وهي اثنتان وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ وَالسَّمٰاءِ ذٰاتِ الْبُرُوجِ.

٢ ❁ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ.

٣ ❁ وَشٰاهِدٍ وَمَشْهُودٍ.

٤ ❁ قُتِلَ أَصْحٰابُ الْأُخْدُودِ.

٥ ❁ النّٰارِ ذٰاتِ الْوَقُود.

٦ ❁ إِذْ هُمْ عَلَيْهٰا قُعُودٌ.

٧ ❁ وَهُمْ عَلىٰ مٰا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ.

٨ ❁ وَمٰا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلّٰا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

٩ ❁ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ وَاللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

١٠ ❁ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنٰاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ

عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ.

١١ • إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ.

١٢ • إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ.

١٣ • إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ.

١٤ • وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ.

١٥ • ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ.

١٦ • فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ.

١٧ • هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ.

١٨ • فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ.

١٩ • بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ.

٢٠ • وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ.

٢١ • بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ.

٢٢ • فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ.

بيان:

سورة إنذار وتبشير فيها وعيد شديد للذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات لإيمانهم بالله كما كان المشركون من أهل مكة يفعلون ذلك بالذين آمنوا بالنبي ﷺ فيعذبونهم ليرجعوا الى شركهم السابق فنهم من كان يصبر ولا يرجع بلغ الأمر ما بلغ، ومنهم من رجع وارتد وهم ضعفاء الايمان كما يشير الى ذلك قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا اوذي في

الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ (العنكبوت / ١٠)، وقوله: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾ (الحج / ١١).

وقد قدم سبحانه على ذلك الاشارة الى قصة اصحاب الاخدود، وفيه تحريض المؤمنين على الصبر في جنب الله تعالى، وأتبعها بالإشارة الى حديث الجنود فرعون وثمود وفيه تطييب لنفس النبي ﷺ بوعد النصر وتهديد للمشركين.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ البروج جمع برج وهو الأمر الظاهر ويغلب استعماله في القصر العالي لظهوره على الناظرين ويسمى البناء المعمول على سور البلد الدفاع برجاً وهو المراد في الآية لقوله تعالى: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيّناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ (الحجر / ١٧). فالمراد بالبروج مواضع الكواكب من السماء.

قوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ عطف على السماء وإقسام باليوم الموعود وهو يوم القيامة الذي وعد الله القضاء فيه بين عباده.

قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ معطوفان على السماء والجميع قسم بعد قسم على ما ازيد بيانه في السورة وهو - كما تقدمت الإشارة اليه - الوعيد الشديد لمن يفتن المؤمنين والمؤمنات لايمانهم والوعد الجميل لمن آمن وعمل صالحاً.

فكأنه قيل: اقسم بالسماء ذات البروج التي يدفع الله بها عنها الشياطين إن الله يدفع عن إيمان المؤمنين كيد الشياطين وأوليائهم من الكافرين، واقسم باليوم الموعود الذي يجزي فيه الناس بأعمالهم، واقسم بشاهد يشهد ويعاين أعمال اولئك الكفار وما يفعلونه بالمؤمنين لايمانهم بالله واقسم بمشهود سيشهده الكل ويعاينونه إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، الى آخر الآيتين.

ومن هنا يظهر أن الشهادة في «شاهد» و«مشهود» بمعنى واحد وهو المعاينة بالحضور، على أنها لو كانت بمعنى تأدية الشهادة لكان حق التعبير «ومشهود عليه» لأنها بهذا المعنى إنما تتعدى بعلى.

وعلى هذا يقبل «شاهد» الانطباق على النبي ﷺ لشهادته أعمال امته ثم يشهد عليها يوم القيامة، ويقبل «مشهود» الانطباق على تعذيب الكفار لهؤلاء المؤمنين وما فعلوا بهم من الفتنة وإن شئت فقل: على جزائه وإن شئت فقل: على ما يقع يوم القيامة من العقاب والثواب لهؤلاء الظالمين والمظلومين. وتنكير «مشهود» و«وشاهد» على أي حال للتفخيم.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ إشارة الى قصة الاخدود لتكون توطئة وتمهيداً لما سيجيء من قوله: «إن الذين فتنوا» الخ: وليس جواباً للقسم البتّة.

والاخدود الشق العظيم في الأرض، وأصحاب الاخدود هم الجبابرة الذين خدوا اخدوداً وأضرموا فيها النار وأمروا المؤمنين بدخولها فأحرقوهم عن آخرهم نقماً منهم لإيمانهم.

فقوله: ﴿قُتِلَ﴾ الخ: دعاء عليهم والمراد بالقتل اللعن والطرد.

وقيل: المراد بأصحاب الاخدود المؤمنون والمؤمنات الذين احرقوا فيه، وقوله: «قتل» إخبار عن قتلهم بالإحراق وليس من الدعاء في شيء. ويضعّفه ظهور رجوع الضمائر في قوله: «إذ هم عليها» و«هم على ما يفعلون» و«ما نقموا» الى أصحاب الاخدود، والمراد بها وخاصة بالثاني والثالث الجبابرة الناقمون دون المؤمنين المعذبين.

قوله تعالى: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ بدل من الاخدود، والوقود ما يشعل به النار من حطب وغيره، وفي توصيف النار بذات الوقود إشارة الى عظمة أمر هذه النار وشدة اشتعالها وأجيجها.

قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أي في حال اولئك الجبابرة قاعدون في أطراف

النار المشرفة عليها.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي حضور ينظرون ويشاهدون إحراقهم واحتراقهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ النقم بفتحتين الكراهة الشديدة أي ما كرهوا من اولئك المؤمنين إلا ايمانهم بالله فأحرقوهم لأجل إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أوصاف جارية على اسم الجلالة تشير الى الحجة على أن اولئك المؤمنين كانوا على الحق في ايمانهم مظلومين فيما فعل بهم لا يخفى حالهم على الله وسيجزيهم خير الجزاء، وعلى أن اولئك الجبابرة كانوا على الباطل مجترين على الله ظالمين فيما فعلوا وسيذوقون وبال أمرهم.

وذلك أنه تعالى هو الله العزيز الحميد أي الغالب غير المغلوب على الاطلاق والجميل في فعله على الاطلاق فله وحده كل الجلال والجمال فمن الواجب أن يخضع له وأن لا يتعرض لجانبه، وإذ كان له ملك السماوات والأرض فهو المليك على الإطلاق له الأمر وله الحكم فهو رب العالمين فمن الواجب أن يتخذ إلهاً معبوداً ولا يشرك به أحد فالمؤمنون به على الحق والكافرون في ضلال.

ثم إن الله ـ وهو الموجد لكل شيء ـ على كل شيء شهيد لا يخفى عليه شيء من خلقه ولا عمل من أعمال خلقه ولا يحتجب عنه إحسان ولا إساءة مسيء فسيجزي كلاً بما عمل.

وبالجملة اذ كان تعالى هو الله المتصف بهذه الصفات الكريمة كان على هؤلاء المؤمنين أن يؤمنوا به ولم يكن لاولئك الجبابرة أن يتعرضوا لحالهم ولا أن يمسوهم بسوء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ الفتنة المحنة والتعذيب، والذين فتنوا، الخ: عام

يشمل أصحاب الاخدود ومشركي قريش الذين كانوا يفتنون من آمن بالنبي ﷺ من المؤمنين والمؤمنات بأنواع من العذاب ليرجعوا عن دينهم.

قال في المجمع: يسأل فيقال: كيف فصل بين عذاب جهنم وعذاب الحريق وهما واحد؟ اجيب عن ذلك بأن المراد لهم أنواع العذاب في جهنم سوى الإحراق مثل الزّقوم والغسلين والمقامع ولهم مع ذلك الإحراق بالنار انتهى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ وعد جميل للمؤمنين يطيب به نفوسهم كما أن ما قبله وعيد شديد للكفار الفاتنين المعذبين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ الآية الى تمام سبع آيات تحقيق وتأكيد لما تقدم من الوعيد والوعد، والبطش ـ كما ذكره الراغب ـ تناول الشيء بصولة.

وفي إضافة البطش الى الرب وإضافة الرب الى الكاف تطييب لنفس النبي ﷺ بالتأييد والنصر، وإشارة الى أن الجبابرة امته نصيباً من الوعيد المتقدم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ المقابلة بين المبدىء والمعيد يعطي أن المراد بالإبداء البدء، والافتتاح بالشيء، قالوا: ولم يسمع من العرب الإبداء لكن القراءة ذلك وفي بعض القراءات الشاذة يبدء بفتح الياء والدال.

وعلى أي حال فالآية تعليل لشدة بطشه تعالى وذلك أنه تعالى مبدىء يوجد ما يريده من شيء ايجاداً ابتدائياً من غير أن يستمد على ذلك من شيء غير نفسه، وهو تعالى يعيد كل ما كان الى ما كان وكل حال فاتته الى ما كانت عليه قبل الفوت فهو تعالى لا يمتنع عليه ما أراد ولا يفوته فائت زائل واذ كان كذلك فهوالقادر على أن يحمل على العبد المتعدي حده، من العذاب ما هو فوق حده ووراء طاقته ويحفظه على ما هو عليه ليذوق العذاب قال تعالى: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ (فاطر /

٣٦).

وهو القادر على أن يعيد ما أفسده العذاب الى حالته الاولى ليذوق المجرم بذلك العذاب من غير انقطاع قال تعالى: ﴿ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ (النساء / ٥٦).

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ أي كثير المغفرة والمودة ناظر الى وعد المؤمنين كما أن قوله: «إن بطش ربك» الخ، ناظر الى وعيد الكافرين.

قوله تعالى: ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ العرش عرش الملك، وذو العرش كناية عن الملك أي هو ملك له أن يتصرف في مملكته كيفما تصرف ويحكم بما شاء والمجيد صفة من المجد وهو العظمة المعنوية وهي كمال الذات والصفات. وقوله: «فعال لما يريد» أي لا يصرفه عما أراده صارف لا من داخل لضجر وكسل وملل وتغيير إرادة وغيرها ولا من خارج لمانع يحول بينه وبين ما أراد.

فله تعالى أن يوعد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ويعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالجنة لأنه ذو العرش المجيد ولن يخلف وعده لأنه فعال لما يريد.

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتيكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ تقرير لما تقدم من شدة بطشه تعالى وكونه ملكاً مجيداً فعالاً لما يريد، وفيه تسلية للنبي ﷺ وتطييب لنفسه الشريفة بالاشارة الى حديثهم، ومعنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ لا يبعد أن يستفاد من السياق كون المراد بالذين كفروا هم قوم النبي ﷺ.

وفي الآية اضراب عما تقدم من الموعظة والحجة من حيث الأثر، والمعنى لا ينبغي أن يرجى منهم الايمان بهذه الآيات البينات فإن الذين كفروا مصرون على تكذيبهم لا ينتفعون بموعظة أو حجة.

ومن هنا ظهر أن المراد بكون الذين كفروا في تكذيب أي بظرفية التكذيب لهم اصرارهم عليه.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ وراء الشيء الجهات الخارجة منه المحيطة به. إشارة الى أنهم غير معجزين لله سبحانه فهو محيط بهم قادر عليهم من كل جهة، وفيه أيضاً تطييب لنفس النبي ﷺ.

وعن بعضهم أن في قوله: «من ورائهم» تلويحاً الى الى أنهم اتخذوا الله وراءهم ظهرياً، وهو بني على أخذ وراء بمعنى خلف.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ إضراب عن اصرارهم على تكذيب القرآن، والمعنى ليس الأمر كما يدعون بل القرآن كتاب مقروّ عظيم في معناه غزير في معارفه في لوح محفوظ عن الكذب والباطل مصون من مسّ الشياطين[1].

١. البروج ١ ـ ٢٢: بحث روائي حول: السماء ذات البروج؛ اليوم الموعود: الشاهد والمشهود؛ اصحاب الاخدود.

سورة الطارق مكية وهي سبع عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ وَالسَّمٰاءِ وَالطّٰارِقِ.

٢ ❁ وَمٰا أَدْرٰيكَ مٰا الطّٰارِقُ.

٣ ❁ النَّجْمُ الثّٰاقِبُ.

٤ ❁ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمّٰا عَلَيْهٰا حٰافِظٌ.

٥ ❁ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسٰانُ مِمَّ خُلِقَ.

٦ ❁ خُلِقَ مِنْ مٰاءٍ دٰافِقٍ.

٧ ❁ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرٰائِبِ.

٨ ❁ إِنَّهُ عَلىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ.

٩ ❁ يَوْمَ تُبْلَى السَّرٰائِرُ.

١٠ ❁ فَمٰالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ.

١١ ❁ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ.

١٢ ● وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ.

١٣ ● إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ.

١٤ ● وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ.

١٥ ● إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً.

١٦ ● وَأَكِيدُ كَيْداً.

١٧ ● فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً.

بيان:

في السورة إنذار بالمعاد وتستدل عليه بإطلاق القدرة وتؤكد القول في ذلك، وفيها إشارة الى حقيقة اليوم، وتختتم بوعيد الكفار.

والسورة ذات سياق مكي.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ الطرق في الأصل ـ على ما قيل ـ هو الضرب بشدة يسمع له صوت ومنه المطرقة والطريق لأن السابلة تطرقها بأقدامها ثم شاع استعماله في سلوك الطريق ثم اختص بالإتيان ليلاً لأن الآتي بالليل في الغالب يجد الأبواب مغلقة فيطرقها ويدقها ثم شاع الطارق في كل ما يظهر ليلاً، والمراد بالطارق في الآية النجم الذي يطلع بالليل.

والثقب في الأصل بمعنى الخرق ثم صار بمعنى النّير المضيء لأنه يثقب الظلام بنوره ويأتي بمعنى العلو والارتفاع ومنه ثقب الطائر أي ارتفع وعلا كأنه يثقب الجو بطيرانه.

فقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ إقسام بالسماء وبالنجم الطالع ليلاً، وقوله: «وما أدراك ما الطارق» تفخيم لشأن المقسم به وهو الطارق، وقوله: «النجم الثاقب» بيان للطارق

والجملة في معنى جواب استفهام مقدَّر كأنه لما قيل : وما أدراك ما الطارق ؟ سئل فقيل : فما هو الطارق ؟ فاجيب ، وقيل : النجم الثاقب .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ جواب للقسم ولما بمعنى إلا والمعنى ما من نفس إلا عليها حافظ . والمراد من قيام الحافظ على حفظها كتابة أعمالها الحسنة والسيئة على ما صدرت منها ليحاسب عليها يوم القيامة ويجزى بها فالحافظ هو الملك والمحفوظ العمل كما قال تعالى : ﴿ وإن عليكم الحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ (الانفطار / ١٢) . ولا يبعد أن يكون المراد من حفظ النفس حفظ ذاتها وأعمالها ، والمراد بالحافظ جنسه فتفيد أن النفوس محفوظة لا تبطل بالموت ولا تفسد حتى إذا أحيا الله الأبدان أرجع النفوس اليها فكان الإنسان هو الإنسان الدنيوي بعينه وشخصه ثم يجزيه بما يقتضيه أعماله المحفوظة عليه من خير أو شر .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ أي ما هو مبدء خلقه ؟ وما هو الذي صيره الله إنساناً .

والجملة متفرعة على الآية السابقة وما تدل عليه بفحواها بحسب السياق ومحصل المعنى وإذ كانت كل نفس محفوظة بذاتها وعملها من غير أن تفنى أو ينسى عملها فليذعن الإنسان أن سيرجع الى ربه ويجزي بما عمل ولا يستبعد ذلك ولينظر لتحصيل هذا الإذعان الى مبدء خلقه ويتذكر أنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب .

فالذي بدء خلقه من ماء هذه صفته يقدر على رجعه وإحيائه بعد الموت .

وفي الإتيان بقوله : « خلق » مبنياً للمفعول وترك ذكر الفاعل وهو الله سبحانه إيماء الى ظهور أمره ، ونظيره قوله : « خلق من ماء » الخ .

قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ الدفق تصبب الماء وسيلانه بدفع وسرعة الماء الدافق هو المني والجملة جواب عن استفهام مقدر يهدي اليه قوله : « مم خلق » .

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ الصلب الظهر، والترائب جمع تريبة هي عظم الصدر.

وقد اختلفت كلماتهم في الآية وما قبلها اختلافاً عجيباً، والظاهر أن المراد بقوله: «بين الصلب والترائب» البعض المحصور من البدن بين جداري عظام الظهر وعظام الصدر[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ الرجع الإعادة، وضمير «إنه» له تعالى واكتفى بالإضمار مع أن المقام مقام الإظهار لظهوره نظير قوله: «خلق» مبنياً للمفعول.

والمعنى أن الذي خلق الإنسان من ماء صفته تلك الصفة، على إعادته واحيائه بعد الموت ـ وإعادته مثل بدنه ـ لقادر لأن القدرة على الشيء قدرة على مثله إذ حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ ظرف للرجع، والسريرة ما أسره الإنسان وأخفاه في نفسه، والبلاء الاختبار والتعرف والتصفح.

فالمعنى يوم يختبر ما أخفاه الإنسان وأسره من العقائد وآثار الأعمال خيرها وشرها فيميز خيرها من شرها ويجزي الإنسان به فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ (البقرة / ٢٨٤).

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ أي لا قدرة له في نفسه يمتنع بها من عذاب الله ولا ناصر له يدفع عنه ذلك أي لا قدرة هناك يدفع عنه الشر لا من نفسه ولا من غيره.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ إقسام بعد إقسام لتأكيد أمر القيامة والرجوع الى الله.

والمراد بكون السماء ذات رجع ما يظهر للحس من سيرها بطلوع الكواكب بعد غروبها

---

١. وقد أورد المراغي في تفسيره في ذيل الآية عن بعض الاطباء توجيها دقيقا علميا لهذه الآية من اراده فليراجعه.

وغروبها بعد طلوعها، وقيل: رجعها إمطارها، والمراد بكون الأرض ذات صدع تصدعها وانشقاقها بالنبات، ومناسبة القسمين لما أقسم عليه من الرجوع بعد الموت والخروج من القبور ظاهرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ الفصل إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فرجة، والتعبير بالفصل ـ والمراد الفاصل ـ للمبالغة كزيد عدل والهزل خلاف الجد.

والآيتان جواب القسم، وضمير «إنه» للقرآن والمعنى أُقسم بكذا وكذا إن القرآن لقول فاصل بين الحق والباطل وليس هو كلاماً لا جد فيه فما يحقه حق لا ريب فيه وما يبطله باطل لا ريب فيه فما اخبركم به من البعث والرجوع حق لا ريب فيه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً﴾ أي الكفار يحتالون بكفرهم وإنكارهم المعاد احتيالاً يريدون به إطفاء نور الله وإبطال دعوتك، وأحتال عليهم بعين أعمالهم بالاستدراج والإملاء والإضلال بالطبع على قلوبهم وجعل الغشاوة على سمعهم وأبصارهم احتيالاً أسوقهم به الى عذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ التمهيل والإمهال بمعنى واحد غير ان باب التفعيل يفيد التدريج والإفعال يفيد الدفعة، والرويد القليل.

والمعنى: إذا كان منهم كيد ومنّي كيد عليهم بعين ما يكيدون به والله غالب على أمره، فانتظر بهم ولا تعاجلهم انتظر بهم قليلاً فسيأتيهم ما اوعدهم به فكل ما هو آت قريب.

وفي التعبير أولاً بمهّل الظاهر في التدريج وثانياً مع التقييد برويداً بأمهل الظاهر في الدفعة لطف ظاهر[1].

---

١. الطارق ١ ـ ١٧: بحث روائي في خلق الانسان؛ السرائر: صفات كتاب الله.

سورة الأعلى مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلىٰ.

٢ • الَّذِي خَلَقَ فَسَوّىٰ.

٣ • وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدىٰ.

٤ • وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعىٰ.

٥ • فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوىٰ.

٦ • سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسىٰ.

٧ • إِلاّ مَا شَآءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفىٰ.

٨ • وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرىٰ.

٩ • فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرىٰ.

١٠ • سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشىٰ.

١١ • وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقىٰ.

١٢ ● ٱلَّذِي يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ.

١٣ ● ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ.

١٤ ● قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ.

١٥ ● وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ.

١٦ ● بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا.

١٧ ● وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ.

١٨ ● إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ.

١٩ ● صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ.

بيان:

أمرٌ بتوحيده تعالى على ما يليق بساحته المقدسة وتنزيه ذاته المتعالية من أن يذكر مع اسمه اسم غيره أو يسند الى غيره ما يجب أن يسند اليه كالخلق والتدبير والرزق ووعد له ﷺ بتأييده بالعلم والحفظ وتمكينه من الطريقة التي هي أسهل وأيسر للتبليغ وأنسب للدعوة.

وسياق الآيات في صدر السورة سياق مكي وأما ذيلها أعني قوله: «قد أفلح من تزكى» الخ؛ فقد ورد من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام وكذا من طريق أهل السنة أن المراد به زكاة الفطرة وصلاة العيد ومن المعلوم أن الصوم وما يتبعه من زكاة الفطرة وصلاة العيد إنما شرعت بالمدينة بعد الهجرة فتكون آيات الذيل نازلة بالمدينة.

فالسورة صدرها مكّي وذيلها مدني. ولا ينافي ذلك ما جاء في الآثار أن السورة مكية فإنه لا يأبى الحمل على صدر السورة.

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلىٰ﴾ أمر بتنزيه اسمه تعالى وتقديسه، وإذ علّق التنزيه على الإسم ـ وظاهر اللفظ الدال على المسمّى ـ والإسم إنما يقع في القول فتنزيهه أن لا يذكر معه ما هو تعالى منزّه عنه كذكر الآلهة والشركاء والشفعاء ونسبة الربوبية اليهم وكذكر بعض ما يختص به تعالى كالخلق والايجاد والرزق والإحياء والإماتة ونحوها ونسبته الى غيره تعالى أو كذكر بعض ما لا يليق بساحة قدسه تعالى من الأفعال كالعجز والجهل والظلم والغفلة وما يشبهها من صفات النقص والشين ونسبته اليه تعالى.

وبالجملة تنزيه اسمه تعالى أن يجرد القول عن ذكر ما لا يناسب ذكره ذكر اسمه تعالى وهو تنزيهه تعالى في مرحلة القول الموافق لتنزيهه في مرحلة الفعل.

وهو يلازم التوحيد الكامل بنفي الشرك الجلي كما في قوله: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ (الزمر / ٤٥)، وقوله: ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفوراً﴾ (الإسراء / ٤٦).

وفي إضافة الاسم الى الرب والرب الى ضمير الخطاب تأييد لما قدمناه فإن المعنى سبّح اسم ربك الذي اتخذته رباً وأنت تدعو الى أنه الرب الإله فلا يقعن في كلامك مع ذكر اسمه بالربوبية ذكر من غيره بحيث ينافي تسميه بالربوبية على ما عرّف نفسه لك.

وقوله: «الأعلى» وهو الذي يعلو كل عال ويقهر كل شيء صفة «ربك» دون الاسم ويعلل بمعناه الحكم أي سبح اسمه لأنه أعلى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوّىٰ﴾ خلق الشيء جمع أجزائه، وتسويته جعلها متساوية بحيث يوضع كل في موضعه الذي يليق به ويعطى حقه كوضع كل عضو من أعضاء الانسان فيما يناسبه من الموضع.

والخلق والتسوية وإن كانا مطلقين لكنهما إنما يشملان ما فيه تركيب أو شائبة تركيب من المخلوقات.

والآية الى تمام أربع آيات تصف التدبير الإلهي وهي برهان على ربوبيته تعالى المطلقة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدىٰ﴾ أي جعل الأشياء التي خلقها على مقادير مخصوصة وحدود معينة في ذواتها وصفاتها وأفعالها لا تتعداها وجهزها بما يناسب ما قدر لها فهداها الى ما قدر فكل يسلك نحو ما قدر له بهداية ربانية تكوينية كالطفل يهتدي الى ثدي امه والفرخ الى زق امه وأبيه، والذكر الى الانثى وذي النفع الى نفعه وعلى هذا القياس.

قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١)، وقال: ﴿ثم السبيل يسره﴾ (عبس / ٢٠)، وقال: ﴿لكل وجهة هو موليها﴾ (البقرة / ١٤٨).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعىٰ﴾ المرعى ما ترعاه الدواب فالله تعالى هو الذي أخرجها أي أنبتها.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوىٰ﴾ الغثاء ما يقذفه السيل على جانب الوادي من الحشيش والنبات، والمراد هنا ـ كما قيل ـ اليابس من النبات، والأحوى الأسود.

وإخراج المرعى لتغذي الحيوان ثم جعله غثاء أحوى من مصاديق التدبير الربوبي ودلائله كما أن الخلق والتسوية والتقدير والهداية كذلك.

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسىٰ إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفىٰ﴾ قال في المفردات: والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها الى بعض في الترتيل، وليس يقال ذلك لكل جمع لا يقال: قرأت القوم إذا جمعتهم، ويدل على ذلك أنه لا يقال للحرف الواحد إذا تفوه به قراءة، انتهى، وقال في المجمع: والإقراء أخذ القراءة على القارىء بالاستماع لتقويم الزلل، والقاري التالي. انتهى.

وليس إقراؤه تعالى نبيه ﷺ القرآن مثل إقراء بعضنا بعضاً باستماع المقري لما يقرؤه القاري واصلاح ما لا يحسنه أو يغلط فيه فلم يعهد من النبي ﷺ أن يقرء شيئاً من القرآن فلا

يحسنه أو يغلط فيه عن نسيان للوحي ثم يقرء فيصلح بل المراد تمكينه من قراءة القرآن كما أُنزل من غير أن يغيره بزيادة او نقص او تحريف بسبب النسيان.

فقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسىٰ﴾ وعدٌ منه لنبيه ﷺ أن يمكنه من العلم بالقرآن وحفظه على ما أُنزل بحيث يرتفع عنه النسيان فيقرؤه كما أُنزل وهو الملاك في تبليغ الوحي كما اوحي اليه.

وقوله: ﴿إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ﴾ استثناء مفيد لبقاء القدرة الإلهية على اطلاقها وأن هذه العطية وهي الإقراء بحيث لا تنسى لا ينقطع عنه سبحانه بالإعطاء بحيث لا يقدر بعد على انسائك بل هو باق على اطلاق قدرته له أن يشاء انساءك متى شاء وان كان لا يشاء ذلك فهو نظير الاستثناء الذي في قوله: ﴿واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾ (هود / ١٠٨) وقد تقدم توضيحه.

وليس المراد بالاستثناء اخراج بعض افراد النسيان من عموم النفي والمعنى سنقرئك فلا تنسى شيئاً الا ما شاء الله ان تنساه وذلك ان كل انسان على هذه الحال يحفظ اشياء وينسى اشياء فلا معنى لاختصاصه بالنبي ﷺ بلحن الامتنان مع كونه مشتركاً بينه وبين غيره فالوجه ما قدمناه.

قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرىٰ﴾ اليسرى ـ مؤنث أيسر ـ وهو وصف قائم مقام موصوفه المحذوف أي الطريقة اليسرى والتيسير التسهيل أي ونجعلك بحيث تتخذ دائماً أسهل الطرق للدعوة والتبليغ قولاً وفعلاً فتهدي قوماً وتتم الحجة على آخرين وتصبر على أذاهم.

وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ونيسر لك اليسرى كما قال: ﴿ويسر لي أمري﴾ (طه / ٢٦) وانما عدل عن ذلك الى قوله: «ونيسرك لليسرى» لأن الكلام في تجهيزه تعالى نفس النبي الشريفة وجعله إياها صالحة لتأدية الرسالة ونشر الدعوة. على ما في نيسر اليسرى من

ايهام تحصيل الحاصل.

فالمراد جعله ﷺ صافي الفطرة حقيقاً على اختيار الطريقة اليسرى التي هي طريقة الفطرة فالآية في معنى حكاية عن موسى ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ (الأعراف / ١٠٥).

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرىٰ﴾ تفريع على ما تقدم من أمره ﷺ بتنزيه اسم ربه ووعده إقراء الوحي بحيث لا ينسى وتيسيره لليسرى وهي الشرائط الضرورية التي يتوقف عليها نجاح الدعوة الدينية.

والمعنى إذ تم لك الأمر بامتثال ما أمرناك به وإقرائك فلا تنسى وتيسيرك لليسرى فذكر إن نفعت الذكرى.

وقد اشترط في الأمر بالتذكرة أن تكون نافعة وهو شرط على حقيقته فإنها إذا لم تنفع كانت لغواً وهو تعالى يجل عن أن يأمر باللغو فالتذكرة لمن يخشى لأول مرة تفيد ميلاً من نفسه الى الحق وهو نفعها وكذا التذكرة بعد التذكرة كما قال: «سيذكر من يخشى» والتذكرة للأشقى الذي لا خشية في قلبه لأول مرة تفيد تمام الحجة عليه وهو نفعها ويلازمها تجنبه وتوليه عن الحق كما قال: «ويتجنبها الأشقى» والتذكرة بعد التذكرة له لا تنفع شيئاً ولذا امر بالإعراض عن ذلك قال تعالى: ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا﴾ (النجم / ٢٩).

قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشىٰ﴾ أي سيتذكر ويتعظ بالقرآن من في قلبه شيء من خشية الله وخوف عقابه.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقىٰ﴾ الضمير للذكرى والمراد بالأشق بقرينة المقابلة من ليس في قلبه شيء من خشية الله تعالى، وتجنب الشيء التباعد عنه، والمعنى وسيتباعد عن الذكرى من لا يخشى الله.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ الظاهر أن المراد بالنار الكبرى نار جهنم وهي نار كبرى بالقياس الى نار الدنيا، وقيل: المراد بها أسفل دركات جهنم وهي أشدها عذاباً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيىٰ﴾ ثم للتراخي بحسب رتبة الكلام، والمراد من نفي الموت والحياة عنه معاً نفي النجاة نفياً مؤبداً فإن النجاة بمعنى انقطاع العذاب بأحد أمرين إما بالموت حتى ينقطع عنه العذاب بانقطاع وجوده واما يتبدل صفة الحياة من الشقاء الى السعادة ومن العذاب الى الراحة فالمراد بالحياة في الآية الحياة الطيبة على حد قولهم في الحرض: لا حي فيرجى ولا ميت فينسى.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ التزكي هو التطهر والمراد به التطهر من ألواث التعلقات الدنيوية الصارفة عن الآخرة بدليل قوله بعد: «بل تؤثرون الحياة الدنيا» الخ؛ والرجوع الى الله بالتوجه اليه تطهر من الإخلاد الى الأرض، والإنفاق في سبيل الله تطهر من لوث التعلق المالي حتى أن وضوء الصلاة تمثيل للتطهر عما كسبته الوجوه والايدي والأقدام.

وقوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ الظاهر أن المراد بالذكر الذكر اللفظي، وبالصلاة التوجه الخاص المشروع في الإسلام.

والآيتان بحسب ظاهر مدلولهما على العموم لكن ورد في المأثور عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهما نزلتا في زكاة الفطر وصلاة العيد وكذا من طريق أهل السنة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيٰوةَ الدُّنْيَا﴾ اضراب بالخطاب لعامة الناس على ما يدعو اليه طبعهم البشري من التعلق التام بالدنيا والاشتغال بتعميرها، والإيثار الاختيار، وقيل: الخطاب للكفار، والكلام على أي حال مسوق للعتاب والالتفات لتأكيده.

قوله تعالى: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقىٰ﴾ عد الآخرة أبقى بالنسبة الى الدنيا مع أنها باقية

أبدية في نفسها لأن المقام مقام الترجيح بين الدنيا والآخرة ويكفي في الترجيح مجرد كون الآخرة خيراً وأبقى بالنسبة الى الدنيا وان قطع النظر عن كونها باقية أبدية .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ الإشارة بهذا الى ما بين في قوله : «قد أفلح من تزكى» الى تمام أربع آيات ، وقيل : هذا اشارة الى مضمون قوله : «والآخرة خير وأبقى».

قيل : وفي ابهام الصحف ووصفها بالتقدم أولاً ثم بيانها وتفسيرها بصحف ابراهيم وموسى ثانياً ما لا يخفى من تفخيم شأنها وتعظم أمرها[1] .

---

١. الأعلى ١ ـ ٢٦: بحث روائي في ذكر الركوع والسجود: صلاة العيد؛ زكاة الفطرة، عدد الانبياء والمرسلين.

سورة الغاشية مكية وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● هَلْ أَتيكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ.

٢ ● وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ.

٣ ● عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ.

٤ ● تَصْلىٰ نَاراً حَامِيَةً.

٥ ● تُسْقىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ.

٦ ● لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ.

٧ ● لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ.

٨ ● وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ.

٩ ● لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ.

١٠ ● فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ.

١١ ● لا تَسْمَعُ فِيهَا لاٰغِيَةً.

١٢ ● فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ.

١٣ ● فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ.

١٤ ● وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ.

١٥ ● وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ.

١٦ ● وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ.

١٧ ● أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ.

١٨ ● وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ.

١٩ ● وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ.

٢٠ ● وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ.

٢١ ● فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ.

٢٢ ● لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ.

٢٣ ● إِلاَّ مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ.

٢٤ ● فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ.

٢٥ ● إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ.

٢٦ ● ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ.

بيان:

سورة انذار وتبشير تصف الغاشية وهي يوم القيامة الذي يحيط بالناس تصفه بحال الناس فيه من حيث انقسامهم فريقين: السعداء والأشقياء واستقرارهم فيما اعد لهم من الجنة والنار

وتنتهي الى امره ﷺ ان يذكر الناس بفنون من التدبير الربوبي في العالم الدالة على ربوبيته تعالى لهم ورجوعهم اليه لحساب اعمالهم.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتيٰكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ استفهام بداعي التفخيم والإعظام، والمراد بالغاشية يوم القيامة سمّيت بذلك لأنها تغشى الناس وتحيط بهم كما قال: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾ (الكهف / ٤٧)، أو لأنها تغشى الناس بأهوالها بغتة كما قيل، أو لأنها تغشى وجوه الكفار بالعذاب.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ أي مذللة بالغم والعذاب يغشاها، والخشوع إنما هو لأرباب الوجوه وإنما نسب الى الوجوه لأن الخشوع والمذلة يظهر فيها.

قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ النصب التعب و«عاملة» خبر بعد خبر لوجوه، وكذا قوله: «ناصبة» و«تصلى» و«تسقى» و«ليس لهم»، والمراد من عملها ونصبها بقرينة مقابلتها في صفة أهل الجنة الآتية بقوله: «لسعيها راضية» عملها في الدنيا ونصبها في الآخرة فإن الإنسان إنما يعمل ما يعمل في الدنيا ليسعد به ويظفر بالمطلوب لكن عملهم خبط باطل لا ينفعهم شيئاً كما قال تعالى: ﴿وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلنا هباء منثوراً﴾ (الفرقان / ٢٣) فلا يعود اليهم من عملهم إلا النصب والتعب بخلاف أهل الجنة فإنهم لسعيهم الذي سعوه في الدنيا راضون لما ساقهم الى الجنة والراحة.

قوله تعالى: ﴿تَصْلىٰ نَاراً حَامِيَةً﴾ أي تلزم ناراً في نهاية الحرارة.

قوله تعالى: ﴿تُسْقىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي حارة بالغة في حرارتها.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ قيل: الضريع نوع من الشوك يقال له: الشبرق وأهل الحجاز يسمونه الضريع إذا يبس وهو أخبث طعام وأبشعه لا ترعاه دابة. ولعل تسمية ما في النار به لمجرد المشابهة شكلاً

وخاصة.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ من النعومة فيكون كناية عن البهجة والسرور الظاهر على البشرة كما قال: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ (المطففين / ٢٤)، أو من النعمة أي متنعمة. قيل: ولم يعطف على قوله: «وجوه يومئذ خاشعة» إشارة الى كمال البينونة بين حالي الفريقين.

قوله تعالى: ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ اللام للتقوية. والمراد بالسعي سعيها في الدنيا بالعمل الصالح، والمعنى رضيت سعيها وهو عملها الصالح حيث جوزيت به جزاء حسناً.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ - الى قوله - وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ المراد بعلوها ارتفاع درجاتها وشرفها وجلالتها وغزراة عيشها فإن فيها حياة لا موت معها، ولذة لا ألم يشوبها وسروراً لا غم ولا حزن يداخله لهم فيها فوق ما يشاؤن.

وقوله: ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾ أي لا تسمع تلك الوجوه في الجنة كلمة ساقطة لا فائدة فيها.

وقوله: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ المراد بالعين جنسها فقد عد تعالى فيها عيوناً في كلامه كالسلسبيل والشراب الطهور وغيرهما.

وقوله: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ السرر جمع سرير وفي ارتفاعها جلالة القاعد عليها، «وأكواب موضوعة» الأكواب جمع كوب وهو الابريق لا خرطوم له ولا عروة يتخذ فيه الشراب «ونمارق مصفوفة» النمارق جمع نمرقة وهي الوسادة وكونها مصفوفة وضعها في المجلس بحيث يتصل بعضها ببعض على هيئة المجالس الفاخرة في الدنيا «وزرابي مبثوثة» الزرابي جمع زربية مثلثة الزاي وهي البساط الفاخر وبثها بسطها للقعود عليها.

قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ بعدما فرغ من وصف الغاشية وبيان حال الفريقين، المؤمنين والكفار عقّبه بإشارة إجمالية الى التدبير الربوبي الذي

يفصح عن ربوبيته تعالى المقتضية لوجوب عبادته ولازم ذلك حساب الأعمال وجزاء المؤمن بإيمانه والكافر بكفره والظرف الذي فيه ذلك هو الغاشية .

وقد دعاهم أولاً أن ينظروا الى الإبل كيف خلقت ؟ وكيف صوَّر الله سبحانه أرضاً عادمة للحياة فاقدة للشعور بهذه الصورة العجيبة في أعضائها وقواها وأفاعيلها فسخّرها لهم ينتفعون من ركوبها وحملها ولحمها وضرعها وجلدها ووبرها حتى بولها وبعرتها فهل هذا كله توافق اتفاقي غير مطلوب بحياله ؟

وتخصيص الإبل بالذكر من جهة أن السورة مكية وأول من تتلى عليهم الأعراب واتخاذ الآبال من أركان عيشتهم .

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ وزيّنت بالشمس والقمر وسائر النجوم الزواهر بما فيها من المنافع لأهل الأرض وقد جعل دونها الهواء الذي يضطر اليه الحيوان في تنفسه .

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ وهي أوتاد الأرض المانعة من مورها ومخازن الماء التي تتفجر منها العيون والأنهار ومحافظ للمعادن .

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي بسطت وسويت فصلحت لكنى الإنسان وسهل فيها النقل والانتقال وأغلب التصرفات الصناعية التي للإنسان .

فهذه تدبيرات كلية مستندة اليه تعالى بلا ريب فيه فهو رب السماء والأرض ما بينهما فهو رب العالم الإنساني يجب عليهم أن يتخذوه رباً ويوحدوه ويعبدوه وأمامهم الغاشية وهو يوم الحساب والجزاء .

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ تفريع على ما تقدم والمعنى إذا كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه وأمامهم يوم الحساب والجزاء لمن آمن منهم أو كفر فذكرهم بذلك .

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ بيان أن وظيفته ـ وهو رسول ـ التذكرة رجاء أن يستجيبوا ويؤمنوا من غير إكراه وإلجاء.

قوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ المصيطر ـ وأصله المسيطر ـ المتسلط، والجملة بيان وتفسير لقوله: «إنما أنت مذكر».

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استثناء من المفعول المحذوف لقوله السابق: «فذكر» والتقدير فذكر الناس إلا من تولى منهم عن التذكرة وكفر إذ تذكرته لغو لا فائدة فيها، ومعلوم أن التولي والكفر إنما يكون بعد التذكرة فالمنفي بالاستثناء هو التذكرة بعد التذكرة كأنه قيل: ذكِّرهم وأدم التذكرة إلا لمن ذكَّرته فتولى عنها وكفر. فليس عليك إدامة تذكرته بل أعرض عنه فيعذبه الله العذاب الأكبر.

فقوله: ﴿فَذَكِّرْ ـ الى قوله ـ إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ في معنى قوله: ﴿فذكر إن نفعت الذكرى ـ الى أن قال ـ ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى﴾ (الأعلى / ١٢) وقد تقدم بيانه.

وقيل: الاستثناء من ضمير «عليهم» في قوله: «لست عليهم بمصيطر» والمعنى لست عليهم بمتسلط إلا على من تولى منهم عن التذكرة وأقام على الكفر فسيُسلطك الله عليه ويأمرك بالجهاد فتقاتله فتقتله.

وقيل: الاستثناء منقطع والمعنى لست عليهم بمتسلط لكن من تولى وكفر منهم يعذبه الله العذاب الأكبر، وما قدمناه من الوجه أرجح وأقرب.

قوله تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ هو عذاب جهنم فالآية كما تقدم محاذية لقوله في سورة الأعلى: ﴿الذي يصلى النار الكبرى﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ الإياب الرجوع و«الينا» خبر إن وإنما قدم للتأكيد ولرعاية الفواصل دون الحصر إذ لا قائل برجوع الناس الى غير الله سبحانه والآية في مقام

التعليل للتعذيب المذكور في الآية السابقة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ الكلام فيه كالكلام في الآية السابقة .

سورة الفجر مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● وَالْفَجْرِ.

٢ ● وَلَيَالٍ عَشْرٍ.

٣ ● وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ.

٤ ● وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ.

٥ ● هَلْ فِي ذٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ.

٦ ● أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ.

٧ ● إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ.

٨ ● الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ.

٩ ● وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ.

١٠ ● وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ.

١١ ● الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ.

١٢ ● فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ.

١٣ ● فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ.

١٤ ● إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ.

١٥ ● فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلِيهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ.

١٦ ● وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلِيهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ.

١٧ ● كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ.

١٨ ● وَلا تَحاضُّونَ عَلىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ.

١٩ ● وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً.

٢٠ ● وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً.

٢١ ● كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً.

٢٢ ● وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً.

٢٣ ● وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرىٰ.

٢٤ ● يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي.

٢٥ ● فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ.

٢٦ ● وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ.

٢٧ ● يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ.

٢٨ ● اِرْجِعِي إِلىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً.

٢٩ ● فَادْخُلِي فِي عِبَادِي.

٣٠ ● وَادْخُلِي جَنَّتِي.

بيان:

في السورة ذم التعلق بالدنيا المتعقب للطغيان والكفران وإيعاد أهله بأشد عذاب الله في الدنيا والآخرة فتبين أن الانسان لقصور نظره وسوء فكره يرى أن ما آتاه الله من نعمه من كرامته على الله وأن ما يتلبس به من الفقر والعدم من هوانه فيطغى ويفسد في الأرض إذا وجد ويكفر إذا فقد وقد اشتبه عليه الأمر فما يصيبه من القدرة والثروة ومن الفقر وضيق المعاش امتحان وابتلاء إلهي ليظهر به ماذا يقدم من دنياه لاخراه.

فليس الأمر على ما يتوهمه الإنسان ويقوله بل الأمر كما سيتذكره إذا وقع الحساب وحضر العذاب أن ما أصابه من فقر أو غنى أو قوة أو ضعف كان امتحاناً إلهياً وكان يمكنه أن يقدم من يومه لغده فلم يفعل وآثر العقاب على الثواب فليس ينال الحياة السعيدة في الآخرة إلا النفس المطمئنة الى ربها المسلمة لأمره التي لا تتزلزل بعواصف الابتلاءات ولا يطغيه الوجدان ولا يكفره الفقدان.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ الفجر الصبح والشفع الزوج. قال الراغب: الشفع ضم الشيء الى مثله ويقال للمشفوع شفع. انتهى. وسرى الليل مضيه وإدباره. والحجر العقل فقوله: «والفجر» إقسام بالصبح وكذا الحال فيما عطف عليه من ليال والشفع والوتر والليل.

ولعل ظاهر قوله: «والفجر» أن المراد به مطلق الفجر ولا يبعد أيضاً أن يراد به فجر يوم النحر وهو عاشر ذي الحجة.

وقوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ لعل المراد بها الليالي العشر من أول ذي الحجة الى عاشرها والتنكير للتفخيم.

وقيل: المراد بها الليالي العشر من آخر شهر رمضان، وقيل: الليالي العشر من أوله، وقيل الليالي العشر من أول المحرم، وقيل: المراد عبادة ليال عشر على تقدير أن يراد بالفجر صلاة الفجر.

وقوله: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ يقبل الانطباق على يوم التروية ويوم عرفة وهو الأنسب على تقدير أن يراد بالفجر وليال عشر فجر ذي الحجة والعشر الاول من لياليها.

وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي يمضي فهو كقوله: ﴿والليل إذ أدبر﴾ (المدثر / ٣٣) وظاهره أن اللام للجنس فالمراد به مطلق آخر الليل، وقيل: المراد به ليلة المزدلفة وهي ليلة النحر التي يسرى فيها الحاج من عرفات الى المزدلفة فيجتمع فيها على طاعة الله ثم يغدو منها الى منى وهو كما ترى وخاصة على القول بكون المراد بليال عشر هو الليالي العشر الأوائل منها.

وقوله: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ الإشارة بذلك الى ما تقدم من القسم، والاستفهام للتقرير. والمعنى أن في ذلك الذي قدمناه قسماً كافياً لمن له عقل يفقه به القول ويميز الحق من الباطل، وإذا أقسم الله سبحانه بأمر ـ ولا يقسم إلا بما له شرف ومنزلة ـ كان من القول الحق المؤكد الذي لا ريب في صدقه.

وجواب الأقسام المذكورة محذوف يدل عليه ما سيذكر من عذاب أهل الطغيان والكفران في الدنيا والآخرة وثواب النفوس المطمئنة، وأن إنعامه تعالى على من أنعم عليه وإمساكه عنه فيمن أمسك إنما هو ابتلاء وامتحان.

وحذف الجواب والإشارة اليه على طريق التكنية أوقع وآكد في باب الإنذار والتبشير.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ هم عاد الاولى قوم هود تكررت

قصتهم في القرآن الكريم وأُشير الى أنهم كانوا بالأحقاف، وقد قدمنا ما يتحصل من قصصهم في القرآن الكريم في تفسير سورة هود.

قوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ العماد وجمعه عمد ما يعتمد عليه الأبنية. وظاهر الآيتين أن إرم كانت مدينة لهم معمورة عديمة النظير ذات قصور عالية وعمد ممددة، وقد انقطعت أخبار القوم عهدهم وانمحت آثارهم، فلا سبيل الى الحصول على تفصيل حالهم تطمئن اليها النفس إلا ما قصه القرآن الكريم من إجمال قصتهم أنهم كانوا بعد قوم نوح قاطنين بالأحقاف وكانوا ذوي بسطة في الخلق أُولي قوة وبطش شديد، وكان لهم تقدم ورقي في المدنية والحضارة لم بلاد عامرة وأراض خصبة ذات جنات ونخيل وزروع ومقام كريم وقد تقدمت القصة.

قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ الجوب القطع أي قطعوا صخر الجبال بنحتها بيوتاً فهو في معنى قوله: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً﴾ (الشعراء / ١٤٩).

قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ هو فرعون موسى، وسمي ذا الأوتاد ـ على ما في بعض الروايات ـ لأنه كان إذا أراد أن يعذب رجلاً بسطه على الأرض ووتد يديه ورجليه بأربعة أوتاد في الأرض وربما بسطه على خشب وفعل به ذلك. ويؤيده ما حكاه الله من قوله يهدد السحرة إذ آمنوا بموسى: ﴿ولاصلبنكم في جذوع النخل﴾ (طه / ٧١) فإنهم كانوا يوتدون يدي المصلوب ورجليه على خشبة الصليب.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ صفة للمذكورين من عاد وثمود وفرعون، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ صب الماء معروف وصب سوط العذاب كناية عن التعذيب المتتابع المتواتر الشديد، وتنكير عذاب للتفخيم.

والمعنى فأنزل ربك على كل من هؤلاء الطاغين المكثرين للفساد إثر طغيانهم واكثارهم

الفساد عذاباً شديداً متتابعاً متوالياً لا يوصف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ المرصاد المكان الذي يرصد منه ويرقب وكونه تعالى على المرصاد استعارة تمثيلية شبه فيها حفظه تعالى لأعمال عباده بمن يقعد على المرصاد يرقب من يراد رقوبه فيأخذه حين يمر به وهو لا يشعر فالله سبحانه رقيب يرقب أعمال عباده حتى إذا طغوا وأكثروا الفساد أخذهم بأشد العذاب.

وفي الآية تعليل ما تقدم من حديث تعذيب الطغاة المكثرين للفساد من الماضين وفي وقوله: «ربك» باضافة الرب الى ضمير الخطاب تلويح الى أن سنة العذاب جارية في أمته ﷺ على ما جرت عليه في الامم الماضين.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنْسانُ إِذَا مَا ابْتَلَيهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ متفرع على ما قبله، فيه تفصيل حال الانسان إذا أُوتي من نعم الدنيا أو حرم كأنه قيل: إن الانسان تحت رقوب إلهي يرصده ربه هل يصلح أو يفسد؟ ويبتليه ويمتحنه فيما آتاه من نعمه أو حرمه هذا هو الأمر في نفسه وأما الإنسان فإنه إذا أنعم الله عليه بنعمه حسب أن ذلك اكرام الهي له أن يفعل بها ما يشاء فيطغي ويكثر الفساد، واذا أمسك وقدر عليه رزقه حسب أنه اهانة الهية فيكفر ويجزع.

فقوله: «فأما الإنسان» المراد به النوع بحسب الطبع الأولي فاللام للجنس دون الإستغراق.

وقوله: ﴿إِذَا مَا ابْتَلَيهُ رَبُّهُ﴾ أي امتحنه واختبره، والعامل في الظرف محذوف تقديره كائناً اذا، الخ؛ وقيل: العامل فيه «فيقول».

وقوله: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ تفسير للابتلاء، والمراد بالإكرام والتنعيم الصوريان وان شئت فقل: الإكرام والتنعيم حدوثاً لابقاء أي أنه تعالى أكرمه وآتاه النعمة ليشكره ويعبده لكنه جعلها نقمة على نفسه تستتبع العذاب.

وقوله : ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ أي جعلني على كرامة منه بالنعم التي آتانيها وان شئت فقل : القدرة والجدة الموهوبتان اكرام وتنعيم حدوثاً وبقاءً فلي أن افعل ما أشاء .

والجملة أعني قوله : « فيقول ربي أكرمن » حكاية ما يراه الإنسان بحسب الطبع ، وقول الإنسان : « ربي أكرمن » الظاهر في نسبة التدبير الى الله سبحانه ـ ولا يقول به الوثنية والمنكرون للصانع ـ مبني على اعترافه بحسب الفطرة به تعالى وإن استنكف عنه لساناً ، وأيضاً لرعاية المقابلة مع قوله : « إذا ما ابتلاه ربه » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ أي وأما إذا ما امتحنه واختبره فضيّق عليه رزقه فيقول ربي أذلني واستخف بي .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ ردع لقولهم : إن الكرامة هي في الغنى والتنعم ، وفي الفقر والفقدان هوان ومذلة ، والمعنى ليس كما تقولون وإنما إيتاؤه تعالى النعمة وامساكه عنه كل ذلك ابتلاء وامتحان يختبر به حال الإنسان من حيث عبوديته .

وفي قوله : ﴿ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ الخ ؛ إضراب يؤكد الردع بذكر بعض التنعم الذي لا يجامع الكرامة البتة كعدم إكرامهم اليتيم بأكل تراثه ومنعه منه وعدم التحريض على إطعام المسكين حباً للمال فالفطرة الإنسانية لا يرتاب في أن لا كرامة في غنى هذا شأنه .

وفي الإضراب مضافاً الى أصل الردع تقريع ولتشديد هذا التقريع وقع الالتفات من الغيبة الى الخطاب .

فقوله : ﴿ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ عدم إكرامه حرمانه من تراث أبيه ـ كما كانوا يحرمون صغار الأولاد من الإرث ـ وتركه صفر الكف بلغ به الجهد ما بلغ كما يؤيده الآية التالية « وتأكلون التراث » الخ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أصله ولا تتحاضون ، وهو

تحريض بعضهم بعضاً على التصدق على المساكين المعدمين، ومنشأه حب المال كما في الآية الآتية «وتحبون المال» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً﴾ اللم أكل الإنسان نصيب نفسه وغيره وأكله ما يجده من دون أن يميز الطيب من الخبيث. والآية تفسير لعدم إكرامهم اليتيم كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ الجم الكثير العظيم. والآية تفسر عدم تحاضهم على طعام المسكين كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً﴾ الدك هو الدق الشديد. والمراد بالظرف حضور يوم القيامة.

ردع ثان عما يقول الإنسان في حالي الغنى والفقر. وقوله: «إذا دكت الأرض» الخ؛ في مقام التعليل للردع، ومحصل المعنى ليس كما يقوله الإنسان فإنه سيتذكر إذا قامت القيامة أن الحياة الدنيا وما فيها من الغنى ولافقر وأضرابهما لم تكن مقصودة بالذات بل كانت ابتلاء وامتحاناً من الله تعالى يميز به السعيد من الشقي ويهيىء الإنسان فيها ما يعيش به في الآخرة وقد التبس عليه الأمر فحسبها كرامة مقصودة بالذات فاشتغل بها ولم يقدم لحياته الآخرة شيئاً فيتمنى عند ذلك ويقول: يا ليتني قدمت لحياتي ولن يصرف التمني عنه شيئاً من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ نسة المجيء اليه تعالى من المتشابه الذي يحكمه قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ (الشورى / ١١) وما ورد في آيات القيامة من خواص اليوم كتقطع الأسباب وارتفاع الحجب عنهم وظهور أن الله هو الحق المبين.

والى ذلك يرجع ما ورد في الروايات أن المراد بمجيئه تعالى مجيء أمره قال تعالى: ﴿والأمر يومئذ لله﴾ (الإنفطار / ١٩)، ويؤيد هذا الوجه بعض التأيد قوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر﴾ (البقرة / ٢١٠) إذا

انضم الى قوله: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾ (النحل / ٣٣) وعليه فهناك مضاف محذوف والتقدير جاء أمر ربك أو نسبة المجيء اليه تعالى من المجاز العقلي.

والكلام في نسبة المجيء الى الملائكة وكونهم صفاً صفاً كما مر.

قوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ الى آخر الآية: لا يبعد أن يكون المراد بالمجيء بجهنم إبرازها لهم كما في قوله تعالى: ﴿وبرّزت الجحيم لمن يرى﴾ (النازعات / ٣٦) وقوله: ﴿وبرّزت الجحيم للغاوين﴾ (الشعراء / ٩١)، وقوله: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ (ق / ٢٢).

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ﴾ أي يتذكر أجلى التذكر أن ما كان يؤتاه في الحياة الدنيا من خير أو شر كان من ابتلاء الله وامتحانه وأنه قصر في أمره، هذا ما يفيده السياق.

وقوله: «وأنى له الذكرى» أي ومن أين له الذكرى كناية عن عدم انتفاعه بها فإن الذكرى إنما تنفع فيما أمكنه أن يتدارك ما فرّط فيه بتوبة وعمل صالح واليوم يوم الجزاء لا يوم الرجوع والعمل.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي لحياتي هذه وهي الحياة الآخرة أو المراد الحياة الحقيقية وهي الحياة الآخرة على ما نبه تعالى عليه بقوله: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ (العنكبوت / ٦٤).

والمراد بالتقديم للحياة تقديم العمل الصالح للحياة الآخرة وما في الآية تمن يتمناه الإنسان عندما يتذكر يوم القيامة ويشاهد أنه لا ينفعه.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ ضميرا «عذابه ووثاقه» لله تعالى والمعنى فيومئذ لا يعذب عذاب الله أحد من الخلق ولا يوثق وثاق الله أحد من الخلق أي إن عذابه ووثاقه تعالى يومئذ فوق عذاب الخلق ووثاقهم. تشديد في

الوعيد.

وقرء «لا يعذَّب» بفتح الذال و«ولا يوثق» بفتح الثاء بالبناء للمفعول وضميرا «عذابه ووثاقه» على هذا للإنسان والمعنى لا يعذب أحد يومئذ مثل عذاب الانسان ولا يوثق أحد يومئذ مثل وثاقه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الذي يعطيه سياق المقابلة بين هذه النفس بما ذكر لها من الأوصاف وعين لها من حسن المنقلب وبين الإنسان المذكور قبل بما ذكر له من وصف التعلق بالدنيا والطغيان والفساد والكفران، وما أُوعد من سوء المصير هو أن النفس المطئنة هي التي تسكن الى ربها وترضى بما رضي به فترى نفسها عبداً لا يملك لنفسه شيئاً من خير أو شر أو نفع أو ضر ويرى الدنيا دار مجاز وما يستقبله فيها من غنى أو فقر أو أي نفع وضر ابتلاء وامتحاناً إلهياً فلا يدعوه تواتر النعم عليه الى الطغيان وإكثار الفساد والعلو والاستكبار، ولا يوقعه الفقر والفقدان في الكفر وترك الشكر بل هو في مستقر من العبودية لا ينحرف عن مستقيم صراطه بإفراط أو تفريط.

قوله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ خطاب ظرفه جميع يوم القيامة من لدن إحيائها الى استقرارها في الجنة بل من حين نزول الموت الى دخول جنة الخلد وليس خطاباً واقعاً بعد الحساب كما ذكره بعضهم.

وتوصيفها بالراضية لأن اطمئنانها الى ربها يستلزم رضاها بما قدَّر وقضى تكويناً أو حكم به تشريعاً فلا تسخطها سانحة ولا تزيغها معصية، وإذا رضي العبد من ربه رضي الرب منه إذ لا يسخطه تعالى إلا خروج العبد من زي العبودية فإذا لزم طريق العبودية استوجب ذلك رضى ربه ولذا عقَّب قوله: «راضية» بقوله: «مرضية».

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ تفريع على قوله: «ارجعي الى ربك وفيه دلالة على أن صاحب النفس المطمئنة في زمرة عباد الله حائز مقام العبودية.

وذلك أنه لما اطمأن الى ربه انقطع عن دعوى الاستقلال ورضي بما هو الحق من ربه فرآى ذاته وصفاته وأفعاله ملكاً طلقاً لربه فلم يرد فيما قدر وقضى ولا فيما أمر ونهى إلا ما أراده ربه. وهذا ظهور العبودية التامة في العبد ففي قوله: «فادخلي في عبادي» تقرير لمقام عبوديتها.

وفي قوله: «وادخلي جنتي» تعيين لمستقرها. وفي إضافة الجنة الى ضمير التكلم تشريف خاص. ولا يوجد في كلامه تعالى إضافة الجنة الى نفسه تعالى وتقدس الى في هذه الآية[١].

٩.٣

---

١. الفجر ١ ـ ٣٠: بحث روائي في: الشفع والوتر، تسمية فرعون ذا الاوتاد يوم القيامة: قبض روح المؤمن وتمثل رسول الله ﷺ وامير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والائمة من ذريتهم عليهم السلام له.

سورة البلد مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ لاٰ أُقْسِمُ بِهٰذَا الْبَلَدِ.

٢ ❁ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهٰذَا الْبَلَدِ.

٣ ❁ وَوٰالِدٍ وَمٰا وَلَدَ.

٤ ❁ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ.

٥ ❁ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ.

٦ ❁ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مٰالاً لُبَداً.

٧ ❁ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ.

٨ ❁ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ.

٩ ❁ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ.

١٠ ❁ وَهَدَيْنٰاهُ النَّجْدَيْنِ.

١١ ❁ فَلاٰ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ.

١٢ ● وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ.

١٣ ● فَكُّ رَقَبَةٍ.

١٤ ● أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ.

١٥ ● يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ.

١٦ ● أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ.

١٧ ● ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ.

١٨ ● أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ.

١٩ ● وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ.

٢٠ ● عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ.

بيان:

تذكر السورة أن خلقة الانسان مبنية على التعب والمشقة فلا تجد شأناً من شؤن الحياة إلا مقروناً بمرارة الكد والتعب من حين يلج في جثمانه الروح الى أن يموت فلا راحة له عارية من التعب والمشقة ولا سعادة له خالصة من الشقاء والمشأمة إلا في الدار الآخرة عند الله.

فليتحمل ثقل التكاليف الالهية بالصبر على الطاعة وعن المعصية وليجد في نشر الرحمة على المبتلين بنوائب الدهر كاليتيم والفقر والمرض واضرابها حتى يكون من أصحاب الميمنة وإلا فآخرته كاولاه وهو من أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة.

وسياق آيات السورة، يشبه السياق المكي فيؤيد به كون السورة مكية وقد ادعى بعضهم عليه الاجماع، وقيل: السورة مدنية والسياق لا يساعد عليه، وقيل: مدنيه إلا أربع آيات من

أولها وسيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ذكروا أن المراد بهذا البلد مكة وتؤيده مكية سياق السورة وقوله: «ووالد وما ولد» خاصة بناء على كون المراد بوالد هو ابراهيم عليه السلام على ما سيجيء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ حال من هذا البلد، ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله: «بهذا البلد» للدلالة على عظم شأنه والاعتناء بأمره وهو البلد الحرام، والحل مصدر كالحلول بمعنى الإقامة والاستقرار في مكان والمصدر بمعنى الفاعل.

والمعنى أُقسم بهذا البلد والحال أنك حال به مقيم فيه وفي ذلك تنبيه عى تشرف مكة بحلوله صلى الله عليه وآله وسلم فيها وكونه مولده ومقامه.

قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ لزوم نوع من التناسب والارتباط بين القسم والمقسم عليه يستدعي أن يكون المراد بوالد وما ولد من بينه وبين البلد المقسم به نسبة ظاهرة وينطبق على إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام وهما السببان الأصليان لبناء بلدة مكة والبانيان للبيت الحرام قال تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ (البقرة / ١٢٧) وإبراهيم عليه السلام هو الذي سأل الله أن يجعل مكة بلداً آمناً قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا﴾ (إبراهيم / ٣٥). وتنكير «والد» للتعظيم والتفخيم، والتعبير بقوله: «وما ولد» دون أن يقال: ومن ولد، للدلالة على التعجيب من أمره مدحاً كما في قوله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ (آل عمران / ٣٦).

والمعنى واقسم بوالد عظيم الشأن هو إبراهيم وما ولد من ولد عجيب أمره مبارك اثره وهو إسماعيل ابنه وهما البانيان لهذا البلد فمفاد الآيات الثلاث الإقسام بمكة المشرّفة وبالنبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو حلّ فيها وبابراهيم وإسماعيل اللذين بنياها.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ الكبد الكد والتعب، والجملة جواب

القسم فاشتمال الكبد على خلق الإنسان وإحاطة الكدّ والتعب به في جميع شؤون حياته مما لا يخفى على ذي لب فليس يقصد نعمة من نعم الدنيا إلا خالصة في طيبها محضة في هـنائها ولا ينال شيئاً منها إلا مشوبة بما ينغص العيش مقرونة بمقاساة ومكابدة مضافاً الى ما يصيبه من نوائب الدهر ويفاجئه من طوارق الحدثان.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ بمنزلة النتيجة لحجة الآية السابقة تقريرها أن الإنسان لما كانت خلقته مبنية على كبد مظروفة له لا ينال قط شيئاً مما يريد إلا دون ما يريد أو غير ما يريد فهو محاط في خلقه مغلوب في إرادته مقهور فيما قدر له من الأمر والذي يغلبه في إرادته ويقهره على التلبس بما قدر له وهو الله سبحانه يقدر عليه من كل جهة فله أن يتصرف فيه بما شاء ويأخذه إذا أراد.

فليس للإنسان أن يحسب أن لن يقدر عـليه أحـد فـيدعوه ذلك الى أن يـعلو عـلى الله ويستكبر عن عبادته أو يعطيه في بعض ما أمر به كالإنفاق في سبيله فيستكثره ويمتن به على الله أو يمكر به تعالى بعدما عمله رياء وسمعة عملاً لوجه الكريم فيقول: أهلكت مالاً لبدا.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً﴾ اللبد الكثير، سياق الآية وما يتلوها مـن الآيات الى آخر السورة مشعر بأنه كان هناك بعض من أظهر الإسلام أو مال اليه فقد أنفق بعض ماله وامتن به مستكثراً له بقوله: «أهلكت مالاً لبداً» فنزلت الآيات ورد الله عليه بأن الفوز بميمنة الحياة لا يتم إلا باقتحام عقبة الإنفاق في سبيل الله والدخول في زمرة الذين آمنوا وتواصوا بالصبر والمرحمة، ويتأيد به ما سيأتي في البحث الروائي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ إنكار لما هو لازم قول الإنسان «أهلكت مالاً لبداً» على طريق التكنية ومحصل المعنى أن لازم إخبار الإنسان بإهلاكه مالاً لبـداً أنـه يحسب أنا في غفلة وجهل بما أنفق وقد أخطأ في ذلك فالله سبحانه بصير بما أنفق لكـن هـذا المقدار لا يكفي في الفوز بميمنة الحياة بل لابد له من أن يتحمل ما هو أزيد من ذلك من مشاق

العبودية فيقتحم العقبة ويكون مع المؤمنين في جميع ما هم فيه.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ النجد الطريق المرتفع، والمراد بالنجدين طريق الخير وطريق الشر وسميا النجدين لما في سلوك كل منهما من الجهد والكدح، وفسرا بثديي الام وهو بعيد.

وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ أي جهزناه في بدنه بما يبصر به فيحصل له العلم بالمرئيات على سعة نطاقها، وقوله: «ولساناً وشفتين» أي أولم نجعل له لساناً وشفتين يستعين بها على التكلم والدلالة على ما في ضميره من العلم ويهتدي بذلك غيره على العلم بالامور الغائبة عن البصر.

وقوله: ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي علمناه طريق الخير وطريق الشر بالهام منا فهو يعرف الخير ويميزه من الشر فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ (الشمس / ٨).

قوله تعالى: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ الاقتحام الدخول بسرعة وضغط وشدة، والعقبة الطريق الصعب الوعر الذي فيه صعود من الجبل، واقتحام العقبة إشارة الى الإنفاق الذي يشق على منفقه كما سيصرح به.

قوله تعالى: ﴿وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ تفخيم لشأنها كما مر في نظائره.

قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي عتقها وتحريرها أو التقدير هي أي العقبة فك رقبة فالمراد بالعقبة نفس الفك الذي هو العمل واقتحامه الإتيان به، والإتيان بالعمل نفس العمل.

وما ذكر في بيان العقبة من فك الرقبة والإطعام في يوم ذي مسغبة من مصاديق نشر الرحمة خص بالذكر لمكان الأهمية، وقدم فك الرقبة وابتدىء به لكمال عناية الدين بفك الرقاب.

قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ﴾ المسغبة المجاعه، والمقربة القرابة بالنسب، والمتربة من التراب ومعناها الالتصاق

بالتراب من شدة الفقر. والمعنى أو إطعام في يوم المجاعة يتيماً من ذي القربى أو مسكيناً شديد الفقر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ المرحمة مصدر ميمي من الرحمة. والتواصي بالصبر وصية بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله والتواصي بالمرحمة وصية بعضهم بعضاً بالرحمة على ذوي الفقر والفاقة والمسكنة.

او الجملة أعني قوله: «ثم كان» الخ: معطوفة على قول «اقتحم» والتقدير فلا اقتحم العقبة ولا كان من الذين آمنوا. الخ: وقيل فيها غير ذلك مما لا جدوى فيه.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ بمعنى اليمن مقابل الشؤم. والإشارة باولئك الى ما يدل عليه السياق السابق أي الذين اقتحموا العقبة وكانوا من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر والمرحمة أصحاب اليمين لا يرون مما قدموه من الايمان وعملهم الصالح إلا أمراً مباركا جميلا مرضيا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ الآيات الآفاقية والانفسية آيات وأدلة عليه تعالى تدل على توحده في الربوبية والالوهية وسائر ما يتفرع عليه وردها كفر بها والكفر بها كفر بالله وكذا القرآن الكريم وآياته. وكذا ما نزل وبلغ طريق الرسالة.

والظاهر أن المراد بالآيات مطلقها. والمشأمة خلاف الميمنة.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي مطبقة[1].

---

١. البلد ١ ـ ٢٠: بحث روائي في حرمة مكة والكعبة: النجدين.

سورة الشمس مكية وهي ست عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ۞ وَالشَّمْسِ وَضُحٰيهٰا .

٢ ۞ وَالْقَمَرِ إِذٰا تَلٰيهٰا .

٣ ۞ وَالنَّهٰارِ إِذٰا جَلّٰيهٰا .

٤ ۞ وَاللَّيْلِ إِذٰا يَغْشٰيهٰا .

٥ ۞ وَالسَّمٰاءِ وَمٰا بَنٰيهٰا .

٦ ۞ وَالْأَرْضِ وَمٰا طَحٰيهٰا .

٧ ۞ وَنَفْسٍ وَمٰا سَوّٰيهٰا .

٨ ۞ فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَتَقْوٰيهٰا .

٩ ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰيهٰا .

١٠ ۞ وَقَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰيهٰا .

١١ ۞ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوٰيهٰا .

١٢ ۞ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقيٰها.

١٣ ۞ فَقٰالَ لَهُمْ رَسُولُ اللّٰهِ نٰاقَةَ اللّٰهِ وَسُقْيٰها.

١٤ ۞ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا

١٥ ۞ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوّيٰها.

١٦ ۞ وَلاٰ يَخٰافُ عُقْبٰيها.

بيان:

تذكر السورة أن فلاح الانسان ـ وهو يعرف التقوى والفجور بتعريف إلهي وإلهام باطني ـ أن يزكي نفسه وينميها إنماء صالحاً بتحليتها بالتقوى وتطهيرها من الفجور، والخيبة والحرمان من السعادة لمن يدسّيها، ويستشهد لذلك بما جرى على ثمود من عذاب الاستئصال لما كذبوا رسولهم صالحاً وعقروا الناقة، وفي ذلك تعريض لأهل مكة، والسورة مكية بشهادة من سياقها.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحيٰها﴾ في المفردات: الضحى انبساط الشمس وامتداد النهار وسمي الوقت به انتهى. والضمير للشمس. وفي الآية إقسام بالشمس وانبساط ضوئها على الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذٰا تَلٰيها﴾ عطف على الشمس والضمير لها وإقسام بالقمر حال كونه تالياً للشمس، والمراد بتلوه لها إن كان كسبه النور منها فالحال حال دائمة وإن كان طلوعه بعد غروبها فالإقسام به من حال كونه هلالاً الى حال تبدّره.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّهٰارِ إِذٰا جَلّٰيها﴾ التجلية الإظهار والإبراز. وضمير التأنيث للأرض، والمعنى وأُقسم بالنهار إذا أظهر الأرض للأبصار.

وقيل: ضمير الفاعل في «جلاها» للنهار وضمير المفعول للشمس. والمراد الإقسام بحال إظهار النهار للشمس فإنها تنجلي وتظهر إذا انبسط النهار، وفيه أنه لا يلائم ما تقدمه فان الشمس هي المظهرة للنهار دون العكس.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي يغطي الأرض، فالضمير للأرض كما في «جلاّها».

والتعبير عن غشيان الليل الأرض بالمضارع بخلاف تجلية النار لها حيث قيل «والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها» للدلالة على الحال ليكون فيه إيماء الى غشيان الفجور الارض في الزمن الحاضر الذي هو أوائل ظهور الدعوة الاسلامية لما تقدم أن بين هذه الاقسام وبين المقسم بها نوع اتصال وارتباط، هذا مضافاً الى رعاية الفواصل.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ طحو الأرض ودحوها بسطها، و«ما» في «وما بناها» و«ما طحاها» موصولة، والذي بناها وطحاها هو الله تعالى والتعبير عنه تعالى بما دون من لإيثار الإبهام المفيد للتفخيم والتعجيب فالمعنى وأُقسم بالسماء والشيء القوي العجيب الذي بناها وأُقسم بالأرض والشيء القوي العجيب الذي بسطها.

قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أي واقسم بنفس والشيء ذي القدرة والعلم والحكمة الذي سواها ورتب خلقتها ونظم أعضاءها وعدّل بين قواها.

وتنكير «نفس» قيل: للتنكير، وقيل: للتفخيم ولا يبعد أن يكون التنكير للإشارة الى أن لها وصفاً وأن لها نبأ.

والمراد بالنفس النفس الانسانية مطلقاً وقيل: المراد بها نفس آدم عليه السلام ولا يلائمه السياق وخاصة قوله: «قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» إلا بالاستخدام على أنه لا موجب للتخصيص.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوٰهَا﴾ الفجور ـ على ما ذكره الراغب ـ شق ستر الديانة فالنهي الإلهي عن فعل أو عن ترك حجاب مضروب دونه حائل بين الانسان وبينه واقتراف المنهي عنه شق للستر وخرق للحجاب.

والتقوى ـ على ما ذكره الراغب ـ جعل النفس في وقاية مما يخاف. والمراد بها بقرينة المقابلة في الآية بينها وبين الفجور التجنب عن الفجور والتحرز عن المنافي وقد فسرت في الرواية بأنها الورع عن محارم الله.

والإلهام الإلقاء في الروع وهو إفاضته تعالى الصور العلمية من تصور أو تصديق على النفس.

وتعليق الإلهام على عنواني فجور النفس وتقواها للدلالة على أن المراد تعريفه تعالى للانسان صفة فعله من تقوى أو فجور وراء تعريفه متن الفعل بعنوانه الأوّلي المشترك بين التقوى والفجور كأكل المال مثلاً المشترك بين أكل مال اليتيم الذي هو فجور وبين أكل مال نفسه الذي هو من التقوى، والمباشرة المشتركة بين الزنا وهو فجور والنكاح وهو من التقوى وبالجملة المراد أنه تعالى عرَّف الانسان كون ما يأتي به من فعل فجوراً أو تقوى وميز له ما هو تقوى مما هو فجور.

وتفريع الإلهام على التسوية في قوله: «ونوما سواها فألهمها» الخ؛ للاشارة الى أن إلهام الفجور والتقوى وهو العقل العملي من تكميل تسوية النفس فهو من نعوت خلقتها كما قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾ (الروم / ٣٠).

واضافة الفجور والتقوى الى ضمير النفس للاشارة الى أن المراد بالفجور والتقوى الملهمين الفجور والتقوى المختصين بهذه النفس المذكورة وهي النفس الانسانية ونفوس الجن على ما يظهر من الكتاب العزيز من كونهم مكلفين بالإيمان والعمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰيهٰا وَقَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰيهٰا﴾ الفلاح هو الظفر بالمطلوب وإدارك البغية، والخيبة خلافه. والزكاة نمو النبات نمواً صالحاً ذا بركة والتزكية إنماؤه كذلك، والتدسي ـ وهو من الدس بقلب إحدى السينين ياء ـ إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإخفاء، والمراد بها بقرينة مقابلة التزكية: الانماء على غير ما يقتضيه طبعها وركبت عليه نفسها.

والآية أعني قوله: «قد أفلح» الخ؛ جواب القسم، وقوله: «وقد خاب» الخ؛ معطوف عليه.

والتعبير بالتزكية والتدسي عن إصلاح النفس وافسادها مبتن على ما يدل عليه قوله: «فألهمها فجورها وتقواها» على أن من كمال النفس الانسانية أنها ملهمة مميزة ـ بحسب فطرتها ـ للفجور من التقوى أي أن الدين وهو الاسلام لله فيما يريده فطري للنفس فتحلية النفس بالتقوى تزكية وانماء صالح وتزويد لها بما يمدها في بقائها قال تعالى: ﴿**وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا اولي الألباب**﴾ (البقرة / ١٩٧) وأمرها في الفجور على خلاف التقوى.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوٰيهٰا﴾ الطغوى مصدر كالطغيان، والباء للسببية.

والآية وما يتلوها الى آخر السورة استشهاد وتقرير لما تقدم من قوله: «قد أفلح من زكاها» الخ.

قوله تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقٰيهٰا﴾ ظرف لقوله: «كذبت» أو لقوله: «بطغواها» والمراد بأشقى ثمود هو الذي عقر الناقة واسمه على ما في الروايات قدار بن سالف وقد كان انبعاثه ببعث القوم كما تدل عليه الآيات التالية بما فيها من ضمائر الجمع.

قوله تعالى: ﴿فَقٰالَ لَهُمْ رَسُولُ اللّٰهِ نٰاقَةَ اللّٰهِ وَسُقْيٰاهٰا﴾ المراد برسول الله صالح عليه السلام نبي ثمود، وقوله: «ناقة الله» منصوب على التحذير، وقوله: «وسقياها» معطوف

عليه.

والمعنى فقال لهم صالح برسالة من الله: احذروا ناقة الله وسقياها ولا تتعرضوا لها بقتلها أو منعها عن نوبتها في شرب الماء، وقد فصل الله القصة في سورة هود وغيرها.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّيٰهَا﴾ العقر إصابة أصل الشيء ويطلق على نحر البعير والقتل، والدمدمة على الشيء الاطباق عليه يقال: دمدم عليه القبر أي أطبقه عليه والمراد شمولهم بعذاب يقطع دابرهم ويمحو أثرهم بسبب ذنبهم.

وقوله: ﴿فَسَوَّيٰهَا﴾ الظاهر أن الضمير لثمود باعتبار أنهم قبيلة أي فسواها بالأرض أو هو تسوية الأرض بمعنى تسطيحها واعفاء ما فيها من ارتفاع وانخفاض.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ الضمير للدمدمة أو التسوية، والواو للاستئناف أو الحال.

والمعنى: ولا يخاف ربهم عاقبة الدمدمة عليهم وتسويتهم كما يخاف الملوك والأقوياء عاقبة عقاب أعدائهم وتبعته. لأن عواقب الامور هي ما يريده وعلى وفق ما يأذن فيه فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ (الأنبياء / ٢٣)[1].

---

١. الشمس ١ ـ ١٦: بحث روائي في النفس وما سوّاها، القضاء والقدر، معنى انتساب التزكية والتخييب الى الله تعالى.

سورة الليل مكية وهي احدى وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ .

٢ ● وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ .

٣ ● وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَىٰ .

٤ ● إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ .

٥ ● فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَىٰ .

٦ ● وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ .

٧ ● فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ .

٨ ● وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ .

٩ ● وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ .

١٠ ● فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ .

١١ ● وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ .

١٢ • إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى.

١٣ • وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ.

١٤ • فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ.

١٥ • لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى.

١٦ • الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ.

١٧ • وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى.

١٨ • الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ.

١٩ • وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ.

٢٠ • إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ.

٢١ • وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ.

بيان:

غرض السورة الانذار وتسلك اليه بالإشارة الى اختلاف مساعي الناس وأن منهم من أنفق واتق وصدق بالحسنى فسيمكّنه الله من حياة خالدة سعيدة ومنهم من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسيسلك الله به الى شقاء العاقبة. وفي السورة اهتمام وعناية خاصة بأمر الإنفاق المالي.

والسورة تحتمل المكية والمدنية بحسب سياقها.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ إقسام بالليل إذا يغشى النهار على حد قوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار﴾ (الأعراف / ٥٤)، ويحتمل أن يكون المراد غشيانه الأرض أو الشمس.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ عطف على الليل، والتجلي ظهور الشيء بعد خفائه، والتعبير عن صفة الليل بالمضارع وعن صفة النهار بالماضي حيث قيل «يغشى» و«تجلى» تقدم فيه وجه في تفسير أول السورة السابقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ عطف على الليل كسابقه، و«ما» موصولة والمراد به الله سبحانه وإنما عبّر بما، دون من، إيثاراً للإبهام المشعر بالتعظيم والتفخيم والمعنى وأُقسم بالشيء العجيب الذي أوجد الذكر والانثى المختلفين على كونهما من نوع واحد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ السعي هو المشي السريع، والمراد به العمل من حيث يهتم به، وهو في معنى الجمع، وشتى جمع شتيت بمعنى المتفرق كمرضى جمع مريض.

والجملة جواب القسم والمعنى أُقسم بهذه المتفرقات خلقاً وأثراً إن مساعيكم لمتفرقات في نفسها وآثارها فمنها إعطاء وتقوى وتصديق ولها أثر خاص بها، ومنها بخل واستغناء وتكذيب ولها أثر خاص بها.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ تفصيل تفرق مساعيهم واختلاف آثارها.

والمراد بالإعطاء إنفاق المال لوجه الله بقرينة مقابلته للبخل الظاهر في الإمساك عن إنفاق المال وقوله بعد: «وما يغني عنه ماله إذا تردى».

وقوله: ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ كالمفسر للإعطاء يفيد أن المراد هو الإعطاء على سبيل التقوى الدينية.

وقوله: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ الحسنى صفة قائمة مقام الموصوف والظاهر أن التقدير بالعدة الحسنى وهي ما وعد الله من الثواب على الانفاق لوجهه الكريم وهو تصديق البعث والايمان به ولازمه الإيمان بوحدانيته تعالى في الربوبية والالوهية، وكذا الإيمان بالرسالة فإنها

طريق بلوغ وعده تعالى للثواب.

ومحصل الآيتين أن يكون مؤمناً بالله ورسوله واليوم الآخر وينفق المال لوجه الله وابتغاء ثوابه الذي وعده بلسان رسوله.

وقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ التيسير التهيئة والإعداد واليسرى الخصلة التي فيها يسر من غير عسر، وتوصيفها باليسر بنوع من التجوز فالمراد من تيسيره لليسرى توفيقه للأعمال الصالحة بتسهيلها عليه من غير تعسير أو جعله مستعداً للحياة السعيدة عند ربه ودخول الجنة بسبب الأعمال الصالحة التي يأتي بها. والوجه الثاني أقرب وأوضح انطباقاً على ما هو المعهود من مواعد القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ البخل مقابل الإعطاء. والاستغناء طلب الغنى والثروة بالإمساك والجمع. والمراد بالتكذيب بالحسنى الكفر بالعدة الحسنى وثواب الله الذي بلغه الأنبياء والرسل ويرجع الى انكار البعث.

والمراد بتيسيره للعسرى خذلانه بعدم توفيقه للأعمال الصالحة. بتثقيلها عليه وعدم شرح صدره للإيمان أو اعداده للعذاب.

وقوله: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ التردي هو السقوط من مكان عال ويطلق على الهلاك فالمراد سقوطه في حفرة القبر أو في جهنم أو هلاكه.

و «ما» استفهامية أو نافيه أي أيّ شيء يغنيه ماله اذا مات وهلك أو ليس يغني عنه ماله إذا مات وهلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ تعليل لما تقدم من حديث تيسيره لليسرى وللعسرى أو الإخبار به بأوجز بيان. محصله أنا إنما نفعل هذا التيسير أو نبين هذا البيان لأنه من الهدى والهدى علينا لا يزاحمنا في ذلك شيء ولا يمنعنا

عنه مانع.

فقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ يفيد أن هدى الناس مما قضى سبحانه به وأوجبه على نفسه بمقتضى الحكمة وذلك أنه خلقهم ليعبدوه كما قال: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات / ٥٦) فجعل عبادته غاية لخلقهم وجعلها صراطاً مستقيماً اليه كما قال: ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ (آل عمران / ٥١)، وقال: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله﴾ (الشورى / ٥٣) وقضى على نفسه أن يبين لهم سبيله ويهديهم اليه بمعنى إراءة الطريق سواء سلكوها أم تركوها كما قال: ﴿وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر﴾ (النحل / ٩)، وقال: ﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾ (الأحزاب / ٤) وقال: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ (الانسان / ٣) ولا ينافي ذلك قيام غيره تعالى بأمر هذا المعنى من الهدى بإذنه كالأنبياء كما قال تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ (الشورى / ٥٢)، وقال: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ (يوسف / ١٠٨).

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ أي عالم البدء وعالم العود فكل ما يصدق عليه أنه شيء فهو مملوك له تعالى بحقيقة الملك الذي هو قيام وجوده بربه القيُّوم ويتفرع عليه الملك الاعتباري الذي من آثاره جواز التصرفات.

فهو تعالى يملك كل شيء من كل جهة فلا يملك شيء منه شيئاً فلا معارض يعارضه ولا مانع يمنعه ولا شيء يغلبه كما قال: ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ (الرعد / ٤١) وقال: ﴿والله غالب على أمره﴾ (يوسف / ٢١)، وقال: ﴿ويفعل الله ما يشاء﴾ (إبراهيم / ٢٧).

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ تفريع على ما تقدم أي إذا كان الهدى علينا فأنذرتكم نار جهنم وبذلك يوجه ما في قوله: «فأنذرتكم» من الالتفات عن التكلم مع الغير الى التكلم وحده أي إذا كان الهدى

مقضية محتومة فالمنذر بالأصالة هو الله وإن كان بلسان رسوله.

وتلظى النار تلهبها وتوهجها، والمراد بالنار التي تتلظى جهنم كما قال تعالى: ﴿كلا إنها لظى﴾ (المعارج / ١٥).

والمراد بالأشقى مطلق الكافر الذي يكفر بالتكذيب والتولي فإنه أشقى من سائر من شقى في دنياه فمن ابتلي في بدنه شقي ومن أُصيب في ماله أو ولده مثلا شقي ومن خسر في أمر آخرته شقي والشقي في أمر آخرته أشقى من غيره لكون شقوته أبدية مطمع في التخلص منها بخلاف الشقوة في شأن من شؤون الدنيا فإنها مقطوعة لا محالة مرجوة الزوال عاجلا.

فالمراد بالأشقى هو الكافر المكذب بالدعوة الحقة المعرض عنها على ما يدل عليه توصيفه بقوله: «الذي كذب وتولى» ويؤيده إطلاق الإنذار، وأما الأشقى بمعنى أشقى الناس كلهم فما لا يساعد عليه السياق البتة.

والمراد بصلي النار اتباعها ولزومها فيفيد معنى الخلود وهو مما قضى الله به في حق الكافر، قال تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة / ٣٩).

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقىٰ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكّىٰ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزىٰ﴾ التجنيب التبعيد، وضمير «سيجنبها» للنار، والمعنى سيبعد عن النار الأتقى.

والمراد بالأتقى من هو أتقى من غيره ممن يتقي المخاطر فهناك من يتقي ضيعة النفوس كالموت والقتل ومن يتقي فساد الأموال ومن يتقي العدم والفقر فيمسك عن بذل المال وهكذا ومنهم من يتقي الله فيبذل المال، وأتقى هؤلاء الطوائف من يتقي الله فيبذل المال لوجهه وإن شئت فقل يتقي خسران الآخرة فيتزكّى بالاعطاء.

فالمفضّل عليه للأتقى هو من يتقي بإعطاء المال وإن اتقى سائر المخاطر الدنيوية أو اتقى الله

بسائر الأعمال الصالحة.

فالآية عامة بحسب مدلولها غير خاصة ويدل عليه توصيف الاتقى بقوله: «الذي يؤتي ماله» الخ: وهو وصف عام وكذا ما يتلوه، ولا ينافي ذلك كون الآيات أو جميع السورة نازلة لسبب خاص كما ورد في أسباب النزول.

وأما إطلاق المفضل عليه بحيث يشمل جميع الناس من طالح أو صالح ولازمه انحصار المفضل في واحد مطلقاً أو واحد في كل عصر، ويكون المعنى وسيجنّبها من هو أتقى الناس كلهم وكذا المعنى في نظيره: لا يصلاها إلا أشقى الناس كلهم فلا يساعد عليه سياق آيات صدر السورة، وكذا الإنذار العام الذي في قوله: «فأنذرتكم ناراً تلظّى» فلا معنى لأن يقال: أنذرتكم جميعاً ناراً لا يخلد فيها إلا واحد منكم جميعاً ولا ينجو منها إلا واحد منكم جميعاً.

وقوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ صفة للأتقى أي الذي يعطي وينفق ماله يطلب بذلك أن ينمو نماء صالحاً.

وقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ تقرير لمضمون الآية السابقة أي ليس لأحد عنده من نعمة تجزى تلك النعمة بما يؤتيه من المال وتكافأ وإنما يؤتيه لوجه الله ويؤيد هذا المعنى تعقيبه بقوله: «إلّا ابتغاء وجه ربه الأعلى».

فالتقدير من نعمة تجزى به، وإنما حذف الظرف رعاية للفواصل، ويندفع بذلك ما قيل لا إن بناء «تجزى» للمفعول لأن القصد ليس لفاعل معين.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ استثناء منقطع والمعنى ولكنه يؤتي ماله طلباً لوجه ربه الأعلى وقد تقدم كلام في معنى وجه الله وفي معنى الاسم الأعلى.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي ولسوف يرضى هذا الأتقى بما يؤتيه ربه الأعلى من الأجر الجزيل والجزاء الحسن الجميل.

وفي ذكر صفتي الرب الأعلى إشعار بأن ما يؤتاه من الجزاء أنعم الجزاء وأعلاه وهو

المناسب لربوبيته تعالى وعلوه، ومن هنا يظهر وجه الالتفات في الآية السابقة في قوله: «وجه ربه الأعلى» من سياق التكلم وحده الى الغيبة بالإشارة الى الوصفين: ربه الأعلى[1].

---

١. الليل ١ ـ ٢١: بحث روائي في قوله تعالى: «والليل اذا يغشى»، اقسام الله تعالى، وصف علي ﷺ، الهداية والاضلال.

سورة الضحى مكية أو مدنية وهي احدى عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● والضُّحىٰ.

٢ ● وَاللَّيْلِ إِذٰا سَجىٰ.

٣ ● مٰا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمٰا قَلىٰ.

٤ ● وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولىٰ.

٥ ● وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضىٰ.

٦ ● أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوىٰ.

٧ ● وَوَجَدَكَ ضالّاً فَهَدىٰ.

٨ ● وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنىٰ.

٩ ● فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاٰ تَقْهَرْ.

١٠ ● وَأَمَّا السّائِلَ فَلاٰ تَنْهَرْ.

١١ ● وَأَمّٰا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ.

بيان:

قيل: انقطع الوحي عن النبي ﷺ أياماً حتى قالوا: إن ربه ودّعه فنزلت السورة فطيّب الله بها نفسه، والسورة تحتمل المكية والمدنية.

قوله تعالى: ﴿والضُّحىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجىٰ﴾ إقسام، والضحى ـ على ما في المفردات ـ انبساط الشمس وامتداد النهار وسمي الوقت به، وسجو الليل سكونه وهو غشيان ظلمته.

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلىٰ﴾ التوديع الترك، والقلى بكسر القاف البغض أو شدته، والآية جواب القسم، ومناسبة نور النهار وظلمة الليل لنزول الوحي وانقطاعه ظاهرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولىٰ﴾ في معنى الترقي بالنسبة الى ما تفيده الآية السابقة من كونه ﷺ على ما هو عليه من موقف الكرامة والعناية الإلهية كأنه قيل: أنت على ما كنت عليه من الفضل والرحمة ما دمت حياً في الدنيا وحياتك الآخرة خير لك من حياتك الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضىٰ﴾ تقرير وتثبيت لقوله: «وللآخرة خير لك من الاولى» وقد اشتمل الوعد على عطاء مطلق يتبعه رضى مطلق.

وقيل: الآية ناظرة الى الحياتين جميعاً دون الحياة الآخرة فقط.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوىٰ﴾ الآية وما يتلوها من الآيتين إشارة الى بعض نعمه تعالى العظام عليه ﷺ فقد مات أبوه وهو في بطن امه ثم ماتت امه وهو ابن سنتين ثم مات جده الكفيل له وهو ابن ثمان سنين فكفّله عمه ورباه.

وقيل: المراد باليتيم الوحيد الذي لا نظير له في الناس كما يقال: درّ يتيم، والمعنى ألم يجدك

وحيداً بين الناس فآوى الناس اليک وجمعهم حولك.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ﴾ المراد بالضلال عدم الهداية والمراد بكونه ﷺ ضالاً حاله في نفسه مع قطع النظر عن هدايته تعالى فلا هدى له ﷺ ولا لأحد من الخلق إلا بالله سبحانه فقد كانت نفسه في نفسها ضالة وإن كانت الهداية الإلهية ملازمة لها منذ وجدت فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ (الشورى / ٥٢)، ومن هذا الباب قول موسى على ما حكى الله عنه ﴿فعلتها إذاً وأنا من الضالين﴾ (الشعراء / ٢٠) أي لم أهتد بهدى الرسالة بعد.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ العائل الفقير الذي لا مال له وقد كان ﷺ فقيراً لا مال له فأغناه الله بعدما تزوج بخديجة بنت خويلد عليها السلام فوهبت له مالها وكان لها مال كثير، وقيل المراد بالإغناء استجابة دعوته.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾ قال الراغب: القهر الغلبة والتذليل معاً ويستعمل في كل واحد منهما، انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾ النهر هو الزجر والرد بغلظة.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ التحديث بالنعمة ذكرها قولاً وإظهارها فعلاً وذلك شكرها، وهذه الأوامر عامة للناس وان كانت موجهة الى النبي ﷺ[1].

---

١. الضحى ١ ـ ١١: بحث روائي في نعمه تعالى لرسوله ﷺ.

سورة ألم نشرح مكية أو مدنية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ.

٢ ❁ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ.

٣ ❁ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ.

٤ ❁ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ.

٥ ❁ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً.

٦ ❁ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً.

٧ ❁ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ.

٨ ❁ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ.

بيان:

أمر بالنصب في الله والرغبة اليه توصل اليه بتقدمة الامتنان والسورة تحتمل المكية

والمدنية وسياق آياتها أوفق للمدنية .

وفي بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الضحى وألم نشرح سورة واحدة، ويروى ذلك أيضاً عن طاوس وعمر بن عبدالعزيز قال الرازي في التفسير الكبير بعد نقله عنهما: والذي دعاهما الى ذلك هو أن قوله تعالى: «ألم نشرح لك» كالعطف على قوله: «ألم يجدك يتيماً» وليس كذلك لأن الأول كان نزوله حال اغتمام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من إيذاء الكفار فكانت حال محنة وضيق صدر. والثاني يقتضي أن يكون حال النزول منشرح الصدر طيب القلب فأنى يجتمعان انتهى.

وفيه أن المراد بشرح صدره صلى الله عليه وآله وسلم في الآية جعله بحيث يسع ما يلقى اليه من الحقائق ولا يضيق بما ينزل عليه من المعارف وما يصيبه من أذى الناس في تبليغها كما سيجيء لا طيب القلب والسرور كما فسره.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ قال الراغب: أصل الشرح بسط اللحم ونحوه يقال: شرحت اللحم وشرحته ومنه شرح الصدر أي بسطته بنور إلهي وسكينة من جهة الله وروح منه قال تعالى: «رب اشرح لي صدري» «ألم نشرح لك صدرك» «فمن شرح الله صدره» انتهى.

وترتب الآيات الثلاث الاول في مضامينها ثم تعليلها بقوله: «فإن مع العسر يسراً» الظاهر في الانطباق على حاله صلى الله عليه وآله وسلم في أوائل دعوته وأواسطها وأواخرها ثم تكرار التعليل ثم تفريع آيتي آخر السورة كل ذلك يشهد على كون المراد بشرح صدره صلى الله عليه وآله وسلم بسطه بحيث يسع ما يلقى اليه من الوحي ويؤمر بتبليغه وما يصيبه من المكاره والأذى في الله. وبعبارة اخرى جعل نفسه المقدسة مستعدة تامة الاستعداد لقبول ما يفاض عليها من جانب الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الوزر الحمل الثقيل.

وإنقاض الظهر كسره بحيث يسمع له صوت كما يسمع من السرير ونحوه عند استقرار شيء ثقيل عليه، والمراد به ظهور ثقل الوزر عليه ظهوراً بالغاً.

ووضع الوزر إذهاب ما يحس من ثقله وجملة «ووضعنا عنك وزرك» معطوفة على قوله: «ألم نشرح» الخ؛ لما أن معناه قد شرحنا لك صدرك.

والمراد بوضع وزره ﷺ على ما يفيد السياق ـ وقد أشرنا اليه ـ إنفاذ دعوته وإمضاء مجاهدته في الله بتوفيق الأسباب فإن الرسالة والدعوة وما يتفرع على ذلك هي الثقل الذي حمله إثر شرح صدره.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ رفع الذكر إعلاؤه عن مستوى ذكر غيره من الناس وقد فعل سبحانه به ذلك، ومن رفع ذكره أن قرن الله اسمه ﷺ باسمه فاسمه قرين اسم ربه في الشهادتين اللتين هما أساس دين الله، وعلى كل مسلم أن يذكره مع ربه كل يوم في الصلوات الخمس المفروضة، ومن اللطف وقوع الرفع بعد الوضع في الآيتين.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ لا يبعد أن يكون تعليلاً لما تقدم من وضع الوزر ورفع الذكر فما حمله الله من الرسالة وأمر به من الدعوة ـ وذلك أثقل ما يمكن لبشر أن يحمله ـ كان قد اشتد عليه الأمر بذلك، وكذا تكذيب قومه دعوته واستخفافهم به وإصرارهم على امحاء ذكره كان قد اشتد عليه فوضع الله وزره الذي حمله بتوفيق الناس لإجابة دعوته ورفع ذكره الذي كانوا يريدون إمحاءه وكان ذلك جرياً على سنته تعالى في الكون من الإتيان باليسر بعد العسر فعلل رفع الشدة عنه ﷺ بما أشار اليه من سنته، وعلى هذا فاللام في «العسر» للجنس دون الاستغراق ولعل السنة سنة تحوّل الحوادث وتقلب الأحوال وعدم دوامها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ تكرار للتأكيد والتثبيت وقيل: استئناف وذكروا أن في الآيتين دلالة على أن مع العسر واحد يسران بناء على أن المعرفة إذا أُعيدت ثانية في الكلام كان المراد بها عين الاولى بخلاف النكرة كما أنه لو قيل: إذا اكتسبت الدرهم أو درهماً

فأنفق الدرهم كان المراد بالثاني هو الأول بخلاف ما لو قيل: إذا اكتسبت درهما فأنفق درهماً وليست القاعدة بمطردة.

والتنوين في «يسراً» للتنويع لا للتفخيم كما ذكره بعضهم، والمعية معية التوالي دون المعية بمعنى التحقق في زمان واحد.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ خطاب للنبي ﷺ متفرع على ما بيَّن قبل من تحميله الرسالة والدعوة ومنَّه تعالى عليه بما منَّ من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر وكل ذلك من اليسر بعد العسر.

وعليه فالمعنى إذا كان العسر يأتي بعده اليسر والأمر فيه الى الله لا غير فإذا فرغت مما فرض عليك فاتعب نفسك في الله ـ بعبادته ودعائه ـ وارغب فيه ليمن عليك بما لهذا التعب من الراحة ولهذا العسر من اليسر.

سورة التين مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ.

٢ وَطُورِ سِينِينَ.

٣ وَهٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ.

٤ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ.

٥ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ.

٦ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ.

٧ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ.

٨ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ.

بيان:

تذكر السورة البعث والجزاء وتسلك اليه من طريق خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم

اختلافهم بالبقاء على الفطرة الاولى وخروجهم منها بالانحطاط الى أسفل سافلين ووجوب التميز بين الطائفتين جزاء باقتضاء الحكمة.

والسورة مكية وتحتمل المدنية ويؤيد نزولها بمكة قوله: «وهـذا البـلد الأمـين» وليس بصريح فيه لاحتمال نزولها بعد الهجرة وهو ﷺ بمكة.

قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ قيل: المراد بالتين والزيتون الفاكهتان المعروفتان أقسم الله بهما لما فيهما من الفوائد الجمة والخواص النافعة، وقيل المراد بهما شجرتا التين والزيتون، وقيل: المراد بالتين الجبل الذي عليه دمشق وبالزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس، ولعل اطلاق اسم الفاكهتين على الجبلين لكونهما منبتيهما ولعل الإقسام بهما لكونهما مبعثي جم غفير من الأنبياء وقيل غير ذلك.

والمراد بطور سينين الجبل الذي كلّم الله تعالى فيه موسى بن عمران عليه السلام، ويسمى أيضاً طور سيناء.

والمراد بهذا البلد الأمين مكة المشرّفة لأن الأمن خاصة مشرعة للحرم وهي فيه قال تعالى: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً﴾ (العنكبوت / ٦٧) وفي دعاء ابراهيم عليه السلام على ما حكى الله عنه ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ (البقرة / ١٢٦)، وفي دعائه ثانياً ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ (إبراهيم / ٣٥).

وفي الإشارة بهذا الى البلد تثبيت التشريف عليه بالتشخيص وتوصيفه بالأمين إما لكونه فعيلا بمعنى الفاعل ويفيد معنى النسبة والمعنى ذي الأمن كاللابن والتامر وإما لكونه فعيلا بمعنى المفعول والمراد البلد الذي يؤمن الناس فيه أي لا يخاف فيه من غوائلهم ففي نسبة الأمن الى البلد نوع تجوّز.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ جواب للقسم والمراد بكون خلقه في أحسن تقويم اشتمال التقويم عليه في جميع شؤونه وجهات وجوده، والتقويم

جعل الشيء ذا قوام وقوام الشيء ما يقوم به ويثبت فالإنسان والمراد به الجنس ذو أحسن قوام بحسب الخلقة.

ومعنى كونه ذا أحسن قوام بحسب الخلقة على ما يستفاد من قوله بعد: «ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين» الخ؛ صلوحه بحسب الخلقة للعروج الى الرفيع الأعلى والفوز بحياة خالدة عند ربه سعيدة لا شقوة معها، وذلك بما جهّزه الله به من العلم النافع ومكّنه منه من العمل الصالح قال تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾ (الشمس / ٨) فإذا آمن بما علم وزاول صالح العمل رفعه الله اليه كما قال: ﴿اليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه﴾ (فاطر / ١٠)، وقال: ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾ (الحج / ٣٧).

وقال: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات﴾ (المجادلة / ١١) وقال: ﴿فاولئك لهم الدرجات العلى﴾ (طه / ٧٥) الى غير ذلك من الآيات الدالة على ارتفاع مقام الإنسان وارتقائه بالإيمان والعمل الصالح عطاء من الله غير مجذوذ، وقد سمّاه تعالى أجراً كما يشير اليه قوله الآتي: «فلهم أجر غير ممنون».

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ظاهر الرد أن يكون بمعناه المعروف فأسفل منصوب بنزع الخافض، والمراد بأسفل سافلين مقام منحط هو أسفل من سفل من أهل الشقوة والخسران والمعنى ثم رددنا الإنسان الى أسفل من سفل من أهل العذاب.

واحتمل أن يكون الرد بمعنى الجعل أي جعلناه أسفل سافلين، وأن يكون بمعنى التغيير والمعنى ثم غيّرناه حال كونه أسفل جمع سافلين، والمراد بالسفالة على أي حال الشقاء والعذاب.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع استثناء متصل من جنس الإنسان، وتفريع قوله: «فلهم أجر غير ممنون» عليه يؤيد كون المراد من رده الى أسفل سافلين رده الى الشقاء والعذاب.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ الخطاب للإنسان باعتبار الجنس، وقيل للنبي ﷺ والمراد غيره، و«ما» استفهامية توبيخية، و«بالدين» متعلق بيكذّبك، والدين الجزاء والمعنى ـ على ما قيل ـ ما الذي يجعلك مكذّباً بالجزاء يوم القيامة بعدما جعلنا الإنسان طائفتين طائفة مردودة الى أسفل سافلين وطائفة مأجورة اجراً غير ممنون.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ الاستفهام للتقرير وكونه تعالى أحكم الحاكمين هو كونه فوق كل حاكم في إتقان الحكم وحقيته ونفوذه من غير اضطراب ووهن وبطلان فهو تعالى يحكم في خلقه وتدبيره بما من الواجب في الحكمة أن يحكم به الناس من حيث الإتقان والحسن والنفوذ وإذا كان الله تعالى أحكم الحاكمين والناس طائفتان مختلفتان اعتقاداً وعملاً فمن الواجب في الحكمة أن يميّز بينهم بالجزاء في حياتهم الباقية وهو البعث.

فالتفريع في قوله: «فما يكذّبك بعد بالدين» من قبيل تفريع النتيجة على الحجة وقوله: «أليس الله بأحكم الحاكمين» تتميم للحجة المشار اليها بما يتوقف عليه تمامها.

والمحصل أنه إذا كان الناس خلقوا في أحسن تقويم ثم اختلفوا فطائفة خرجت عن تقويمها الأحسن وردت الى أسفل سافلين وطائفة بقيت في تقويمها الأحسن وعلى فطرتها الاولى والله المدبر لأمرهم أحكم الحاكمين، ومن الواجب في الحكمة أن تختلف الطائفتان جزاء، فهناك يوم تجزى فيه كل طائفة بما عملت ولا مسوّغ للتكذيب به.

سورة العلق مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • إِقْرَءْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ.

٢ • خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ.

٣ • إِقْرَءْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ.

٤ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ.

٥ • عَلَّمَ الْإِنْسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.

٦ • كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغىٰ.

٧ • أَنْ رَآهُ اسْتَغْنىٰ.

٨ • إِنَّ إِلىٰ رَبِّكَ الرُّجْعىٰ.

٩ • أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهىٰ.

١٠ • عَبْداً إِذا صَلّىٰ.

١١ • أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدىٰ.

١٢ ● أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوىٰ.

١٣ ● أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلّىٰ.

١٤ ● أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللّٰهَ يَرىٰ.

١٥ ● كَلّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنّٰاصِيَةِ.

١٦ ● نٰاصِيَةٍ كٰاذِبَةٍ خٰاطِئَةٍ.

١٧ ● فَلْيَدْعُ نٰادِيَهُ.

١٨ ● سَنَدْعُ الزَّبٰانِيَةَ.

١٩ ● كَلّا لاٰ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ.

بيان:

أمر للنبي ﷺ بتلقي القرآن بالوحي منه تعالى وهي أول سورة نزلت من القرآن، وسياق آياتها لا يأبى نزولها دفعة واحدة كما سنشير اليه، وهي مكية قطعاً.

قوله تعالى: ﴿إِقْرَءْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ قال الراغب: والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها الى بعض في الترتيل، وليس يقال ذلك لكل جمع لا يقال: قرأت القوم إذا جمعتهم، ويدل على ذلك أنه لا يقال: للحرف الواحد إذا تفوّه به: قراءة انتهى.

وعلى أي حال، يقال: قرأت الكتاب إذا جمعت ما فيه من الحروف والكلمات بضم بعضها الى بعض في الذهن وإن لم تتلفظ بها، ويقال: قرأته إذا جمعت الحروف والكلمات بضم بعضها الى بعض في التلفظ، ويقال قرأته عليه إذا جمعت بين حروفه وكلماته في سمعه ويطلق عليها بهذا المعنى التلاوة أيضاً قال تعالى: ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة﴾ (البينة / ٢).

وظاهر إطلاق قوله: «اقرء» المعنى الأول والمراد به الأمر بتلقي ما يوحيه اليه ملك الوحي من القرآن فالجملة أمر بقراءة الكتاب وهي من الكتاب كقول القائل في مفتتح كتابه لمن أرسله اليه: اقرء كتابي هذا واعمل به فقوله هذا أمر بقراءة الكتاب وهو من الكتاب.

وهذا السياق يؤيد أولاً ما ورد أن الآيات أول ما نزل من القرآن على النبي ﷺ.

وثانياً أن التقدير اقرء القرآن أو ما في معناه، وليس المراد مطلق القراءة باستعمال «اقرء» استعمال الفعل اللازم بالإعراض عن المفعول. ولا المراد القراءة على الناس بحذف المتعلق وإن كان ذلك من أغراض النزول كما قال: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾ (الإسراء / ١٠٦)، ولا أن قوله: «باسم ربك» مفعول «اقرء» والباء زائدة والتقدير اقرء اسم ربك أي بسمل.

وقوله: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ متعلق بمقدّر نحو مفتتحاً ومبتدء أو باقرء والباء للملابسة ولا ينافي ذلك كون البسملة المبتداة بها السورة جزء من السورة فهي من كلام الله افتتح سبحانه بها وأمر أن يقرء مبتدء بها كما أمر أن يقرء قوله: «اقرء باسم» الخ؛ ففيه تعليم بالعمل نظير الأمر بالاستثناء في قوله: ﴿ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾ (الكهف / ٢٤) فافهم ذلك.

وفي قوله: ﴿رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إشارة الى قصر الربوبية في الله عز اسمه وهو توحيد الربوبية المقتضية لقصر العبادة فيه فإن المشركين كانوا يقولون: إن الله سبحانه ليس له إلا الخلق والإيجاد وأما الربوبية وهي الملك والتدبير فلمقرّبي خلقه من الملائكة والجن والإنس فدفعه الله بقوله: «ربك الذي خلق» الناص على أن الربوبية والخلق له وحده.

وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ المراد جنس الإنسان المتناسل والعلق الدم المنجمد والمراد به ما يستحيل اليه النطفة في الرحم.

ففي الآية إشارة الى التدبير الإلهي الوارد على الإنسان من حين كان علقة الى حين يصير

إنساناً تاماً كاملاً له من أعاجيب الصفاف والأفعال ما تتحير فيه العقول فلم يتم الإنسان إنساناً ولم يكمل إلا بتدبير متعاقب منه تعالى وهو بعينه خلق بعد خلق فهو تعالى رب مدبر لأمر الإنسان بعين أنه خالق له فليس للإنسان إلا أن يتخذه وحده رباً ففي الكلام احتجاج على توحيد الربوبية.

قوله تعالى: ﴿إِقْرَءْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أمر بالقراءة ثانياً تأكيد للأمر الأول على ما هو ظاهر سياق الإطلاق.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي الذي يفوق عطاؤه عطاء ما سواه فهو تعالى يعطي لا عن استحقاق وما من نعمة إلا وينتهي إيتاؤها اليه تعالى.

وقوله: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ الباء للسببية أي علّم القراءة أو الكتابة والقراءة بواسطة القلم والجملة حالية او استئنافية، والكلام مسوق لتقوية نفس النبي ﷺ وإزالة القلق والاضطراب عنها حيث أُمر بالقراءة وهو امي لا يكتب ولا يقرء كأنه قيل: اقرء كتاب ربك الذي يوحيه اليك ولا تخف والحال أن ربك الأكرم الذي علّم الإنسان القراءة بواسطة القلم الذي يخط به فهو قادر على أن يعلّمك قراءة كتابه وأنت امي وقد أمرك بالقراءة ولو لم يقدرك عليها لم يأمرك بها.

ثم عمم سبحانه النعمة فذكر تعليمه للإنسان ما لم يعلم فقال: «علَّم الإنسان ما لم يعلم» وفيه مزيد تقوية لقلب النبي ﷺ وتطييب لنفسه.

والمراد بالإنسان الجنس كما هو ظاهر السياق وقيل: المراد به آدم عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ ردع عما يستفاد من الآيات السابقة أنه تعالى أنعم على الإنسان بعظائم نعم مثل التعليم بالقلم وسائر ما علّم والتعليم من طريق الوحي فعلى الانسان أن يشكره على ذلك لكنه يكفر بنعمته تعالى ويطغى.

وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ أن يتعدى طوره، وهو إخبار بما في طبع الإنسان ذلك كقوله: ﴿إن الإنسان لظلوم كفّار﴾ (إبراهيم / ٣٤).

وقوله: ﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ من الرأي دون الرؤية البصرية، وفاعل «رآه» ومفعوله الإنسان. وجملة «لمن رآه استغنى» في مقام التعليل أي ليطغى لأنه يعتقد نفسه مستغنياً عن ربه المنعم عليه فيكفر به، وذلك أنه يشتغل بنفسه والأسباب الظاهرية التي يتوصل بها الى مقاصده فيغفل عن ربه من غير أن يرى حاجة منه اليه تبعثه الى ذكره وشكره على نعمة فينساه ويطغى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ الرجعى هو الرجوع والظاهر من سياق الوعيد الآتي أنه وعيد وتهديد بالموت والبعث، والخطاب للنبي ﷺ. وقيل: الخطاب للإنسان بطريق الالتفات للتشديد، والأول أظهر.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْداً إِذا صَلَّىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ بمنزلة ذكر بعض المصاديق للإنسان الطاغي وهو كالتوطئة لوعيده بتصريح العقاب والنهي عن طاعته والأمر بعبادته تعالى، والمراد بالعبد الذي كان يصلّي هو النبي ﷺ على ما يستفاد من آخر الآيات حيث ينهاه ﷺ عن طاعة ذلك الناهي ويأمره بالسجود والاقتراب.

وسياق الآيات ـ على تقدير كون السورة أول ما نزل من القرآن ونزولها دفعة واحدة ـ يدل على صلاة النبي ﷺ قبل نزول القرآن وفيه دلالة على نبوّته قبل رسالته بالقرآن.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ المراد به العلم على طريق الاستلزام فإن لازم الإعتقاد بأن الله خالق كل شيء هو الاعتقاد بأن له علماً بكل شيء وإن غفل عنه وقد كان الناهي وثنياً مشركاً والوثنية معترفون بأن الله هو خالق كل شيء وينزهونه عن صفات النقص فيرون أنه تعالى لا يجهل شيئاً ولا يعجز عن شيء وهكذا.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ قال في المجمع: والسفع الجذب الشديد يقال: سفعت بالشيء إذا قبضت عليه وجذبته جذباً شديداً. انتهى، وفي توصيف الناصية بالكذب والخطأ وهما وصفا صاحب الناصية مجاز.

وفي الكلام ردع وتهديد شديد، والمعنى ليس الأمر كما يقول ويريد أو ليس له ذلك.

أُقسم لئن لم يكف عن نهيه ولم ينصرف لنأخذنَّ بناصيته أخذ الذليل المهان ونجذبنَّه الى العذاب تلك الناصية التي صاحبها كاذب فيما يقول خاطىء فيما يفعل، وقيل: المعنى لنسمنَّ ناصيته بالنار ونسوّدنها.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ النادي المجلس وكأن المراد به أهل المجلس أي الجمع الذين يجتمع بهم، وقيل: الجليس، والزبانية الملائكة الموكلون بالنار، وقيل: الزبانية في كلامهم الشرط، والأمر تعجيزي أُشير به الى شدة الأخذ والمعنى فليدع هذا الناهي جمعه لينجّوه منا سندع الزبانية الغلاظ الشداد الذين لا ينفع معهم نصر ناصر.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ تكرار الردع للتأكيد، وقوله: «لا تطعه» أي لا تطعه في النهي عن الصلاة وهي القرينة على أن المراد بالسجود الصلاة، ولعل الصلاة التي كان ﷺ يأتي بها يومئذ كانت تسبيحه تعالى والسجود له وقيل: المراد به السجود لقراءة هذه السورة التي هي إحدى العزائم الأربع في القرآن.

والاقتراب التقرب الى الله، وقيل: الاقتراب من ثواب الله تعالى[1].

---

١. العلق ١ ـ ١٩: بحث روائي في: نزول الوحي الى رسول الله؛ بعثة رسول الله الكريم الذي ينهى رسول الله اذا صلّى؛ سورة العزائم.

سورة القدر مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ◆ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

٢ ◆ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

٣ ◆ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ.

٤ ◆ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ.

٥ ◆ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ.

بيان:

تذكر السورة إنزال القرآن في ليلة القدر وتعظّم الليلة بتفضيلها على ألف شهر وتنزل الملائكة والروح فيها. والسورة تحتمل المكية والمدنية ولا يخلو بعض[١] ما روي في سبب نزولها عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وغيرهم من تأييد لكونها مدنية.

---

١. وهو ما دل على أن السورة نزلت بعد رؤيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن بني امية يصعدون منبره فاغتم فسلاه الله بها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ضمير «أنزلناه» للقرآن وظاهره جملة الكتاب العزيز لا بعض آياته ويؤيده التعبير بالإنزال الظاهر في اعتبار الدفعة دون التنزيل الظاهر في التدريج.

وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ (الدخان / ٣) وظاهره الإقسام بجملة الكتاب المبين ثم الإخبار عن إنزال ما اقسم به جملة.

فدلول الآيات أن للقرآن نزولاً جملياً على النبي ﷺ غير نزوله التدريجي الذي تمّ في مدة ثلاث وعشرين سنة كما يشير اليه قوله: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾ (الإسراء / ١٠٦)، وقوله: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾ (الفرقان / ٣٢).

فحصل الآيات ـ كما ترى ـ أنها ليلة بعينها من شهر رمضان من كل سنة فيها إحكام الامور بحسب التقدير. ولا ينافي ذلك وقوع التغيُّر فيها بحسب التحقق في ظرف السنة فإن التغيّر في كيفية تحقق المقدر أمر والتغير في التقدير أمر آخر كما أن إمكان التغير في الحوادث الكونية بحسب المشية الإلهية لا ينافي تعينها في اللوح المحفوظ قال تعالى: ﴿وعنده ام الكتاب﴾ (الرعد / ٣٩).

على ان لاستحكام الامور بحسب تحققها مراتب من حيث حضور أسبابها وشرائطها تامة وناقصة ومن المحتمل أن تقع في ليلة القدر بعض مراتب الإحكام ويتأخر تمام الإحكام الى وقت آخر لكن الروايات كما ستأتي لا تلائم هذا الوجه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ كناية عن جلالة قدر الليلة وعظم منزلتها ويؤكد ذلك إظهار الاسم مرة بعد مرة حيث قيل «وما ليلة القدر ليلة القدر خير» ولم يقل: وما أدراك ما هي هي خير.

قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ بيان إجمالي لما اشير اليه بقوله: «وما

أدراك ما ليلة القدر » من فخامة أمر الليلة .

والمراد بكونها خيراً من الف شهر خيريتها منها من حيث فضيلة العبادة على ما فسره المفسرون وهو المناسب لغرض القرآن وعنايته بتقريب الناس الى الله فإحياؤها بالعبادة خير من عبادة الف شهر ، ويمكن أن يستفاد ذلك من المباركة المذكورة في سورة الدخان في قوله : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » وهناك معنى آخر سيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ تنزل أصله تتنزل ، والظاهر من الروح هو الروح من الأمر قال تعالى : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ (الإسراء / ٨٥) والإذن في الشيء الرخصة فيه وهو إعلام عدم المانع منه .

و « من » في قوله : « من كل أمر » قيل : بمعنى الباء وقيل : لابتداء الغاية وتفيد السببية أي بسبب كل أمر إلهي ، وقيل : للتعليل بالغاية أي لأجل تدبير كل امر من الامور والحق ان المراد بالأمر إن كان هو الأمر الإلهي المفسر بقوله : ﴿ إنما امره إذا أراد شيئاً أن يقوله له كن ﴾ (يس / ٨٢) فمن للابتداء وتفيد السببية والمعنى تتنزل الملائكة والروح في ليلة القدر بإذن ربهم مبتدء تنزلهم وصادراً من كل أمر إلهي .

وإن كان هو الأمر من الامور الكونية والحوادث الواقعة فمن بمعنى اللام التعليلية والمعنى تتنزل الملائكة والروح في الليلة بإذن ربهم لأجل تدبير كل امر من الامور الكونية .

قوله تعالى : ﴿ سَلاَمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ قال في المفردات : السلام والسلامة التعري من الآفات الظاهرة والباطنة انتهى فيكون قوله : « سلام هي » إشارة الى العناية الإلهية بشمول الرحمة لعباده المقبلين اليه وسد باب نقمة جديدة تختص بالليلة ويلزمه بالطبع وهن كيد الشياطين كما اشير اليه في بعض الروايات .

والآيتان أعني قوله : « تنزل الملائكة » الى آخر السورة في معنى التفسير لقوله : « ليلة

القدر خير من الف شهر »[١].

١. القدر ١ ـ ٥: بحث روائي حول ليلة القدر؛ نزول القرآن؛ الملائكة والروح.

سورة البينة مدنية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ
حَتّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ .

٢ ● رَسُولٌ مِنَ اللّٰهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً .

٣ ● فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ .

٤ ● وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ .

٥ ● وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا
الصَّلٰوةَ وَيُؤْتُوا الزَّكٰوةَ وَذٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ .

٦ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا أُولٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ .

٧ ● إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ .

٨ ● جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ.

بيان:

تسجّل السورة رسالة محمد ﷺ لعامة أهل الكتاب والمشركين وبعبارة اخرى للمليين وغيرهم وهم عامة البشر فتفيد عموم الرسالة وأنها مما كانت تقتضيه السنة الإلهية ـ سنة الهداية ـ التي تشير اليها أمثال قوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ (الإنسان / ٣)، وقوله: ﴿وإن من امة إلا خلا فيها نذير﴾ (فاطر / ٢٤)، وتحتج على عموم دعوته ﷺ بأنها لا تتضمن إلا ما يصلح المجتمع الانساني من الاعتقاد والعمل على ما سيتضح إن شاء الله.

والسورة تحتمل المكية والمدنية وإن كان سياقها بالمدنية أشبه.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ظاهر الآيات ـ وهي في سياق يشير الى قيام الحجة على الذين كفروا بالدعوة الإسلامية من أهل الكتاب والمشركين وعلى الذين اوتوا الكتاب حينما بدا فيهم الاختلاف ـ أن المراد هو الإشارة الى ان الرسول ﷺ من مصاديق الحجة البينة القائمة على الناس التي تقتضي قيامها السنة الإلهية الجارية في عباده فقد كانت توجب مجيء البينة اليهم كما أوجبته من قبل ما تفرقوا في دينهم.

وعلى هذا فالمراد بالذين كفروا في الآية هم الكافرون بالدعوة النبوية الإسلامية من أهل الكتاب والمشركين، و«من» في قوله: «من اهل الكتاب» للتبعيض لا للتبين، وقوله: «والمشركين» عطف على «أهل الكتاب» والمراد بهم غير اهل الكتاب من عبدة الأصنام وغيرهم.

وقوله: ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ من الانفكاك وهو الانفصال عن شدة اتصال، والمراد به - على ما يستفاد من قوله: «حتى تأتيهم البينة» - انفكاكهم عما تقتضي سنة الهداية والبيان كأن السنة الإلهية كانت قد أخذتهم ولم تكن تتركهم حتى تأتيهم البينة ولما أتتهم البينة تركتهم وشأنهم كما قال تعالى: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ (التوبة / ١١٥).

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ على ظاهره من الاستقبال والبينة هي الحجة الظاهرة والمعنى لم يكن الذين كفروا برسالة النبي ﷺ أو بدعوته أو بالقرآن لينفكوا حتى تأتيهم البينة والبينة هي محمد ﷺ.

وللقوم اختلاف عجيب في تفسير الآية ومعاني مفرداتها حتى قال بعضهم - على ما نقل -: إن الآية من أصعب الآيات القرآنية نظماً وتفسيراً. انتهى، والذي أوردناه من المعنى هو الذي يلائمه سياقها من غير تناقض بين الآيات وتدافع بين الجمل والمفردات، ومن أراد الاطلاع على تفصيل ما قيل ويقال فعليه أن يراجع المطوّلات.

قوله تعالى: ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ بيان للبينة والمراد به محمد رسول الله ﷺ قطعاً على ما يعطيه السياق.

والصحف جمع صحيفة وهي ما يكتب فيها، والمراد بها أجزاء القرآن النازلة وقد تكرر في كلامه تعالى إطلاق الصحف على أجزاء الكتب السماوية ومنها القرآن الكريم قال تعالى: ﴿في صحف مكرّمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة﴾ (عبس / ١٦).

والمراد بكون الصحف مطهرة تقدّسها من قذارة الباطل بمس الشياطين، وقد تكرر منه تعالى أنه حق مصون من مداخلة الشياطين وقال: ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ (الواقعة / ٧٩).

وقوله: ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ الكتب جمع كتاب ومعناه المكتوب ويطلق على اللوح

والقرطاس ونحوهما المنقوشة فيها الألفاظ وعلى نفس الألفاظ التي تحكي عنها النقوش، وربما يطلق على المعاني بما أنها محكية بالألفاظ، ويطلق أيضاً على الحكم والقضاء يقال كتب عليه كذا أي قضى أن يفعل كذا قال تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام﴾ (البقرة / ١٨٣) وقال: ﴿كتب عليكم القتال﴾ (البقرة / ٢١٦).

والظاهر أن المراد بالكتب التي في الصحف الأحكام والقضايا الإلهية المتعلقة بالاعتقاد والعمل. ومن الدليل عليه توصيفها بالقيّمة فإنها من القيام بالشيء بمعنى حفظه ومراعاة مصلحته وضمان سعادته قال تعالى: ﴿أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيّم﴾ (يوسف / ٤٠)، ومعلوم أن الصحف السماوية إنما تقوم بأمر المجتمع الإنساني وتحفظ مصلحته بما فيها من الأحكام والقضايا المتعلقة بالاعتقاد والعمل.

فمعنى الآيتين: الحجة البينة التي أتتهم رسول من الله يقرء صحائف سماوية مطهرة من دنس الباطل في تلك الصحائف أحكام وقضايا قائمة بأمر المجتمع الإنساني حافظة لمصالحه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ كانت الآية الاولى «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب» الخ؛ تشير الى كفرهم بالنبي ﷺ وكتابه المتضمن للدعوة الحقّة وهذه الآية تشير الى اختلافهم السابق على الدعوة الإسلامية وقد أُشير الى ذلك في مواضع من القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ (آل عمران / ١٩) الى غير ذلك من الآيات.

ومجيء البينة لهم هو البيان النبوي الذي تبين لهم في كتابهم أو أوضحه لهم أنبياؤهم قال تعالى: ﴿ولما جاء عيسى بالبيّنات قال قد جئتكم بالحكمة ولابين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ (الزخرف / ٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ الخ؛ ضمير «امروا» للذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أي لم يتضمن رسالة الرسول ﷺ والكتب القيمة التي في صحف الوحي إلا امرهم بعبادة الله تعالى بقيد الإخلاص في الدين فلا يشركوا به شيئاً.

وقوله: ﴿حُنَفَاءَ﴾ حال من ضمير الجمع وهو جمع حنيف من الحنف وهو الميل عن جانبي الإفراط والتفريط الى حاقّ وسط الاعتدال وقد سمى الله تعالى الإسلام ديناً حنيفاً لأنه يأمر في جميع الامور بلزوم الاعتدال والتحرز عن الإفراط والتفريط.

وقوله: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ من قبيل ذكر الخاص بعد العامّ أو الجزء بعد الكل اهتماماً بأمره فالصلاة والزكاة على أركان الإسلام وهما التوجه العبودي الخاص الى الله وإنفاق المال في الله.

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي دين الكتب القيمة على ما فسروا. والمراد بالكتب القيمة إن كان جميع الكتب السماوية أعني كتاب نوح ومن دونه من الأنبياء ﷺ فالمعنى إن هذا الذي امروا به ودعوا اليه في الدعوة المحمدية هو الدين الذي كلفوا به في كتبهم القيمة وليس بأمر بدع فدين الله واحد وعليهم أن يدينوا به لأنه القيم.

وإن كان المراد به ما كان يتلوه النبي ﷺ من الكتب القيمة التي في الصحف المطهرة فالمعنى أنهم لم يؤمروا في الدعوة الإسلامية إلا بأحكام وقضايا هي القيمة الحافظة لمصالح المجتمع الإنساني فلا يسعهم إلا أن يؤمنوا بها ويتدينوا.

فالآية على أي حال تشير الى كون دين التوحيد الذي يتضمنه القرآن الكريم المصدق لما بين يديه من الكتاب والمهيمن[١] عليه فيما يأمر المجتمع البشري قائماً بأمرهم حافظاً لمصالح

١. سورة المائدة، آية ٤٨.

حياتهم كما يبينه بأوفى البيان قوله تعالى: ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ (الروم / ٣٠).

وبهذه الآية يكمل بيان عموم رسالة النبي ﷺ وشمول الدعوة الإسلامية لعامة البشر فقوله: «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين» الخ: يشير الى أنه كان من الواجب في سنة الهداية الإلهية أن تتم الحجة على من كفر بالدعوة من أهل الكتاب والمشركين، وهؤلاء وإن كانوا بعض أهل الكتاب والمشركين لكن من الضروري أن لا فرق بين البعض والبعض في تعلق الدعوة فتعلقها بالبعض لا ينفك عن تعلقها بالكل.

وقوله: ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ الخ: يشير الى أن تلك البينة محمد ﷺ، وقوله: «وما تفرَّق» الخ: يشير الى أن تفرقهم وكفرهم السابق بالحق أيضاً كان بعد مجيء البينة.

وقوله: «وما امروا إلا ليعبدوا الله» الخ: يفيد أن الذي دعوا اليه وامروا به دين قيم حافظ لمصالح المجتمع البشري فعليهم جميعاً أن يؤمنوا به ولا يكفروا.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ لما فرغ من الإشارة الى كفرهم بالبينة التي كانت توجبها سنة الهداية الإلهية وما كانت تدعو اليه من الدين القيم أخذ في الإنذار والتبشير بوعيد الكفار ووعد المؤمنين، والبرية الخلق، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ فيه قصر الخيرية في المؤمنين الصالحين كما أن في الآية السابقة قصر الشرية في الكفار.

قوله تعالى: ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ـ الى قوله ـ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ العدن الاستقرار والثبات فجنّات عدن جنّات خلود ودوام وتوصيفها بقوله: «خالدين فيها أبداً» تأكيد بما يدل على الاسم.

وقوله: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ الرضى منه تعالى صفة فعل ومصداقه الثواب الذي

أعطاهموه جزاء لإيمانهم وعملهم الصالح.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ علامة مضروبة لسعادة الدار الآخرة وقد قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر / ٢٨) فالعلم بالله يستتبع الخشية منه، والخشية منه تستتبع الإيمان به بمعنى الالتزام القلبي بربوبيته والوهيته ثم العمل الصالح.

واعلم أن لهم في تفسير مفردات هذه الآيات اختلافاً شديداً وأقوالاً كثيرة لا جدوى في التعرض لها من أراد الوقوف عليها فليراجع المطولات.

سورة الزلزال مدنية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا.

٢ • وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا.

٣ • وَقَالَ الإِنسانُ مَا لَهَا.

٤ • يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا.

٥ • بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا.

٦ • يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ.

٧ • فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ.

٨ • وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ.

بيان:

ذكر للقيامة وصدور الناس للجزاء وإشارة الى بعض أشراطها وهي زلزلة الأرض

وتحديثها أخبارها. والسورة تحتمل المكية والمدنية.

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ الزلزال مصدر كالزلزلة، وإضافته الى ضمير الأرض تفيد الاختصاص، والمعنى إذا زلزلت الأرض زلزلتها الخاصة بها فتفيد التعظيم والتفخيم أي إنها منتهية في الشدة والهول.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ الأثقال جمع ثقل بفتحتين بمعنى المتاع أو خصوص متاع المسافر أو جمع ثقل بالكسر فالسكون بمعنى الحمل، وعلى أي حال المراد بأثقالها التي تخرجها، الموتى على ما قيل أو الكنوز والمعادن التي في بطنها أو الجميع ولكل قائل وأول الوجوه أقربها ثم الثالث لتكون الآية إشارة الى خروجهم للحساب، وقوله: «يومئذ يصدر الناس» إشارة الى انصرافهم الى الجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ أي يقول مدهوشاً متعجباً من تلك الزلزلة الشديدة الهائلة: ما للأرض تتزلزل هذا الزلزال، وقيل: المراد بالإنسان الكافر غير المؤمن بالبعث، وقيل غير ذلك كما سيجيء.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ فتشهد على أعمال بني آدم كما تشهد بها أعضاؤهم وكتّاب الأعمال من الملائكة وشهداء الأعمال من البشر وغيرهم.

وقوله: «فأن ربك أوحى لها» اللام بمعنى الى لأن الايحاء يتعدى بإلى والمعنى تحدث أخبارها بسبب أن ربك أوحى اليها أن تحدّث فهي شاعرة بما يقع فيها من الأعمال خيرها وشرها متحملة لها يؤذن لها يوم القيامة بالوحي أن تحدث أخبارها وتشهد بما تحملت، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (الإسراء / ٤٤)، وقوله: ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ (حم السجدة / ٢١)، أن المستفاد من كلامه سبحانه أن الحياة والشعور ساريان في الأشياء وإن كنا في غفلة من ذلك.

وقد اشتد الخلاف بينهم في معنى تحديث الارض بالوحي أهو بإعطاء الحياة والشعور للأرض الميتة حتى تخبر بما وقع فيها أو بخلق صوت عندها وعد ذلك تكلماً منها أو دلالتها بلسان الحال بما وقع فيها من الأعمال، ولا محل لهذا الاختلاف بعدما سمعت ولا أن الحجة تتم على أحد بهذا النوع من الشهادة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ الصدور انصراف الابل عن الماء بعد وروده، وأشتات كشتى جمع شتيت بمعنى المتفرق، والآية جواب بعد جواب لإذا.

والمراد بصدور الناس متفرقين يومئذ انصرافهم عن الموقف الى منازلهم في الجنة والنار وأهل السعادة والفلاح منهم متميزون من أهل الشقاء والهلاك. وإراءتهم أعمالهم إراءتهم جزاء أعمالهم بالحلول فيه أو مشاهدتهم نفس أعمالهم بناء على تجسّم الأعمال.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ المثال ما يوزن به الأثقال، والذرة ما يرى في شعاع الشمس من الهباء، وتقال لصغار النمل.

تفريع على ما تقدم من إراءتهم أعمالهم، فيه تأكيد البيان في أنه لا يستثنى من الاراءة عمل خيراً أو شراً كبيراً أو صغيراً حتى مثقال الذرة من خير أو شر، وبيان حال كل من عمل الخير والشر في جملة مستقلة لغرض إعطاء الضابط وضرب القاعدة.

ولا منافاة بين ما تدل عليه الآيتان من العموم وبين الآيات الدالة على حبط الأعمال، والدالة على انتقال أعمال الخير والشر من نفس الى نفس كحسنات القاتل الى المقتول وسيئات المقتول الى القاتل، والدالة على تبديل السيئات حسنات في بعض التائبين الى غير ذلك مما تقدمت الاشارة اليه في بحث الأعمال في الجزء الثاني من الكتاب وكذا في تفسير قوله: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ الآية (الأنفال / ٣٧).

وذلك لأن الآيات المذكورة حاكمة على هاتين الآيتين فإن من حبط عمله الخير محكوم بأنه لم يعمل خيراً فلا عمل له خيراً حتى يراه وعلى هذا القياس في غيره فافهم.

سورة العاديات مدنية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● وَالعٰادِياتِ ضَبْحاً.

٢ ● فَالمُورِيٰاتِ قَدْحاً.

٣ ● فَالمُغِيرٰاتِ صُبْحاً.

٤ ● فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً.

٥ ● فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً.

٦ ● إِنَّ الإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ.

٧ ● وَإِنَّهُ عَلىٰ ذٰلِكَ لَشَهِيدٌ.

٨ ● وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ.

٩ ● أَفَلاٰ يَعْلَمُ إِذٰا بُعْثِرَ مٰا فِي الْقُبُورِ.

١٠ ● وَحُصِّلَ مٰا فِي الصُّدُورِ.

١١ ● إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ.

بيان:

تذكر السورة كفران الإنسان لنعم ربه وحبه الشديد للخير عن علم منه به وهو حجة عليه وسيحاسب على ذلك.

والسورة مدنية بشهادة ما في صدرها من الاقسام بمثل قوله: «والعاديات ضبحا» الخ؛ الظاهر في خيل الغزاة المجاهدين على ما سيجيء، وإنما شرّع الجهاد بعد الهجرة ويؤيد ذلك ما ورد من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن السورة نزلت في علي عليه السلام وسريته في غزوة ذات السلاسل. ويؤيده أيضاً بعض الروايات من طرق أهل السنة على ما سنشير اليه في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ العاديات من العدو وهو الجري بسرعة والضبح صوت أنفاس الخيل عند عدوها وهو المعهود المعروف من الخيل وإن ادعي أنه يعرض لكثير من الحيوان غيرها. والمعنى أقسم بالخيل اللاتي يعدون يضبحن ضبحاً.

قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ الإيراء إخراج النار والقدح الضرب والصك المعروف يقال: قدح فأورى إذا أخرج النار بالقدح. والمراد بها الخيل تخرج النار بحوافرها إذا عدت على الحجارة والأرض المحصبة.

قوله تعالى: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾ الإغارة والغارة الهجوم على العدو بغتة بالخيل وهي صفة أصحاب الخيل ونسبتها الى الخيل مجاز. والمعنى فاقسم بالخيل الهاجمات على العدو بغتة في وقت الصبح.

قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ أثرن من الإثارة بمعنى تهييج الغبار ونحوه، والنقع الغبار. والمعنى فهيّجن بالعدو والإغارة غباراً.

قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ وسط وتوسّط بمعنى. وضمير «به» للصبح والباء

بمعنى في او الضمير للنقع والباء للملابسة.

والمعنى فصرن في وقت الصبح في وسط جمع والمراد به كتيبة العدو أو المعنى فتوسطن جمعاً ملابسين للنقع.

فالمتعين حملها على خيل الغزاة وسياق الآيات وخاصة قوله: «فالمغيرات صبحا» «فوسطن به جمعا» يعطي أنها غزاة بعينها أقسم الله فيها بخيل المجاهدين العاديات والفاء في الآيات الأربع تدل على ترتب كل منها على ما قبلها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ الكنود الكفور، والآية كقوله: ﴿إن الإنسان لكفور﴾ (الحج / ٦٦). وهو إخبار عمّا في طبع الإنسان من اتباع الهوى والانكباب على عرض الدنيا والانقطاع به عن شكر ربه على ما أنعم عليه.

وفيه تعريض للقوم المغار عليهم، وكأن المراد بكفرانهم كفرانهم بنعمة الإسلام التي أنعم الله بها عليهم وهي أعظم نعمة أُوتوها فيها طيب حياتهم الدنيا وسعادة حياتهم الأبدية الاخرى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ظاهر اتساق الضمائر أن يكون ضمير «وإنه» للإنسان فيكون المراد بكونه شهيداً على كفران نفسه بكفران نفسه علمه المذموم وتحمله له.

فالمعنى وإن الانسان على كفرانه بربه شاهد متحمل فالآية في معنى قوله: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ (القيامة / ١٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ قيل: اللام في «لحب الخير» للتعليل والخير المال، والمعنى وإن الإنسان لأجل حب المال لشديد أي بخيل شحيح، وقيل: المراد أن الانسان لشديد الحب للمال ويدعوه ذلك الى الامتناع من إعطاء حق الله، والإنفاق في الله. كذا فسروا.

ولا يبعد أن يكون المراد بالخير مطلقه ويكون المراد أن حب الخير فطري للإنسان ثم إنه

يرى عرض الدنيا وزينتها خيراً فتنجذب اليه نفسه وينسيه ذلك ربه أن يشكره.

قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ - الى قوله - لَخَبِيرٌ﴾ البعثرة كالبحثرة البعث والنشر، وتحصيل ما في الصدور تمييز ما في باطن النفوس من صفة الايمان والكفر ورسم الحسنة والسيئة قال تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ (الطارق / ٩)، وقيل: هو إظهار ما أخفته الصدور لتجازى على السر كما تجازى على العلانية.

وقوله: ﴿أَفَلاَ يَعْلَمُ﴾ الاستفهام فيه للانكار. ومفعول يعلم جملة قائمة مقام المفعولين يدل عليه المقام. ثم استؤنف فقيل: إذا بعثر ما في القبور، الخ؛ تأكيد للانكار، والمراد بما في القبور الأبدان.

والمعنى - والله أعلم - أفلا يعلم الإنسان أن لكنوده وكفرانه بربه تبعة ستلحقه ويجازى بها، إذا خرج ما في القبور من الأبدان وحصل وميز ما في سرائر النفوس من الايمان والكفر والطاعة والمعصية إن ربهم بهم يومئذ لخبير فيجازيهم بما فيها.

سورة القارعة مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● أَلْقٰارِعَةُ.

٢ ● مَا الْقٰارِعَةُ.

٣ ● وَمٰا أَدْرٰيكَ مَا الْقٰارِعَةُ.

٤ ● يَوْمَ يَكُونُ النّٰاسُ كَالْفَرٰاشِ الْمَبْثُوثِ.

٥ ● وَتَكُونُ الْجِبٰالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ.

٦ ● فَأَمّٰا مَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِينُهُ.

٧ ● فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رٰاضِيَةٍ.

٨ ● وَأَمّٰا مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ.

٩ ● فَأُمُّهُ هٰاوِيَةٌ.

١٠ ● وَمٰا أَدْرٰاكَ مٰاهِيَهْ.

١١ ● نٰارٌ حَامِيَةٌ.

بيان:

إنذار وتبشير بالقيامة يغلب فيه جانب الانذار، والسورة مكية.

قوله تعالى: ﴿أَلْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ مبتدء وخبر، والقارعة من القرع وهو الضرب باعتماد شديد، وهي من أسماء القيامة في القرآن. قيل: سميت بها لأنها تقرع القلوب بالفزع وتقرع أعداء الله بالعذاب.

والسؤال عن حقيقة القارعة في قوله: «ما القارعة» مع كونها معلومة إشارة الى تعظيم أمرها وتفخيمه وأنها لا تكتنه علماً، وقد اكد هذا التعظيم والتفخيم بقوله بعد: «وما أدراك ما القارعة».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ظرف متعلق بفعل مقدر نحو اذكر وتقرع وتأتي، والفراش على ما نقل عن الفراء الجراد الذي ينفرش ويركب بعضه بعضاً وهو غوغاء الجراد. قيل: شبّه الناس عند البعث بالفراش لأن الفراش إذا ثار لم يتجه الى جهة واحدة كسائر الطير وكذلك الناس إذا خرجوا من قبورهم أحاط بهم الفزع فتوجهوا جهات شتى أو توجهوا الى منازلهم المختلفة سعادة وشقاء. والمبثوث من البث وهو التفريق.

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ العهن الصوف ذو ألوان مختلفة، والمنفوش من النفش وهو نشر الصوف بندف ونحوه فالعهن المنفوش الصوف المنتشر ذو ألوان مختلفة إشارة الى تلاشي الجبال على اختلاف ألوانها بزلزلة الساعة.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ إشارة الى وزن الأعمال وأن الأعمال منها ما هو ثقيل في الميزان وهو ما له قدر ومنزلة عند الله وهو الإيمان وأنواع الطاعات، ومنها ما ليس كذلك وهو الكفر وأنواع المعاصي ويختلف القسمان أثراً فيستتبع الثقيل السعادة ويستتبع الخفيف الشقاء، وقد تقدم البحث عن معنى الميزان في تفسير

السور السابقة .

وقوله : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ العيشة بكسر العين كالجلسة بناء نوع ، وتوصيفها براضية - والراضي صاحبها - من المجاز العقلي أو المعنى في عيشة ذات رضى .

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ الظاهر أن المراد بهاوية جهنم وتسميتها بهاوية لهويّ من ألقي فيها أي سقوطه الى أسفل سافلين قال تعالى : ﴿ ثم رددنا أسفل سافلين إلا الذين آمنوا ﴾ (التين / ٦) .

فتوصيف النار بالهاوية مجاز عقلي كتوصيف العيشة بالراضية وعدّ هاوية اماً للداخل فيها لكونها مأوها مرجعه الذي يرجع إليه كما يرجع الولد الى امه .

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ﴾ ضمير هي لهاوية ، والهاء في « هيه » للوقف والجملة تفسير تفيد تعظيم أمر النار وتفخيمه .

قوله تعالى: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ أي حارة شديدة الحرارة وهو جواب الاستفهام في « ماهيه » وتفسير لهاوية .

سورة التكاثر مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ أَلْهٰيكُمُ التَّكٰاثُرُ.

٢ ❁ حَتّٰى زُرْتُمُ المَقٰابِرَ.

٣ ❁ كَلّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ.

٤ ❁ ثُمَّ كَلّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ.

٥ ❁ كَلّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ.

٦ ❁ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ.

٧ ❁ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهٰا عَيْنَ الْيَقِينِ.

٨ ❁ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ.

بيان:

توبيخ شديد للناس على تلهيهم بالتكاثر في الأموال والأولاد والأعضاء وغفلتهم عما

وراءه من تبعة الخسران والعذاب، وتهديد بأنهم سوف يعلمون ويرون ذلك ويسألون عن هذه النعم التي اوتوها ليشكروا فتلهوا بها وبدّلوا نعمة الله كفراً.

والسورة بما لها من السياق تحتمل المكية والمدنية، وسيأتي ما ورد في سبب نزولها في البحث الروائي إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ قال في المفردات: اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه. قال، ويقال: ألهاه كذا أي شغله عما هو أهم اليه، قال تعالى: «ألهاكم التكاثر»، انتهى.

وقال: والمكاثرة والتكاثر التباري في كثرة المال والعز، انتهى. وقال: المقبرة ـ بكسر الميم ـ والمقبرة ـ بفتحها ـ موضع القبور وجمعها مقابر، قال تعالى: «حتى زرتم المقابر» كناية عن الموت؛ انتهى.

فالمعنى على ما يعطيه السياق شغلكم التكاثر في متاع الدنيا وزينتها والتسابق في تكثير العدّة والعدد عما يهمكم وهو ذكر الله حتى لقيتم الموت فعمّتكم الغفلة مدى حياتكم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ردع عن اشتغالهم بما لا يهمهم عما يعنيهم وتخطئة لهم، وقوله: «سوف تعلمون» تهديد معناه على ما يفيده المقام سوف تعلمون تبعة تلهيكم هذا وتعرفونها إذا انقطعتم عن الحياة الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تأكيد للردع والتهديد السابقين، وقيل: المراد بالأول علمهم بها عند الموت وبالثاني علمهم بها عند البعث.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ردع بعد ردع تأكيداً واليقين العلم الذي لا يداخله شك وريب.

وقوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ جواب لو محذوف والتقدير لو تعلمون الأمر علم

اليقين لشغلكم ما تعلمون عن التباهي والتفاخر بالكثرة، وقوله: «لترون الجحيم» استئناف في الكلام، واللام للقسم، والمعنى اقسم لترونّ الجحيم التي جزاء هذا التلهي كذا فسروا.

قالوا: ولا يجوز أن يكون قوله: «لترونَّ الجحيم» جواب لو الامتناعية لأن الرؤية محقق الوقوع وجوابها لا يكون كذلك.

وهذا مبني على أن يكون المراد رؤية الجحيم يوم القيامة كما قال: ﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ (النازعات / ٣٦) وهو غير مسلم بل الظاهر أن المراد رؤيتها قبل يوم القيامة رؤية البصيرة وهي رؤية القلب التي هي من آثار اليقين على ما يشير اليه، قوله تعالى: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ (الأنعام / ٧٥)، وقد تقدم الكلام فيها، وهذه الرؤية القلبية قبل يوم القيامة غير محققة لهؤلاء المتلهين بل ممتنعة في حقهم لامتناع اليقين عليهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ المراد بعين اليقين نفسه، والمعنى لترونها محض اليقين، وهذه بمشاهدتها يوم القيامة، ومن الدليل عليه قوله بعد ذلك: «ثم لتسألن يومئذ عن النعيم» فالمراد بالرؤية الاولى رؤيتها قبل يوم القيامة وبالثانية رؤيتها يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ظاهر السياق أن هذا الخطاب وكذلك الخطابات المتقدمة في السورة للناس بما أن فيهم من اشتغل بنعمة ربه عن ربه فأنساه التكاثر فيها عن ذكر الله، وما في السورة من التوبيخ والتهديد متوجه الى عامة الناس ظاهراً واقع على طائفة خاصة منهم حقيقة وهم الذين ألهاهم التكاثر.

وكذا ظاهر السياق أن المراد بالنعيم مطلقه وهو كل ما يصدق عليه أنه نعمة فالإنسان مسؤول عن كل نعمة أنعم الله بها عليه.

وذلك أن النعمة ـ وهي الأمر الذي يلائم المنعم عليه ويتضمن له نوعاً من الخير والنفع ـ

إنما تكون بالنسبة الى المنعم عليه إذا استعملها بحيث يسعد بها فينتفع وأما لو استعملها على خلاف ذلك كانت نقمة بالنسبة إليه وإن كانت نعمة بالنظر الى نفسها[١].

١. التكاثر ١ ـ ٨: بحث روائي في السؤال عن النعيم يوم القيامة: ما النعيم الذي يسأل عنه.

سورة العصر مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • وَالْعَصْرِ.

٢ • إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ.

٣ • إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ.

بيان:

تلخص السورة جميع المعارف القرآنية وتجمع شتات مقاصد القرآن في أوجز بيان، وهي تحتمل المكية والمدنية لكنها أشبه بالمكية.

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ إقسام بالعصر والأنسب لما تتضمنه الآيتان التاليتان من شمول الخسران للعالم الإنساني إلا لمن اتبع الحق وصبر عليه وهم المؤمنون الصالحون عملاً، أن يكون المراد بالعصر عصر النبيّ ﷺ وهو عصر طلوع الإسلام على المجتمع البشري وظهور

الحق على الباطل.

وقيل: المراد به وقت العصر وهو الطرف الأخير من النهار لما فيه من الدلالة على التدبير الربوبي بإدبار النهار وإقبال الليل وذهاب سلطان الشمس، وقيل: المراد به صلاة العصر وهي الصلاة الوسطى التي هي أفضل الفرائض اليومية، وقيل: الليل والنهار ويطلق عليهما العصران، وقيل: الدهر لما فيه من عجائب الحوادث الدالة على القدرة الربوبية وغير ذلك.

وقد ورد في بعض الروايات أنه عصر ظهور المهدي عليه السلام لما فيه من تمام ظهور الحق على الباطل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ المراد بالإنسان جنسه، والخسر والخسران والخسار والخسارة نقص رأس المال قال الراغب: وينسب ذلك الى الانسان فيقال: خسر فلان والى الفعل فيقال: خسرت تجارته، انتهى. والتنكير في «خسر» للتعظيم ويحتمل التنويع أي في نوع من الخسر غير الخسارات المالية والجاهية قال تعالى: ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ (الزمر / ١٥).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء من جنس الانسان الواقع في الخسر، والمستثنون هم الأفراد المتلبسون بالايمان والأعمال الصالحة فهم آمنون من الخسر.

وذلك أن كتاب الله يبيّن أن للإنسان حياة خالدة مؤبّدة لا تنقطع بالموت وإنما الموت انتقال من دار الى دار كما تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ (الواقعة / ٦١)، ويبين أن شطراً من هذه الحياة وهي الحياة الدنيا حياة امتحانية تتعين بها صفة الشطر الأخير الذي هو الحياة الآخرة المؤبدة من سعادة وشقاء قال تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ (الرعد / ٢٦)، وقال: ﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ (الأنبياء / ٣٥).

ويبين أن مقدميّة هذه الحياة لتلك الحياة إنما هي بمظاهرها من الاعتقاد والعمل فالاعتقاد الحق والعمل الصالح ملاك السعادة الاخروية والكفر والفسوق ملاك الشقاء فيها قال تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى﴾ (النجم / ٤١)، وقال: ﴿من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾ (الروم / ٤٤)، وقال: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ (حم السجدة / ٤٦). وقد سمّى الله تعالى ما سيلقاه الانسان في الآخرة جزاء وأجراً في آيات كثيرة.

ويتبين بذلك كله أن الحياة رأس مال للانسان يكسب به ما يعيش به في حياته الآخرة فإن اتبع الحق في العقد والعمل فقد ربحت تجارته وبورك في مكسبه وأمن الشر في مستقبله، وإن اتبع الباطل وأعرض عن الايمان والعمل الصالح فقد خسرت تجارته وحرم الخير في عقباه وهو قوله تعالى: «إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات».

والمراد بالايمان الايمان بالله ومن الايمان بالله الايمان بجميع رسله والايمان باليوم الآخر فقد نصّ تعالى فيمن لم يؤمن ببعض رسله[1] أو باليوم الآخر أنه غير مؤمن بالله.

وظاهر قوله: «وعملوا الصالحات» التلبس بجميع الأعمال الصالحة فلا يشمل الاستثناء الفساق بترك بعض الصالحات من المؤمنين ولازمه أن يكون الخسر أعم من الخسر في جميع جهات حياته كما في الكافر المعاند للحق المخلد في العذاب. والخسر في بعض جهات حياته كالمؤمن الفاسق الذي لا يخلد في النار وينقطع عنه العذاب بشفاعة ونحوها.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ التواصي بالحق هو أن يوصي بعضهم بعضاً بالحق أي باتباعه والدوام عليه فليس دين الحق إلا اتباع الحق اعتقاداً وعملاً والتواصي بالحق أوسع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشموله الاعتقاديات ومطلق

---

١. النساء: ١٥٠ـ١٥١.

الترغيب والحث على العمل الصالح.

ثم التواصي بالحق من العمل الصالح فذكره بعد العمل الصالح من قبيل ذكر الخاص بعد العام اهتماماً بأمره كما أن التواصي بالصبر من التواصي بالحق وذكره بعده من ذكر الخاص بعد العام اهتماماً بأمره، ويؤكد تكرار ذكر التواصي حيث قال: «وتواصوا بالصبر» ولم يقل: وتواصوا بالحق والصبر.

وعلى الجملة ذكر تواصيهم بالحق وبالصبر بعد ذكر تلبسهم بالإيمان والعمل الصالح للاشارة الى حياة قلوبهم وانشراح صدورهم للإسلام لله فلهم اهتمام خاص واعتناء تام بظهور سلطان الحق وانبساطه على الناس حتى يتبع ويدوم اتباعه قال تعالى: ﴿ **أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله اولئك في ضلال مبين** ﴾ (الزمر / ٢٢).

وقد أُطلق الصبر فالمراد به أعم من الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والصبر عند النوائب التي تصيبه بقضاء من الله وقدر.

سورة الهمزة مكية وهي تسع آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ.

٢ ● الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ.

٣ ● يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ.

٤ ● كَلّاَ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ.

٥ ● وَما أَدْرٰيكَ مَا الْحُطَمَةُ.

٦ ● نارُ اللّٰهِ الْمُوقَدَةُ.

٧ ● الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ.

٨ ● إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ.

٩ ● فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ.

بيان:

وعيد شديد للمغرمين بجمع المال المستعلين به على الناس المستكبرين عليهم فيزرون بهم ويعيبونهم بما ليس بعيب، والسورة مكية.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ قال في المجمع: الهمزة الكثير الطعن على غيره بغير حق العائب له بما ليس بعيب، وأصل الهمز الكسر قال: واللمز العيب أيضاً والهمزة واللمزة بمعنى، وقد قيل: بينهما فرق فإن الهمزة الذي يعيبك بظهر الغيب، واللمزة الذي يعيبك في وجهك. عن الليث.

وقيل: الهمزة الذي يؤذي جليسه بسوء لفظه، واللمزة الذي يكسر عينه على جليسه ويشير برأسه ويومي بعينه. قال: وفُعَلة بناء المبالغة في صفة من يكثر منه الفعل ويصير عادة له تقول: رجل نكحة كثير النكاح وضحكة كثير الضحك وكذا هُمزة ولمزة انتهى.

فالمعنى ويل لكل عيّاب مغتاب، وفسّر بمعان أُخر على حسب اختلافهم في تفسير الهمزة واللمزة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ بيان لهمزة لمزة وتنكير «مالاً» للتحقير فإن المال وإن كثر ما كثر لا يغني عن صاحبه شيئاً غير أن له منه ما يصرفه في حوائج نفسه الطبيعية من أكلة تشبعه وشربة ماء ترويه ونحو ذلك و«عدّده» من العد بمعنى الإحصاء أي إنه لحبه المال وشغفه بجمعه يجمع المال ويعده عداً بعد عد التذاذاً بتكثُّره. وقيل: المعنى جعله عدّة وذخراً لنوائب الدهر.

وقوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي يخلده في الدنيا ويدفع عنه الموت والفناء فالماضي أُريد به المستقبل بقرينة قوله: «يحسب».

فهذا الإنسان لإخلاده الى الأرض وانغماره في طول الأمل لا يقنع من المال بما يرتفع به

حوائج حياته القصيرة وضروريات أيامه المعدودة بل كلما زاد مالا زاد حرصاً الى ما لا نهاية له فظاهر حاله أنه يرى أن المال يخلده، ولحبه الغريزي للبقاء يهتم بجمعه وتعديده، ودعاه ما جمعه وعدده من المال وما شاهده من الاستغناء الى الطغيان والاستعلاء على غيره من الناس كما قال تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ (العلق / ٧)، ويورثه هذا الاستكبار والتعدي الهمز واللمز.

ومن هنا يظهر أن قوله: «يحسب أن ماله أخلده» بمنزلة التعليل لقوله: «الذي جمع مالاً وعدده»، وقوله: «الذي جمع» الخ؛ بمنزلة التعليل لقوله: «ويل لكل همزة لمزة».

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ ردع عن حسبانه الخلود بالمال، واللام في «لينبذن» للقسم، والنبذ القذف والطرح، والحطمة مبالغة من الحطم وهو الكسر وجاء بمعنى الأكل، وهي من أسماء جهنم على ما يفسرها قوله الآتي: «نار الله الموقدة».

والمعنى ليس مخلداً بالمال كما يحسب أُقسم ليموتنّ ويقذفن في الحطمة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ تفخيم وتهويل.

قوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ إيقاد النار إشعالها والاطلاع والطلوع على الشيء الإشراف والظهور، والأفئدة جمع فؤاد وهو القلب، والمراد به في القرآن مبدإ الشعور والفكر من الانسان وهو النفس الإنسانية.

وكأن المراد من اطّلاعها على الأفئدة أنها تحرق باطن الإنسان كما تحرق ظاهره بخلاف النار الدنيوية التي إنما تحرق الظاهر فقط قال تعالى: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ (البقرة / ٢٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي مطبقة لا مخرج لهم منها ولا منجا.

قوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ العمد بفتحتين جمع عمود والتمديد مبالغة في المد قيل: هي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار، وقيل: عمد ممددة يوثقون فيها مثل

المقاطر وهي خشب أو جذوع كبار فيها خروق توضع فيها أرجل المحبوسين من اللصوص وغيرهم، وقيل غير ذلك.

سورة الفيل مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ.

٢ ● أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ.

٣ ● وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ.

٤ ● تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ.

٥ ● فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ.

بيان:

فيها إشارة الى قصة أصحاب الفيل إذ قصدوا مكة لتخريب الكعبة المعظمة فأهلكهم الله بإرسال طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجّيل فجعلهم كعصف مأكول. وهي من آيات الله الجلية التي لا سترة عليها، وقد أرّخوا بها وذكرها الجاهليون في أشعارهم، والسورة مكية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ المراد بالرؤية العلم

الظاهر ظهور الحس، والاستفهام إنكاري، والمعنى ألم تعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، وقد كانت الواقعة عام ولد فيه النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ المراد بكيدهم سوء قصدهم بمكة وإرادتهم تخريب البيت الحرام، والتضليل والإضلال واحد، وجعل كيدهم في تضليل جعل سعيهم ضالاً لا يهتدي الى الغاية المقصودة منه فقد ساروا لتخريب الكعبة وانتهى بهم الى هلاك أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴾ الأبابيل -كما قيل- جماعات في تفرقة زمرة زمرة، والمعنى وأرسل الله على أصحاب الفيل جماعات متفرقة من الطير والآية التي تتلوها عطف تفسير على قوله: «ألم يجعل كيدهم في تضليل».

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أي ترمي أبابيل الطير أصحاب الفيل بحجارة من سجِّيل، وقد تقدم معنى السجِّيل في تفسير قصص قوم لوط.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُم كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ العصف ورق الزرع والعصف المأكول ورق الزرع الذي أُكل حبه أو قشر الحب الذي أُكل لبه والمراد أنهم عادوا بعد وقوع السجيل عليهم أجساداً بلا أرواح أو أن الحجر بحرارته أحرق أجوافهم.

سورة قريش مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● لِإِيلاٰفِ قُرَيْشٍ .

٢ ● إِيلاٰفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتٰاءِ وَالصَّيْفِ .

٣ ● فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذَا الْبَيْتِ .

٤ ● الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ .

بيان:

تتضمن السورة امتناناً على قريش بإيلافهم الرحلتين وتعقبه بدعوتهم الى التوحيد وعبادة رب البيت ، والسورة مكّية .

ولمضمون السورة نوع تعلق بمضمون سورة الفيل ولذا ذهب قوم من أهل السنة الى كون الفيل ولإيلاف سورة واحدة كما قيل بمثله في الضحى وألم نشرح لما بينهما من الارتباط كما نسب ذلك الى المشهور بين الشيعة والحق أن شيئاً مما استندوا إليه لا يفيد ذلك .

أما القائلون بذلك من أهل السنة فإنهم استندوا فيه الى ما روي أن أُبيّ بن كعب لم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة ، وبما روي عن عمرو بن ميمون الأزدي قال : صلّيت المغرب خلف عمر بن الخطاب فقرء في الركعة الاولى والتين وفي الثانية ألم تر ولإيلاف قريش من غير أن يفصل بالبسملة .

وأُجيب عن الرواية الاولى بمعارضتها بما روي أنه أثبت البسملة بينهما في مصحفه ، وعن الثانية بأن من المحتمل على تقدير صحتها أن يكون الراوي لم يسمع قراءتها أو يكون قرأهـا سراً . على أنها معارض بما روي عن النبي ﷺ إن الله فضل قريشاً بسبع خصال وفيها « ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم : لإيلاف قريش » . الحديث على أن الفصل متواتر .

وأما القائلون بذلك من الشيعة فاستندوا فيه الى مـا في المجـمع عـن أبي العباس عـن أحدهما ﷺ قال : ألم تر كيف فعل ربك ولإيلاف قريش سورة واحـدة ، ومـا في التهـذيب باسناده عن العلاء عن زيد الشحّام قال : صلى بنا أبوعبدالله ﷺ الفجر فـقرء الضـحى وألم نشرح في ركعة ، وما في المجمع عن العياشي عن المفضل بن صالح عن أبي عـبدالله ﷺ قـال : سمعته يقول : لا تجمع بين سورتين في ركعة واحـدة إلا الضـحى وألم نـشرح وألم تـر كـيف ولإيلاف قريش ، ورواه المحقق في المعتبر نقلاً من كتاب الجامع لأحمد بن محمد بن أبي نصر عن المفضل مثله .

أما رواية أبي العباس فضعيف لما فيها من الرفع .

وأما رواية الشحام فقد رويت عنه بطريقين آخرين : أحدهما ما في التهذيب باسناده عن ابن مسكان عن زيد الشحام قال : صلى بنا أبو عبدالله ﷺ فقرء بنا بـالضحى وألم نـشرح ، وثانيهما عنه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن زيـد الشـحام قـال : صـلى بـنا أبـو عبدالله ﷺ فقرء في الاولى الضحى وفي الثانية ألم نشرح لك صدرك .

وهذه أعني صحيحة ابن أبي عمير صريحة في قراءة السورتين في ركعتين ولا يبق معها لرواية العلاء ظهور في الجمع بينهما، وأما رواية ابن مسكان فلا ظهور لها في الجمع ولا صراحة، وأما حمل ابن أبي عمير على النافلة فيدفعه قوله فيها: «صلى بنا» فإنه صريح في الجماعة ولا جماعة في نفل.

وأما رواية المفضّل فهي أدل على كونهما سورتين منها على كونهما سورة واحدة حيث قيل: لا تجمع بين سورتين ثم استثني من السورتين الضحى وألم نشرح وكذا الفيل ولإيلاف.

فالحق أن الروايت إن دلت فإنما تدل على جواز القران بين سورتي الضحى وألم نشرح وسورتي الفيل ولإيلاف في ركعة واحدة من الفرائض وهو ممنوع في غيرها، ويؤيده رواية الراوندي في الخرائج عن داود الرقيّ عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث قال: فلما طلع الفجر قام فأذّن وأقام وأقامني عن يمينه وقرء في أول ركعة الحمد والضحى وفي الثانية بالحمد وقل هو الله أحد ثم قنت ثم سلّم ثم جلس.

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ الإلف بكسر الهمزة اجتماع مع التئام كما قاله الراغب ومنه الالفة، وقال في الصحاح: وفلان قد ألف هذا الموضع بالكسر يألفه إلفاً وآلفه إياه غيره، ويقال أيضاً: آلفت الموضع أولفه إيلافاً، انتهى.

وقريش عشيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم ولد النضر بن كنانة المسمى قريشاً، والرحلة حال السير على الراحلة وهي الناقة القوية على السير كما في المجمع، والمراد بالرحلة خروج قريش من مكة للتجارة وذلك أن الحرم واد جديب لا زرع فيه ولا ضرع فكانت قريش تعيش فيه بالتجارة، وكانت لهم في كل سنة رحلتان للتجارة رحلة في الشتاء الى اليمن ورحلة بالصيف الى الشام، وكانوا يعيشون بذلك وكان الناس يحترمونهم لمكان البيت الحرام فلا يتعرضون لهم بقطع طريقهم أو الإغارة على بلدهم الآمن.

وقوله: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ اللام فيه للتعليل، وفاعل الإيلاف هو الله سبحانه

وقريش مفعوله الاول ومفعوله الثاني محذوف يدل عليه ما بعده، وقوله: «إيلافهم رحلة الشتاء والصيف» بدل من إيلاف قريش، وفاعل إيلافهم هو الله ومفعوله الأول ضمير الجمع ومفعوله الثاني رحلة، الخ؛ والتقدير لإيلاف الله قريشاً رحلة الشتاء والصيف.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذَا الْبَيْتِ﴾ الفاء في «فليعبدوا» لتوهّم معنى الشرط أي أيّ شيء كان فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافه أيام الرحلتين أو لتوهم التفصيل أي مهما يكن من شيء فليعبدوا رب هذا البيت، الخ؛ فهو كقوله تعالى: ﴿ولربّك فاصبر﴾ (المدثر / ٧).

ومحصل معنى الآيات الثلاث ليعبد قريش رب هذا البيت لأجل إيلافه إياهم رحلة الشتاء والصيف وهم عائشون بذلك في أمن.

هذا بالنظر الى كون السورة منفصلة عما قبلها ذات سياق مستقل في نفسها، وأما على تقدير كونها جزء من سورة الفيل متمّمة لها فذكروا أن اللام في «لإيلاف» تعليلية متعلقة بمقدر يدل عليه المقام والمعنى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش مضافة الى نعمتنا عليهم في رحلة الشتاء والصيف فكأنه قال: نعمة الى نعمة ولذا قيل: إن اللام مؤدية معنى الى وهو قول الفرّاء.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ إشارة الى ما في إيلافهم الرحلتين من منّه الواضح ونعمته الظاهرة عليهم وهو الإطعام والأمن فيعيشون في أرض لا خصب فيها ولا أمن لغيرهم فليعبدوا رباً يدبر أمرهم أحسن التدبير وهو رب البيت.

سورة الماعون مدنية او مكية وهي سبع آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ.

٢ ● فَذٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ.

٣ ● وَلاٰ يَحُضُّ عَلىٰ طَعٰامِ الْمِسْكِينِ.

٤ ● فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ.

٥ ● الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاٰتِهِمْ سٰاهُونَ.

٦ ● الَّذِينَ هُمْ يُرٰاؤُنَ.

٧ ● وَيَمْنَعُونَ الْمٰاعُونَ.

بيان:

وعيد لمن كان من المنتحلين بالدين متخلقاً بأخلاق المنافقين كالسهو عن الصلاة والرياء في الأعمال ومنع الماعون مما لا يلائم التصديق بالجزاء.

والسورة تحتمل المكية والمدنية، وقيل: نصفها مكي ونصفها مدني.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ الرؤية تحتمل الرؤية البصرية وتحتمل أن تكون بمعنى المعرفة، والخطاب للنبي ﷺ بما أنه سامع فيتوجه الى كل سامع، والمراد بالدين الجزاء يوم الجزاء فالمكذب بالدين منكر المعاد وقيل: المراد به الدين بمعنى الملة.

قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ الدع هو الرد بعنف وجفاء، والفاء في «فذلك» لتوهم معنى الشرط والتقدير أرأيت الذي يكذّب بالجزاء فعرفته بصفاته اللازمة لتكذيبه فإن لم تعرفه فذلك الذي يرد اليتيم بعنف ويجفوه ولا يخاف عاقبة عمله السيىء ولو لم يكذب به لخافها ولو خافها لرحمه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ الحض الترغيب، والكلام على تقدير مضاف أي لا يرغب الناس على إطعام طعام المسكين قيل: إن التعبير بالطعام دون الإطعام للاشعار بأن المسكين كأنه مالك لما يعطى له كما في قوله تعالى: ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ (الذاريات / ١٩) وقيل: الطعام في الآية بمعنى الاطعام.

والتعبير بالحض دون الاطعام لأن الحض أعم من الحض العملي الذي يتحقق بالاطعام.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي غافلون لا يهتمون بها ولا يبالون أن تفوتهم بالكلية أو في بعض الأوقات أو تتأخر عن وقت فضيلتها وهكذا.

وفي الآية تطبيق من يكذب بالدين على هؤلاء المصلين لمكان فاء التفريع ودلالة على أنهم لا يخلون من نفاق لأنهم يكذبون بالدين عملا وهم يتظاهرون بالايمان.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ أي يأتون بالعبادات لمرآة الناس فهم يعملون للناس لا لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ الماعون كل ما يعين الغير في رفع حاجة من حوائج الحياة كالقرض تقرضه والمعروف تصنعه ومتاع البيت تعيره، والى هذا يرجع متفرقات ما فسر به في كلماتهم.

سورة الكوثر مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ.

٢ • فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ.

٣ • إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ.

بيان:

امتنان على النبي ﷺ بإعطائه الكوثر وتطييب لنفسه الشريفة بأن شانئه هو الأبتر، وهي أقصر سورة في القرآن وقد اختلفت الروايات في كون السورة مكية أو مدنية، والظاهر أنها مكية، وذكر بعضهم أنها نزلت مرتين جمعاً بين الروايات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال في المجمع الكوثر فوعل وهو الشيء الذي من شأنه الكثرة، والكوثر الخير الكثير، انتهى.

وقد اختلفت أقوالهم في تفسير الكوثر اختلافاً عجيباً فقيل: هو الخير الكثير، وقيل: نهر

في الجنة، وقيل: حوض النبي ﷺ في الجنة أو في المحشر، وقيل: أولاده، وقيل: أصحابه وأشياعه ﷺ الى يوم القيامة، وقيل: علماء امته ﷺ، وقيل: القرآن وفضائله كثيرة، وقيل: النبوة، وقيل: تيسير القرآن وتخفيف الشرائع، وقيل: الاسلام، وقيل: التوحيد، وقيل: العلم والحكمة، وقل: فضائله ﷺ، وقيل: المقام المحمود، وقيل: هو نور قلبه ﷺ، الى غير ذلك مما قيل؛ وقد نقل عن بعضهم أنه أنهى الأقوال الى ستة وعشرين.

وقد استند في القولين الأولين الى بعض الروايات، وباقي الأقوال لا تخلو من تحكم وكيفما كان فقوله في آخر السورة: «إن شانئك هو الأبتر» ـ وظاهر الأبتر هو المنقطع نسله وظاهر الجملة انها من قبيل قصر القلب ـ ان كثرة ذريته ﷺ هي المرادة وحدها بالكوثر الذي اعطيه النبي ﷺ او المراد بها الخير الكثير وكثرة الذرية مرادة في ضمن الخير الكثير ولولا ذلك لكان تحقيق الكلام بقوله: «إن شانئك هو الأبتر» خالياً عن الفائدة.

وقد استفاضت الروايات أن السورة إنما نزلت فيمن عابه ﷺ بالبتر بعدما مات ابناه القاسم وعبدالله، وبذلك يندفع ما قيل: ان مراد الشانيء بقوله: «أبتر» المنقطع عن قومه أو المنقطع عن الخير فردّ الله عليه بأن هو المنقطع من كل خير.

ولما في قوله: «انا أعطيناك» من الامتنان عليه ﷺ جيء بلفظ المتكلم مع الغير الدال على العظمة، ولما فيه من تطييب نفسه الشريفة أكدت الجملة بإن وعبر بلفظ الإعطاء الظاهر في التمليك.

والجملة لا تخلو من دلالة على أن ولد فاطمة عليها السلام ذريته ﷺ، وهذا في نفسه من ملاحم القرآن الكريم فقد كثر الله تعالى نسله بعده كثرة لا يعادلهم فيها أي نسل آخر مع ما نزل عليهم من النوائب وأفنى جموعهم من المقاتل الذريعة.

قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ ظاهر السياق في تفريع الأمر بالصلاة والنحر على الامتنان في قوله: «إنا أعطيناك الكوثر» انه من شكر النعمة والمعنى إذا مننا عليك بإعطاء

الكوثر فاشكر لهذه النعمة بالصلاة والنحر.

والمراد بالنحر عي ما رواه الفريقان عن النبي ﷺ وعن علي عليه السلام وروته الشيعة عن الصادق عليه السلام وغيره من الأئمة هو رفع اليدين في تكبير الصلاة الى النحر.

وقيل: معنى الآية صل لربك صلاة العيد وانحر البدن، وقيل: يعني صل لربك واستو قائماً عند رفع رأسك من الركوع، وقيل غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ الشانىء هو المبغض والأبتر من لا عقب له وهذا الشانىء هو العاصي بن وائل.

سورة الكافرون مكية وهي ست آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ.

٢ ● لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ.

٣ ● وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ.

٤ ● وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ.

٥ ● وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ.

٦ ● لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ.

بيان:

فيها أمره ﷺ أن يظهر للكفار براءته من دينهم ويخبرهم بامتناعهم من دينه فلا دينه يتعداه إليهم ولا دينهم يتعداهم إليه فلا يعبد ما يعبدون أبداً ولا يعبدون ما يعبد أبداً فلييأسوا من أي نوع من المداهنة والمساهلة.

واختلفوا في كون السورة مكية أو مدنية، والظاهر من سياقها أنها مكية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ الظاهر أن هؤلاء قوم معهودون لا كل كافر ويدل على ذلك أمره ﷺ أن يخاطبهم ببراءته من دينهم وامتناعهم من دينه.

قوله تعالى: ﴿لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الآية الى آخر السورة مقول القول، والمراد بما تعبدون الأصنام التي كانوا يعبدونها. ومفعول «يعبدون» ضمير راجع الى الموصول محذوف لدلالة الكلام عليه ولرعاية الفواصل، وكذا مفاعيل الأفعال التالية «أعبد» و«عبدتم» و«أعبد».

وقوله: ﴿لاَ أَعْبُدُ﴾ نفي استقبالي فإن «لا» لنفي الاستقبال كما أن «ما» لنفي الحال، والمعنى لا أعبد أبداً ما تعبدونه اليوم من الأصنام.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ نفي استقبالي أيضاً لعبادتهم ما يعبده ﷺ وهو اخبار عن امتناعهم عن الدخول في دين التوحيد في مستقبل الأمر.

وبانضمام الأمر الذي في مفتتح الكلام تفيد الآيتان أن الله سبحانه أمرني بالدوام على عبادته وأن أخبركم أنكم لا تعبدونه أبداً فلا يقع بيني وبينكم اشتراك في الدين أبداً.

فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ (يس / ٧)، وقوله: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (البقرة / ٦).

وكان من حق الكلام أن يقال: ولا أنتم عابدون من أعبد. لكن قيل: ما أعبد ليطابق ما في قوله: «لا أعبد ما تعبدون».

قوله تعالى: ﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ تكرار لمضمون الجملتين السابقتين لزيادة التأكيد، كقوله: ﴿كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف

تعلمون﴾ (التكاثر / ٤) وقوله: ﴿فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر﴾ (المدثر / ٢٠)[١].

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ تأكيد بحسب المعنى لما تقدم من نفي الاشتراك، واللام للاختصاص أي دينكم وهو عبادة الأصنام يختص بكم ولا يتعداكم إليّ وديني يختص بي ولا يتعداني إليكم ولا محل لتوهم دلالة الآية على إباحة أخذ كل بما يرتضيه من الدين ولا أنه ﷺ لا يتعرض لدينهم بعد ذلك فالدعوة الحقة التي يتضمنها القرآن تدفع ذلك أساساً.

---

١. الكافرون ١-٦: بحث روائي في نزول سورة الكافرون.

سورة النصر مدنية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللّٰهِ وَالْفَتْحُ.

٢ ● وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللّٰهِ أَفْواجاً.

٣ ● فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوّاباً.

بيان:

وعد له صلى الله عليه وآله وسلم بالنصر والفتح وأنه سيرى الناس يدخلون في الإسلام فوجاً بعد فوج وأمره بالتسبيح حينئذ والتحميد والاستغفار. والسورة مدنية نزلت بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة على ما سنستظهر.

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللّٰهِ وَالْفَتْحُ﴾ ظهور «إذا» المصدّرة بها الآية في الاستقبال يستدعي أن يكون مضمون الآية إخباراً بتحقق أمر لم يتحقق بعد. وإذا كان المخبر به هو النصر والفتح وذلك تقر به عين النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو وعد جميل وبشرى له صلى الله عليه وآله وسلم ويكون من

ملاحم القرآن الكريم.

وليس المراد بالنصر والفتح جنسهما حتى يصدقا على جميع المواقف التي أيد الله فيها نبيه ﷺ على أعدائه وأظهر دينه على دينهم كما في حروبه ومغازيه وإيمان الأنصار وأهل اليمن كما قيل إذ لا يلائمه قوله بعد: «ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً».

وليس المراد بذلك أيضاً صلح الحديبية الذي سماه الله تعالى فتحاً إذ قال: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ (الفتح / ١) لعدم انطباق الآية الثانية بمضمونها عليه.

وأوضح ما يقبل الانطباق عليه النصر والفتح المذكوران في الآية هو فتح مكة الذي هو أم فتوحاته ﷺ في زمن حياته والنصر الباهر الذي انهدم به بنيان الشرك في جزيرة العرب.

ويؤيده وعد النصر الذي في الآيات النازلة في الحديبية ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ (الفتح / ٣) فإن من القريب جداً أن يكون ما في الآيات وعداً بنصر عزيز يرتبط بفتح الحديبية وهو نصره تعالى نبيه ﷺ على قريش حتى فتح مكة بعد مضي سنتين من فتح الحديبية.

وهذا الذي ذكر أقرب من حمل الآية على إجابة أهل اليمن الدعوة الحقة ودخولهم في الإسلام من غير قتال، فالأقرب الى الاعتبار كون المراد بالنصر والفتح نصره تعالى نبيه ﷺ على قريش وفتح مكة، وأن تكون السورة نازلة بعد صلح الحديبية ونزول سورة الفتح وقبل فتح مكة.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ قال الراغب: الفوج الجماعة المارة المسرعة، وجمعه أفواج. انتهى. فمعنى دخول الناس في دين الله أفواجاً دخولهم فيه جماعة بعد جماعة، والمراد بدين الله الإسلام قال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (آل عمران/ ١٩).

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ لما كان هذا النصر والفتح إذلالاً منه تعالى للشرك وإعزازاً للتوحيد وبعبارة أُخرى إبطالاً للباطل وإحقاقاً للحق ناسب من الجهة الاولى تنزيهه تعالى وتسبيحه، وناسب من الجهة الثانية ـ التي هي نعمة ـ الثناء عليه تعالى وحمده فلذلك أمره ﷺ بقوله: «فسبّح بحمد ربك».

وههنا وجه آخر يوجه به الأمر بالتسبيح والتحميد والاستغفار جميعاً وهو أن للرب تعالى على عبده أن يذكره بصفات كماله ويذكر نفسه بما له من النقص والحاجة ولما كان في هذا الفتح فراغه ﷺ من جل ما كان عليه من السعي في إماطة الباطل وقطع دابر الفساد أمر أن يذكره عند ذلك بجلاله وهو التسبيح وجماله وهو التحميد وأن يذكره بنقص نفسه وحاجته الى ربه وهو طلب المغفرة ومعناه فيه ﷺ ـ وهو مغفور ـ سؤال إدامة المغفرة فإن الحاجة الى المغفرة بقاء كالحاجة اليها حدوثاً فافهم ذلك، وبذلك يتم شكره لربه تعالى وقد تقدم[1] كلام في معنى مغفرة الذنب في الأبحاث السابقة[2].

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ تعليل للأمر بالاستغفار لا يخلو من تشويق وتأكيد.

---

١. في آخر الجزء السادس من الكتاب.

٢. النصر ١ ـ ٣: بحث روائي في نزول سورة النصر؛ اوّل سورة نزلت وآخرها؛ قصة فتح مكة.

سورة تبت مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ.

٢ ● مَا أَغْنىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ.

٣ ● سَيَصْلىٰ ناراً ذَاتَ لَهَبٍ.

٤ ● وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ.

٥ ● فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ.

بيان:

وعيد شديد لأبي لهب بهلاك نفسه وعمله وبنار جهنم ولامرأته، والسورة مكية.

قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ التب والتباب هو الخسران والهلاك على ما ذكره الجوهري، ودوام الخسران على ما ذكره الراغب، وقيل: الخيبة، وقيل: الخلو من كل خير، والمعاني ـ كما قيل ـ متقاربة فيد الإنسان هي عضوه الذي يتوصل به الى تحصيل

مقاصده وينسب اليه جل أعماله، وتباب يديه خسرانهما فيما تكتسبانه من عمل وإن شئت فقل: بطلان أعماله التي يعملها بهما من حيث عدم انتهائها الى غرض مطلوب وعدم انتفاعه بشيء منها وتباب نفسه خسرانها في نفسها بحرمانها من سعادة دائمة وهو هلاكها المؤبد.

فقوله: ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي أبو لهب، دعاء عليه بهلاك نفسه وبطلان ما كان يأتيه من الأعمال لإطفاء نور النبوّة أو قضاء منه تعالى بذلك.

وأبو لهب هذا هو أبو لهب بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ كان شديد المعاداة للنبي ﷺ مصراً في تكذيبه مبالغاً في إيذائه بما يستطيعه من قول وفعل وهو الذي قال للنبي ﷺ: تباً لك لما دعاهم الى الإسلام لأول مرة فنزلت السورة ورد الله التباب عليه.

وذكر بعضهم أن أبا لهب اسمه وإن كان في صورة الكنية. وقيل: اسمه عبد العزى وقيل: عبد مناف وأحسن ما قيل في ذكره في الآية بكنيته لا باسمه أن في ذلك تهكماً به لأن أبا لهب يشعر بالنسبة الى لهب النار كما يقال: أبو الخير وأبو الفضل وأبو الشر في النسبة الى الخير والفضل والشر فلما قيل: «سيصلى ناراً ذات لهب» فهم منه أن قوله: «تبت يدا أبي لهب» في معنى قولنا: تبت يدا جهنمي يلازم لهبها.

وقيل: لم يذكر باسمه وهو عبد العزى لأن عزّى اسم صنم فكره أن يعد بحسب اللفظ عبداً لغير الله وهو عبد الله وإن كان الاسم إنما يقصد به المسمى.

قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ ما الاولى نافية وما الثانية موصولة ومعنى «ما كسب» الذي كسبه بأعماله وهو أثر أعماله أو مصدرية والمعنى كسبه بيديه وهو عمله، والمعنى ما أغنى عنه عمله.

ومعنى الآية على أي حال لم يدفع عنه ماله ولاعمله ـ أو أثر عمله ـ تباب نفسه ويديه الذي كتب عليه أو دعي عليه.

قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي سيدخل ناراً ذات لهب وهي نار جهنم

الخالدة، وفي تنكير لهب تفخيم له وتهويل.

قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ عطف على ضمير الفاعل المستكن في «سيصلى» والتقدير: وستصلى امرأته، الخ: و«حمالة الحطب» بالنصب وصف مقطوع عن الوصفية للذم أي أذم حمالة الحطب، وقيل: حال من «امرأته» وهو معنى لطيف على ما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ المسد حبل مفتول من الليف، والجملة حال ثانية من امرأته.

والظاهر أن المراد بالآيتين أنها ستتمثل في النار التي تصلاها يوم القيامة في هيئتها التي كانت تتلبس بها في الدنيا وهي أنها كانت تحمل اغصان الشوك وغيرها تطرحها بالليل في طريق رسول الله ﷺ تؤذيه بذلك فتعذب بالنار وهي تحمل الحطب وفي جيدها حبل من مسد.

قال في مجمع البيان: وإذا قيل: هل كان يلزم أبا لهب الإيمان بعد هذه السورة وهل كان يقدر على الايمان ولو آمن لكان فيه تكذيب خبر الله سبحانه بأنه سيصلى ناراً ذات لهب.

فالجواب أن الايمان يلزمه لأن تكليف الايمان ثابت عليه وإنما توعده الله بشرط أن لا يؤمن انتهى موضع الحاجة.

أقول: مبنى الاشكال على الغفلة من أن تعلق القضاء الحتمي منه تعالى بفعل الانسان الاختياري لايستوجب بطلان الاختيار واضطرار الانسان على الفعل فان الإرادة الإلهية ـ وكذا فعله تعالى ـ إنما يتعلق بفعله الاختياري على ما هو عليه أي أن يفعل الإنسان باختياره كذا وكذا فلو لم يقع الفعل اختيارياً تخلف مراده تعالى عن إرادته وهو محال وإذا كان الفعل المتعلق للقضاء الموجب اختيارياً كان تركه أيضاً اختيارياً وإن كان لا يقع فافهم وقد تقدم هذا البحث في غير موضع من المباحث السابقة.

فقد ظهر بذلك أن أبا لهب كان في اختياره أن يؤمن وينجو بذلك عن النار التي كان من المقضي المحتوم أن يدخلها بكفره.

ومن هذا الباب الآيات النازلة في كفار قريش أنهم لا يؤمنون كقوله: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (البقرة / ٦)، وقوله: ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ (يس / ٧)، ومن هذا الباب أيضاً آيات الطبع الى القلوب[1].

---

١. تبت ١ ـ ٥: بحث روائي حول قوله تعالى: «وانذر عشيرتك الاقربين» ايذاء ابي لهب رسول الله.

سورة الإخلاص مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ.

٢ ● اللّٰهُ الصَّمَدُ.

٣ ● لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ.

٤ ● وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ.

بيان:

السورة تصفه تعالى بأحدية الذات ورجوع ما سواه اليه في جميع حوائجه الوجودية من دون أن يشاركه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. وهو التوحيد القرآني الذي يختص به القرآن الكريم ويبني عليه جميع المعارف الاسلامية.

وقد تكاثرت الأخبار في فضل السورة حتى ورد من طرق الفريقين انها تعدل ثلث القرآن كما سيجيء إن شاء الله.

والسورة تحتمل المكية والمدنية، والظاهر من بعض ما ورد في سبب نزولها أنها مكية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو ضمير الشأن والقصة يفيد الاهتمام بمضمون الجملة التالية له، والحلق أن لفظ الجلالة علم بالغلبة له تعالى بالعربية كما أن له في غيرها من اللغات اسماً خاصاً به، وقد تقدم بعض الكلام فيه في تفسير سورة الفاتحة.

وأحد وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد غير أن الأحد إنما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجاً ولا ذهناً ولذلك لا يقبل العد ولا يدخل في العدد بخلاف الواحد فإن كل واحد له ثانياً وثالثاً إما خارجاً وإما ذهناً بتوهم أو بفرض العقل فيصير بانضمامه كثيراً، وأما الأحد فكل ما فرض له ثانياً كان هو هو لم يزد عليه شيء.

واعتبر ذلك في قولك: ما جاءني من القوم أحد فإنك تنفي به مجيء اثنين منهم وأكثر كما تنفي مجيء واحد منهم بخلاف ما لو قلت: ما جاءني واحد منهم فإنك إنما تنفي به مجيء واحد منهم بالعدد ولا ينافيه مجيء اثنين منهم أو أكثر، ولإفادته هذا المعنى لا يستعمل في الإيجاب مطلقاً إلا فيه تعالى ومن لطيف البيان في هذا الباب قول علي عليه أفضل السلام في بعض خطبه في توحيده تعالى: كل مسمى بالوحدة غيره قليل، وقد أوردنا طرفاً من كلامه عليه السلام في التوحيد في ذيل البحث عن توحيد القرآن في الجزء السادس من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ الأصل في معنى الصمد القصد أو القصد مع الاعتماد يقال: صمده يصمده صمداً من باب نصر أي قصده أو قصده معتمداً عليه، وقد فسروا الصمد ـ وهو صفة ـ بمعاني متعددة مرجع اكثرها الى انه السيد المصمود إليه اي المقصود في الحوائج، واذا اطلق في الآية ولم يقيد بقيد فهو المقصود في الحوائج على الإطلاق.

واذا كان الله تعالى هو الموجد لكل ذي وجود مما سواه يحتاج اليه فيقصده كل ما صدق عليه انه شيء غيره، في ذاته وصفاته وآثاره قال تعالى: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ (الأعراف / ٥٤) وقال واطلق: ﴿وان الى ربك المنتهى﴾ (النجم / ٤٢) فهو الصمد في كل حاجة في

الوجود لا يقصد شيئاً إلا وهو الذي ينتهي اليه قصده وينجح به طلبته ويقضي به حاجته.

ومن هنا يظهر وجه دخول اللام في الصمد وانه لإفادة الحصر فهو تعالى وحده الصمد على الإطلاق، وهذا بخلاف احد في قوله: «الله احد» فإن احداً بما يفيده من معنى الوحدة الخاصة لا يطلق في الإثبات على غيره تعالى فلا حاجة فيه الى عهد او حصر.

واما إظهار اسم الجلالة ثانياً حيث قيل «الله الصمد» ولم يقل: هو الصمد، ولم يقل: الله احد صمد فالظاهر ان ذلك للإشارة الى كون كل من الجملتين وحدها كافية في تعريفه تعالى حيث إن المقام مقام تعريفه تعالى بصفة تختص به فقيل: الله احد الله الصمد إشارة الى ان المعرفة به حاصلة سواء قيل كذا او قيل كذا.

والآيتان مع ذلك تصفانه تعالى بصفة الذات وصفة الفعل جميعاً فقوله: «الله احد» يصفه بالأحدية التي هي عين الذات، وقوله: «الله الصمد» يصفه بانتهاء كل شيء اليه وهو من صفات الفعل.

وقيل: الصمد بمعنى للصمت الذي ليس بأجوف فلا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يلد ولا يولد وعلى هذا يكون قوله: «لم يلد ولم يولد» تفسيراً للصمد.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ الآيتان الكريمتان تنفيان عنه تعالى أن يلد شيئاً بتجزية في نفسه فينفصل عنه شيء سنخه بأي معنى أُريد من الانفصال والاشتقاق كما يقول به النصارى في المسيح عليه السلام انه ابن الله وكما يقول الوثنية في بعض آلهتهم أنهم أبناء الله سبحانه.

وتنفيان عنه أن يكون متولداً من شيء آخر ومشتقاً منه بأي معنى اريد من الاشتقاق كما يقول الوثنية في آلهتهم من هو إله أبو إله ومن هو إلهة ام إله ومن هو إله ابن إله.

وتنفيان أن يكون له كفؤ يعدله في ذاته أو في فعله[١] وهو الإيجاد والتدبير ولم يقل أحد من المليين وغيرهم بالكفؤ الذاتي بأن يقول بتعدد واجب الوجود عز اسمه. وأما الكفؤ في فعله وهو التدبير فقد قيل به كآلهة الوثنية من البشر كفرعون ونمرود من المدعين للالوهية وملاك الكفاؤة عندهم استقلال من يرون الوهيته في تدبير ما فوّض اليه تدبيره كما أنه تعالى مستقل في تدبيره من يدبره وهم الأرباب والآلهة وهو رب الأرباب وإله الآلهة.

وفي معنى كفاءة هذا النوع من الإله ما يفرض من استقلال الفعل في شيء من الممكنات فإنه كفاءة مرجعها استغناؤه عنه تعالى وهو محتاج من كل جهة والآية تنفيها.

وهذه الصفات الثلاث المنفية وإن امكن تفريع نفيها على صفة احديته تعالى بوجه لكن الأسبق الى الذهن تفرعها على صفة صمديته.

اما كونه لم يلد فإن الولادة التي هي نوع من التجزي والتبعيض بأي معنى فسّرت لا تخلو من تركيب فيمن يلد، وحاجة المركّب الى اجزائه ضرورية والله سبحانه صمد ينتهي اليه كل محتاج في حاجته ولا حاجة له، واما كونه لم يولد فان تولّد شيء من شيء لا يتم إلا مع حاجة من المتولد الى ما ولد منه في وجوده وهو سبحانه صمد لا حاجة له، واما انه لا كفؤ له فلأن الكفؤ سواء فرض كفواً له في ذاته او في فعله لا تتحقق كفاءته إلا مع استقلاله واستغنائه عنه تعالى فيما فيه الكفاءة والله سبحانه صمد على الإطلاق يحتاج اليه كل من سواه من كل جهة مفروضة.

فقد تبين ان ما في الآيتين من النفي متفرع على صمديته تعالى ومآل ما ذكر من صمديته تعالى وما يتفرع عليه الى إثبات توحده تعالى في ذاته وصفاته وافعاله بمعنى انه واحد لا يناظره شيء ولا يشبهه فذاته تعالى بذاته ولذاته من غير استناد الى غيره واحتياج الى من

---

١. لم نذكر الصفة لانها اما صفة الذات فهي عين الذات واما صفة الفعل منتزعة عن الفعل، منه.

سواه وكذا صفاته وافعاله، وذوات من سواه وصفاتهم وافعالهم بإفاضة منه عـلى مـا يـليق بساحة كبريائه وعظمته فحصل الشورة وصفه تعالى بأنه حد واحد[1].

١. الاخلاص ١ ـ ٤: بحث روائي حول نزول سورة الاخلاص؛ فضل سورة الاخلاص؛ الاسم الاعـظم؛ الصـمد؛ سؤال اهل البصرة من الحسين بن علي عليهما السلام في معنى الصمد وجوابه عليه السلام معنى لم يلد ولم يولد.

سورة الفلق مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ.

٢ ❁ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ.

٣ ❁ وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ.

٤ ❁ وَمِنْ شَرِّ النَّفّاثاتِ فِي العُقَدِ.

٥ ❁ وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ.

بيان:

أمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يعوذ بالله من كل شر ومن بعضه خاصة والسورة مدنية على ما يظهر مما ورد في سبب نزولها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾ العوذ هو الاعتصام والتحرز من الشر بالالتجاء الى من يدفعه. والفلق بالفتح فالسكون الشق والفرق. والفلق بفتحتين صفة مشبهة

بمعنى المفعول كالقصص بمعنى المقصوص، والغالب إطلاقه على الصبح لأنه المشقوق من الظلام، وعليه فالمعنى أعوذ برب الصبح الذي يفلقه ويشقه ومناسبة هذا التعبير للعوذ من الشر الذي يستر الخير ويحجب دونه ظاهر.

وقيل: المراد بالفلق كل ما يفطر ويفلق عنه بالخلق والإيجاد فإن في الخلق والإيجاد شقاً للعدم وإخراجاً للموجود الى الوجود فيكون مساوياً للمخلوق، وقيل هو جب في جهنم ويؤيده بعض الروايات.

قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شر من يحمل شراً من الإنس والجن والحيوانات وسائر ماله شر من الخلق فان اشتمال مطلق ما خلق على الشر لا يستلزم الاستغراق.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ في الصحاح: الغسق أول ظلمة الليل، غسق الليل يغسق إذا أظلم والغاسق الليل إذا غاب الشفق. انتهى، والوقوب الدخول فالمعنى ومن شر الليل إذا دخَل بظلمته. ونسبة الشر الى الليل إنما هي لكونه بظلمته يعين الشرير في شره لستره عليه فيقع فيه الشر اكثر مما يقع منه بالنهار، والإنسان فيه أضعف منه في النهار تجاه هاجم الشر، وقيل: المراد بالغاسق كل هاجم يهجم بشره كائناً ما كان.

وذكر شر الليل اذا دخل بعد ذكر شر ما خلق من ذكر الخاص بعد العام لزيادة الاهتمام وقد اهتم في السورة بثلاثة من أنواع الشر خاصة هي شر الليل اذا دخل وشر سحر السحرة وشر الحاسد إذا حسد لغلبة الغفلة فيهن.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أي النساء الساحرات اللاتي يسحرن بالعقد على المسحور وينفثن في العقد. وخصت النساء بالذكر لأن السحر كان فيهن ومنهن أكثر من الرجال، وفي الآية تصديق لتأثير السحر في الجملة، ونظيرها قوله تعالى: في قصة هاروت وماروت ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من

أحد إلا بإذن الله﴾ (البقرة / ١٠٢) ونظيره ما في قصة سحرة فرعون.

وقيل: المراد بالنفاثات في العقد النساء اللاتي يملن آراء أزواجهن الى ما يـريـنه ويـردنه فالعقد هو الرأي والنفث في العقد كناية عن حله، وهو بعيد.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي اذا تلبس بالحسد وعمل بما في نفسه من الحسد بترتيب الأثر عليه.

وقيل: الآية تشمل العائن فعين العائن نوع حسد نفساني يتحقق منه اذا عاين ما يستكثره ويتعجب منه[1].

---

١. الفلق ١ ـ ٤: بحث روائي في نزول المعوذتين.

سورة الناس مدنية وهي ست آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ.

٢ ● مَلِكِ النَّاسِ.

٣ ● إِلٰهِ النَّاسِ.

٤ ● مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ.

٥ ● الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ.

٦ ● مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ.

بيان:

أمر للنبي ﷺ أن يعوذ بالله من شر الوسواس الخناس والسورة مدنية كسابقتها على ما يستفاد مما ورد في سبب نزولها بل المستفاد من الروايات أن السورتين نزلتا معا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلٰهِ النَّاسِ﴾ من طبع الإنسان

إذا أقبل عليه شر يحذره ويخافه على نفسه وأحس من نفسه الضعف أن يلتجيء بمن يقوى على دفعه ويكفيه وقوعه والذي يراه صالحاً للعوذ والاعتصام به أحد ثلاثة إما رب يلي أمره ويدبره ويربيه يرجع إليه في حوائجه عامة، ومما يحتاج إليه في بقائه دفع ما يهدده من الشر، وهذا سبب تام في نفسه، وإما ذو قوة وسلطان بالغة قدرته نافذ حكمه يجيره إذا استجاره فيدفع عنه الشر بسلطته كملك من الملوك، وهذا أيضاً سبب تام مستقل في نفسه.

وهناك سبب ثالث وهو الإله المعبود فإن لازم معبودية الإله وخاصة إذا كان واحداً لا شريك له إخلاص العبد نفسه له فلا يدعو إلا إياه ولا يرجع في شيء من حوائجه إلا إليه فلا يريد إلا ما أراده ولا يعمل إلا ما يشاؤه.

والله سبحانه رب الناس وملك الناس وإله الناس كما جمع الصفات الثلاث لنفسه في قوله: ﴿ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون﴾ (الزمر / ٦) وأشار تعالى الى سببية ربوبيته وأُلوهيته بقوله: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا﴾ (المزمل / ٩)، والى سببية ملكه بقوله: ﴿له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الامور﴾ (الحديد / ٥) فإن عاذ الإنسان من شر يهدده الى رب فالله سبحانه هو الرب لا رب سواه وإن أراد بعوذه ملكا فالله سبحانه هو الملك الحق له الملك وله الحكم[1] وإن أراد لذلك إلهاً فهو الإله لا إله غيره.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ الخ: أمر لنبيه ﷺ أن يعوذ به لأنه من الناس وهو تعالى رب الناس ملك الناس إله الناس.

ومما تقدم ظهر أولاً وجه تخصيص الصفات الثلاث: الرب والملك والإله من بين سائر صفاته الكريمة بالذكر وكذا وجه ما بينها من الترتيب فذكر الرب أولاً لأنه أقرب من الإنسان

---

١. التغابن: ١.

وأخص ولاية ثم الملك لأنه أبعد منالاً وأعم ولاية يقصده من لا ولي له يخصّه ويكفيه ثم الإله لأنه ولي يقصده الإنسان عن إخلاصه لا عن طبعه المادي.

وثانياً وجه عدم وصل قوله: «ملك الناس إله الناس» بالعطف وذلك للاشارة الى كون كل من الصفات سبباً مستقلاً في دفع الشر فهو تعالى سبب مستقل لكونه رباً لكونه ملكاً لكونه إلهاً فله السببية بأي معنى أُريد السبب وقد مر نظير الوجه في قوله: «الله أحد الله الصمد».

وبذلك يظهر أيضاً وجه تكرار لفظ الناس من غير أن يقال: ربهم وإلههم فقد أُشير به الى أن كلا من الصفات الثلاث يمكن أن يتعلق بها العوذ وحدها من غير ذكر الاخريين لاستقلالها ولله الأسماء الحسنى جميعاً. وللقوم في توجيه اختصاص هذه الصفات وسائر ما مر من الخصوصيات وجوه لا تغني شيئاً.

قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ قال في المجمع: الوسواس حديث النفس بما هو كالصوت الخفي انتهى فهو مصدر كالوسوسة كما ذكره وذكروا أنه سماعي والقياس فيه كسر الواو كسائر المصادر من الرباعي المجرد وكيف كان فالظاهر كما استظهر أن المراد به المعنى الوصفي مبالغة، وعن بعضهم أنه صفة لا مصدر.

والخنّاس صيغة مبالغة من الخنوس بمعنى الاختفاء بعد الظهور قيل: سمي الشيطان خناساً لأنه يوسوس للإنسان فاذا ذكر الله تعالى رجع وتأخر ثم إذا غفل عاد الى وسوسته.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ صفة للوسواس الخناس، والمراد بالصدور هي النفوس لأن متعلق الوسوسة هو مبدء الإدراك من الإنسان وهو نفسه وإنما أُخذت الصدور مكاناً للوسواس لما أن الإدراك ينسب بحسب شيوع الاستعمال الى القلب والقلب في الصدر كما قال تعالى: ﴿ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ (الحج / ٤٦).

قوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان للوسواس الخناس وفيه اشارة الى أن من الناس من هو ملحق بالشياطين وفي زمرتهم كما قال تعالى: ﴿شياطين الانس والجن﴾ (الأنعام / ١١٢).

تم الكتاب والحمد لله واتفق الفراغ من تأليفه في ليلة القدر المباركة
الثالثة والعشرين من ليالي شهر رمضان من شهور سنة
اثنتين وتسعين وثلاث مائة بعد الألف من الهجرة
والحمد لله على الدوام، والصلاة على
سيدنا محمد وآله
والسلام.